مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

كتاب
المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار
المعروف بالخطط المقريزية

تأليف

تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر

العبيدي المقريزي

المتوفى سنة ٨٤٥هـ

وضع حواشيه

خليل المنصور

الجزء الأول

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

كاتب:

احمد بن على مقريزى

نشرت فى الطباعة:

دارالكتب العلميئ

رقمى الناشر:

مركز القائميئ باصفهان للتحريات الكمبيوتريئ

الفهرس

الفهرس ----- ۵

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، المجلد ۱ ----- ۱۲

اشارة ----- ۱۲

الجزء الاول ----- ۱۲

تقديم ----- ۱۲

[مقدمة المؤلف ----- ۱۳

ذكر الرءوس الثمانية ----- ۱۵

اشارة ----- ۱۵

ذكر طرف من هيئة الأفلاك ----- ۱۷

ذكر صورة الأرض و موضع الأقاليم منها ----- ۲۱

ذكر محل مصر من الأرض و موضعها من الأقاليم السبعة ----- ۲۸

ذكر حدود مصر و جهاتها ----- ۲۹

اشارة ----- ۲۹

ذكر بحر القلزم ----- ۳۰

ذكر البحر الرومى ----- ۳۱

ذكر اشتقاق مصر و معناها و تعداد أسمائها ----- ۳۳

ذكر طرف من فضائل مصر ----- ۳۸

ذكر العجائب التى كانت بمصر من الطلسمات و البرابى و نحو ذلك ----- ۴۸

ذكر الدفائن و الكنوز التى تسميها أهل مصر المطالب ----- ۵۹

ذكر هلاك أموال أهل مصر ----- ۶۱

ذكر أخلاق أهل مصر و طبائعهم و أمزجتهم ----- ۶۲

ذكر شىء من فضائل النيل ----- ۷۲

اشارة ----- ۷۲

ذکر مخرج النیل و انبعاثه ----- ۷۳
فصل فی الردّ علی من اعتقد أن النیل من سیل یفیض ----- ۷۸
ذکر مقاییس النیل و زیادته ----- ۸۱
ذکر الجسر الذی کان یعبر علیه فی النیل ----- ۸۶
ذکر ما قیل فی ماء النیل من مدح و ذم ----- ۸۶
ذکر عجائب النیل ----- ۹۰
ذکر طرف من تقدمهٔ المعرفهٔ بحال النیل فی کل سنهٔ ----- ۹۳
ذکر عید الشهید ----- ۹۴
ذکر الخلجان التی شقت من النیل ----- ۹۶
اشارهٔ ----- ۹۶
ذکر ما کانت علیه أرض مصر فی الزمن الأوّل ----- ۹۸
اشارهٔ ----- ۹۸
ذکر أعمال الدیار المصریهٔ و کورها ----- ۹۹
ذکر ما کان یعمل فی أراضی مصر من حفر الترع و عمارهٔ الجسور و نحو ذلک من أجل ضبط ماء النیل و تصریفه فی أوقاته ----- ۱۰۱
ذکر مقدار خراج مصر فی الزمن الأوّل ----- ۱۰۳
اشارهٔ ----- ۱۰۳
ذکر ما عمله المسلمون عند فتح مصر فی الخراج و ما کان من أمر مصر فی ذلک مع القبط ----- ۱۰۴
ذکر انتقاض القبط و ما کان من الأحداث فی ذلک ----- ۱۰۸
ذکر نزول العرب بریف مصر و اتخاذهم الزرع معاشا و ما کان فی نزولهم من الأحداث ----- ۱۰۹
ذکر قبالات أراضی مصر بعد ما فشا الإسلام فی القبط و نزول العرب فی القری و ما کان من ذلک إلی الروک الأخیر الناصری ----- ۱۱۱
ذکر الروک الأخیر الناصری ----- ۱۱۸
ذکر الدیوان ----- ۱۲۲
اشارهٔ ----- ۱۲۲
ذکر دیوان العساکر و الجیوش ----- ۱۲۳

ذكر القطائع و الإقطاعات ----- ۱۲۸
ذكر ديوان الخراج و الأموال ----- ۱۳۱
اشارة ----- ۱۳۱
ذكر خراج مصر فى الإسلام ----- ۱۳۲
ذكر أصناف أراضى مصر و أقسام زراعتها ----- ۱۳۴
ذكر أقسام مال مصر ----- ۱۳۸
ذكر الأهرام ----- ۱۴۸
اشارة ----- ۱۴۸
ذكر الصنم الذى يقال له أبو الهول ----- ۱۶۱
ذكر الجبال ----- ۱۶۳
اشارة ----- ۱۶۳
ذكر الجبل المقطم ----- ۱۶۳
الجبل الأحمر ----- ۱۶۵
جبل يشكر ----- ۱۶۵
ذكر الرّصد ----- ۱۶۶
ذكر مدائن أرض مصر ----- ۱۶۹
اشارة ----- ۱۶۹
ذكر مدينة أمسوس و عجائبها و ملوكها ----- ۱۷۰
ذكر مدينة منف و ملوكها ----- ۱۷۶
ذكر مدينة الإسكندرية ----- ۱۸۸
اشارة ----- ۱۸۸
ذكر الإسكندر ----- ۱۹۶
ذكر تاريخ الإسكندر ----- ۱۹۸
ذكر الفرق بين الإسكندر و ذى القرنين و أنهما رجلان ----- ۱۹۹

ذكر من ولى الملك بالإسكندرية بعد الإسكندر ----- ۲۰۱

ذكر منارة الإسكندرية ----- ۲۰۳

ذكر الملعب الذى كان بالإسكندرية و غيره من العجائب ----- ۲۰۶

ذكر عمود السوارى ----- ۲۰۷

ذكر طرف مما قيل فى الإسكندرية ----- ۲۱۱

ذكر فتح الإسكندرية ----- ۲۱۲

ذكر ما كان من فعل المسلمين بالإسكندرية و انتقاض الروم ----- ۲۱۷

ذكر بحيرة الإسكندرية ----- ۲۲۰

ذكر خليج الإسكندرية ----- ۲۲۰

ذكر جمل حوادث الإسكندريّة ----- ۲۲۳

ذكر مدينة أتريب ----- ۲۲۷

ذكر مدينة تنيس ----- ۲۲۸

ذكر مدينة صا ----- ۲۳۵

رمل الغرابى ----- ۲۳۶

ذكر مدينة بلبيس ----- ۲۳۷

ذكر بلد الورادة ----- ۲۳۷

ذكر مدينة أيلة ----- ۲۳۸

ذكر مدينة مدين ----- ۲۴۱

اشارة ----- ۲۴۱

بقية خبر مدينة مدين ----- ۲۴۳

ذكر مدينة فاران ----- ۲۴۳

ذكر أرض الجفار ----- ۲۴۴

ذكر صعيد مصر ----- ۲۴۴

ذكر الجنادل و لمع من أخبار أرض النّوبة ----- ۲۴۶

اشارة ۲۴۶
ذكر تشعب النيل من بلاد علوة و من يسكن عليه من الأمم ۲۴۷
ذكر البجة و يقال إنهم من البربر ۲۵۰
ذكر مدينة أسوان ۲۵۵
اشارة ۲۵۵
ذكر بلاق ۲۵۷
ذكر حائط العجوز ۲۵۷
ذكر البقط ۲۵۷
ذكر صحراء عيذاب ۲۶۰
ذكر مدينة الأقصر ۲۶۱
ذكر البلينا ۲۶۲
ذكر سمهود ۲۶۲
ذكر إرجنّوس ۲۶۲
ذكر أبويط ۲۶۲
ذكر ملوى ۲۶۲
ذكر مدينة أنصنا ۲۶۲
ذكر دروط بلهاسة ۲۶۴
ذكر سكر ۲۶۴
ذكر منية الخصيب ۲۶۴
ذكر منية الناسک ۲۶۴
ذكر الجيزة ۲۶۵
ذكر قرية ترسا ۲۶۷
ذكر منية أندونة ۲۶۷
ذكر وسيم ۲۶۷

ذكر منية عقبة ----- ۲۶۸

ذكر حلوان ----- ۲۶۸

ذكر مدينة العريش ----- ۲۷۱

ذكر مدينة الفرماء ----- ۲۷۲

ذكر مدينة القلزم ----- ۲۷۳

ذكر التيه ----- ۲۷۴

ذكر مدينة دمياط ----- ۲۷۴

ذكر شطا ----- ۲۸۹

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر و دمشق ----- ۲۹۰

ذكر مدينة حطين ----- ۲۹۱

ذكر مدينة الرقة ----- ۲۹۱

ذكر عين شمس ----- ۲۹۲

المنصورة ----- ۲۹۶

العباسة ----- ۲۹۶

ذكر مدينة قفط بصعيد مصر ----- ۲۹۷

ذكر مدينة دندرة ----- ۲۹۹

ذكر الواحات الداخلة ----- ۲۹۹

ذكر مدينة سنتريّة ----- ۳۰۰

ذكر الواحات الخارجة ----- ۳۰۱

ذكر مدينة قوص ----- ۳۰۲

ذكر مدينة أسنا ----- ۳۰۳

ذكر مدينة أدفو ----- ۳۰۳

إهناس ----- ۳۰۳

ذكر مدينة البهنسا ----- ۳۰۳

ذكر مدينة الأشمونين ---- ۳۰۵

ذكر مدينة إخميم ---- ۳۰۶

ذكر مدينة العقاب ---- ۳۰۷

ذكر مدينة الفيوم ---- ۳۰۹

اشارة ---- ۳۰۹

ذكر ما قيل فى الفيوم و خلجانها و ضياعها ---- ۳۱۶

ذكر فتح الفيوم و مبلغ خراجها و ما فيها من المرافق ---- ۳۱۸

مدينة النحريرية ---- ۳۱۹

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---- ۳۲۰

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، المجلد ۱

اشارة

نام كتاب: المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

نويسنده: مقريزى، احمد بن على

تاريخ وفات مؤلف: ۸۴۵ ه. ق

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۴

ناشر: دار الكتب العلمية

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

رده بندى كنگره:

DT۷۷/ م۷م۸۱۳۷۶

almwaa'th walaa'tbar bthkr alkhtt wala'thar alma'rouf balkhtt almkriziah

تأليف: تقى الدين العبيدى المقريزى تاريخ النشر: ۰۱/۰۱/۱۹۹۸

ترجمة، تحقيق: خليل المنصور الناشر: دار الكتب العلمية

النوع: ورقى غلاف فنى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۱۸۳۲ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۴

الجزء الاول

تقديم

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ها نحن أيها القارئ العربى العزيز نضع بين يديك كتابا جليلا- من كتب تراثنا العربى ليكون لك عونا فى التعرف على ماضى من سبقوا و وضعوا لبنة فى بناء الحضارة العالمية، و فى مهد الحضارات و أمّ الدنيا مصر العزيزة.

هذا الكتاب، كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار و المعروف بالخطط المقريزية، نسبة لمؤلفه العلامة الجليل تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة ۸۴۵ ه.

و الذى يؤرخ فيه لأمّ الدنيا مصر العزيزة خلال الفترة الممتدة من سنة عشرين للهجرة النبوية الشريفة و حتى سنة ست و تسعمائة. مبينا فيه ما للنيل العظيم من أثر فى حياة مصر، متعرضا لمناخها و طقسها، مؤرخا للكيفية التى تمّ بها إنشاء كل من مصر و القاهرة. القاهرة التى اختط أساسها القائد جوهر من الطوب النىء، مبتدئا بحارات القاهرة و ظواهرها معددا سبعا و ثلاثين حارة مبينا كيفية بناءها و من قام على هذا البناء منطلقا إلى ما لا يطلق عليه اسم حارة أو درب بل يسمّى خطا، و هى كثيرة و كل قليل تتغير أسماؤها و قد أورد ما تيسّر له منها فكانت ثلاثون خطا، مبينا ما كان عليه كل خط و ما آل إليه و من أمر بإنشائه و من قام على إنشائه و أسباب إنشائه. منتقلا إلى ذكر الدروب و الأزقة مبينا أسماءها التى كانت و ما ذا أصبحت و إلى من تنسب من الأشخاص و ما فيها من محال و دكاكين، و

كان عددها خمس و ستون دربا و ثمان أزقة. ثم يعدد الخوخ، و الخوخة نافذة فى باب كبير و عددها أربع عشرة خوخة. ثم ينتقل إلى الرحاب، و الرحبة تعنى الموضع الواسع و الرحاب كثيرة لا- تتغيّر إلّا بأن يبنى فيها و قد ذكر تسع و أربعون رحبة ثم ينتقل إلى ذكر الدور الهامة و عددها ست و خمسون دارا مسمّيا إياها بأسماء أصحابها. ثم ينتقل إلى ذكر الحمامات و القياسر و الفنادق و الخانات و الأسواق و السويقات و الحكر أو الأحكار، مترجما لها و للأمراء و السلاطين الذين عملوا على بنائها.

ثم ينتقل إلى الخلجان و القناطر و البرك و الجسور التى تمّ بناءها لجرّ مياه النيل إلى الحارات و الخطط.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴

ثم يؤرخ للملوك و السلاطين الذين تعاقبوا عليها منذ بناء قلعة الجبل مبتدئا بمن حكم من الأكراد، بدءا بالقائد أبو الحسن جوهر الذى قدم إلى إفريقيا بعساكر مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ فى سنة عشرين للهجرة، منتهيا بالملك الأشرف قانصوه الغورى الأشرفى قايتباى سنة ست و تسعمائة.

مترجما لحياتهم و كيفية وصولهم إلى السلطة و فتوحاتهم و غزواتهم و ما قاموا به من خير أو شر لرعيتهم، و ما بنوا و ما هدموا و كان عددهم ست و خمسون سلطانا و ملكا.

ثم انتقل إلى الجوامع ذاكرا بناتها و الكيفية التى تمّ عليها البناء و عددها ثمان و ثمانون جامعا. ثم ذكر مذاهب أهل مصر و نحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص أرض مصر إلى أن صاروا إلى اعتقاد مذاهب الأئمة و ما كان من الأحداث فى ذلك.

ثم ذكر فرق الخليقة و اختلاف عقائدها و تباينها، و فرق أهل الإسلام و انحصار الفرق المتهالكة فى عشر طوائف هى: المعتزلة و المشبهة و القدرية و المجبرة و المرجئة و الحرورية و البخارية و الجهمية و الروافض و الخوارج، كما ذكر الحال فى عقائد أهل الإسلام منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعرية.

ثم انتقل إلى ذكر المدارس و من قام على بنائها و الأوقاف الموقوفة عليها و ما حلّ بها من تبدّل و تغير و عددها ثلاث و سبعون مدرسة. ثم انتقل إلى ذكر المساجد و المارستانات و الخوانك و الربط و الزوايا و المشاهد و المقابر و القرافات و مساجد القرافات و الجواسق و المصلّيات و المعابد.

ثم انتقل إلى ذكر الملل غير الإسلامية الموجودة فى مصر و القاهرة و هم اليهود و النصارى و ذكر أحوالهم و كنائسهم و دياراتهم و ما كان منهم و عليهم و ما آلوا إليه من فرق و خلافات فيما بينهم و مع المسلمين.

و رغم كل ما يقدمه هذا العالم الجليل يعترف بتقصيره عن إتمام الكمال الذى لا يصله إلّا اللّه وحده.

و يختتم كتابه بحمد اللّه و الاتكال عليه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

[مقدمة المؤلف

الحمد للّه الذى عرّف و فهم، و علم الإنسان ما لم يكن يعلم، و أسبغ على عباده نعما باطنة و ظاهره، و والى عليهم من مزيد آلائه مننا متظافرة متواترة، و بثهم فى أرضه حينا يتقلبون، و استخلفهم فى ماله فهم به يتنعمون، و هدى قوما إلى اقتناص شوارد المعارف و العلوم، و شوّقهم للتفنن فى مسارح التدبر و الركض بميادين الفهوم و أرشد قوما إلى الانقطاع من دون الخلق إليه، و وفقهم للاعتماد فى كل أمر عليه و صرف آخرين عن كل مكرمة و فضيلة، و قيض لهم قرناء قادوهم إلى كل ذميمة من الأخلاق و رذيلة، و طبع على قلوب آخرين فلا- يكادون يفقهون قولا، و ثبطهم عن سبل الخيرات، فما استطاعوا قوّة و لا حولا، ثم حكم على الكل بالفناء و نقلهم جميعا من دار التمحيص و الابتلاء إلى برزخ البيود و البلاء، و سيحشرهم أجمعين إلى دار الجزاء ليوفى كل عامل منهم عمله، و يسأله

عما أعطاه و خوّله.

و عن موقفه بين يديه سبحانه و ما أعدّ له لا يسأل عما يفعل و هم يسألون. أحمده سبحانه حمد من علم أنه إله لا يعبد إلا إياه، و لا خالق للخلق سواه حمدا يقتضى المزيد من النعماء، و يوالى المنن بتجدّد الآلاء، و صلى اللّه على سيدنا محمد و عبده و رسوله و نبيه و خليله سيد البشر و أفضل من مضى و غبر الجامع لمحاسن الأخلاق و السير، و المستحق لاسم الكمال على الإطلاق من البشر الذى كان نبيا و آدم بين الماء و الطين، و رقم اسمه من الأزل فى عليين، ثم تنقل من الأصلاب الفاخرة الزكية إلى الأرحام الطاهرة المرضية حتى بعثه اللّه عزّ و جلّ إلى الخلائق أجمعين، و ختم به الأنبياء و المرسلين و أعطاه ما لم يعط أحدا من العالمين و على آله و صحابته و التابعين و سلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

و بعد، فإنّ علم التاريخ من أجل العلوم قدرا، و أشرفها عند العقلاء مكانة و خطرا، لما يحويه من المواعظ و الإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار و الاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، و استعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أولو النهى، لا جرم إن كانت الأنفس الفاضلة به وامقة و الهمم العالية إليه مائلة و له عاشقة. و قد صنف فيه الأئمة كثيرا، و ضمّن الأجلّة كتبهم منه شيئا كبيرا، و كانت مصر هى مسقط رأسى، و ملعب أترابى و مجمع ناسى، و مغنى عشيرتى و حامتى، و موطن خاصتى و عامّتى، و جؤجؤى الذى ربى جناحى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۶

فى وكره و عش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره لا زلت مذ شذوت العلم و آتانى ربى الفطانة و الفهم أرغب فى معرفة أخبارها و أحبّ الأشراف على الاغتراف من آبارها، و أهوى مسائلة الركبان عن سكان ديارها فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة، و جمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب، أو يحويها لعزتها و غرابتها أهاب إلّا أنها ليست بمرتبة على مثال و لا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال، فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية، عن الأمم الماضية و القرون الخالية، و ما بقى بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى و القدم و لم يبق إلّا أن يمحو رسمها الفناء و العدم، و أذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة، و ما اشتملت عليه من الخطط و الأصقاع، و حوته من المبانى البديعة الأوضاع، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل، و التنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم و الأفاضل و أنثر خلال ذلك نكتا لطيفة، و حكما بديعة شريفة من غير إطالة و لا إكثار، و لا إجحاف مخل بالغرض و لا اختصار، بل وسط بين الطرفين، و طريق بين بين.

فلهذا سميته (كتاب المواعظ و الاعتبار فى ذكر الخطط و الآثار)، و إنى لأرجو أن يحظى إن شاء اللّه تعالى عند الملوك و لا ينبو عنه طباع العامىّ و الصعلوك و يجله العالم المنتهى، و يعجب به الطالب المبتدى، و ترضاه خلائق العابد الناسك، و لا يمجه سمع الخليع الفاتك و يتخذه أهل البطالة و الرفاهية سمرا، و يعدّه أولو الرأى و التدبير موعظة و عبرا، يستدلون به على عظيم قدرة اللّه تعالى فى تبديل الأبدال، و يعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور إلى حال بعد حال، فإن كنت أحسنت فيما جمعت و أصبت فى الذى صنعت و وضعت، فذلك من عميم منن اللّه تعالى و جزيل فضله و عظيم أنعمه علىّ، و جليل طوله، و إن أنا أسأت فيما فعلت و أخطأت إذ وضعت فما أجدر الإنسان بالإساءة و العيوب إذا لم يعصمه و يحفظه علام الغيوب:

و ما أبرّئ نفسى أننى بشرأسهو و أخطىء ما لم يحمنى قدر

و لا ترى عذرا أولى بذى زلل من أن يقول مقرّا أننى بشر

فليسبل الناظر فى هذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره إن مرّت به هفوة، و ليغض تجاوزا و صفحا إن وقف منه على كبوة، أو نبوة فأىّ جواد و إن عتق ما يكبو، و أىّ عضب مهند لا يكل و لا ينبو لا سيما و الخاطر بالأفكار مشغول، و العزم لالتواء الأمور و تعسرها فاتر محلول، و الذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل و القلب لتوالى المحن، و تواتر الإحن عليل:

يعاندنى دهرى كأنى عدوّه و فى كل يوم بالكريهة يلقانى

فإن رمت شيئا جاءنى منه ضدّهو إن راق لى يوما تكدّر فى الثانى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷

اللهمّ غفرا ما هذا من التبرّم بالقضاء، و لا التضجر بالمقدور، بل إنه سقيم و نفثة مصدور يستروح أن أبدى التوجع و الأنين، و يجد خفا من ثقله إذا باح بالشكوى و الحنين:

و لو نظروا بين الجوانح و الحشارأوا من كتاب الحب فى كبدى سطرا

و لو جرّبوا ما قد لقيت من الهوىإذا عذرونى أو جعلت لهم عذرا

و اللّه أسأل أن يحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة و العلماء، كما أعوذ به من تطرّق أيدى الحساد إليه و الجهلاء، و أن يهدينى فيه و فيما سواه من الأقوال و الأفعال إلى سواء السبيل، إنه حسبنا و نعم الوكيل و فيه جلّت قدرته لى سلوّ من كل حادث، و عليه عز و جل أتكل فى جميع الحوادث، لا إله إلا هو و لا معبود سواه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۹

ذكر الرءوس الثمانية

اشارة

اعلم أنّ عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، و هى: الغرض و العنوان و المنفعة، و المرتبة، و صحة الكتاب، و من أىّ صناعة هو و كم فيه من أجزاء، و أىّ أنحاء التعاليم المستعملة فيه فنقول:

(أما الغرض) فى هذا التأليف فإنه جمع ما تفرّق من أخبار أرض مصر، و أحوال سكانها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر و هى التى إذا حصلت فى ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مصر من الآثار الباقية و البائدة و يقص أحوال من ابتدأها، و من حلها و كيف كانت مصائر أمورهم و ما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر.

(و أمّا عنوان هذا الكتاب) أعنى الذى و سمته به فإنى لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلطة متفرّقة فلم يتهيأ لى إذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتبا على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة لا سيما فى الأعصر الخالية، و لا أن أضعها على أسماء الناس لعلل أخر تظهر عند تصفح هذا التأليف فلهذا فرّقتها فى ذكر الخطط و الآثار، فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه و يشاكله، و صار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرّق و تبدّد من أخبار مصر، و لم أتحاش من تكرار الخبر إذا احتجت إليه بطريقة يستحسنها الأريب، و لا يستهجنها الفطن الأديب كى يستغنى مطالع كل فصل بما فيه عما فى غيره من الفصول، فلذلك سميته:

(كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار).

(و أما منفعة هذا الكتاب) فإنّ الأمر فيها يتبين من الغرض فى وضعه، و من عنوانه أعنى أنّ منفعته هى أن يشرف المرء فى زمن قصير على ما كان فى أرض مصر من الحوادث و التغييرات فى الأزمنة المتطاولة و الأعوام الكثيرة، فتتهذب بتدبر ذلك نفسه و ترتاض أخلاقه فيحب الخير و يفعله، و يكره الشرّ و يتجنبه، و يعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها، و الإقبال على ما يبقى.

(و أما مرتبة هذا الكتاب) فإنه من جملة أحد قسمى العلم اللذين هما العقلىّ و النقلىّ، فينبغى أن يتفرّغ لمطالعته و تدبر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية و العقلية، فإنه يحصل بتدبره لمن أزال اللّه أكنة قلبه و غشاوة بصره نتيجة العلم بما صار إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۰

أبناء جنسه بعد التخوّل فى الأموال و الجنود من الفناء و البيود، فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية و النقلية ليعرف منه كيف

كان عاقبة الذين كانوا من قبل.

(و أما واضع هذا الكتاب و مرتّبه) فاسمه أحمد بن عليّ بن عبد القادر بن محمد، و يعرف بالمقريزيّ رحمه اللّه تعالى ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين و سبعمائة من سنى الهجرة المحمدية، و رتبته من العلوم ما يدل عليه هذا الكتاب و غيره مما جمعه و ألفه.

(و أما من أيّ علم هذا الكتاب) فإنه من علم الأخبار و بها عرفت شرائع اللّه تعالى التى شرعها، و حفظت سنن أنبيائه و رسله، و دوّن هداهم الذى يقتدى به من وفقه اللّه تعالى إلى عبادته، و هداه إلى طاعته، و حفظه من مخالفته، و بها نقلت أخبار من مضى من الملوك و الفراعنة و كيف حل بهم سخط اللّه تعالى لما أتوا ما نهوا عنه، و بها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة ما دوّنوه من العلوم و الصنائع، و تأتى لهم على ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة، و الأمصار النائية و غير ذلك مما لا ينكر فضله، و لكل أمّة من أمم العرب و العجم على تباين آرائهم و اختلاف عقائدهم أخبار عندهم معروفة مشهورة ذائعة بينهم، و لكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرّت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر و لو استقصيت ما صنف علماء العرب و العجم فى ذلك لتجاوز حدّ الكثرة، و عجزت القدرة البشرية عن حصره.

(و أما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة): أولها: يشتمل على جمل من أخبار أرض مصر، و أحوال نيلها و خراجها و جبالها.

و ثانيها: يشتمل على كثير من مدنها و أجناس أهلها.

و ثالثها: يشتمل على أخبار فسطاط مصر و من ملكها.

و رابعها: يشتمل على أخبار القاهرة و خلائقها و ما كان لهم من الآثار.

و خامسها: يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة و ظواهرها من الأحوال.

و سادسها: يشتمل على ذكر قلعة الجبل و ملوكها.

و سابعها: يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر.

و قد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء السبعة عدّة أقسام.

و أما أيّ أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب، فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء، و هى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم، و الرواية عمن أدركت من شيخه العلم و جلة الناس، و المشاهدة لما عاينته و رأيته. فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه لأخلص من عهدته، و أبرأ من جريرته فكثيرا ممن ضمنى و إياه العصر، و اشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم و قصور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١١

باعه فى معرفة علوم التاريخ، و جهل مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه و لو أنصف لعلم أن العجز من قبله و ليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه، و لا يحتاج فى الشريعة إليه و حسب العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك و يقف عليه.

و أما الرواية عمن أدركت من الجلة و المشايخ فإنى فى الغالب و الأكثر أصرح باسم من حدّثنى إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه، أو أكون قد أنسيته و قلّ ما يتفق مثل ذلك.

و أمّا ما شاهدته فإنى أرجو أن أكون و للّه الحمد غير متهم و لا ظنين، و قد قلت فى هذه الرءوس الثمانية ما فيه قنع و كفاية، و لم يبق إلا أن أشرع فيما قصدت، و عزمى أن أجعل الكلام فى كل خط من الأخطاط و فى كل أثر من الآثار على حدة ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع و أكثر فائدة و أسهل تناولا و اللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم و فوق كلّ ذى علم عليم.

(فصل): أوّل من رتب خطط مصر و آثارها، و ذكر أسبابها فى ديوان جمعه: أبو عمر محمد بن يوسف الكنديّ ، ثم كتب بعده القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعيّ كتابه المنعوت بالمختار فى ذكر الخطط و الآثار، و مات فى سنة سبع و خمسين و

أربعمائة قبل سنى الشدّة، فدثر أكثر ما ذكر اه.

و لم يبق إلا يلمع و موضع بلقع بما حل بمصر من سنى الشدّة المستنصرية من سنة سبع و خمسين إلى سنة أربع و ستين و أربعمائة من الغلاء و الوباء، فمات أهلها و خربت ديارها و تغيرت أحوالها، و استولى الخراب على عمل فوق من الطرفين بجانبى الفسطاط الغربيّ و الشرقيّ. فأما الغربيّ فمن قنطرة بنى وائل حيث الوراقات الآن قريبا من باب القنطرة خارج مدينة مصر إلى الشرف المعروف الآن بالرصد، و أنت مار إلى القرافة الكبرى. و أما الشرقيّ فمن طرف بركة الحبش التى تلى القرافة إلى نحو جامع أحمد بن طولون، ثم دخل أمير الجيوش بدر الجمالى مصر فى سنة ست و ستين و أربعمائة، و هذه المواضع خاوية على عروشها خالية من سكانها و أنيسها قد أبادهم الوباء و التباب، و شتتهم الموت و الخراب و لم يبق بمصر إلا بقايا من الناس كأنهم أموات قد اصفرّت وجوههم و تغيرت سحنهم من غلاء الأسعار، و كثرة الخوف من العسكرية، و فساد طوائف العبيد و الملحية، و لم يجد من يزرع الأراضى. هذا و الطرقات قد انقطعت بحرا و برّا إلا بخفارة و كلفة كثيرة، و صارت القاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢

أيضا يبابا داثرة، فأباح للناس من العسكرية و الملحية و الأرض، و كل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها فأخذ الناس فى هدم المساكن و نحوها بمصر، و عمروا بها فى القاهرة، و كان هذا أوّل وقت اختط الناس فيه بالقاهرة.

ثم كان المنبه بعد القضاعى على الخطط و التعريف بها تلميذه أبو عبد اللّه محمد بن بركات النحويّ فى تأليف لطيف نبه فيه الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى على مواضع قد اغتصبت و تملكت بعد ما كانت أحباسا ثم كتب الشريف محمد بن أسعد الجوانى (كتاب النقط بعجم ما أشكل من الخطط) نبه فيه على معالم قد جهلت و آثار قد دثرت، و آخر من كتب فى ذلك القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوّج (كتاب إيعاظ المتأمّل و إيقاظ المتغفل) فى الخطط بيّن فيه جملا من أحوال مصر و خططها إلى أعوام بضع و عشرين و سبعمائة قد دثرت بعده معظم ذلك فى وباء سنة تسع و أربعين و سبعمائة ثم فى وباء سنة إحدى و ستين ثم فى غلاء سنة ست و سبعين و سبعمائة.

و كتب القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر (كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة) ففتح فيه بابا كانت الحاجة داعية إليه، ثم تزايدت العمارة من بعده فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون بالقاهرة و ظواهرها إلى أن كادت تضيق على أهلها حتى حل بها وباء سنة تسع و أربعين و سنة إحدى و ستين ثم غلاء سنة ست و سبعين فخربت بها عدّة أماكن فلما كانت الحوادث و المحن من سنة ست و ثمانمائة شمل الخراب القاهرة و مصر و عامّة الإقليم، و سأورد من ذكر الخطط ما تصل إليه قدرتى إن شاء اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٣

ذكر طرف من هيئة الأفلاك

اعلم أنه لما كانت مصر قطعة من الأرض تعيّن قبل التعريف بموقعها من الأرض و تبيين موضع الأرض من الفلك أن أذكر طرفا من هيئة الأفلاك، ثم أذكر صورة الأرض و موضع الأقاليم منها، و أذكر محل مصر من الأرض، و موضعها من الأقاليم و أذكر حدودها و اشتقاقها و فضائلها و عجائبها و كنوزها و أخلاق أهلها، و أذكر نيلها و خلجانها و كورها و مبلغ خراجها، و غير ذلك ممّا يتعلق بها قبل الشروع فى ذكر خطط مصر و القاهرة فأقول: علم النجوم ثلاثة أقسام: (الأوّل): معرفة تركيب الأفلاك، و كمية الكواكب، و أقسام البروج، و أبعادها و عظمها و حركتها و يقال لهذا القسم: علم الهيئة. (و القسم الثانى): علم الزيج، و علم التقويم. (و القسم الثالث): معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك و طوالع البروج على الحوادث قبل كونها و يسمى هذا القسم علم الأحكام، و الغرض هنا إيراد

نبذ من علم الهيئة تكون توطئة لما يأتى ذكره. اعلم أن الكواكب أجسام كريات و الذى أدرك منها الحكماء بالرصد ألف كوكب و تسعة و عشرون كوكبا، و هى على قسمين: سيارة، و ثابتة. فالسيارة سبعة و هى: زحل، و المشترى، و المرّيخ، و الشمس، و الزهرة، و عطارد، و القمر، و قد نظمت فى بيت واحد و هو:

زحل شرى مرّيخه من شمسهفتزاهرت بعطارد الأقمار

و يقال لهذه السبعة: الخنّس، و قيل: إنها التى عناها اللّه تعالى بقوله: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ [التكوير/ ١۵] و التى عناها اللّه تعالى بقوله: فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً [النازعات/ ۵]، و قيل لها: الخنس لاستقامتها فى سيرها و رجوعها، و قيل لها: الكنس لأنها تجرى فى البروج ثم تكنس أى تستتر كما يكنس الظبى، و قيل: الكنس و الخنس منها خمسة و هى: ما سوى الشمس و القمر سميت بذلك من الانخناس و هو الانقباض، و فى الحديث:

«الشيطان يوسوس للعبد فإذا ذكر اللّه خنس» أى انقبض و رجع فيكون الخنس على هذا فى الكواكب بمعنى الرجوع و سميت بالكنس من قولهم: كنس الظبى إذا دخل الكناس و هو مقرّة فالكنس على هذا فى الكواكب بمعنى اختفائها تحت ضوء الشمس و يقال لهذه الكواكب المتحيرة لأنها ترجع أحيانا عن سمت مسيرها بالحركة الشرقية و تتبع الغربية فى رأى العين فيكون هذا الارتداد لها شبه التحير، و هذه الأسماء التى لهذه الكواكب يقال: إنها مشتقة من صفاتها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١۴

فزحل مشتق من زحل فلان إذا أبطأ سمى بذلك لبطء سيره، و قيل: للزحل و الزحل الحقد، و هو بزعمهم يدل على ذلك و يقال: إنه المراد فى قوله تعالى: وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ [الطارق/ ١- ٣]. و المشترى سمى بذلك لحسنه كأنه اشترى الحسن لنفسه، و قيل: لأنه نجم الشراء و البيع، و دليل الريح و المال فى قولهم.

و المرّيخ مأخوذ من المرخ و هو شجر يحتك بعض أغصانه ببعض فيورى نارا سمى بذلك لاحمراره، و قيل: المرّيخ سهم لا ريش له إذا رمى به لا يستوى فى ممرّه، و كذا المرّيخ فيه التواء كثير فى سيره و دلالته بزعمهم تشبه ذلك، و الشمس لما كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية لأنهم من فوقها، و ثلاثة سفلية لأنهم من تحتها سميت بذلك لأنّ الواسطة التى فى المخنقة تسمى شمسة، و الزهرة من الزاهر و هو الأبيض النير من كل شىء، و عطارد هو النافذ فى كل الأمور و لذلك يقال له أيضا الكاتب فإنه كثير التصرّف مع ما يقارنه و يلابسه من الكواكب، و القمر مأخوذ من القمرة و هى البياض و الأقمر الأبيض.

و يقال لزحل كيوان، و للمشترى تبر و البرجيس أيضا، و للمرّيخ بهرام، و للشمس مهر، و للزهرة أياهيد و سدحت أيضا، و لعطارد هرمس، و للقمر ماه، و قد جمعت فى بيت واحد و هو هذا:

لا زلت تبقى و ترقى للعلى أبداما دام للسبعة الأفلاك أحكام

مهر و ماه و كيوان و تبر معاو هرمس و أياهيد و بهرام

و يقال: لما عدا هذه الكواكب السبعة من بقية نجوم السماء الكواكب الثابتة.

سميت بذلك لثباتها فى الفلك بموضع واحد، و قيل: لبطء حركتها فإنها تقطع الفلك بزعمهم بعد كل ستة و ثلاثين ألف سنة شمسية مرّة واحدة.

و لكل كوكب من الكواكب السبعة السيارة فلك من الأفلاك يخصه، و الأفلاك أجسام كريات مشقات بعضها فى جوف بعض و هى تسعة أقربها إلينا فلك القمر، و بعده فلك عطارد، ثم بعده فلك الزهرة، و بعده فلك الشمس، و فوقه فلك المريخ، ثم فلك المشترى، و فوقه فلك زحل، ثم فلك الثوابت و فيه كل كوكب يرى فى السماء سوى السبعة السيارة، و من فوق فلك الثوابت الفلك المحيط و هو الفلك التاسع، و يسمى الأطلس، و فلك الأفلاك، و فلك الكل، و قد اختلف فى الأفلاك فقيل: هى السماوات، و قيل: بل السماوات غيرها، و قيل: بل هى كرية، و قيل غير ذلك. و قيل: الفلك الثامن هو الكرسى، و الفلك التاسع هو العرش، و قيل غير

ذلك. و هذا الفلك التاسع دائم الدوران كالدولاب و يدور فى كل أربعة و عشرين ساعة مستوية دورة واحدة، و دورانه يكون أبدا من المشرق إلى المغرب، و يدور بدورانه جميع الأفلاك الثمانية و ما حوته من الكواكب دورانا حركته قسرية لإدارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٥

التاسع لها و عن حركة التاسع المذكور يكون الليل و النهار فالنهار مدّة بقاء الشمس فوق أفق الأرض و الليل مدّة غيبوبة الشمس تحت أفق الأرض، و فلك الكواكب الثابتة مقسوم باثنى عشر قسما كحجز البطيخة كل قسم منها يقال له: برج و هى: الحمل، و الثور، و الجوزاء، و السرطان، و الأسد، و السنبلة، و الميزان، و العقرب، و القوس، و الجدى، و الدلو، و الحوت. و كل برج من هذه البروج الاثنى عشر ينقسم ثلاثين قسما يقال: لكل قسم منها درجة، و كل درجة من هذه الثلاثين مقسومة ستين قسما يقال لكل قسم منها دقيقة و كل دقيقة من هذه الستين مقسومة ستين قسما يقال لكل قسم منها ثانية و هكذا إلى الثوالث و الروابع و الخوامس إلى الثوانى عشر و ما فوقها من الأجزاء و كل ثلاثة بروج تسمى فصلا. فالزمان على ذلك أربعة فصول: و هى الربيع، و الصيف، و الخريف، و الشتاء. و جهات الأقطار أربعة: الشرق، و الغرب، و الشمال، و الجنوب. و الأركان أربعة: النار، و الهواء، و الماء، و التراب. و الطبائع أربعة: الحرارة، و البرودة، و الرطوبة، و اليبوسة. و الأخلاط أربعة:

الصفراء، و السوداء، و البلغم، و الدم. و الرياح أربعة: الصبا، و الدبور، و الشمال، و الجنوب.

فالبروج منها ثلاثة ربيعية صاعدة فى الشمال زائدة النهار على الليل و هى: الحمل، و الثور، و الجوزاء، و ثلاثة صيفية هابطة فى الشمال آخذة الليل من النهار و هى: السرطان، و الأسد، و السنبلة، و ثلاثة خريفية هابطة فى الجنوب زائدة الليل على النهار و هى: الميزان، و العقرب، و القوس، و ثلاثة شتوية صاعدة فى الجنوب آخذة النهار من الليل و هى: الجدى، و الدلو، و الحوت، و الفلك المحيط كما تقدم دائم الدوران كالدولاب يدور أبدا من المشرق إلى المغرب فوق الأرض، و من المغرب إلى المشرق تحتها فيكون دائما نصف الفلك، و هو ستة بروج بمائة و ثمانين درجة فوق الأرض و نصفه الآخر و هو ستة بروج بمائة و ثمانين درجة تحت الأرض، و كلما طلعت من أفق المشرق درجة من درجات الفلك التى عدّتها ثلثمائة و ستون درجة غرب نظيرها فى أفق المغرب من البرج السابع فلا يزال دائما ستة بروج طلوعها بالنهار، و ستة بروج طلوعها بالليل، و الأفق عبارة عن الحدّ الفاصل من الأرض بين المرئىّ و الخفىّ من السماء، و الفلك يدور على قطبين شمالىّ و جنوبىّ كما يدور الحق على قطبى المخروطة، و يقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين متساويين بعدهما من كلا القطبين سواء، و تسمى هذه الدائرة دائرة معدّل النهار فهى تقاطع فلك البروج و دائرة فلك البروج تقاطع دائرة معدّل النهار، و يميل نصفها إلى الجانب الشمالى بقدر أربع و عشرين درجة تقريبا و هذا النصف فيه قسمة البروج الستة الشمالية و هى من أوّل الحمل إلى آخر السنبلة و يميل نصفها الثانى عنها إلى الجنوب بمثل ذلك و فيه قسمة البروج الستة الجنوبية.

و هى من أوّل برج الميزان إلى آخر برج الحوت، و موضع تقاطع هاتين الدائرتين أعنى دائرة معدّل النهار، و دائرة فلك البروج من الجانبين هما: نقطتا الاعتدالين أعنى رأس الحمل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦

و رأس الميزان، و مدار الشمس و القمر، و سائر النجوم على محاذاة دائرة فلك البروج دون دائرة معدّل النهار و تمرّ الشمس على دائرة معدّل النهار عند حلولها بنقطتى الاعتدالين فقط لأنها موضع تقاطع الدائرتين، و هذا هو خط الاستواء الذى لا يختلف فيه الزمان بزيادة الليل على النهار و لا النهار على الليل. لأنّ ميل الشمس عنه إلى كلا الجانبين الشمالىّ و الجنوبىّ سواء فالشمس تدور الفلك و تقطع الاثنى عشر برجا فى مدّة ثلثمائة و خمسة و ستين يوما و ربع يوم بالتقريب. و هذه هى: مدّة السنة الشمسية و تقيم فى كل برج ثلاثين يوما و كسرا من يوم، و تكون أبدا بالنهار ظاهرة فوق الأرض، و بالليل بخلاف ذلك و إذا حلت فى البروج الستة الشمالية التى هى: الحمل، و الثور، و الجوزاء، و السرطان، و الأسد، و السنبلة فإنها تكون مرتفعة فى الهواء قريبة من سمت رؤوسنا و ذلك زمن فصل الربيع و فصل الصيف، و إذا حلت فى البروج الجنوبية و هى: الميزان، و العقرب، و القوس، و الجدى، و الدلو، و الحوت، كان

فصل الخريف و فصل الشتاء، و انحطت الشمس و بعدت عن سمت الرءوس.

و زعم وهب بن منبه أن أوّل ما خلق اللّه تعالى من الأزمنة الأربعة الشتاء فجعله باردا رطبا، و خلق الربيع فجعله حارا رطبا، و خلق الصيف فجعله حارا يابسا، و خلق الخريف فجعله باردا يابسا، و أوّل الفصول عند أهل زماننا الربيع و يكون فصل الربيع عندما تنتقل الشمس من برج الحوت، و قد اختلف القدماء فى البداية من الفصول فمنهم من اختار فصل الربيع و صيّره أوّل السنة، و منهم من اختار تقديم الانقلاب الصيفىّ، و منهم من اختار تقديم الاعتدال الخريفىّ، و منهم من اختار تقديم الانقلاب الشتوىّ، فإذا حلت أوّل جزء من برج الحمل استوى الليل و النهار و اعتدل الزمان و انصرف الشتاء و دخل الربيع، و طاب الهواء، و هبّ النسيم، و ذاب الثلج، و سالت الأودية، و مدّت الأنهار فيما عدا مصر، و نبت العشب، و طال الزرع، و نما الحشيش و تلألأ الزهر و أوراق الشجر، و تفتح النور، و اخضرّ وجه الأرض و نتجت البهائم، و درت الضروع، و أخرجت الأرض زخرفها، و ازينت و صارت كصبية شابة قد تزينت للناظرين و للّه درّ القائل، و هو الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليعمرىّ رحمه اللّه تعالى:

و استنشقوا لهوا الربيع فإنهنعم النسيم و عنده ألطاف

يغذى الجسوم نسيمه و كأنهروح حواها جوهر شفاف

و قال ابن قتيبة: و من ذلك الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء و يأتى فيه النور، و الورد، و لا يعرفون الربيع غيره، و العرب تختلف فى ذلك فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تدرك فيه الثمار، و هو الخريف و فصل الشتاء بعده ثم فصل الصيف بعد الشتاء و هو الوقت الذى تدعوه العامّة الربيع ثم فصل القيظ و هو الذى تدعوه العامّة الصيف، و من العرب من يسمى الفصل الذى يعتدل و تدرك فيه الثمار و هو الخريف الربيع الأوّل، و يسمى الفصل الذى يتلوه الشتاء و يأتى فيه الكمام و النور الربيع الثانى و كلهم مجتمعون على

أن الربيع هو الخريف فإذا حلت الشمس آخر برج الجوزاء، و أوّل برج السرطان تناهى طول النهار، و قصر الليل و ابتدأ نقص النهار و زيادة الليل و انصرم فصل الربيع، و دخل فصل الصيف، و اشتدّ الحرّ، و حمى الهواء، و هبت السمائم، و نقصت المياه إلا بمصر، و يبس العشب، و استحكم الحب، و أدرك حصاد الغلال، و نضجت الثمار، و سمنت البهائم، و اشتدّت قوّة الأبدان، و درت أخلاف النعم، و صارت الأرض كأنها عروس فإذا بلغت آخر برج السنبلة و أوّل برج الميزان تساوى الليل و النهار مرّة ثانية و أخذ الليل فى الزيادة و النهار فى النقصان و انصرم فصل الصيف و دخل فصل الخريف فبرد الهواء، و هبت الرياح، و تغير الزمان، و جفت الأنهار، و غارت العيون، و اصفرّ ورق الشجر، و صرّمت الثمار، و درست البيادر، و اختزن الحبّ، و اقتنى العشب، و اغبرّ وجه الأرض إلا بمصر، و هزلت البهائم، و ماتت الهوامّ، و انحجرت الحشرات، و انصرف الطير و الوحش يريد البلاد الدافئة، و أخذ الناس يخزنون القوت للشتاء و صارت الدنيا كأنها امرأة كهلة قد أدبرت و أخذ شبابها يولى و للّه درّ القائل و هو الإمام عز الدين أبو الحسن أحمد بن علىّ ابن معقل الأزدىّ المهلبىّ الحمصىّ حيث يقول:

للّه فصل الخريف المستلذ بهبرد الهواء لقد أبدى لنا عجبا

أهدى إلى الأرض من أوراقه ذهباو الأرض من شأنها أن تهدى الذهبا

و قال أيضا:

للّه فصل الخريف فصلارقت حواشيه فهو رائق

فالماء يجرى بقلب سالو الدمع يبدو بوجه عاشق

فبرد هذا و لون هذايلذه ذائق و وامق

و قال أيضا:

أتى فصل الخريف بكل طيبو حسن معجب قلبا و عينا

أرانا الدوح مصفرّا نضاراو صافى الماء مبيضا لجينا

فأحسن كلّ إحسان إليناو أنعم كلّ إنعام علينا

و قال آخر يذم الخريف:

خذ فى التدثر فى الخريف فإنهمستو بل و نسيمه خطاف

يجرى مع الأجسام جرى حياتهاكصديقا و من الصديق يخاف

و قال آخر:

يا عائبا فصل الخريف و غائباعن فضله فى ذمه لزمانه

لا شيء ألطف منه عندى موقعاأبدا يعرّى الغصن من قمصانه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨ و تراه يفرش تحته أثوابهفأعجب لرأفته و فرط حنانه

و ألذ ساعات الوصال إذا دناوقت الرحيل و حان حين أوانه

فإذا حلّت الشمس آخر برج القوس و أوّل برج الجدى تناهى طول الليل و قصر النهار، و أخذ النهار فى الزيادة و الليل فى النقصان، و انصرم فصل الخريف، و حلّ فصل الشتاء، و اشتدّ البرد، و خشن الهواء، و تساقط ورق الشجر، و مات أكثر النبات، و غارت الحيوانات، فى جوف الأرض و ضعف قوى الأبدان و عرى وجه الأرض من الزينة، و نشأت الغيوم و كثرت الأنداء، و أظلم الجوّ و كلح وجه الأرض إلا بمصر، و امتنع الناس من التصرّف، و صارت الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت. فإذا بلغت آخر برج الحوت و أوّل برج الحمل عاد الزمان كما كان عام أوّل و هذا دأبه ذلك تقدير العزيز العليم و تدبير الخبير الحكيم لا إله إلّا هو. و قد شبه بطليموس فصل الربيع بزمان الطفولية، و فصل الصيف بالشباب، و الخريف بالكهولة، و الشتاء بالشيخوخة، و عن حركة الشمس و تنقلها فى البروج الاثنى عشر المذكورة تكون أزمان السنة و أوقات اليوم من الليل و النهار و ساعاتهما، و عن حركة القمر فى البروج الاثنى عشر تكون الشهور القمرية و السنة القمرية، فالقمر يدور البروج الاثنى عشر و يقطع الفلك كله فى مدّة ثمانية و عشرين يوما و بعض يوم، و يقيم فى كل برج يومين و ثلث يوم بالتقريب، و يقيم فى كلّ منزلة من منازل القمر الثمانية و العشرين منزلة يوما و ليلة، فيظهر عند إهلاله من ناحية الغرب بعد غروب جرم الشمس، و يزيد نوره فى كل ليلة قدر نصف سبع حتى يكمل نوره، و يمتلئ فى ليلة الرابع عشر من إهلاله، ثم يأخذ من الليلة الخامسة عشر فى النقصان فينقص من نوره فى كلّ ليلة نصف سبع كما بدا إلى أن يمحق نوره فى آخر الثمانية و عشرين يوما من إهلاله و يمرّ فى هذه المدّة منذ يفارق الشمس، و يبدو فى ناحية الغرب، و يستمرّ إلى أن يجامعها بثمانية و عشرين منزلة و هى: السرطان ، و البطين، و الثريا، و الدبران، و الهقعة، و الهنعة، و الذراع، و النثرة، و الطرف، و الجبهة، و الزبرة، و الصرفة، و العوّا، و السماك، و الغفر، و الزبانا، و الإكليل، و القلب، و الشولة، و النعائم، و البلدة، و سعد الذابح، و سعد بلع، و سعد السعود، و سعد الأخبية، و الفرغ المقدّم، و الفرغ المؤخر، و بطن الحوت. و لحساب ذلك كتب موضوعة و فيما ذكر كفاية و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون.

ذكر صورة الأرض و موضع الأقاليم منها

و لما تقدّم فى الأفلاك من القول ما يتبين به لمن ألهمه اللّه تعالى كيف تكون الحركة التى بها الليل و النهار، و تركب الشهور و الأعوام منهما جاز حينئذ الكلام على الأرض.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٩

فأقول: الجهات من حيث هى ست: الشرق و هو حيث تطلع الشمس. و القمر، و سائر الكواكب فى كل قطر من الأفق، و الغرب و هو

حيث تغرب، و الشمال و هو حيث مدار الجدى و الفرقدين، و الجنوب و هو حيث مدار سهيل، و الفوق و هو مما يلى السماء، و التحت و هو مما يلى مركز الأرض.

و الأرض جسم مستدير كالكرة، و قيل: ليست بكرية الشكل و هى واقفة فى الهواء بجميع جبالها و بحارها و عامرها و غامرها، و الهواء محيط بها من جميع جهاتها كالمحّ فى جوف البيضة و بعدها من السماء متساو من جميع الجهات و أسفل الأرض ما تحقيقه هو عمق باطنها مما يلى مركزها من أىّ جانب كان. ذهب الجمهور إلى أن الأرض كالكرة موضوعة فى جوف الفلك كالمح فى البيضة، و أنها فى الوسط و بعدها فى الفلك من جميع الجهات على التساوى.

و زعم هشام بن الحكم: أن تحت الأرض جسما من شأنه الارتفاع و هو المانع للأرض من الانحدار، و هو ليس محتاجا إلى ما بعده، لأنه ليس يطلب الانحدار بل الارتفاع، و قال:

إن اللّه تعالى وقفها بلاد عماد.

و قال ديمقراطس: أنها تقوم على الماء، و قد حصر الماء تحتها حتى لا يجد مخرجا فيضطرّ إلى الانتقال، و قال آخر: هى واقفة على الوسط على مقدار واحد من كلّ جانب و الفلك يجذبها من كل وجه فلذلك لا تميل إلى ناحية من الفلك دون ناحية، لأنّ قوة الأجزاء متكافئة، و ذلك كحجر المغناطيس فى جذبه الحديد فإنّ الفلك بالطبع مغناطيس الأرض، فهو يجذبها فهى واقفة فى الوسط، و سبب وقوفها فى الوسط سرعة تدوير الفلك و دفعه إياها من كل جهة إلى الوسط.

كما إذا وضعت ترابا فى قارورة و أدرتها بقوّة فإنّ التراب يقوم فى الوسط.

و قال محمد بن أحمد الخوارزمى : الأرض فى وسط السماء، و الوسط هو السفلى بالحقيقة، و هى مدوّرة مضرسة من جهة الجبال البارزة و الوهاد الغائرة، و ذلك لا يخرجها عن الكرية إذا اعتبرت جملتها لأنّ مقادير الجبال و إن شمخت يسيرة بالقياس إلى كرة الأرض، فإن الكرة التى قطرها ذراع، أو ذراعان مثلا إذا أنتأ منها شىء أو غار فيها لا يخرجها عن الكرية، و لا هذه التضاريس لإحاطة الماء بها من جميع جوانبها و غمرها، بحيث لا يظهر منها شىء. فحينئذ تبطل الحكمة المؤدّية المودعة فى المعادن، و النبات و الحيوان، فسبحان من لا يعلم أسرار حكمه إلا هو. و أما سطحها الظاهر المماس للهواء من جميع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۰

الجهات فإنه فوق، و الهواء فوق الأرض يحيط بها و يجذبها من سائر الجهات، و فوق الهواء الأفلاک المذكورة فيما تقدّم واحدا فوق آخر إلى الفلك التاسع الذى هو أعلى الأفلاک، و نهاية المخلوقات بأسرها، و قد اختلف فيما وراء ذلك فقيل: خلا.

و قيل: ملاء، و قيل: لا خلاء و لا ملاء و كل موضع يقف فيه الإنسان من سطح الأرض فإنّ رأسه أبدا يكون مما يلى السماء إلى فوق، و رجلاه أبدا تكون أسفل مما يلى مركز الأرض، و هو دائما يرى من السماء: نصفها و يستر عنه النصف الآخر حدبة الأرض، و كلما انتقل من موضع إلى آخر ظهر له من السماء بقدر ما خفى عنه.

و الأرض غامرة بالماء كعنبة طافية فوق الماء قد انحسر عنها نحو النصف، و انغمر النصف الآخر فى الأرض، و صار المنكشف من الأرض نصفين، كأنما قسم بخط مسامت لخط معدّل النهار يمرّ تحت دائرته، و جميع البلاد التى على هذا الخط، لا عرض لها البتة، و القطبان غير مرتبين فيها، و يكونان هناك على دائرة الأفق من الجانبين.

و كلما بعد موضع بلد عن هذا الخط إلى ناحية الشمال قدر درجة ارتفع القطب الشماليّ الذى هو: الجدى على أهل ذلك البلد درجة، و انخفض القطب الجنوبيّ الذى هو: سهيل درجة، و هكذا ما زاد و يكون الأمر فيما بعد من البلاد الواقعة فى ناحية الجنوب كذلك من ارتفاع القطب الجنوبيّ، و انحطاط القطب الشماليّ، و بهذا عرف عرض البلدان، و صار عرض البلد عبارة عن ميل دائرة معدّل النهار عن سمت رؤوس أهله، و ارتفاع القطب عليهم، و هو أيضا بعد ما بين سمت رؤوس أهل ذلك البلد، و سمت رؤوس أهل بلد لا عرض له، فأمّا ما انكشف من الأرض مما يلى الجنوب من خط الاستواء، فإنه خراب، و النصف الآخر الذى يلى الشمال من

خط الاستواء، فهو الربع العامر، و هو المسكون من الأرض، و خط الاستواء لا وجود له فى الخارج، و إنما هو فرض بوهمنا أنه خط ابتداؤه من المشرق إلى المغرب تحت مدار رأس الحمل، و سمى بذلك من أجل أنّ النهار، و الليل هناك أبدا سواء لا يزيد و لا ينقص أحدهما عن الآخر شيئا البتة فى سائر أوقات السنة كلها، و نقطتا هذا الخط ملازمتان للأفق إحداهما على مدار سهيل فى ناحية الجنوب، و الأخرى مما يلى الجدى فى ناحية الشمال.

و العمارة من المشرق إلى المغرب مائة و ثمانون درجة من الجنوب إلى الشمال من خط أريس إلى بنات نعش: ثمان و أربعون درجة، و هو مقدار ميل الشمس مرّتين، و خلف خط أريس، و هو مقدار: ستة عشر درجة، و جملة معمور الأرض نحو من: سبعين درجة لاعتدال مسير الشمس فى هذا الوسط، و مرورها على ما وراء الحمل و الميزان مرّتين فى السنة، و أما الشمال و الجنوب، فالشمس لا تحاذيهما إلّا مرّة واحدة، و لأنّ أوج الشمس مرّتين فى جهة الشمال، كانت العمارة فيه لارتفاعها و انتفاء ضرر قربها عن ساكنيه، و لأن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢١

حضيضها فى الجنوب، عدمت العمارة هنالك.

و قد اختلف الناس فى مسافة الأرض، فقيل: مسافتها خمسمائة عام ثلث عمران، و ثلث خراب، و ثلث بحار، و قيل: المعمور من الأرض مائة و عشرون سنة: تسعون ليأجوج و مأجوج، و اثنا عشر: للسودان، و ثمانية للروم، و ثلاثة للعرب، و سبعة لسائر الأمم.

و قيل: الدنيا سبعة أجزاء: ستة ليأجوج و مأجوج، و واحد لسائر الناس، و قيل:

الأرض خمسمائة عام: البحار ثلثمائة، و مائة خراب، و مائة عمران، و قيل: الأرض أربعة و عشرون ألف فرسخ: للسودان اثنا عشر ألف، و للروم ثمانية آلاف، و لفارس ثلاثة آلاف، و للعرب ألف.

و عن وهب بن منبه: ما العمارة من الدنيا فى الخراب إلا كفسطاط فى الصحراء.

و قال أزدشير بن بابك: الأرض أربعة أجزاء: جزء منها للترك، و جزء للعرب، و جزء للفرس، و جزء للسودان، و قيل: الأقاليم سبعة: و الأطراف أربعة، و النواحى خمسة و أربعون، و المدائن عشرة آلاف، و الرساتيق مائتا ألف و ستة و خمسون ألفا، و قيل: المدن و الحصون أحد و عشرون ألفا و ستمائة مدينة و حصن، ففى الإقليم الأوّل ثلاثة آلاف و مائة مدينة كبيرة، و فى الثانى ألفان و سبعمائة و ثلاثة عشر مدينة و قرية كبيرة، و فى الثالث ثلاثة آلاف و تسع و سبعون مدينة و قرية، و فى الرابع و هو بابل ألفان و تسعمائة و أربع و سبعون مدينة، و فى الخامس ثلاثة آلاف مدينة و ست مدائن، و فى السادس ثلاثة آلاف و أربعمائة و ثمان مدن، و فى السابع ثلاثة آلاف و ثلاثمائة مدينة فى الجزائر.

و قال الخوارزمىّ: قطر الأرض سبعة آلاف فرسخ، و هو نصف سدس الأرض و الجبال و المفاوز و البحار، و الباقى خراب يباب لا نبات فيه و لا حيوان، و قيل: المعمور من الأرض مثل: طائر، رأسه الصين، و الجناح الأيمن الهند و السند، و الجناح الأيسر الخزر، و صدره مكة و العراق و الشام و مصر، و ذنبه الغرب، و قيل: قطر الأرض سبعة آلاف و أربعمائة و أربعة عشر ميلا و دورها عشرون ألف ميل و أربعمائة ميل، و ذلك جميع ما أحاطت به من برّ و بحر.

و قال أبو زيد أحمد بن سهل البلخىّ: طول الأرض من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب نحو أربعمائة مرحلة، و عرضها من حيث العمران الذى من جهة الشمال، و هو مساكن يأجوج و مأجوج إلى حيث العمران الذى من جهة الجنوب، و هو مساكن السودان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٢

مائتان و عشرون مرحلة و ما بين برارى يأجوج و مأجوج إلى البحر المحيط فى الشمال، و ما بين برارى السودان، و البحر المحيط فى الجنوب خراب ليس فيه عمارة، و يقال: إن مسافة ذلك: خمسة آلاف فرسخ، و هذه أقوال لا دليل على صدقها.

و الطريق فى معرفة مساحة الأرض أنّا لو سرنا على خط نصف النهار من الجنوب إلى الشمال بقدر ميل دائرة معدّل النهار عن سمت

رؤوسنا إلى الجنوب درجة من درج الفلك التى هى جزء من ثلاثمائة و ستين جزءا، و ارتفع القطب علينا درجة نظير تلك الدرجة فإنا نعلم أنا قد قطعنا من محيط جرم الأرض جزءا من ثلاثمائة و ستين جزءا، و هو نظير ذلك الجزء من الفلك، فلو قسنا من ابتداء مسيرنا إلى انتهاء مكاننا الذى وصلنا إليه حيث ارتفع القطب علينا درجة، فإنا نجد حقيقة الدرجة الواحدة من الفلك قد قطعت من الأرض ستة و خمسين ميلا، و ثلثى ميل عنها خمسة و عشرون فرسخا فإذا ضربنا حصة الدرجة الواحدة، و هو ما ذكر من الأميال فى ثلاثمائة و ستين خرج من الضرب عشرون ألفا، و أربعمائة ميل، و ذلك مساحة دور الأرض فإذا قسمنا هذه الأميال التى هى مساحة دور الأرض على ثلاثة و سبع خرج من القسمة ستة آلاف و أربعمائة، و أربعون ميلا، و هى مساحة قطر الأرض، فلو ضربنا هذا القطر فى مبلغ دور الأرض، لبلغت مساحة بسط الأرض بالتكسير مائة ألف ألف و اثنين و ثلاثين ألف ألف و ستمائة ألف ميل بالتقريب. فعلى هذا مساحة ربع الأرض المسكون بالتكسير ثلاثة و ثلاثون ألف ألف ميل و مائة و خمسون ألف ميل، و عرض المسكون من هذا الربع بقدر بعد مدار السرطان عن القطب، و هو خمسة و خمسون جزءا و سدس جزء، و هذا هو سدس الأرض و انتهاؤه إلى جزيرة تولى فى برطانية، و هى آخر المعمور من الشمال، و هو من الأميال ثلاثة آلاف و سبعمائة و أربعة و ستون ميلا، فإذا ضربنا هذا السدس الذى هو مساحة عرض الأرض فى النصف، و هو مقدار الطول، كان المعمور من الشمال قدر نصف سدس الأرض. و أما الطول فإنه يقل لتضايق أقسام كرة الأرض، و مقداره مثل خمس الدور، و هو بالتقريب أربعة آلاف و ثمانون ميلا، و فى الربع المسكون من الأرض: سبعة أبحر كبار، و فى كل بحر منها عدة جزائر، و فيه خمسة عشر بحيرة منها ملح و عذب، و فيه مائتا جبل طوال، و مائتا نهر، و أربعون نهرا طوالا، و يشتمل على سبعة أقاليم تحتوى على سبعة عشر ألف مدينة كبيرة.

و قال فى كتاب هروشيوس: لما استقامت طاعة بوليس الملقب قيصر الملك فى عامّة الدنيا، تخير أربعة من الفلاسفة سماهم، فأمرهم أن يأخذوا له وصف حدود الدنيا، و عدّة بحارها، و كورها أرباعا فولّى أحدهم أخذ وصف جزء المشرق، و ولى آخر أخذ وصف جزء المغرب، و ولى الثالث أخذ وصف جزء الشمال. و ولى الرابع أخذ وصف جزء الجنوب، فتمت كتابة الجميع على أيديهم فى نحو من ثلاثين سنة، فكانت جملة البحار المسماة فى الدنيا تسعة و عشرين بحرا قد سمّوها: منها بجزء الشرق ثمانية، و بجزء الغرب ثمانية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج١، ص: ٢٣

و بجزء الشمال أحد عشر، و بجزء الجنوب اثنان، و عدّة الجزائر المعروفة الأمهات: إحدى و سبعون جزيرة منها: فى الشرق ثمان، و فى الغرب ست عشرة، و فى جهة الشمال إحدى و ثلاثون، و فى جهة الجنوب ست عشرة. و عدّة الجبال الكبار المعروفة فى جميع الدنيا ستة و ثلاثون و هى أمّهات الجبال و قد سموها فيما فسروه منها: فى جهة الشرق سبعة، و فى جهة المغرب خمسة عشر، و فى الشمال اثنا عشر، و فى الجنوب اثنان، و البلدان الكبار ثلاثة و ستون منها: فى المشرق سبعة، و فى المغرب خمسة و عشرون، و فى الشمال تسعة عشر، و فى الجنوب اثنا عشر. و قد سموها، و الكور الكبار المعروفة تسع و مائتان منها: فى المشرق خمس و سبعون، و فى المغرب ست و ستون، و فى الشمال ست، و فى الجنوب اثنان و ستون. و الأنهار الكبار المعروفة فى جميع الدنيا ستة و خمسون منها: لجزء الشرق سبعة عشر، و لجزء الغرب ثلاثة عشر، و لجزء الشمال تسعة عشر، و لجزء الجنوب سبعة.

و الأقاليم السبعة كل إقليم منها كأنه بساط مفروش قد مدّ طوله من الشرق إلى الغرب، و عرضه من الشمال إلى الجنوب و هذه الأقاليم مختلفة الطول و العرض. فالإقليم الأوّل منها يمرّ وسطه بالمواضع التى طول نهار الأطول ثلاثة عشر ساعة و السابع منها يمرّ وسطه بالمواضع التى طول نهارها الأطول ست عشر ساعة لأنّ ما حاذى حدّ الإقليم الأوّل إلى نحو الجنوب يشتمل عليه البحر و لا عمارة فيه و ما حاذى الإقليم السابع إلى الشمال لا يعلم فيه عمارة فجعل طول الأقاليم السبعة من الشرق إلى الغرب مسافة اثنتى عشرة ساعة من دور الفلك و صارت عروضها تتفاضل نصف ساعة من ساعات النهار الأطول فأطولها و أعرضها الإقليم الأوّل و طوله من المشرق إلى المغرب نحو ثلاثة آلاف فرسخ، و عرضه من الشمال إلى الجنوب مائة و خمسون فرسخا.

و أقصرها طولا و عرضا الإقليم السابع و طوله من الشرق إلى الغرب ألف و خمسمائة فرسخ، و عرضه من الشمال إلى الجنوب نحو من سبعين فرسخا، و بقية الأقاليم الخمسة فيما بين ذلك، و هذه الأقاليم خطوط متوهمة لا وجود لها فى الخارج وضعها القدماء الذين جالوا فى الأرض ليقفوا على حقيقة حدودها، و يتيقنوا مواضع البلدان منها، و يعرفوا طرق مسالكها هذا حال الربع المسكون، و أما الثلاثة الأرباع الباقية فإنها خراب، فجهة الشمال واقعة تحت مدار الجدى قد أفرط هناك البرد، و صارت ستة أشهر ليلا مستمرّا، و هى مدّة الشتاء عندهم لا يعرف فيها نهار، و يظلم الهواء ظلمة شديدة، و تجمد المياه لقوّة البرد، فلا يكون هناك نبات و لا حيوان، و يقابل هذه الجهة الشمالية ناحية الجنوب حيث مدار سهيل، فيكون النهار ستة أشهر بغير ليل، و هى مدّة الصيف عندهم، فيحمى الهواء و يصير سموما محرقا يهلك بشدّة حرّه الحيوان و النبات، فلا يمكن سلوكه و لا السكنى فيه، و أما ناحية الغرب، فيمنع البحر المحيط من السلوك فيه لتلاطم أمواجه و شدّة ظلماته و ناحية الشرق تمنع من سلوكها الجبال الشامخة، و صار الناس أجمعهم قد انحصروا فى الربع المسكون من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢۴

الأرض و لا علم لأحد منهم بالأرض أى بالثلاثة الأرباع الباقية، و الأرض كلها بجميع ما عليها من الجبال، و البحار نسبتها إلى الفلك كنقطة فى دائرة، و قد اعتبرت حدود الأقاليم السبعة بساعات النهار، و ذلك أن الشمس إذا حلت برأس الحمل، تساوى طول النهار و الليل فى سائر الأقاليم كلها، فإذا انتقلت فى درجات برج الحمل و الثور و الجوزاء اختلفت ساعات نهار كل إقليم، فإذا بلغت آخر الجوزاء و أوّل برج السرطان، بلغ طول النهار فى وسط الإقليم الأوّل ثلاث عشرة ساعة سواء، و صارت فى وسط الإقليم الثانى ثلاث عشرة ساعة و نصف ساعة، و فى وسط الإقليم الثالث أربع عشرة ساعة، و صارت فى وسط الإقليم الثانى ثلاث عشرة ساعة و نصف ساعة، و فى وسط الإقليم الثالث أربع عشرة ساعة، و فى وسط الإقليم الرابع أربع عشرة ساعة و نصف ساعة، و فى وسط الإقليم الخامس خمس عشرة ساعة، و فى وسط الإقليم السادس خمس عشرة ساعة و نصف ساعة، و فى وسط الإقليم السابع ست عشرة ساعة سواء، و ما زاد على ذلك إلى عرض تسعين درجة يصير نهارا كلّه.

و معنى طول البلد: هو بعدها من أقصى العمارة فى الغرب، و عرضها هو بعدها عن خط الاستواء، و خط الاستواء كما تقدّم هو الموضع الذى يكون فيه الليل و النهار طول الزمان سواء، فكل بلد على هذا الخط لا عرض له، و كل بلد فى أقصى الغرب لا طول له، و من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، مائة و ثمانون درجة، و كل بلد يكون طوله تسعين درجة، فإنه فى وسط ما بين الشرق و الغرب، و كل بلد كان طوله أقل من تسعين درجة فإنه أقرب إلى الغرب و أبعد من الشرق، و ما كان طوله من البلاد أكثر من تسعين درجة، فإنه أبعد عن الغرب، و أقرب إلى الشرق.

و قد ذكر القدماء أن العالم السفلىّ مقسوم سبعة أقسام، كل قسم يقال له: إقليم، فإقليم الهند لزحل، و إقليم بابل للمشترى، و إقليم الترك للمرّيخ، و إقليم الروم للشمس، و إقليم مصر لعطارد، و إقليم الصين للقمر.

و قال قوم: الحمل و المشترى لبابل، و الجدى و عطارد للهند، و الأسد و المريخ للترك، و الميزان و الشمس للروم، ثم صارت القسمة على اثنى عشر برجا، فالحمل و مثلاه للمشرق، و الثور و مثلاه للجنوب، و الجوزاء و مثلاها للمغرب، و السرطان و مثلاه للشمال، قالوا و فى كل إقليم مدينتان عظيمتان بحسب بيتى كل كوكب إلا إقليم الشمس، و إقليم القمر فإنه ليس فى كل إقليم منهما سوى مدينة واحدة عظيمة. و جميع مدائن الأقاليم السبعة، و حصونها أحد و عشرون ألف مدينة، و ستمائة مدينة و حصن بقدر دقائق درج الفلك.

و قال هرمس: إذا جعلت هذه الدقائق روابع كانت أناس هذه الأقاليم، و إذا مات أحد ولد نظيره و يقال: إن عدد مدن الإقليم الأول من مطلع الشمس و قراها ثلاثة آلاف و مائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢۵

مدينة و قرية كبيرة، و أنّ فى الثانى ألفان و سبعمائة و ثلاث عشرة مدينة و قرية كبيرة، و فى الثالث ثلاثة آلاف و تسع و سبعون، و فى

الرابع و هو بابل ألفان و تسعمائة و أربع و سبعون، و فى الخامس ثلاثة آلاف و ست مدن، و فى السادس ثلاثة آلاف و أربعمائة و ثمان مدن، و فى السابع ثلاثة آلاف و ثلاثمائة مدينة و قرية كبيرة فى الجزائر.

فالإقليم الأوّل يمرّ وسطه بالمواضع التى طول نهارها الأطول ثلاث عشرة ساعة، و يرتفع القطب الشماليّ فيها عن الأفق ست عشرة درجة و ثلثا درجة، و هو العرض و انتهاء عرض هذا الإقليم من حيث يكون طول النهار الأطول فيه ثلاث عشرة ساعة و ربع ساعة، و ارتفاع القطب الشماليّ، و هو العرض عشرون درجة و نصف درجة، و هو مسافة أربعمائة و أربعين ميلا، و ابتداؤه من أقصى بلاد الصين، فيمرّ فيها إلى ما يلى الجنوب، و يمرّ بسواحل الهند، ثم ببلاد السند، و يمرّ فى البحر على جزيرة العرب و أرض اليمن، و يقع بحر القلزم فيمرّ ببلاد الحبشة، و يقطع نيل مصر إلى بلاد الحبشة، و مدينة دنقلة من أرض النوبة، و يمرّ فى أرض المغرب على جنوب بلاد البربر إلى نحو البحر المحيط، و فى هذا الإقليم عشرون جبلا فيها ما طوله من عشرين فرسخا إلى ألف فرسخ، و فيه ثلاثون نهرا طويلا منها ما طوله ألف فرسخ إلى عشرين فرسخا، و فيه خمسون مدينة كبيرة، و عامّة أهل هذا الإقليم سود الألوان، و لهذا الإقليم من البروج الحمل و القوس، و له من الكواكب السيارة المشترى، و هو مع فرط حرارته كثير المياه كثير المروج و زرع أهله الذرة و الأرز إلّا أنّ الاعتدال عندهم معدوم، فلا يثمر عندهم كرم و لا حنطة، و البقر عندهم كثير لكثرة المروج، و فى مشرقه البحر الخارج وراء خط الاستواء، بثلاث عشرة درجة، و فى مغربه النيل، و بحر الغرب و من هذا الإقليم يأتى نيل مصر، و شرقهم معمور بالبحر الشرقيّ الذى هو بحر الهند و اليمن.

و الإقليم الثانى: حيث يكون طول النهار الأطول ثلاث عشرة ساعة و نصف، و يرتفع القطب الشماليّ فيه قدر أربعة و عشرين جزءا و عشر جزء، و عرضه من حدّ الإقليم الأوّل إلى حيث يكون النهار الأطول ثلاث عشرة ساعة و نصف و ربع ساعة، و ارتفاع القطب الشماليّ، و هو العرض سبعة و عشرون درجة و نصف درجة، و مساحة هذا الإقليم أربعمائة ميل و يبتدئ من بلاد الشرق مارّا ببلاد الصين إلى بلاد الهند و السند، ثم بملتقى البحر الأخضر و بحر البصرة، و يقطع جزيرة العرب فى أرض نجد و تهامة، فيدخل فى هذا الإقليم اليمامة، و البحران، و هجر، و مكة، و المدينة، و الطائف، و أرض الحجاز، و يقطع بحر القلزم، فيمرّ بصعيد مصر الأعلى و يقطع النيل، فيصير فيه مدينة قوص، و اخميم و أسنى و أنصنا و أسوان، و يمرّ فى أرض المغرب على وسط بلاد إفريقية، فيمرّ على بلاد البربر إلى البحر فى المغرب، و فى هذا الإقليم سبعة عشر جبلا، و سبعة عشر نهرا طوالا و أربعمائة و خمسون مدينة كبيرة، و ألوان أهل هذا الإقليم ما بين السمرة و السواد، و له من البروج الجدى، و من السيارة زحل، و يسكن هذا الإقليم الرحالة، ففى المغرب منهم حدا له و صنهاجة و لمتونة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۶

و مسوفة، و يتصل بهم رحالة مصر من ألواح و فى هذا الإقليم يكون يحل، و فيه مكة و المدينة و منه السماوة من أهل العراق إلى رحالة الترك.

و الإقليم الثالث: وسطه حيث يكون طول النهار الأطول أربع عشرة ساعة و ارتفاع القطب، و هو العرض ثلاثون درجة و نصف و خمس درجة، و عرض هذا الإقليم من حدّ الإقليم الثانى إلى حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة و ربع ساعة، و ارتفاع القطب و هو العرض ثلاث و ثلاثون درجة و مسافته ثلاثمائة و خمسون ميلا و يبتدئ من الشرق، فيمر بشمال الصين، و بلاد الهند، و فيه مدينة الهندهار ثم بشمال السند، و بلاد كابل، و كرمان، و سجستان إلى سواحل بحر البصرة، و فيه اصطخر و سابور، و شيراز و سيراف و يمرّ بالأهواز و العراق، و البصرة، و واسط، و بغداد، و الكوفة، و الأنبار و هيت، و يمرّ ببلا الشام إلى سلمية و صور و عكا، و دمشق و طبرية و قيسارية و بيت المقدس و عسقلان و غزة و مدين و القلزم و يقطع أسفل أرض مصر من شمال انصنا إلى فسطاط مصر، و سواحل البحر، و فيه الفيوم و الإسكندرية و العرما و تنيس و دمياط و يمرّ ببلاد برقة إلى إفريقية فيدخل فيه القيروان و ينتهى فى البحر إلى الغرب و بهذا الإقليم ثلاث و ثلاثون جبلا كبارا و اثنان و عشرون نهرا طوالا و مائة و ثمانية و عشرون مدينة و أهله سمر

الألوان و من له من البروج العقرب، و من السيارة الزهرة، و في هذا الإقليم العمائر المتواصلة من أوّله إلى آخره اه.

و الإقليم الرابع: وسطه حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة و نصف ساعة، و ارتفاع القطب الشماليّ، و هو العرض ست و ثلاثون درجة و خمس درجة، و حدّ هذا الإقليم من حدّ الإقليم الثالث إلى حيث يكون النهار الأطول أربع عشرة ساعة و نصف و ربع ساعة، و العرض تسعا و عشرين درجة و ثلث درجة، و مسافة هذا الإقليم: ثلاثمائة ميل و يبتدئ من الشرق فيمر ببلاد التبت، و خراسان و خجندة و فرغانة و سمرقند و بخارى و هراة و مرو الروذ و سرخس و طوس و نيسابور و جرجان و قومس و طبرستان و قزوين و الديلم و الريّ و أصفهان و همذان و نهاوند و دينور و الموصل و نصيبين و آمد و رأس العين و شميساط و الرقة و يمرّ ببلاد الشام فيدخل فيه بالس، و مسح و ملطية و حلب و أنطاكية و طرابلس و المصيصة و حماه و صيدا و طرسوس و عمورية و اللاذقية، و يقطع بحر الشام على جزيرة قبرس و رودس، و يمرّ ببلاد طنجة، فينتهي إلى بحر المغرب، و في هذا الإقليم: خمسة و عشرون جبلا كبارا و خمسة و عشرون نهرا طوالا و مائتا مدينة و اثنتا عشرة مدينة، و ألوان أهله ما بين السمرة و البياض، و له من البروج الجوزاء، و من السيارة عطارد، و فيه البحر الرومي من مغربه إلى القسطنطينية، و من هذا الإقليم ظهرت الأنبياء و الرسل صلوات اللّه عليهم أجمعين، و منه انتشر الحكماء و العلماء فإنه وسط الأقاليم، ثلاثة جنوبية، و ثلاثة شمالية، و هو في قسم الشمس، و بعده في الفضيلة الإقليم الثالث و الخامس فإنهما على جنبيه، و بقية الأقاليم منحطة أهلوها ناقصون و منحطون عن الفضيلة لسماجة صورهم و توحش أخلاقهم كالزنج،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧

و الحبشة و أكثر أمم الإقليم الأوّل و الثاني و السادس و السابع يأجوج و مأجوج، و التغرغر و الصقالبة و نحوهم.

و الإقليم الخامس: وسطه حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة، و ارتفاع القطب الشمالي، و هو العرض إحدى و أربعون درجة و ثلث درجة، و ابتداؤه من نهاية عرض الإقليم الرابع إلى حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة و نصف ساعة، و العرض ثلاثا و أربعين درجة، و مسافته خمسون و مائتا ميل و يبتدئ من المشرق إلى بلاد يأجوج و مأجوج، و يمرّ بشمال خراسان، و فيه خوارزم و اسبيجاب و أذربيجان و بردعة و سجستان و أردن و خلاط و يمرّ على بلاد الروم إلى رومية الكبرى و الأندلس، حتى ينتهي إلى البحر الذي في المغرب و في هذا الإقليم من الجبال الطوال: ثلاثون جبلا، و من الأنهار الكبار خمسة عشر نهرا، و من المدائن الكبار مائتا مدينة، و أكثر أهله بيض الألوان و له من البروج الدلو، و من السيارة القمر.

و الإقليم السادس: وسطه حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة و نصف ساعة، و ارتفاع القطب الشماليّ، و هو العرض خمسا و أربعين درجة و خمسي درجة، و ابتداؤه من حدّ نهاية عرض الإقليم الخامس إلى حيث يكون النهار الأطول خمس عشرة ساعة و نصف و ربع ساعة، و العرض سبعا و أربعين درجة و ربع درجة.

و مسافة هذا الإقليم مائتا ميل و عشرة أميال، و يبتدى من المشرق، فيمرّ بمساكن الترك من أبحر خير و التغرغر إلى بلاد الخزر من شمال نجومهم على اللان و الشرير، و أرض برحان و القسطنطينية، و شمال الأندلس إلى البحر المحيط الغربي، و في هذا الإقليم من الجبال الطوال: اثنان و عشرون جبلا، و من الأنهار الطوال: اثنان و ثلاثون نهرا، و من المدن الكبار تسعون مدينة و أكثر أهل هذا الإقليم ألوانهم ما بين الشقرة و البياض، و له من البروج السرطان، و من السيارة المرّيخ.

و الإقليم السابع: وسطه حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة سواء، و ارتفاع القطب الشمالي و هو العرض ثمانيا و أربعين درجة و ثلثي درجة، و ابتداء هذا الإقليم من حدّ نهاية الإقليم السادس إلى حيث يكون النهار الأطول ست عشرة ساعة و ربع ساعة، و العرض خمسين درجة و نصف درجة، و مسافته مائتا و خمسة و ثمانون ميلا، فتبين أن ما بين أوّل حدّ الإقليم الأوّل، و آخر حدّ الإقليم السابع ثلاث ساعات و نصف، و أن ارتفاع القطب الشماليّ ثمانية و ثلاثون درجة تكون من الأميال، ألفين و مائة و أربعين ميلا، و يبتدى الإقليم السابع من المشرق على بلاد يأجوج و مأجوج، و يمرّ ببلاد الترك على سواحل بحر جرجان مما يلى الشمال، و يقطع بحر الروم

على بلاد جرجان و الصقالبة إلى أن ينتهى إلى البحر المحيط فى المغرب، و بهذا الإقليم عشرة جبال طوال و أربعون نهرا طوالا، و اثنتان و عشرون مدينة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۸

كبيرة، و أهله شقر الألوان، و له من البروج الميزان، و من السيارة الشمس، و فى كل إقليم من هذه الأقاليم السبعة أمم مختلفة الألسن، و الألوان، و غير ذلك من الطبائع و الأخلاق و الآراء و الديانات و المذاهب، و العقائد و الأعمال و الصنائع، و العادات و العبادات لا يشبه بعضهم بعضا، و كذلك الحيوانات و المعادن و النبات مختلفة فى الشكل و الطعم و اللون و الريح بحسب اختلاف أهوية البلدان، و تربة البقاع، و عذوبة المياه و ملوحتها على ما اقتضته طوالع كل بلد من البروج على أفقه و ممرّ الكواكب على مسامته البقاع من الأرض، و مطارح شعاعاتها على المواضع كما هو مقرّر فى مواضعه من كتب الحكمة ليتدبر أولو النهى، و يعتبر ذوو الحجى بتدبير اللّه فى خلقه، و تقديره لما يشاء و فعله لما يريد لا إله إلّا هو و مع ذلك فإن الربع المسكون من الأرض على تفاوت أقطاره مقسوم بين سبع أمم كبار: و هم الصين، و الهند، و السودان، و البربر، و الروم، و الترك، و الفرس، فجنوب مشرق الأرض فى يد الصين و شماله فى يد الترك و وسط جنوب الأرض فى يد الهند و فى وسط شمال الأرض الروم و فى جنوب مغرب الأرض السودان و فى شمال مغرب الأرض البربر و كانت الفرس فى وسط هذه الممالك قد أحاطت بهم الأمم الست.

ذكر محل مصر من الأرض و موضعها من الأقاليم السبعة

و إذ يسر اللّه سبحانه بذكر جمل أحوال الأرض، و معرفة ما فى كل إقليم من أقاليم الأرض، فلنذكر محل مصر من ذلك فنقول: ديار مصر بعضها واقع فى الإقليم الثانى، و بعضها واقع فى الإقليم الثالث، فما كان منها فى الصعيد الأعلى كقوص، و اخميم و أسنى و أنصنا و أسوان، فإنّ ذلك واقع فى أقسام الإقليم الثانى، و ما كان من ديار مصر فى جهة الشمال من أنصنا، و هو الصعيد الأدنى من أسيوط إلى فسطاط مصر، و الفيوم و القاهرة و الإسكندرية و الفرما و تنيس و دمياط فإن ذلك من أقسام الإقليم الثالث، و طول مدينة مصر الفسطاط و القاهرة، و هو بعدهما من أوّل العمارة فى جهة المغرب: خمس و خمسون درجة، و العرض و هو البعد من خط الاستواء ثلاثون درجة، و طول النهار الأطول أربع عشرة ساعة، و غاية ارتفاع الشمس فى الفلك بها ثلاث و ثمانون درجة و ثلث و ربع درجة، و فسطاط مصر مع القاهرة من مكة شرّفها اللّه تعالى واقعان فى الربع الجنوبيّ الشرقيّ، و الصعيد الأعلى أشدّ تشريقا لبعده عن مدينة الفسطاط بأيام عديدة فى جهة الجنوب، فيكون على ذلك مقابلا لمكة من غربيها، و مصر لا يتوصل إليها إلا من مفازة، ففى شرقيها بحر القلزم من وراء الجبل الشرقى، و فى غربيها صحراء المغرب، و فى جنوبها مفازة النوبة و الحبشة، و فى شمالها البحر الشامى، و الرمال التى فيها بين بحر الروم، و بحر القلزم و بين مصر و بغداد على ما ذكره ابن خرداذبه فى كتاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۹

الممالك و المسالك: ألف و سبعمائة و عشرة أميال، يكون خمسمائة و سبعين فرسخا، و مائة و بعضا و أربعين بريدا، و بين مصر و الشام أعنى دمشق: ثلاثمائة و خمسة و ستون ميلا تكون من الفراسخ مائة و إحدى و عشرين فرسخا و ثلثى فرسخ، عنها ثلاثون بريدا و كسر.

و قال ابن خرداذبه: أرض الحبشة و السودان مسيرة سبع سنين، و أرض مصر جزء واحد من ستين جزءا من أرض السودان، و أرض السودان جزء واحد من الأرض كلها.

و فى كتاب هردوشيش: بلد مصر الأدنى شرقه فلسطين، و غربه أرض ليبية، و أرض مصر الأعلى تمتدّ إلى ناحية الشرق، و حدّه فى الشمال خليج الغرب، و فى الجنوب البحر المحيط، و فى الغرب مصر الأدنى، و فى الشرق بحر القلزم، و فيه من الأجناس ثمانية و عشرون جنسا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٠

ذكر حدود مصر و جهاتها

اشارة

اعلم أن التحديد هو صفة المحدود على ما هو عليه، و الحدّ هو نهاية الشيء، و الحدود تكثر و تقل بحسب المحدود و الجهات التى تحدّ بها المساكن.

و البقاع أربع جهات و هى: جهة الشمال: التى هى إشارة إلى موضع قطب الفلك الشمالىّ المعروف من كواكبه الجدى، و الفرقدان، و يقابل جهة الشمال الجهة الجنوبية، و الجنوب عبارة: عن موضع قطب الفلك الجنوبىّ الذى يقرب منه سهيل، و ما يتبعه من كواكب السفينة، و الجهة الثالثة: جهة المشرق و هو مشرق الشمس فى الاعتدالين اللذين هما رأس الحمل أوّل فصل الربيع، و رأس الميزان أوّل فصل الخريف، و الجهة الرابعة: جهة المغرب و هو مغرب الشمس فى الاعتدالين المذكورين، فهذه الجهات الأربع ثابتة بثبوت الفلك غير متغيرة بتغير الأوقات و بها تحدّ الأراضى و نحوها من المساكن، و بها يهتدى الناس فى أسفارهم و بها يستخرجون سمت محاريبهم.

فالمشرق و المغرب معروفان، و الشمال و الجنوب جهتان مقاطعتان لجهتى المشرق و المغرب على تربيع الفلك، فالخط المار بنقطتى الشمال و الجنوب يسمى: خط نصف النهار، و هو مقاطع للخط المار بنقطتى المشرق و المغرب المسمى: بخط الاستواء على زوايا قائمة، و أبعاد ما بين هذين الخطين متساوية فالمستقبل للجنوب يكون أبدا مستدبرا للشمال، و يصير المغرب عن يمينه، و المشرق عن يساره، و هذه الجهات الأربع هى التى ينسب إليها ما يحد من البلاد، و الأراضى و الدور إلا أن أهل مصر يستعملون فى تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية، فيقولون الحدّ القبلىّ ينتهى إلى كذا، و لا يقولون الحدّ الجنوبىّ، و كذلك يقولون الحدّ البحرىّ ينتهى إلى كذا، و يريدون بالبحرىّ الحدّ الشمالىّ، و قد يقع فى هاتين الجهتين الغلط فى بعض البلاد و ذلك أن البلاد التى توافق عروضها عرض مكة إذا كانت أطوالها أقل من طول مكة، فإن القبلة تكون فى هذه البلاد نفس الشرق بخلاف التى توافق عروضها عرض مكة، إلا أن أطوالها أطول من طول مكة، فإنّ القبلة فى هذه البلاد تكون نفس الغرب، فمن حدّد فى شيء من هذه البلاد أرضا أو مسكنا بحدود أربعة، فإنه يصير حدّان منها حدّا واحدا، و كذلك جهة البحر لما جعلوها قبالة جهة القبلة، و حدّدوا ما بينهما من الأراضى، و الدور بما يسامتها منه، فإنهم أيضا ربما غلطوا، و ذلك أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١

القبلة و البحر يكونان فى بعض البلاد فى جهة واحدة، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن أرض مصر: لها حدّ يأخذ من بحر الروم و من الإسكندرية، و زعم قوم من برقة فى البرّ حتى ينتهى إلى ظهر الواحات، و يمتدّ إلى بلد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة فى حدّ أسوان على حدّ أرض السبخة فى قبلىّ أسوان حتى ينتهى إلى بحر القلزم، ثم يمتدّ على بحر القلزم و يجاوز القلزم إلى طور سينا، و يعطف على تيه بنى إسرائيل مارا إلى بحر الروم فى الجفار خلف العريش و رفح، و يرجع إلى الساحل مارّا على بحر الروم إلى الإسكندرية، و يتصل بالحدّ الذى قدمت ذكره من نوحى برقة.

و قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز فى رسالته المصرية: أرض مصر بأسرها واقعة فى المعمورة فى قسمى الإقليم الثانى، و الإقليم الثالث، و معظمها فى الثالث، و حكى المعتنون بأخبارها و تواريخها أنّ حدّها فى الطول من مدينة برقة التى فى جنوب البحر الرومىّ إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة و الزيج و الهند و الصين، و مسافة ذلك قريب من أربعين يوما، و حدّها فى العرض من مدينة أسوان و ما سامتها من الصعيد الأعلى المتآخم لأرض النوبة إلى رشيد، و ما حاذاها من مساقط النيل فى البحر الرومىّ و

مسافة ذلك قريب من ثلاثين يوما، و يكتنفها فى العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل، و هو المقطم، و الآخر فى الضفة الغربية منه، و النيل متسرب فيما بينهما، و هما جبلان أجردان غير شامخين يتقاربان جدّا فى وضعهما من لدن أسوان إلى أن ينتهيا إلى الفسطاط، ثم يتسع ما بينهما، و ينفرج قليلا، و يأخذ المقطم منهما مشرّقا و الآخر مغرّبا على وراب فى مأخذيهما، و تفريج فى مسلكيهما، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرماء و تنيس و دمياط و رشيد و الإسكندرية، فهناك تتقطع فى عرضها الذى هو مسافة ما بين أوغلها فى الجنوب، و أوغلها فى الشمال، و إذا نظرنا بالطريق البرهانية فى مقدار هذه المسافة من الأميال لم تبلغ ثلاثين ميلا، بل تنقص عنها نقصانا ما له قدر، و ذلك لأن فضل ما بين عرض مدينة أسوان التى هى أوغلها فى الجنوب، و عرض مدينة تنيس التى هى أوغلها فى الشمال تسعة أجزاء و نحو سدس جزء و ليس بين طوليها فضل له قدر يعتدّ به، و ينوب ذلك نحو خمسمائة و عشرين ميلا بالتقريب، و ذلك مسافة عشرين يوما أو قريب منها و فى هذه المدّة من الزمان تقطع السفار ما بين البلدين بالسير المعتدل أو أكثر من ذلك لما فى الطريق من التعويج و عدم الاستقامة.

و قال القضاعى: الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية و مراقيه و فى آخر أرض مراقيه تلقى أرض انطابلس و هى برقة، و من العريش فصاعدا يكون ذلك مسيرة أربعين ليلة، و هو ساحل كله على البحر الرومى، و هو بحرىّ أرض مصر، و هو مهب الشمال منها إلى القبلة شيئا ما فإذا بلغت آخر أرض مراقيه عدّت ذات الشمال، و استقبلت الجنوب، و تسير فى الرمل و أنت متوجه إلى القبلة يكون الرمل من مصبه عن يمينك إلى إفريقة و عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٢

يسارك من أرض مصر إلى أرض الفيوم منها و أرض الواحات الأربعة فذلك غربىّ مصر، و هو ما استقبلته منه ثم تعوج من آخر أرض الواحات، و تستقبل المشرق سائرا إلى النيل تسير ثمانى مراحل إلى النيل، ثم على النيل فصاعدا و هى آخر أرض الإسلام هناك، و يليها بلاد النوبة ثم ينقطع النيل فتأخذ من أسوان فى المشرق منكبا عن بلد أسوان إلى عيداب ساحل البحر الحجازىّ، فمن أسوان إلى عيداب خمس عشرة مرحلة، و ذلك كله قبلىّ أرض مصر و مهب الجنوب منها ثم ينقطع البحر الملح من عيداب إلى أرض الحجاز فينزل الحوراء أوّل أرض مصر و هى متصلة بأعراض مدينة الرسول صلى اللّه عليه و سلم و هذا البحر المحدود: هو بحر القلزم، و هو داخل فى أرض مصر بشرقيه و غربيه و بحريه فالشرقىّ منه أرض الحوراء و طنسه و النبك و أرض مدين و أرض أيلة فصاعدا إلى المقطم بمصر، و الغربىّ منه ساحل عيداب إلى بحر النعام إلى المقطم، و البحرىّ منه مدينة القلزم و جبل الطور و من القلزم إلى الفرماء مسيرة يوم و ليلة و هو الحاجز فيما بين البحرين طح الحجاز و بحر الروم و هذا كله شرقىّ أرض مصر من الحوراء إلى العريش، و هو مهب الصبا منها فهذا المحدود من أرض مصر، و ما كان بعد هذا من الحدّ الغربىّ، فمن فتوح أهل مصر، و ثغورهم من البرقة إلى الأندلس.

ذكر بحر القلزم

القلازم: الدواهى و المضايقة و منه بحر القلزم لأنه مضيق بين جبال، و لما كانت أرض مصر منحصرة بين بحرين هما بحر القلزم من شرقيها و بحر الروم من شماليها، و كان بحر القلزم داخلا فى أرض مصر كما تقدّم صار من شرط هذا الكتاب التعريف به.

فنقول: هذا البحر إنما عرف فى ناحية ديار مصر: بالقلزم لأنه كان بساحله الغربىّ فى شرقىّ أرض مصر مدينة تسمى: القلزم و قد خربت كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكرى قرى مصر و مدنها فسمّى هذا البحر باسم تلك المدينة، و قيل له: بحر القلزم على الإضافة، و يقال له بالعبرانية: (ثم تسوب) و هذا البحر إنما هو خليج يخرج من البحر الكبير المحيط بالأرض الذى يقال له: بحر اقيانس و يعرف أيضا:

ببحر الظلمات لتكاثف البخار المتصاعد منه، و ضعف الشمس عن حله فيغلظ و تشتدّ الظلمة، و يعظم موج هذا البحر، و تكثر أهواله،

و لم يوقف من خبره إلّا على ما عرف من بعض سواحله، و ما قرب من جزائره، و فى جانب هذا البحر الغربىّ الذى يخرج منه البحر الرومى الآتى ذكره إن شاء اللّه.

الجزائر الخالدات و هى فيما يقال: ست جزائر يسكنها قوم متوحشون، و فى جانب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٣

هذا البحر الشرقىّ مما يلى الصين ست جزائر أيضا تعرف: بجزائر السبلى نزلها بعض العلويين فى أوّل الإسلام خوفا على أنفسهم من القتل، و يخرج من هذا المحيط ستة أبحر أعظمها اثنان: و هما اللذان عناهما اللّه تعالى بقوله: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ [الرحمن/ ١٩]، و قوله: وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً [النمل/ ٦١]، فأحدهما: من جهة الشرق، و الآخر:

من جهة الغرب. فالخارج من جهة الشرق يقال له: البحر الصينىّ، و البحر الهندىّ، و البحر الفارسىّ، و البحر اليمنىّ، و البحر الحبشىّ، بحسب ما يمرّ عليه من البلدان. و أما الخارج من الغرب فيقال له: البحر الرومىّ. فأما البحر الهندىّ الخارج من جهة الشرق فإن مبدأ خروجه من مشرق الصين وراء خط الاستواء بثلاثة عشر درجة و يجرى إلى ناحية الغرب فيمرّ على بلاد الصين و بلاد الهند إلى مدينة كنبانة و إلى التيبر من بلاد كمران فإذا صار إلى بلاد كمران ينقسم هناك قسمين: أحدهما يسمى: بحر فارس، و الآخر يسمى: بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن جبل خارج فى البر يسمى هذا الركن: رأس الجمجمة فيمتد من هناك إلى مدينة ظفار و يسير إلى المسجر و ساحل بلاد حضرموت إلى عدن و إلى باب المندب، و طول هذا البحر الهندىّ ثمانية آلاف ميل فى عرض ألف و سبعمائة ميل عند بعض المواضع و ربما ضاق عن هذا القدر من العرض فإذا انتهى إلى باب المندب يخرج إلى بحر القلزم، و المندب جبل طوله اثنا عشر ميلا وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل الآخر من البرّ تجاهه فإذا فارق باب المندب مرّ فى جهة الشمال بساحلى زبيد و الحرون إلى عثر و كانت عثر مقر الملك فى القديم و يمرّ من هناك على حلى إلى عسفان و أنمار و هى فرضة المدينة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة و السلام و التحية و الإكرام، و منها على ما يقابل الجحفة حيث يسمى اليوم رابغ إلى الحوراء و مدين و أيلة و الطور و فاران و مدينة القلزم، فإذا وصل إلى القلزم انعطف من جهة الجنوب و مرّ إلى القصير و هى فرضة قوص و من القصير إلى عيذاب و هى فرضة البجه، و يمتدّ من عيذاب إلى بلد الزيلع، و هو ساحل بلاد الحبشة و يتصل ببربر و طول هذا البحر ألف و خمسمائة ميل و عرضه من أربعمائة ميل إلى ما دونها و هو بحر كريه المنظر و الرائحة و فى هذا البحر مصب دجلة و الفرات و على أطرافه بلاد السند، و بلاد اليمن كأنها جزائر أحاط بها الماء من جهاتها الثلاث و هو: يردع نهر مهران كردع البحر الرومى لنيل مصر. و فيه فيما بين مدينة القلزم، و مدينة أيلة مكان يعرف: بمدينة قاران و عندها جبل لا يكاد ينجو منه مركب لشدّة اختلاف الريح و قوّة ممرّها من بين شعبتى جبلين و هى بركة سعتها ستة أميال تعرف: ببركة الغرندل، يقال: إن فرعون غرق فيها فإذا هبت ريح الجنوب لا يمكن سلوك هذه البركة، و يقال: إن الغرندل اسم صنم كان فى القديم هناك قد وضع ليحبس من خرج من أرض مصر مغاضبا للملك أو فارا منه، و أنّ موسى عليه السلام لما خرج ببنى إسرائيل من مصر و سار بهم مشرقا أمره اللّه سبحانه و تعالى: أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٤

ينزل تجاه هذا الصنم فلما بلغ ذلك فرعون ظنّ أنّ الصنم قد حبس موسى و من معه و منعهم من المسير كما يعهدونه منه فخرج بجنوده فى طلب موسى و قومه ليأخذهم بزعمه فكان من غرقه ما قصه اللّه تعالى و سيرد خبر موسى عليه السلام عند ذكر كنيسة دموة من هذا الكتاب فى ذكر كنائس اليهود.

و فى بحر القلزم هذا خمس عشرة جزيرة منها: أربع عامرات و هى: جزيرة دهلك، و جزيرة سواكن، و جزيرة النعمان، و جزيرة السامرىّ و يخرج من هذا البحر خلجان: خليج لطيف ببلاد الهند المتصلة بالبحر الأعظم، و خليج يحول بين بلاد السودان، و بلاد اليمن عرض دقاقه نحو من فرسخين، و يقرب هذا البحر من البحر الرومى فى أعمال بلاد الشام و ديار مصر حتى يكون بينهما نحو يوم.

ذكر البحر الرومى

و لما كانت عدّة بلاد من أرض مصر مطلة على البحر الرومى كمدينة الإسكندرية، و دمياط و تنيس، و الفرماء، و العريش و غير ذلك، و كان حدّ أرض مصر ينتهى فى الجهة الشمالية إلى هذا البحر و هو نهاية مصب النيل حسن التعريف بشىء من أخباره، و قد تقدّم أن مخرج البحر الرومى هذا من جهة الغرب و هو يخرج فى الإقليم الرابع بين الأندلس، و الغرب سائرا إلى القسطنطينية، و يقال: إن إسكندر الجبار حفره و أجراه من البحر المحيط الغربىّ و أن جزيرة الأندلس و بلاد البربر كانت أرضا واحدة يسكنها البربر و الأشبان فكان بعضهم يغير على بعض إلى أن ملك إسكندر الجبار بن سلقوس بن اعريقس بن دوبان فرغب إليه الأشبان فى أن يجعل بينهم و بين البربر خليجا من البحر يمكن به احتراز كل طائفة عن الأخرى فحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا فى عرض اثنى عشر ميلا، و بنى بجانبيه سكرين و عقد بينهما قنطرة يجاز عليها و جعل عندها حرسا يمنعون البربر من الجواز عليها إلا بإذن و كان قاموس البحر أعلى من أرض هذا الزقاق فطما الماء حتى غطى السكرين مع القنطرة و ساق بين يديه بلادا كثيرة و طغى على عدّة بلاد و يقال: إن المسافرين فى هذا الزقاق بالبحر يخبرون أن المراكب فى بعض الأوقات يتوقف سيرها مع وجود الريح فيجدون المانع لها كونها قد سلكت بين شرافات السور و بين حائطين ثم عظم هذا الزقاق فى الطول و العرض حتى صار بحرا عرضه ثمانية عشر ميلا و يذكرون أن البحر إذا جزر ترى القنطرة حينئذ و هذا الخبر أظنه غير صحيح فإن أخبار هذا البحر و كونه بسواحل مصر لم يزل ذكره فى الدهر الأوّل قبل إسكندر بزمان طويل، فإما أن يكون ذلك قد كان فى أوّل الدهر مما عمله بعض الأوائل، و إما أن يكون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥

خبرا واهيا و إلا فزمان إسكندر حادث بعد كون هذا البحر، و اللّه أعلم.

و هذا الزقاق صعب السلوك شديد الهول متلاطم الأمواج، و إذا خرج البحر من هذا الزقاق مرّ مشرقا فى بلاد البربر و شمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد المغرب على إفريقية و برقة و الإسكندرية و شمال التيه و أرض فلسطين، و السواحل من بلاد الشام، ثم يعطف من هناك إلى العلايا و أنطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية حتى ينتهى إلى البحر المحيط الذى خرج منه و طول هذا البحر خمسة آلاف ميل، و قيل: ستة آلاف ميل، و عرضه من سبعمائة ميل إلى ثلاثمائة ميل، و فيه مائة و سبعون جزيرة عامرة فيها أمم كثيرة معروفة إلا أنه ليس من شرط هذا الكتاب منها صقلية و صورقة و أقريطش و قبالة البحر الهندىّ من جهة المغرب بحر خارج من المحيط فى مغرب بلاد الزنج ينتهى إلى قريب من جبل القمر و فيه مصب النيل المار على بلاد الحبشة و فى أسفله جزائر الخالدات التى هى منتهى الطول فى المغرب، و يقابل البحر الشامىّ من نحية المشرق بحر جرجان و قيل: إنه يتصل بالبحر المحيط من بين جبال شامخة و بحر الصقلب بحر يخرج من جهة المغرب بين الإقليم السادس، و الإقليم السابع، و هو متسع و فيه جزائر كثيرة، و منها جزيرة الأندلس إلا أنها تتصل بالبرّ الكبير و هو جبل كالذراع يتصل بهذا البرّ عند برشلونة و لهم بحر يعرف يأجوج و مأجوج غزير و فيه عجائب إلا أنه ليس من شرط هذا الكتاب ذكرها و يقال: إن مسافة هذا البحر الرومىّ نحو أربعة أشهر.

و قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونىّ ، فى كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن: و قد كان حرّض بعض ملوك الفرس فى بعض استيلائهم على مصر على أن يحفروا ما بين البحرين القلزم و الرومىّ و يرفعوا من بينهما البرزخ و كان أوّلهم شاسيس بن طراطس الملك ثم من بعده دارنوش الملك فلم يتمكن لهم ذلك لارتفاع ماء القلزم على أرض مصر.

فلما كانت دولة اليونانيين: جاء بطليموس الثالث ففعل ذلك على يد أرسمدس بحيث يحصل الغرض بلا ضرر. فلما كانت دولة الروم القياصرة طموه منعا لمن يصل إليهم من أعدائهم و ذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الإسكندرية و بلادها و بين القسطنطينية كان فى قديم الزمان أرضا تنبت الجميز و كانت مسكونة وخمة و كان أهلها من اليونانية، و أن الإسكندر خرق إليها البحر فغلب على تلك الأرض و كان بها فيما يزعمون:

الطائر الذى يقال له ققنس، و هو طائر حسن الصوت و إذا حان موته زاد حسن صوته قبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٦

ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع و أنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم و سرور فلا يهدأ من الصياح، و زعموا أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت ققنس فى تلك الحال فخشى إن هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسدّ أذنيه سدّا محكما ثم قرب إليه فجعل يفتح من أذنيه شيئا بعد شيء حتى استكمل فتح الأذنين فى ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة فلا يبغته حسنه فى أوّل مرّة فيأتى عليه، و زعموا: أن ذلك الطائر هلك و لم يبق منه و لا من فراخه شيء بسبب هجوم ماء البحر عليه، و على رهطه بالليل فى الأوكار فلم يبق له بقية، و يقال: إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحا فيه سمّ ليشربه فأعلمه بذلك فظهر منه مسرّة و فرح فقال له: ما هذا أيها الحكيم؟ فقال: هل أعجز أن أكون مثل ققنس.

ذكر اشتقاق مصر و معناها و تعداد أسمائها

و يقال: كان اسمها فى الدهر الأوّل قبل الطوفان جزلة، ثم سميت مصر، و قد اختلف أهل العلم فى المعنى الذى من أجله سميت هذه الأرض بمصر فقال قوم: سميت بمصر ابن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم و هو مصر الأوّل. و قيل: بل سميت بمصر الثانى و هو مصرام بن يعراوش الجبار بن مصريم الأوّل و به سمى مصر بن بنصر بن حام بعد الطوفان، و قيل: بل سميت بمصر الثالث و هو مصر بن بنصر بن حام بن نوح و هو اسم أعجميّ لا ينصرف. و قال آخرون: هى اسم عربىّ مشتق فأمّا من ذهب إلى أنّ مصر اسم أعجميّ فإنه استدل بما رواه أهل العلم بالأخبار من نزول مصر بن بنصر بهذه الأرض و قسمها بين أولاده فعرفت به اه.

و ذكر الحسن بن أحمد الهمدانى : أنّ مصر بن حام و هو مصريم، و قيل: أنّ بنصر بن هرمس بن هردوس جدّ الإسكندر قال: و نكح لوما بن حام بنت شاويل بن يافث بن نوح فولدت له بوقير و قبط أبا القبط قبط مصر، و من ههنا أن مصر بن حام و إنما هو مصر بن هرمس بن هردش بن بيطون بن روى بن ليطى بن يونان و به سميت مصر فهى مقدونية.

و ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: أنّ بنى آدم لما تحاسدوا و بغى عليهم بنو أقابيل بن آدم ركب نقراوس الجبار ابن مصريم ابن مركابيل بن دوابيل بن عرياب بن آدم عليه السلام فى نيف و سبعين راكبا من بنى عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعا من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧

الأرض يقطنون فيه فرارا من بنى أبيهم فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فأطالوا المشى عليه فلما رأوا سعة البلد فيه و حسنه أعجبهم و قالوا: هذه بلد زرع، و عمارة فأقطنوا فيه، و استوطنوا و بنوا فيه الأبنية المحكمة، و الصنائع العجيبة.

و بنى نقراوس مصر و سماها باسم أبيه مصريم و كان نقراوس جبارا له قوّة، و كان مع ذلك عالما و له ائتمر الجنّ فى هلاك بنى أبيه و لم يزل مطاعا و قد كان وقع إليه من العلوم التى كان زواميل علمها لآدم عليه السلام ما قهر به الجبابرة الذين كانوا قبله و ملوكهم، ثم أمر حين ملك ببناء مدينة فى موضع خيمته فقطعوا له الصخور من الجبال، و أثاروا معادن الرصاص و بنوا مدينة سماها: أمسوس و أقاموا فيها أعلاما طول كل لم منها: مائة ذراع و زرعوا و عمروا الأرض، ثم أمرهم ببناء المدائن، و القرى و أسكن كل ناحية من الأرض من رأى ثم حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم و لم يكن قبل ذلك معتدل الجرى إنما كان ينبطح و يتفرّق فى الأرض حتى يتوجه إلى النوبة فهندسوه و ساقوا منه أنهارا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها، و ساقوا منه نهرا إلى مدينتهم أمسوس يجرى فى وسطها، ثم سميت مصر بعد الطوفان بمصر بن بنصر بن حام بن نوح و ذلك أن قليمون الكاهن خرج من مصر و لحق بنوح عليه السلام و آمن به هو و أهله و ولده و تلامذته و ركب معه فى السفينة، و زوّج ابنته من بنصر بن حام بن نوح فلما خرج نوح من السفينة و قسم الأرض بين أولاده، و كانت ابنة قليمون قد ولدت لبنصر ولد أسماه مصرايم، فقال قليمون لنوح: ابعث معى يا نبىّ اللّه ابنى حتى

أمضى به بلدى، و أظهره على كنوزى و أوقفه على علومه و رموزه فأنفذه معه فى جماعة من أهل بيته و كان غلاما مرفها فلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر، و ستره بحشيش الأرض ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع مدينة و سماها: درسان أى باب الجنة، فزرعوا و غرسوا الأشجار و الأجنة من درسان إلى البحر فصارت هناك زروع و أجنة و عمارة و كان الذى مع مصرايم جبابرة فقطعوا الصخور و بنوا المعالم و المصانع و أقاموا فى أرغد عيش و يقال: إن أهل مصر أقاموا عليهم مصرايم بن بنصر ملكا فى أيام تالغ بن عابر بن شامخ بن أرفخشد بن سام بن نوح فملك مصر و هى مدينة منيعة على النيل و سماها باسمه و يقال: إن مصرايم غرس الأشجار بيده و كانت ثمارها عظيمة بحيث يشق الأترجة نصفين فيحمل على البعير نصفها و كان القثاء فى طول أربعة عشر شبرا و يقال: إنه أوّل من صنع السفن بالنيل و إنّ أوّل سفينة كانت ثلثمائة ذراع طولا فى عرض مائة ذراع.

و يقال: إن مصرايم نكح امرأة من بنى الكهنة فولدت له ولدا فسماه قبطيم، و نكح قبطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر: قبطيم، و أشمون، و أتريب، وصا، فكثروا و عمروا الأرض و بورك لهم فيها و قيل: إنه كان عدد من وصل معهم ثلاثين رجلا فبنوا مدينة سموها نافة و معنى نافة ثلاثون بلغتهم و هى (منف) و كشف أصحاب قليمون الكاهن عن كنوز مصر و علومهم و أثاروا المعادن، و علومهم علم الطلسمات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۸

و وضعوا لهم علم الصنعة، و بنوا على غير البحر مدنا منها رقودة مكان الإسكندرية و لما حضر مصرايم الوفاة عهد إلى ابنه قبطيم، و كان قد قسم أرض مصر بين بنيه فجعل لقبطيم من قفط إلى أسوان و لأشمون من أشمون إلى منف و لأتريب الحوف كله و لصا من ناحية صا البحرية إلى قرب برقة و قال لأخيه: فارق لك من برقة إلى الغرب فهو صاحب إفريقة و والد الأفارقة و أمر كل واحد من بنيه أن يبنى لنفسه مدينة فى موضعه و أمرهم عند موته أن يحفروا له فى الأرض سربا و أن يفرشوه بالمرمر الأبيض، و يجعلوا فيه جسده، و يدفنوا معه جميع ما فى خزائنه من الذهب، و الجوهر، و يزبروا عليه أسماء اللّه تعالى المانعة من أخذه فحفروا له سربا طوله مائة و خمسون ذراعا و جعلوا فى وسطه مجلسا مصفحا بصفائح الذهب، و جعلوا أربعة أبواب على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصع بالجوهر و هو جالس على كرسىّ من ذهب قوائمه من زبرجد و زبروا فى صدر كل تمثال آيات مانعة و جعلوا جسده فى جمد مرمر مصفح بالذهب و زبروا على مجلسه مات مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان و لم يعبد الأصنام إذ لا هرم، و لا سقام، و لا حزن، و لا اهتمام و حصنه بأسماء اللّه العظام، و لا يصل إليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك تدين بدين الملك الديان و يؤمن بالمبعوث بالفرقان الداعى إلى الإيمان آخر الزمان، و جعلوا معه فى ذلك المجلس: ألف قطعة من الزبرجد المخروط، و ألف تمثال من الجوهر النفيس، و ألف برنية مملوءة من الدرّ الفاخر و الصنعة الإلهية و العقاقر، و الطلسمات العجيبة، و سبائك الذهب و سقفوا ذلك بالصخور، و هالوا فوقها الرمال بين جبلين و ولى ابنه قبطيم الملك.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام فى كتاب التحائف: أنّ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود أخى عاد ابن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام و اسم عبد شمس هذا: عامر، و عرف بعبد شمس لأنه أوّل من عبد الشمس و قيل له أيضا: (سبأ) لأنه أوّل من سبأ و هو سبأ الأكبر أبو حمير و كهلان ملك بعد أبيه يشجب بأرض اليمن جميع بنى قحطان و بنى هود عليه السلام، و حثهم على الغزو ثم سار بهم إلى أرض بابل ففتحها و قتل من كان بها من الثوار حتى بلغ أرض أرمينية، و ملك أرض بنى يافث بن نوح و أراد أن يعبر من هناك إلى الشام، و أرض الجزيرة فقيل له: ليس لك مجاز غير الرجوع فى طريقك فبنى قنطرة على البحر و جاز عليها إلى الشام فأخذ تلك الأراضى إلى الدرب، و لم يكن خلف الدرب إذ ذاك أحد ثم نهض يريد بلاد العرب فنزل على النيل، و جمع أهل مشورته و قال لهم: إنى رأيت أن أبنى مصرا إلى حدّ بين هذين البحرين يعنى بحر الروم، و بحر القلزم. فيكون فاصلا بين الشرق و الغرب فقالوا: نعم الرأى أيها الملك، فبنى مدينة سماها مصر، و ولى عليها ابنه بابليون و مضى إلى بنى حام بن نوح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩

و هم نزول فى البرارى إلى قمونية و يعمونية القبط فأوقع بجميع تلك الطوائف و سبى ذراريهم كما فعل ببلاد الشرق فقيل له: من أجل ذلك سبأ ثم عاد إلى مصر و مضى فيها إلى الشام يريد الحجاز و أوصى ابنه بابليون عند رحيله اه:

ألا قل لبابليون و القول حكمةملكت زمام الشرق و الغرب فأجمل

و خذ لبنى حام من الأمر وسطهفإن صدفوا يوما عن الحق فأقبل

و إن جنحوا بالقول للرفق طاعةيريدون وجه الحق و العدل فأعدل

و لا تظهرنّ الرأى فى الناس يجترواعليك به و اجعله ضربة فيصل

و لا تأخذن المال فى غير حقهو إن جاء لا تدينه نحوك و ابذل

و داوى ذوى الأحقاد بالسيف إنهمتى يلق منك العزم ذو الحقد يجمل

وجد لذوى الأحساب لينا و شدّةو لا تك جبارا عليهم و أجمل

و كن لسؤال الناس غوثا و رحمةو من يك ذا عرف من الناس يسأل

و إياك و السفر القريب فإنهسيغنى بما يوليه فى كل منهل

ثم عاد إلى اليمن، و بنى سد مأرب و هو سدّ فيه سبعون نهرا، و يصل إليه السيل من مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها، ثم مات عن خمسمائة سنة، و قام من بعده ابنه حمير بن سبا فعتا بنو حام على بابليون و أرادوا تخريب مصر فاستدعى أخاه حمير لينجده عليهم فقدم عليه مصر، و مضى إلى بلاد المغرب فأقام بها مائة عام يبنى المدائن، و يتخذ المصانع فمات بابليون بن سبأ بمصر. و ولى بعده ابنه امرئ القيس بابليون ثم مات حمير بن سبأ عن أربعمائة سنة و خمس و أربعين سنة منها فى الملك أربعمائة سنة، و أقام من بعده وائل بن حمير. ثم مات فقام من بعده ابنه السكسك بن وائل الذى يقال له: مقعقع الحمد و قد افترق ملك حمير، فحارب الثوار، و سار إلى الشام فلقيه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن سبأ بالرملة و قد ملك بعد أبيه و قدّم له هدية فأقرّه على مصر حتى قدم عليه إبراهيم الخليل عليه السلام و وهبه هاجر.

و قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر و أخبارها عن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما قال: كان لنوح عليه السلام أربعة من الولد:

سام، و حام، و يافث، و يخطون، و أنّ نوحا رغب إلى اللّه عزّ و جلّ و سأله أن يرزقه الإجابة فى ولده و ذريته حين تكاملوا بالنماء و البركة فوعده ذلك فنادى نوح ولده و هم نيام عند السحر فنادى ساما فأجابه يسعى و صاح سام فى ولده فلم يجبه أحد منهم إلا ابنه أرفخشد فانطلق به معه حتى أتياه فوضع نوح يمينه على سام و شماله على أرفخشد بن سام و سأل اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٠

عزّ و جل أن يبارك فى سام أفضل البركة و أن يجعل الملك و النبوّة فى ولد أرفخشد، ثم نادى حاما و تلفت يمينا و شمالا فلم يجبه و لم يقم إليه هو و لا أحد من ولده فدعا اللّه عز و جل نوح أن يجعل ولده أذلاء و أن يجعلهم عبيدا لولد سام، و كان مصر بن بنصر بن حام نائما إلى جنب جدّه فلما سمع دعاء نوح على جدّه و ولده قام يسعى إلى نوح و قال: يا جدّى قد أجبتك إذ لم يجبك جدّى و لا أحد من ولده فاجعل لى دعوة من دعائك ففرح نوح و وضع يده على رأسه و قال: اللهمّ إنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه و فى ذريته و أسكنه الأرض المباركة التى هى أمّ البلاد، و غوث العباد التى نهرها أفضل أنهار الدنيا و أجعل فيها أفضل البركات، و سخر له و لولده الأرض و ذللها لهم و قوّهم عليها، ثم دعا ابنه يافث فلم يجبه و لا أحد من ولده، فدعا اللّه عليهم أن يجعلهم شرار الخلق، و عاش سام مباركا إلى أن مات و عاش ابنه أرفخشد بن سام مباركا حتى مات و كان الملك الذى يحبه اللّه و النبوّة و البركة فى ولد أرفخشد بن سام و كان أكبر ولد حام: كنعان بن حام، و هو الذى حمل به فى الرجز فى الفلك فدعا عليه نوح فخرج أسود و كان فى

ولده الملك و الجبروت و الجفاء و هو:

أبو السودان و الحبش كلهم و ابنه الثاني: كوش بن حام، و هو أبو السند و الهند و ابنه الثالث:

قوط بن حام و هو: أبو البربر و ابنه الأصغر الرابع: بنصر بن حام، و هو أبو القبط كلهم فولد بنصر بن حام أربعة: مصر بن بنصر و هو أكبرهم و الذى دعا له نوح بما دعا له. و فارق بن بنصر، و ماح بن بنصر، و قيل: ولد مصر أربعة: قفط بن مصر، و أشمن بن مصر، و أتريب بن مصر، وصا بن مصر؛ و عن ابن لهيعة و عبد اللّه بن خالد أوّل من سكن مصر بنصر بن حام بن نوح عليه السلام بعد أن أغرق اللّه تعالى قومه و أوّل مدينة عمرت بمصر منف فسكنها بنصر بولده و هم: ثلاثون نفسا منهم أربعة أولاد له قد بلغوا و تزوجوا و هم:

مصر، و فارق، و ياح، و ماح، و كان مصر أكبرهم فبنوا مصر، و كانت إقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم، و نقروا هناك منازل كثيرة، و كان نوح عليه السلام قد دعا لمصر أن يسكنه اللّه الأرض الطيبة المباركة التى هى أمّ البلاد، و غوث العباد، و نهرها أفضل الأنهار، و يجعل له فيها أفضل البركات و يسخر له الأرض و لولده و يذللها لهم و يقوّيهم عليها، فسأله عنها فوصفها له و أخبره بها قالوا: و كان مصر بن بنصر مع نوح فى السفينة لما دعا له و كان بنصر بن حام قد كبر و ضعف فساق ولده مصر، و جميع إخوته إلى مصر فنزلوها و بذلك سميت مصر فلما قرّ قرار بنصر و بنيه بمصر قال لمصر إخوته فارق و ماح و ياح و بنوا بنصر قد علمنا أنك أكبرنا و أفضلنا و أن هذه الأرض التى أسكنك إياها جدّك نوح، و نحن نضيق عليك أرضك، و ذلك حين كثر ولده و أولادهم، و نحن نطلب إليك البركة التى جعلها فيك جدّنا نوح أن تبارك لنا فى أرض نلحق بها و نسكنها و تكون لنا و لأولادنا، فقال: نعم عليكم بأقرب البلاد إلىّ و لا تباعدوا منى فإنّ لى فى بلادى مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسى فتكون لى و لولدى و لأولادهم، فحاز مصر بن بنصر لنفسه ما بين الشجرتين التى بالعريش

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤١

إلى أسوان طولا، و من برقة إلى أيلة عرضا، و حاز فارق لنفسه ما بين برقة إلى إفريقية، و كان ولده الأفارقة و لذلك سميت إفريقية، و ذلك مسيرة شهر، و حاز ماح ما بين الشجرتين من منتهى حدّ مصر إلى الجزيرة مسيرة شهر، و هو أبو قبط الشام، و حاز باح ما وراء الجزيرة كلّها ما بين البحر إلى الشرق مسيرة شهر، و هو أبو قبط العراق، ثم توفى بنصر بن حام، و دفن فى موضع دير أبى هرميس غربىّ الأهرام، فهى أوّل مقبرة قبر فيها بأرض مصر، و كثر أولاد مصر و كان الأكابر منهم قفط، و أتريب، و أشمن، و صا، و القبط من ولد مصر هذا و يقال: إنّ قبط أخو قفط، و هو بلسانهم قفطيم و قبطيم و مصرايم، قال: ثم إنّ بنصر بن حام و توفى و استخلف ابنه مصر، و حاز كل واحد من إخوة مصر: قطعة من الأرض لنفسه سوى أرض مصر التى حازها لنفسه و لولده، فلما كثر ولد مصر و أولاد أولادهم قطع مصر لكل واحد من ولده قطيعة يحوزها لنفسه و لولده، و قسم لهم هذا النيل فقطع لابنه قفط موضع قفط فسكنها و به سميت قفطا، و ما فوقها إلى أسوان، و ما دونها إلى أشمون فى الشرق و الغرب، و قطع لأشمن من أشمون فما دونها إلى منف فى الشرق و الغرب فسكن أشمن أشمون فسميت به، و قطع لأتريب ما بين منف إلى صا فسكن أتريبا فسميت به، و قطع لصا ما بين صا إلى البحر فسكن صا فسميت به فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء: جزأين بالصعيد، و جزأين بأسفل الأرض.

قال البكرى: و مصر مؤنثة قال تعالى: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ [الزخرف/ ٥١]، و قال:

ادْخُلُوا مِصْرَ [يوسف/ ٩٩]. و قال عامر بن أبى واثلة الكنانى لمعاوية: أما عمرو بن العاص، فأقطعته مصر، و أما قوله سبحانه: اهْبِطُوا مِصْراً [البقرة/ ٦١] فإنه أراد مصرا من الأمصار، و قرأ سليم الأعمش: اهبطوا مصر، و قال: هى مصر التى عليها سليم بن علىّ فلم يجرّها.

و قال القضاعى: و كان بنصر بن حام قد كبر، و ضعف فساقه ولده مصر، و جميع إخوته إلى مصر، فنزلوها و بذلك سميت مصر، و هو اسم لا ينصرف فى المعرفة لأنه اسم مذكر سميت به هذه المدينة فاجتمع فيها التأنيث و التعريف، فمعناها الصرف، ثم قيل: لكل مدينة عظيمة يطرقها السفار: مصر فإذا أريد مصر من الأمصار صرف لزوال إحدى العلتين، و هى التعريف، و أما قوله تعالى إخبارا عن

موسى عليه السلام: اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ [البقرة/ ٦١] فإنه مصروف فى قراءة سائر القراء، و فى قراءة الحسن و الأعمش: غير مصروف فمن صرفها فله و جهان: أحدهما: أنه أراد هبوط مصرا من الأمصار لأنهم كانوا يومئذ فى التيه، و الآخر: أنه أراد مصر هذه بعينها و صرفها لأنه جعل مصرا اسما للبلد، و هو اسم مذكر سمى به مذكّر فلم يمنعه الصرف، و أما من لم يصرفه فإنه أراد بمصر هذه المدينة، و كذلك قوله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [يوسف/ ٩٩]، و قول فرعون: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ [الزخرف/ ٥١] إنما يراد به مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٢

هذه، فأما المصر فى كلام العرب فهو الحدّ بين الأرضين، و يقال: إن أهل هجر يقولون:

اشتريت الدار بمصورها أى بحدودها.

و قال الجاحظ فى كتاب مدح مصر: إنما سميت مصر بمصر لمصير الناس إليها، و اجتماعهم بها. كما سمى مصير الجوف مصيرا و مصرانا لمصير الطعام إليه، قال: و جمع المصر من البلدان أمصار، و جمع مصير الطعام مصران، و ليس لمصر هذه جمع لأنها واحدة قال: و قال الأخطل: هممت بالإسلام، ثم توقفت عنه، قيل: و لم ذلك؟ قال: أتيت امرأة لى و أنا جائع فقلت: أطعمينى شيئا، فقالت: يا جارية ضعى لأبى مالك مصيرا فى النار، ففعلت، فاستعجلتها بالطعام فقالت: يا جارية أين مصير أبى مالك؟ قالت: فى النار، قال: فتطيرت و هممت بأن أسلم فتوقفت.

و قال الجوهرىّ فى كتاب الصحاح: مصر هى المدينة المعروفة تذكر و تؤنث عن ابن السراج و المصران الكوفة و البصرة، و قال ابن خالويه : فى كتاب ليس ليس أحد: فسّر لنا لم سميت مصر مقدونية قديما إلا فى اللسان العبرانىّ، قال: مقدونية مغيث و إنما سميت مصر لما سكنها بنصر بن حام، و تزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعا وقف على الكنيسة العظمى التى بالقسطنطينية، و يسمون بلاد مقدونية الأوصفية و هى عندهم الإسكندرية، و ما يضاف إليها و هى مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، و يقال لمصر: أم خنور، و تفسيره النعمة و المصر الفرق بين الشيئين. قال الشاعر يصف اللّه تعالى:

و جاعل الشمس مصرا لا خفاء بهبين النهار و بين الليل قد فصلا

هذا البيت قائله عدىّ بن زيد العبادىّ و يروى لأمية بن الصلت الثقفىّ و هو من أبيات أوّلها:

اسمع حديثا كما يوما تحدّثهعن ظهر غيب إذا ما سائل سألا
كيف بدا ثم ربى اللّه نعمتهفيها و علمنا آياته ألا و لا
كانت رياح و سيل ذو كرانيةو ظلمة لم تدع فتقا و لا خللا
فآمر الظلمة السوداء فانكشفتو عزل الماء عما كان قد شغلا
و بسط الأرض بسطا ثم قدّرهاتحت السّماء سواميل و ما نقلا
و جاعل الشمس مصرا لا خفاء بهبين النهار و بين الليل قد فصلا
و فى السماء مصابيح تضىء لناما إن تكلفنا زيتا و لا فتلا
قضى لستة أيام خليقتهو كان آخر شىء صوّر الرجلا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٣ فأخذ اللّه من طين فصوّرهلما رأى أنه قد تم و اعتدلا

دعاه آدم صوتا فاستجاب لهفنفخ الروح فى الجسم الذى جبلا
ثمة أورثه الفردوس يسكنهاو زوجه ضلعة من جنبه جعلا
لم ينهه ربه عن غير واحدةمن شجر طيب إن شم أو أكلا
و كانت الحية الرقشاء إذ خلقتكما ترى ناقة فى الخلق أو جملا

فلامها اللّه إذ أطغت خليفتهطول الليالى و لم يجعل لها أكلا

تمشى على بطنها فى الأرض ما عمرتو الترب تأكله حزنا و إن سهلا

و قال الحافظ أبو الخطاب مجد الدين عمر بن دحية: و مصر أخصب بلاد اللّه و سماها اللّه بمصر و هى هذه دون غيرها بإجماع القرّاء على ترك صرفها، و هى اسم لا- ينصرف فى معرفة لأنه اسم مذكر سميت به هذه المدينة، و اجتمع فيه التأنيث و التعريف فمنعاه الصرف، و هى عندنا مشتقة من مصرت الشاة إذا أخذت من ضرعها اللبن فسميت: مصر لكثرة ما فيها من الخير مما ليس فى غيرها فلا يخلو ساكنها من خير يدرّ عليه منها كالشاة التى ينتفع بلبنها، و صوفها، و ولادتها. و قال ابن الأعرابىّ: المصر الوعاء، و يقال للمعا المصير، و جمعه مصران و مصارين، و كذلك هى خزائن الأرض. قال أبو بصرة الغفارىّ من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: مصر خزائن الأرض كلها ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام: اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [يوسف/ ۵۵] فأغاث اللّه بمصر يومئذ و خزائنها كل حاضر و باد ذكره الحوفىّ فى تفسيره.

و قال البكرى: أمّ خنور بفتح أوّله و تشديد ثانيه و بالراء المهملة اسم لمصر، و قال أرطاة بن شهبة: يا آل ذبيان! ذودوا عن دمائكم، و لا تكونوا كقوم أم خنور. يقول: لا تكونوا أذلاء ينالكم من أراد، يجب التأمل فى هذه الجملة، و هى أم خنور. قال كراع: أم خنور: النعمة و لذلك سميت مصر أم خنور لكثرة خيرها. و قال علىّ بن حمزة: سميت أم خنور لأنها يساق إليها القصار الأعمار، و يقال للضبع: خنور و خنوز بالراء و الزاى، و قال ابن قتيبة فى غرائب الحديث: و مصر الحدّ، و أهل هجر يكتبون فى شروطهم اشترى فلان الدار بمصورها كلها أى بحدودها، و قال عدىّ بن زيد:

و جاعل الشمس مصرا لا خفاء بهبين النهار و بين الليل قد فصلا

أى حدّا.

ذكر طرف من فضائل مصر

و لمصر فضائل كثيرة منها: أنّ اللّه عزّ و جلّ ذكرها فى كتابه العزيز بضعا و عشرين مرّة تارة بصريح الذكر و تارة إيماء. قال تعالى: اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ [البقرة/ ۶۱].

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية فى تفسيره: و جمهور الناس يقرءون مصرا بالتنوين و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۴

خط المصاحف إلا ما حكى عن بعض مصاحف عثمان رضى اللّه عنه، و قال مجاهد و غيره:

من صرفها أراد مصرا من الأمصار غير معين، و استدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية، و بما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه، و قالت طائفة ممن صرفها: أراد مصر فرعون بعينها و استدلوا بما فى القرآن أن اللّه تعالى أورث بنى إسرائيل ديار فرعون و آثاره، و أجازوا صرفها. قال الأخفش: لخفتها و شبهها بهند و دعد، و سيبويه لا يجير هذا.

و قال غير الأخفش: أراد المكان فصرف. و قرأ الحسن و أبان بن ثعلب و غيرهما: اهبطوا مصر بترك الصرف؛ و كذلك هى فى مصحف أبىّ بن كعب. و قال: هى مصر فرعون. قال الأعمش : هى مصر التى عليها صالح بن على، و قال أشهب: قال لى مالك: هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون، قال تعالى: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [يوسف/ ۹۹]. قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى تفسيره عن فرقد الشيخى.

قال: خرج يوسف عليه السلام يتلقى يعقوب عليه السلام، و ركب أهل مصر مع يوسف، و كانوا يعظمونه فلما دنا أحدهما من صاحبه و كان يعقوب يمشى و هو يتوكأ على رجل من ولده يقال له: يهوذا فنظر يعقوب إلى الخيل، و إلى الناس، فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ابنك فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه قال يعقوب عليه السلام: عليك يا ذاهب الأحزان عنى. هكذا قال: يا

ذاهب الأحزان عنى.

و قال تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ [يونس/ ٨٧]. قال الطبرى عن ابن عباس و غيره: كانت بنو إسرائيل تخاف فرعون، فأمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها. قال قتادة: و ذلك حين منعهم فرعون الصلاة فأمروا أن يجعلوا مساجدهم فى بيوتهم و أن يوجهوا نحو القبلة، و عن مجاهد: بيوتكم قبلة قال: نحو الكعبة حين خاف موسى و من معه من فرعون أن يصلوا فى الكنائس الجامعة فأمروا أن يجعلوا فى بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرّا، و عن مجاهد فى قوله: أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً [يونس/ ٨٧] قال: مصر: الإسكندرية.

و قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الزخرف/ ٥١]. قال ابن عبد الحكم، و أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس، و غيرهما عن أبى رهم السماعى أنه قال فى قوله تعالى: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي [الزخرف/ ٥١] قال: و لم يكن يومئذ فى الأرض ملك أعظم من

ملك مصر، و كان جميع أهل الأرضيين يحتاجون إلى مصر، و أما الأنهار فكانت قناطر و جسورا بتقدير و تدبير حتى أن الماء يجرى من تحت منازلها و أفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا، فهذا ما ذكره اللّه سبحانه فى مصر من آى الكتاب العزيز بصريح الذكر.

(و أما) ما وقعت إليه الإشارة فيه من الآيات فعدّة.

قال تعالى: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ [يونس/ ٩٣]، و قال تعالى:

وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ [المؤمنون/ ٥٠]. قال ابن عباس، و سعيد بن المسيب، و وهب بن منبه: هى مصر، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه: هى الإسكندرية، و قال تعالى: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ [الشعراء/ ٥٧]، و قال تعالى: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ [الدخان/ ٢٥]. قال ابن يونس فى قول اللّه سبحانه: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ [الشعراء/ ٥٧]. قال أبو رهم: كانت الجنات بحافتى النيل من أوّله إلى آخره من الجانبين ما بين أسوان إلى رشيد، و سبعة خلج: خليج الإسكندرية، و خليج سخا، و خليج دمياط، و خليج سردوس، و خليج منف، و خليج الفيوم، و خليج المنهى متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء و زروع ما بين الجبلين كله من أوّل مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء، و كان جميع أرض مصر كلها تروى يومئذ من ستة عشر ذراعا لما قد دبروا من قناطرها، و جسورها. قال: و المقام الكريم: المنابر كان بها ألف منبر. و قال مجاهد و سعيد بن جبير: المقام الكريم: المنابر، و قال قتادة: و مقام كريم أى حسن و نعمة كانوا فيها فاكهين ناعمين. قال: أى و اللّه أخرجه اللّه من جنانه، و عيونه، و زروعه حتى ورطه فى البحر. و قال سعيد بن كثير بن عفير: كنا بقبة الهواء عند المأمون لما قدم مصر فقال لنا:

ما أدرى ما أعجب فرعون من مصر حيث يقول: أليس لى ملك مصر؟ فقلت: أقول: يا أمير المؤمنين، فقال: قل يا سعيد، فقلت: إنّ الذى ترى بقية مدمّر لأنّ اللّه عزّ و جلّ يقول:

وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف/ ١٣٧] قال: صدقت، ثم أمسك، و قال تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ [القصص/ ٥]، و قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال: يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ [غافر/ ٢٩]، و قال تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف/ ١٣٧]، و قال تعالى مخبرا عن قوم فرعون: أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ [الأعراف/ ١٢٧] يعنى أرض مصر، و قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام أنه قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [يوسف/ ٥٥]. روى ابن يونس عن أبى نضرة الغفارىّ رضى اللّه عنه قال: مصر خزائن الأرض كلها، و سلطانها سلطان الأرض كلها ألا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۶

ترى إلى قول يوسف عليه السلام لملك مصر: اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ ففعل فأغيث بمصر و خزائنها يومئذ كل حاضر، و باد من جميع الأرض، و قال تعالى: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ [يوسف/ ۵۶]، فكان ليوسف بسلطانه بمصر جميع سلطان الأرض كلها لحاجتهم إليه، و إلى ما تحت يديه، و قال تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام أنه قال: رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ [يونس/ ۸۸]، و قال تعالى: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [الأعراف/ ۱۲۹]، و قال تعالى: وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ [غافر/ ۲۶] يعني أرض مصر، و قال تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ [القصص/ ۴] يعني أرض مصر، و قال تعالى حكاية عن بعض إخوة يوسف عليه السلام: فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ [يوسف/ ۸۰] يعني أرض مصر، و قال تعالى: إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ [القصص/ ۱۹] يعني أرض مصر. قال ابن عباس رضي اللّه عنه: سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن، فهذا ما يحضرني مما ذكرت فيه مصر من آي كتاب اللّه العزيز.

و قد جاء في فضل مصر أحاديث: روى عبد اللّه بن لهيعة من حديث عمرو بن العاص أنه قال: حدّثني عمر أمير المؤمنين رضي اللّه عنه أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «إذا فتح اللّه عليكم بعدي مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض». قال أبو بكر رضي اللّه عنه: و لم ذلك يا رسول اللّه؟ قال: «لأنهم في رباط إلى يوم القيامة». و عن عمرو بن الحمق : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «... تكون فتنة أسلم الناس فيها أو خير الناس فيها الجند الغربيّ ...». قال: فلذلك قدمت عليكم مصر، و عن تبيع بن عامر الكلاعيّ قال: أقبلت من الصائفة فلقيت أبا موسى الأشعريّ رضي اللّه عنه فقال لي: من أين أنت؟

فقلت: من أهل مصر، قال: من الجند العربيّ؟ فقلت: نعم، قال: الجند الضعيف؟ قال:

قلت: أهو الضعيف؟ قال: نعم، قال: أما إنه ما كادهم أحد إلا كفاهم اللّه مؤنته، اذهب إلى معاذ بن جبل حتى يحدّثك قال: فذهبت إلى معاذ بن جبل فقال لي: ما قال لك الشيخ فأخبرته، فقال لي: و أيّ شيء تذهب به إلى بلادك أحسن من هذا الحديث، أكتبت في أسفل ألواحك، فلما رجعت إلى معاذ أخبرني أن بذلك أخبره رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و روى ابن وهب من حديث صفوان بن عسال قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «... فتح اللّه بابا للتوبة في الغرب عرضه سبعون عاما لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه ...». و روى ابن لهيعة من حديث عمرو بن العاص: حدّثني عمر أمير المؤمنين رضي اللّه عنه، أنه سمع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۷

رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «إن اللّه عز و جل سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإنّ لهم منكم صهرا و ذمّة ...». و روى ابن وهب قال: أخبرني حرملة بن عمران التجيبي عن عبد الرحمن بن شماسة المهريّ قال: سمعت أبا ذر رضي اللّه عنه يقول: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإنّ لهم ذمّة و رحما فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فأخرجوا منها ...». قال: فمرّ بربيعة و عبد الرحمن ابني شرحبيل يتنازعان في موضع لبنة فخرج منها، و في رواية:

«ستفتحون مصر و هي أرض يسمى فيها القيراط فإذا افتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمّة و رحما أو قال: ذمّة و صهرا» الحديث، و رواه مالك، و الليث و زاد: فاستوصوا بالقبط خيرا. أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي الطاهر عن ابن وهب. قال ابن شهاب: و كان يقال إنّ أمّ إسماعيل منهم، قال الليث بن سعد: قلت لابن شهاب: ما رحمهم، قال: إن أمّ إسماعيل بن إبراهيم صلوات اللّه عليهما منهم، و قال محمد بن إسحاق : قلت للزهريّ : ما الرحم التي ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؟ قال: كانت هاجر أمّ إسماعيل منهم، و روى ابن لهيعة من حديث أبي سالم الجيشاني: أن بعض أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أخبره أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه

عليه و سلم يقول: «إنكم ستكونون أجنادا و إن خير أجنادكم أهل الغرب منكم فاتقوا اللّه فى القبط لا تأكلوهم أكل الخضر»، و عن مسلم بن يسار: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «استوصوا بالقبط خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدوّ»، و عن يزيد بن أبى حبيب: أن أبا سلمة ابن عبد الرحمن حدّثه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب، و قال: «اللّه اللّه فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم، و يكونون لكم عدّة، و أعوانا فى سبيل اللّه»، و روى ابن وهب عن موسى بن أيوب الغافقى عن رجل من الزّند: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم مرض فأغمى عليه ثم أفاق فقال: «استوصوا بالأدم الجعد» ثم أغمى عليه الثانية، ثم أفاق فقال مثل ذلك، ثم أغمى عليه الثالثة، فقال مثل ذلك، فقال القوم: لو سألنا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من الأدم الجعد، فأفاق فسألوه، فقال: «قبط مصر، فإنهم أخوال، و أصهار، و هم أعوانكم على عدوّكم و أعوانكم على دينكم»، قالوا: كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول اللّه؟ قال: «يكفونكم أعمال الدنيا و تتفرّغون للعبادة فالراضى بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم و الكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمتنزه عنهم»، و عن عمرو بن حريب و أبى عبد الرحمن الحلبى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوّة لكم و بلاغ إلى عدوّكم بإذن اللّه» يعنى قبط مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۸

و عن ابن لهيعة: حدّثنى مولى عفرة، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «اللّه اللّه فى أهل المدرة السوداء السحم الجعاد فإن لهم نسبا و صهرا»، قال عمرو مولى عفرة صهرهم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تسرّى فيهم، و نسبهم أن أمّ إسماعيل عليهم السلام منهم. قال ابن وهب:

فأخبرنى ابن لهيعة أن أمّ إسماعيل هاجر من أمّ العرب قرية كانت أمام الفرما من مصر و قال مروان القصاص: صاهر إلى القبط من الأنبياء ثلاثة: إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام تسرّى هاجر، و يوسف تزوّج بنت صاحب عين شمس، و رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تسرّى مارية. و قال يزيد بن أبى حبيب: قرية هاجر باق التى عندها أمّ دنين، و قال هشام: العرب تقول:

هاجر، و آجر، فيبدلون من الهاء الألف كما قالوا: هراق الماء، و أراق الماء، و نحوه.

و عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قال: الأمصار سبعة. فالمدينة مصر، و الشأم مصر، و مصر، و الجزيرة، و البحرين، و البصرة، و الكوفة. و قال مكحول: أول الأرض خرابا أرمينة، ثم مصر. و قال عبد اللّه بن عمر: و قبطة مصر أكرم الأعاجم كلها، و أسمحهم يدا، و أفضلهم عنصرا، و أقربهم رحما بالعرب عامة، و بقريش خاصة، و من أراد أن يذكر الفردوس، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها و تنور ثمارها. و قال كعب الأحبار : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أخرفت، و فى رواية: إذا أزهرت.

(و من فضائل مصر): أنه كان من أهلها السحرة، و قد آمنوا جميعا فى ساعة واحدة، و لا يعلم جماعة أسلمت فى ساعة واحدة أكثر من جماعة القبط، و كانوا فى قول يزيد بن أبى حبيب، و غيره اثنى عشر ساحرا رؤساء، تحت يد كل ساحر منهم عشرون عريفا، تحت يد كل عريف منهم ألف من السحرة، فكان جميع السحرة مائتى ألف و أربعين ألفا و مائتين و اثنين و خمسين إنسانا بالرؤساء، و العرفاء، فلما عاينوا ما عاينوا أيقنوا أن ذلك من السماء و أن السحر لا يقوم لأمر اللّه فخرّ الرؤساء الاثنا عشر عند ذلك سجدا، فأتبعهم العرفاء، و اتبع العرفاء من بقى، و قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى و هارون. قال تبيع: كانوا من أصحاب موسى عليه السلام و لم يفتتن منهم أحد مع من افتتن من بنى إسرائيل فى عبادة العجل. قال تبيع: ما آمن جماعة قط فى ساعة واحدة مثل جماعة القبط، و قال كعب الأحبار: مثل قبط مصر كالغيضة كلما قطعت نبتت حتى يخرّب اللّه عز و جل بهم و بصناعتهم جزائر الروم، و قال عبد اللّه بن عمرو: خلقت الدنيا على خمس صور: على صورة الطير برأسه، و صدره، و جناحيه، و ذنبه. فالرأس مكة، و المدينة، و اليمن. و الصدر الشأم، و مصر و الجناح الأيمن العراق، و خلف العراق أمّة يقال لها: واق، و خلف واق أمّة يقال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۹

لها: واق واق و خلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا اللّه عز و جل، و الجناح الأيسر السند، و خلف السند الهند، و خلف الهند أمّة يقال لها: ناسك، و خلف ناسك أمّة يقال لها:

منسك، و خلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا اللّه عز و جل، و الذنب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس، و شرّ ما في الطير الذنب، و قال الجاحظ: الأمصار عشرة: الصناعة بالبصرة، و الفصاحة بالكوفة، و التحنيث ببغداد، و العيّ بالرى، و الجفا بنيسابور، و الحسن بهراة، و الطرمذة بسمرقند، و المروءة ببلخ، و التجارة بمصر، و البخل بمرو، الطرمذة: كلام ليس له فعل، و عن يحيى بن داخر الغافرىّ أنه سمع عمرو بن العاص يقول فى خطبته:

و اعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لمكث الأعداء حولكم، و لإشراف قلوبهم إليكم، و إلى داركم معدن الزرع، و المال، و الخير الواسع، و البركة النامية.

و عن عبد الرحمن بن غنم الأشعرىّ: أنه قدم من الشأم إلى عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقال: ما أقدمك إلى بلادنا؟ قال: كنت تحدّثنى أن مصر أسرع الأرض خرابا ثم أراك قد اتخذت منها، و بنيت فيها القصور، و اطمأننت فيها، قال: إن مصر قد أوفت خرابها حطّمها البخت نصر، فلم يدع فيها إلا السباع، و الضباع، فهى اليوم أطيب الأرضين ترابا، و أبعدها خرابا، و لا يزال فيها بركة ما دام فى شيء من الأرض بركة، و يقال: مصر متوسطة الدنيا، قد سلمت من حرّ الإقليم الأوّل و الثانى، و من برد الإقليم السادس و السابع، و وقعت فى الإقليم الثالث، فطاب هواها، و ضعف حرّها، و خف بردها، و سلم أهلها من مشاتى الأهواز، و مصايف عمان، و صواعق تهامة، و دماميل الجزيرة، و جرب اليمن، و طواعين الشأم، و برسام العراق، و عقارب عسكر مكرم، و طحال البحرين، و حمى خيبر، و أمنوا من غارات الترك، و جيوش الروم، و هجوم العرب، و مكايد الدّيلم، و سرايا القرامطة، و نزف الأنهار، و قحط الأمطار، و بها ثمانون كورة ما فيها كورة إلا ـ و بها طرائف، و عجاب من أنواع البرّ، و الأبنية، و الطعام، و الشراب، و الفاكهة، و سائر ما تنتفع به الناس، و تدخره الملوك يعرف بكل كورة، و جهاتها و ينسب كل لون إلى كورة، فصعيدها أرض حجازية حرّة حرّ العراق، و ينبت النخل، و الأراك، و القرظ، و الدوم، و العشر، و أسفل أرضها شامى يمطر مطر الشأم، و ينبت ثمار الشأم من الكروم، و الزيتون، و اللوز، و التين، و الجوز، و سائر الفواكه، و البقول، و الرياحين، و يقع به الثلج، و البرد.

و كورة الإسكندرية، و لوبية، و مراقية برارى، و جبال، و غياض تنبت الزيتون، و الإعناب، و هى بلاد إبل، و ماشية، و عسل، و لبن. و فى كل كورة من كور مصر مدينة، فى كل مدينة منها آثار كريمة من الأبنية، و الصخور، و الرخام، و العجائب، و فى نيلها السفن التى تحمل السفينة الواحدة منها ما يحمله خمسمائة بعير، و كل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة يؤيد ذلك قول اللّه سبحانه و تعالى: وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ [الشعراء/ ۳۶]، و يعمل بمصر معامل كالتنانير يعمل بها البيض بصنعة يوقد عليه، فيحاكى نار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۰

الطبيعة فى حضانة الدجاجة لبيضها، و يخرج من تلك المعامل الفراريج، و هى معظم دجاج مصر، و لا يتم عمل هذا بغير مصر. و قال عمر بن ميمون: خرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل، فلما أصبح فرعون أمر بشاة، فأتى بها فأمر بها أن تذبح، ثم قال: لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع عندى خمس مائة ألف من القبط، فاجتمعوا إليه، فقال لهم فرعون: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، و كان أصحاب موسى عليه السلام ستمائة ألف و سبعين ألفا.

و وصف بعضهم مصر، فقال: ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، و ثلاثة أشهر مسكة سوداء، و ثلاثة أشهر زمردة خضراء، و ثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء، فأما اللؤلؤة البيضاء، فإن مصر فى أشهر أبيب و مسرى و بوت يركبها الماء، فترى الدنيا بيضاء، و ضياعها على روابى، و تلالـ مثل الكواكب قد أحيطت بها المياه من كل وجه، فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا فى الزوارق، و أما المسكة السوداء، فإن فى أشهر بابه، و هاتور، و كيهك ينكشف الماء عن الأرض فتصير أرضا سوداء، و فى هذه الأشهر تقع الزراعات، و أما الزمردة الخضراء

فإن فى أشهر طوبه و امشير و برمهات يكثر نبات الأرض، و ربيعها فتصير خضراء كأنها زمرذة، و أما السبيكة الحمراء فإن فى أشهر برمودة و بشنس و بؤنة يتورد العشب، و يبلغ الزرع الحصاد، فيكون كالسبيكة التى من الذهب منظرا و منفعة، و سأل بعض الخلفاء الليث بن سعد عن الوقت الذى تطيب فيه مصر؟ فقال: إذا غاض ماؤها، و ارتفع و باها و جف ثراها و أمكن مرعاها، و قال آخر: نيلها عجب، و أرضها ذهب، و خيرها جلب، و ملكها سلب، و مالها رغب، و فى أهلها صخب، و طاعتهم رهب، و سلامهم شعب، و حربهم حرب، و هى لمن غلب. و قال آخر: مصر من سادات القرى و رؤساء المدن، و قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ [البقرة/ ٢٦٥] هى: مصر إن لم يصبها مطر أزكت، و إن أصابها مطرا ضعفت، قاله المسعودى فى تاريخه، و يقال: لما خلق اللّه آدم عليه السلام مثل له الدنيا شرقها، و غربها، و سهلها، و جبلها، و أنهارها، و بحارها، و بناءها، و خرابها، و من يسكنها من الأمم و من يملكها من الملوك، فلما رأى مصر أرضا سهلة ذات نهر جار مادّته من الجنة تنحدر فيه البركة، و رأى جبلا من جبالها مكسوّا نورا لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة فى سفحه أشجار مثمرة، و فروعها فى الجنة تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم عليه السلام فى النيل بالبركة، و دعا فى أرض مصر بالرحمة، و البرّ و التقوى، و بارك فى نيلها و جبلها سبع مرّات و قال: يا أيها الجبل المرحوم: سفحك جنة، و تربتك مسكة يدفن فيها غراس الجنة أرض حافظة مطيعة رحيمة لا خلتك يا مصر بركة، و لا زال بك حفظ و لا زال منك ملك و عزيا أرض مصر فيك الخبايا، و الكنوز، و لك البرّ و الثروة، و سال نهرك عسلا كثر اللّه زرعك، و درّ ضرعك، و زكى نباتك و عظمت بركتك، و خصبت و لا زال فيك خير ما لم تتجبرى و تتكبرى، أو تخونى فإذا فعلت ذلك عد النشر، ثم يغور خيرك، فكان آدم أوّل من دعا لها بالرحمة، و الخصب و الرأفة و البركة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٥١

و عن ابن عباس: أن نوحا عليه السلام دعا لمصر بن بيصر بن حام فقال: اللهمّ إنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه و فى ذريته و أسكنه الأرض المباركة التى هى أم البلاد، و غوث العباد التى نهرها أفضل أنهار الدنيا، و اجعل فيها أفضل البركات، و سخر له و لولده الأرض، و ذللها لهم و قوّهم عليها.

و قال كعب الأحبار: لو لا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت إلا مصر فقيل له: لم؟

فقال: لأنها بلد معافاة من الفتن و من أرادها بسوء أكبه اللّه على وجهه و هو بلد مبارك لأهله فيه. و قال ابن وهب: أخبرنى يحيى بن أيوب عن خالد بن يزيد عن ابن أبى هلال: أن كعب الأحبار كان يقول: إنى لأحب مصر و أهلها، لأن مصر بلد معافاة و أهلها أصحاب عافية، و هم بذلك مفارقون، و يقال: إن فى بعض الكتب الإلهية: مصر خزائن الأرض كلها فمن أرادها بسوء قصمه اللّه تعالى.

و قال عمرو بن العاص: ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة يعنى إذا جمع الخراج مع الإمارة، و قال أحمد بن مدبر: تحتاج مصر إلى ثمانية و عشرين ألف ألف فدان، و إنما يعمر منها ألف ألف فدّان، و قد كشفت أرض مصر، فوجدت غامرها أضعاف عامرها، و لو اشتغل السلطان بعمارتها لوفت له بخراج الدنيا. و قال بعضهم: إنّ خراج العراق لم يكن قط أوفر منه فى أيام عمر بن عبد العزيز، فإنه بلغ ألف ألف درهم و سبعة عشر ألف ألف درهم، و لم تكن مصر قط أقل من خراجها فى أيام عمرو بن العاص، و أنه بلغ اثنى عشر ألف ألف دينار، و كانت الشامات بأربعة عشر ألف ألف سوى الثغور. و من فضائل مصر: أنه ولد بها من الأنبياء موسى، و هارون، و يوشع عليهم السلام، و يقال: إن عيسى بن مريم صلوات اللّه عليه أخذ على سفح الجبل المقطم، و هو سائر إلى الشام، فالتفت إلى أمّه و قال: يا أمّاه هذه مقبرة أمّة محمد صلى اللّه عليه و سلم، و يذكر أنه ولد فى قرية اهناس من نواحى صعيد مصر و أنه كانت به نخلة يقال: إنها النخلة المذكورة فى القرآن بقوله سبحانه و تعالى: وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ [مريم/ ٢٥] و هذا القول و هم، فإنه لا خلاف بين علماء الأخبار من أهل الكتاب، و من يعتمد عليه من علماء المسلمين أن عيسى صلوات اللّه عليه ولد بقرية بيت لحم من بيت المقدس، و دخل مصر من الأنبياء، إبراهيم خليل الرحمن، و قد ذكر خبر ذلك عند ذكر خليج القاهرة من هذا الكتاب. و دخلها أيضا

يعقوب و يوسف و الأسباط، و قد ذكر ذلك في خبر الفيوم، و دخلها أرميا، و كان من أهلها مؤمن آل فرعون الذي أثنى عليه اللّه جلّ جلاله في القرآن.

و يقال: إنه ابن فرعون لصلبه، و أظنه أنه غير صحيح، و كان منها جلساء فرعون الذين أبان اللّه فضيلة عقلهم بحسن مشورتهم في أمر موسى و هارون عليهما السلام، لما استشارهم فرعون في أمرهما فقال تعالى: قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ

أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ [الشعراء/ ۳۴- ۳۷]، و أين هذا من قول أصحاب النمرود في إبراهيم صلوات اللّه عليه، حيث أشاروا بقتله قال تعالى حكاية عنهم: قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ [الأنبياء/ ۶۸] و من أهل مصر، امرأة فرعون التي مدحها اللّه تعالى في كتابه العزيز بقوله:

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [التحريم/ ۱۱] و من أهلها، ماشطة بنت فرعون و آمنت بموسى عليه السلام، فمشطها فرعون بأمشاط الحديد كما يمشط الكتان، و هي ثابتة على إيمانها باللّه.

و قال صاعد اللغوي في كتاب طبقات الأمم: إن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأوّل الساكن بصعيد مصر الأعلى، و هو أوّل من تكلم في الجواهر العلوية، و الحركات النجومية، و هو أوّل من ابتنى الهياكل، و مجد اللّه فيها، و أوّل من نظر في علم الطب، و ألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية و السماوية، و قالوا: إنه أوّل من أنذر بالطوفان، و رأى أن آفة سماوية تصيب الأرض من الماء، و النار فخاف ذهاب العلم، و اندراس الصنائع فبنى الأهرام، و البرابي التي في صعيد مصر الأعلى، و صوّر فيها جميع الصنائع، و الآلات و رسم فيها صفات العلوم حرصا على تخليدها لمن بعده، و خيفة أن يذهب رسمها من العالم، و هرمس هذا هو: إدريس عليه السلام.

و قال أبو محمد الحسن بن إسماعيل بن الفرات في أخبار مصر: إن الخضر جاز البحر مع موسى عليه السلام، و كان مقدّما عنده، و كان بمصر من الحكماء جماعة ممن عمرت الدنيا بكلامهم و حكمهم و تدبيرهم، و كان من علومهم علم الطب، و علم النجوم، و علم المساحة، و علم الهندسة، و علم الكيمياء، و علم الطلسمات، و يقال: كانت مصر في الزمن الأوّل يسير إليها طلاب العلوم لتزكو عقولهم، و تجود أذهانهم و يتميز عندهم الذكاء و تدق الفطنة.

و من فضائل مصر: أنها تمير أهل الحرمين و توسع عليهم و مصر فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها، فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه إلى الحرمين و اليمن و الهند و الصين و عمان و السند و الشحر، و ساحلها من جهة تنيس و دمياط و الفرما فرضة بلاد الروم،

و الإفرنج، و سواحل الشام و الثغور إلى حدود العراق، و ثغر إسكندرية فرضة أقريطس و صقلية و بلاد المغرب، و من جهة الصعيد يحمل إلى بلاد الغرب و النوبة و البجة و الحبشة و الحجاز و اليمن، و بمصر عدّة من الثغور المعدّة للرباط في سبيل اللّه تعالى و هي: البراس و رشيد و الإسكندرية و ذات الحمام و البحيرة و اخنا و دمياط و شطا و تنيس و الأشتوم و الفرما و الواردة و العريش و أسوان و قوص و الواحات، فيغزى من هذه الثغور الروم و الفرنج و البربر و النوبة و الحبشة و السودان. و بمصر عدّة مشاهد و كثير من المساجد، و بها النيل، و الأهرام و البرابي و الأديار و الكنائس و أهلها يستغنون بها عن كل بلد حتى أنه لو ضرب بينها و بين بلاد الدنيا بسوره لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد. و بمصر دهن البلسان الذي عظمت منفعته، و صارت ملوك الأرض تطلبه من مصر، و تعتني به و ملوك النصرانية تترامى على طلبه، و النصارى كافة تعتقد تعظيمه و ترى أنه لا يتم تنصر نصرانيّ إلا بوضع شيء من دهن البلسان في ماء المعمودية عند تغطيسه فيها، و بها السقنقور و منافعه لا تنكر و بها النمس و العرس، و لهما في أكل الثعابين فضيلة لا تنكر فقد قيل: لولا العرس و النمس لما سكنت مصر من كثرة الثعابين، و بها السمكة الرعادة و نفعها في البرء من الحمى إذا

علقت على المحموم عجيب، و بمصر حطب السنط، و لا نظير له فى معناه فلو و قد منه تحت قدر يوما كاملا لما بقى منه رماد، و هو مع ذلك صلب الكسر سريع الاشتعال بطيء الخمود. و يقال:

إنه أبنوس غيرته بقعة مصر فصار أحمر. و بها الأفيون عصارة الخشخاش، و لا يجهل منافعه إلا جاهل، و بها البنج و هو ثمر قدر اللوز الأخضر كان من محاسن مصر إلا أنه انقطع قبل سنة سبعمائة من الهجرة؛ و بها الأترج. قال أبو داود صاحب السير فى كتاب الزكاة: شبرت قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبرا، و رأيت أترجة على بعير قطعتين، و صيرت مثل عدلين.

قال المسعودى فى التاريخ: و الأترج المدوّر حمل من أرض الهند بعد الثلاثمائة من سنى الهجرة، و زرع بعمان، ثم نقل منها إلى البصرة و العراق و الشام، حتى كثر فى دور الناس بطرسوس، و غيرها من الثغور الشامية، و فى أنطاكية و سواحل الشام و فلسطين و مصر، و ما كان يعهد و لا يعرف فعدمت منه الأراهج الحمراء الطيبة، و اللون الحسن الذى كان فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء و التربة و خاصية البلد. و فى مصر معدن الزمرد، و معدن النفط و الشب و البرام و مقاطع الرخام، و يقال: كان بمصر من المعادن ثلاثون معدنا؛ و أهل مصر يأكلون صيد بحر الروم، و صيد بحر اليمن طريا لأن بين البحرين مسافة ما بين مدينة القلزم، و الفرما، و ذلك يوم و ليلة، و هو الحاجز المذكور فى القرآن قال تعالى: وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً [النمل/ ۶۱] قيل: هما بحر الروم، و بحر القلزم، و قال تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ [الرحمن/ ۱۹]. قال بعض المفسرين: البرزخ ما بين القلزم و الفرما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۵۴

و من محاسن مصر: أنه يوجد بها فى كل شهر من شهور السنة القبطية صنف من المأكول و المشموم دون ما عداه من بقية الشهور فيقال: رطب توت، و رمان بابه، و موزها تور، و سمك كيهك، و ماء طوبة، و خروف امشير، و لبن برمهات، و ورد برمودة، و نبق بشنس، و تين بؤنة، و عسل أبيب، و عنب مسرى، و منها: أن صيفها خريف لكثرة فواكهه و شتاءها ربيع لما يكون بمصر حينئذ من القرظ و الكتان.

و من محاسنها: أن الذى ينقطع من الفواكه فى سائر البلدان أيام الشتاء يوجد حينئذ بمصر. و منها: أن أهل مصر لا يحتاجون فى حرّ الصيف إلى استعمال الخيش و الدخول فى جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد، و لا يحتاجون فى برد الشتاء إلى لبس الفرو، و الاصطلاء بالنار الذى لا يستغنى عنه أهل الشام. كما أنهم أيضا فى الصيف غير محتاجين إلى استعمال الثلج، و يقال: زبرجد مصر، و قباطى مصر، و حمير مصر، و ثعابين مصر، و منافعها فى الدرياق جليلة.

و من فضائل مصر: أن الرخامة التى فى الحجر من الكعبة من مصر بعث بها محمد بن طريف مولى العباس بن محمد فى سنة إحدى و أربعين و مائتين، مع رخامة أخرى خضراء هدية للحجر، فجعلت إحدى الرخامتين على سطح جدر الكعبة، و هما من أحسن الرخام فى المسجد خضرة و كان المتولى عليهما عبد اللّه بن محمد بن داود، ذرعها ذراع و ثلاث أصابع. قاله الفاكهى فى أخبار مكة.

و من فضائل مصر: أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تسرّى من أهلها، و ولد له صلى اللّه عليه و سلم من نساء مصر، و لم يولد له ولد من غير نساء العرب إلا من نساء مصر. قال ابن عبد الحكم: لما كانت سنة ست من مهاجر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ و رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من الحديبية بعث إلى الملوك، فمضى حاطب بن أبى بلتعة بكتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فلما انتهى إلى الإسكندرية، وجد المقوقس فى مجلس مشرف على البحر، فركب البحر فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بين أصبعيه، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض و أمر به فأوصل إليه، فلما قرأ الكتاب قال: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو علىّ فيسلط علىّ. فقال له حاطب: ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل به، و يفعل، فوجم ساعة، ثم استعادها، فأعادها عليه حاطب فسكت فقال له حاطب: إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى فانتقم اللّه به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، و لا تعتبر بك، و إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير فيه، و هو الإسلام الكافى لنبيه عمّا سواه، و ما بشارة موسى بعيسى إلى كبشارة عيسى بمحمد، و ما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، و لسنا ننهاك عن دين المسيح و لكنا نأمرك به.

ثم قرأ الكتاب فإذا فيه: (بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى المقوقس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۵

عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى؛ أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرّتين و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا اللّه و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فلما قرأه أخذه فجعله فى حق من عاج و ختم عليه. و عن أبان بن صالح قال:

أرسل المقوقس إلى حاطب ليلة و ليس عنده أحد إلا الترجمان فقال له: ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها فإنى أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك، قلت: لا تسألنى عن شيء إلا صدقتك، قال: إلى ما يدعو محمد؟ قال: إلى أن تعبد اللّه و لا تشرك به شيئا، و تخلع ما سواه، و يأمر بالصلاة. قال: فكم تصلون؟ قال: خمس صلوات فى اليوم و الليلة، و صيام شهر رمضان، و حج البيت، و الوفاء بالعهد، و ينهى عن أكل الميتة، و الدم. قال: من أتباعه؟ قال: الفتيان من قومه، و غيرهم. قال: و هل يقبل قوله؟ قال: نعم، قال: صفه لى؟

قال: فوصفته بصفة من صفته، و لم آت عليها، قال: قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها فى عينيه حمرة قلّ ما تفارقه، و بين كتفيه خاتم النبوّة يركب الحمار، و يلبس الشملة، و يجتزى بالتمرات و الكسر لا يبالى من لاقى من عمّ و لا ابن عمّ، قلت: هذه صفته، قال: قد كنت أعلم أن نبيا بقى و قد كنت أظنّ أن مخرجه الشام، و هناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج فى أرض العرب فى أرض جهد، و بؤس، و القبط لا تطاوعنى فى أتباعه، و لا أحب أن تعلم بمحاورتى إياك و سيظهر على البلاد و ينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ههنا، و أنا لا أذكر للقبط من هذا حرفا فارجع إلى صاحبك. قال: ثم دعى كاتبا يكتب بالعربية فكتب: (لمحمد بن عبد اللّه من المقوقس عظيم القبط سلام. أما بعد:

فقد قرأت كتابك، و فهمت ما ذكرت، و ما تدعو إليه، و قد علمت أن نبيا قد بقى و قد كنت أظن أن نبيا يخرج بالشام، و قد أكرمت رسولك، و بعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، و بكسوة، و أهديت إليك بغلة لتركبها، و السلام).

و عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال: لما مضى حاطب بكتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم؛ قبل المقوقس الكتاب، و أكرم حاطبا و أحسن نزله، ثم سرّحه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و أهدى له كسوة، و بغلة بسرجها، و جاريتين إحداهما أمّ إبراهيم، و وهب الأخرى لجهم بن قيس العبدرى، فهى أمّ زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر و يقال: بل وهبها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لمحمد بن مسلمة الأنصارىّ، و يقال: بل لدحية بن خليفة الكلبى، و قيل: بل لحسان بن ثابت.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۵۶

و عن يزيد بن أبى حبيب : أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ضمه إلى صدره، و قال: هذا زمان يخرج فيه النبىّ الذى نجد نعته و صفته فى كتاب اللّه تعالى، و إنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين فى ملك يمين، و لا نكاح، و أنه يقبل الهدية و لا يقبل الصدقة، و أن جلساءه المساكين و إن خاتم النبوّة بين كتفيه، ثم دعا رجلا عاقلا، ثم لم يدع بمصر أحسن و لا أجمل من مارية و أختها، و هما من أهل جفن بفتح أوّله و سكون ثانيه ثم نون بعده من كورة انصنا، فبعث بهما إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و أهدى له بغلة شهباء و حمارا أشهب، و ثيابا من قباطى مصر، و عسلا من عسل بنها، و بعث إليه بمال صدقة.

و يقال: إن المقوقس أهدى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أربع جوارى، و قيل: جاريتين، و بغلة اسمها الدلدل، و حمارا اسمه يعفور، و قبأ و ألف مثقال ذهبا و عشرين ثوبا من قباطى مصر، و خصيا يسمى مايور، و يقال: إنه ابن عمّ مارية، و فرسا يقال له: الكرّار، و قدحا من زجاج، و عسلا من عسل بنها، فأعجب النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و دعا فيه بالبركة، و قال: ضنّ الخبيث بملكه و لا بقاء لملكه، فإن المقوقس قال خيرا و أكرم حاطب ابن أبى بلتعة و قارب الأمر و لم يسلم.

و قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر الواقدىّ: أنبأنا يعقوب بن محمد بن أبى صعصعة عن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة

قال: أهدى المقوقس صاحب الإسكندرية إلى النبيّ صلى اللّه عليه و سلم فى سنة سبع من الهجرة، مارية و أختها سيرين، و ألف مثقال ذهبا و عشرين ثوبا، و بغلته الدلدل، و حماره عفيرا، و خصيا يقال له: مابور فعرض حاطب على مارية الإسلام فأسلمت هى و أختها، ثم أسلم الخصى بعد و كان الذى بعثه المقوقس، مع مارية اسمه جبرين بن عبد اللّه القبطى. مولى بنى عفار. قال ابن عبد الحكم: و أمر رسوله أن ينظر من جلساؤه و ينظر إلى ظهره هل يرى شامة كبيرة ذات شعر ففعل ذلك الرسول، فلما قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قدّم إليه الأختين و الدابتين، و العسل و الثياب، و أعلمه أن ذلك كله هدية، فقبل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الهدية، و كان لا يردّها من أحد من الناس. قال: فلما نظر إلى مارية و أختها أعجبتاه و كره أن يجمع بينهما، و كانت إحداهما تشبه الأخرى فقال:

«اللهم اختر لنبيك»، فاختار اللّه له مارية. و ذلك أنه لما قال لهما: «اشهد أن لا إله إلا اللّه و أنّ محمدا عبده و رسوله»، فبادرت مارية فتشهدت و آمنت قبل أختها، و مكثت أختها ساعة، ثم تشهدت و آمنت، فوهب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أختها لمحمد بن مسلمة الأنصارىّ، و قال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٥٧

بعضهم: بل وهبها لدحية بن خليفة الكلبىّ.

و عن يزيد بن أبى حبيب عن عبد الرحمن بن شامة المهرى عن عبد اللّه بن عمر قال:

دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم على أمّ إبراهيم أمّ ولده القبطية، فوجد عندها نسيبا لها كان قدم معها من مصر، و كان كثيرا ما يدخل عليها، فوقع فى نفسه شىء فرجع، فلقيه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فعرف ذلك فى وجهه، فسأله فأخبره، فأخذ عمر السيف، ثم دخل على مارية و قريبها عندها، فأهوى إليه بالسيف فلما رأى ذلك كشف عن نفسه، و كان مجبوبا ليس بين رجليه شىء. فلما رآه عمر رجع إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فأخبره فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «إن جبريل أتانى فأخبرنى أن اللّه عز و جل قد برّأها و قريبها و إن فى بطنها غلاما منى و أنه أشبه الخلق بى و أمرنى أن أسميه إبراهيم و كنانى بأبى إبراهيم».

و قال الزهرى عن أنس: لما ولدت أمّ إبراهيم إبراهيم كأنه وقع فى نفس النبيّ صلى اللّه عليه و سلم منه شىء حتى جاءه جبريل، فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، و يقال: إن المقوقس بعث معها بخصىّ كان يأوى إليها، و قيل: إن المقوقس أهدى لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم جوارى منهنّ أمّ إبراهيم و واحدة وهبها رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لأبى جهم بن حذيفة و واحدة و هبها لحسان بن ثابت فولدت مارية لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إبراهيم. و كان أحب الناس إليه حتى مات فوجد به و كان سنه يوم مات ستة عشر شهرا، و كانت البغلة و الحمار أحب دوابه إليه و سمى البغلة الدلدل، و سمى الحمار يعفورا، و أعجبه العسل، فدعا فى عسل بنها بالبركة، و بقيت تلك الثياب حتى كفن فى بعضها صلى اللّه عليه و سلم، و كان اسم أخت مارية قيصر، و قيل: بل كان اسمها سيرين، و قيل: حمنة.

و كلم الحسن بن علىّ معاوية بن أبى سفيان فى أن يضع الجزية عن جميع قرية أمّ إبراهيم لحرمتها ففعل، و وضع الخراج عنهم فلم يكن على أحد منهم خراج، و كان جميع أهل القرية من أهلها و أقربائها فانقطعوا. و يروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أنه قال: «لو بقى إبراهيم ما تركت قبطيا إلا وضعت عنه الجزية»، و ماتت مارية فى محرّم سنة خمس عشرة بالمدينة.

و قال ابن وهب: أخبرنى يحيى بن أيوب، و ابن لهيعة عن عقيل عن الزهرىّ عن يعقوب بن عبد اللّه بن المغيرة بن الأخفش عن ابن عمر: أن النبيّ صلى اللّه عليه و سلم قال: «دخل إبليس العراق فقضى حاجته منها، ثم دخل الشام فطردوه حتى دخل جبل شاق، ثم دخل مصر فباض فيها و فرّخ و بسط عبقريه» حديث صحيح غريب، و قد عاب بعضهم مصر فقال:

محاسنها مجلوبة إليها حتى العناصر الأربعة؛ الماء و هو فى النيل مجلوب من الجنوب، و التراب مجلوب فى حمل الماء، و إلا فهى رمل

محض لا تنبت الزرع، و النار لا يوجد بها شجرها، و الهواء لا يهب بها إلا من أحد البحرين، إما من الرومىّ، و إما من القلزم، و قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٥٨

زاد هذا فى تحامله. و قال كعب الأحبار: الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية، و مصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة و الكوفة آمنة من الخراب حتى تكون الملحمة.

ذكر العجائب التى كانت بمصر من الطلسمات و البرابى و نحو ذلك

ذكر فى كتاب عجائب الحكايات و غرائب الماجزيات أنه كان بمصر حجر من جمع كفيه عليه تقيأ جميع ما فى جوده. قال القضاعى: ذكر الجاحظ و غيره: أنّ عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة منها بسائر الدنيا عشر أعجوبات، و هى مسجد دمشق، و كنيسة الرّها، و قنطرة سنجر، و قصر غمدان، و كنيسة رومية، و صنم الزيتون، و إيوان كسرى بالمدائن، و بيت الريح بتدمر، و الخورنق، و السدير بالحيرة، و الثلاثة الأحجار ببعلبك، و ذكر أنها بيت المشترى و الزهرة، و أنه كان لكل كوكب من السبعة بيت فيها، فتهدّمت.

(و منها بمصر عشرون أعجوبة) فمن ذلك الهرمان، و هما أطول بناء و أعجبه ليس على وجه الدنيا بناء باليد حجر على حجر أطول منهما، و إذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان، و لذلك قال بعض من رآهما: ليس من شىء إلا و أنا أرحمه من الدهر إلا الهرمين فإنى لأرحم الدهر منهما.

و من ذلك صنم الهرمين، و هو بلهوية و يقال بلهيت و يقال: إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على إبليز الجيزة.

و من ذلك بربا سمنود، و هو من أعاجيبها و ذكر عن أبى عمرو الكندىّ أنه قال: رأيته و قد خزن فيه بعض عمالها قرظا فرأيت الجمل إذا دناه من بابه بحمله و أراد أن يدخله سقط كل دبيب فى القرظ لم يدخل منه شيء إلى البربا، ثم خرب عند الخمسين و الثلاثمائة.

و من ذلك: بربا اخميم عجب من العجائب بما فيه من الصور، و أعاجيب و صور الملوك الذين يملكون مصر، و كان ذو النون الإخميمى يقرأ البرابى، فرأى فيها حكما عظيمة فأفسد أكثرها.

و من ذلك بربا دندره، و هو بربا عجيب فيه ثمانون و مائة كوّة تدخل الشمس كل يوم من كوّة منها، ثم الثانية حتى تنتهى إلى آخرها، ثم تكرّر راجعة إلى موضع بدائها.

و من ذلك حائط العجوز من العريش إلى أسوان يحيط بأرض مصر شرقا و غربا.

و من ذلك الإسكندرية و ما فيها من العجائب فمن عجائبها المنارة، و السوارى، و المعلب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة، ثم يرمون بكرة فلا تقع فى حجر أحد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٥٩

إلا ملك مصر، و حضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص، فوقعت الكرة فى حجره فملك البلد بعد ذلك فى الإسلام، ثم يحضر هذا الملعب ألف ألف من الناس فلا يكون فيهم أحد إلا و هو ينظر فى وجه صاحبه، ثم إن قرىء كتاب سمعوه جميعا أو لعب نوع من أنواع اللعب رأوه عن آخرهم لا يتطاولون فيه بأكثر من المراتب العلية و السفلية.

و من عجائبها: المسلتان و هما: جبلان قائمان على سرطانات نجاس فى أركانها كل ركن على سرطان، فلو أراد مريد أن يدخل تحتها شيئا حتى يعبره من جانبه الآخر لفعل.

و من عجائبها: عمودا الأعيا، و هما عمودان ملقيان وراء كل عمود منهما جبل حصبا كصبر الجمار بمنى يقبل المعنى التعب النصب بسبع حصيات حتى يلتقى على أحدهما، ثم يرمى وراءه السبع، و يقوم و لا يلتفت و يمضى لطيته فكأنما يحمل حملا لا يحس بشىء من تعبه.

و من عجائبها: القبة الخضراء و هى: أعجب قبة ملبسة نحاسا كأنه الذهب الإبريز لا يبليه القدم و لا يخلقه الدهر.

و من عجائبها: منية عقبة و قصر فارس و كنيسة أسفل الأرض، ثم هى مدينة على مدينة ليس على وجه الأرض مدينة بهذه الصفة سواها، و يقال: إنها إرم ذات العماد؛ سميت بذلك لأن عمدها و رخامها من البدنجا و الاصطنيدس المخطط طولا و عرضا.

و من عجائب مصر أيضا: الجبال التى هى بصعيدها على نيلها و هى ثلاثة أجبل؛ فمنها جبل الكهف، و يقال: الكف، و منها الطبلمون، و منها جبل زماجيز الساحرة. يقال: إن فيه حلقة من الجبل ظاهرة مشرفة على النيل لا يصل إليها أحد يلوح فيها خط مخلوق باسمك اللهم.

و من عجائبها: شعب البوقيرات بناحية اشمون من أرض الصعيد، و هو شعب فى جبل فيه صدع تأتيه البوقيرات فى يوم من السنة كان معروفا فتعرض أنفسها على الصدع فكلما أدخل بوقير منها منقاره فى الصدع مضى لسبيله، فلا يزال يفعل ذلك حتى يلتقى الصدع على بوقير منها، فتحبسه و تمضى كلها و لا يزال ذلك الذى يحبسه متعلقا حتى يتساقط و يتلاشى.

و من عجائبها: عين شمس و هى هيكل الشمس و بها العمودان اللذان لم ير أعجب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۶٠

منهما، و لا من شأنهما. طولهما فى السماء نحو من خمسين ذراعا، و هما محمولان على وجه الأرض و فيهما صورة إنسان على دابة، و على رأسهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جاء النيل قطر من رأسهما ماء و تستبينه و تراه منهما واضحا ينبع حتى يجرى فى أسفلهما فينبت فى أصلهما العوسج، و غيره، و إذا حلت الشمس دقيقة من الجدى و هو أقصر يوم فى السنة انتهت إلى الجنوبىّ منها فطلعت عليه على قمة رأسه و هى منتهى الميلين، و خط الاستواء فى الواسطة منهما، ثم خطرت بينهما ذاهبة و جائية سائر السنة كذا يقول أهل العلم بذلك.

و من عجائبها: منف، و عجائبها و أصنامها و أبنيتها و دفائنها و كنوزها، و ما يذكر فيها أكثر من أن يحصى من آثار الملوك و الحكماء، و الأنبياء لا يدفع ذلك.

و من عجائبها: الفرما و هى أكثر عجائبا و أكثر آثارا.

و من عجائبها: الفيوم.

و من عجائبها: نيلها. و من عجائبها: الحجر المعروف بحجر الخل يطفو على الخل، و يسبح فيه كأنه سمكة و كان يوجد بها حجر، إذا أمسكه الإنسان بكلتا يديه تقيأ كل شىء فى بطنه، و كان بها خرزة، تجعلها المرأة على حقوها فلا تحبل و كان بها حجر؛ يوضع على حرف التنور فيتساقط خبزه، و كان يوجد بصعيدها حجارة رخوة تكسر فتتقد كالمصابيح.

و من عجائبها: حوض كان بدلالات تدور من حجارة يركب فيها الواحد و الأربعة، و يحرّكون الماء بشىء فيعبرون من جانب إلى جانب لا يعلم من عمله، فأخذه كافور الإخشيدىّ إلى مصر فنظر إليه، ثم أخرج من الماء فألقى فى البرّ و كان فى أسفله كتابة لا يدرى ما هى ثم بطل.

و من عجائبها: أن بصعيدها ضيعة تعرف بدشنى، فيها سنطة إذا تهدّدت بالقطع تدبل، و تجتمع و تضمر فيقال لها: قد عفونا عنك، و تركناك فتتراجع، و المشهور و هو الموجود الآن سنطة فى الصعيد إذا نزلت اليد عليها دبلت، و إذا رفعت عنها تراجعت و قد حملت إلى مصر، و شوهدت. و بها نوع من الخشب يرسب فى الماء كالأبنوس و بها الخشب السنط الذى يوقد منه القدر الكثير فى الزمن الطويل فلا يوجد له رماد.

و ذكر ابن نصر المصرى: أنه كان على باب القصر الكبير الذى يقال له باب الريحان عند الكنيسة المعلقة صنم من نحاس على خلقة الجمل، و عليه رجل راكب عليه عمامة منتكب قوسا عربية، و فى رجليه نعلان كانت الروم و القبط و غيرهم إذا تظالموا بينهم، و اعتدى بعضهم على بعض تجاروا إليه حتى يقفوا بين يدى ذلك الجمل، فيقول المظلوم للظالم: انصفنى قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل، فيأخذ الحق لى منك شئت أم أبيت يعنون بالراكب النبىّ محمدا صلى اللّه عليه و سلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۶۱

فلما قدم عمرو بن العاص غيبت الروم ذلك الجمل لئلا يكون شاهدا عليهم. قال ابن لهيعة: بلغنى أن تلك الصورة فى ذلك الموضع قد أتى الآن عليها سنين لا يدرى من عملها.

قال القضاعىّ: فهذه عشرون أعجوبة من جملتها ما يتضمن عدّة عجائب، فلو بسطت لجاء منها عدد كثير، و يقال: ليس من بلد فيه شيء غريب إلا و فى مصر مثله أو شبيه به. ثم تفضل مصر على البلدان بعجائبها التى ليست فى بلد سواها.

و فى كتاب تحفة الألباب: أنه كان بمصر بيت تحت الأرض فيه رهبان من النصارى، و فى البيت سرير صغير من خشب تحت صبىّ ميت ملفوف فى نطع أديم مشدود بحبل، و على السرير مثل الباطية فيها أنبوب من نحاس فيه فتيل إذا اشتعل الفتيل بالنار و صار سراجا خرج من ذلك الأنبوب الزيت الصافى الحسن الفائق حتى تمتلىء تلك الباطية، و ينطفى السراج بكثرة الزيت فإذا انطفأ لم يخرج من الدهن شيء، فإذا خرج الصبى الميت من تحت السرير لم يخرج من الزيت شيء و الباطية يريقها الإنسان فلا يرى تحتها شيئا، و لا موضعا فيه ثقب، و أولئك الرهبان يتعيشون من ذلك الزيت يشتريه الناس منهم فينتفعون به.

و قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: عديم الملك ابن تقطريم كان جبارا لا يطاق عظيم الخلق، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرما كما عمل الأوّلون، و كان فى وقته الملكان اللذان أهبطا من السماء، و كانا فى بئر يقال له افتارة، و كانا يعلمان أهل مصر السحر.

و كان يقال: إن الملك عديم بن البودشير استكثر من علمهما، ثم انتقلا إلى بابل، و أهل مصر من القبط يقولون: إنهم شيطانان يقال لهما: مهلة و بهالة، و ليس هما الملكين و الملكان ببابل فى بئر هناك يغشاها السحرة إلى أن تقوم الساعة. و من ذلك الوقت عبدت الأصنام و قال قوم: كان الشيطان يظهر و ينصبها لهم. و قال قوم: أوّل من نصبها بدوره و أوّل صنم أقامه صنم الشمس، و قال آخرون: بل النمرود الأوّل أمر الملوك بنصبها، و عبادتها و عديم أول من صلب، و ذلك أن امرأة زنت برجل من أهل الصناعات، و كان لها زوج من أصحاب الملك، فأمر بصلبهما على منارين، و جعل ظهر كل واحد منهما إلى ظهر الآخر و زبر على المنارين اسمهما و ما فعلاه، و تاريخ الوقت الذى عمل ذلك بهما فيه، فانتهى الناس عن الزنى و بنى أربع مداين، و أودعها صنوفا كثيرة من عجائب الأعمال و الطلسمات، و كنز فيها كنوزا كثيرة و عمل فى الشرق منارا و أقام على رأسه صنما موجها إلى الشرق مادّا يديه يمنع دواب البحر و الرمال أن تتجاوز حدّه، و زبر فى صدره تاريخ الوقت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۶۲

الذى نصبه فيه و يقال: إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا. و لولا هذا لغلب الماء الملح من البحر الشرقىّ على أرض مصر و عمل على النيل قنطرة فى أول بلد النوبة، و نصب عليها أربعة أصنام موجهة إلى أربع جهات الدنيا فى يدى كل واحد من الأصنام حربتان يضرب بهما إذا أتاهم آت من تلك الجهة فلم تزل بحالها إلى أن هدمها فرعون موسى عليه السلام، و عمل البربا على باب النوبة، و هو هناك إلى وقتنا هذا، و عمل فى إحدى المدائن الأربع التى ذكرناها حوضا من صوّان أسود مملوء ماء لا ينقص طول الدهر، و لا يتغيّر ماؤه لأنه اجتلب إليه من رطوبة الهواء، و كان أهل تلك الناحية، و أهل تلك المدينة يشربون منه و لا ينقص ماؤه، و عمل ذلك لبعدهم عن النيل.

و ذكر بعض كهنة القبط أن ذلك الماء ثم لقربه من البحر الملح فإن الشمس ترفع بحرّها بخار البحر فينحصر من ذلك البخار جزء بالهندسة، أو بالسحر، و تجعله ينحط ذلك فى ذلك الموضع بالجوهر مثل الظل، و تمدّه بالهواء فلا ينقص بذلك ماؤه على الدهر، و لو شرب منه العالم و عمل قدحا لطيفا على مثل هذا العمل، و أهداه حوميل الملك إلى إسكندر اليونانى و ملكهم عديم مائة و أربعين سنة، و مات و هو ابن سبعمائة و ثلاثين سنة، و دفن فى إحدى المدائن ذات العجائب و قيل: فى صحراء قفط.

و ذكر بعض القبط أن ناووس عديم عمل فى صحراء قفط على وجه الأرض تحت قبة عظيمة من زجاج أخضر برّاق معقود على رأسها كرة من ذهب عليها طائر من ذهب موشح بجوهر منشور الجناحين يمنع من الدخول إلى القبة، و كان قطرهما مائة ذراع فى مثلها و

جعل جسده فى وسطها على سرير من ذهب مشبك، و هو مكشوف الوجه، و عليه ثياب منسوجة بالذهب المغروز بالجوهر المنظوم، و طول القبة أربعون ذراعا، و جعل فى القبة مائة و سبعين مصحفا من مصاحف الحكمة و سبع موائد بأوانيها. منها مائدة من درّ رمانى أحمر و أوانيها منها و مائدة من ذهب قلمونى أوانيها منها، و مائدة من حجر الشمس المضىء بآنيتها و هو الزبرجد الذى إذا نظرت إليه الأفاعى سالت أعينها و مادة من كبريت أحمر مدبر بآنيتها، و مائدة من ملح أبيض مدبر برّاق بآنيتها و مائدة من زئبق معقود و جعل فى القبة جواهر كثيرة و برابى صنعة مدبرة، و حوله سبعة أسياف، و أتراس من حديد أبيض مدبر، و تماثيل أفراس من ذهب عليها سروج من ذهب، و سبعة توابيت من دنانير عليها صورته، و جعل معه من أصناف العقاقير و السمومات و الأدوية فى برابى من حجارة، و قد ذكر من رأى هذه القبة أنهم أقاموا أياما فما قدروا على الوصول إليها و أنهم إذا قصدوها، و كانوا منها على ثمانية أذرع دارت القبة عن أيمانهم أو عن شمائلهم.

و من أعجب ما ذكروه أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزجا أزجا فلا يرون غير الصورة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۶۳

التى يرونها من الأزج الآخر على معنى واحد. و ذكروا أنهم رأوا وجه الملك قدر ذراع و نصف بالكبير و لحيته كبيرة مكشوفة، و قدّروا طول بدنه عشرة أذرع و زيادة، و ذكر هؤلاء الذين رأوها أنهم خرجوا لحاجة، فوجدوها اتفاقا. و أنهم سألوا أهل قفط عنها فلم يجدوا أحدا يعرفها سوى شيخ منهم.

و أوصى عديم الملك ابنه شداب بن عديم أن ينصب فى كل حيز من أحياز ولايته منارا، و يزبر عليه اسمه فانحدر إلى الأشمونين، و عمل مناراتها و زبر عليها اسمه، و عمل بها ملاعب و عمل فى صحرائها منارا أقام عليه صنما برأسين على اسم كوكبين كانا مقترنين فى الوقت الذى خرج فيه إلى اتريب و بنى فيها قبة عظيمة مرتفعة على عمد و أساطين بعضها فوق بعض، و على رأسها صنما صغيرا من ذهب، و عمل هيكلا للكواكب، و مضى إلى حيز صا فعمل فيه منارا على رأسه مرآة من أخلاط تورى الأقاليم، و رجع و عمل شداب بن عديم هيكل ارمنت. و أقام فيه أصناما بأسماء الكواكب من جميع المعادن و زينه بأحسن الزينة، و نقشه بالجواهر و الزجاج الملوّن و كساه الوشى و الديباج، و عمل فى المدائن الداخلة من أنصنا هيكلا و أقام فيه باتريب، و هيكلا شرقىّ الإسكندرية، و أقام صنما من صوّان أسود باسم زحل على عبرة النيل من الجانب الغربىّ و بنى فى الجانب الشرقىّ مداين فى إحداها صورة صنم قائم، و له إحليل إذا أتاه المعقود و المسحور و من لا ينتشر ذكره فمسحه بكلتى يديه انتشر ذكره، و قوى على الباه و فى إحداها بقرة، لها ضرعان كبيران إذا انعقد لبن امرأة أتتها و مسحتها بيديها فإنه يدر لبنها، و جمع التماسيح بطلسم عمله بناحية أسيوط، فكانت تنصب من النيل إلى اخميم انصبابا فيقتلها و يستعملها جلودا فى السفن و غيرها.

و عمل منقاوس الملك بيتا تدور به تماثيل بجميع العلل، و كتب على رأس كل تمثال ما يصلح من العلاج، فانتفع الناس بها زمانا إلى أن أفسدها بعض الملوك و عمل صورة امرأة مبتسمة لا يراها مهموم إلا زال همه و نسيه فكان الناس يتناوبونها، و يطوفون حولها ثم عبدوها من جملة ما عبدوه بعد ذلك.

و عمل تمثالا من صفر مذهب بجناحين لا يمرّ به زان و لا زانية إلا كشف عورته بيده، و كان الناس يمتحنون به الزناة فامتنعوا من الزنا فرقا منه. فلما ملك كلكن عشقت حظية عنده رجلا من خدمه، و خافت أن تمتحن بذلك الصنم. فأخذت فى ذكر الزوانى مع الملك و أكثرت من سبهنّ و ذمّهنّ فذكر كلكن ذلك الصنم، و ما فيه من المنافع. فقالت: صدق الملك غير أن منقاوس لم يصب فى أمره لأنه أتعب نفسه و حكماءه فيما جعله لإصلاح العامة دون نفسه، و كان حكم هذا أن ينصب فى دار الملك حيث يكون نساؤه و جواريه فإن اقترفت إحداهنّ ذنبا علم بها فيكون رادعا لهنّ متى عرض بقلوبهنّ شىء من الشهوة فقال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۶۴

كلكن صدقت، و ظنّ أن هذا منها نصح، فأمر بنزع الصنم من موضعه و نقله إلى داره، فبطل عمله و عملت المرأة ما كانت همت به.

و بنى هيكلا على جبل القصير للسحرة، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلعة إلا بضريبة يأخذونها منهم للملك.

و بنى مناوس بن منقاوس فى صحراء الغرب مدينة بالقرب من مدينة السحرة تعرف:

بقنطرة ذات عجائب، و جعل بوسطها قبة عليها كالسحابة تمطر شتاء و صيفا مطرا خفيفا، و تحت القبة مطهرة فيها ماء أخضر يداوى به من كل داء فيبريه، و عمل فى شرقيها بربا لطيفا له أربعة أبواب لكل باب عضادتان فى كل عضادة صورة وجه يخاطب كل واحد منهما صاحبه بما يحدث فى يومه فمن دخل البربا على غير طهارة نفخا فى وجهه فأصابه رعدة فظيعة لا تفارقه حتى يموت. و كانوا يقولون: إن فى وسطه مهبط النور فى صورة العمود من اعتنقه لم يحتجب عن نظره شيء من الروحانية و سمع كلامهم، و رأى ما يعملون، و على كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب فى يده مصحف فيه علم من العلوم. فمن أحب معرفة ذلك العلم أتى تلك الصورة، فمسحها بيديه و أمرّهما على صدره فيثبت ذلك العلم فى صدره. و يقال: إن هاتين المدينتين بنيتا على اسم هرمس، و هو عطارد و أنهما بحالهما (و حكى عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان، و هو أمير مصر، فعرّفه أنه تاه فى صحراء الشرق، فوقع على مدينة خراب فيها شجرة تحمل كل صنف من الفاكهة، و أنه أكل منها و تزوّد فقال له رجل من القبط: هذه إحدى مدينتى هرمس، و فيها كنوز كثيرة فوجه عبد العزيز معه جماعة معهم ماء و زاد، فأقاموا يطوفون تلك الصحارى شهرا فلم يقفوا لها على أثر.

و عملت أم ميلاطس الملك بركة عظيمة فى صحراء الغرب، و جعلت فى وسطها عمودا طوله ثلاثون ذراعا، و فى أعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فلا ينقص أبدا.

و جعلت حول البركة أصناما من حجارة ملونة على صور الحيوانات من الوحش، و الطير و البهائم، فكان كل جنس يأتى إلى صورته و يألفها فيؤخذ باليد و ينتفع به.

و عملت لابنها منتزها لأنه كان يحب الصيد، فجعلت فيه مجالس مركبة على أساطين من مرمر مصفّح بالذهب مرصع بالجوهر، و الزجاج الملوّن و زخرفته بالتصاوير العجيبة، و النقوش فكان الماء يطلع من فوّارات و ينصب إلى أنهار قد صفحت بالفضة تجرى إلى حدائق فيها بديع الفروشات، و قد أقيم حولها تماثيل تصفر بأنواع اللغات، و أرخت على المجلس ستورا من ديباج، و اختارت لابنها من حسان بنات عمه و بنات الملوك و زوجته و حولته إلى هذه الجنة و بنت حول الجنة مجالس للوزراء، و الكهنة، و أشراف أهل الصناعات، فكانوا يرفعون إليه جميع ما يعملونه، فإذا فرغوا من أعمالهم حمل إليهم الطعام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۶۵

و الشراب، و كان ميلاطس تقلد الملك بعد أبيه مرقوه و هو صبيّ و كانت أمه مدبرة الملك، و هى حازمة مجرّبة فأجرت الأمور على ما كانت عليه فى حياة أبيه و أحسنت و عدلت فى الرعية و وضعت عنهم بعض الخراج، و كانت أيامه سعيدة كلها فى الخصب الكثير و السعة للناس و العدل، و كان له يوم يخرج فيه إلى الصيد، و يرجع إلى جنته فيأمر لكل من معه بالجوائز و الأطعمة و يجلس للنظر يوما فى مصالح الناس و قضاء حوائجهم و يخلو يوما بنسائه. و كان ملكه ثلاث عشرة سنة، و جدّر فمات.

و عمل فرسون بن قيلمون بن أتريب منارا على بحر القلزم، و على رأسه مرآة تجتذب بها المراكب إلى شاطيء البحر فلا يمكنها أن تبرح إلا أن تعشر فإذا عشرت سترت المرآة حتى تجوز المراكب، و أقام فرسون مائتى سنة و ستين سنة؛ و عمل لنفسه ناووسا خلف الجبل الأسود الشرقى فى وسطه قبة حولها اثنا عشر بيتا فى كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخرى، و زبر عليها اسمه و مدة ملكه.

وكا مرقونس الملك حكيما محبا للنجوم، و العلوم و الحكمة، فعمل فى أيامه درهما إذا ابتاع به صاحبه شيئا اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم، و لا يطلب عليه زيادة فيغترّ البائع بذلك و يقبل الشرط فإذا تم ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم أرطال كثيرة تساوى عشرة أضعافه، و كان إذا أحب أن يدخل فى وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل، و قد وجد هذا الدرهم فى كنوزهم ثم فى خزائن بنى أمية و كان الناس يتعجبون منه و وجدوا دراهم أخر، قيل: إنها عملت فى وقته أيضا فيكون الدرهم منها فى ميزان الرجل فإذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ ذلك الدرهم، و قبله و قال: اذكر العهد و ابتاع به ما أراد فإذا أخذ السلعة و مضى إلى بيته وجد الدرهم

قد سبقه إلى منزله، و يجد البائع موضع ذلك الدرهم، ورقة آس أو قرطاسا أو مثل ذلك بدور الدرهم، و فى وقته عملت الآنية الزجاج التى توزن فإذا ملئت ماء أو غيره، ثم وزنت لم تزد عن وزنها الأوّل شيئا و عمل فى وقته الآنية التى إذا جعل فيها الماء صار خمرا فى لونه و رائحته و فعله، و قد وجد من هذه الآنية باطفيح فى أمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون شربة جزع بعروة زرقاء ببياض، و كان الذى وجدها أبو الحسن الصائغ الخراسانى هو و نفر معه، فأكلوا على شاطىء النيل و شربوا بها الماء فوجدوه خمرا سكروا منه و قاموا ليرقصوا فوقعت الشربة، فانكسرت عدّة قطع؛ فاغتم الرجل و جاء بها إلى هارون فأسف عليها، و قال: لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكى.

و أما الآنية النحاسية التى تجعل الماء خمرا، فإنها منسوبة إلى قلوبطرة بنت بطليموس ملكة الإسكندرية فكثير، و فى وقته عملت الصور الحيثمية من الضفادع و الخنافس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۶۶

و الذباب و العقارب و سائر الحشرات، و كانت إذا جعلت فى موضع اجتمع إليها ذلك الجنس، و لا يقدر على مفارقة تلك الصورة حتى يقتل، و كأنه يعمل أعماله كلها بصور درج الفلك و أسمائها، و طوالعها فيتم له من ذلك ما يريده.

و عمل فى صحراء الغرب ملعبا من زجاج ملوّن فى وسطه قبة من زجاج أخضر صافى اللون. فإذا طلعت عليه الشمس ألقت شعاعها على مواضع بعيدة و عمل فى جوانبه الأربعة أربعة مجالس عالية من زجاج كل مجلس لون و نقش عليها بغير لونها طلسمات عجيبة، و نقوشات غريبة و صورا بديعة كل ذلك من زجاج مطلق يشف، و كان يقيم فى هذا الملعب الأيام و عمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة. فكان الناس يحجون إليه فى كل عيد و يذبحون له و يقيمون فيه سبعة أيام، و لم يزل هذا الملعب تقصده الأمم فإنه لم يكن له نظير، و لا عمل فى العالم مثله إلى أن هدمه بعض الملوك لعجزه عن عمل مثله.

و كانت أم مرقونس ابنة ملك النوبة و كان أبوها يعبد الكوكب الذى يقال له السها و يسميه إلها. سألت ابنها أن يعمل لها هيكلا يفردها به، فعمله و صفحه بالذهب و الفضة، و أقام فيه صنما و أرخى عليه الستور الحرير، فكانت تدخل إليه بجواريها و حشمها و تسجد له فى كل يوم ثلاث مرّات، و عملت لكل شهر عيدا تقرّب له قرابين و تبخره ليله و نهاره، و نصبت له كاهنا من النوبة يقوم به و يقرّب له و يبخره، و لم تزل بابنها حتى سجد له، و دعى إلى عبادته. فلما رأى الكاهن الأمر فى عبادة الكواكب قد تم و أحكم من جهة الملك أحب أن يكون لكوكب السّها مثالا فى الأرض على صورة حيوان يتعبد له، فأقام بعمل الحيلة فى ذلك إلى أن اتفق أن العقبان كثرت بمصر، و أضرّت بالناس فأحضر الملك هذا الكاهن و سأله عن سبب كثرتها، فقال: إن إلهك أرسلها لتعمل لها نظيرا ليسجد له.

فقال مرقونس: إن كان يرضيه ذلك، فأنا فاعله. فقال: إن ذلك رضاه، فأمر بعمل عقاب طوله ذراعان فى عرض ذراع من ذهب مسبوك و عمل عينيه من ياقوتتين، و عمل له و شاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر أخضر، و فى منقاره درة معلقة و سرو له بالدرّ الأحمر، و أقامه على قاعدة من فضة منقوشة قد ركبت على قائمة زجاج أزرق، و جعله فى أزج عن يمين الهيكل، و ألقى عليه ستور الحرير و جعل له دخنة من جميع الأفاويه و الصموغ و قرّب له عجلا أسود، و بكارة الفراريج، و باكورة الفواكه و الرياحين. فلما تمت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود إليه؛ فأجابه الناس، و لم يزل الكاهن يجهد نفسه فى عبادة العقاب و عمل له عيدا. فلما تم لذلك أربعون يوما نطق الشيطان من جوفه. و كان أوّل ما دعاهم إليه أن ينجز له فى إنصاف الشهور بالمندل، و يرش الهيكل بالخمر العتيقة التى تؤخذ من رؤوس الخوابى، و عرّفهم أنه قد أزال عنهم العقبان و ضررها، و كذلك يفعل فى غيرها مما يخافون. فسرّ الكاهن بذلك، و توجه إلى أمّ الملك يعرّفها ذلك، فسارت إلى الهيكل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۶۷

و سمعت كلام العقاب فسرّها ذلك و أعظمته. و بلغ الملك فركب إلى الهيكل حتى خاطبه و أمره و نهاه فسجد له، و أقام له سدنة و

أمر أن يزين بأصناف الزينة، و كان مرقونس يقوم بهذا الهيكل و يسجد لتلك الصورة، و يسألها عما يريد فتخبره. و عمل من الكيمياء ما لم يعمله أحد من الملوك فيقال: إنه دفن في صحراء الغرب خمسمائة دفين؛ و يقال: إنه عمل على باب مدينة صا عمودا عليه صنم في صورة امرأة جالسة و في يدها مرآة تنظر إليها، و كان العليل يأتى إلى هذه المرأة و ينظر فيها أو ينظر له أحد فيها فإن كان يموت من علته تلك رؤى ميّتا و إن كان يعيش رآه حيا، و ينظر فيها أيضا للمسافر فإن رأوه مقبلا بوجهه علموا أنه راجع، و إن رأوه موليا علموا أنه يتمادى في سفره، و إن كان مريضا أو ميتا رأوه كذلك في المرآة.

و عمل بالإسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة و على رأسه كالبرنس و في يده كالعكاز فإذا مرّ به تاجر جعل بين يديه شيئا من المال على قدر بضاعته فإن تجاوزه و لو عن بعد من غير أن يضع بين يديه المال لم يقدر على الجواز و ثبت قائما مكانه فكان يجتمع من ذلك مال عظيم يفرّق في الزمنى، و الضعفاء و الفقراء.

و عمل في زمنه كل أعجوبة ظريفة و أمر أن يزبر اسمه عليها و على كل علم و كل طلسم و كل صنم.

و عمل لنفسه ناووسا في داخل الأرض عند جبل يقال له: سدام و عمل تحته أزجا يقال: إن طوله مائة ذراع و ارتفاعه ثلاثون ذراعا و عرضه عشرون ذراعا، و صفحه بالمرمر، و الزجاج الملوّن و سقفه بالحجارة، و عمل فيها دائرة مساطب مبلطة بزجاج على كل مسطبة أعجوبة و في وسط الأزج دكة من زجاج على كل ركن من أركانها صورة تمنع الدنوّ إليها و بين كل صورتين منارة عليها حجر مضيء و في وسط الدكة حوض من ذهب فيه جسده بعدما ضمده بالأدوية الماسكة، و نقل إليه ذخائره من الذهب و الجوهر و غيره، و سدّ باب الأزج بالصخور و الرصاص، و هيل عليها الرمال و كان ملكه ثلاثا و سبعين سنة و عمره مائتين و أربعين سنة، و كان جميلا ذا وفرة حسنة، فتنسكت نساؤه و لزمن الهيكل من بعده. و ملك بعده ابنه إيساد، ثم صا بن إيساد. و قيل: صا بن مرقونس أخو إيساد فعمل مرآة في مدينة منف ترى الأوقات التي تخصب فيها مصر و تجدب و بنى بداخل الواحات مدينة، و نصب قرب البحر أعلاما كثيرة.

و عمل خلف المقطم صنما يقال له: صنم الحيلة، فكان كل من تعذر عليه أمر يأتيه و يبخره فيتيسر ذلك الأمر له، و جعل بحافة البحر الملح منارا يعلم منه أمر البحر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۶٨

و ما يحدث فيه من أقصى ما يصل إليه البصر على مسيرة أيام. و هو أوّل من اتخذها و يقال:

إنه بنى أكثر مدينة منف و كل بنيان عظيم بالإسكندرية.

و لما ملك بدارس بن صا الأحياز كلها بعد أبيه، و صفا له ملك مصر بنى في غربى مدينة منف بيتا عظيما لكوكب الزهرة، و أقام فيه صنما عظيما من لازورد مذهب، و توجّه بذهب يلوح بزرقة و سوّره بسوارين من زبرجد أخضر، و كان الصنم في صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبر. و في رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف، و نعلان من ذهب و بيدها قضيب مرجان، و هي تشير بسبابتها كأنها مسلمة على من في الهيكل، و جعل بحذائها تمثال بقرة ذات قرنين، و ضرعين من نحاس أحمر مموّه بذهب موشحة بحجر اللازورد، و وجّه البقرة تجاه وجه الزهرة، و بينهما مطهرة من أخلاط الأجساد على عمود رخام مجزع، و في المطهرة ماء مدبر يستنشق به من كل داء و فرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها في كل سبعة أيام، و جعل في الهيكل كراسي للكهنة قد صفحت بالذهب و الفضة، و قرّب لهذا الصنم ألف رأس من الضأن و المعز و الوحش و الطير، و كان يحضر يوم الزهرة و يطوف به و فرش الهيكل و ستره، و جعل فيه تحت قبة صورة رجل راكب على فرس له جناحان و معه حربة في سنانها رأس إنسان معلق.

و لم يزل هذا الهيكل إلى أن هدمه بخت نصر في أيام ماليق بن تدارس، و كان موحدا على دين قبطيم و مصرايم خرج في جيش عظيم في البر و البحر فغزا البربر، و أرض إفريقية، و بلاد الأندلس و أرض الإفرنج إلى البحر، و عمل في البحر أعلاما زبر عليها اسمه و مسيره، و رجع فهابه ملوك الأرض و كان في غربى مصر مدينة يقال لها: قرميدة بها قوم قد ملكوا عليهم امرأة ساحرة فغزاهم، فلم

ينل منهم قصدا، و رجع فأرادت ملكتهم إفساد مصر، فعملت من سحرها و أمرت، فألقى فى النيل ففاض الماء على المزارع حتى أفسدها و كثرت التماسيح و الضفادع، و فشت الأمراض فى الناس، و انبثت فيهم الثعابين و العقارب، فأحضر ماليق الكهنة و الحكماء فى دار حكمتهم و ألزمهم بالنظر لذلك. فنظروا فى نجومهم فرأوا أن هذه الآفة أتتهم من ناحية الغرب، و إنّ امرأة عملته و ألقته فى النيل، فعلموا حينئذ أنه من فعل تلك الساحرة، و اجتهدوا فى دفع ذلك بما عندهم من العلم حتى انكشف عنهم الماء الفاسد، و هلكت الدواب المضرة و جهزوا قائدا فى جيش إلى المدينة فلم يجدوا بها غير رجل واحد فأخذوا من الأموال و الجواهر و الأصنام ما لا يحصى.

فمن ذلك صورة كاهن من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الأسباديم، و صورة روحانىّ من ذهب رأسه من جوهر أحمر، و له جناحان من دور فى يده مصحف فيه كثير من علومهم فى دفتين مرصعتين بجوهر، و مطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة زجاج أخضر فيها ماء لدفع الأسقام، و فرس من فضة إذا عزم عليه بعزائمه و دخن بدخنته و ركبه أحد طار به

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۶۹

فأحضر ذلك و غيره من عجائب السحرة و أصنامهم و الأموال و الجواهر إلى مصر، و معهم الرجل، فسأله الملك عن أعجب أعمالهم قال: قصدهم بعض ملوك البربر بجمع كثيف، و تخاييل هائلة. فأغلق أهل مدينتنا حصنهم و لجوا إلى الأصنام، فأتى الكاهن إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها، فجلس على حافتها و أحاط رؤساء الكهنة بها. و أخذ يزمزم على الماء حتى فار و خرج من وسطه نار فى وسطها وجه كدارة الشمس لها ضوء فخرّ الجماعة لها سجودا، و تلك الصورة تعظم حتى صعدت و خرقت القبة، و سمع منها قد كفيتم شرّ عدوّكم، فقاموا و إذا بعدوّهم قد هلك و سائر من معه و ذلك أن صورة الشمس التى ظهرت من الماء مرّت فصاحت عليهم صيحة هلكوا بها.

و لما ملك كلكن مصر بعد أبيه خريبا؛ كان النمرود فى وقته، فاتصل بنمرود خبر حكمته و سحره فاستزاره، و وجه إليه أن يلقاه، و كان النمرود يسكن سواد العراق و غلب على كثير من الأمم فأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله لها أجنحة قد أحاطب به كالنار، و حوله صور هائلة؛ فدخل بها و هو متوشح بثعبان و محزم ببعضه و ذلك التنين فأغرفاه، و معه قضيب آس أخضر كلما حرّك التنين رأسه ضربه بالقضيب، فلما رأى النمرود ذلك هاله، و اعترف له بجليل الحكم.

و تقول القبط: إن كلكن كان يرتفع فيجلس على الهرم الغربىّ فى قبة تلوح على رأسه، و كان أهل البلد إذا دهمهم أمر اجتمعوا حول الهرم، و يقولون: إنه ربما أقام على رأس الهرم أياما لا يأكل و لا يشرب، ثم إنه استتر مدّة حتى توهموا أنه هلك فطمع الملوك فى مصر.

و قصدها ملك من المغرب. يقال له: سادوم فى جيش عظيم إلى أن بلغ وادى هيبب، فأقبل كلكن و جللهم من سحره بشىء كالغمام شديد الحرارة، و هم تحته أياما لا يدرون أين يتوجهون، ثم ارتفع و صار بمصر يعرّفهم ما عمل و أمرهم، فخرجوا. فإذا بالقوم و دوابهم قد ماتوا فهابه جميع الكهنة و صوّروه فى سائر الهياكل و بنى هيكلا لزحل من صوان أسود فى ناحية الغرب و جعل له عيدا.

(و فى أيام دارم بن الريان) و هو الفرعون الرابع الذى يقال له عند القبط: دريموش، ظهر معدن فضة على ثلاثة أيام من النيل فأثاروا منه شيئا عظيما و عمل صنما على اسم القمر لأن طالعه كان برج السرطان، و نصبه على القصر الرخام الذى بناه أبوه فى شرقىّ النيل، و نصب حوله أصناما كلها من الفضة و ألبسها الحرير الأحمر، و عمل للصنم عيدا كلما دخل برج السرطان. و لمّا ولى اكسايس الملك بعد أبيه معدان بن معاديوس بن دارم بن دريموس و هو الفرعون السادس أقام أعلاما كثيرة حول منف، و جعل عليها أساطين يمشى من بعضها إلى بعض، و عمل برقودة وصا و مدائن الصعيد، و أسفل الأرض أعلاما، و منائر للوقود،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٧٠

و طلسمات كثيرة، و عمل كودة من فضة و نقش عليها صورة الكواكب و دهنها بالدهن الصينىّ، و أقامها على منار فى وسط منف، و

عمل فى هيكل أبيه روحانى زحل من ذهب أسود مدبر، و عمل فى وقته ميزانا يعتبر به الناس كفتاه من ذهب، و علاقته من فضة، و سلاسله من ذهب فكان معلقا فى هيكل الشمس، و كتب على إحدى كفتيه: حق، و الأخرى: باطل، و تحته فصوص قد نقش عليها أسماء الكواكب، فيدخل الظالم و المظلوم يأخذ كل منهما فصا من تلك الفصوص و يسمى عليه ما يريده، و يجعل أحد الفصين فى كفة، و الآخر فى كفة، فتثقل كفة الظالم، و ترتفع كفة المظلوم، و من أراد سفرا أخذ فصين و ذكر على أحدهما اسم السفر، و على الآخر الإقامة، و جعل كل واحد فى كفة فإن ثقلا جميعا و لم يرتفع أحدهما على الآخر لم يسافر، و إن ارتفعا سافر، و إن ارتفع أحدهما أخر السفر، ثم سافر و كذا من عليه دين و من له غائب أو ينظر فى صلاح أمره و فساده.

و يقال: إن بخت نصر لمّا دخل إلى مصر حمل هذا الميزان معه فيما حمل إلى بابل، و جعله فى بيت من بيوت النار. و عمل فى أيامه تنورا أيضا يشوى فيه من غير نار، و يطبخ فيه بغير نار، و سكينا تنصب فإذا رآها شىء من البهائم أقبل حتى يذبح نفسه بها. و عمل ماء يستحيل نارا و زجاجا يستحيل هواء، و شيئا من النيرنجيات و النواسيس.

(و أما البرابى) فذكر ابن وصف شاه: أن سوريد الذى بنى الأهرام هو الذى بنى البرابى كلها، و عمل فيها الكنوز و زبر عليها علوما و وكل بها روحانية تحفظها ممن يقصدها.

و قال فى كتاب الفهرست: و بمصر أبنية يقال لها: البرابى من الحجارة العظيمة الكبيرة، و هى على أشكال مختلفة، و فيها مواضع الصحن و السحق و الحل و العقد و التقطير تدل على أنها عملت لصناعة الكيمياء، و فى هذه الأبنية نقوش و كتابات لا يدرى ما هى و قد أصيبت تحت الأرض فيها هذه العلوم مكتوبة فى التوز، و هى صفائح الذهب و النحاس و فى الحجارة.

و ذكر الحسن بن أحمد الهمدانى أن برابى مصر تنسب إلى براب بن الدرمسيل بن نحويل بن خنوخ بن قار بن آدم عليه السلام.

و ذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى، فى كتاب الإشارات الباقية عن القرون الخالية: أن كنيسة فى بعض قرى مصر قد شاهدها الموثوق بقولهم المأخوذ برأيهم المأمون من جهتهم الرواية عنهم فيها سرداب ينزل إليه بنيف و عشرين مرقاة، و فيه سرير تحته رجل و صبىّ مشدودين فى نطع و فوقه ثور رخام فى جوفه باطية زجاج يدخلها قنينة من نحاس فى جوفها فتيلة كتان توقد فيصب فيها زيت فلا يلبث إلا أن تمتلىء الباطية الزجاج زيتا، و تفيض إلى الثور الرخام، فينفق على تلك الكنيسة و قناديلها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷۱

و ذكر الجهانىّ: أنه صار إليه من وثق به و رفع الباطية عن الثور و أفرغ الزيت من الباطية و الثور جميعا و أطفأ النار و أعادها جميعا إلا الزيت فإنه صبّ زيتا من عنده و أبدله فتيلة أخرى و أشعلها، فما لبث الزيت أن فاض إلى الباطية الزجاج ثم فاض إلى الثور الرخام من غير مدد و لا عنصر.

و ذكر الجهانىّ: أنه إذا أخرج الميت من تحت السرير انطفأت النار، و لم يفض الزيت.

و ذكر عن أهل القرية: أن المرأة المتوهمة فى نفسها حملا تحمل ذلك الصبىّ، و تضعه فى حجرها فيتحرّك ولدها فى البطن إن كان الحمل حقيقة، أو تيأس إن لم تحس بحركة.

قال المؤلف رحمه اللّه: أخبرنى داود بن رزق اللّه بن عبد اللّه و كانت له سياحات كثيرة بأراضى مصر و معرفة أحوالها أنه عبر فى مغارة كبيرة يقال لها: مغارة شقلقيل بالوجه القبلى فإذا فيها كوم عظيم من سندروس و أنه تخطاه و مضى فإذا شىء كثير إلى الغاية من السمك، و جميعها ملفوفة بثياب كأنها قد كفنت بعد الموت، و أنه أخذ منها سمكة و فتشها فإذا فى فمها دينار عليه كتابة لا يحسن قراءتها. و أنه صار يأخذها سمكة سمكة، و يخرج من فم كل واحدة دينارا حتى اجتمع له من ذلك عدّة دنانير. و أنه أخذ تلك الدنانير و رجع ليخرج حتى جاء إلى الكوم السندروس، و إذا به ارتفع حتى سدّ عليه الموضع، فعاد إلى السمك، و أعاد الدنانير إلى مواضعها، و خرج فإذا السندروس كما كان أوّلا بحيث يتجاوزه، و يخرج. فعاد و أخذ الدنانير، و مشى يخرج بها فإذا السندروس قد ارتفع حتى سدّ عليه الموضع. فعاد إلى السمك، و أعاد الدنانير إلى موضعها، و خرج فإذا السندروس على حاله كما كان أوّلا بحيث

يتجاوزه و يخرج. و أنه كرّر أخذ الدنانير، و إعادتها مرارا.

و الحال على ما ذكر حتى خشى الهلاك، فتركها و خرج. فلما كان مدّة سكن موضعها، فرأى حجلا فى جدار، و قد قوّر، و وضع حجر آخر فحاول الحجر الآخر حتى رفعه فإذا تحته ستة دنانير من تلك الدنانير التى وجدها فى أفواه السمك، فأخذ منها واحدا و ترك البقية فى موضعها، و أعاد الحجر على الحجر، و قدّر اللّه بعد ذلك أنه ركب النيل ليعدّى من البرّ الشرقىّ إلى البرّ الغربىّ.

قال: فلما توسط البحر و إذا بالأسماك تثب من الماء، و تلقى أنفسها فى المركب حتى كدنا نغرق من كثرتها، فصاح الركاب خوفا من الهلاك قال: فتذكرت الدينار الذى معى، و أنّ هذا ربما كان بسببه فأخرجته من جيبى و ألقيته فى الماء فتواثبت الأسماك من المركب، و ألقت نفسها فى الماء حتى لم يبق منها شيء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٧٢

قلت: و أخبرنى قديما بعض من لا أتهمه أنه، ظفر بطلسم من هذا المعنى، و أنه عنده و أراد أن يرينى السمك يثب من الماء فلم يقدر لى أن أرى ذلك.

قال ابن عبد الحكم: لما أغرق اللّه آل فرعون، بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد. و لم يبق بها إلا العبيد، و الأجراء و النساء. فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا، و أجمع رأيهنّ أن يولينّ امرأة منهنّ يقال لها: دلوكة بنت زبا، و كان لها عقل و معرفة و تجارب، و كانت فى شرف منهنّ و موضع و هى يومئذ بنت مائة و ستين سنة.

فملكوها، فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الأشراف، و قالت لهنّ: إنّ بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد و لا يمدّ عينه إليها، و قد هلك أكابرنا و أشرافنا و ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم، و قد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا، فأضع عليه المحارس من كل ناحية فإنا لا نأمن من أن يطمع فينا الناس، فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها، المزارع و المدائن و القرى، و جعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء، و أقامت القناطر و الترع، و جعلت فيه محارس و مسالح على كل ثلاثة أميال محرس و مسلحة، و فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، و جعلت فى كل محرس رجالا و أجرت عليهم الأرزاق، و أمرتهم أن يحرسوا بالأجراس فإذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس، فأتاهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة، فنظروا فى ذلك فمنعت بذلك مصر من أرادها و فرغت من بنائه فى ستة أشهر، و هو الجدار الذى يقال له: جدار العجوز بمصر، و قد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة.

قال المسعودى و قيل: إنما بنته خوفا على ولدها، و كان كثير القنص فخافت عليه سباع البرّ و البحر، و اغتيال من جاور أرضهم من الملوك و البوادى، فحوّطت الحائط من التماسيح، و غيرها. و قد قيل غير ما وصفنا. فملكتهم ثلاثين سنة فى قول. قال المؤلف رحمه اللّه: قد بقى من حائط العجوز هذا فى بلاد الصعيد بقايا. أخبرنى الشيخ المعمر محمد بن المسعودى: أنه سار فى بلاد الصعيد على حائط العجوز و معه رفقة فاقتلع أحدهم منها لبنة فإذا هى كبيرة جدا تخالف المعهود الآن من اللبن فى المقدار، فتناولها القوم واحدا بعد واحد يتأمّلونها، و بينما هم فى رؤيتها إذ سقطت إلى الأرض، فانفلقت عن حبة فول فى غاية الكبر الذى يتعجب منه لعدم مثله فى زماننا، فقشروا ما عليها فوجدوها سالمة من السوس، و العيب، كأنها قريبة عهد بحصادها لم يتغير فيها شيء البتة فأكلها الجماعة قطعة قطعة. و كأنها إنما خبئت لهم من الزمن القديم، و الأعصر الخالية. إنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها.

قال ابن عبد الحكم: و كان ثم عجوز ساحرة يقال لها: بدور و كانت السحرة تعظمها، و تقدّمها فى علمهم و سحرهم فبعثت إليها دلوكة ابنة زبا: إنا قد احتجنا إلى سحرك، و فزعنا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٧٣

إليك، و لا نأمن أن يطمع فينا الملوك، فاعملى لنا شيئا نغلب به من حولنا. فقد كان فرعون يحتاج إليك، فكيف و قد ذهب أكابرنا، يعنى فى الغرق مع فرعون موسى و بقى أقلنا، فعملت بربا من حجارة فى وسط مدينة منف، و جعلت لها أربعة أبواب كل باب منها

إلى جهة القبلة، و البحر و الغرب و الشرق، و صوّرت فيه صور الخيل، و البغال و الحمير و السفن و الرجال، و قالت لهم: قد عملت لكم عملا يهلك به كل من أرادكم من كل جهة تؤتون منها برّا أو بحرا، و هذا يغنيكم عن الحصن، و يقطع عنكم مؤنة من أتاكم من كل جهة فإنهم إن كانوا في البرّ على خيل أو بغال أو إبل أو في سفن أو رجالة، تحركت هذه الصور من جهتهم التي يأتون منها فما فعلتم بالصور من شيء أصابهم ذلك في أنفسهم على ما تفعلون بهم. فلما بلغ الملوك حولهم أنّ أمرهم قد صار إلى ولاية النساء، طمعوا فيهم، و توجهوا إليهم، فلما دنوا من عمل مصر تحرّكت تلك الصور التي في البربا فطفقوا لا يهيجون تلك الصور بشيء، و لا يفعلون بها شيئا إلا أصاب ذلك الجيش الذي كان أقبل إليهم مثله إن كان خيلا. فما فعلوا بتلك الخيل المصوّرة في البربا من قطع رؤوسها أو سوقها أو فقء عيونها أو بقر بطونها أثر مثل ذلك بالخيل التي أرادتهم، و إن كانت سفنا أو رجالة، فمثل ذلك و كانوا أعلم الناس بالسحر، و أقواهم عليه و انتشر ذلك فتبادرهم الناس، و كان نساء أهل مصر حين غرق فرعون و قومه، و لم يبق إلا العبيد و الأجراء لم يصبرن عن الرجال. فطفقت المرأة تعتق عبدها، و تتزوّجه و تتزوّج الأخرى أجيرها، و شرطن على الرجال أن لا يفعلوا شيئا إلا بإذنهنّ، فأجابوهنّ في ذلك فكان أمر النساء على الرجال.

قال يزيد بن حبيب: إنّ نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعا لمن مضى منهم. لا يبيع أحد منهم، و لا يشترى إلا قال: استأمر امرأتي فملكتهم دلوكة بنت زبا عشرين سنة. تدبر أمرهم بمصر حتى بلغ صبيّ من أبناء أكابرهم، و أشرافهم يقال له: دركون بن بلوطس، فملكوه عليهم فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحوا من أربعمائة سنة.

و كلما انهدم من ذلك البربا الذي صوّر فيه الصور لم يقدر أحد على إصلاحه إلا تلك العجوز، و ولدها و ولد ولدها، و كانوا أهل بيت لا يعرف ذلك غيرهم فانقطع أهل ذلك البيت، و انهدم من البربا موضع في زمان لقاس بن مرنيوس. فلم يقدر أحد على إصلاحه، و معرفة علمه و بقي على حاله و انقطع ما كان يقهرون به الناس. و بقوا كغيرهم إلا أنّ الجمع كثير و المال عندهم. فلما قدم بخت نصر بيت المقدس و ظهر على بني إسرائيل، و سباهم، و خرج بهم إلى أرض بابل قصد مصر، و خرب مدائنها، و قراها، و سبى جميع أهلها و لم يترك بها شيئا، حتى بقيت مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن يجري نيلها و يذهب لا ينتفع به ثم ردّ أهل مصر إليها بعد أربعين سنة، فعمروها و لم تزل مقهورة من يومئذ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۷۴

و قال بعض الحكماء: رأيت البرابي و أخذت أتأملها، فوجدتها مستحكمة على جميع أشكال الفلك، و الذي ظهر لي أنه لم يعملها حكيم واحد بل تولى عملها قوم بعد قوم، حتى تكاملت في دور كامل. و هو ستة و ثلاثون ألف سنة شمسية، لأنّ مثل هذه الأعمال لا تعمل إلا بالأرصاد، و لا يتكامل رصد المجموع في أقل من هذه المدّة المذكورة، و كانوا يجعلون الكتاب حفرا، و نقرا في الصخور، و نقشا في الحجارة، و حلقة مركبة في البنيان، و ربما كان الكتاب هو الحفر إذا كان متضمنا لأمر جسيم، أو عهدا لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره.

و قد كتب غير المصريين كذلك كما كتبوا على قبة غمدان، و على باب القيروان، و على باب سمرقند، و على عمود مأرب، و على ركن المستقرّ، و على الأبلق المفرد، و على باب الرها، و كانوا يعمدون إلى الأماكن الشريفة، و المواضع المذكورة فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور و أمنعها من الدروس، و أجدر أن يراها من مرّ بها، و لا ينسى على طول الدهر.

و قال المسعوديّ: و اتخذت دلوكة بمصر البرابي و الصور و أحكمت آلات السحر، و جعلت في البرابي صور من يرد من كل ناحية و دوابهم إبلا كانت أو خيلا و صورت فيها من يرد من البحر في المراكب من بحر الغرب، و الشام و جمعت في هذه البرابي العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة، و خواص الأحجار، و النباتات و الحيوانات، و جعلت ذلك في أوقات فلكية و اتصالها بالمؤثرات العلوية، و كانوا إذا ورد إليهم جيش من نحو الحجاز، و اليمن عوّرت تلك الصور التي في البربا من الإبل و غيرها فيتعوّر ما في ذلك الجيش و ينقطع عنهم ناسه، و حيوانه و إذا كان الجيش من نحو الشام فعل في تلك الصور التي من تلك الجهة التي أقبل منها جيش

الشام ما فعل بما وصفنا. فيحدث في ذلك الجيش من الآفات في ناسه و حيوانه ما صنع في تلك الصور التي من تلك الجهة، و كذلك من ورد من جيوش الغرب، و من ورد في البحر من رومية و الشام، و غير ذلك من الممالك. فهابهم الملوك و الأمم و منعوا ناحيتهم من عدوّهم و اتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز و إتقانها لزمّ أقطار المملكة و أحكامها السياسية.

و قد تكلم من سلف و خلف في هذه الخواص و أسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر و هذا الخبر من فعل العجوز مستفيض لا يشكون فيه و البرابي بمصر من صعيدها و غيره باقية إلى هذا الوقت و فيها أنواع الصور مما إذا صوّرت في بعض الأشياء أحدثت أفعالا على حسب ما رسمت له، و صنعت من أجله على حسب قولهم في الطبائع و اللّه أعلم بكيفية ذلك.

قال: و أخبرني غير واحد من بلاد اخميم من صعيد مصر عن أبي الفيض ذي النون بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٧۵

إبراهيم المصريّ الإخميميّ الزاهد: و كان حكيما و كانت له طريقة يأتيها، و نحلة يقصدها، و كان ممن يقرّ على أخبار هذه البرابي و امتحن كثيرا مما صوّر فيها و رسم عليها من الكتابة، و الصور، قال: رأيت في بعض البرابي كتابا تدبرته فإذا هو: احذر العبيد المعتقين، و الأحداث و الجند المتعبدين، و النبط المستعربين، و رأيت في بعضها كتابا تدبرته فإذا فيه: يقدّر المقدّر و القضاء يضحك. و في آخره كتابة تثبتها في ذلك العلوم فوجدتها:

تدبر بالنجوم و لست تدري و رب النجم يفعل ما يريد

قال: و كانت هذه الأمة التي اتخذت هذه البرابي لهجة بالنظر في أحكام النجوم من المواظبين على معرفة أسرار الطبيعة، و كان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم: أنّ طوفانا سيكون في الأرض، و لم يقطع على ذلك الطوفان ما هو؟ أنار تأتي على الأرض فتحرق ما عليها؟ أو ماء يغرقها، أو سيف يبيد أهلها، فخافت دثور العلوم، و فناءها بفناء أهلها، فاتخذت هذه البرابي و رسمت فيها علومها من الصور و التماثيل و الكتابة، و جعلت بنيانها نوعين طينا و حجارة و فرزت ما بني بالطين مما بني بالحجارة، و قالت: إن كان هذا الطوفان نارا استحجر ما بني بالطين، و إن كان الطوفان الوارد ماء أذهب ما بنينا بالطين، و يبقى ما بني بالحجارة، و إن كان الطوفان سيفا بقي كل من النوعين مما هو من الطين و ما هو من الحجر. و هذا ما قيل، و اللّه أعلم. إنه كان قبل الطوفان، و إنّ الطوفان الذي كانوا يرقبونه و لم يعينوه أنار هو أم ماء أم سيف. كان سيفا أتى على جميع أهل مصر من أمّة غشيتها، و ملك نزل عليها فأباد أهلها.

و منهم من رأى أن ذلك الطوفان كان و باء عمّ أهلها. و مصداق ذلك ما يوجد ببلاد تنيس من التلال المتقذرة من الناس من صغير و كبير، و ذكر و أنثى، كالجبال العظام، و هي المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر بذات الكوم، و ما يوجد ببلاد مصر، و صعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض في الكهوف و الغيران و النواويس، و مواضع كثيرة من الأرض لا يدرى من أي الأمم هم، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم، و لا اليهود تقول إنهم من أوائلهم و لا المسلمون يدرون من هؤلاء، و لا تاريخ ينبئ عن حالهم، و عليهم أثوابهم و كثيرا ما يوجد في تلك البرابي و الجبال من حليتهم. و البرابي ببلاد مصر بنيان قاتم عجيب كالبربا التي بأخميم و التي بسمنود و غير ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٧۶

ذكر الدفائن و الكنوز التي تسميها أهل مصر المطالب

الأصل في جواز تتبع الدفائن ما رواه أبو عمرو بن عبد البر و البيهقيّ في الدلائل من حديث ابن عباس.

أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم، لما انصرف من الطائف مرّ بقبر أبي رغال فقال: «هذا قبر أبي رغال، و هو أبو ثقيف». كان إذا هلك قوم صاح في الحرم فمنعه اللّه. فلما خرج من الحرم رماه بقارعة، و آية ذلك أنه دفن معه عمود من ذهب فابتدر المسلمون قبره فنبشوه و استخرجوا العمود منه.

و من حديث عبد اللّه بن عمر سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبى رغال و كان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما أخرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه و آية ذلك أنه دفن معه عصا من ذهب إن نبشتم عليه أصبتموه معه»، فابتدره الناس فأخرجوا العصا الذى كان معه.

و بمصر كنوز يوسف عليه السلام، و كنوز الملوك من قبله، و الملوك من بعده لأنه كان يكنز ما يفضل عن النفقات، و المؤن لنوائب الدهر، و هو قول اللّه عز و جل: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ [الشعراء/ ٥٨] و يقال: إن علم الكنوز فى كنيسة القسطنطينية نقلت إليها من طليطلة.

و يقال: إنّ الروم لما خرجت من الشام و مصر، اكتنزت كثيرا من أموالها فى مواضع أعدّتها لذلك، و كتبت كتبا بأعلام مواضعها، و طرق الوصول إليها، و أودعت هذه الكتب قسطنطينية، و منها يستفاد معرفة ذلك، و قيل: إن الروم لم تكتب، و إنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين، و الكلدانيين، و القبط. فلما خرجوا من مصر و الشام، حملوا تلك الكتب معهم، و جعلوها فى الكنيسة و قيل: إنه لا يعطى من ذلك أحد حتى يخدم الكنيسة مدّة. فيدفع إليه ورقة تكون حظه.

قال المسعودىّ: و لمصر أخبار عجيبة من الدفائن و البنيان، و ما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض، و غيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض. و تدعى بالمطالب إلى هذه الغاية و قد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٧٧

(فمن أخبارها) ما ذكره يحيى بن بكير قال: كان عبد العزيز بن مروان، عاملا على مصر لأخيه عبد الملك بن مروان، فأتاه رجل متنصح فسأله عن نصحه فقال: بالقبة الفلانية كنز عظيم. قال عبد العزيز: و ما مصداق ذلك. قال: هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر و الرخام عند يسير من الحفر. ثم ينتهى بنا الحفر إلى باب من الصفر تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا، و جناحاه مضرجان بالياقوت، و الزمرد و رأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود، فأمر له عبد العزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال فى ذلك و يعمل فيه. و كان هناك تل عظيم، فاحتفروا حفيرة عظيمة فى الأرض، و الدلائل المقدّم ذكرها من الرخام و المرمر تظهر فازداد عبد العزيز حرصا على ذلك، و أوسع فى النفقة و أكثر من الرجالة، ثم انتهوا فى حفرهم إلى ظهور رأس الديك، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم. لما فى عينيه من الياقوت، ثم بان جناحاه، ثم بانت قوائمه، و ظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع الحجارة، و الرخام و قناطر مقنطرة، و طاقات على أبواب معقودة، و لاحت منها تماثيل، و صور أشخاص من أنواع الصور الذهب و أجرنة من الأحجار قد أطبق عليها أغطيتها، و سبكت.

فركب عبد العزيز بن مروان، حتى أشرف على الموضع، فنظر إلى ما ظهر من ذلك فأسرع بعضهم، و وضع قدمه على درجة من نحاس ينتهى إلى ما هناك، فلما استقرّت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة، و شمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا و هوى جسمه سفلا. فلما استقرّ جسمه على بعض الدرج اهتز العمود، و صفر الديك صفيرا عجيبا أسمع من كان بالبعد من هناك، و حرّك جناحيه، و ظهرت من تحته أصوات عجيبة، قد عملت بالكواكب و الحركات إذا مال وقع على بعض تلك الدرج شىء أو ماسها شىء انقلبت فتهاوى من هناك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة، و كان فيها ممن يحفر و يعمل و ينقل التراب، و ينظر و يحوّل و يأمر و ينهى نحو ألف رجل. فهلكوا جميعا، فخرج عبد العزيز و قال: هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النيل نعوذ باللّه منه و أمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس. فكان الموضع قبرا لهم.

قال المسعودى: و قد كان جماعة من أهل الدفائن و المطالب و من قد اعتنى و أغرى بحفر الحفائر، و طلب الكنوز و ذخائر الملوك و الأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر، قد وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام بأن فيه مطلبا عجيبا، فأخبروا الإخشيد محمد بن طفج بذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٧٨

فأمرهم بحفره، و أباحهم استعمال الحيلة فى إخراجه، فحفروا حفرا عظيما إلى أن انتهوا إلى أزج و أقباء و حجارة مجوّفة فى صخرة منقورة فيها تماثيل قائمة على أرجلها من الخشب قد طلى بالأطلية المانعة من سرعة البلاء و تفرّق الأجزاء و الصور مختلفة فيها صور شيوخ و شبان و نساء و أطفال. أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت و الزمرد و الزبرجد و الفيروزج، و منها ما وجوهها ذهب، و فضة فكسر بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها رمما بالية، و أجساما فانية، و إلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية كالبرانى و غيرها من المرمر و الرخام، و فيه من الطلى الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى التماثيل الخشب و الطلاء دواء مسحوق، و أخلاط معمولة لا رائحة لها، فجعل منه على النار شىء ففاح منه ريح طيبة مختلفة لا تعرف فى نوع من أنواع الطيب. و قد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم، و مقادير أعمارهم، و تباين صورهم، و بإزاء كل تمثال تمثال من الحجر المرمر، أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل و الصور. عليها أنواع من الكتابات لم يقف أحد على استخراجها من أهل الملل، و زعم قوم من أهل الدراية أن لذلك القلم منذ فقد من أرض مصر. أربعة آلاف سنة، و فيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود و لا نصارى و لم يؤدّهم الحفر إلا لما ذكرناه من هذه التماثيل، و كان ذلك فى سنة ثمان و عشرين و ثلثمائة، و قد كان من سلف و خلف من ولاة مصر. من أحمد بن طولون و غيره، إلى هذا الوقت و هو سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، لهم أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن، و الأموال و الجواهر، و ما أصيب فى هذه المطالب من القبور، و قد أتينا على ذكرها فيما تقدّم من تصنيفنا.

(و ركب) أحمد بن طولون يوما إلى الأهرام، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف، و معهم المساحى و المعاول، فسألهم عن ما يعملون فقالوا: نحن قوم نطلب المطالب، فقال لهم: لا تخرجوا بعدها إلا بمشورتى أو رجل من قبلى و أخبروه أنّ فى سمت الأهرام مطلبا قد عجزوا عنه فضم إليهم الرافقى و تقدّم إلى عامل الجيزة فى إعانتهم بالرجال و النفقات، و انصرف فأقاموا مدّة يعملون حتى ظهر لهم، فركب أحمد بن طولون إليهم و هم يحفرون، فكشفوا عن حوض مملوء دنانير، و عليه غطاء مكتوب عليه بالبربطية فأحضر من قرأه: فإذا فيه أنا فلان بن فلان الملك الذى ميز الذهب من غشه و دنسه فمن أراد أن يعلم فضل ملكى على ملكه فلينظر إلى فضل عيار دينارى على عيار ديناره، فإن مخلص الذهب من الغش مخلص فى حياته و بعد وفاته، فقال أحمد بن طولون: الحمد للّه أنّ ما

نبهتنى عليه هذه الكتابة أحبّ إلىّ من المال، ثم أمر لكل من القوم المطالبية بمائتى دينار منه و لكل من الصناع بخمسة دنانير بعد توفية أجرة عمله، و للرافقى بثلاثمائة دينار، و لنسيم الخادم بألف دينار و حمل باقى الدنانير، فوجدها أجود من كل عيار، و شدّد من حينئذ فى العيار بمصر. حتى صار عيار ديناره الذى عرف بالأحمدىّ أجود عيار، و كان لا يطلى إلا به.

ذكر هلاك أموال أهل مصر

قال اللّه عز و جل: وَ قالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما [يونس/ ٨٨- ٨٩] هذا دعاء من موسى عليه السلام، على فرعون و قومه من أهل مصر، لكفرهم أن يهلك اللّه أموالهم. قال الزجاج: طمس الشىء: إذهابه عن صورته.

و عن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما، و عن محمد بن كعب القرظى أنهما قالا:

صارت أموال أهل مصر و دراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا، و أثلاثا و أنصافا، فلم يبق معدن إلا طمس اللّه عليه فلم ينتفع به أحد بعدهم. و قال قتادة: بلغنا أن أموالهم و زروعهم صارت حجارة. و قال مجاهد: و عطية أهلكها اللّه تعالى حتى لا ترى يقال: عين مطموسة أى ذاهبة، و طمس الموضع: إذا عفا و درس. و قال ابن زيد: صارت دنانيرهم و دراهمهم و فرشهم و كل شىء لهم حجارة. و قال محمد بن كعب: و كان الرجل منهم يكون مع أهله و فراشه و قد صارا حجرين. قال: و قد سألنى عمر بن عبد العزيز، فذكرت

ذلك فدعا بخريطة أصيبت بمصر، فأخرج منها الفواكه و الدراهم و الدنانير و إنها لحجارة.

و قال محمد بن شهاب الزهرى: دخلت على عمر بن عبد العزيز فقال: يا غلام ائتنى بالخريطة. فجاء بخريطة نثر ما فيها، فإذا فيها دراهم و دنانير و تمر و جوز و عدس و فول.

فقال: كل يا ابن شهاب فأهويت فإذا هو حجارة فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا مما أصاب عبد العزيز بن مروان فى مصر إذ كان عليها واليا و هو مما طمس اللّه عليه من أموالهم.

و قال المضارب بن عبد اللّه الشامى: أخبرنى من رأى النخلة بمصر مصروعة و إنها لحجر. و لقد رأيت ناسا كثيرا قياما و قعودا فى أعمالهم لو رأيتهم ما شككت فيهم قبل أن تدنو منهم إنهم أناس و إنهم لحجارة. و لقد رأيت الرجل من رقيقهم و إنه لحارث على ثورين و إنه و ثوريه لحجارة. و نقل و سمة بن موسى فى قصص الأنبياء: أن فرعون لما هلك و قومه و آمنت بنو إسرائيل غائلته ندب موسى عليه السلام؛ من نقبائه الاثنى عشر نقيبين: أحدهما:

كالب بن موقيا، و الآخر: يوشع بن نون، مع كل واحد من سبطه اثنا عشر ألفا و أرسلهما إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۸۰

مصر. و قد خلت من حاميها لغرق أهلها مع فرعون فأخذوا ذخائر فرعون و كنوزه، و عادوا إلى موسى. فذلك توريثهم أرض مصر يعنى قول اللّه عز و جل عن قوم فرعون:

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ [الشعراء/ ۵۸]، كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ [الدخان/ ۲۸]، و قوله تعالى: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها [الأعراف/ ۱۳۷] يعنى أرض مصر أورثناها بنى إسرائيل لأنهم هم المستضعفون الذين كانوا فيها بدليل قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ [القصص/ ۵]. قال جامعه و مؤلفه رحمه اللّه تعالى: أخبرنى داود بن رزق بن عبد اللّه و كانت له سياحات كثيرة بأرض مصر أنه عبر إلى واد بالقرب من القلمون بالوجه القبلى فرأى فيه مقاتات كثيرة ما بين بطيخ و قثاء و تفاح و كلها حجارة و كان قد أخبرنى قديما بعض الأعيان أنه شاهد فى سفره إلى البلاد من أرض مصر بطيخا كثيرا كله حجارة و كذلك البطيخ من الصنف الذى يقال له العبدلى.

ذكر أخلاق أهل مصر و طبائعهم و أمزجتهم

قال أبو الحسن علىّ بن رضوان الطبيب: مصر، اسم فيما نقلت الرواة يدل على أحد أولاد نوح النبى عليه السلام، فإنهم ذكروا أنّ مصر هذا نزل بهذه الأرض فانسل فيها، و عمرها فسميت باسمه، و الذى يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الأرض التى يفيض عليها النيل، و يحيط بها حدود أربعة؛ و هى: أنّ الشمس تشرق على أقصى العمارة بالشرق قبل أن تغيب عن آخر العمارة بالغرب بثلاث ساعات، و ثلثى ساعة. فيجب من ذلك أن تكون هذه الأرض فى النصف الغربىّ من الربع العامر، و النصف الغربىّ من الربع العامر على ما قال أبقراط، و بطليموس: أقل حرارة و أكثر رطوبة من النصف الشرقىّ. لأنه قسم كوكب القمر، و النصف الشرقىّ فى قسم كوكب الشمس، و ذلك أن الشمس تشرق على النصف الشرقىّ قبل شروقها على النصف الغربىّ، و القمر يهل على النصف الغربىّ قبل النصف الشرقىّ.

و قد زعم قوم من القدماء أنّ أرض مصر فى وسط الربع من المعمور من الأرض بالطبع، فأما بالقياس فعلى ما ذكرنا من أنها فى النصف الغربىّ، و الحدّ الثالث هو أن أوّل بعد هذه الأرض عن خط الاستواء فى جهة الجنوب أسوان و بعدها عن خط الاستواء اثنان و عشرون درجة و نصف، فالشمس تسامت رؤوس أهلها مرّتين فى السنة عند كونها فى آخر الجوزاء، أو فى أوّل السرطان، و فى هذين الوقتين لا يكون للقائم بأسوان نصف النهار ظل أصلا، فالحرارة و اليبس و الإحراق غالب على مزاجها لأنّ الشمس تنشف رطوبتها، و

لذلك صارت ألوانهم سودا و شعورهم جعدة لاحتراق أرضهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۸۱

و الحدّ الرابع هو: أن آخر بعد أرض مصر عن خط الاستواء فى جهة الشمال طرف بحر الروم، و عليه من أرض مصر بلدان كثيرة كالإسكندرية و رشيد و دمياط و تنيس و الفرما.

و بعد دمياط عن خط الاستواء فى الشمال أحد و ثلاثون جزءا و ثلث، و هذا البعد هو آخر الإقليم الثالث، و أوّل الإقليم الرابع. فالشمس لا تبعد عنهم كل البعد، و لا تقرب منهم كل القرب فالغالب عليهم الاعتدال مع ميل يسير إلى الحرارة فإن الموضع المعتدل على الصحة من البلدان العامة و هو أوّل وسط الإقليم الرابع، و أيضا فمجاورة دمياط للبحر و إحاطته بها تجعلها معتدلة بين الحرّ و البرد خارجة عن الاعتدال إلى الرطوبة، فيكون الغالب عليها المزاج الرطب الذى ليس بحارّ و لا بارد، و لذلك صارت ألوانهم سمرا و أخلاقهم سهلة و شعورهم سبطة، و إذا كان أوّل مصر من جهة الجنوب الغالب عليه الاحتراق و آخرها من جهة الشمال الغالب عليها الاعتدال مع ميل يسير نحو الحرارة فما بين هذين الموضعين من أرض مصر الغالب عليه الحرارة، و تكون قوّة حرارته بقدر بعده من أسوان، و قربه من بحر الروم.

و من أجل هذا قال أبقراط و جالينوس: إن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة قال: و جبل لوقا فى مشرق هذه الأرض يعوق عنها ريح الصبا، فإنه لم يوجد بفسطاط مصر صبا خالصة، لكن متى هبت الصبا عندهم، هبت نكبا بين المشرق و الشمال، أو المشرق و الجنوب، و هذه الرياح يابسة مانعة من العفن. و قد عدمت أهل مصر هذه الفضيلة و من أجل ذلك صارت المواضع التى تهب فيها ريح الصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها كالإسكندرية و تنيس، و يعوّق أيضا هذا الجبل إشراق الشمس على أرض مصر إذا كانت على الأفق فيكون زمان لبث الشعاع على هذه الأرض أقل من الطبيعىّ. و مثل هذه الحال سبب لركود الهواء و غلظه.

و أرض مصر أرض كثيرة الحيوان و النبات جدّا لا تكاد تجد فيها موضعا خلوا من الحيوان و النبات. و هى أرض متخلخلة فإنك تراها عند انصراف النيل بمنزلة الحمأة، فإذا حلّت الحرارة ما فيها من الرطوبة تشققت شقوقا عظاما، و المواضع الكثيرة الحيوان و النبات أرض كثيرة العفونة، و قد اجتمع على أرض مصر حرارة مزاجها و كثرة ما فيها من الحيوان و النبات، فأوجب ذلك احتراقها و سواد طينها، فصارت أرضا سوداء. و ما قرب منها من الجبل سبخ إما بورقىّ أو مالح. و يظهر من أرض مصر بالعشيات بخار أسود أو أغبر و خاصة فى أيام الصيف. و أرض مصر ذات أجزاء كثيرة و يختص كل جزء منها بشىء دون غيره، و علة ذلك ضيق عرضها و اشتمال طولها على عرض الإقليم الثانى و الثالث، فإن الصعيد فيه من النخل و السنط و آجام القصب و البردى و مواضع إحراق الفحم و غير ذلك شيء كثير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۸۲

و الفيوم فيه من النقائع و آجام القصب و مواضع تعطين الكتان شيء كثير.

و أسفل أرض مصر فيه من النبات أنواع كثيرة كالقلقاس و الموز و غير ذلك.

و بالجملة؛ فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها و تتفضل عن غيرها. قال: و النيل يرطب يبس الصيف و الخريف فقد استبان أنّ المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة و الرطوبة الفضلية و إنها ذات أجزاء كثيرة. و أنّ هواءها و ماءها رديئان، و قد بيّن الأوائل أن المواضع الكثيرة العفن يتحلل منها فى الهواء فضول كثيرة لا تدعه يستقرّ على حال لاختلاف تصعدها.

و قد كان استبان أنّ هواء أرض مصر يسرع إليه التغير لأنّ الشمس لا يثبت على أرض مصر شعاعها المدّة الطبيعية، فمن أجل هذين كثر اختلاف هواء أرض مصر، فصار يوجد فى اليوم الواحد على حالات مختلفة مرّة حرّ، و مرّة برد، و مرّة يابس، و أخرى رطب، و مرّة متحرّك، و أخرى ساكن، و مرّة الشمس صاحية، و مرّة قد سترها الغيم.

و بالجملة هواء مصر كثير الاختلاف غير لازم لطريقة واحدة فيصير من أجل ذلك فى الأوعية و العروق من أخلاط البدن لا يلزم حدّا

واحدا. و أيضا فإنّ ما يتحلل كل يوم من البخار الرطب بأرض مصر يعوقه اختلاف الهواء و قلة سمك الجبال، و كثرة حرارة الأرض عن الاجتماع فى الجوّ، فإذا برد الهواء ببرد الليل انحدر هذا البخار على وجه الأرض فيتولد عنه الضباب الذى يحدث عنه الطل و الندا، و ربما تحلل هذا البخار بالتحلل الخفى فإذا يتحلل كل يوم ما كان اجتمع من البخار فى اليوم الذى قبله فمن أجل هذا لا يجتمع الغيم الممطر بأرض مصر إلا فى الندرة. و ظاهر أيضا، أنّ أرض مصر يترطب هواؤها فى كل يوم بما يترقى إليه من البخار الرطب و ما يتحلل.

و قد قال بعض الناس: أنّ الضباب يتكوّن من استحالة الهواء إلى طبيعة الماء فإذا انضاف هذا إلى ما قلناه كان أزيد فى بيان سرعة تغير الهواء بأرض مصر، و كثرة العفونة فيها و قد استبان أنّ أرض مصر كثيرة الاختلاف كثيرة الرطوبة الفضلية التى يسرع إليها العفن.

و العلة القصوى فى جميع ذلك هو أن أخص الأوقات بالجفاف فى الأرض كلها يكثر فيه بمصر الرطوبة لأنها تترطب فى الصيف و الخريف بمدّ النيل و فيضه. و هذا بخلاف ما عليه البلدان الأخر.

و قد علّمنا أبقراط أنّ رطوبة الصيف و الخريف فضيلة أعنى: خارجة عن المجرى الطبيعىّ كرطوبة المطر الحادث فى الصيف، و من أجل هذه قلنا: إن رطوبة مصر فضلية، و ذلك أن الحرارة و اليبس هو بالحقيقة مزاج مصر الطبيعىّ، و إنما عرض له ما أخرجه عن اليبس إلى الرطوبة الفضيلة بمدّ النيل فى الصيف و الخريف. و لذلك كثرت العفونات بهذه الأرض فهذا هو السبب الأعظم فى أن صارت أرض مصر على ما هى عليه من سخافة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٨٣

الأرض، و كثرة العفن، و رداءة الماء، و الهواء. إلا أن هذه الأشياء لا تحدث فى أبدان المصريين استحالة محسوسة إذا جرت على عادتها من أجل إلف المصريين لهذه الحال، و مشاكلة أبدانهم لها، فإن كل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان و النبات مشابه لما عليه مصر فى سخافة الأبدان و ضعف القوى، و كثرة التغير و سرعة الوقوع فى الأمراض، و قصر المدّة كالحنطة بمصر فإنها و شيكة الزوال سريع إليها العفن فى المدّة اليسيرة و لا مطعن أن أبدان الناس و غيرهم تخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستحالة، و كيف لا يكون الأمر كذلك و أبدانهم مبنية من هذه الأشياء فحال ما يتولد بأرض مصر من النبات، و الحيوان فى السخافة، و كثرة الفضول، و العفن و سرعة الوقوع فى الأمراض كحال سخافة أرضها و عفنها، و فضولها و سرعة استحالتها لأنّ النسبة واحدة. و لذلك أمكن حياة الحيوان فيها و نبات النبات بها فإن هذه الأشياء من حيث ناسبتها و لم تبعد من مشاكلتها أمكن حياتها.

فأما الأشياء الغريبة فإنها إذا دخلت إلى مصر تغيرت فى أوّل لقائها لهذا الهواء حتى إذا استقرّت و ألّفت الهواء، و استمرّت عليه صحت مشاكلة لأرض مصر.

قال: و أما جنس ما يؤكل، و يشرب بأرض مصر. فإنّ الغلات سريعة التغير سخيفة متخلخلة تفسد فى الزمان اليسير كالحنطة و الشعير و العدس و الحمص و الباقلاء و الجلبان.

فإنّ هذه تسوّس فى المدّة القليلة ليس لشىء من الأغذية التى تعمل منها لذاذة ما لنظيره فى البلدان الأخر. و ذلك أنّ الخبز المعمول من الحنطة بمصر متى لبث يوما واحدا بليلته لا يؤكل و إن أكل لم يوجد له لذاذة و لا تماسك لبعضه ببعض و لا يوجد فيه علوكة، و لكنه يتكرّج فى الزمان اليسير و كذلك الدقيق، و هذا خلاف أخبار البلدان الأخر، و كذلك الحال فى جميع غلات مصر و فواكهها، و ما يعمل فيها فإنها و شيكة الزوال سريعة الاستحالة و التغير. فأما ما يحمل من هذه إلى مصر فظاهر أنّ مزاجها يتبدّل باختلاف الهواء عليها و يستحيل عما كانت عليه إلى مشاكلة أرض مصر إلا أنّ ما كان حديثا قريب العهد بالسفر، فقد بقيت فيه من جودته بقايا صالحة فهذا حال الغلات.

و أما الحيوان الذى يأكله الناس، فالبلدى منه مزاجه مشاكل لمزاج الناس بهذه الأراضى فى السخافة و سرعة الاستحالة فهو على هذا ملائم لطبائعهم، و المجلوب كالكباش البرقية فالسفر يحدث فى أبدانها قحلا و يبسا و أخلاطا لا تشاكل أخلاط المصريين.

و لها إذا دخلت مصر مرض أكثرها. فإذا استقرّت زمانا صالحا تبدّل مزاجها و وافق مزاج المصريين.

و أهل مصر يشرب الجمهور منهم من ماء النيل و قد قلنا فى ماء النيل ما فيه كفاية و بعضهم يشرب مياه الأبار، و هى قريبة من مشاكلتهم و المياه المخزونة فقلّ من يشربها بأرض مصر.

و أجود الأشربة عندهم الشمسىّ: لأنّ العسل الذى فيه يحفظ قوّته و لا يدعه يتغير بسرعة و الزمان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٨۴

الذى يعمل فيه خالص الحرّ فهو ينضجه و الزبيب الذى يعمل منه مجلوب من بلاد أجود هواء.

و أما الخمر فقلّ من يعتصرها إلا و يلقى معها عسلا و هى معتصرة من كرومهم، فتكون مشاكلة لهم، و لهذا صاروا يختارون الشمسىّ عليها و ما عدا الشمسىّ و الخمر من الشراب بأرض مصر فردىء لا خير فيه لسرعة استحالته من فساد مادّته، كالنبيذ التمرى، و المطبوخ و المزر المعمول من الحنطة.

و أغذية أهل مصر مختلفة فإنّ أهل الصعيد يغتذون كثيرا بتمر النخل، و الحلاوة المعمولة من قصب السكر، و يحملونها إلى الفسطاط و غيرها. فتباع هناك و تؤكل، و أهل أسفل الأرض يغتذون كثيرا بالقلقاس و الجلبان و يحملون ذلك إلى مدينة الفسطاط و غيرها. فتباع هناك و تؤكل و كثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريا و مالحا و كثير يكثرون أكل الألبان، و ما يعمل منها و عند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة، و يجفف و هو أكثر أكلهم السنة كلها. و بالجملة فكل قوم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها و ألفتها. و نشأت عليها إلا أن الغالب على أهل مصر الأغذية الرديئة و ليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة. و هذا أيضا مما يؤكد أمرهم فى السخافة و سرعة الوقوع فى الأمراض. و أهل الريف أكثر حركة رياضة من أهل المدن و لذلك هم أصح أبدانا لأنّ الرياضة تصلب أعضاءهم، و تقوّيها و أهل الصعيد أخلاطهم أرق و أكثر دخانية و تخلخلا و سخافة لشدّة حرارة أرضهم من أسفل الأرض، و أهل أسفل الأرض بمصر أكثر استفراغ فضولهم، بالبراز و البول لفتور حرارة أرضهم و استعمالهم للأشياء الباردة، و الغليظة كالقلقاس. و أما أخلاط المصريين فبعضها شبيه ببعض لأنّ قوى النفس تابعة لمزاج البدن، و أبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر و الجلد، و كذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة و التنقل من شىء إلى شىء و الدعة و الجبن و القنوط و الشح و قلة الصبر و الرغبة فى العلم و سرعة الخوف و الحسد و النميمة و الكذب و السعى إلى السلطان و ذمّ الناس. و بالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التى تكون من دناءة الأنفس و ليس هذه الشرور عامّة فيهم و لكنها موجودة فى أكثرهم، و منهم: من خصه اللّه بالفضل و حسن الخلق و برّأه من الشرور، و من أجل توليد أرض مصر، الجبن و الشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأسد و إذا دخلت ذلت و لم تتناسل و كلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان. و كذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخر ما خلا ما كان منها فى طبعه ملائمة لهذه الحال كالحمار و الأرنب.

و قال: إنّ جالينوس يرى أن فصل الربيع طبيعته الاعتدال، و يناقض من ظنّ أنه حار رطب، و من شأن هذا الفصل أن تصح فيه الأبدان، و يجود هضمها و تنتشر الحرارة لغريزية فيه، و يصفو الروح الحيوانى لاعتدال الهواء و صفائه و مساواة ليله لنهاره، و غلبة الدم و الهواء المعتدل هو الذى لا يحس فيه ببرد ظاهر و لا حرّ و لا رطوبة و لا يبس، و يكون فى نفسه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٨۵

صافيا نقيا فيقوى فيه الروح الحيوانى لهذا السبب، و تصح الأبدان و يكثر نشاط الحيوان و تنمو الأشياء و تزيد و تتوالد. و إذا طلبنا بأرض مصر مثل هذا الهواء لم نجده فى وقت من السنة إلا فى امشير و برمهات و برمودة و بشنس، عندما تكون الشمس فى النصف الأخير من الدلو و الحوت و الحمل و الثور. فإنا نجد بمصر فى هذا الزمان أياما معتدلة نقية صافية لا يحس فيها بحرّ ظاهر، و لا برد و لا رطوبة و لا يبوسة، و تكون الشمس فيها نقية من الغيوم، و الهواء ساكنا لا يتحرّك إلا أن يكون ذلك فى برمودة و بشنس فإنه يحتاج إلى أن تهب ريح الشمال ليعتدل ببردها حرّ الشمس.

و فى هذا الزمان تكثر حركة الحيوان و سفاده و تحسن أصواته، و تورق الأشجار و يعقد الزهر، و تقوى القوة المولدة و يغلب كيموس الدم. و هذا الفصل فى أرض مصر يتقدّم زمانه الطبيعيّ بمقدار ما ينقص عن آخره، و علة ذلك قوّة حرارة هذه الأرض، و قد يعرض فى أوّل هذا الفصل أيام شديدة البرود و ذلك فى أمشير إذا هبت ريح الشمال، و كانت الشمس غير نقية من الغيوم، و علة ذلك دخول فصل الربيع فى فصل الشتاء. فإذا هبت ريح الشمال برد ببردها الهواء، فأعادته بعد الاعتدال إلى البرد و لكثرة ما يصعد من الأرض فى هذا الزمان من البخار الرطب يرطب الهواء، و يعود إلى حاله فى فصل الشتاء، و ربما برد الهواء من هبوب رياح أخر فإن ريح الجنوب التى هى أشدّ الرياح حرارة إذا هبت فى هذا الزمان اكتسبت برودة من الأرض، و الماء الذين قد بردّهما هواء الشتاء.

فإذا مرّت بشيء بردّته ببرودتها العرضية حتى إذا دام هبوبها أياما كثيرة متوالية عادت إلى حرارتها، و أسخنت الهواء، و أحدثت فيه يبسا. و الدليل على أن برد رياح الجنوب التى تعرفها المصريون بالمريسى يتولد من برد مياه مصر، و أرضها لا بشيء طبيعى لها أنه لا يجتمع فى الجوّ فى أيام هبوبها الضباب الذى يجتمع من تحليل الحرارة للبخار الرطب بالنهار. و جمع البرودة له بالليل. فحرارة ريح الجنوب تفرّق البرودة عن جمعه، و تبدّده فى الهواء، و إذا دام هبوب هذه الريح أسخنت الماء، و الأرض و عادت إلى طبيعتها فى الحرارة.

و إذا كان فصل الربيع يتقدّم زمانه الطبيعى، و يختلف هذا الاختلاف. و الهواء فى الأصل بمصر يختلف بكثرة استحالته، و ما يرقى إليه من البخار فما ظنك بغيره من الفصول و لذلك كثرت فيه الرياح.

و أخر الأطباء فيه سقى الأدوية المسهلة إلى أن يستقرّ أمره فى شمس الحمل مع الثور، ثم يدخل فصل الصيف فى آخر بشنس و بؤنة و أبيب و بعض مسرى . عند ما تكون الشمس فى الجوزاء و السرطان و الأسد و بعض السنبلة، فيشتدّ الحرّ و اليبس فى هذا الزمان و تجف الغلات و تنضج الثمار و يجتمع من أكلها فى الأبدان كيموسات رديئة و إذا نزلت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٨۶

الشمس فى السرطان أخذ النيل فى الزيادة، و الفيض على أرض مصر. فيتغير مزاج الصيف الطبيعى بكثرة ما يترقى إلى الهواء من بخار الماء، و يوجد فى أوّل هذا الفصل عند ما تكون الشمس فى الجوزاء أيام يشاكل هواؤها هواء الربيع عندما تكون الشمس مستورة بالغيوم أو تكون الريح الشمال هاوية. و لهذا يغلط كثير من الأطباء و يسقى الأدوية المسهلة فى هذا الزمان، لظنه أن فصل الربيع لم يخرج إلا من كان منهم أحذق فهو يختار ما كان من هذه الأيام أسكن حرارة و الأكثر لا يشعرون البتة بهذه الحال.

و فى آخر الصيف يكون فيض النيل فظاهر أن هذا الفصل يتقدّم دخوله الزمان الطبيعيّ بقدر ما يتقدم آخره و أنه كثير الاضطراب بكثرة ما يرقى إليه من بخار الأرض. فلولا استمرار أبدانهم على هذا الاختلاف، و مشاكلتهم لهذه الحال لحدثت فيهم الأمراض التى ذكر أبقراط: أنها تحدث إذا كان الصيف رطبا.

ثم يدخل فصل الخريف و طبيعته يابسة من النصف الأخير من مسرى ثم توت و بابة و بعض أيام هاتور. و تكون الشمس فى آخر السنبلة و الميزان و العقرب، فتكمل زيادة النيل فى أوّل هذا الفصل و يطلق على الأرضين فيطبق أرض مصر و يرتفع منه فى الجوّ بخار كثير، فينتقل مزاج الخريف عن اليبس إلى الرطوبة حتى أنه ربما وقع فيه الأمطار، و كثرة الغيم فى الجوّ. و يوجد فى هذا الفصل أيام شديدة الحرّ لأنها على الحقيقة صيفية. فإذا نقى الجوّ من البخار الرطب عادت إلى طبيعتها من الحرارة. و فيه أيضا أيام شديدة الشبه بأيام الربيع تكون عند ما يساوى الليل النهار و يرطب الماء يبس الهواء، و يشتدّ فى هذا الفصل اضطراب الهواء بكثرة ما يرتقى إليه من البخار الرطب، فيكون مرّة حارّا أو أخرى باردا و مرّة يابسا، و أكثر أوقاته يغلب عليه الرطوبة فلا يزال كذلك يتمزج حتى يغلب عليه رطوبة الماء فى آخر الأمر و يصاد فى أيام الخريف من النيل أسماك كثيرة جدا يولد أكلها فى الأبدان أخلاطا لزجة.

و كثيرا ما يستحيل إلى الصفر إذا صادفت فى البدن خلطا صفراويا. فمن أجل ذلك يضطرب ما فى الأبدان من الروح الحيوانيّ، و تهيج الأخلاط، و يفسد الهضم فى البطون و الأوعية و العروق و يتولد من ذلك كيموسات رديئة كثيرة الأخلاط بعضها مرّة صفراء و

بعضها مرّة سوداء و بعضها بلغم لزج و بعضها خلط خام و بعضها مرّة محترقة، و كثير منها يتركب من هذه الأشياء فتثير الأمراض حتى إذا انصرف النيل فى آخر الخريف، و انكشفت الأرض و برد الهواء، و كثرت الأسماك و احتقن البخار، و كثر ما يرتفع به من الأرض من العفونة، و استحكم عند ذلك وجود العفن تزايدت الأمراض. و لو لا إلف أهل مصر لهذه الأشياء لكان ما يحدث فيهم من الأمراض أكثر من ذلك.

ثم يدخل فصل الشتاء، و طبيعته باردة رطبة من النصف الآخر من هاتور ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٨٧

كيهك و طوبة، و ذلك عند ما تكون الشمس فى القوس و الجدى، و بعض الدلو و ذلك أقل من ثلاثة أشهر و العلة فى ذلك قوّة حرارة أرض مصر، و كون الأبدان مضطربة، و تنكشف الأرض فى أوّل هذا الفصل و تحرث و تعفن بالجملة لكثرة ما يلقى فيها من البزور و ما فيها من أزبال الحيوان، و فضولها و لأنها سخيفة. و هى كالحمأة فى هذا الزمان فيتولد فيها من أنواع الفار و الدود و النبات و العشب و غير ذلك ما لا يحصى كثرة. و ينحل منها فى الجوّ أبخرة كثيرة حتى يصير الضباب بالغدوات ساترا للأبصار عن الألوان القريبة، و يصاد أيضا من الأسماك المحبوسة فى المياه المخزونة شىء كثير، و قد داخلها العفن لقلة حركتها فيولد أكلها فى الأبدان فضولا- كثيرة لزجة شديدة الاستعداد للعفن فتقوى الأمراض فى أوّل هذا الفصل. حتى إذا اشتدّ البرد، و قوى الهضم فى الأبدان، و استقرّ الهواء على شىء واحد، و عادت الحرارة الغريزية إلى داخل، و تطبقت الأرض بالنبات، و سكنت عفونتها صحت عند ذلك الأبدان. و هذا يكون فى آخر كيهك أو فى طوبة فقد استبان أن الفصول بأرض مصر كثيرة الاختلاف و إن أردأ أوقات السنة عندهم و أكثرها أمراضا هو آخر الخريف و أوّل الشتاء و ذلك فى شهر هاتور و كيهك، فإذا اختلاف الفصول مشاكل لما عليه أرضهم من الرداءة.

فمضرة الفصول إذا بالأبدان فى أرض مصر أقل منها فى البلدان الأخر إذا اختلفت هذا الاختلاف، و استبان أيضا أن السبب الأول فى ذلك هو: مدّ النيل فى أيام الصيف، و تطبيقه الأرض فى أيام الخريف بخلاف ما عليه مياه الأنهار فى العمارة كلها فإنها إنما تمتدّ فى أخص الأوقات بالرطوبة و هو الشتاء و الربيع.

قال: و قد استبان مما تقدم أن الرطوبة الفضيلة بأرض مصر كثيرة و ظاهر أن أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه الرطوبة. فإنى أنا قلما رأيت أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه كلها لا يشوبها فى أول أمرها البلغم و الخلط الخام. و الأمراض كلها تحدث عندهم فى الأوقات كلها كما قال أبقراط، و أكثر أمراضهم هى الفضيلة، أعنى العفنة من أخلاط صفراوية و بلغمية على ما يشاكل كل مزاج أرضهم.

و ما ذكرناه فيما تقدّم يوجب حدوث الأمراض كثيرا إلا أن مشاكلة هذه بعضها بعضا و اتفاقها فى سنة واحدة تمنع من أن تكون فى أنفسها ممرضة متى لزمت العادة فأما إذا خرجت عن عادتها فهى تحدث مرضا. و خروجها عن عادتها بمصر هو الذى أعدّه اختلافا ممرضا لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم، و النيل ليس يحدث فى الأبدان كل سنة مرضا، و لكنه إذا أفرطت زيادته و دام مدّة تزيد على العادة كان ذلك سببا لحدوث المرض الوافد. فإن قيل: إذا كانت أبدان الناس بأرض مصر من السخافة على ما ذكرت فلعلها فى مرض دائم. فالجواب: لسنا نبالى بهذا كيف كان، لأن المرض هو ما يضرّ بالفعل ضررا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٨٨

محسوسا من غير توسط. فمن أجل ذلك ليس أبدان المصريين فى مرض دائم و لكنها كثيرة الاستعداد نحو الأمراض. قال: أما أمراض مصر البلدية فقد ذكرنا من أمرها ما فيه كفاية و ظهر أن أكثرها الأمراض الفضيلة التى يشوبها صفراء و خام على أن باقى الأمراض تحدث عندهم بسرعة، و قرب و خاصة فى آخر الخريف و أوّل الشتاء.

و أما الأمراض الوافدة: و معنى المرض الوافد: هو ما يعمّ خلقا كثيرا فى بلد واحد و زمان واحد و منه نوع يقال له: الموتان؛ و هو الذى

يكثر معه الموت، و حدوث الأمراض الوافدة تكون عن أسباب كثيرة يجتمع في أجناس أربعة و هى تغير كيفية الهواء، و تغير كيفية الماء، و تغير كيفية الأغذية، و تغير كيفية الأحداث النفسانية. فالهواء تغير كيفيته على ضربين: أحدهما تغيره الذى جرت به العادة، و هذا لا يحث مرضا وافدا، و ليس تغيرا ممرضا. و الثانى: التغير الخارج عن مجرى العادة و هذا هو الذى يحدث المرض الوافد.

و كذلك الحال فى الأجناس الباقية و خروج تغير الهواء عن عادته يكون: إما بأن يسخن أكثر، أو يبرد أو يرطب، أو يجفف أو يخالطه حال عفنة، و الحالة العفنة إما أن تكون قريبة أو بعيدة. فإن أبقراط و جالينوس يقولان: إنه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض وافد عن عفونة اجتمعت فى بلاد الحبشة، و تراقت إلى الجوّ و انحدرت على اليونانيين، فأحدثت فيهم المرض الوافد.

و قد يتغير أيضا مزاج الهواء عن العادة بأن يصل وفد كثير قد أنهكك أبدانهم طول السفر، و ساءت أخلاطهم فيخالط الهواء منها شىء كثير، و يقع الأعداء فى الناس، و يظهر المرض الوافد. و الماء ضا قد يحدث المرض الوافد إما بأن يفرط مقداره فى الزيادة أو النقصان، أو يخالطه حال عفنة و يضطرّ الناس إلى شربه، و يعفن به أيضا الهواء المحيط بأبدانهم، و هذه الحال تخالطه إما قريبا أو بعيدا بمنزلة ما يمرّ فى جريانه بموضع خرب قد اجتمع فيه من جيف الموتى شىء كثير، أو بمياه تقاطع عفنة فيحذرها معه و يخالط جسمه، و الأغذية تحدث المرض الوافد. إما إذا لحقها اليرقان، و ارتفعت أسعارها، و اضطرّ الناس إلى أكلها، و إما إذا أكثر الناس منها فى وقت واحد، كالذى يكون فى الأعياد فيكثر فيهم التخم، و يمرضون مرضا متشابها. و إما من قبيل فساد مرعى الحيوان الذى يؤكل، أو فساد الماء الذى يشرب، و الأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث فى الناس خوف عام من بعض الملوك فيطول سفرهم و تفكرهم فى الخلاص منه، و فى وقوع البلاء، فيسوء هضمهم و تتغير حرارتهم الغريزية. و ربما اضطروا إلى حركة عنيفة فى هذه الحال، أو يتوقعوا قحط بعض السنين فيكثرون الحركة و الاجتهاد فى ادّخار الأشياء، و يشتد غمهم بما سيحدث. فجميع هذه الأشياء تحدث فى أبدان الناس المرض الوافد متى كان المتعرض لها خلق كثير فى بلد واحد و وقت واحد. و ظاهر أنه إذا كثر فى وقت واحد المرضى بمدينة واحدة؛ ارتفع من أبدانهم بخار كثير فيتغير مزاج الهواء فإذا صادف بدنا مستعدّا أمرضه، و إن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۸۹

كان صاحبه لم يتعرّض لما يتعرّض إليه الناس.

فالأمراض الوافدة بمصر تحدث إما عن فساد لم تجر به العادة يعرض للهواء سواء كان مادّة فساده من أرض مصر، أو من البلاد التى تجاورها كالسودان و الحجاز و الشام و برقة، أو يعرض للنيل بأن تفرط زيادته، فتكثر زيادة الرطوبة و العفن، أو تقل زيادته جدّا فيجف الهواء عن مقدار العادة، و يضطرّ الناس إلى شرب مياه رديئة أو يخالطه عفونة تحدث عن جرب يكون بأرض مصر أو ببلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير، و يرتفع بخار جيفهم فى الهواء فيعفنه، و يتصل عفنه إليهم، أو يسيل الماء، و يحمل معه العفن، أو يغلو السعر أو يلحق الغلات آفة، أو يدخل على الكباش و نحوها مضرة أو يحلق الناس خوف عام أو قنوط. و كل واحد من هذه الأسباب يحدث فى أرض مصر مرضا وافدا يكون قوّته بمقدار قوّة السبب المحدث له و إن كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشدّ و أقوى و أسرع فى القتل.

قال: فمزاج أرض مصر حار رطب بالرطوبة الفضلية، و ما قرب من الجنوب بأرض مصر كان أسخن، و أقل عفنا فى ماء النيل مما كان منها فى الشمال، و لا- سيما من كان فى شمال الفسطاط. مثل أهل البشمور فإن طباعهم أغلظ، و البله عليهم أغلب، و ذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جدّا و يشربون من الماء الردىء.

و أما إسكندرية و تنيس و أمثال هذه، فقربها من البحر، و سكون الحرارة، و البرد عنهم، و ظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم، و يرق طباعهم، و يرفع هممهم و لا يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع، و الجمادية و إحاطة البحر بمدينة تنيس، توجب غلبة الرطوبة عليها و ما يسر أخلاق أهلها قال: إنه لما كانت أرض مصر، و جميع ما فيها سخيفة الأجسام سريعا إليها التغير، و العفن وجب على الطبيب أن يختار من الأغذية، و الأدوية ما كان قريب العهد حديثا. لأنّ قوّته بعد باقية عليه، لم تتغير كل التغير، و أن يجعل

علاجه ملائما لما عليه الأبدان بأرض مصر، و يجتهد فى أن يجعل ذلك إلى الجهة المضادة أميل قليلا، و يتجنب الأدوية القوية الإسهال، و كل ما له قوّة مفرطة. و إن نكاية هذه الأبدان سريعة. سيما و أبدان المصريين سريعة الوقوع فى النكايات، و يختار ما يكون من الأدوية المسهلة، و غيرها ألين قوّة حتى لا يكون على طبيعة المصريين منها كلفة، و لا يلحق أبدانهم مضرّة، و لا يقدم على الأدوية الموجودة فى كتب أطباء اليونانيين و الفرس. فإن أكثرها عملت لأبدان قويّة البنية عظيمة الأخلاط، و هذه الأشياء قلما توجد بمصر.

فلذلك يجب، على الطبيب أن يتوقف فى إعطاء هذه الأدوية للمرضى، و يختار ألينها و ينقص عن مقدار شرباتها و يبدل كثيرا منها بما يقوم مقامه، و يكون ألين منه، فيتخذ السكنجبين السكرىّ فى مقام العسلى، و الجلاب بدلا من ماء العسل. و اعلم أن هواء مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج ١ ؛ ص ٩٠

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٩٠

يعمل فى المعجونات، و سائر الأدوية ضعفا فى قوتها فأعمار الأدوية المفردة و المركبة المعجون منها، و غير المعجون بمصر أقصر من أعمارها فى غير مصر. فيحتاج الطبيب بمصر إلى تقدير ذلك و تمييزه حتى لا يشتبه عليه شىء مما يحتاج إليه. و إذا لم يكتف فى تنقية البدن بالدواء المسهل دفعة واحدة، فلا بأس بإعادته بعد أيام، فإن ذلك أحمد من إيراد الدواء الشديد القوّة فى دفعة واحدة.

قال: و لكون أرض مصر تولد فى الأجسام سخافة، و سرعة قبول للمرض وجب أن تكون الأبدان على الهيئة الفاضلة بأرض مصر قليلة جدا.

فأما الأبدان الباقية فكثيرة و أن تكون الصحة التامّة عندهم على الأمر الأكثر فى القريبة من الهيئة الفاضلة، و الطريق الأولى التى تدبر بها الأبدان فى الهيئة الفاضلة يحتاج فيها بأرض مصر إلى أن يدبر الهواء، و الغذاء و الماء و سائر الأشياء تدبيرا يصير به فى غاية الاعتدال.

و لأنّ الهضم كثيرا ما يسوء بأرض مصر. و كذلك الروح الحيوانى، فيجب صرف العناية إلى مراعاة أمر القلب و الدماغ و الكبد و المعدة و العروق و سائر الأعضاء الباطنة فى تجويد الهضم، و إصلاح أمر الروح الحيوانى و تنظيف الأوساخ الأححة.

و قال فى شرح كتاب الأربع لبطليموس: و أما سائر أجزاء الربع الذى يميل إلى وسط جميع الأرض المسكونة أعنى بلاد برقة، و سواحل البحر من مريوط إلى الإسكندرية و رشيد و دمياط و تنيس و الفرما، و أسفل الأرض بمصر، و نواحى مدينة منف و مدينة الفسطاط، و ما يلى شرقى النيل من صعيد مصر و الفيوم إلى أعلى الصعيد مما فى غرب النيل و أرض الواحات، و أرض النوبة و البجة و الأرض التى على البحر فى شرقى بلاد النوبة، و الحبشة.

فإن هذه البلاد موضوعة فى الزاوية التى تؤثر فى جميع الربع الموضوع فيما بين الدبور و الجنوب. و هى من جملة النصف الغربى من الربع المعمور و الكواكب الخمسة المتحيرة تشترك فى تدبيرها. فصار أهلها محبين للّه، و يعظمون الجنّ، و يحبون النوح، و يدفنون موتاهم فى الأرض، و يخفونهم و يستعملون سننا مختلفة، و عادات و آراء شتى لميلهم إلى الأسرار التى تدعو كل طائفة منهم إلى أمر من الأمور الخفية، فيعتقده و يوافقه جماعة و من أجل هذه الأسرار كان المستخرج للعلوم الدقيقة، كالهندسة و النجوم و غيرها فى الزمان الأول أهل مصر، و منهم تفرقت فى العالم و إذا ساسهم غيرهم كانوا أذلّاء. و الغالب عليهم الجبن و الاستحذاء فى الكلام و إذا ساسوا غيرهم كانت أنفسهم طيبة، و هممهم كثيرة، و رجالهم يتخذون نساء كثيرة، و كذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال. و هم منهمكون فى الجماع، و رجالهم كثيرو النسل، و نساؤهم سريعات الحمل، و كثير من ذكرانهم تكون أنفسهم ضعيفة مؤنثة.

و قال أبو الصلت: و أما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفوا الأصناف و الأجناس من قبط و روم و عرب و أكراد و ديلم و حبشان، و غير ذلك من الأصناف إلا أن جمهورهم قبط قالوا: و السبب فى اختلاطهم تداول المالكين لها، و المتغلبين عليها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٩١

العمالقة و اليونانيين و الروم، و غيرهم. فلهذا اختلطت أنسابهم، و اقتصروا من التعريف بأنفسهم على الإشارة إلى مواضعهم، و الانتماء

إلى مساقطهم فيها.

و حكى أنهم كانوا فى الزمن السالف عباد أصنام و مدبرى هياكل إلى أن ظهر دين النصرانية، و غلب على أرض مصر. فتنصروا و بقوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون، فأسلم بعضهم، و بقى بعضهم على دين النصرانية.

و أما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات و الانهماك فى اللذات و الاشتغال بالترهات و التصديق بالمحالات و ضعف المرائر و العزمات، و لهم خبرة بالكيد و المكر، و فيهم بالفطرة قوّة عليه و تلطف فيه و هداية إليه لما فى أخلاقهم من الملق و البشاشة التى أربوا فيها على من تقدّم و تأخر. و خصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم. حتى صار أمرهم فى ذلك مشهورا و المثل بهم مضروبا و فى خبثهم و مكرهم يقول أبو نواس:

محضتكم يا أهل مصر نصيحتىألا فخذوا من ناصح بنصيب

رماكم أمير المؤمنين بحيةأكول لحيات البلاد شروب

فإن يك باق أفك فرعون فيكمفإن عصا موسى بكف خصيب

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: و قد مرّ لى قديما أن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر. فلذلك يتحدّثون بالأشياء قبل كونها، و يخبرون بما يكون و ينذرون بالأمور المستقبلة. و لهم فى هذا الباب أخبار مشهورة.

قال ابن الطوير: و قد ذكر استيلاء الفرنج على مدينة صور، فعاد الحفظ و الحراسة على مدينة عسقلان فما زالت محمية بالأبدال المجرّدة إليها من العساكر و الأساطيل. و الدولة تضعف أوّلا فأوّلا باختلاف الآراء فثقلت على الأجناد و كبر أمرها عندهم، و اشتغلوا عنها فضايقها الفرنج حتى أخذوها فى سنة ثمان و أربعين و خمسمائة، و لقد سمعت رجلا قبل ذلك بسنين يحدّث بهذه الأمور و يقول فى سنة ثمان تؤخذ عسقلان بالأمان.

و من هذا الباب واقعة الكنائس التى للنصارى، و ذلك أنه لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين و سبعمائة؛ و الناس فى صلاة الجمعة كأنما نودى فى إقليم مصر كله من قوص إلى الإسكندرية بهدم الكنائس. فهدم فى تلك الساعة بهذه المسافة الكبيرة عدد كثير من الكنائس كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، عند ذكر كنائس النصارى.

و من هذا الباب واقعة ألدمر و ذلك: أنه خرج الأمير ألدمر أمير جندار يريد الحج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۹۲

من القاهرة فى سنة ثلاثين و سبعمائة؛ و كانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة فأشيع فى هذا اليوم بعينه فى القاهرة و مصر و قلعة الجبل بأنّ وقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر فطار هذا الخبر فى ريف مصر و اشتهر، فلم يكترث الملك الناصر محمد بن قلاوون بهذا الخبر. فلما قدم المبشرون على العادة أخبروا بالواقعة. و قتل الأمير سيف الدين ألدمر فى ذلك اليوم الذى كانت الإشاعة فيه بالقاهرة. قال جامع السيرة الناصرية:

كنت مع الأمير علم الدين الخازن فى الغربية و قد خرج إليها كاشفا، فلما صليت أنا و هو صلاة الجمعة، و عدنا إلى البيت قدم بعض غلمانه من القاهرة فأخبرنا أنه أشيع بأن فتنة كانت بمكة، قتل فيها جماعة من الأجناد، و قتل فيها الأمير ألدمر أمير جندار. فقال له الأمير علم الدين: هل حضر أحد من الحجاز بهذا الخبر؟ قال: لا، فقال: و يحك، الناس ما تحضر من منى بمكة إلا ثالث يوم بعد عيد النحر، فكيف سمعتم هذا الخبر الذى لا يسمعه عاقل؟

فقال: قد استفيض ذلك و كان الأمر كما أشيع.

و وقع لى فى شهر رمضان من شهور سنة إحدى و تسعين و سبعمائة؛ أنى مررت فى الشارع بين القصرين بالقاهرة بعد العتمة فإذا العامّة تتحدّث بأن الملك الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك و اجتمع عليه الناس فضبطت ذلك، فكان اليوم الذى خرج فيه من السجن و فى هذا الباب من هذا كثير.

و من أخلاق أهل مصر: قلة الغيرة و كفاك ما قصه اللّه سبحانه و تعالى من خبر يوسف عليه السلام و مراودة امرأة العزيز له عن نفسه، و شهادة شاهد من أهلها عليها بما بيّن لزوجها منها السوء، فلم يعاقبها على ذلك بسوى قوله: اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ [يوسف/ ٢٩].

و قال ابن عبد الحكم: و كان نساء أهل مصر حين غرق من غرق منهم، مع فرعون و لم يبق إلا العبيد و الأجراء لم يصبروا عن الرجال فطفقت المرأة تعتق عبدها، و تتزوّجه. و تتزوّج الأخرى أجيرها و شرطن على الرجال أن لا- يفعلوا شيئا إلا- بإذنهنّ، فأجابوهنّ إلى ذلك.

فكان أمر النساء على الرجال.

فحدّثنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب: أن نساء القبط على ذلك إلى اليوم إتباعا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۹۳

لمن مضى منهم لا يبيع أحدهم و لا يشترى إلا قال: استأمر امرأتى. و قال: إن فرعون لما غرق و معه أشراف مصر. لم يبق من الرجال من يصلح للمملكة، فعدّ الناس فى مراتبهم بنت الملك؛ ملكة و بنت الوزير وزيرة و بنت الوالى و بنت الحاكم على هذا الحكم، و كذلك بنات القوّاد، و الأجناد فاستولت النساء على المملكة مدّة سنين و تزوّجن بالعبيد و اشترطن عليهم أن الحكم و التصرف لهنّ. فاستمرّ ذلك مدّة من الزمان، و لهذا صارت ألوان أهل مصر سمرا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق، و استولدوهنّ؟!. و أخبرنى الأمير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلى الكركىّ رحمه اللّه تعالى: أنه مذ سكن مصر يجد من نفسه رياضة فى أخلاقه و ترخصا لأهله و لينا ورقة طبع من قلة الغيرة، و مما لم نزل نسمعه دائما بين الناس إن شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه.

و من أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر فى العواقب فلا تجدهم يدّخرون عندهم زادا كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة و عشيا.

و من أخلاقهم: الانهماك فى الشهوات و الإمعان من الملاذ و كثرة الاستهتار و عدم المبالاة قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه اللّه تعالى: أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب. و قد روى عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: أنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان، و أخلاق سكانها فقال: إن اللّه تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شىء لشىء فقال العقل: أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة: و أنا معك، و قال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: و أنا معك، و قال الشقاء: أنا لاحق بالبادية، فقالت الصحة: و أنا معك.

و يقال: لما خلق اللّه الخلق خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان و الحياء و النجدة و الفتنة و الكبر و النفاق و الغنى و الفقر و الذل و الشقاء، فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء:

و أنا معك. و قالت النجدة: أنا لا حقة بالشام، فقالت الفتنة: و أنا معك. و قال الكبر: أنا لاحق بالعراق، فقال النفاق: و أنا معك. و قال الغنى: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: و أنا معك. و قال الفقر: أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء: و أنا معك.

و عن ابن عباس رضى اللّه عنهما: المكر عشرة أجزاء. تسعة منها فى القبط و واحد فى سائر الناس. و يقال: أربعة لا تعرف فى أربعة: السخاء فى الروم، و الوفاء فى الترك، و الشجاعة فى القبط، و العمر فى الزنج.

و وصف ابن العربية أهل مصر فقال: عبيد لمن غلب. أكيس الناس صغارا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۹۴

و أجلهم كبارا. و قال المسعودى: لما فتح عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه البلاد على المسلمين من العراق و الشام و مصر، و غير ذلك، كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنا لناس عرب قد فتح اللّه علينا البلاد، و نريد أن نتبوّأ الأرض، و نسكن البلاد، و الأمصار.

فصف لى المدن و أهويتها و مساكنها و ما تؤثره الترب و الأهوية فى سكانها. فكتب إليه: و أما أرض مصر؛ فأرض قوراء غوراء ديار الفراعنة، و مساكن الجبابرة ذمّها أكثر من مدحها، هواؤها كدر، و حرّها زائد، و شرّها مائد تكدر الألوان و الفطن و تركب الإحن و هى معدن الذهب و الجوهر، و مغارس الغلات. غير أنها تسمن الأبدان و تسودّ الإنسان و تنمو فيها الأعمار و فى أهلها مكر و رياء و خبث و دهاء و خديعة. و هى بلدة مكسب ليست بلدة مسكن لترادف فتنها و اتصال شرورها.

و قال عمر بن شبه: ذكر ابن عبيدة فى كتاب أخبار البصرة عن كعب الأحبار: خير نساء على وجه الأرض: نساء أهل البصرة إلا ما ذكر النبيّ صلى اللّه عليه و سلم من نساء قريش، و شرّ نساء على وجه الأرض: نساء أهل مصر.

و قال عبد اللّه بن عمرو: لما أهبط إبليس، وضع قدمه بالبصرة، و فرخ بمصر. و قال كعب الأحبار: و مصر أرض نجسة كالمرأة العاذل يطهرها النيل كل عام.

و قال معاوية بن أبى سفيان: وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف: فثلث ناس، و ثلث يشبه الناس، و ثلث لا ناس. فأما الثلث الذين هم الناس: فالعرب، و الثلث الذين يشبهون الناس: فالموالى، و الثلث الذين لا ناس: المسالمة- يعنى القبط-.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٩٥

ذكر شيء من فضائل النيل

اشارة

أخرج مسلم من حديث أنس رضى اللّه عنه فى حديث المعراج: أنّ النبيّ صلى اللّه عليه و سلم قال:

«ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر و إذا ورقها مثل آذان الفيلة. قلت: ما ذا يا جبريل؟ قال: هذه سدرة المنتهى، و إذا أربعة أنهار: نهران باطنان، و نهران ظاهران.

فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران فى الجنة، و أما الظاهران فالنيل و الفرات». و فى التوراة: و خلق فردوسا فى عدن، و جعل الإنسان فيه و أخرج منه نهران فقسمهما أربعة أجزاء: جيحون المحيط بأرض حويلا، و سيحون المحيط بأرض كوش و هو نيل مصر و دجلة الأخذ إلى العراق و الفرات.

و روى ابن عبد الحكم عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار سخر اللّه له كل نهر بين المشرق و المغرب، فإذا أراد اللّه أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه فتمدّه الأنهار بمائها و فجر اللّه له الأرض عيونا فأجرته إلى ما أراد اللّه عز و جل.

فإذا انتهت جريته أوحى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أن معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنه سأل كعب الأحبار: هل تجد لهذا النيل فى كتاب اللّه خبرا؟ قال: أى و الذى فلق البحر لموسى إنى لأجده فى كتاب اللّه إن اللّه يوحى إليه فى كل عام مرّتين يوحى إليه عند جريته أن اللّه يأمرك أن تجرى فيجرى ما كتب اللّه له، ثم يوحى إليه بعد ذلك يا نيل عد حميدا. و عن كعب الأحبار أنه قال: أربعة أنهار من الجنة وضعها اللّه فى الدنيا: النيل نهر العسل فى الجنة، و الفرات نهر الخمر فى الجنة، و سيحان نهر الماء فى الجنة، و جيحان نهر اللبن فى الجنة.

و قال المسعودى: نهر النيل من سادات الأنهار و أشراف البحار لأنه يرج من الجنة على ما ورد به خبر الشريعة. و قد قال: إن النيل إذا زاد غاضت له الأنهار و الأعين و الآبار، و إذا غاض زادت فزيادته من غيضها و غيضه من زيادتها و ليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحرا غير نيل مصر لكبره و استبحاره.

و قال ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث: و فى حديثه عليه السلام: «نهران مؤمنان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٩٦

و نهران كافران. أما المؤمنان: فالنيل و الفرات، و أما الكافران: فدجلة و نهر بلخ». إنما جعل النيل و الفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض و يسقيان الحرث، و الشجر بلا تعب فى ذلك و لا مؤنة، و جعل دجلة و نهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض و لا يسقيان إلا شيئا قليلا، و ذلك القليل بتعب و مؤنة فهذان فى الخير و النفع كالمؤمنين، و هذان فى قلة الخير و النفع كالكافرين.

ذكر مخرج النيل و انبعاثه

اعلم أن البحر المحيط بالمعمور إذا خرج منه نهر الهند، افترق قطعا كما تقدّم و كان منه قطعة تسمى بحر الزنج و هى مما يلى: بلاد اليمن و بحر بربر.

و فى هذه القطعة عدّة جزائر منها: جزيرة القمر- بضم القاف و إسكان الميم وراء مهملة- و يقال لهذه الجزيرة أيضا: جزيرة ملاى، و طولها أربعة أشهر فى عرض عشرين يوما إلى أقل من ذلك؛ و هذه الجزيرة تحاذى جزيرة سرنديب، و فيها عدة بلاد كثيرة منها قمرية، و إليها ينسب الطائر القمرى، و يقال: إن بهذه الجزيرة خشب ينحت من الخشبة ساق طوله ستون ذراعا يجذف على ظهره مائة و ستون رجلا، و إن هذه الجزيرة ضاقت بأهلها فبنوا على الساحل محلات يسكنونها فى سفح جبل يعرف بهم يقال له: جبل القمر.

و اعلم أن الجبال كلها متشعبة من الجبل المستدير بغالب معمور الأرض، و هو المسمى بجبل قاف و هو أم الجبال، كلها تتشعب منه فيتصل فى موضع، و ينقطع فى آخر، و هو كالدائرة لا يعرف له أوّل إذ كان كالحلقة المستديرة لا يعرف طرفاها و إن لم يكن استدارة كريه و لكنها استدارة إحاطة.

و زعم قوم أن أمّهات الجبال جبلان: خرج أحدهما من البحر المحيط فى المغرب آخذا جنوبا، و خرج الآخر من البحر الرومى آخذا شمالا، حتى تلاقيا عند السدّ، و سموا الجنوبىّ قاف، و سموا الشمالى قاقونا، و الأظهر أنه جبل واحد، و محيط بغالب بسيط المعمور، و أنه هو الذى يسمى بجبل قاف، فيعرف بذلك فى الجنوب و يعرف فى الشمال بجبل قاقونا. و مبدأ هذا الجبل المحيط من كتف السدّ آخذا من وراء صنم الخط المشجوج إلى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين أخذا على غربى صين الصين، ثم ينعطف على جنوبه مستقيما فى نهاية الشرق على جانب البحر المحيط، مع الفرجة المنفرجة بينه و بين البحر الهندى الداخلة، ثم ينقطع عند مخرج البحر الهندىّ المحيط مع خط الاستواء.

حيث الطول مائة و سبعون درجة، ثم يتصل من شعبة البحر الهندى الملاقى لشعبة المحيط الخارجة إلى بحر الظلمات من الشرق بجنوب كثير من وراء مخرج البحر الهندى فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٩٧

الجنوب؛ و تبقى الظلمات من هاتين الشعبتين شعبة المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقا مغربا؛ و مخرج البحر الهندى الجائية على الظلمات حتى تتلاقى الشعبتان عند مخرج هذا الجبل كتفصيل السراويل؛ ثم ينفرج برأس البحرين شعبتان على مبدأ هذا الجبل، و يبقى الجبل بينهما كأنه خارج من نفس الماء.

و مبدأ هذا الجبل هنا وراء قبة أرين عن شرقيها، و بعده منها خمس عشرة درجة.

و يقال لهذا الجبل فى أوّله: المجرّد، ثم يمتد حتى ينتهى فى القسم الغربى إلى طوله إلى خمس و ستين درجة؛ من أوّل المغرب و هناك يتشعب من الجبل المذكور جبل القمر، و ينصب منه النيل و به أحجار برّاقة كالفضة تتلألأ تسمى: ضحكة الباهت كل من نظرها ضحك، و التصق بها حتى يموت و يسمى: مغناطيس الناس. و يتشعب منه شعب تسمى:

أسيفى أهله كالوحوش، ثم ينفرج منه فرجة و يمرّ منه شعب إلى نهاية المغرب فى البحر المحيط يسمى: جبل وحشية به سباع لها قرون

طوال لا- تطاق، و ينطف دون تلك الفرجة من جبل قاف شعاب منها شعبتان إلى خط الاستواء يكتنفان مجرى النيل من الشرق و الغرب، فالشرقى يعرف: بجبل قاقول، و ينقطع عند خط الاستواء.

و الغربى يعرف: بأدمرية يجرى عليه نيل السودان المسمى ببحر الدمادم، و ينقطع تلقاء مجالات الحبشة ما بين مدينة سفرة و حيمى وراء هذه الشعبة يمتدّ منه شعبة هى الأم من الموضع المعروف فيه الجبل بأسيفى المذكور إلى خط الاستواء حيث الطول هناك عشرون درجة، و يعرف هناك بجبل كرسقابه، و به وحوش ضارية ثم ينتهى إلى البحر المحيط، و ينقطع دونه بفرجة. و ذلك وراء التكرور عند مدينة قلمتبور أو وراء هذا الجبل سودان يقال لهم: تمتم يأكلون الناس، ثم تتصل الأم من ساحل البحر الشامى فى شماله شرقى رومية الكبرى مسامتا للشعبة المسماة أدمدمه المنقطعة بين سمعرة، و حيمى لا- يكاد يخطوها حيث الطول خمس و ثلاثون درجة، و يقع منشأ اتصال هذه الأم على عرض خمسين درجة، و كذلك تقطع شعبها الآخذة فى الجنوب على عرض خمسين درجة عند آخرها ما بين سردانة و بلنسية و تتناهى، وصلة هذه الأم إلى البحر المحيط فى نهاية الشمال قبالة جزيرة بركانية. و تبقى سوسية داخل الجبل.

ثم تمتد هذه الأم بعد انقطاع لطيف، و ينعطف انعطاف خرجة البحر المحيط فى المغرب على الصقلب المسماة ببحر الأنفلشين، ممتدا إلى غاية المشرق و يسمى هناك بجبل قاقونا و يبقى وراءه البحر جامدا لشدة البرد، ثم ينعطف من الشمال إلى المشرق جنوبا بتغريب إلى كتف السدّ الشمالى فيتلاقى هناك الطرفان و بينهما فى الفرجة المنفرجة سوّى ذو القرنين بين الصدفين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٩٨

و فى

جزيرة القمر، ثلاثة أنهار: أحدها فى شرقيها من قنطورا و معلا، و ثانيها فى غربيها ينصب من جبل قدم آدم على مدينة سبا، و يأخذ مارا على مدينة فردرا، و ينجر هناك بحيرة فى جنوبها مدينة كيما، حيث محل السودان الذين يأكلون الناس. و ثالثها فى غربيها أيضا و يخرج من الجبل المشبه ماء محدودب الذيل يطوف بمدينة دهما فتبقى مدينة دهما فى جزيرة بينهما يكون هو محيطا بها شرقا و جنوبا و غربا و يصير لذلك كالجزيرة، و يتصل شمالها بالبحر الهندى، و تقع مدينة قوارة فى غربيه، حيث يصب فى البحر الهندى.

و من جبل القمر يخرج نهر النيل، و قد كان يتبدّد على وجه الأرض فلما قدم نقراوش الحدار بن مصريم الأوّل ابن مركابيل ابن دوابيل بن عرباب ابن آدم عليه السلام إلى أرض مصر و معه عدّة من بنى عرباب، و استوطنوها، و بنوا بها مدينة أمسوس و غيرها من المدائن حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم، و لم يكن قبل ذلك معتدل الجرى بل ينبطح، و يتفرّق فى الأرض حتى وجه إلى النوبة الملك نقراوش، فهندسوه و ساقوا منه أنهارا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التى بنوها، و ساقوا منه نهرا إلى مدينة أمسوس، ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان، و كانت أيام البودشيرين قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام عدل جانبى النيل تعديلا ثانيا بعدما أتلفه الطوفان.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فملك البودشير، و تجبر، و هو أوّل من تكهن، و عمل بالسحر، و احتجب عن العيون و قد كانت أعمامه أشمن و أتريب وصا ملوكا على أحيازهم. إلا أنه قهرهم بجبروته، و قوّته فكان الذكر له كما تجبر أبوه على من قبله لأنه كان أكبرهم و لذلك أغضوا عنه فيقال: إنه أرسل هرمس- الكاهن المصرى- إلى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته، حتى عمل هناك التماثيل النحاس، و عدل البطيحة التى ينصب فيها ماء النيل. و يقال: إنه الذى عدل جانبى النيل، و قد كان يفيض و ربما انقطع فى مواضع.

و هذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس يشتمل على خمس و ثمانين صورة جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد و مصاب مدورة و قنوات يجرى فيها الماء و ينصب إليها إذا خرج من تحت جبل القمر حتى يدخل من تلك الصور، و يخرج من حلوقها، و جعل لها قياسا معلوما بمقاطع، و أذرع مقدّرة، و جعل ما يخرج من هذه الصور من الماء ينصب إلى الأنهار ثم يصير منها

إلى بطيحتين، و يخرج منهما حتى ينتهى إلى البطيحة الجامعة للماء الذى يخرج من تحت الجبل، و عمل لتلك الصور مقادير من الماء الذى يكون معه الصلاح بأرض مصر. و ينتفع به أهلها دون الفساد، و ذلك الانتهاء المصلح ثمانية عشر ذراعا بالذراع الذى مقداره اثنان و ثلاثون إصبعا. و ما فضل عن ذلك عدل عن يمين تلك الصور، و شمالها إلى مسارب يخرج، و يصب فى رمال و غياض لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء. و لو لا ذلك لغرّق ماء النيل البلدان التى يمر عليها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٩٩

قال: و كان الوليد بن دومع العمليقى، قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان، و يقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها. فلما صار إلى الشام انتهى إليه خبر مصر، و عظم قدرها و إن أمرها قد صار إلى النساء، و باد ملوكها. فوجه غلاما له يقال له: عون إلى مصر، و سار إليها بعده، و استباح أهلها و أخذ الأموال، و قتل جماعة من كهنتها، ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل. فيعرف ما بحافتيه من الأمم فأقام ثلاث سنين يستعدّ لخروجه و خرج فى جيش عظيم فلم يمرّ بأمّة إلا أبادها، و مرّ على أمم السودان، و جاوزهم و مرّ على أرض الذهب، فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب، و لم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التى ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التى تخرج من تحت جبل القمر. و سار حتى بلغ البطيحة هيكل الشمس، و تجاوزه حتى بلغ جبل القمر، و هو جبل عال و إنما سمى: جبل القمر لأنّ القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء، و نظر إلى النيل يخرج من تحته فيمرّ فى طريق و أنهار دقاق حتى ينتهى إلى حظيرتين، ثم يخرج منهما فى نهرين حتى ينتهى إلى حظيرة أخرى، فإذا جاوز خط الاستواء مدّته عين تخرج من ناحية نهر مكران بالهند؛ و تلك العين أيضا تخرج من تحت جبل القمر إلى ذلك الوجه. و يقال: إن نهر مكران، مثل النيل يزيد و ينقص، و فيه التماسيح و الأسماك التى مثل أسماك النيل.

و وجد الوليد بن دومع: القصر الذى فيه التماثيل النحاس التى عملها هرمس الأوّل فى وقت البودشير بن قنطريم بن قبطيم ابن مصرايم.

و قد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب التى من وراء البحر المظلم و هى سيحون، و جيحون، و الفرات، و النيل. و أن تلك الأرض من أرض الجنة. و أن تلك القبة من زبرجد، و أنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل و أطيب رائحة من الكافور.

و ممن جاء بهذا رجل من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام وصل إلى تلك القبة؛ و قطع البحر المظلم و كان يقال له: حايد، و قال آخرون: تنقسم هذه الأنهار على اثنين و سبعين قسما حذاء اثنين و سبعين لسانا للأمم. و قال آخرون: هذه الأنهار من ثلوج تتكاثف و يذيبها الحرّ، فتسيل إلى هذه الأنهار و تسقى من عليها لما يريد اللّه عز و جل من تدبير خلقه قالوا: و لما بلغ الوليد جبل القمر، رأى جبلا عاليا؛ فعمل حيلة إلى أن صعد إليه ليرى ما خلفه، فأشرف على البحر الأسود الزفتى المنتن، و نظر إلى النيل يجرى عليه كالأنهار الدقاق. فأتته من ذلك البحر روائح منتنة هلك كثير من أصحابه من أجلها، فأسرع النزول بعد أن كاد يهلك.

و ذكر قوم: أنهم لم يروا هناك شمسا و لا قمرا إلا نورا أحمر كنور الشمس عند غيابها.

و أما ما ذكر عن حايد و قطعه البحر المظلم ماشيا عليه لا يلصق بقدمه منه شىء؛ و كان فيما يذكر نبيا و أوتى حكمة و أنه سأل اللّه تعالى: أن يريه منتهى النيل، فأعطاه قوّة على ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٠٠

فيقال: إنه أقام يمشى عليه ثلاثين سنة فى عمران و عشرين سنة فى خراب. قالوا: و أقام الوليد فى غيبته أربعين سنة، و عاد و دخل منف، و أقام بمصر فاستعبد أهلها و استباح حريمهم و أموالهم و ملكهم مائة و عشرين سنة؛ فأبغضوه و سئموه إلى أن ركب فى بعض أيامه متصيدا فألقاه فرسه فى و هدة فقتله، و استراح الناس منه.

و قال قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج: انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار كل خمسة منها تصب إلى بطيحة، ثم يخرج من كل بطيحة نهران، و تجرى الأنهار الأربعة إلى بطيحة كبيرة فى الإقليم الأوّل، و من هذه البطيحة

يخرج نهر النيل.

و قال فى كتاب نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق: إن هذه البحيرة تسمى بحيرة كورى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها. متوحشين يأكلون من وقع إليهم من الناس، و من هذه البحيرة يخرج لهم نهر غانة و بحر الحبشة، فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى، و بلادينه. و هم طائفة من السودان بين كاتم و النوبة فإذا بلغ دنقلة مدينة النوبة عطف من غربيها، و انحدر إلى الإقليم الثانى فيكون على شطيه عمارة النوبة. و فيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن و القرى ثم يشرق إلى الجنادل.

و قال المسعودى رحمه اللّه تعالى: رأيت فى كتاب جغرافيا: النيل مصوّرا ظاهرا من تحت جبل القمر، و منبعه و مبدأ ظهوره من اثنى عشرة عينا؛ فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هنالك كالبطائح ثم يجتمع الماء منهما جاريا فيمرّ برمال هنالك و جبال، و يخرق أرض السودان فيما يلى بلاد الزنج، فيتشعب منه خليج يصب فى بحر الزنج، و يجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ. و قيل: ألف فرسخ فى عامر و غامر من عمران، و خراب حتى يأتى أسوان من صعيد مصر.

و قال فى كتاب هردسوس: نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم، ثم يميل إلى ناحية الغرب فيصير فى وسطه جزيرة، و آخر ذلك يميل إلى ناحية الشمال فيسقى أرض مصر.

و قيل: إن مخرجه من عين فيما يجاوز الجبل، ثم يغيب فى الرمال ثم يخرج غير بعيد فيصير له محبس عظيم، ثم يساير البحر المحيط على قفار الحبشة، ثم يميل على اليسار إلى أرض مصر، فيحق ما يظن بهذا النهر أنه عظيم إذ كان مجراه على ما حكيناه.

قال: و نهر النيل و هو الذى يسمى بلون مخرجه خفىّ و لكن ظاهر إقباله من أرض الحبشة، و يصير له هناك محبس عظيم مجراه إليه مائتا ميل و ذكر مخرجه حتى ينتهى إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج١، ص: ١٠١

البحر قال: و كثيرا ما يوجد فى نهر النيل التماسيح، و إقبال النيل من أرض الحبشة ليس يختلف فيه أحد، و عدّة أمياله من مخرجه المعروف إلى موقفه مائة ألف و تسعون ألفا و تسعمائة و ثلاثون ميلا.

و ماء النيل عكر مرمل عذب و فىّ، انتهى. و النيل إذا وصل إلى الجنادل كان عند انتهاء مراكب النوبة انحدار أو مراكب الصعيد إقلاعا. و هناك حجارة مضرسة لا مرور للمراكب عليها إلا فى أيام زيادة النيل. ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقيه أسوان من الصعيد الأعلى، و يمرّ بين جبلين يكتنفان أعمال مصر أحدهما شرقىّ و الآخر غربى، حتى يأتى مدينة فسطاط مصر، فتكون فى بره الشرقىّ. فإذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم صار فرقتين: فرقة تمرّ حتى تصب فى بحر الروم عند دمياط، و تسمى هذه الفرقة: بحر الشرق، و الفرقة الأخرى هى: عمود النيل و معظمه يقال لها: بحر الغرب تمرّ حتى تصب فى بحر الروم أيضا عند رشيد، و كانت مدينة كبيرة فى قديم الزمان.

و يقال: إن مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب فى البحر عند رشيد سبعمائة و ثمانية و أربعون فرسخا. و أنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر، و فى بلاد السودان شهرين، و فى بلاد الإسلام مسافة شهر.

و ذهب بعضهم إلى أن زيادة ماء النيل إنما تكون بسبب المدّ الذى يكون فى البحر فإذا فاض ماؤه تراجع النيل، و فاض على الأراضى و وضع فى ذلك كتابا حاصله: إن حركة البحر التى يقال لها المدّ و الجزر، توجد فى كل يوم و ليلة مرّتين، و فى كل شهر قمرىّ مرّتين، و فى كل سنة مرّتين. فالمدّ و الجزر اليومىّ تابع لقرص القمر، و يخرج الشعاع عنه من جنبتى جرم الماء.

فإذا كان القمر وسط السماء كان البحر فى غاية المدّ، و كذا إذا كان القمر فى وتد الأرض فإذا بزغ القمر طالعا من الشرق أو غرب كان الجزر. و المدّ الشهرى يكون عند استقبال القمر للشمس فى نصف الشهر، و يقال له: الامتلاء أيضا عند الاجتماع، و يقال له: السرار.

و الجزر يكون أيضا فى وقتين عند تربيع القمر للشمس فى سابع الشهر، و فى ثانى عشريه.

و المدّ السنوى يكون أيضا فى وقتين: أحدهما عند حلول الشمس آخر برج السنبلة، و الآخر عند حلول الشمس بآخر برج الحوت، فإن اتفق أن يكون ذلك فى وقت الامتلاء أو الاجتماع، فإنه حينئذ يجتمع الامتلاءان الشهرىّ و السنوىّ، و يكون عند ذلك البحر فى غاية الفيض لا- سيما إن وقع الاجتماع أو الامتلاء فى وسط السماء، و وقع مع النيرين أو مع أحدهما أحد الكواكب السيارة فإنه يعظم الفيض. فإن وقع كوكب فصاعدا مع أحد النيرين، تزايد عظم الفيض، و كانت زيادة النيل تلك السنة عظيمة جدا، و زاد أيضا نهر مهران. فإن كان الاجتماع أو الامتلاء زائلا- عن وسط السماء، و ليس مع أحد النيرين كوكب فإن النيل و نهر مهران لا يبلغان غاية زيادتهما لعدم الأنوار التى تثير المياه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۰۲

و يكون بمصر فى السنة الغلاء و الجزء السنوى يكون عند حلول الشمس برأسى الجدى و السرطان. فأما المدّ اليومىّ الدافع من البحر المحيط فإنه لا- ينتهى فى البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية، و مساحتها من الأرض نحو من ستين ميلا- ثم ينصرف، و انصرافه هو الجزر و كذلك الأودية إذا كانت الأرض و هدة، و المدّ الشهرى ينتهى إلى أقاصى البحار، و هو يمسكها حتى لا- تنصب فى البحر المحيط، و حيث ينتهى المدّ الشهرىّ فهناك منتهى ذلك البحر و طرفه. و أما المدّ السنوى فإنه يزيد فى البحار الخارجة عن البحر المحيط زيادة بينة، و من هذه الزيادة تكون زيادة النيل و امتلاؤه، و امتلاء نهر مهران، و الديتلو الذى ببلاد السند. قال: و لما جاء أرسطو إلى مصر مع الإسكندر و رأى مصب النيل، و علم أن من المحال أن يكون النيل فى أسوان واد من الأودية. و كلما استحل اتسع حتى أن عرضه فى أسفل ديار مصر لينتهى إلى مائة ميل عند غاية الفيض، و له أفواه كثيرة شارعه فى البحر تسع كل ما يهبط من الميزان فى ذلك الصنع، فرأى محالا أن يكون الوادى بحيث يضيق أسفله عن حمل ما يأتى به أعلاه مع ضيق أعلاه وسعة أسفله.

فلما رأى ذلك قال: إن رياحا تستقبل جرية الماء و تردعه، فيفيض لذلك. و قال الإسكندر: إن من المحال أن يكون الريح يردع الماء السائل فى الوادى حتى يفيض أكثر من مائة ميل، و لو كانت الريح تفعل ذلك لكان الماء السائل ينفلت من أسفل الوادى، و يسيل إلى البحر، لأن البحر لا- يمسك إلا أعلاه؛ و لكن الرياح تقذف الرمل فى أفواه تلك الشوارع التى تفضى إلى البحر، فيعثر بها شبه الردم فيفيض. قال: و أغفل أن الرمل جسم متخلخل، فالماء يتخلله و ينفذه سائلا إلى البحر، مع أن الرمل لم يعتل اعتلاء يظهر للحسن، و الماء سائل فى كل حين على حلق تنيس و دمياط و حلق رشيد و حلق الإسكندرية، ففطنوا لاستحالة كونه سائلا عن سيل حامل و نسبوا توقفه إلى الريح و الرمل. و هم استقصوا الهواء و استقصوا الأرض و أغفلوا الاستقصاء الثالث الذى هو الماء لأنهم لم يعرفوا حركة البحر السنوية لأنها لا تبلغ الغاية إلا فى ثلاثة أشهر فلا يظهر مقدار صعودها فى كل يوم للحس. و لذلك وضع أمير مصر المقياس بديار مصر.

قال: و المدّ كله واحد و هو أن القمر يقابل الماء كما تقابل الشمس الأرض، فنور القمر إذا قابل كرة الأرض سخنها كما تسخن الشمس الهواء المحيط فيعترى الهواء المحيط بالماء بعض تسخين يذيب الماء، فيفيض و ينمى بخاصته كالمرآة المحرقة الملهبة للجوّ حتى تحرق القطنة الموضوعة بين المرآة و الشمس. فهذا مثاله فى المقابلة و مثاله فى المسرار كون الزجاجة المملوءة ما يلقى الشعاع إلى حلقها، فتحترق القطنة أيضا. فالقمر جسم نورىّ باكتسابه ذلك من الشمس. فإذا حال بين الشمس و الأرض خرج عن جانبى الماء شعاع نافذ يمرّ مع جنبى الماء فيسخن ما قابله فينمو. و الماء جسم شفاف عن جانبيه يخرج الشعاع كما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۰۳

يخرج عن جانبى الزجاجة، فيحدث لها نور يسخن الهواء الذى يحيط بالزجاجة أو بالأرض، فيقترف الماء شبه تسخين ينمى به و يزيد و ذلك قبالة القرص، و قبالة مخرج الشعاع من قبالة وتد القمر، فهذا هو المدّ دائما، و يستدير باستدارة الفلك، و تدويره لفلك القمر و تدوير فلك القمر للقمر.

و المدّ الشهرىّ هو أن يقابل القمر الشمس أو يستتر تحتها. لأنه ليس إلا كون القمر قبالة الشمس لكونه فى تربيع الشمس أضعف و فى المقابلة أقوى، و كذلك إذا قابلها على وسط كرة الأرض بحيث تكون الحركة أشدّ، و الاكتناف للماء و الأرض أعم فذلك هو المدّ السنوى.

فصل فى الردّ على من اعتقد أن النيل من سيل يفيض

أما العامة فليس عندهم ما يجىء على وجه الأرض أنه سيل، و من تفطن إلى عظمه و اتساعه فى أسفله و ضيقه فى أعلاه، و لم ينظر إلى ماء و لا أرض، و لا هواء. نسب ذلك إلى الخيال المحض.

كما فعل صاحب كتاب المسالك و الممالك: الذى زعم أن الماء يسافر من كل أرض، و موطن إلى النيل تحت الأرض فيمدّه لأن النيل إنما يفيض فى الخريف. و العيون و الآبار فى ذلك الوقت يقل ماؤها، و النيل يكثر فرأوا كثرة و قلة فأضافوا أحدهما إلى الآخر بالخيال، و مما يدلك على أنه ليس عن سيل يفيض أن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر، و لا ـ يفيض النيل لكون البحر فى الجزر، فيصل السيل و يمرّ نحو البحر، فلا يردعه رادع ..

و منها: أن فيض النيل على تدريج مدّة ثلاثة أشهر من حلول الشمس رأس السرطان إلى حلولها بآخر برج السنبلة، و الناس يحسبون به قبل فيضه بمدّة شهرين و لعامل مصر فى وسط النيل مقياس موضوع، و هو سارية فيها خطوط يسمونها أذرعا يعلم بها مقدار صعوده فى كل يوم ..

و منها: أن فيضه أبدا فى وقت واحد، فلو كان بالسيل لاختلف بعض الاختلاف.

و منها: أنه قد يجىء السيل فى غير هذا الوقت فلا يفيض.

و منها: أن الحذاق بمصر إذا رأوا الحر يزيد علموا أن النيل سيزيد لأنّ شدّة الحرّ تذيب الهواء فيذوب الماء، و لا يكون إلا عن زيادة كوكب، و دنوّ نور.

و منها: أن موضع مصبه من أسوان إنما هو واد من الأودية و ما أسحل اتسع حتى يكون عرض اتساعه نحوا من مائة ميل و أسوان هو منتهى بلوغ الردع، فما ظنك بسيل مسيره نصف شهر لا نسبة بين مصب أعلاه و أسفله، كيف كان يكون أعلاه لو كان امتلاء أسفله عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٠۴

السيل! و منها: أن أهل أسوان إنما يرقبون بلوغ الردع إليهم مراقبة، و يحافظون عليه بالنهار محافظة، فإذا جنّ الليل أخذوا حقة خزف، فوضعوا فيها مصباحا، ثم يضعونه على حجر معدّ عندهم لذلك. و جعلوا يرقبونه فإذا طفىء المصباح يطفو الماء عليه علموا أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم بأخذه فى الجزر فيكتبوا بذلك إلى أمير مصر يعلموه أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم و أنهم قد أخذوا بقسطهم من الشرب. فحينئذ يأمر بكسر الأسداد التى على أفواه قرص المشارب، فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة.

و منها: أن جميع تلك المشارب تسدّ عند ابتداء النيل بالخشب، و التراب ليجتمع ما يسيل من الماء العذب فى النيل، و يكثر و يعم جميع أرضهم و يمنع بجملته دخول الماء الملح عليه. فلو كان سيلا ما احتاج إلى ذلك، و لفتحت له أفواه قرص المشارب عند ابتداء ظهوره.

و منها: أن الخلجان إذا سدّت و لم يكن لها رادع من البحر كان السيل من جنبه إلى البحر إذ أسفل النيل أوسع و أخفض من أعلاه.

و منها: أن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلاـ فى حلق رشيد و تنيس و دمياط، كما يفعل فى سائر الأودية التى تدخل المدّ و الجزر، فلو كان النيل خاليا من الماء العذب، وصل البحر من أسوان إلى منتهى بلوغ الردع، لأن الماء يطلب بطبعه ما انخفض من

الأرض و أن يكون فى صفحة كرة مستوية الخطوط الخارجة من النقطة إلى المحيط متساوية.

و منها: أنها إذا فتحت تلك الأسداد، و كسرت الخلج، و فاض النيل على بطائح أرض مصر. شعر بذلك أهل أسوان للحين، و قالوا فى هذه الساعة كسرت الخلج، وفاض ماء النيل على أرض مصر، لأن ذلك يتبين لهم بتحوّل الماء دفعة، فلو كان سيلا و هم على أعلى المصب لقالوا: قد ارتفع المطر عن الأرض التى يسيل منها السيل.

و منها: أن قسميه الذى يمرّ ببلاد الحبشة المنبعث و إياه من جبل القمر لا يفيض كمدّة فيض النيل ثلاثة أشهر، و لا يقيم على وجه الأرض مدّة مقامه. لكنه إذا كثر فيه السيل غمر جوانبه على قدر انبساطها، و إذا نصبت مادّته أردع عليه، فلو كان فيض النيل عن السيل و هما من شعب واحد لكان شأنهما واحدا، و لا نقول: إن فيض النيل بسبب فيض البحر فقط إذ لولا كونه سيل ماء لما دخل ردع البحر إليه و لكان شاطىء ديار مصر كسائر السواحل المجاورة له. و لولا السيل السائل فيه لردمه البحر إذ عادة البحر ردم السواحل، و إنما دخل الشك على أهل مصر فى أيام النيل، لأنهم لم يشاهدوا منشأه، و لا عاينوا مبدأه من جبل القمر. لأنه فى موضع لا ساكن عليه، و لا تحققوا المدّ السنوىّ الرادع له، فلم يتحققوا شيئا من أمره، لأنه بعيد من أذهان العامّة أن يعلموا: أن ماء البحر يعظم فى أيام الصيف، لأن المعهود عندهم فى البحر أن يعظم فى أيام الشتاء، و طمو البحر فى الشتاء إنما يكون عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۰۵

الرياح الهابة عليه من أحد جانبيه، فيفيض و يخرج إلى الجانب الآخر، إلا ما كان من البحر المحيط فإنه يتحرّك أبدا من داخل البحر إلى البر.

و هو أن المحيط يطلب بطبعه أن يكون على وجه الأرض، و الأرض ليست بسيطة، فهى تمانعه بما فيها من التركيب فهو يطلب أبدا أن يعلوها و يركبها ببردها. قال: و السبب فى عظم المدّ و الجزر كثرة الأشعة. فإذا زاحمت الشمس و القمر، الكواكب السيارة عظم فيض البحر، و إذا عظم فيض البحر فاضت الأنهار، و كذلك إذا نهض القمر لمقابلة أحد السيارة ارتفع البخار، و صعد إلى كورة الزمهرير، و نزل المطر فإذا فارق القمر الكواكب ارتفع المطر لكثرة التحليل. كما يكون فى نصف النهار عند توسط الشمس لرؤوس الخلق، و كما يكون عند حلول الكواكب الكبيرة على وسط خط أرين، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: الذى تحصل من هذا القول إن النيل مخرجه من جبل القمر. و أن زيادته إنما هى من فيض البحر عند المدّ فأما كون مخرجه من جبل القمر فمسلم، إذ لا نزاع فى ذلك.

و أما كون زيادته لا تكون إلا من ردع البحر له بما حصل فيه من المدّ فليس كذلك.

نعم توالى هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة، و ردع البحر له إعانة على الزيادة، و من تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه، و لا بد فإنه لا يزال أيام الشتاء، و أوائل فصل الربيع ماؤه صافيا من الكدرة فإذا فرغت أيام زيادته، و كان فى غاية نقصه تغير طعمه، و مال لونه إلى الخضرة، و صار بحيث إذا وضع فى إناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب. و سبب ذلك: أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة و نحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها فإذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف، و عظمت السيول الهابطة فى هذه البطيحة، فاض منها ما تغير من الماء و جرى إلى أرض مصر فيقال عند ذلك: توحم النيل، و لا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير، و يزاد عكره بزيادة الماء، فإذا وضع منه أيام الزيادة شىء فى إناء رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة و هذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها و فيه يكون الزرع بعد هبوط النيل، و إلا فأرض مصر سبخة لا تنبت، و لا ينبت منها إلا ما مرّ عليه ماء النيل، و ركد منه هذا الطين و قوله: إن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر و لا يفيض النيل لكون البحر فى الجزر فيصل السيل، و يمرّ نحو البحر، فلا يردعه رادع غير مسلم و إن العادة أن السيول التى عليها زيادة ماء النيل لا تكون إلا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب و أمطار الجنوب لا تكون إلا فى أيام الصيف، و لم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء. و أول دليل على أن كون زيادته عن سيل يسيل فيه إنما يزيد بتدريج على قدر ما يهبط فيه من السيول.

و أما استدلاله بصب النيل فى أسوان و اتساعه أسفل الأرض فإنما ذلك لأنه يصب من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٠۶

علو فى منخرق بين جبلين، يقال لهما: الجنادل و ينبطح فى الأرض حتى يصب فى البحر، فاتساعه حيث لا يجد حاجزا يحجزه عن الانبساط. و أما قوله: إن الأسداد إذا كثرت فاض الماء على الأرض دفعة فليس كذلك؟ بل يصير الماء عند كسر كل سدّ من الأسداد فى خليج، ثم يفتح ترع من الخليج إلى الخليج إلى ما على جانبه من الأراضى حتى يروى.

فمن تلك الأراضى ما يروى سريعا، و منها ما يروى بعد أيام، و منها ما لا يروى لعلوّه.

و أما قوله: إن جميع تلك المشارب تستدّ عند ابتداء صعود النيل ليجتمع ما يسيل من الماء فى النيل، و يكثر فيعم جميع أرضهم، و يمنع بجملته دخول الماء الملح عليه، فغير مسلّم أن تكون السداد كما ذكر. بل أراضى مصر أقسام كثيرة منها: عال لا يصل إليه الماء إلا من زيادة كثيرة، و منها: منخفض يروى من يسير الزيادة و الأراضى متفاوتة فى الارتفاع و الانخفاض تفاوتا كثيرا. و لذلك احتيج فى بلاد الصعيد إلى حفر الترع. و فى أسفل الأرض إلى عمل الجسور حتى يحبس الماء ليروى أهل النواحى على قدر حاجتهم إليه عند الاحتياج. و إلا فهو يزيد أولا فى غير سقى الأراضى حتى إذا اجتمع من زيادته المقدار الذى هو كفاية الأراضى فى وقت خلوّ الأراضى من الغلال. و ذلك غالبا فى أثناء شهر مسرى فتح سدّ الخليج حتى يجرى فيه الماء إلى حدّ معلوم، و وقف حتى يروى ما تحت ذلك الحدّ الذى وقف عنده الماء من الأرض.

ثم فتح ذلك الحدّ فى يوم النيروز حتى يجرى إلى حدّ آخر، و يقف عنده حتى يروى ما تحت هذا الحدّ الثانى من الأراضى، ثم يفتح هذا الحدّ فى يوم عيد الصليب بعد النوروز بسبعة عشر يوما حتى يجرى الماء، و يقف على حدّ ثالث حتى يروى ما تحت هذا الحدّ من الأراضى، ثم يفتح هذا الحدّ فيجرى الماء، و يروى ما هنالك من الأراضى، و يصب فى البحر الملح.

هذا هو الحال فى سدود أراضى مصر و قوله: إن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلا فى حلق رشيد و تنيس و دمياط فلو كان خاليا من الماء العذب لوصل البحر من أسوان إلى منتهى بلوغ الردع فنقول: هذا قول من لم يعرف أرض مصر، فإن النيل عند مصبه بأعالى أسوان يكون أعلى منه عند كونه أسفل الأرض بقامات عديدة. فإذا فاض ماء البحر حبسه أن يتدافع هو و ماء النيل، و ربما غلب ماء البحر ماء النيل فى أيام نقصان النيل حتى يملح ماء النيل فيما بين دمياط و فارس كور.

و أما فى أيام زيادة النيل، فإنى شاهدت مصب النيل فى البحر من دمياط و كل منهما يدافع الآخر فلا يطيقه حتى صارا متمانعين عبرة لمن اعتبر. و قوله: إن الأسداد إذا فتحت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٠٧

علم أهل أسوان بذلك فى الحال غير مسلم، بل لم نزل نشاهد النيل فى الأعوام الكثيرة إذا فتح منه خليج أو انقطع مقطع فأغرق ماؤه أراضى كثيرة لا يظهر النقص فيه إلا فيما قرب من ذلك الموضع، و ما برح المفرد يخرج من قوص ببشارة وفاء النيل. و قد أوفى عندهم ستة عشر ذراعا، فلا يوفى ذلك المقياس بمصر إلا بعد ثلاثة أيام و نحوها. و أما قوله: إن ما كان من النيل يمرّ ببلاد الحبشة يخالفه فليس كذلك، بل الزيادة فى النيل أيام زيادته تكون ببلاد النوبة، و ما وراءها فى الجنوب كما تكون فى أرض مصر، و لا فرق بينهما إلا فى شيئين:

أحدهما: أنه فى أرض مصر يجرى فى حدود و هناك يتبدّد على الأراضى، و الثانى: أن زيادته تعتبر بالقياس فى أرض مصر، و هناك لا يمكن قياسه لتبدّده و من عرف أخبار مصر علم أن زيادة ماء النيل تكون عن أمطار الجنوب.

و يقال: إن النيل ينصب من عشرة أنهار من جبل القمر المتقدّم ذكره. كل خمسة أنهار من شعبة، ثم تتبحر تلك الأنهار العشرة فى بحرين، كل خمسة أنهار تتبحر بحيرة بذاتها، ثم يخرج من البحيرة الشرقية بحر لطيف يأخذ شرقا على جبل قاقولى، و يمتدّ إلى مدن هناك، ثم يصب فى البحر الهندى.

و يخرج من البحيرتين ستة أنهار من كل بحيرة ثلاثة أنهار، و تجتمع الأنهار الستة في بحيرة متسعة تسمى البطيحة، و فيها جبل يفرّق الماء نصفين يخرج أحدهما من غرب البطيحة، و هو نيل السودان، و يصير نهرا يسمى بحر الدمادم، و يأخذ مغربا ما بين سمغرة و غانة على جنوبيّ سمغرة و شماليّ غانة، ثم ينعطف هناك. منه فرقة ترجع جنوبا إلى غانة، ثم تمرّ على مدينة برنسة، و تأخذ تحت جبل في جنوبها خارج خط الاستواء إلى زفيلة، ثم تتبحر في بحيرة هناك و تستمرّ الفرقة الثانية مغرّبة إلى بلاد مالي و التكرور، حتى تنصب في البحر المحيط شماليّ مدينة قلبتو، و يخرج النصف الآخر متشاملا آخذا على الشمال إلى شرقيّ مدينة حيما، ثم يتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقا إلى مدينة سحرت. ثم ترجع جنوبا ثم تعطف شرقا بجنوب إلى مدينة سحرتة، ثم إلى مدينة مركة.

و ينتهى إلى خط الاستواء حيث الطول خمس و ستون درجة، و يتبحر هناك بحيرة و يسمى:

عمود النيل من قبالة تلك الشعبة شرقيّ مدينة شيمى متشاملا آخذا على أطراف بلاد الحبشة، ثم يتشامل على بلاد السودان إلى مدينة دنقلة حتى يرمى على الجنادل إلى أسوان، و ينحدر و هو يشق بلاد الصعيد إلى مدينة فسطاط مصر، و يمرّ حتى يصب في البحر الشاميّ، و قد استفيض ببلاد السودان أن النيل ينحدر من جبال سود يبين على بعد كأن عليها الغمام ثم يتفرّق نهرين يصب أحدهما في البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمة الجنوبيّ، و الآخر يتصل إلى مصر حتى يصب في البحر الشاميّ. و يقال: إنه في الجنوب يتفرّق سبعة أنهار تدخل في صحراء منقطعة، ثم تجتمع الأنهار السبعة، و تخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا في بلاد السودان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٠٨

ذكر مقاييس النيل و زيادته

قال ابن عبد الحكم: أوّل من قاس النيل بمصر، يوسف عليه السلام، وضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة ابنة زبا و هي صاحبة حائط العجوز مقياسا بأنصنا . و هو صغير الذرع، و مقياسا بإخميم ، و وضع عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان ، و هو صغير و وضع أسامة بن زيد التنوخيّ في خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة ، و هو أكبرها.

قال يحيى بن بكير: أدركت القياس يقيس في مقياس منف و يدخل بزيادته إلى الفسطاط.

و قال القضاعيّ: كان أوّل من قاس النيل بمصر، يوسف عليه السلام و بنى مقياسا بمنف و هو أوّل مقياس وضعه عليه السلام. و قيل: إن النيل كان يقاس بمصر بأرض علوة إلى أن بنى مقياس منف.

و أن القبط كانت تقيس عليه إلى أن بطل و من بعده دلوكة العجوز بنت مقياسا بانصنا، و هو صغير الذرع و آخر بأخميم و هي التي بنت الحائط المحيط بمصر. و قيل: إنهم كانوا يقيسون الماء قبل أن يوضع المقياس بالرصاصة فلم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيسارية الأكسية و معالمه هناك إلى أن ابتنى المسلمون بين الحصن، و البحر أبنيتهم الباقية الآن. و كان للروم أيضا مقياس بالقصر خلف الباب يمنة من دخل منه في داخل الزقاق أثره قائم إلى اليوم و قد بنى عليه و حواليه.

ثم بنى عمرو بن العاص عند فتحه مصر مقياسا بأسوان ثم بنى بموضع يقال له:

دندرة، ثم بنى في أيام معاوية مقياس بانصنا، فلم يزل يقاس عليه إلى أن بنى عبد العزيز بن مروان مقياسا بحلوان و كانت منزله، و كان هذا المقياس صغير الذرع. فأمّا المقياس القديم الذى بنى في الجزيرة فالذى وضعه أسامة بن زيد. و قيل: إنه كسر فيه ألفى أوقية، و هو الذى بنى بيت المال بمصر. ثم كتب أسامة بن زيد التنوخيّ، عامل خراج مصر لسليمان بن عبد الملك ببطلانه، فكتب إليه سليمان بأن يبنى مقياسا في الجزيرة فبناه في سنة سبع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٠٩

و تسعين، ثم بنى المتوكل فيها مقياسا في أوّل سنة سبع و أربعين و مائتين في ولاية يزيد بن عبد اللّه التركيّ على مصر. و هو المقياس الكبير المعروف بالجديد و أمر بأن يعزل النصارى عن قياسه، فجعل يزيد بن عبد اللّه التركيّ على المقياس أبا الردّاد المعلم و اسمه:

عبد اللّه بن عبد السلام بن عبد اللّه بن أبى الرّداد المؤذن. كان يقول القمىّ: أصله بالبصرة قدم مصر و حدث بها و جعل على قياس النيل، و أجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر فلم يزل المقياس من ذلك الوقت فى يد أبى الرّداد و ولده إلى اليوم، و توفى أبو الرّداد سنة ست و ستين و مائتين.

ثم ركب أحمد بن طولون سنة تسع و خمسين و مائتين، و معه أبو أيوب صاحب خراجه، و بكار بن قتيبة القاضى فنظر إلى المقياس، و أمر بإصلاحه و قدّر له ألف دينار فعمرو بنى الحارث فى الصناعة مقياسا و أثره باق لا يعتمد عليه.

و قال ابن عبد الحكم: و لما فتح عمرو بن العاص مصر، أتى أهلها إلى عمرو حين دخل بؤنة من أشهر العجم، فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها. فقال لهم: و ما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها، و جعلنا عليها من الحلىّ و الثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى النيل. فقال لهم عمر: و إن هذا لا يكون فى الإسلام، و إن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا بؤنة و أبيب و مسرى، و هو لا يجرى قليلا و لا كثيرا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بذلك فكتب إليه عمر: أن قد أصبت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، و قد بعثت إليك ببطاقة، فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى.

فلما قدم الكتاب إلى عمرو فتح البطاقة فإذا فيها: من عبد اللّه أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد: فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، و إن كان اللّه الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل اللّه الواحد القهار أن يجريك. فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم، و قد تهيأ أهل مصر للجلاء و الخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، و أصبحوا يوم الصليب، و قد أجراه اللّه تعالى ستة عشر ذراعا فى ليله، و قطع تلك السنة السوء عن أهل مصر.

و ذكر بعضهم: أن جاحلا الصدفىّ هو الذى جاء ببطاقة عمر رضى اللّه عنه إلى النيل حين توقف، فجرى بإذن اللّه تعالى. و قال يزيد بن أبى حبيب: أن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون، فحبس اللّه عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء، فطلبوا إلى موسى أن يدعو اللّه، فدعا اللّه رجاء أن يؤمنوا، و ذلك ليلة الصليب، فأصبحوا، و قد أجراه اللّه فى تلك الساعة ستة عشر ذراعا، فاستجاب اللّه بطوله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام.

قال القضاعى: و وجدت فى رسالة منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبد المنعم، قال: لما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۱۰

فتحت العرب مصر عرف عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حدّه فى مقياس لهم فضلا عن تقاصره، و إن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار، و أن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار بغير قحط، فكتب عمر إلى عمرو يسأله عن شرح الحال، فأجابه: إنى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا، و الحدّ الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم، و يبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا، و النهايتان المخوفتان فى الزيادة و النقصان و هما الظمأ و الاستبحار اثنا عشر ذراعا فى النقصان و ثمانية عشر ذراعا فى الزيادة هذا، و البلد فى ذلك الوقت محفور الأنهار معقود الجسور عند ما تسلموه من القبط، و خميرة العمارة فيه.

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى اللّه عنه، عليا رضى اللّه عنه فى ذلك فأمره أن يكتب إليه أن يبنى مقياسا و أن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذراعا، و أن يقرّ ما بعدها على الأصل، و أن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا إصبعين، ففعل ذلك، و بناه بحلوان فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف، و زوال ما منه كان يخاف بأن جعل الاثنى عشر ذراعا أربع عشرة لأن كل ذراع أربع و عشرون إصبعا، فجعلها ثمانيا و عشرين من أوّلها إلى الاثنى عشر ذراعا يكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشر ثمانيا و أربعين إصبعا و هى الذراعان، و جعل الأربع عشرة ست عشرة و الست عشرة ثمانى عشرة و الثمانى عشرة عشرين.

قال القضاعىّ: و فى هذا الحساب نظر فى وقتنا لزيادة فساد الأنهار و انتقاض الأحوال و شاهد ذلك: أن المقاييس القديمة الصعيدية

من أوّلها إلى آخرها أربع و عشرون إصبعا، كل ذراع، و المقاييس الإسلامية على ما ذكر منها المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى بالجزيرة، و هو الذى هدمه الماء و بنى المأمون آخر بأسفل الأرض بالبروذات و بنى المتوكل آخر بالجزيرة، و هو الذى يقاس عليه الماء الآن و قد تقدّم ذكره.

قال ابن عفير عن القبط المتقدّمين إذا كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنتى عشرة ذراعا فهى سنة ماء. و إلا فالماء ناقص، و إذا تمّ ست عشرة ذراعا قبل النوروز فالماء يتم فاعلم ذلك. و قال أبو الصلت: و أما النيل و ينبوعه فهو من وراء خط الاستواء من جبل هناك يعرف بجبل القمر، فإنه يبتدئ فى التزايد فى شهر أبيب، و المصريون يقولون: إذا دخل أبيب كان للماء دبيب، و عند ابتدائه فى التزايد يتغير جميع كيفياته، و يفسد. و السبب فى ذلك مروره بنقائع مياه آجنة يخالطها فيجتلبها معه إلى غير ذلك مما يحتمله فإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعا و زاد من السادس عشر إصبعا واحدا كسر الخليج، و لكسره يوم معدود، و مقام مشهود، و مجتمع خاص يحضره العام و الخاص، فإذا كسر فتحت الترع و هى فوهات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١١١

الخلجان ففاض الماء، و ساح و غمر القيعان و البطاح، و انضم الناس إلى أعالى مساكنهم من الضياع و المنازل و هى على آكام و ربا لا ينتهى الماء إليها و لا يتسلط السيل عليها، فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحرا غامرا لما بين جبليها ريثما يبلغ الحدّ المحدود فى مشيئة اللّه عز و جل له، و أكثر ذلك يحوم حول ثمانى عشرة ذراعا، ثم يأخذ عائدا فى صبه إلى مجرى النيل و مسربه، فينضب أوّلا عما كان من الأرض عاليا و يصير فيما كان منها متطامنا، فيترك كل قرارة كالدرهم، و يغادر كل ملقة كالبرد المسهم.

و قال القاضى أبو الحسن علىّ بن محمد الماوردىّ فى كتاب الأحكام السلطانية:

و أما الذراع السوداء فهى أطول من ذراع الدور بأصبع و ثلثى أصبع، و أوّل من وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد قدّرها بذراع خادم أسود كان على رأسه قائما، و هى التى تتعامل الناس بها فى ذرع البز و التجارة و الأبنية، و قياس نيل مصر.

و أكثر ما وجد فى القياس من النقصان سنة سبع و تسعين و مائة وجد فى المقياس تسعة أذرع و أحد و عشرون أصبعا. و أقل ما وجد منه سنة خمس و ستين و مائة فإنه وجد فيه ذراع واحد و عشر أصابع، و أكثر ما بلغ فى الزيادة سنة تسع و تسعين و مائة فإنه بلغ ثمانية عشر ذراعا و تسعة عشر أصبعا، و أقل ما كان فى سنة ست و خمسين و ثلثمائة الهلالية فإنه بلغ اثنى عشر ذراعا و تسع عشرة أصبعا، و هى أيام كافور الإخشيدى.

و المقياس عمود رخام أبيض مثمن فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، و هذا العمود مفصل على اثنين و عشرين ذراعا، كل ذراع مفصل على أربعة و عشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى، فإنها مفصلة على ثمان و عشرين أصبعا كل ذراع.

و قال المسعودىّ: قالت الهند: زيادة النيل و نقصانه بالسيول و نحن نعرف ذلك بتوالى الأنواء و كثرة الأمطار.

و قالت الروم: لم يزد قط و لم ينقص و إنما زيادته، و نقصانه من عيون كثرت و اتصلت.

و قالت القبط: زيادته و نقصانه من عيون فى شاطئه يراها من سافر و لحق بأعاليه.

و قيل: لم يزد قط و إنما زيادته بريح الشمال إذا كثرت، و اتصلت تحبسه، فيفيض على وجه الأرض.

و قال قوم: سبب زيادته هبوب ريح تسمى ريح الملتن، و ذلك أنها تحمل السحاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١١٢

الماطر من خلف خط الاستواء فيمطر ببلاد السودان، و الحبشة، و النوبة فيأتى مدده إلى أرض مصر بزيادة النيل، و مع ذلك فإن البحر الملح يقف ماؤه على وجه النيل، فيتوقف حتى يروى البلاد و فى ذلك يقول :

فاسمع فللسامع أعلى يداعندى و أسمى من يد المحسن

فالنيل ذو فضل و لكنه‌الشكر فى ذلك للملتن

و يبتدئ النيل بالتنفس، و الزيادة بقية بؤنة و هو حزيران، و أبيب و هو تموز، و مسرى و هو آب، فإذا كان الماء زائدا زاد شهر توت كله، و هو أيلول إلى انقضائه. فإذا انتهت الزيادة إلى الذراع الثامن عشر؛ ففيه تمام الخراج و خصب الأرض و هو ضارّ بالبهائم لعدم الرعى و الكلا.

و أتمّ الزيادات كلها العامّة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا و فى ذلك كفايتها و رىّ جميع أرضها، و إذا زاد على ذلك، و بلغ ثمانية عشر ذراعا، و غلقها استبحر من أرض مصر الربع. و فى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من الاستبحار، و إذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث و باء و أكثر الزيادات ثمان عشرة ذراعا.

و قد بلغ فى خلافة عمر بن عبد العزيز اثنى عشر ذراعا، و مساحة الذراع إلى أن يبلغ اثنتى عشرة ذراعا، ثمان و عشرون أصبعا، و من اثنتى عشرة ذراعا إلى ما فوق ذلك يكون الذراع أربعا و عشرين أصبعا، و أقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع، و فى تلك السنة يكون الماء قليلا، و الأذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان منكرا و نكيرا، و هى الذراع الثالث عشر، و الذراع الرابع عشر، فإذا انصرف الماء عن هذين الذراعين و زيادة نصف ذراع من الخمس عشرة استقى الناس بمصر. فكان الضرر الشامل لكل البلدان، و إذا تمّ خمس عشرة و دخل فى ست عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس، و لا يستسقى فيه و كان ذلك نقصا من خراج السلطان، و النبيذ يتخذ بمصر من ماء طوبة، و هو كانون الثانى بعد الغطاس، و هو لعشرة تمضى من طوبة، و أصفى ما يكون ماء النيل فى ذلك الوقت، و أهل مصر يفتخرون بصفاء ماء النيل فى هذا الوقت، و فيه يخزن الماء أهل تنيس و دمياط و تونة و سائر قرى البحيرة.

و قد كانت مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعا، غامرها و عامرها لما أحكموا من جسورها و بناء قناطرها، و تنقية خلجانها، و كان الماء إذا بلغ فى زيادته تسع أذرع، دخل خليج المنهى، و خليج الفيوم، و خليج سردوس، و خليج سخا.

قال: و المعمول عليه فى وقتنا هذا، و هو سنة خمس و أربعين و ثلثمائة إنه إن زاد على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۱۳

الستة عشر ذراعا أو نقص عنها نقص من خراج السلطان، و قد تغير فى زماننا هذا عامة ما تقدّم ذكره لفساد حال الجسور و الترع و الخلجان و قانون اليوم: أنه يزيد فى القيظ إذا حلت الشمس برج السرطان و الأسد و السنبلة حين تنقص عامة الأنهار التى فى المعمور، و لذلك قيل: إن الأنهار تمدّه بمائها عند غيضها، فتكون زيادته و تبتدىء الزيادة من خامس بؤنة ، و تظهر فى ثانى عشره، و أول دفعه فى الثانى من أبيب و تنتهى زيادته فى ثامن بابه ، و يؤخذ فى النقصان من العشرين منه. فتكون مدّة زيادته من ابتدائها إلى أن ينقص ثلاثة أشهر و خمسة و عشرين يوما. و هى: أبيب و مسرى و توت و عشرون يوما من بابه، و مدّة مكثه بعد انتهاء زيادته اثنا عشر يوما ثم يأخذ فى النقصان.

و من العادة أن ينادى عليه دائما فى اليوم السابع و العشرين من بؤنة بعد ما يؤخذ قاعه، و هو ما بقى من الماء القديم فى ثالث عشر بؤنة، و بفتح الخليج الكبير إذا أكمل الماء ستة عشر ذراعا و أدركت الناس يقولون: نعوذ باللّه من أصبع من عشرين و كنا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين ذراعا فاض ماء النيل، و غرّق الضياع و البساتين و فارت البلاليع، و ها نحن فى زمن منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة إذا بلغ الماء فى سنة أصبعا من عشرين لا يعم الأرض كلها لما قد فسد من الجسور، و كان إلى ما بعد الخمسمائة من الهجرة قانون النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة، و هى فى الحقيقة ثمانية عشر ذراعا؛ و كانوا يقولون: إذا زاد على ذلك ذراعا واحدة؛ زاد خراج مصر مائة ألف دينار لما يروى من الأراضى العالية؛ فإن بلغ ثمانية عشر ذراعا كانت الغاية القصوى، فإن الثمانية عشر ذراعا فى مقياس الجزيرة اثنان و عشرون ذراعا فى الصعيد الأعلى؛ فإن زاد على الثمانية عشر ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من الأرض المنخفضة.

قال ابن ميسر فى حوادث سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة، و فيها بلغت زيادة ماء النيل تسعة عشر ذراعا و أربعة أصابع، و بلغ الماء الباب الجديد أوّل الشارع خارج القاهرة، و كان الناس يتوجهون إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر، فلما بلغ الخليفة الحافظ لدين اللّه أبا الميمون عبد المجيد بن محمد أن الماء وصل إلى الباب الجديد أظهر الحزن، و الانقطاع فدخل إليه بعض خواصه، و سأله عن السبب، فأخرج له كتابا فإذا فيه: إذا وصل الماء بالباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد، ثم قال: هذا الكتاب الذى تعلم منه أحوالنا و أحوال دولتنا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١١۴

و ما يأتى بعدها فمرض الحافظ فى آخر هذه السنة، و مات فى أوّل سنة أربع و أربعين و خمسمائة.

و قال القاضى الفاضل: فى متجدّدات سنة ست و سبعين و خمسمائة و فى يوم الاثنين السادس و العشرين من شهر ربيع الأوّل، و هو السادس عشر من مسرى. و فى النيل على ستة عشر ذراعا، و هو الوفاء و لا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدّم، و هذا أيضا مما تغير فيه قانون النيل فى زماننا فإنه صار يوفى فى أوائل مسرى و لقد كان الوفاء فى سنة اثنتى عشرة، و ثمانمائة فى اليوم التاسع و العشرين من أبيب قبل مسرى بيوم، و هذا من أعجب ما يؤرخ فى زيادات النيل، و اتفق أن فى الحادى عشر من جمادى الأولى سنة تسع و سبعمائة، و فى النيل و كان ذلك اليوم التاسع عشر من بابه بعد النوروز بتسعة و أربعين يوما.

قال: و فى تاسع عشرة يعنى شوّال سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة. كسر بحر أبى المنجى و باشر الملك العزيز عثمان كسره و زاد النيل فيه أصبعا و هى الأصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعا، و هذا الحدّ يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى. فانظر كيف يسمى القاضى الفاضل هذا القدر اللجة الكبرى؟! و إنه و العياذ باللّه لو بلغ ماء النيل فى سنة هذا القدر فقط لحل بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس، و ما ذاك إلا لما أهمل من عمل الجسور؛ و يحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعا فرح عظيم، فإن ذلك كان قانون الرى فى القديم و استمرّ ذلك إلى يومنا هذا. و يتخذ ذلك اليوم عيدا يركب فيه السلطان بعساكره، و ينزل فى المراكب لتخليق المقياس.

و قد ذكرنا ما كان فى الدولة الفاطمية من الاهتمام بفتح الخليج عند ذكر مناظر اللؤلؤة. و قال بعض المفسرين رحمهم اللّه تعالى: إن يوم الوفا هو اليوم الذى وعد فرعون موسى عليه السلام بالاجتماع فى قوله تعالى: قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى [طه/ ۵۹].

و قد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون فى هذا الوقت.

و من أحسن السياسات فى أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق فى سيرة المعز لدين اللّه قال: و فى هذا الشهر، يعنى شوّال، سنة اثنتين و ستين و ثلثمائة منع المعز لدين اللّه من النداء بزيادة النيل، و أن لا يكتب بذلك إلا إليه، و إلى القائد جوهر، فلما تم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١١۵

أباح النداء، يعنى لما تم ست عشرة ذراعا، و كسر الخليج فتأمّل ما أبدع هذه السياسة؛ فإنّ الناس دائما إذا توقف النيل فى أيام زيادته، أو زاد قليلا- يقلقون، و يحدّثون أنفسهم بعدم طلوع النيل، فيقبضون أيديهم على الغلال، و يمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر، و يجتهد من عنده مال فى خزن الغلة؛ إما لطلب السعر، أو لطلب ادّخار قوت عياله، فيحدث بهذا الغلاء. فإن زاد الماء انحلّ السعر و إلا كان الجدب و القحط ففى كتمان الزيادة عن العامّة أعظم فائدة، و أجلّ عائدة.

و قال المسبحى فى تاريخ مصر: و خرج أمر صاحب القصر إلى ابن حيران بتحرير ما يستفتح به القياسون كلامهم إذا نادوا على النيل، فقال: نعم لا تحصى من خزائن اللّه لا تفنى زاد اللّه فى النيل المبارك كذا، و من عادة نيل مصر إذا كان عند ابتداء زيادته اخضرّ ماؤه، فتقول عامّة أهل مصر: قد توحم النيل، و يرون أن الشرب منه حينئذ مضر. و يقال فى سبب اخضراره: إنّ الوحوش سيما الفيلة ترد البطيحات التى فى أعالى النيل، و تستنقع فيها مع كثرة عددها لشدّة الحرّ هناك، فيتغير ماء تلك البطيحات، فإذا وقع المطر فى الجهة

الجنوبية فى أوقاته عندهم تكاثرت السيول حينئذ فى البطيحات، فخرج ما كان فيها من الماء الذى قد تغير، و مرّ إلى مصر، و جاء عقيبه الماء الجديد، و هو الزيادة بمصر و حينئذ يكون الماء محمرّا لما يخالطه من الطين الذى تأتى به السيول فإذا تناهت زيادته غشى أرض مصر، فتصير القرى التى فى الأقاليم فوق التلال و الروابى، و قد أحاط بها الماء، فلا يتوصل إليها إلا فى المراكب، أو من فوق الجسور الممتدّة التى يصرف عليها إذا عملت كما ينبغى ربع الخراج ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتى ينتهى رىّ كل مكان إلى الحدّ المحتاج إليه، فإذا تكامل رىّ ناحية من النواحى قطع أهلها الجسور المحيطة بها من أمكنة معروفة عند خولة البلاد، و مشايخها فى أوقات محدودة لا تتقدّم، و لا تتأخر عن أوقاتها المعتادة على حسب ما يشهد به قوانين كل ناحية من النواحى، فتروى كل جهة مما يليها مع ما يجتمع فيها من الماء المختص؛ و لو لا إتقان ما هنالك من الجسور، و حفر الترع و الخلجان لقل الانتفاع بماء النيل كما قد جرى فى زماننا هذا. و قد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم فى القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها رىّ البلاد الذى به مصالح العباد، و ستقف إن شاء اللّه تعالى عن قريب على ما كان من أعمال القدماء، و من بعدهم فى ذلك، و كان للمقياس فى الدولة الفاطمية رسوم لكنس مجارى الماء خمسون دينارا فى كل سنة تطلق لابن أبى الرّداد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١١۶

ذكر الجسر الذى كان يعبر عليه فى النيل

اعلم أنه كان فى النيل جسر من سفن فيما بين الفسطاط و الجزيرة التى تعرف اليوم:

بالروضة، و كان فيما بين الجزيرة، و الجيزة أيضا جسر فى كل جسر منهما ثلاثون سفينة.

ذكر ما قيل فى ماء النيل من مدح و ذم

قال الرئيس أبو علىّ ابن سينا عفا اللّه عنه، و قوم يفرطون فى مدح النيل إفراطا شديدا، و يجمعون محامده فى أربعة: بعد منبعه، و طيب مسلكه، و غمورته، و أخذه إلى الشمال عن الجنوب. فأخذه إلى الشمال عن الجنوب: ملطف لما يجرى فيه من المياه، و أما غمورته فيشاركه فيها غيره. قال: فأفضل المياه مياه العيون، و لا كل العيون و لكن مياه العيون الحرّة الأرض التى لا يغلب على تربتها شىء من الأحوال و الكيفيات الغريبة أو تكون حجرية فتكون أولى بأن لا تعفن عفونة الأرضية لكن التى هى من طينة حرّة خير من الحجرية، و لا كل عين حرّة، بل التى هى مع ذلك جارية، و لا كل جارية بل الجارية المكشوفة للشمس، و الرياح و إنّ هذا مما يكسب الجارية فضيلة. و أما الراكدة فربما اكتسب بالكشف رداءة لا تكسبها بالغور و الستر.

و اعلم أنّ المياه التى تكون طيبة المسيل خير من التى تجرى على الأحجار، فإنّ الطين ينقى الماء و يأخذ منه الممزوجات الغريبة و يروّقه، و الحجارة لا تفعل ذلك. لكنه يجب أن يكون طين مسيله حرّا لا حمأة، و لا سبخة، و لا غير ذلك. فإن اتفق أن كان هذا الماء غمرا شديد الجرية يحيل بكثرة ما يخالطه إلى طبيعته. فإن كان يأخذ إلى الشمس فى جريانه فيجرى إلى المشرق، و خصوصا إلى الصيفىّ منه، فهو أفضل لا سيّما إذا بعد جدّا من ميدانه، ثم ما يتوجه إلى الشمال و المتوجه إلى المغرب و الجنوب ردىء خصوصا عند هبوب ريح الجنوب، و الذى ينحدر من مواضع عالية مع سائر الفضل أفضل، و ما كان بهذه الصفة كان عذبا يخيل، إنه حلو و لا يحتمل الخمر إذا مزج به منه إلا قليلا، و كان خفيف الوزن سريع البرد، و التسخين لتخلخله باردا فى الشتاء حارا فى الصيف لا يغلب عليه طعم البتة، و لا رائحة و يكون سريع الانحدار من الشراسيف سريعا لهرى ما يهرى فيه و طبخ ما يطبخ فيه.

قال الرئيس علاء الدين علىّ بن أبى الحرم بن نفيس فى شرح القانون: هذه المحامد التى ذكرها ليست علامات للحمد بل هى من الأشياء الموجبة لكونه محمودا و أحد هذه الأربعة بعد منبعه، و قد بينا أنّ ذلك يوجب لطافة الماء بسبب كثرة حركته، و اعلم أن منبع النيل من جبل يقال له جبل القمر، و هذا الجبل وراء خط الاستواء بإحدى عشرة درجة و ثلاثين دقيقة، فماؤه أعظم دائرة فى الأرض

بثلاثمائة درجة و ستين، و ابتداء هذا الجبل من السادسة و الأربعين درجة و ثلاثين دقيقة من أوّل العمارة من جهة المغرب، و آخره عند آخر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١١٧

إحدى و ستين درجة و خمسين دقيقة، فيكون امتداد هذا الجبل مقدار خمس عشرة درجة و عشرين دقيقة، مما به أعظم دائرة فى الأرض ثلثمائة و ستون درجة، و يخرج من هذا الجبل عشرة أنهار من أعين فيه ترمى كل خمسة منها إلى بحيرة عظيمة مدوّرة، و إحدى هاتين البحيرتين مركزها حيث البعد من ابتداء العمارة بالمغرب خمسون درجة، و البعد من خط الاستواء فى الجنوب سبع درج و إحدى و ثلاثون دقيقة، و مركز الثانية حيث البعد عن أوّل العمارة بالمغرب سبع و خمسون درجة، و حيث البعد من خط الاستواء فى الجنوب سبع درج و إحدى و ثلاثون دقيقة، و هاتان البحيرتان متساويتان و قطر كل واحدة منهما مقدار خمس درج، و يخرج من كل واحدة من البحيرتين أربعة أنهار ترمى إلى بحيرة صغيرة مدوّرة فى الإقليم الأوّل بعد مركزها عن أوّل العمارة بالمغرب ثلاث و خمسون درجة و ثلاثون دقيقة، و عن خط الاستواء من الشمال درجتان من الإقليم الأوّل، و مقدار قطرها درجتان و يصب كل واحد من الأنهار الثمانية فى بحيرة و فى هذه البحيرة نهر واحد و هو: نيل مصر، و يمرّ ببلاد النوبة نهر آخر ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء كبيرة مستديرة مقدار قطرها ثلاث درج و بعد مركزها من أوّل العمارة بالمغرب: ثلاث و أربعون درجة، و يلقى نهر هذه العين لنهر النيل حيث البعد من أوّل العمارة بالمغرب ثلاث و أربعون دقيقة، و إذا تعدّى النيل مدينة مصر إلى بلد يقال له: شطنوف يفرق هناك إلى نهرين يرميان إلى البحر المالح أحدهما يعرف ببحر رشيد، و منه يكون خليج الإسكندرية، و ثانيهما يعرف ببحر دمياط، و هذا البحر إذا وصل إلى المنصورة تفرّع منه نهر يعرف ببحر أشمون يرمى إلى بحيرة هناك. و باقية يرمى إلى البحر المالح عند دمياط، و زيادة النيل هى من أمطار كثيرة ببلاد الحبشة، و اللّه أعلم.

و اعلم أن الوزن من الدستورات المنتخبة من حال الماء فإنّ الأخف فى أكثر الأحوال أفضل فهذا ما ذكره الرئيس ابن سيناء من صفات المياه الفاضلة، و اعتبر ما قاله تجد ذلك قد اجتمع فى ماء النيل.

فأوّله أن ماء النيل عين تمرّ على أراضى حرّة، و لا يغلب على تربه ما يمرّ به شىء من الأحوال و الكيفيات الرديئة كمعادن النفط، و الشب و الأملاح و الكباريت، و نحوها بل يمرّ على الأراضى التى تنبت الذهب بدليل ما يظهر فى الشطوط من قراضات الذهب، و قد عانى جماعة تصويل الذهب من الرمل المأخوذ من شطوط النيل فربحوا منه مالا و فضيلة كون الذهب فى المال لا تنكر.

الثانى: أن النيل فى جريانه أبدا مكشوف للشمس و الرياح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١١٨

الثالث: أنّ طينه من طين مسيل مياه مجتمعة من أمطار تمرّ على أراضى حرّة، و يظهر لك ذلك من عطرية روائح الطين إذا نديته بماء.

الرابع: غمورة ماء النيل، و شدّة جريته التى تكاد تقصف العمد إذا اعترضتها، و تدفع الأثقال العظيمة إذا عارضتها.

الخامس: بعد مبدأ خروجه من مصبه فى البحر المالح، و قد تقدّم من طول مسافته ما لا نجده فى نهر غيره من أنهار المعمور.

السادس: انحداره من علوّ فإن الجنوب مرتفع عن الشمال لا سيما إذا صار إلى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع إلى وادى مصر.

و ذكر ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث من حديث جرير بن عبد اللّه البجلىّ حين سأله رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عن منزله ببلنسة فذكره إلى أن قال: و ماؤنا يمتنع أن يجرى من علوّ، فقال النبىّ صلى اللّه عليه و سلم: «خير الماء السنم» أى ما كان ظاهرا على وجه الأرض و السنم: الماء على وجه الأرض، و كل شىء علا شيئا فقد تسنمه مأخوذ من سنام البعير لعلوّه.

و قال بعض المفسرين فى قوله تعالى: وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [المطففين/ ٢٧] أى يمزج بما ينزل من علوّ.

السابع: أنه يمرّ من الجنوب إلى الشمال فتستقبله ريح الشمال الطيبة دائما.

الثامن: من خفته فى الوزن، و قد اعتبر ذلك غير مرّة مع غيره من المياه فخف عنها فى الوزن.

التاسع: عذوبة طعمه و حسن أثره فى هضم الغذاء و أحداره عن المعدة بحيث إنه يحدث بعد شربه جشاء، و هذه صفات إن كنت ممن مارس العلم الطبيعىّ، و عرف الطب فإنه يعظم عندك قدر ماء النيل، و تبين لك غزارة نفعه و كثرة محاسنه.

و يقال: إنّ ذا القرنين كتب كتابا فيه ما شاهده من عجائب الدنيا فضمنه كل أعجوبة، ثم قال فى آخره: و ليس ذلك بعجب بل العجب نيل مصر، و قال بعض الحكماء: لو لا ما جعل اللّه فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رىّ البلاد، و هبوط الماء عنها عند بدء الزراعة لفسد إقليم مصر، و تعذر سكناه لأنه ليس فيه أمطار كافية، و لا عيون جارية تعم أرضه إلا بعض إقليم الفيوم، و للّه در القائل:

واها لهذا النيل أىّ عجيبةبكر بمثل حديثها لا يسمع

يلقى الثرى فى العام و هو مسلمحتى إذا ما ملّ عاد يودّع

مستقبل مثل الهلال فدهرهأبدا يزيد كما يريد و يرجع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۱۹

و قال آخر:

كأنّ النيل ذو فهم و لبلما يبدو لعين الناس منه

فيأتى حين حاجتهم إليهو يمضى حين يستغنون عنه

و قال تميم بن المعتمر:

يوم لنا بالنيل مختصرو لكل يوم مسرّة قصر

و السفن تجرى كالخيول بناصعدا و جيش الماء منحدر

و كأنما أمواجه عكنو كأنما داراته سرر

و قال أيضا:

أما ترى الرعد بكى و اشتكىو البرق قد أومض و استضحكا

فاشرب على غيم بصنع الدجىيضحك وجه الأرض لما بكى

و انظر لماء النيل فى مدّهكأنما صندل أو مصطكا

و قال آخر:

و اللّه مجرى النيل منه إذا الصباأرينا به من برها عسكرا بحرا

بشط بنهر السمهرية دبلاو موج بنهر البيض هندية بترا

إذا مرّ حاكى الورد غضا و إن صفاحكى ماءه لونا و لو بعده مرّا

و قال أبو الحسن محمد بن الوزير فى تدريج زيادة النيل و عظم منفعته:

أرى أبدا كثيرا من قليلو بدرا فى الحقيقة من هلال

فلا تعجب فكل خليج ماءبمصر مسبب بخليج مال

زيادة أصبع فى كل يومزيادة أذرع فى حسن حال

و قال الشهاب أحمد بن فضل اللّه العمرى:

بمصر فضل باهرلعيشها الرغد النضر

فى سفح روض يلتقىماء الحياة و الخضر

و قال ابن قلاقس:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةو انظر لما بعدها من حمرة الشفق

غابت و ألقت شعاعا منه يخلفهاكأنما احترقت بالماء فى الغرق

و للهلال فها وافى لينفدهافى إثرها زورق قد صيغ من ورق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢٠

و قال بشر الملك ابن المنجم:

يا رب سامية فى الجو قمت بهاأمدّ طرفى فى أرض من الأفق

حيث العشية فى التمثيل معتركإذا رآها جبان مات للفرق

للشمس غاربة للغرب ذاهبةبالنيل مصفرّة من هجمة الغسق

و للهلال انعطاف كالسنان بدامن سورة الطعن ملقى فى دم الشفق

و قال القاضى الفاضل رحمه اللّه تعالى عليه: و أما النيل، فقد ملأ البقاع، و انتقل من الأصبع إلى الذراع، فكأنما غار على الأرض، فغطاها و أغار عليها فاستقعدها، و ما تخطاها فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه، و لا مرغوب مرهوب إلا إياه.

و نيل مصر: مخالف فى جريه لغالب الأنهار، فإنه يجرى من الجنوب إلى الشمال و غيره، ليس كذلك إلا نهران فإنهما يجريان كما يجرى النيل، و هما نهر مكران بالسند و نهر الأريط ، و هو الذى يعرف اليوم بنهر العاصى فى حماه إحدى مدائن الشام. و قد عاب ماء النيل قوم.

قال أبو بكر ابن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية: و أما ماء النيل فمخرجه من جبال وراء بلاد السودان يقال لها جبال القمر، و حلاوته و زيادته يدلان على موقعه من الشمس أنها أحرقته لا كل الإحراق، بل أسخنته إسخانا طويلا لينا لا تزعجه الحرارة، و لا تقوى عليه بحيث تبدّد أجزاءه الرطبة و تبقى أجزاءه الراسخة، بل يعتدل عليه فصار ماؤه لذلك حلوا جدّا، و صار كثرة شربه يعفن البدن، و يحدث البثور، و الدماميل و القروح، و صار أهل مصر- الشاربون منه- دمويين محتاجين إلى استفراغ الدم عن أبدانهم فى كل مدّة قصيرة، فمن كان عالما منهم بالطبيعة، فهو يحسن مداواة نفسه حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل، و إلا فهو يقع فيما ذكرنا من العفونات و انتشار البثر و الدماميل.

و ذلك أن هذا الماء ناقص البرد عن سائر المياه قد صير له الطبخ قواما هو أثخن من قوام الماء؛ فصار إذا خالط الطعام فى الأبدان كثر فيها الفضول الردية العفنة، فيحدث من ذلك ما ذكرناه. و دواء أهل مصر الذى يدفع عنهم ضرر ماء النيل، إدمان شرب ربوب الفاكهة الحامضة القابضة، و أخذ الأدوية المستفرغة للفضول و لو زادت حرارة الشمس على ماء النيل، و طال طبخها له لصار مالحا بمنزلة ماء البحار الراكدة التى لا حركة لها إلا وقت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢١

جزر البحر، و هبوب الرياح، و هو أوفق للزروع و المنابت من الحيوان.

و قال ابن رضوان: و النيل يمرّ بأمم كثيرة من السودان، ثم يصير إلى أرض مصر، و قد غسل ما فى بلاد السودان من العفونات، و الأوساخ و يشق مارا بوسط أرض مصر من الجنوب إلى الشمال إلى أن يصب فى بحر الروم. و مبدأ زيادته فى فصل الصيف، و تنتهى زيادته فى فصل الخريف، و يرتقى فى الجوّ منه فى أوقات مدّة رطوبات كثيرة بالتحلل الخفىّ، فيرطب ذلك يبس الصيف، و الخريف، و إذا مدّ النهر فاض على أرض مصر فغسل ما فيها من الأوساخ نحو جيف الحيوانات، و أزبالها و فضول الآجام، و النبات و مياه النقاع، و أحدر جميع ذلك معه، و خالطه من تراب هذه الأرض، و طينها مقدار كثير من أجل سخافتها و باض فيه من السمك الذى تربى فيه و فى مياه النقائع، و من قبل ذلك تراه فى أوّل مدّة يخضر لونه بكثرة ما يخالطه من مياه النقائع العفنة التى قد اجتمع فيها العرمض، و الطحلب و اخضر لونها من عفنها ثم يتعكر حتى يصير آخر أمره مثل الحمأة، و إذا صفا اجتمع منه فى الإناء طين كثير،

و رطوبة لزجة لها سهوكة، و رائحة منكرة. و هذا من أوكد الأشياء فى ظهور رداءة هذا الماء، و عفنه.

و قد بيّن بقراط و جالينوس: أنّ أسرع المياه إلى العفن ما لطفته الشمس بمياه الأمطار و من شأن هذا الماء أن يصل إلى أرض مصر، و هو فى الغاية من اللطافة من شدّة حرارة بلاد السودان، فإذا اختلط به عفونات أرض مصر زاد ذلك فى استحالته، و لذلك يتولد منه من أنواع السمك شيء كثير جدّا. فإنّ فضول الحيوانات و النبات و عفونة هذا الماء، و بيض السمك يصير جميعها موادّا فى تكوّن هذه الأسماك.

كما قال أرسطاطاليس فى كتاب الحيوان: و ذلك شيء ظاهر للحس فإن كل شيء يتعفن يتولد من عفونته الحيوان، و لهذا صار ما يتولد من الدود، و الفأر و الثعابين و العقارب و الزنابير و الذباب، و غيرها بأرض مصر كثيرا، فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة و الرطوبة الفضلية. و إنها ذات أجزاء كثيرة، و إن هواءها و ماءها رديان، و ربما انقطع النيل فى آخر الربيع و أوّل الصيف من جهة الفسطاط. فيعفن بكثرة ما يلقى فيه إلى أن يبلغ عفنه إلى أن يصير له رائحة منكرة محسوسة. و ظاهر أن هذا الماء إذا صار على هذه الحالة غيّر مزاج الناس تغيرا محسوسا، و ينبغى أن يستقى ماء النيل من الموضع الذى فيه جريه أشدّ، و العفونة فيه أقل، و يصفى كل إنسان هذا الماء بحسب ما يوافق مزاجه. أما المحرورون فى أيام الصيف فبالطباشير، و الطين الأرمنىّ، و المغرة و النبق المرضوض، و الزعرور المرضوض، و الخل. و أما المبرودون فى أيام الشتاء فباللوز المرّ، داخل نوى المشمش، و الصعتر و الشب. و ينبغى أن ينظف ما يروّق و يشرب و إن شئت أن تصفيه بأن تجعله فى آنية الخزف، و الفخار و الجلود، و ما يمصل من ذلك بالرشح، و إن شئت طبخته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢٢

بالنار، و جعلته فى هواء الليل حتى يروق، ثم نظفت منه ما يروق و استعملته.

و إذا ظهرت فيه كيفيات رديئات فاطبخه بالنار ثم برّده تحت السماء فى برودة الليل، وصفه بأخلاط الأدوية التى ذكرتها و أجود ما اتخذ هذا الماء أن يصفى مرارا، و ذلك بأن يسخنه أو يطبخه، ثم يبرّده فى هواء الليل، و يقطف ما يروق منه فتصفيه أيضا ببعض الأدوية ثم تأخذ ما يروق فتجعله فى آنية تمصل فى برد الليل، و تأخذ الرشح فتشربه، و اجعل آنية هذا الماء فى الصيف الخزف، و الفخار المعمولين فى طوبة و الظروف الحجرية، و القرب و نحوها مما يبرد. و فى الشتاء الآنية الزجاج و المدهون، و ما يعمل فى الصيف من الفخار، و الخزف و يكون موضعه فى الصيف تحت الأسراب و فى مخاريق ريح الشمال، و فى الشتاء بالمواضع الحارة، و يبرد فى الصيف بأن يخلط معه ماء الورد، و يؤخذ خرقة نظيفة و يشدّ فيها طباشير و بزر رجلة أو خشخاش أبيض أو طين أرمنىّ، أو مغرة و يلقى فيه كيما يأخذ من بردها، و لا يخالطه جسمها، و تغسل ظروفه فى الصيف بالخزف المدقوق و بدقيق الشعير، و الباقلاء و الصندل.

و فى الشتاء بالأشنان و السعد و يبخر بالمصطكى، و العود. و أردأ ما يكون ماء النيل بمصر عند فيضه، و عند وقوف حركته، فعند ذلك ينبغى أن يطبخ و يبالغ فى تصفيته بقلوب نوى المشمش و سائر ما يقطع لزوجته. و أجود ما يكون فى طوبة عند تكامل البرد، و من أجل هذا عرفت المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه حتى صار كثير منهم يخزنه فى القوارير الزجاج و الصينىّ و يشربه السنة كلها، و يزعم أنه لا يتغير و صاروا أيضا لا يصفونه فى هذا الزمان لظنهم أنه على غاية الخلاص، و أما أنت فلا تسكن إلى ذلك وصفه على أى حالة كان فالماء المخزون لا بدّ أن يتغير فهذا ما عندى من ذمّ ماء النيل. و حاصله: أن الماء تتغير كيفيته بما يمرّ عليه، لا أن ذاته ردية، فلا يهولنك ما تسمع، فما الأمر إلا ما قلت لك، و إذا كان الضرر بحسب ما تغير من كيفيته لا من كميته، فقد عرفت ما تعالجه به كى يزول ما يخالطه من الكيفيات الردية، و اللّه الموفق بمنه و كرمه.

ذكر عجائب النيل

و من عجائب النيل فرس البحر. قال عبد اللّه بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب أخبار النوبة: و مسافة ما بين دنقلة إلى أوّل بلد علوة أكثر مما بين دنقلة و أسوان، و فى ذلك من القرى و الضياع و الجزائر، و المواشى و النخل و الشجر و المقل و الزرع و الكرم. أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام.

و فى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام فيها الحيات و الوحوش و السباع، و مفاوز يخاف فيها العطش، و ماء النيل ينعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس، و إلى مغربها مسافة أيام حتى يصير الصعيد كالمنحدر، و هى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢٣

المعدن المعروف بالشتكة و هى بلد معروف بشنقير، و منه يخرج القمرىّ و فرس البحر يكثر فى هذا الموضع.

و حدثنى سيمون صاحب عهد علوة أنه أحصى فى جزيرة سبعين دابة منها، و هى من دواب الشطوط فى خلق الفرس فى غلظ الجاموس قصيرة القوائم لها خف، و هى فى ألوان الخيل بأعراف و آذان صغار كآذان الخيل، و أعناقها كذلك، و أذنابها مثل أذناب الجواميس، و لها خرطوم عريض يظنّ الناظر إليها أنّ عليها مخلاة لها صهيل و أنياب لا يقوم حذاءها تمساح، و تعترض المراكب عند الغضب فتغرّقها و رعيها فى البرّ العشب، و جلدها فيه متانة عظيمة يتخذ منه دبابيس، انتهى.

و هو كفرس البرّ إلا أنه أكبر عرفا و ذنبا و أحسن لونا و حافره مشقوق كحافر البقر، و جثته أكبر من الحمار بقليل، و هو يأكل التمساح أكلا ذريعا، و يقوى عليه قوّة ظاهرة، و ربما خرج من الماء و نزا على فرس البرّ، فيتولد بينهما فرس فى غاية الحسن.

و اتفق أن بعض الناس نزل على طرف النيل و معه حجرة، فخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض، فنزا على الحجرة، فحملت منه، و ولدت مهرا عجيب الصورة، فطمع فى مهر آخر. فجاء بالحجرة و المهر إلى ذلك الموضع، فخرج الفرس من الماء، و شمّ المهر ساعة، ثم وثب إلى الماء، و معه المهر فصار الرجل يتعهد ذلك المكان كثيرا فلم يعد الفرس و لا المهر إليه.

قال المسعودى: و فى نيل مصر و أرضها عجائب كثيرة من الحيوانات، فمن ذلك السمك المعروف بالرعاد و الواحدة نحو الذراع إذا وقعت فى شبكة الصياد ارتعدت يده، و عضده، فيعلم بوقوعها فيبادر إلى أخذها، و إخراجها من شبكته و لو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك. و قد ذكرها جالينوس أنها إن جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة و هى فى الحياة هدأ من ساعته.

قال ابن البيطار عن جالينوس: هو الحيوان البحرى الذى يحدث الخدر، و زعم قوم أنه أدنى من رأس من يشتكى الصداع سكن صداعه، و إن أدنى من مقعدة من انقلبت مقعدته أصلحها، و لكن أنا جربت الأمرين جميعا فلم أجد يفعل و لا واحدا منهما، ففكرت أنى أدنيته من رأس المصدوع و الحيوان ما هو حىّ لأننى ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الأدوية، فوجدته ينفع ما دام حيا. قال ديسقوريدوس: هو سمكة بحرية مخدّرة إذا وضعت على الرأس الذى عرض له الصداع المزمن سكن شدّة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢٤

وجعه، و إذا احتمله ذو المقعدة التى تبرز إلى خارج أصلحها.

و قال يونس: الزيت الذى يطبخ فيه يسكن أوجاع المفاصل الحريفة إذا دهنت به.

قال ابن البيطار: رأيت بساحل مدينة مالقة من بلاد الأندلس سمكة عريضة لون ظاهرها لون رعاد مصر سواء، و باطنها أبيض، و فعلها فى تخدير ماسكها كفعل رعاد مصر، أو أشدّ إلا أنها لا تؤكل البتة. و قال بعضهم: إذا علقت المرأة شيئا من الرعاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها، و كذلك إن علق منها الرجل عليه لم تكد المرأة أن تفارقه.

و السقنقور : هو صنف يتوالد من السمك، و التمساح فلا يشاكل السمك، لأنّ له يدين و رجلين، و لا يشاكل التمساح لأنّ ذنبه أجرد أملس عريض غير مضرّس، و ذنب التمساح سخيف مضرّس، و يتعالج بشحم السقنقور للجماع، و لا يكون بمكان إلا فى النيل، و فى نهر مهران من أرض الهند، و قد بلغنى أنّ أقواما شووها و أكلوا منها فماتوا كلهم فى ساعة واحدة.

و السقنقور قال ابن سيناء: هو ورن يصاد من نيل مصر. يقولون: إنه من نسل التمساح، و أجود ما يصطاد فى الربيع. و قال آخر: إنه فرخ التمساح فإذا خرج من البيض فما قصد الماء صار تمساحا، و ما قصد الرمل صار سقنقورا.

و قال ابن البيطار: هو جنس من الجراد يحفف فى الخريف إذا شرب منه وزن درهمين من الموضع الذى يلى كلاه بشراب أنهض الجماع، و هو شديد الشبه بالورن. يوجد بالرمال التى تلى نيل مصر فى نواحى صعيدها، و هو مما يسعى فى البر، و يدخل فى الماء يعنى النيل، و لهذا قيل له: الورن المائىّ لشبهه به، و لدخوله فى الماء و هو يتولد من ذكر و أنثى، و يوجد للذكر خصيتان كخصيتى الديك فى خلقهما و موضعهما، و إنائة تبيض فوق العشرين بيضة و تدفنها فى الرمل، و للذكر من السقنقور إحليلان، و للأنثى فرجان، و السقنقور يعض الإنسان، و يطلب الماء فإن وجده دخل فيه و إن لم يجده بال، و تمرّغ فى بوله، و إذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته و سلم السقنقور، فإن اتفق أن سبق المعضوض إلى الماء فدخله قبل دخول السقنقور الماء و تمرّغه فى بوله مات السقنقور لوقته و سلم المعضوض. و الأفضل الذكر منه و الأبلغ فى نفع الباه بل هو المخصوص بذلك دون الأنثى. و المختار من أعضائه ما يلى أصل ذنبه و محاذى سرته. و الوقت الذى يصاد فيه: الربيع فإنه يكون فيه هائجا للسفاد، فيكون فى هذا الوقت أبلغ نفعا فإذا أخذ ذكى فى يوم صيده فإنه إن ترك حيا زال شحمه، و هزل لحمه، و ضعف فعله، ثم يقطع رأسه و طرف ذنبه من غير استئصال و يشق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢٥

جوفه طولا و يلقى ما فيه إلا كلاه، و كيسه فإذا نظف حشى ملحا و خيط الشق، و علق منكوسا فى ظل معتدل الهواء حتى يجف و يؤمن فساده، ثم يرفع فى إناء متخرق للهواء كالسلال المضفورة من قضبان شجر الصفصاف، و الخوص و نحوه إلى وقت الحاجة. و لحمه طريا حار رطب و المجفف أشدّ حرارة، و أقل رطوبة و لا يوافق استعماله من مزاجه حار يابس.

و إنما يوافق ذوى الأمزجة الباردة الرطبة، و خاصة لحمه و شحمه. إنهاض شهوة الجماع، و يهيج الشبق و يقوّى الانعاظ، و ينفع أمراض العصب الباردة و خاصة ما يلى سرته، و يحاذى ذنبه و ينفع مفردا و مركبا، و استعماله مفردا أبلغ و المقدار منه بعد تجفيفه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل بحسب السنّ، و المزاج و البلد و الوقت الحاضر يسحق و يذاب بشراب أو ماء العسل، أو نقيع الزبيب أو يذرّ على صفرة بيض الدجاج النيمرشت و يتحسى، و كذلك يفعل بلحمه، إذا أخذ منه من درهم إلى درهمين، و ذرّ على صفرة البيض بمفرده أو مع مثله بزر جرجير مسحوق، و لا يوجد السقنقور إلا فى بلاد الفيوم خاصة و أكثر صيده فى الأربعينات إذا اشتدّ البرد، و خرج من الماء إلى البرّ فحينئذ يصاد.

و قال المسعودىّ: و الفرس الذى يكون فى نيل مصر إذا خرج من الماء و انتهى و طؤه إلى بعض المواضع من الأرض، علم أهل مصر أنّ النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه، و لا مقصر عنه لا يتخلف ذلك عندهم لطول العادات، و التجارب. و فى ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرض و الغلات لرعيه الزرع، و ذلك أنه يظهر من الماء فى الليل، فينتهى إلى موضع من الزرع ثم يولى عائدا إلى الماء، فيرعى فى حال رجوعه من الموضع الذى انتهى إليه مسيره، و لا يرعى من ذلك الذى قد رعاه شيئا فى ممرّه، و إذا رعى ورد الماء و شرب ثم قذف ما فى جوفه فى مواضع شتى فينبت ذلك مرّة ثانية، و إذا كثر ذلك من فعله و اتصل ضرره بأرباب الضياع طرحوا له من الترمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكى كثيرة مبدرا مبسوطا فيأكله ثم يعود إلى الماء، فإذا شرب منه ربا الترمس فى جوفه و انتفخ، فينشق جوفه منه، و يموت و يطفو على الماء، و يقذف به إلى الساحل و الموضع الذى يرى فيه لا يرى به تمساح، و هو على صورة الفرس إلا أنّ حوافره و ذنبه بخلاف ذلك، و جبهته واسعة.

و قال المسبحى: إنّ الصنف المعروف بالبلطى من أصناف السمك أوّل ما عرف بنيل مصر فى أيام الخليفة- العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه- و لم يكن يعرف قبله فى النيل، و ظهر فى أيامه أيضا سمك يعرف باللبيس، و إنما سمى باللبيس لأنه يشبه البورى الذى بالبحر الملح، فالتبس به و غالب الظنّ أنها من أسماك البحر الملح دخلت فى الحلو.

و من حيوان البحر: التمساح. قال ابن البيطار: التمساح حيوان معروف يكون فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢٦

الأنهار الكبار. و في النيل كثيرا و يوجد في نهر مهران، و قد يوجد في بلاد السودان، و هو الورن النيليّ.

و قال ابن زهران: كل حيوان يحرّك فكه الأسفل إذا أكل ما خلا التمساح فإنه يحرّك فكه الأعلى دون الأسفل و شحم التمساح إذا عجن بالسمن، و جعل فيه فتيلة و أسرج في نهر أو أجمة لم ينعق ضفادعها، ما دامت تقد، و إن طيف بجلد تمساح حول قرية، ثم علق على سطح دهليز لم يقع البرد في تلك القرية، و إذا عض التمساح إنسانا فوضع على العضة شحم التمساح برأ من ساعته، و إن لطخ بشحمه جبهة كبش نطاح نفر كل كبش يناطحه، و هرب منه. و مرارته يكتحل بها للبياض في العين فيذهبه، و كبده ينجر بها المجنون فيبرأ، و زبل التمساح يزيل البياض من العين الحديث و القديم، و إن قلعت عيناه و هو حيّ و علقت على من به جذام أوقفه، و لم يزد عليه شيء، و إن علق شيء من التي بجانب الأيمن رجل زاد في جماعه، و عينه اليمنى لمن يشتكي عينه اليمنى، و عينه اليسرى لمن يشتكي عينه اليسرى، و شحمه إذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب و الكليتين و زاد في الباه، و إذا أخذ دم التمساح و خلط به هليلج و أملج و طلي به على الوضح أذهبه، و غيّر لونه، و إذا طلي به على الجبهة و الصدغين نفع من وجع الشقيقة، و إذا أكل لحمه اسفيد باجا سمن البدن النحيف، و شحمه إذا قطر بعد أن يذاب في الأذن الوجعة نفعها، و إن أدمن تقطيره في الأذن نفع من الصمم، و إذا دهن به صاحب حمى الربع سكنت عنه، و لحمه رديء الكيموس.

و قال المسعودي: و كذلك التمساح آفته من دويبة تكون في سواحل النيل و جزائره، و هو أنّ التمساح لا دبر له و ما يأكله يتكوّن في بطنه دودا، فإذا أذاه ذلك خرج إلى البرّ فاستلقى على قفاه فاغرا فاه فينقض إليه طير الماء، و قد اعتاد ذلك منه، فيأكل ما يظهر من جوفه من ذلك الدود العظيم و تكون تلك الدويبة قد كمنت في الرمل فتثب إلى حلقه و تصير إلى جوفه و تخرج فيخبط بنفسه إلى الأرض و يطلب قعر النيل حتى تأتي الدويبة على حشو جوفه، ثم تخرج جوفه و تخرج. و ربما قتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته، و هذه الدويبة تكون نحو الذراع على صورة ابن عرس ذات قوائم شتى و مخالب. و يقال: إن بجبال فسطاط مصر طلسم معمول بها، و كان التمساح لا يستطيع القرب حوله بل كان إذا بلغ حددوده انقلب، و استلقى على ظهره فيعبث به الصبيان إلى أن يجاوز نهاية المدينة، ثم يعود مستويا و يعود إلى طباعه، ثم إن هذا الطلسم كسر فبطل فعله، و يقال: إن التمساح يبيض كبيض الأوز، و ربما تولد فيه جرادين صغار ثم تكبر حتى يبلغ طولها عشرة أذرع، و تزداد طولا كلما عمرت، و التمساح يرتعش ستين مرّة في حركة واحدة و محل واحد، و سنه اليسرى نافعة للنافض.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٢٧

ذكر طرف من تقدمة المعرفة بحال النيل في كل سنة

قال ابن رضوان في شرح الأربع: و قد يحتاج أمر النيل إلى شروط. منها: أن تكون الأمطار متوالية في نواحي الجنوب قبل مدّه، و في وقت مدّه، و لذلك وجب أن يكون النيل متى كانت الزهرة و عطارد مقترنين في مدخل الصيف، كثير الزيادة لرطوبة الهواء، و متى كان المريخ، أو بعض المنازل في ناحية الجنوب في مدخل الربيع أو الصيف كان قليلا لقلة الأمطار في تلك الناحية، و منها: أن تكون الرياح شمالية لتوقف جريه.

فأما الجنوبية: فإنها تسرع انحداره و لا تدعه يلبث فإذا علمت ما يكون في ناحية الجنوب من كثرة الأمطار أو قلتها و في ناحية مصر من هبوب مصر في فصلي الربيع و الصيف، فقد علمت حال النيل كيف يكون، و تعلم من حاله ما يعرض بمصر من الخصب و الجدب.

و قال أبو سامر بن يونس المنجم عن بطليموس: إذا أردت أن تعلم مقدار النيل في الزيادة و النقصان، فانظر حين تحل الشمس برج السرطان إلى الزهرة، و عطارد، و القمر، فإن كانت أحوالها جيدة و هي بريئة من النحوس، فالنيل يمتدّ و تبلغ الحاجة به و إن كانت أحوالها بخلاف ذلك و هي ضعيفة فانكس القول فإن ضعف بعضها و صلح البعض توسط الحال في النيل، و الضابط أن قوّة الثلاثة

تدل على تمام النيل، و ضعفها على توسطه، و انتحاسها أو احتراقها أو وقوعها فى بعدها الأبعد من الأرض على النقص، و إنه قليل جدّا إلا أن احتراق الزهرة فى برج الأسد يستنزل الماء من الجنوب.

و قال أبو معشر : ينظر عند انتقال الشمس إلى برج السرطان للزهرة و عطارد و القمر، فإن كانت فى سيرها الأكبر فإن زيادة النيل عظيمة، و إن كانت فى سيرها الأوسط فاعرف كم أكثر مسيرها، و كم أقله و أنسبه بحسب ما تراه، و إن كانت بطيئة السير فزيادة النيل قليلة، و إن اختلف مسير هذه الثلاثة فكان بعضها فى مسيره الأكبر، و بعضها بطىء السير، فغلب أقواها و أمزج الدلالة و قل بحسب ذلك.

و قالت القبط: ينظر أوّل يوم من شهر برمودة ما الذى يوافقه من أيام الشهر العربىّ، فما كان من الأيام فزد عليه خمسة و ثمانين، فما بلغ خذ سدسه فإنه يكون عدد مبلغ النيل من الأذرع فى تلك السنة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۲۸

قالوا: و من المعتبر أيضا فى أمر النيل أن تنظر اليوم الذى تفطر فيه النصارى اليعاقبة بمصر و ما بقى من الشهر العربىّ فزد عليها أربعا و ثلاثين، فما بلغ أسقطه اثنى عشر فإن بقى بعد ذلك الإسقاط من العدد زيادة على اثنى عشر، فهو زيادة النيل من الأذرع فى تلك السنة، مع الاثنى عشر و إن بقى اثنى عشر فهى سنة رديئة. قالوا: و إذا كان العاشر من الشهر العربىّ موافقا لشهر أبيب ، و القمر فى برج العقرب، فإن كان مقارنا لقلب العقرب كان النيل مقصرا و إلا فهو جيد. قالوا: و ينظر أوّل يوم من بؤنة فإن هبت الريح شمالا فى بكرة النهار كان النيل عاليا، و إن هبت وسط النهار فإنه متوسط، و إن هبت آخر النهار كان نيلا قاصرا، و إن لم تهب لم يطلع تلك السنة. و قيل: يعتبر هكذا أول خميس من بؤنة.

و من المعتبر الذى جرّبته أنا سنين، و أخبرنى بعض شيوخنا: أنه جرّبه و أخبره به من جرّبه فصح أن ينظر أوّل يوم من مسرى كم مبلغ النيل، فزد عليه ثمانية أذرع، فما بلغ فهو زيادة النيل فى تلك السنة، و مما اشتهر عند أهل مصر و جربته أيضا، فصح أن يؤخذ قبل عيد ميكائيل بيوم فى وقت الظهر من الطين الذى مرّ عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهما سواء، و ترفع فى إناء مغطى إلى بكرة يوم عيد ميكائيل و توزن فما زاد على وزنها من الخراريب كان مبلغ النيل فى تلك السنة بقدر عدد تلك الخراريب لكل خرّوبة ذراع، و من ذلك أخذ شىء من دقيق القمح، و عجنه بماء النيل فى إناء فخار، و قد عمل من طين مرّ عليه النيل، و تركه مغطى طول ليلة عيد ميكائيل، فإذا وجد بكرة يوم العيد قد اختمر بنفسه، كان النيل تامّا وافيا، و إن وجده لم يختمر دل على قصور هذا النيل، ثم ينظرون مع ذلك بكرة يوم عيد ميكائيل إلى الهواء، فإن هبت طيابا فهو نيل كبير، و إن هبت غير طياب فهو نيل مقصر، لا سيما إن هبت مريسيا فإنه يكون نيلا غير كاف، و الشأن عندهم إنما هو فى دلالة العلامات الثلاث على شىء واحد، فأما إذا اختلف فالحكم لا يكاد يصح.

و قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، و ذكر أصحاب التجارب: أنه إذا تقدّم فعمد إلى لوح و زرع عليه من كل زرع و نبات حتى إذا كانت الليلة الخامسة و العشرون من شهر تموز أحد شهور الروم و هى آخر أيام الباحور، ثم وضع اللوح بارزا لطلوع الكواكب، و غروبها لا- يحول بينه و بين السماء شىء، فإن كل ما لا يزكو فى تلك السنة من الزروع يصبح أصفر، و ما يصلح ريعه منها يبقى أخضر، و كذلك كانت القبط تفعل ذلك و قد جرّبت أنا على ما أفادنيه بعض الكتاب أنه إذا حصل مطر و لو قل فى شهر بابة ينظر ما ذلك اليوم من الشهر القبطىّ فإنه يبلغ سعر الويبة القمح تلك السنة من الدراهم بعدد ما مضى من أيام شهر بابة. و أوّل ما جرّبت هذا أنه وقع مطر فى بابة يوم الخميس الخامس عشر منها فبيعت الويبة تلك السنة بخمسة عشر درهما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۲۹

ذكر عيد الشهيد

و مما كان يعمل بمصر عيد الشهيد، و كان من أنزه فرج مصر، و هو (اليوم الثامن من بشنس) . أحد شهور القبط، و يزعمون أن النيل بمصر لا يزيد فى كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى. و يكون ذلك اليوم عيدا ترحل إليه النصارى من جميع القرى، و يركبون فيه الخيل، و يلعبون عليها، و يخرج عامّة أهل القاهرة، و مصر على اختلاف طبقاتهم، و ينصبون الخيم على شطوط النيل و فى الجزائر، و لا يبقى مغنّ و لا مغنية، و لا صاحب لهو، و لا رب ملعوب، و لا بغيّ و لا مخنث و لا ماجن، و لا خليع و لا فاتك و لا فاسق إلا و يخرج لهذا العيد، فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم.

و تصرف أموال لا تنحصر و يتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى و الفسوق، و تثور فتن و تقتل أناس و يباع من الخمر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهبا و باع نصرانىّ فى يوم واحد بإثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر، و كان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحية شبرى من ضواحى القاهرة، و كان اعتماد فلاحى شبرى دائما فى وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر فى عيد الشهيد.

و لم يزل الحال على ما ذكر من الاجتماع كذلك إلى أن كانت سنة اثنتين و سبعمائة، و السلطان يومئذ بديار مصر: الملك الناصر محمد بن قلاوون، و القائم بتدبير الدولة الأمير:

ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و هو يومئذ أستادار السلطان، و الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر، فقام الأمير بيبرس فى إبطال ذلك قياما عظيما، و كان إليه أمور ديار مصر هو و الأمير سلار و الناصر تحت حجرهما لا يقدر على شبع بطنه إلا من تحت أيديهما، فتقدم أمر الأمير بيبرس أن لا يرمى أصبع فى النيل، و لا يعمل له عيد، و ندب الحجاب و والى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرى على عادتهم، و خرج البريد إلى سائر أعمال مصر، و معهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء و إعلانه فى الأقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى، و لا يحضر لعمل عيد الشهيد، فشق ذلك على أقباط مصر كلهم من أظهر الإسلام منهم، و زعم أنه مسلم، و من هو باق على نصرانيته، و مشى بعضهم إلى بعض و كان منهم رجل يعرف: بالتاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة، و هو يومئذ فى خدمة الأمير بيبرس، و قد احتوى على عقله و استولى على جميع أموره كما هى عادة ملوك مصر، و أمرائها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٣٠

من الأتراك فى الانقياد لكتابهم من القبط سواء منهم من أسرّ الكفر و من جهر به.

و ما زال الأقباط بالتاج إلى أن تحدّث مع مخدومه الأمير بيبرس فى ذلك، و خيل له من تلف مال الخراج إذا بطل هذا العيد. فإن أكثر خراج شبرى إنما يحصل من ذلك، و قال له: متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل أبدا. و يخرب إقليم مصر لعدم طلوع النيل، و نحو ذلك من هتف القول، و تنميق المكر فثبت اللّه الأمير بيبرس، و قوّاه حتى أعرض عن جميع ما زخرفه من القول و استمرّ على منع عمل العيد. و قال للتاج: إن كان النيل لا يطلع إلا بهذا الأصبع فلا يطلع، و إن كان اللّه سبحانه هو المتصرف فيه فنكذب النصارى، فبطل العيد من تلك السنة و لم يزل منقطعا إلى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة.

و عمّر الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر فى بحر النيل ليرمى قوّة التيار عن برّ القاهرة إلى ناحية الجيزة كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، فطاب الأمير يلبغا اليحياوىّ، و الأمير الطنبغا المارديني من السلطان أن يخرجا إلى الصيد و يغيبا مدّة، فلم تطب نفسه بذلك لشدّة غرامه بهما، و تهتكه فى محبتهما، و أراد صرفهما عن السفر، فقال لهما: نحن نعيد عمل عيد الشهيد، فيكون تفرّجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد، و كان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد فرضيا منه بذلك، و أشيع فى الإقليم إعادة عمل عيد الشهيد، فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الأمراء النيل فى الشخاتير بغير حراريق، و اجتمع الناس من كل جهة، و برز أرباب الغناء و أصحاب اللهو و الخلاعة، فركبوا النيل و تجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات، و توسع الأمراء فى تنوّع الأطعمة و الحلاوات، و غيرها توسعا خرجوا فيه عن الحدّ فى الكثرة البالغة، و عمّ الناس منهم ما لا يمكن وصفه لكثرته، و استمرّوا على ذلك ثلاثة أيام، و كانت مدّة انقطاع عمل عيد الشهيد منذ أبطله الأمير بيبرس إلى أن أعاده الملك الناصر، ستا و ثلاثين

سنهٔ، و استمرّ عمله فی كل سنهٔ بعد ذلك إلی أن كانت سنهٔ خمس و خمسين و سبعمائهٔ، تحرّك المسلمون علی النصاری و عملت أوراق بما قد وقف من أراضی مصر علی كنائس النصاری، و دياراتهم. و ألزم كتاب الأمراء بتحرير ذلك و حمل الأوراق إلی ديوان الأحباس، فلما تحرّرت الأوراق اشتملت علی خمسهٔ و عشرين ألف فدّان كلها موقوفهٔ علی الديارات و الكنائس، فعرضت علی أمراء الدولهٔ القائمين بتدبير الدولهٔ فی أيام الملك الصالح: صالح بن محمد بن قلاوون و هم:

الأمير شيخو العمری، و الأمير صرغتمش، و الأمير طاز، فتقرّر الحال علی أن ينعم بذلك علی الأمراء زيادهٔ علی إقطاعاتهم، و ألزم النصاری بما يلزمهم من الصغار، و هدمت لهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٣١

عدّهٔ كنائس كما هو مذكور فی موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الكنائس، فلما كان العشر الأخير من شهر رجب من السنهٔ المذكورهٔ خرج الحاجب و الأمير علاء الدين علیّ بن الكورانیّ والی القاهرهٔ إلی ناحيهٔ شبری الخيام من ضواحی مصر، فهدمت كنيسهٔ النصاری، و أخذ منها أصبع الشهيد فی صندوق و أحضر إلی الملك الصالح، و أحرق بين يديه فی الميدان، و ذری رماده فی البحر حتی لا يأخذه النصاری، فبطل عيد الشهيد من يومئذ إلی هذا العهد، و للّه الحمد و المنهٔ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٣٢

ذكر الخلجان التی شقت من النيل

اشارهٔ

اعلم أن النيل إذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان و ترع، يتخرّق الماء فيها يمينا و شمالا إلی البلاد البعيدهٔ عن مجری النيل، و أكثر الخلجان و الترع و الجسور، و الأخوار بالوجه البحریّ. و أما الوجه القبلیّ: و هو بلاد الصعيد فإن ذلك قليل فيه، و قد ذهبت معالمه و درست رسومه من هنالك.

و المشهور من الخلجان: خليج منجا، و خليج منف، و خليج المنهی، و خليج أشموم طناح، و خليج سردوس، و خليج الإسكندريهٔ، و خليج دمياط، و خليج القاهرهٔ، و بحر أبی المنجا، و الخليج الناصری ظاهر القاهرهٔ.

قال ابن عبد الحكم عن أبی رهم السماعیّ قال: كانت مصر ذات قناطر، و جسور بتقدير و تدبير حتی إن الماء ليجری تحت منازلها و أفنيتها، فيحسبونه كيف شاءوا، و يرسلونه كيف شاءوا، فذلك قوله تعالی، عما حكی عن قول فرعون: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الزخرف/ ٥١]، و لم يكن يومئذ فی الأرض ملك أعظم من ملك مصر، و كانت الجنات بحافتی النيل من أوّله إلی آخره فی الجانبين معا جميعا مما بين أسوان إلی رشيد، و سبع خلج: خليج الإسكندريهٔ، و خليج سخا، و خليج دمياط، و خليج منف، و خليج الفيوم، و خليج المنهی، و خليج سردوس، جنات متصلهٔ لا ينقطع منها شیء عن شیء، و الزرع ما بين الجبلين من أوّل مصر إلی آخرها مما يبلغه الماء.

و كانت جميع أرض مصر كلها تروی من ستهٔ عشر ذراعا لما قدّروا و دبروا من قناطرها و خلجها و جسورها، فذلك قوله تعالی: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ [الدخان/ ٢٦]. قال: و المقام الكريم: المنابر، كان بها ألف منبر.

(خليج سخا) و خليج سخا: حفره ندارس بن صا ابن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح و هو: أحد ملوك القبط القدماء الذين ملكوا مصر فی الدهر الأوّل.

قال ابن وصيف شاه: ندارس الملك أوّل من ملك الأحياز كلها بعد أبيه صا، و صفا له ملك مصر، و كان ندارس محتنكا مجرّبا ذا أيد و قوّهٔ، و معرفهٔ بالأمور، فأظهر العدل، و أقام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٣٣

الهياكل و أهلها قياما حسنا، و دبر جميع الأحياز. و يقال: إنه الذى حفر خليج سخا و ارتفع مال البلد على يده مائة ألف ألف دينار و خمسين ألف ألف دينار، و قصده بعض عمالقة الشام فخرج إليه و استباحه، و دخل فلسطين، و قتل بها خلقا، و سبى بعض حكمائها و أسكنهم مصر، و هابته الملوك و على رأس ثلاثين من ملكه طمع السودان من الزنج و النوبة فى أرضه، و عاثوا و أفسدوا، فجمع الجيوش من أعمال مصر و أعد المراكب، و وجه قائدا يقال له: فلوطس فى ثلثمائة ألف، و قائدا آخر فى مثلها، و وجه فى النيل ثلثمائة سفينة فى كل سفينة كاهن يعمل أعجوبة من العجائب، ثم خرج فى جيوش كثيرة، فلقى جمع السودان، و كانوا فى زهاء ألف ألف فهزمهم، و قتل أكثرهم أبرح قتل، و أسر منهم خلقا و تبعتهم جيوشه حتى وصلوا إلى أرض الفيلة من بلاد الزنج، فأخذوا منها عدّة و من النمور و الوحوش و ساقوها إلى مصر فذللها و عمل على حدود بلده منارا و زبر عليه مسيره، و ظفره الوقت الذى سار فيه، و مات بمصر فدفن فى ناووس نقل إليه شيئا كثيرا من أصنام الكواكب، و من الذهب و الجوهر و الصيغة و التماثيل، و زبر عليه اسمه و تاريخ هلاكه، و جعل له طلسمات تمنع منه و عهد إلى ابنه ماليق بن ندارس.

(خليج سردوس) : حفره هامان. قال ابن وصيف شاه طلما بن قومس الملك:

جلس على سرير الملك، و حاز جميع ما كان فى خزائنهم، و هو الذى تذكر القبط أنه فرعون موسى.

فأما أهل الأثر فيزعمون أنه الوليد بن مصعب، و أنه من العمالقة، و ذكروا أن الفراعنة سبعة، و كان طلما فيما حكى عنه: قصيرا طويل اللحية أشهل العينين صغير العين اليسرى فى جبينه شامة، و كان أعرج. و زعم قوم: أنه من القبط و نسب أهل بيته مشهور عندهم.

و ذكر آخرون: أنه دخل منف على أتان عليها نطرون جاء ليبيعه، و كانوا قد اضطربوا فى تولية الملك فرضوا أن يملكوا عليهم أوّل من يطرأ من الناس، فلما رأوه ملكوه عليهم، و لما جلس فى الملك بذل الأموال، و قرب من أطاعه، و قتل من خالفه فاعتدل أمره، و استخلف هامان، و كان يقرب منه فى نسبه، و أثار بعض الكنوز و صرفها فى بناء المدائن و العمارات و حفر خلجانا كثيرة.

و يقال: إنه الذى حفر خليج سردوس، و كان كلما عرّجه إلى قرية من قرى الحوف حمل إليه أهلها مالا حتى اجتمع من ذلك مال كثير فأمر بردّه على أهله.

و قال ابن عبد الحكم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما: أن فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يسألونه أن يجرى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٣٤

الخليج تحت قريتهم، و يعطونه مالا؛ قال: و كان يذهب به إلى هذه القرية من نحو الشرق، ثم يردّه إلى قرية من نحو دبر القبلة، ثم يردّه إلى قرية فى الغرب ثم يردّه إلى أهل قرية فى القبلة، و يأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار، فأتى بذلك يحمله إلى فرعون فسأله عن ذلك، فأخبره بما فعل فى حفره فقال له فرعون: ويحك إنه ينبغى للسيد أن يعطف على عباده، و يفيض عليهم، و لا يرغب فيما بأيديهم ردّ على أهل كل قرية ما أخذت منهم فردّه كله على أهله. قال: فلا يعلم بمصر خليج أكثر انعطافا منه لما فعل هامان فى حفره كان هامان نبطيا.

(خليج الإسكندرية): قال ابن عبد الحكم: و يقال: إن الذى بنى منارة الإسكندرية (فليطرة الملكة) و هى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية، و لم يكن يدخلها الماء كان يعدل من قرية يقال لها: كسا قبالة الكريون، فحفرته حتى أدخلته الإسكندرية و هى التى بلطت قاعته. و قال الكندى: إن الحارث بن مسكين قاضى مصر حفر خليج الإسكندرية.

و قال الأسعد بن مماتى فى كتاب قوانين الدواوين: خليج الإسكندرية عليه عدّة ترع و طوله من فم الخليج ثلاثون ألف قصبة و ستمائة قصبة، و عرضه من قصبتين و نصف إلى ثلاث قصبات و نصف، و مقام الماء فيه بالنسبة إلى النيل فإن كان مقصر أقصرت مدّة إقامته فيه، و إن كان عاليا أقام فيه ما يزيده على شهرين.

و رأيت جماعة من أهل الخبرة، و ذوى المعرفة يقولون: إنه إذا عملت من قبالة منية نتيج إلى نتيج زلاقة استقرّ الماء فيه صيفا و شتاء، و رأيت البحيرة جميعها و حوف و دمسيس و الكفور الشاسعة، و قد زرعت عليه القصب، و القلقاس و النيلة و أنواع زراعة الصيفىّ و جرى مجرى بحر الشرق و المحلة، و تضاعفت عليه البلاد، و عظم ارتفاعها و إقامة هذه الزلاقة ممكنة لوجود الحجارة فى ربوة و الطوب فى البحيرة، و إنهم قدّروا ما يحتاج إليه فوجدوه يناهز عشرة آلاف دينار.

و يقال: إنه كان الماء فيه جاريا طول السنة، و كان السمك فيه غاية من الكثرة بحيث تصيده الأطفال بالخرق فضمنه بعض الولاة بمال، و منع الناس من صيده، فعدم منه السمك، و لم ير بعد ذلك فيه سمكة فصار يخرج بالشباك.

(خليج الفيوم و المنهى): مما حفره نبىّ اللّه يوسف الصديق عليه السلام عندما عمّر الفيوم كما هو مذكور فى خبر الفيوم من هذا الكتاب، و هو مشتق من النيل لا ينقطع جريه أبدا، و إذا قابل النيل ناحية دورة سريام التى تعرف اليوم بدورة الشريف يعنى ابن يغلن النائب فى الأيام الظاهرية بيبرس تشعبت منه فى غربيه شعبة تسمى المنهى تستقل نهرا يصل إلى الفيوم، و هو الآن عرف: ببحر يوسف، و هو نهر لا ينقطع جريانه فى جميع السنة، فيسقى الفيوم عامّة سقيا دائما، ثم ينجرّ فضل مائه فى بحيرة هناك، و من العجب أنه ينقطع ماؤه من

فوهته، ثم يكون له بلل دون المكان المندى ثم يجرى جريا ضعيفا دون مكان البلل، ثم يستقل نهرا جاريا لا يقطع إلا بالسفن، و يتشعب منه أنهار و ينقسم قسما يعمّ الفيوم و يسقى قراه و مزارعه و بساتينه و عامّة أماكنه، و اللّه أعلم.

(خليج القاهرة): هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربى فيما بينها و بين المقس عرف فى أوّل الإسلام: بخليج أمير المؤمنين، و تسميه العامّة اليوم: بخليج الحاكمى، و بخليج اللؤلؤة، و هو خليج قديم أوّل من حفره طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف، و هو الذى قدم إبراهيم الخليل صلوات اللّه عليه فى أيامه إلى مصر، و أخذ منه امرأته سارة، و أخدمها هاجر أم إسماعيل صلوات اللّه عليهما؛ فلما أخرجها إبراهيم هى و ابنها إسماعيل إلى مكة بعثت إلى طوطيس تعرّفه أنها بمكان جدب و تستغيثه، فأمر بحفر هذا الخليج، و بعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة و غيرها إلى جدّة، فأحيا بلد الحجاز، ثم إن أندرومانوس الذى يعرف: بإيليا أحد ملوك الروم بعد الإسكندر بن فيلبس المقدونى، جدّد حفر هذا الخليج، و سارت فيه السفن، و ذلك قبل الهجرة النبوية بنيف و أربعمائة سنة. ثم إن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، جدد حفره لما فتح مصر و أقام فى حفره ستة أشهر، و جرت فيه السفن بحمل الميرة إلى الحجاز فسمى: خليج أمير المؤمنين، يعنى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فإنه هو الذى أشار بحفره، و لم تزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر إلى مدينة القلزم التى كانت على حافة البحر الشرقى حيث الموضع الذى يعرف اليوم على البحر: بالسويس، و كان يصب ماء النيل فى البحر من عند مدينة القلزم إلى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمسين و مائة، فطم و بقى منه ما هو موجود الآن، و سيأتى الكلام عليه مبسوطا إن شاء اللّه تعالى عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب.

(بحر أبى المنجا) : هذا الخليج تسميه العامّة: بحر أبى المنجا الذى حفره:

الأفضل بن أمير الجيوش فى سنة ست و خمس مائة، و كان على حفره أبو المنجا بن شعيا اليهودى. فعرف به، و قد ذكر خبر هذا الخليج عند ذكر مناظر الخلفاء، و مواضع نزههم من هذا الكتاب.

(الخليج الناصرى): هذا الخليج فى ظاهر المقس، حفره: الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب.

ذكر ما كانت عليه أرض مصر فى الزمن الأوّل

اشارة

قال المسعودیّ: و قد كانت أرض مصر على ما زعم أهل الخبرة و العنایة، بأخبار شأن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بیروت، ج ١، ص: ١٣۶

العالم یركب أرضها ماء النیل، و ینبسط على بلاد الصعید إلى أسفل الأرض و موضع الفسطاط فی وقتنا هذا، و كان بدء ذلك من موضع یعرف: بالجنادل بین أسوان و النوبة إلى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء، و جریانه و ما یتصل من النوبة بتیاره من موضع إلى موضع، فنضب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر، و سكن الناس بلاد مصر، و لم یزل الماء ینضب عن أرضها قلیلا قلیلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن و العمائر، و طرّقوا للماء، و حفروا له الخلجان، و عقدوا فی وجهه المسببات إلى أن خفی ذلك على ساكنیها لأنّ طول الزمان ذهب بمعرفة أوّل سكناهم كیف كان انتهى.

قلت: و مما ذكر أرسطاطالیس فی كتاب الآثار العلویة: أن أرض مصر كان النیل ینبسط علیها، فیطبقها كأنها بحر، و لم یزل الماء ینضب عنها، و ییبس ما علا- منها أوّلا فأوّلا، و یسكن إلى أن امتلأت بالمدن و القرى و الناس. و یقال: إن الناس كانوا قبل سكنى مدینة منف یسكنون بسفح الجبل المقطم فی منازل كثیرة نقروها، و هی المغایر التی فی الجبل المقابل لمنف من قبلیّ المقطم فی الجبل المتصل بدیر القصیر الذی یعرف: بدیر البغل المطل على ناحیة طری، و من وقف عند أهرام نهیار، أی المغائر فی الشرقی، و بینهما النیل، و من صعد من طرا إلى الجبل و سار فیه دخلها و هی: مغایر متسعة، و فیها مغائر تنفذ إلى القلزم تسع المغارة منها أهل مدینة، و إذا دخلها أحد، و لم یهتد على ما یدله على المخرج هلك فی تحیره، و یقال: كانت مصر جرداء لا نبات بها فأقطعها متوشلح بن أخنوخ بن یازد بن مهلاییل بن فتیان بن أنوس بن شیث بن آدم لطائفة من أولاده، فلما نزلوها وجدوا نیلها قد سدّ ما بین الجبلین فنضب الماء عن أرض زروعها، فأخرجت الأرض بركاتها، ثم بعد زمان أخذها عنقام الأوّل بن عریاب بن آدم بالغلبة، و نسل بها خلقا عظیما، و جهز لقتال أولاد یزد سبعین ألف مقاتل، و حفر من البحر إلى الجبل نهرا عرضه أربعون قصبة لیمنع من یأتیه، فأتاه بنو یزد، فلم یجدوا إلیه سبیلا ففزعوا إلى اللّه تعالى فبعث على أرض مصر نارا.

ذكر أعمال الدیار المصریة و كورها

اعلم أن أرض مصر كانت فی الزمن الأوّل الغابر مائة و ثلاثا و خمسین كورة ، فی كل كورة مدینة و ثلثمائة و خمس و ستون كورة، فلما عمرت أرض مصر بعد بخت نصر، صارت على خمس و ثمانین كورة، ثم تناقصت حتى جاء الإسلام، و فیها أربعون عامرة بجمیع قراها لا تنقص شیئا، ثم استقرّت أرض مصرها كلها فی الجملة على قسمین: الوجه القبلی: و هو ما كان فی جهة الجنوب من مدینة مصر؛ و الوجه البحری: و هو ما كان فی شمال مدینة مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بیروت، ج ١، ص: ١٣٧

و قد قسمت الأرض جمیعها قبلیها و بحریها على ستة و عشرین عملا و هی: الشرقیة، و المرتاحیة، و الدقهلیة، و الإیوانیة، و ثغر دمیاط. الوجه البحری: جزیرة قویسنا، و الغربیة، و السمنودیة، و الدنجاویة، و المنوفیة، و الستراویة، و فوّه، و المزاحمتین، و جزیرة بنی نصر، و البحیرة، و إسكندریة و ضواحیها، و حوف دمسیس.

و

الوجه القبلی: الجیزة، و الأطفیحیة، و البوصیریة، و الفیومیة، و البهنساویة، و الأشمونین، و المنفلوطیة، و الأسیوطیة، و الإخمیمیة، و القوصیة. و هی أیضا ثلاثون كورة، و هی: كورة الفیوم، و فیها مائة و ست و خمسون قریة، و یقال: إنها كانت ثلثمائة و ستین قریة، و كورة منف و وسیم خمس و خمسون قریة، و كورة الشرقیة و تعرف بالأطفیحیة سبع عشرة قریة، و قرى أهناس و منه: قمن ثمانی قرى، و كور تادلاص، و بوصیر ست قرى، و كورة أهناس خمس و تسعون قریة، سوى الكفور، و كورة البهنسا مائة و عشرون قریة، و

كورة الفشن سبع و ثلاثون قرية، و كورة طحا سبع و ثلاثون قرية، و حوز سنودة ثمان قرى، و كورة الأشمونين مائة و ثلاث و ثلاثون قرية، و كورة أسفل انصنا إحدى عشرة قرية، و كورة سيوط سبع و ثلاثون قرية، و كورة شطب ثمان قرى، و كورة أعلا أنصنا ثنتا عشرة قرية، و كورة قهقوه سبع و ثلاثون قرية، و كورة أخميم و الدوير ثلاث و ستون قرية، و كورة السبابة و الواحات ثلاث و ستون قرية سوى الكفور، و كورة هو عشرون قرية، و كورة فاو ثمان قرى، و كورة قنا سبع قرى، و كورة دندرة عشر قرى، و كورة قفط ثنتان و عشرون قرية، و كورة الأقصر خمس قرى، و كورة أسنا خمس قرى، و كورة أرمنت سبع قرى، و كورة أسوان سبع قرى، فجميع قرى الصعيد ألف و ثلاثون و أربعون قرية سوى المنى، و الكفور فى ثلاثين كورة.

كورة أسفل الأرض: الحوف الشرقىّ خمس و ستون قرية، كورة أتريب مائة و ثمان قرى سوى المنى و الكفور، كورة بنو سبع و ثمانون قرية سوى المنى و الكفور، كورة نما مائة و خمسون قرية سوى المنى و الكفور، كورة بسطة تسع و ثلاثون قرية، كورة طرابية ثمان و عشرون قرية منها: السدير و الهامة و فاقوس، كورة هربيط ثمان عشرة قرية سوى المنى و الكفور، كورة صا و إبليل ست و أربعون قرية منها: سنهور و الفرما و العريش.

فجميع قرى الحوف الشرقى خمسمائة و تسع و عشرون قرية سوى المنى فى سبع كور.

بطن الريف كورتادمسيس، و منوف مائة و أربع قرى سوى المنى و الكفور. كورة تاطورة منوف اثنتان و سبعون قرية سوى المنى و الكفور، كورة سخا مائة و خمس عشرة قرية، كورة بيدة و الأفراحون ثلاث و عشرون قريّة سوى المنى و الكفور، كورة البشرود اربع و عشرون قرية، كورة نفر اثنتا عشرة قرية سوى المنى، كورة بنا و بوصير ثمان و ثمانون قرية سوى المنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٣٨

و الكفور، كورة سمنود مائة و ثمان و عشرون قرية سوى المنى و الكفور، كورة نوسا إحدى و عشرون قرية سوى المنى، كورة الأوسية أربعون قرية سوى المنى، كورة النجوم أربعون قرية سوى المنى، تنيس و دمياط ثلاث عشرة قرية سوى المنى، و هى شيء كثير.

الإسكندرية، الحوف الغربى: كورة صا ثلاث و سبعون قرية سوى المنى و الكفور، كورة شباس اثنان و عشرون قرية سوى المنى و الكفور، كورة اليدقون ثلاث و أربعون قرية سوى المنى و الكفور، حيز اليدقون تسع و عشرون قرية سوى المنى و الكفور، الشراك تسع قرى، كورة ترنوط ثمان قرى، كورة خربتا اثنا و ستون قرية سوى المنى و الكفور، كورة قرطسا اثنان و عشرون قرية سوى المنى و الكفور، كورتا مصيل و المليدس تسع و أربعون قرية سوى المنى، كورتا احنور و رشيد سبع عشرة قرية، البحيراء و الحصص بالإسكندرية و الكرومات و البعل و مريوط و مدينة الإسكندرية و لوبيه و مراقبه مائة و أربع و عشرون قرية سوى المنى. فالحوف الغربىّ: أربعمائة و تسع و أربعون قرية سوى المنى فى ثلاث عشرة كورة.

قال المسبّحى فى تاريخه: تصير قرى مصر أسفل الأرض ألفا و أربعمائة و تسعا و ثلاثين قرية، و يكون جميع ذلك بالصعيد، و أسفل الأرض ألفين و ثلثمائة و خمسا و تسعين قرية.

و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعى: أرض مصر قسمين: فمن ذلك صعيدها و هو ما يلى: مهب الجنوب منها، و أسفل أرضها و هو ما يلى: مهب الشمال منها، فقسم الصعيد على ثمان و عشرين كورة، فمن ذلك كورة الفيوم كلها، و كورتا منف و وسيم، و كورة الشرقية، و كورتا دلاص و أبو صير، و كورة أهناس، و كورتا الفشن و البهنسا، و كورة طحا و حيز سنودة، و كورة بويط، و كورتا الأشمونين و أسفل أنصنا و أعلاها و شطب قوص قام، و كورة سيوط، و كورة قهقوه، و كورتا أخميم و الدير و أبشاية، و كورة هوّ و أقنا و فاو و دندرة، و كورة قفط و الأقصر، و كورة اسنا و ارمنت، و كورة أسوان.

فهذه كور الصعيد، و من ذلك كور أسفل الأرض و هى خمس و عشرون كورة. و فى نسخة: ثلاث و ثلاثون كورة، و فى نسخة: ثمان و ثلاثون كورة، فمن ذلك:

كورة الجوف الشرقيّ: كورتا اتريب و عين شمس، و كورتا بنى و نمى، و كورتا بسطه و طرابية، و كورة هربيط، و كورة صا و إبليل، و كورة الفرما و العريش و الجفار و من ذلك: كور بطن الريف من أسفل الأرض، كورة ببا و بوصير، و كورتا سمنود و بوسا، و كورتا الأوسية و النجوم، و كورة دقملة، و كورتا تنيس و دمياط. و منها: كورة الجزيرة من أسفل الأرض، و كورة دمسيس و منوف، و كورة طوه و منوف، و كورة سخا و بيدة و الأفراحون، و كورة مقين و ديصا، و كورة البشرود.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٣٩

و من ذلك

كور الحوف الغربيّ: كورة صا، و كورة شباس، و كورة اليدقون و حيزها، و كورة الخيس و الشراك، و كورة خربتا، و كورة قرطسا و مصيل و المليدس، و كورتا اخنا و البحيرة و رشيد، و كورة الإسكندرية، و كورة مريوط، و كورة لوبية و مراقية.

و من

كور القبلة: كرى الحجاز و هى: كورة الطور و فاران، و كورة راية و القلزم، و كورة ايلة و حيزها و مدين و حيزها و العونيد و الحوراء و حيزها، ثم كورة بدا أو شغب.

و ذكر من له معرفة بالخراج، و أمر الديوان أنه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شغا الكاتب القبطيّ المعروف: بالبولس متولى خراج مصر للدولة الإخشيدية.

يشتمل على ذكر كور مصر و قراها إلى سنة خمس و أربعين و ثلثمائة إن قرى مصر بالصعيدين، و أسفل الأرض ألفان و ثلثمائة و خمس و تسعون قرية منها بالصعيد: تسعمائة و ست و خمسون قرية، و بأسفل الأرض: ألف و أربعمائة و تسع و ثلاثون قرية، و هذا عددها فى الوقت الذى جرّدت فيه الجرائد المذكورة، و قد تغيرت بعد ذلك بخراب ما خرب منها.

و قال ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد رضى اللّه عنه: لما ولى الوليد بن رفاعة مصر، خرج ليحصى عدّة أهلها، و ينظر فى تعديل الخراج عليهم، فأقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان، و معه جماعة من الكتاب، و الأعوان يكفونه ذلك بجدّ و تشمير، و ثلاثة أشهر بأسفل الأرض، و أحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية، فلم يحصر فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل.

و الذى استقرّ عليه الحال فى دولة الناصر (محمد بن قلاوون) أن الوجه القبلى ستة أعمال و هى من عمل قوص، و هو أجلها، و منه أسوان و غرب قوله، و عمل أخميم، و عمل أسيوط، و عمل منفلوط، و عمل الأشمونين و بها الطحاوية، و عمل البهنساوية الغربيّ، و هو عبارة عن قرى على غربى المنهى المارّ إلى الفيوم، و عمل الفيوم، و عمل أطفيح، و عمل الجيزة.

و

الوجه البحرى ستة أعمال: عمل البحيراء، و هو متصل البرّ بالإسكندرية و برقة، و عمل الغربية جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين، و هما البحر المارّ مسكبه عند دمياط و يسمى الشرقيّ، و البحر الثانى مسكبه عند رشيد و يسمى الغربى، و المنوفية و منها: ابيار، و جزيرة بنى نصر، و عمل قليوب، و عمل الشرقية، و عمل أسموم طناح و منها:

الدقهلية و المرتاحية، و هناك موقع ثغر البرلس، و ثغر رشيد و المنصورة، و فى هذا الوجه الإسكندرية و دمياط و لا عمل لهما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٤٠

و أما الواحات: فمنقطعة وراء الوجه القبلى مغاربة لم تعدّ فى الولايات و لا فى الأعمال، و لا يحكم عليها والى السلطان و إنما يحكم عليها من قبل مقطعها، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر ما كان يعمل فى أراضى مصر من حفر الترع و عمارة الجسور و نحو ذلك من أجل ضبط ماء النيل و تصريفه فى أوقاته

قال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب: و كانت فريضة مصر بحفر خليجها، و إقامة جسورها، و بناء قناطرها، و قطع جزائرها مائة ألف و عشرين ألفا. معهم المساحى و الطوريات و الأداة يعتقبون ذلك لا يدعونه شتاء و لا صيفا.

و عن أبى قبيل قال: زعم بعض مشايخ أهل مصر: أن الذى كان يعمل به مصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقرّون القرى فى أيدى أهلها كل قرية، بكراء معلوم لا ينقص عنهم إلا فى كل أربع سنين من أجل الظمأ، و تنقل اليسار فإذا مضت أربع سنين نقض ذلك، و عدّل تعديلا جديدا، فيرفق بممن استحق الرفق و يزاد على من احتمل الزيادة، و لا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم، فإذا جبى الخراج و جمع كان للملك من ذلك الربع خالصا لنفسه يصنع به ما يريد، و الربع الثانى لجنده و من يقوى به على حربه و جباية خراجه و دفع عدوه، و الربع الثالث فى مصلحة الأرض و ما تحتاج إليه من جسورها و حفر خلجها، و بناء قناطرها و القوّة للزارعين على زرعهم و عمارة أرضهم، و الربع الرابع يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها، فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو جائحة بأهل القرية، فكانوا على ذلك، و الذى يدفن فى كل قرية من خراجها هى: كنوز فرعون التى يتحدّث الناس بها أنها ستظهر فيطلبها الذين يتتبعون الكنوز.

و ذكر أن بعض فراعنة مصر جبى خراج مصر اثنين و سبعين ألف ألف دينار، و أن من عمارته أنه أرسل ويبة قمح إلى أسفل الأرض و إلى الصعيد فى وقت تنظيف الأرض و الترع من العمارة، فلم يوجد لها أرض فارغة تزرع فيها، و ذكر أنه كان عند تناهى العمارة يرسل بأربع و بيات برسيم إلى الصعيد، و إلى أسفل الأرض و إلى أىّ كورة، فإن وجد لها موضعا خاليا فزرعت فيه، ضرب عنق صاحب الكورة، و كانت مصر يومئذ عمارتها متصلة أربعين فرسخا فى مثلها، و الفرسخ: ثلاثة أميال، و البريد: أربعة فراسخ، فتكون عشرة برد فى مثلها، و لم تزل الفراعنة تسلك هذا المسلك إلى أيام فرعون موسى فإنه عمرها عدلا و سماحة، و تتابع الظمأ ثلاث سنين فى أيامه، فترك لأهل مصر خراج ثلاث سنين، و أنفق على نفسه و عساكره من خزائنه، و لما كان فى السنة الرابعة أضعف الخراج و استمرّ فاعتاض ما أنفق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٤١

و كتب عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه إلى عمرو بن العاص رضى اللّه عنه: أن اسئل المقوقس عن مصر، من أين تأتى عمارتها و خرابها؟ فسأله عمرو، فقال له المقوقس:

عمارتها و خرابها من وجوه خمسة: أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم، و يرفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم، و يحفر فى كل سنة خلجانها، و تسدّ ترعها و جسورها، و لا يقبل مطل أهلها يريد البغى، فإذا فعل هذا فيها عمرت و إن عمل فيها بخلافه خربت.

و عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، فى الخراج كتب إليه: أن ابعث إلىّ رجلا- من أهل مصر، فبعث إليه رجلا قديما من القبطة فاستخبره عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه عن مصر و خراجها قبل الإسلام فقال: يا أمير المؤمنين مصر كان لا يؤخذ منها شىء إلا بعد عمارتها، و عاملك لا ينظر إلى العمارة، و إنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد، فعرف عمر رضى اللّه عنه ما قال، و قبل من عمرو ما كان يعتذر به.

و قال عمرو بن العاص رضى اللّه عنه للمقوقس: أنت وليت مصر فبم تكون عمارتها؟

فقال: بخصال أن تحفروا خلجانها، و تسدّ جسورها و ترعها، و لا- يؤخذ خراجها إلا- من غلتها، و لا يقبل مطل أهله، و يوفى لهم بالشروط، و يدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا، و يرتفع عن أهله المعاون و الهدايا، ليكون قوّة لهم، فبذلك تعمر و يرجى خراجها.

و يقال: إن ملوك مصر من القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام: قسم لخاصة الملك، و قسم لأرزاق الجند، و قسم لمصالح الأرض، و قسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها.

و لما ولى عبيد اللّه بن الحبحاب خراج مصر، لهشام بن عبد الملك خرج بنفسه، فمسح أرض مصر كلها عامرها و غامرها مما يركبه

النيل، فوجد فيها مائة ألف ألف فدّان، و الباقى استبحر و تلف، و اعتبر مدّة الحرث، فوجدها ستين يوما، و الحرّاث يحرث خمسين فدّانا، و كانت محتاجة إلى أربعمائة ألف و ثمانين ألف حرّاث.

ذكر مقدار خراج مصر فى الزمن الأوّل

اشارة

قال ابن وصيف شاه: و كان منقاوس قسم خراج البلاد أرباعا، فربع للملك خاصة يعمل فيه ما يريد، و ربع ينفق فى مصالح الأرض و ما تحتاج إليه من عمل الجسور و حفر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٤٢

الخلج و تقوية أهلها على العمارة، و ربع يدفن لحادثة تحدث أو نازلة تنزل، و ربع للجند، و كان خراج البلد ذلك الوقت مائة ألف ألف و ثلاثة آلاف ألف دينار و قسمها على مائة و ثلاث كور بعدّة الآلاف.

و يقال: إن كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الإسلامية و هى اليوم: خمس و ثمانون كورة. أسفل الأرض: خمس و أربعون كورة، و الصعيد: أربعون كورة، و فى كل كورة كاهن يدبرها، و صاحب حرب و ارتفع مال البلد على يد ندارس بن صا مائة ألف ألف دينار و خمسين ألف ألف دينار، و فى أيام كلكن بن خربتا بن ماليق بن ندارس مائة ألف ألف دينار و بضعة عشر ألف ألف دينار و لما زالت دولة القبط الأولى من مصر و ملكها العمالقة اختل أمرها، و كان فرعون الأوّل يجبيها تسعين ألف ألف دينار يخرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لأولياء الأمر و الجند و الكتّاب، و عشرة آلاف ألف دينار لمصالح فرعون، و يكنزون لفرعون خمسين ألف ألف دينار.

و بلغ خراج مصر فى أيام الريان بن الوليد و هو فرعون يوسف عليه السلام، سبعة و تسعين ألف ألف دينار، فأحب أن يتمه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمارات و إصلاح جسور البلد، و الزيادة فى استنباط الأرض حتى بلغ ذلك و زاد عليه.

و قال ابن دحية: و جبيت مصر فى أيام الفراعنة فبلغت تسعين ألف ألف دينار بالدينار الفرعونىّ و هو ثلاثة مثاقيل فى مثقالنا المعروف الآن بمصر الذى هو: أربعة و عشرون قيراطا، كل قيراط: ثلاث حبات من قمح، فيكون بحساب ذلك مائتى ألف ألف و سبعين ألف ألف دينار مصرية.

و ذكر الشريف الجوّانى : أنه وجد فى بعض البرابى بالصعيد مكتوبا باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف عليه السلام، و هو الريان بن الوليد من أموال مصر بحق الخراج مما يوجبه الخراج، و سائر وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل و الإنصاف، و الرسوم الجارية من غير تأوّل و لا اضطهاد و لا مشاحة على عظيم فضل كان فى يد المؤدى لرسمه و بعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للعاملين و تقوية لحالهم من العين أربعة و عشرون ألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار، و ذكر ما فيه كما فى خبر الحسن بن على الأسدى.

و قال الحسن بن على الأسدى: أخبرنى أبى قال: وجدت فى كتاب قبطى باللغة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٤٣

الصعيدية، مما نقل إلى اللغة العربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون مصر بحق الخراج الذى يوجد و سائر وجوه الجبايات لسنة كاملة على العدل و الإنصاف و الرسوم الجارية من غير اضطهاد و لا مناقشة على عظيم فضل كان فى يد المؤدّى لرسمه و بعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان رفقا بالمعاملين و تقوية لهم من العين أربعة و عشرين ألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار من جهات مصر، و

ذلك ما يصرف فى عمارة البلاد لحفر الخلج و إتقان الجسور، و سدّ الترع و إصلاح السبل، و الساسة ثم فى تقوية من يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل و التوسعة فى البدار و غير ذلك، و ثمن الآلات و أجرة من يستعان به من الأجراء لحمل الأصناف، و سائر نفقات تطريق أراضيهم من العين ثمانمائة ألف دينار، و لما يصرف فى أرزاق الأولياء الموسومين بالسلاح و حملته و الغلمان، و أشياعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوى أتباعهم من الخزان، و من يجرى مجراهم و عدّتهم مائة ألف و أحد عشر ألف رجل من العين ثمانية آلاف ألف دينار، و لما يصرف فى الأرامل، و الأيتام فرضا لهم من بيت المال، و إن كانوا غير محتاجين إليه حتى لا تخلو آمالهم من برّ يصل إليهم من العين أربعمائة ألف دينار، و لما يصرف فى كهنة برابيهم، و أئمتهم و سائر بيوت صلواتهم من العين مائة ألف دينار، و لما يصرف فى الصدقات، و ينادى فى الناس: برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة، فليحضر فلا يرد عند ذلك أحد، و الأمناء جلوس فإذا رؤى رجل لم تجر عادته بذلك أفرد بعض قبض ما يقبضه، حتى إذا فرّق المال، و اجتمع من هذه الطائفة عدّة دخل أمناء فرعون إليه وهنوه بتفرقة المال، و دعوا له بالبقاء و السلامة و أنهوا حال الطائفة المذكورة، فيأمر بتغيير شعثها بالحمام و اللباس، و بمدّ الأسمطة، و يأكلون و يشربون، ثم يستعلم من كلواحد سبب فاقته، فإن كان من آفة الزمان ردّ عليه مثل ما كان و أكثر، و إن كان عن سوء رأى و ضعف تدبير ضمه إلى من يشرف عليه، و يقوم بالأمر الذى يصلح له من العين مائتا ألف دينار.

فذلك جملة ما تبين، و فصل فى هذه الجهات المذكورة من العين تسعة آلاف ألف و ثمانمائة ألف دينار، و يحصل بعد ذلك ما يتسلمه فرعون فى بيوت أمواله عدّة لنوائب الدهر، و حادثات الزمان من العين أربعة عشر ألف ألف دينار و ستمائة ألف دينار.

و قيل لبعضهم: متى عقدت مصر تسعين ألف ألف دينار؟ قال: فى الوقت الذى أرسل فرعون بويبة قمح إلى أسفل الأرض و إلى الصعيد فلم يجد لها موضعا تبذر فيه لشغل جميع البلاد بالعمارة.

ذكر ما عمله المسلمون عند فتح مصر فى الخراج و ما كان من أمر مصر فى ذلك مع القبط

قال زهير بن معاوية: حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١۴۴

«منعت العراق درهمها و قفيزها ، و منعت الشام مدّها و دينارها، و منعت مصر إردبها و عدتم من حيث بدأتم». قال أبو عبيد: قد أخبر صلى اللّه عليه و سلم بما لم يكن، و هو فى علم اللّه كائن فخرّج لفظه على لفظ الماضى لأنه ماض فى علم اللّه و فى إعلامه بهذا قبل وقوعه، ما دل على إثبات نبوّته، و دل على رضاه من عمر رضى اللّه عنه ما وظفه على الكفرة من الخراج فى الأمصار.

و فى تفسير المنع و جهان: أحدهما: أنه علم أنهم سيسلمون و يسقط عنهم ما وظف عليهم، فصاروا مانعين بإسلامهم ما وظف عليهم، يدل عليه قوله: «و عدتهم من حيث بدأتم». و قيل معناه: أنهم يرجعون عن الطاعة، و الأوّل أحسن.

و قال ابن عبد الحكم عن عبيد اللّه لن لهيعة: لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة و لا صبىّ و لا شيخ على دينارين دينارين، فأحصوا ذلك، فبلغت عدّتهم ثمانية آلاف ألف.

و عن هشام بن أبى رقية اللخمىّ: أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر:

إن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته، و إنّ قبطيا من أرض الصعيد يقال له: بطرس، ذكر لعمرو: إن عنده كنزا فأرسل إليه فسأله، فأنكر، و جحد فحبسه فى السجن، و عمرو يسأل عنه: هل تسمعونه يسأل عن أحد؟ فقالوا: لا، إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور، فأرسل عمرو إلى بطرس، فنزع خاتمه، ثم كتب إلى ذلك الراهب: أن ابعث إلىّ بما عندك، و ختمه بخاتمه، فجاء الرسول بقلّة شامية مختومة بالرصاص، ففتحها عمرو، فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها: (ما لكم تحت الفسقية الكبيرة) فأرسل عمرو إلى الفسقية، فحبس

عنها الماء، ثم قلع البلاط الذى تحتها، فوجد فيها اثنين و خمسين أردبا ذهبا مصريا مضروبة، فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد، فأخرج القبط كنوزهم شفقا أن يبغى على أحد منهم، فيقتل كما قتل بطرس.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أن عمرو بن العاص، استحل مال قبطىّ من قبط مصر لأنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٤٥

استقرّ عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين، و يكتب إليهم بذلك، فاستخرج منه بضعا و خمسين أردبا دنانير.

قال ابن عبد الحكم: و كان عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، يبعث إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه، و كانت فريضة مصر لحفر خلجها، و إقامة جسورها، و بناء قناطرها، و قطع جزائرها مائة ألف و عشرين ألفا معهم الطور و المساحى و الأداة يعتقبون ذلك لا يدعون ذلك صيفا و لا شتاء، ثم كتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: أن تختم فى رقاب أهل الذمّة بالرصاص، و يظهروا مناطقهم، و يجزوا نواصيهم و يركبوا على الأكف عرضا، و لا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى، و لا يضربوا على النساء، و لا على الولدان، و لا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم.

و عن يزيد بن أسلم: أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كتب إلى أمراء الأجناد: أن لا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى، و جزيتهم أربعون درهما على أهل الورق، و أربعة دنانير على أهل الذهب، و عليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة و الزيت مدّان من حنطة، و ثلاثة أقساط من زيت فى كل شهر لكل إنسان من أهل الشام، و الجزيرة، و ودك و عسل لا أدرى كم هو، و من كان من أهل مصر، فأردب فى كل شهر لكل إنسان، و لا أدرى كم الودك و العسل، و عليهم من البز الكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس و يضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام و على أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل إنسان، و لا أدرى كم لهم من الودك، و كان لا يضرب الجزية على النساء و الصبيان، و كان يختم فى أعناق رجال أهل الجزية، و كانت ويبة عمر فى ولاية عمرو بن العاص: ستة أمداد.

قال: و كان عمرو بن العاص، لما استوثق له الأمر أقرّ قبطها على جباية الروم، فكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية، و كثر أهلها زيد عليهم، و إن قل أهلها و خربت نقصوا، فيجتمع عرّافوا كل قرية و أمراءها و رؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة و الخراب حتى إذا أقرّوا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور، ثم اجتمعوا هم و رؤساء القرى، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع، ثم يجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم و خراج كل قرية، و ما فيها من الأرض العامرة، فيبتدئون و يخرجون من الأرض فدّادين لكنائسهم و حماياتهم و معدياتهم من جملة الأرض، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين، و نزول السلطان فإذا فرغوا نظروا لما فى كل قرية من الصناع و الأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم، فإن كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها، و قلما كانت تكون إلا لرجل الشاب أو المتزوج ثم ينظرون ما بقى من الخراج، فيقسمونه بينهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٤٦

على عدد الأرض، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم، فإنن عجز أحد منهم و شكا ضعفا عن زرع أرضه، و زعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال، و إن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف، فإن تشاحوا قسموا ذلك على عدّتهم، و كانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة و عشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك.

و لذلك روى عن النبىّ صلى اللّه عليه و سلم: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا».

و جعل لكل فدان عليهم: نصف أردب قمح، و ويبتين من شعير إلا القرظ فلم يكن عليه ضريبة، و الويبة ستة أمداد، و كان عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا، و لا يزيد عليه، و من نزل منهم على الجزية و لم يسم شيئا يؤدّيه نظر عمر فى أمره فإذا احتاجوا خفف عنهم، و إن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم.

و قال هشام بن أبى رقية اللخمى: قدم صاحب أخنا على عمرو بن العاص رضى اللّه عنه فقال له: أخبرنا ما على أحدنا من الجزية

فنصير لها؟ فقال عمرو، و هو يشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، و إن خفف عنا خففنا عنكم، و من ذهب إلى هذا الحديث ذهب إلى أن مصر فتحت عنوة.

و عن يزيد بن أبى حبيب قال: قال عمر بن عبد: العزيز أيّما ذمىّ أسلم فإن إسلامه يحرز له نفسه و ماله، و ما كان من أرض فإنها من فیء اللّه على المسلمين، و أيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره و أرضه لبقيتهم.

و قال الليث: كتب إلىّ يحيى بن سعيد: أن ما باع القبط فى جزيتهم، و ما يؤخذون به من الحق الذى عليهم من عبد أو وليدة أو بعير أو بقرة أو دابة فإن ذلك جائز عليهم، فمن ابتاعه منهم فهو غير مردود عليهم أن أيسروا و ما أكروا من أرضهم فجائز كراؤه إلا أن يكون يضر بالجزية التى عليهم فلعل الأرض إن ترد عليهم أن أضرت بجزيتهم و إن كان فضلا بعد الجزية، فإنا نرى كراءها جائزا لمن يكراها منهم.

قال يحيى: فنحن نقول: الجزية جزيتان: جزية على رؤوس الرجال، و جزية جملة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١۴٧

تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية، فمن هلك من أهل القرية التى عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رؤوس الرجال، فإنا نرى أنّ من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له و لا وارث إن أرضه ترجع إلى قريته فى جملة ما عليهم من الجزية، و من هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال، و لم يدع وارثا فإن أرضه للمسلمين.

و قال الليث عن عمر بن العزيز: الجزية على الرءوس و ليست على الأرضين، يريد أهل الذمّة.

و كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح: أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم، و هذا يدل على أنّ عمر كان يرى أنّ أرض مصر فتحت عنوة، و أن الجزية إنما هى على القرى، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم و إن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا. قال: و يحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم و إن موت من مات منهم لا يضع عنهم ممن صالحوا عليه شيئا.

قال الليث: وضع عمر بن عبد العزيز الجزية على من أسلم من أهل الذمّة من أهل مصر، و ألحق فى الديوان صلح من أسلم منهم فى عشائر من أسلموا على يديه، و كانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم، و أوّل من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمّة: الحجاج بن يوسف، ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان: أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمّة، فكلمه ابن حجيرة فى ذلك فقال: أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أوّل من سنّ ذلك بمصر، فو اللّه إن أهل الذمّة ليتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم منهم فتركهم عند ذلك.

و كتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح: أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، فإن اللّه تبارك و تعالى قال: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة/ ۵]، و قال: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ [التوبة/ ٢٩].

و كتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد: فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينارا تمت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل، فكتب إليه عمر: أما بعد: فقد بلغنى كتابك، و قد وليتك جند مصر، و أنا عارف بضعفك، و قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عن من أسلم قبح اللّه رأيك فإن اللّه إنما بعث محمدا صلى اللّه عليه و سلم هاديا و لم يبعثه جابيا، و لعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١۴٨

قال: و لما استبطأ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص كتب إليه: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من عبد اللّه

عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام اللّه عليك، فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإنى فكرت فى أمرك و الذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة، و قد أعطى اللّه أهلها عددا و جلدا و قوّة فى برّ و بحر، و أنها قد عالجتها الفراعنة، و عملوا فيها عملا محكما مع شدّة عتوهم و كفرهم فعجبت من ذلك، و أعجب مما عجبت أنها لا تؤدّى نصف ما كانت تؤدّيه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط، و لا جدب، و قد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج، و ظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر، و رجوت أن تفيق فترفع إليّ ذلك، فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، و لست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى، و قبضك، فلئن كنت مجرّبا كافيا صحيحا إن البراءة لنافعة، و إن كنت مضيعا نطعا إن الأمر لعلى غير ما تحدّث به نفسك، و قد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق، فترفع إليّ ذلك و قد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن أعمالك عمال السوء، و ما توالس عليك و تلفف اتخذوك كهفا، و عندى بإذن اللّه دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد اللّه أن يؤخذ منك الحق و تعطاه، فإن النهر يخرج الدرّ و الحق أبلج و دعنى و ما عنه تلجلج، فإنه قد برح الخفاء و السلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص: بسم اللّه الرحمن الرحيم، لعبد اللّه عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام اللّه عليك، فإنى أحمد اللّه الذى لا إله إلا هو. أما بعد: فقد بلغنى كتابك أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج و الذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى و إعجابه من خراجها على أيديهم و نقص ذلك منها مذ كان الإسلام، و لعمرى للخراج يومئذ أوفر و أكثر، و الأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم، و عتوّهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام، و ذكرت أن النهر يخرج الدر، فحلبتها حلبا قطع درها، و أكثرت فى كتابك و أنبت و عرضت و تربت و علمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر، فجئت لعمرى بالمقطعات المقدّعات، و لقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق، و لقد عملنا لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و لمن بعده، فكنا نحمد اللّه مؤدّين لأماناتنا حافظين لما عظم اللّه من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحا، و العمل به شينا، فتعرف ذلك لنا و تصدّق فيه قلبنا معاذ اللّه من تلك الطعم و من شرّ الشيم، و الاجتراء على كل مأثم، فامض عملك فإن اللّه قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية، و الرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا، و لم تكرم فيه أخا، و اللّه يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشدّ غضبا لنفسى و لها إنزاها و إكراما، و ما عملت من عمل أرى عليه فيه متعلقا، و لكنى حفظت ما لم تحفظ، و لو كنت من يهود يثرب ما زدت، يغفر اللّه لك و لنا، و سكتّ عن أشياء كنت بها عالما و كان اللسان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١۴٩

بها منى ذلولا، و لكن اللّه عظم من حقك ما لا يجهل.

فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: سلام عليك فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو. أما بعد: فإنى قد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج، و كتابك إلى بثنيات الطرق، و قد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين، و لم أقدّمك إلى مصر أجعلها لك طعمة، و لا لقومك و لكنى و جهتك لما رجوت من توفيرك الخراج، و حسن سياستك، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين، و عندى من قد تعلم قوم محصورون، و السلام. فكتب إليه عمرو بن العاص: بسم اللّه الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب، من عمرو بن العاص سلام عليك، فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج و يزعم أنى أحيد عن الحق، و أنكث عن الطريق، و إنى و اللّه ما أرغب عن صالح ما تعلم، و لكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم، فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه، و السلام.

و قال الليث بن سعد رضى اللّه عنه: جباها عمرو بن العاص رضى اللّه عنه اثنى عشر ألف ألف دينار، و جباها المقوقس قبله لسنة عشرين ألف ألف دينار، فعند ذلك كتب إليه عمر بن الخطاب بما كتب، و جباها عبد اللّه بن سعد بن سرح حين استعمله عثمان

رضى اللّه عنه على مصر أربعة عشر ألف ألف دينار، فقال عثمان لعمرو بن العاص بعد ما عزله عن مصر: (يا أبا عبد اللّه درت اللقحة بأكثر من درها الأوّل). قال: أضررتم بولدها، فقال:

ذلك أن لم يمت الفصيل.

و كتب معاوية بن أبى سفيان إلى وردان، و كان قد ولى خراج مصر: أن زد على كل رجل من القبط قيراطا، فكتب إليه وردان: كيف نزيد عليهم و فى عهدهم أن لا يزاد عليهم شيء؟ فعزله معاوية و قيل فى عزل وردان غير ذلك.

و قال ابن لهيعة: كان الديوان فى زمان معاوية أربعين ألفا، و كان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين، فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان عطياتهم، و عطيات عيالهم، و أرزاقهم و نوائب البلاد من الجسور، و أرزاق الكتبة و حملان القمح إلى الحجاز، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٥٠

و قال ابن عفير: فلما نهضت الإبل لقيهم برح بن كسحل المهرى فقال: ما هذا؟

ما بال مالنا يخرج من بلادنا؟ ردّوه، فردّوه حتى وقف على باب المسجد، فقال: أخذتم عطياتكم، و أرزاقكم و عطاء عيالكم و نوائبكم، قالوا: نعم، قال: لا بارك اللّه لهم فيه خذوه فساروا به.

و قال بعضهم: جبى عمرو بن العاص عشرة آلاف دينار فكتب إليه عمر بن الخطاب بعجزه، و يقول له جباية الروم: عشرون ألف ألف دينار فلما كان العام المقبل جباه عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار، و قال ابن لهيعة: جبى عمرو بن العاص الإسكندرية الجزية ستمائة ألف دينار، لأنه وجد فيها ثلاثمائة ألف من أهل الذمّة فرض عليهم دينارين دينارين، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر انتقاض القبط و ما كان من الأحداث فى ذلك

خرّج الإمام أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل البخارى من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: كيف أنتم إذا لم تجبوا دينارا و لا درهما؟ قالوا: و كيف نرى ذلك كائنا يا أبا هريرة؟ قال: إى و الذى نفس أبى هريرة بيده عن قول الصادق و المصدوق، قالوا: عم ذلك؟ قال: تنتهك ذمّته و ذمّة رسوله فيشدّ اللّه عز و جل قلوب أهل الذمّة فيمنعون ما فى أيديهم.

قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندىّ فى كتاب أمراء مصر، و أمرة الحرّ بن يوسف أمير مصر كتب عبد اللّه بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشام بن عبد الملك، بأنّ أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطا، فانتقصت كورة تنو و نمى و قربيط و طرابية، و عامة الحوف الشرقىّ، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير، و ذلك أول انتقاض القبط بمصر، و كان انتقاضهم فى سنة سبع و مائة، و رابط الحرّ بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر، ثم انتقض أهل الصعيد، و حارب القبط عمالهم فى سنة إحدى و عشرين و مائة، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر، أهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسا كثيرا، و ظفر بهم و خرج- بخنس- رجل من القبط فى سمنود، فبعث إليه عبد الملك بن مروان: موسى بن نصير أمير مصر، فقتل- بخنس- فى كثير من أصحابه، و ذلك فى سنة اثنين و ثلاثين و مائة، و خالفت القبط برشيد.

فبعث إليهم مروان بن محمد الجعدىّ لما دخل مصر فارا من بنى العباس، بعثمان بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٥١

أبى قسعة، فهزمهم، و خرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا، و نابذوا العمال و أخرجوهم، و ذلك فى سنة خمسين و مائة، و صاروا إلى شبرا سنباط، و انضم إليهم أهل اليشرود و الأريسية و النجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد لنصر بن حبيب المهلبىّ على أهل الديوان، و وجوه مصر، فخرجوا إليهم فبتهم القبط، و قتلوا من المسلمين. فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط، و انصرف المسلمون إلى مصر منهزمين.

و فى ولاية موسى بن علىّ بن رباح على مصر خرج القبط ببلهيب فى سنة ست و خمسين و مائة، فخرج إليهم عسكر فهزمهم، ثم انتقضوا مع من انتقض فى سنة ست عشرة و مائتين، فأوقع بهم الأفشين فى ناحية اليشرود حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين، عبد اللّه المأمون، فحكم فيهم بقتل الرجال، و بيع النساء و الأطفال. فبيعوا و سبى أكثرهم.

و من حينئذ أذل اللّه القبط فى جميع أرض مصر، و خذل شوكتهم فلم يقدر أحد منهم على الخروج، و لا القيام على السلطان، و غلب المسلمون على القرى، فعاد القبط من بعد ذلك إلى كيد الإسلام و أهله بإعمال الحيلة، و استعمال المكر، و تمكنوا من النكاية بوضع أيديهم فى كتاب الخراج، و كان للمسلمين فيهم وقائع يأتى خبرها فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

ذكر نزول العرب بريف مصر و اتخاذهم الزرع معاشا و ما كان فى نزولهم من الأحداث

قال الكندى: و فى ولاية الوليد بن رفاعة الفهمىّ على مصر، نقلت قيس إلى مصر فى سنة تسع و مائة، و لم يكن بها أحد منهم قبل ذلك إلا ما كان من فهم و عدوان، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك، فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتا، فأذن له هشام فى لحاق ثلاثة آلاف منهم، و تحويل ديوانهم إلى مصر على أن لا ينزلهم بالفسطاط، فعرض لهم ابن الحبحاب و قدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقىّ، و فرّقهم فيه.

و يقال: إن عبيد اللّه بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال: ما أرى لقيس فيها حظا إلا لناس من جديلة و هم فهم و عدوان. فكتب إلى هشام: إنّ أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه قد شرّف هذا الحىّ من قيس و نعشهم و رفع من ذكرهم و إنى قدمت مصر، و لم أر لهم حظا إلا أبياتا من فهم، و فيها كور ليس فيها أحد، و ليس يضر بأهلها نزولهم

معهم، و لا يكسر ذلك خراجا و هى بلبيس. فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس، فليفعل.

فكتب إليه هشام: أنت و ذاك، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نضر، و مائة أهل بيت من بنى سليم، فأنزلهم بلبيس، و أمرهم بالزرع، و نظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، و كان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير و أكثر، ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشترى المهر، فلا يمكث إلّا شهرا حتى يركب، و ليس عليهم مؤونة فى علف إبلهم و لا خيلهم لجودة مرعاهم.

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت، فصار ببلبيس: ألف و خمسمائة أهل بيت من قيس، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد، و ولى الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر. مالت إليه قيس فمات مروان، و بها ثلاث آلاف أهل بيت، ثم توالدوا و قدم عليهم من البادية من قدم.

و فى سنة ثمان و سبعين و مائة، كشف إسحاق بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس أمير مصر أمر الخراج، و زاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم، فخرج عليهم أهل الحوف و عسكروا فبعث إليهم الجيوش، و حاربهم فقتل من الجيش جماعة، فكتب إلى أمير المؤمنين: هارون الرشيد يخبره بذلك، فعقد لهرثمة بن أعين فى جيش عظيم، و بعث به إلى مصر، فنزل الحوف و تلقاه أهله بالطاعة، و أذعنوا بأداء الخراج فقبل هرثمة منهم و استخرج خراجه كله، ثم إن أهل الحوف خرجوا على الليث بن الفضل البيودى أمير مصر، و ذلك أنه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم، فانتقصوا من القصبة أصابع فتظلم الناس إلى الليث، فلم يسمع منهم فعسكروا، و ساروا إلى الفسطاط، فخرج إليهم الليث فى أربعة آلاف من جند مصر فى شعبان سنة ست و ثمانين و مائة، فالتقى معهم فى رمضان فانهزم عنه الجند فى ثانى عشره و بقى فى نحو المائتين، فحمل بمن معه على أهل الحوف، فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة، و كان التقاؤهم على أرض جب عميرة، و بعث الليث إلى الفسطاط بثمانين رأسا من رؤوس القيسية، و رجع إلى الفسطاط، و عاد أهل الحوف إلى منازلهم، و منعوا الخراج.

فخرج ليث إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد فى محرم سنة سبع و ثمانين و مائة، و سأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا ـ بجيش يبعث معه، و كان محفوظ بن سليم بباب الرشيد، فرفع محفوظ إلى الرشيد يضمن له خراج مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٥٣

عن آخره بلا سوط و لا عصا، فولاه الخراج، و صرف ليث بن الفضل عن صلاة مصر، و خراجها، و فى ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج، فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ فى أمرهم فنزل بلبيس فى شوال سنة إحدى و تسعين و مائة، و صرف الحسين بن جميل عن أمارة مصر فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و تسعين و مائة.

و ولى مالك بن دلهم، و فرغ يحيى بن معاذ من أمر الحوف، و قدم الفسطاط فى جمادى الآخرة، فورد عليه كتاب الرشيد، يأمره بالخروج إليه فكتب إلى أهل الحوف: أن اقدموا حتى أوصى بكم مالك بن دلهم، و أدخل بينكم و بينه فى أمر خراجكم، فدخل كل رئيس منهم من اليمانية و القيسية، و قد أعدّ لهم القيود فأمر بالأبواب، فأخذت ثم دعا بالحديد، فقيدهم و توجه بهم للنصف من رجب منها.

و فى أمارة عيسى بن يزيد الجلودىّ على مصر ظلم، صالح بن شيرزاد عامل الخراج الناس، و زاد عليهم فى خراجهم، فانتقض أهل أسفل الأرض و عسكروا، فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش لقتالهم، فنزل بلبيس، و حاربهم فنجا من المعركة بنفسه، و لم ينج أحد من أصحابه و ذلك فى صفر سنة أربع عشرة و مائتين، فعزل عيسى عن مصر.

و ولى عمير بن الوليد التميمىّ فاستعدّ لحرب أهل الحوف، و سار فى جيوشه فى ربيع الآخر، فزحفوا عليه و اقتتلوا، فقتل من أهل الحوف جمع و انهزموا، فتبعهم عمير فى طائفة من أصحابه، فعطف عليه كمين لأهل الحوف، فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر.

فولى عيسى الجلودى ثانيا، و سار إليهم فلقيهم بمنية مطر فكانت بينهم وقعة آلت إلى أن انهزم منهم إلى الفسطاط، و أحرق ما ثقل عليه من رحله، و خندق على الفسطاط و ذلك فى رجب، و قدم أبو إسحاق بن الرشيد من العراق فنزل الحوف، و أرسل إلى أهله فامتنعوا من طاعته، فقاتلهم فى شعبان و دخل و قد ظفر بعدة من وجوههم إلى الفسطاط فى شوال، ثم عاد إلى العراق فى المحرّم سنة خمس عشرة و مائتين بجمع من الأسارى. فلما كان فى جمادى الأولى سنة ست عشرة و مائتين انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد، و قبطها و أخرجوا العمال، و خلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم، فكانت بينهم و بين عساكر الفسطاط حروب امتدّت إلى أن قدم الخليفة عبد اللّه أمير المؤمنين المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرّم سنة سبع عشرة و مائتين، فسخط على عيسى بن منصور الرافقى، و كان على أمارة مصر و أمر بحل لوائه، و أخذه بلباس البياض عقوبة له. و قال: لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك و فعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، و كتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر و اضطرب البلد.

ثم عقد المأمون على جيش بعث به إلى الصعيد، و ارتحل هو إلى سخا، و بعث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٥٤

بالأفشين إلى القبط و قد خلعوا الطاعة، فأوقع بهم فى ناحية البشرود، و حصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال، و بيع النساء و الأطفال، فسبى أكثرهم، و تتبع المأمون كل من يومى إليه بخلاف، فقتل ناسا كثيرا، و رجع إلى الفسطاط فى صفر و مضى إلى حلوان، و عاد فارتحل لثمان عشرة خلت من صفر، و كان مقامه بالفسطاط و سخا و حلوان تسعة و أربعين يوما. و كان خراج مصر قد بلغ فى أيام المأمون على حكم الإنصاف فى الجباية أربعة آلاف ألف دينار و مائتى ألف دينار و سبعة و خمسين ألف دينار.

و يقال: إن المأمون، لما سار فى قرى مصر كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقة و العساكر من حوله، و كان يقيم فى

القرية يوما و ليلة، فمرّ بقرية يقال لها: طاء النمل، فلم يدخلها لحقارتها، فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية و هى تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة، فوقف لها و كان لا يمشى أبدا إلا و التراجمة بين يديه من كل جنس، فذكروا له إن القبطية قالت: يا أمير المؤمنين، نزلت فى كل ضيعة و تجاوزت ضيعتى، و القبط تعيرنى بذلك، و أنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف، و لعقبى، و لا تشمت الأعداء بى، و بكت بكاء كثيرا.

فرقّ لها المأمون و ثنى عنان فرسه إليها و نزل فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ، و سأله كم تحتاج من الغنم و الدجاج و الفراخ و السمك و التوابل و السكر و العسل و الطيب و الشمع و الفاكهة و العلوفة، و غير ذلك مما جرت به عادته، فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة.

و كان مع المأمون أخوه المعتصم و ابنه العباس، و أولاد أخيه الواثق و المتوكل و يحيى بن أكثم و القاضى أحمد بن داود، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده، و لم تكل أحدا منهم و لا من القوّاد إلى غيره، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام و لذيذه شيئا كثيرا، حتى أنه استعظم ذلك. فلما أصبح، و قد عزم على الرحيل حضرت إليه و معها عشر و صائف مع كل وصيفة طبق. فلما عاينها المأمون من بعد. قال لمن حضر: قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ و الصحناه و الصبر فلما وضعت ذلك بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك و أمرها بإعادته. فقالت: لا و اللّه لا أفعل فتأمّل الذهب، فإذا به ضرب عام واحد كله، فقال: هذا و اللّه أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك.

فقالت: يا أمير المؤمنين، لا تكسر قلوبنا و لا تحتقر بنا، فقال: إن فى بعض ما صنعت لكفاية، و لا نحب التثقيل عليك فردّى مالك بارك اللّه فيك، فأخذت قطعة من الأرض و قالت: يا أمير المؤمنين، هذا و أشارت إلى الذهب، من هذا و أشارت إلى الطينة التى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٥٥

تناولتها من الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين و عندى من هذا شىء كثير فأمر به فأخذ منها، و أقطعها عدّة ضياع، و أعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدّان بغير خراج، و انصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها.

ذكر قبالات أراضى مصر بعد ما فشا الإسلام فى القبط و نزول العرب فى القرى و ما كان من ذلك إلى الروك الأخير الناصرى

و كان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها و استيطانهم و أهاليهم فيها و اتخاذهم الزرع معاشا و كسبا و انقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام و اختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات، أنّ متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى، و قد اجتمع الناس من القرى و المدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات، و كتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور و الصفقات على من يتقبلها من الناس، و كانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ و الاستبحار، و غير ذلك فإذا انقضى هذا الأمر، خرج كل من كان تقبل أرضا و ضمنها إلى ناحيته فيتولى زراعتها، و إصلاح جسورها و سائر وجوه أعمالها بنفسه و أهله، و من ينتدبه لذلك، و يحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط و يحسب له من مبلغ قبالته، و ضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها و سدّ تراعها و حفر خلجها بضرائب مقدّرة فى ديوان الخراج، و يتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان و المتقبلين.

يقال: لما تأخر من مال الخراج البواقى و كانت الولاة تشدّد فى طلب ذلك مرّة و تسامح به مرّة، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حوّلوا السنة، و راكوا البلاد كلها، و عدّلوها تعديلا جديدا، فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد، و نقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها، و لم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص إلى أن عمّر أحمد بن طولون جامعه و صار العسكر منزلا لأمراء مصر. فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون، ثم نقل أيام العزيز باللّه نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس، فلما مات الوزير نقل الديوان إلى القصر بالقاهرة، و استمرّ به مدّة الدولة الفاطمية، ثم نقل منه بعدها و سأتلوا عليك من نبأ ذلك ما يتضح به ما ذكرت.

قال ابن ذولاق فى كتاب أخبار المارداني‌ين كتاب مصر: و حضر أبو الحسن وهب بن إسماعيل، مجلس أبى بكر بن علىّ الماردانى فى المسجد الجامع، و هو يعقد الضياع، فقال له أبو بكر: الساعة آمر بالنداء على صفقة فخذها شركة بينى و بينك، فنودى على صفقة، فقال أبو بكر: اعقدوها على أبى الحسن، فعقدت عليه، و تحملها فأفضلت له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۶

أربعين ألف دينار فاستنض عشرين ألف دينار، و لم يدر ما يعمل فيها إلى أن اجتمع مع أبى يعقوب- كاتب أبى بكر- ليتحدثا، فقال أبو يعقوب: رأيت الشيخ- يعنى أبا بكر الماردانىّ- فى اليوم مشغول القلب أراد جمع مال، و قد عجز عنه، فقال له أبو الحسن: عندى نحو عشرين ألف دينار، فقال: جئنى بها فأنفذها إليه، و جاءه خطه بالمبلغ فاتفق أن مضى أبو الحسن إلى أبى بكر الماردانىّ، فقال له: تلك الصفقة قد غلقت ما عليها و فضل أربعون ألف دينار، و قد حصل عندى عشرون ألف دينار حملتها إلى أبى يعقوب، و أرسلت فى استخراج الباقى فأحمله، فقال الماردانىّ: ما هذا العجز؟ إنما قلت لك: تكون بينى و بينك خوفا من تفريطك، و إنما أردت حفظ المال عليك ثم أمر أبا يعقوب أن يردّ عليه ما دفعه إليه، و قال لأبى الحسن: ردّ عليه خطه فقبض ما دفعه إلى أبى يعقوب.

و بلغ خراج مصر فى السنة التى دخل فيها جوهر القائد ثلاثة آلاف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار و نيفا. و قال فى كتاب سيرة المعز لدين اللّه: معدّ و لست عشرة بقيت من المحرّم سنة ثلاث و ستين و ثلثمائة، قلد المعز لدين اللّه الخراج، و وجوه الأموال، و غير ذلك: يعقوب بن كلس، و عسلوج بن الحسن، و جلسا فى هذا اليوم فى دار الإمارة فى جامع ابن طولون للنداء على الضياع، و سائر وجوه الأموال، و حضر الناس للقبالات، و طلبوا البقايا من الأموال مما على المالكين و المتقبلين و العمال.

و قال جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن بن علىّ اليازورى : و أراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة و ما عليها من النفقات ليقايس بينهما، فتقدّم إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجرى فى ديوانه، و ما عليه من النفقات، فعمل ذلك و سلمه إلى متولى ديوان المجلس، و هو زمام الدواوين فنظم عليه عملا جامعا و أحضره إياه، فرأى ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار، منها الشام ألف ألف دينار و نفقاته بإزاء ارتفاعه، و منها الريف و باقى الدولة ألف ألف دينار يقف منها عن معلول و منكسر على موتى و هرّاب و مفقود مائتا ألف دينار و يبقى ثمانمائة ألف دينار يصرف منها للرجال عن واجباتهم و كساويهم ثلثمائة ألف دينار، و عن ثمن غلة للقصور مائة ألف دينار، و عن نفقات القصور مائتا ألف دينار، و عن عمائر و ما يقام للضيوف الواصلين من الملوك و غيرهم مائة ألف دينار، و يبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصله يحملها كل سنة إلى بيت المال المصون، فحظى بذلك عند سلطانه و خف على قلبه. قال: و انتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأوّل، يعنى بعد موت البازورى و حدوث الفتن، و هو قبل سنى هذه الفتن يعنى فى أيام البازورى ستمائة ألف دينار كانت تحمل فى دفعتين فى السنة فى مستهل رجب ثلاثمائة ألف دينار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۱۵۷

و فى مستهل المحرّم بثلاثمائة ألف دينار، فاتضع الارتفاع و عظمت الواجبات.

و قال ابن ميسرة: و أمر الأفضل بن أمير الجيوش بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر، فجاء خمسة آلاف دينار و كان متحصل الأهراء ألف ألف أردب، و قال الأمير جمال الدين و الملك موسى بن المأمون البطائحىّ فى تاريخه من حوادث سنة إحدى و خمسمائة ثم رأى القائد أبو عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحى من اختلال أحوال الرجال العسكرية و المقطعين، و تضررهم من كون إقطاعاتهم قد خس ارتفاعها، و ساءت أحوالهم لقلة المتحصل منها و إن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها، و ازدادت عن غيرها، و إن فى كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجىء بالعسف، و بتردّد الرسل من الديوان الشريف بسببها، فخاطب الأفضل ابن أمير الجيوش: فى أن يحل الإقطاعات جميعها و يروكها و عرّفه أن المصلحة فى ذلك تعود على المقطعين و الديوان لأنّ الديوان يتحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلاد مقورة، فأجاب إلى ذلك، و حلّ جميع الإقطاعات و راكها و أخذ كل من الأقوياء و المميزين

يتضررون، و يذكرون أن لهم بساتين و أملاكا و معاصر فى نواحيهم فقال له: من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع و هو محكم إن شاء باعه، و إن شاء آجره.

فلما حلت الإقطاعات أمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة فى إقطاعات الأقوياء إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم، و كتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم إلى مدّة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد و أحضر الأقوياء و قال لهم: ما تكرهون من الإقطاعات التى كانت بيد الأجناد؟ قالوا: كثرة عبرتها و قلة متحصلها و خرابها، و قلة الساكن بها. فقال لهم: ابذلوا فى كل ناحية ما تحمله، و تقوى رغبتكم فيه و لا تنظروا فى العبرة الأولى، فعند ذلك طابت نفوسهم، و تزايدوا فيها إلى أن بلغت إلى الحدّ الذى رغب كل منهم فيه، فأقطعوا به و كتب لهم السجلات على الحكم المتقدّم، فشملت المصلحة الفريقين، و طابت نفوسهم و حصل للديوان بلاد مقورة بما كان مفرّقا فى الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار.

و قال فى حوادث سنة خمس عشرة و خمسمائة، و كان قد تقدّم أمر الأجلّ المأمون بعمل حساب الدولة من الهلالى و الخراجىّ، و جعل نظمه على جملتين: إحداهما إلى سنة عشر و خمسمائة الهلالية الخراجية، و الجملة الثانية إلى آخر سنة خمس عشرة و خمسمائة هلالية، و ما يوافقها من الخراجية فعقدت على جملة كثيرة من العين و الأصناف، و شرحت بأسماء أربابها، و تعيين بلادها. فلما أحضرت أمر بكتب سجل يتضمن المسامحة بالبواقى إلى آخر سنة عشر و خمسمائة، و نسخته بعد التصدير.

و لما انتهى إلينا حال المعاملين، و الضمناء و المتصرفين و ما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم أنعمنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصدا فى استخلاص ضامن طالت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۵۸

غفلته، و خربت ذمّته، و إنقاذ عامل أجحف به من الديوان طلبته و توفير الرغبة على عمارتها، و جريها فيها على قديم عادتها، و لما كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق إليها و لا شاركنا ملك فيها اقتضت الحال إيرادها فى هذا الكتاب، و إيداعها هذا الباب لما اطلعنا عليه مما انتهت إليه أحوال الضمناء و المعاملين بالمملكة من الاختلال و تجمد البقايا فى جهاتهم، و الأموال عطفنا عليهم برأفة و رحمة و طالعنا المقام الأشرف النبوىّ بالتفصيل من أمورهم و الجملة و استخرجنا الأمر العالى بوضع ذلك فى الحال و أنشأ السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الإحسان و تنفيذها إلى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الأشهاد بسائر البلاد، و مبلغ ما انتهت إليه هذه المسامحة إلى حين ختم هذا السجل من العين ألفا ألف و سبعمائة ألف و عشرون ألفا و سبعمائة و سبعة و ستون دينارا و نصف و ثلث و ثلثان و ربع قيراط، و من الفضة النقرة أربعة دراهم، و من الورق سبعة و ستون ألفا و خمسة دراهم و نصف و سدس درهم، و من الغلة ثلاثة آلاف ألف و ثمان مائة ألف و عشرة آلاف و مائتان و تسعة و ثلاثون أردبا و ثمن و نصف سدس و ثلثى قيراط، و من العناب ربع أردب، و من ورق الصباغ ألفان و أربعمائة و ثلاثة أرادب و نصف، و من زريعة الوسمة عشرة أرادب و ربع، و من الصباغ ألف و أربعمائة و ثمانون قنطارا و رطل و نصف، و من الفوّة أربعمائة و سبعون رطلا، و من الشب تسعمائة و ثلاثة عشر قنطارا و نصف، و من الحديد خمسمائة رطل واحد و ثلاثون رطلا، و من الزفت ألف و ثلثمائة و ثلاثة أرطال و ربع و سدس، و من القطران تسعة عشر رطلا و ثلث، و من الثياب الحلبىّ ثلاثة أثواب، و من المآزر مائة مئز صوف، و من الغرابيل مائة و سبعون غربالا، و من الأغنام مائتا ألف و خمسة و ثلاثون ألفا و ثلثمائة و خمسة أرؤس، و من البسر ثلثمائة و ثلاثة عشر قنطارا و ثمانية و ثلاثون رطلا، و من السحيل ثلاثمائة ألف و خمسة و سبعون ألفا و خمسمائة و خمسون باعا، و من الجريد أربعمائة ألف و ثمانية و ثلاثون ألفا و سبعمائة و ثلاثة و خمسون جريدة، و من السلب ألف و أربعمائة و ثلاثة و عشرون سلبة، و من الأطراف ستة آلاف و سبعمائة و ثلاثة أطراف، و من الملح ألفان و سبعمائة و ثلاثة و تسعون أردبا و ثلث، و من الأشنان أحد عشر أردبا، و من الرمان ألفا حبة، و من العسل النحل خمسمائة واحد و أربعون قنطارا أو سدس، و من الشهد اثنان و ثلاثون زيرا و قادوسا واحدا، و من الشمع أربعمائة و أربعون رطلا و من الخلايا ثلاثة آلاف و أربعمائة و خليتان، و من عسل القصب مائة و ثمانية و ثلاثون قنطارا، و من

الأبقار اثنان و عشرون ألفا و مائة و أربعة و ستون رأسا، و من الدواب أربعة و سبعون رأسا، و من السمن ألفان و تسعمائة و ستة و تسعون مطر أو سدس و ثمن، و من الجبن ثلثمائة و عشرون رطلا، و من الصوف أربعة آلاف و مائة و ثلاثة و عشرون جزء، و من الشعر ستة آلاف و خمسون رطلا- و ربع، و من بيوت الشعر بيتان، و فصل ذلك بجهاته و معاملاته. قال: و لما انتهى إلى المأمون ما يعتمد فى الدواوين من قبول الزيادات و فسخ عقود الضمانات و انتزاعها ممن كابد فيها المشقة، و التعب و تسليمها إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٥٩

باذل الزيادة من غير كلفة و لا نصب أنكر ذلك، و منع من ارتكابه و نهى عن الولوج فى بابه، و خرج أمره بإعفاء الكافة أجمعين و الضمناء و المعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه، و يستولون عليه ما داموا مغلقين و بأقساطهم قائمين، و تضمن ذلك منشور قرىء فى الجامعين الأزهر بالقاهرة و العتيق بمصر، و ديوانى المجلس و الخاص إلّا أمرين السعيدين و نسخته بعد التصدير.

و لما انتهى إلى حضرتنا ما يعتمد فى الدواوين و يقصده جماعة من المتصرفين و المستخدمين من تضمين الأبواب و الرباع و البساتين و الحمامات و القياسر و المساكن، و غير ذلك من الضمانات للرّاغبين فيها ممن تستمرّ معاملته، و لا تنكر طريقته فما هو إلا أن يحضر من يزيد عليه فى ضمانه حتى قد نقض عليه حكم الضمان، و قبل ما يبذل من الزيادة كائنا من كان و قبضت يد الضامن الأوّل عن التصرّف، و مكن الضامن الثانى من التصرف من غير رعاية للعقد على الضامن الأول، و لا تحرّز فى فسخه الذى لا يبيحه الشرع، و لا يتأوّل أنكرنا ذلك على معتمديه، و ذممنا من قصدنا عليه و مرتكبيه إذ كان للحق مجانبا و عن مذهب الصواب ذاهبا، و عرضنا ذلك بالمواقف المقدّسة المطهرة ضاعف اللّه أنوارها و أعلى أبدا منارها و استخرجنا الأوامر المطاعة فى كتب هذا المنشور إلى سائر الأعمال بأنه أىّ أحد من الناس ضمن ضمانا من باب، أو ربع أو بستان أو ناحية أو كفر، و كان لأقساط ضمانه مؤدّيا، و لما يلزمه من ذلك مبديا، و للحق متبعا فإن ضمانه باق فى يده لا تقبل زيادة عليه مؤدّيا، و لما يلزمه من ذلك مبديا، و للحق متبعا فإن ضمانه باق فى يده لا- تقبل زيادة عليه مدّة ضمانه على العقد المعقود عملا بالواجب، و النظام المحمود و إتباعا لما أمر اللّه تعالى به فى كتابه المجيد إذ يقول جلّ من قائل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة/ ١] إلى أن تنقضى مدّة الضمان، و يزول حكمها و يذهب وضعها و رسمها حملا على قضية الواجب و سننها، و اعتمادا على حكم الشريعة التى ما ضل من اهتدى بفرائضها و سننها.

فأما من ضمن ضمانا و لم يقم بما يجب عليه فيه و أصرّ على المدافعة و المغالطة التى لا يعتمدها إلا كل ذميم الطباع سفيه، فذلك الذى فسخ حكم ضمانه بنقصه الشروط المشروطة عليه، و حكمه حكم من إذا زيد عليه فى ضمانه نقل عنه، و أخرج من يديه لأنه الذى بدأ بالفسخ، و أوجد السبيل إليه، فليعتمد كافة أرباب الدواوين و جميع المتصرفين و المستخدمين العمل بما تضمنه هذا المشهور، و امتثال المأمور و حمل هؤلاء الضمناء و المعاملين على ما نص فيه، و الحذر من تجاوزه و تعدّيه بعد ثبوته فى ديوانى المجلس و الخاص إلّا أمرين السعيدين، و بحيث يثبت مثله إن شاء اللّه تعالى.

قال: و وصلته المكاتبة من الوالى و المشارف، و من كان ندب صحبته لكشف الأراضى و السواقى و مساحتها متضمنة ما أظهره الكشف، و أوضحته المساحة على من بيده السواقى، و هم عدّة كثيرة و من جملتها ساقية مساحتها: ثلثمائة و ستون فدّانا تشتمل على النخل و الكرم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦٠

و قصب السكر بمدينة إسنا، خراجها فى السنة عشرة دنانير، و ما يجرى فى الأعمال هذا المجرى و أنهم وضعوا يد الديوان على جميعها، و طلبوا من أرباب السواقى ما يدل على ما بأيديهم، فذكروا أنها انتقلت إليهم و لم يظهروا ما يدل عليها، و قد سيروا أملاكها إلى الباب تحت الحوطة ليخرج الأمر بما يعتمد عليه فى أمرهم، و عند وصولهم أوقع الترسيم عليهم إلى أن يقوموا بما يجب من الخراج عن هذه السواقى فإن الأملاك بجملتها لا- تقوم بما يجب عليها، فوقف المذكورون للمأمون فى يوم جلوسه للمظالم، فأمر بحضورهم بين يديه، و تقدّم إلى القاضى، جلال الملك أبو الحجاج يوسف بن أبى أيوب المغربىّ و هو يومئذ قاضى القضاة

لمحاكمتهم فجرى له معهم مفاوضة أوجبت الحق عليهم، و ألزمهم بالقيام بما يستغرق أموالهم و أملاكهم، فحصل من تضرّرهم ما أوجب العاطفة عليهم، و أخذهم بالخراج من بعد، و أن يضرب عما تقدّم صفحا.

و كتب منشور نسخته: قد علم الكافة ما تراه من إفاضة سحب العدل عليهم، و الإحسان و النظر فى مصالح كل قاص منهم و دان. و إنا لا ندع ضررا يتوجه إلى أحد من الرعية إلا حسمناه، و لا نعلم صلاحا يعود نفعه عليه إلا قوينا سببه، و وصلناه حسب ما يتعين على رعاة الأمم، و عملا بالواجب فى البعيد و الأمم و سلوكا لمحجة الدولة الفاطمية خلد اللّه ملكها القويمة، و استمرارا على قضاياها و سجاياها الكريمة، و لما كنا نرى النظر فى مصالح الرعايا أمرا واجبا و نصرف إلى سياستهم عزما ماضيا، و رأيا ثاقبا. كذلك نرى النظر فى أمور الدواوين و استيفاء حقوقها المصروفة إلى حماية البيضة، و المحاماة عن الدين و جهاد الكفرة و الملحدين ليكون ما نراعيه، و ننظر فيه جاريا على سنن الواجب محروسا من الخلل بإذن اللّه من جميع الجوانب، و من اللّه نستمدّ مواد التوفيق فى الحل و العقد، و نسأله الإرشاد إلى سواء السبيل و القصد، و ما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل، و هو حسبنا و نعم الوكيل.

و كان القاضى الرشيد بن الزبير أيام مشارفته الصعيد الأعلى قد طالع المجلس الأفضلىّ بحال أرباب الأملاك هناك، و أنهم قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضى اغتصبوها، و مواضع مجاورة لأملاكهم تعدّوا عليها، و خلطوها بها و حازوها، و رسم له كشفها و نظم المشاريج بها، و ارتجاعها للديوان. و أن يعتمد فى ذلك ما يوجبه حكم العدل المثبت فى كل قطر و مكان، و بآخر ذلك سيرنا من الباب من يكشف ذلك على حقيقته، و إنهائه على طيته فاعتمدوا ما أمروا به من الكشف فى هذه الأملاك، و وردت المطالعة منهم بأنهم التمسوا ممن بيده ملك أو ساقية ما يشهد بصحة ملكه و مبلغ فدنه، و ذكر حدوده، فلم يحضر أحد منهم كتابا و لا أوضح جوابا، و أصدروا إلى الديوان المشاريج بما كشفوه، و أوضحوه فوجدوا التعدّى فيه ظاهرا و باب الحيف و الظلم غير متقاصر، و الشرع يوجب وضع اليد على ما هذه حاله و مطالبة صاحبه بريعه، و استغلاله، لا سيما و ليس بيده كتاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦١

يشهد بصحة الملك رأسا، و لا يستند فى ذلك حجة ادّخرها احترازا عن مجاهدة سبيله، و احتراسا. و لكن نحكم بما نراه من المصلحة للرعية و العدل الذى أقمنا مناره، و أحيينا معالمه و آثاره مع الرغبة فى عمارة البلاد و مصالح أحوالها، و استنباط الأرضين الدائرة، و إنشاء الغروس، و إقامة السواقى بها أمرنا بكتب هذا المنشور، و تلاوته بأعمال الصعيد الأعلى بإقرار جميع الأملاك و الأرضين و السواقى بأيدى أربابها الآن من غير انتزاع شيء منها، و لا ارتجاعه، و أن يقرّر عليها من الخراج ما يجب تقريره، و يشهد الديوان على أمثالهم بمثله إحسانا إليهم. لم نزل نتابع مثله و نواليه و إنعاما ما برحنا نعيده عليهم و نبديه، و قد أنعمنا و تجاوزنا عما سلف، و نهينا من يستأنف، و سامحنا من خرج عن التعدّى إلى المألوف و جرينا على سننا فى العفو و المعروف، و جعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين، و من عاد من الكافة أجمعين فلينتقم اللّه منه، و طولب بمستأنفه و أمسه و برئت الذمة من ماله و نفسه و تضاعفت عليه الغرامة و العقوبة، و سدّت فى وجهه أبواب الشفاعة و السلامة، و قد فسحنا مع ذلك لكل من يرغب فى عمارة أرض حلفاء دائرة، و إدارة بئر مهجورة معطلة فى أن يسلم إليه ذلك، و يقاس عليه، و لا يؤخذ منه خراج إلا فى السنة الرابعة من تسليمه إياه، و أن يكون المقرّر على كل فدّان ما توجبه زراعته لمثله خراجا مؤبدا و أمرا مؤكدا، فليعتمد ذلك النوّاب، و حكام البلاد و من جرت العادة بحضوره عقد مجلس، و إحضار جميع أرباب الأملاك و السواقى، و إشعارهم ما شملهم من هذا الإحسان الذى تجاوز آمالهم فى إجابتهم إلى ما كانوا يسألون فيه، و تقرير ما يجب على الأملاك المذكورة من الخراج على الوضع الذى مثلناه، و يجيز الديوان تقريره و يرضاه مع تضمين الأراضى الدائرة، و الآبار المعطلة لمن يرغب فى ضمانها و نظم المشاريج بذلك و إصدارها إلى الديوان ليخلد فيه على حكم أمثالها بعد ثبوت هذا المنشور بحيث يثبت مثله قال: و لما سرت هذه المصالح إلى جميع أهل هذه الأعمال حصل الاجتهاد فى تحصيل مال الديوان و عمارة البلاد.

و اعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر و لا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه

الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية، و إنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء، و الأجناد و الوجوه و أهل النواحى من العرب و القبط، و غيرهم لا يعرف هذه إلّا بذة التى يقال لها اليوم الفلاحة، و يسمى المزارع المقيم بالبلد: فلاحا قرارا، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو قط أن يباع و لا أن يعتق بل هو قنّ ما بقى، و من ولد له كذلك.

بل كان من اختار زراعة أرض يقبلها كما تقدّم، و حمل ما عليه لبيت المال، فإذا صار مال الخراج بالديوان أنفق فى طوائف العسكر من الخزائن، و كان مع ذلك إذا انحط ماء النيل عن الأراضى، و تعلقت نواحى مصر بأصناف الزراعات ندب من الحضرة من فيه نباهة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦٢

و خرج معه عدول يوثق بهم، و كانت لهم معرفة بعلم الخراج و كثيرا ما كان هذا الكاتب من النصارى الأقباط و يخرج إلى كل ناحية من ذكرنا، فيحرّرون مساحة ما شمله الرىّ من الأراضى مما لعله بار أو شرق.

و يكتب بذلك مكلفات واضحة بالفدن، و القطائع على جميع الأصناف المزروعة، و يحضر إلى دواوين الباب. فإذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر ندب من الأجناد من عرف بالحماسة و قوّة البطش، و عين معه من الكتاب العدول من قد اشتهر بالأمانة، و كاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة، و ساروا إلى كل ناحية. كذلك فاستخرج مباشر و أكل بلد ثلث ما وجب من مال الخراج على ما شهدت به المكلفات، فإذا أحضر هذا الثلث صرف فى واجبات العساكر، و هكذا العمل فى استخراج كل قسط طول الزمان من كل سنة، و كانت تبقى فى جهات الضمان و المتقبلين جملة بواق.

و كانت بلاد مصر إذ ذاك تقبل بعين و غلة و أصناف، و قد عرف ذلك من نسخة المسموح الذى تضمن ترك البواقى فى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و وزارة المأمون البطائحى، و رأيت بخط الأسعد بن مهذب بن زكريا بن مماتى الكاتب المصرى سألت القاضى الفاضل عبد الرحيم: كم كانت عدّة العساكر فى عرض ديوان الجيش لما كان سيدنا يتولى ذلك فى أيام رزيك بن الصالح؟ فقال: أربعين ألف فارس و نيفا و ثلاثين ألف راجل من السودان.

و قال أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب حسن السريرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة:

أنّ ضرغاما لما ثار على شاور و فرّ شاور إلى السلطان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق يستنجد به على ضرغام، و يعده بأنه يكون نائبا عنه بمصر، و يحمل إليه الخراج أنشأ لنور الدين عزما لم يكن، فجهز ألف فارس، و قدّم عليه أسد الدين شيركوه، و أمره بالتوجه فأبى و قال: لا أمضى أبدا. فإنّ هلاكى و من معى و سوء ما سمعه السلطان معلوم من هنا، و كيف أمضى بألف فارس إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس و مائة سبهبد فيها عشرة آلاف مقاتل و أربعون ألف عبد، و قوم مستوطنون فى أوطانهم فرأيت حرابتهم، و نحن نأتيهم من تعب السفر بهذه العدّة القليلة. قال: ثم أجابه بعد ذلك هذا أعزك اللّه بعد ما كانت عساكر أحمد بن طولون ما سنراه فى ذكر القطائع إن شاء اللّه تعالى.

ثم ما كان من عساكر الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد و هى على ما حكاه غير واحد، منهم ابن خلكان: أنها كانت أربعمائة ألف، و لما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام، و استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر، تغير الحال بعض التغير لا كله.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ستين و خمسمائة فى ثامن المحرّم:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦٣

خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها و جديدها بعد أن أنذر حاضرها و غائبها و توافى وصولها، و تكامل سلاحها و خيولها، فحضر فى هذا اليوم جموع شهد كل من علا سنه و قرطس ظنه أن ملكا من ملوك الإسلام لم يحز مثلها، و شاهدت رسل الروم و الفرنج ما أرغم أنوف الكفرة، و لم يتكامل اجتياز العساكر موكبا بعد موكب، و طلبا بعد طلب.

و الطلب بلغة الغز هو: الأمير المقدّم الذى له علم معقود، و بوق مضروب، و عدّة من مائتى فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا إلى أن انقضى النهار، و دخل الليل، و عاد و لم يكمل عرضهم، و كانت العدّة الحاضرة مائة و سبعة و أربعين طلبا و الغائب منها عشرون طلبا، و تقدير العدّة يناهز أربعة عشر ألف فارس أكثرها طواشية، و الطواشى: من رزقه من سبعمائة إلى ألف إلى مائة و عشرين، و ما بين ذلك و له بركك من عشرة رؤوس إلى ما دونها ما بين فرس، و برذون و بغل و جمل و له، غلام يحمل سلاحه و قرا غلامية تتمة الجملة.

قال: و فى هذه السفرة عرض العربان الخدّامين، فكانت عدّتهم سبعة آلاف فارس و استقرّت عدّتهم على ألف و ثلثمائة فارس لا غير. و أخذ بهذا الحكم عشر الواجب، و كان أصله ألف ألف دينار على حكم الاعتداد الذى يتأصل و لا يتحصل و كلف التغالبة ذلك، فامتعضوا و لوّحوا بالتحيز إلى الفرنج. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج ١ ؛ ص١٦٣

قال فى متجدّدات شهر رجب سنة سبع و سبعين و خمسمائة، استمر انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنة للنظر فى أمور الإقطاعات، و معرفة عبرها و النقص منها، و الزيادة فيها و إثبات المحروم و زيادة المشكور إلى أن استقرّت العدّة على ثمانية آلاف و ستمائة و أربعين فارسا أمراء مائة و أحد عشر أميرا طواشية ستة آلاف و تسعمائة و ستة و سبعون قراغلامية ألف و خمسمائة و ثلاثون و خمسون، و المستقرّ لهم من المال ثلاثة آلاف ألف و ستمائة ألف و سبعون ألفا و خمسمائة دينار، و ذاك خارج عن المحلولين من الأجناد الموسومين بالجوالة على العشر، و عن عدّة العربان المقطعين بالشرقية و البحيرة، و عن الكاتبين و المصريين و الفقهاء و القضاة و الصوفية، و عما يجرى بالديوان و لا يقصر عن ألف ألف دينار.

و قال فى متجدّدات سنة خمس و ثمانين و خمسمائة أوراق بما استقر عليه عبر البلاد من إسكندرية إلى عيذاب إلى آخر الرابع و العشرين من شعبان سنة خمس و ثمانين و خمسمائة خارجا عن الثغور و أبواب الأموال الديوانية و الأحكار و الحبس و منفلوط و منقباط، و عدّة نواح أوردت أسماءها و لم يعين لها فى الديوان عبرة من جملة أربعة آلاف ألف و ستمائة ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١۶۴

و ثلاثة و خمسين ألفا و تسعة عشر دينارا. بعدما يجرى فى الديوان العادلى السعيد و غيره عن الشرقية و المرتاحية و الدقهلية و بوش و غير ذلك، و هو ألف ألف و مائة ألف و تسعون ألفا و تسعمائة و ثلاثة و عشرون دينارا.

تفصيل ذلك: الديوان العادلى: سبعمائة ألف و ثمانية و عشرون ألفا و مائتان و ثمانية و أربعون دينارا. الأمراء و الأجناد المرسوم بإبقاء إقطاعاتهم بالأعمال المذكورة مائة ألف و ثمانية و خمسون ألفا و مائتان و ثلاثة دنانير. ديوان السور المبارك و الأشراف: ثلاثة عشر ألفا و ثمانمائة و أربعة دنانير، العربان: مائتا ألف و أربعة و ثلاثون ألفا و مائتان و ستة و تسعون دينارا. الكنانية: خمسة و عشرون ألفا و أربعمائة و اثنا عشر دينارا، القضاة و الشيوخ: سبعة آلاف و أربعمائة و ثلاثة دنانير، القيمارية و الصالحية و الأجناد المصريون: اثنا عشر ألفا و خمسمائة و أربعة دنانير، الغزاة و العساقلة المركزة بدمياط و تنيس و غيرهم: عشرة آلاف و سبعمائة و خمسة و عشرون دينارا، البارز: ثلاثة آلاف ألف و أربعمائة ألف و اثنان و ستون ألفا و خمسة و تسعون دينارا.

الوجه البحرى: ألف ألف و مائة ألف واحد و خمسون ألفا و ثلاثة و خمسون دينار (تفصيله) ضواحى ثغر الاسكندرية و ثمانية و ثلاثون دينارا، ثغر رشيد: ألفا دينار، البحيرة:

مائة ألف و خمسة عشر ألفا و خمسمائة و ستة و سبعون دينارا، حوف رمسيس: اثنان و تسعون ألفا و أربعمائة و ثلاثة دنانير، فوّه و المزاحميتين: عشرة آلاف و مائة و خمسة و عشرون دينارا، النبراوية: خمسة عشر ألفا و ثلثمائة و خمسة دنانير، جزيرة بنى نصر: مائة ألف و اثنا عشر ألفا و ستمائة و ستة و أربعون دينارا، جزيرة قوسنينا: مائة ألف و ثلاثون ألفا و خمسمائة و اثنان و تسعون دينارا، الغربية: ستمائة ألف و أربعة و سبعون ألفا و ستمائة و خمسة دنانير، السمنودية: مائتا ألف و خمسة و أربعون ألفا و أربعمائة و تسعة و سبعون دينارا، الدنجاوية:

ستة و أربعون ألفا و مائتا و أربعة و سبعون دينارا، المنوفية: مائة ألف و ثمانية و أربعون ألفا و ثلثمائة و سبعة و أربعون دينارا.

الوجه القبلى: ألف ألف و ستمائة و عشرة آلاف و أربعمائة و أحد و أربعون دينارا.

تفصيل ذلك: الجيزة: مائة ألف و ثلاثة و خمسون ألفا و مائتان و أربعة دنانير، الأفطيحية: تسعة و خمسون ألفا و سبعمائة و ثمانية و عشرون دينارا، البوصيرية: ستون ألفا و أربعمائة و ستة و ستون دينارا، الفيومية: مائة ألف و اثنان و خمسون ألفا و ستمائة و أربعة و ثلاثون دينارا، البهنسية: ثلثمائة ألف و اثنان و خمسون ألفا و ستمائة و أربعة و ثلاثون دينارا، الواحات الداخلة، و الخارجتين، و واح البهنسا: خمسة و عشرون ألف دينار، الأشمونين:

مائة ألف و سبعون ألفا و خمسمائة و أربعة دنانير، الأخميمية: مائة ألف و ثمانية آلاف و ثمانمائة و اثنا عشر دينارا، الأعمال القوصية: ثلثمائة ألف و اثنان و ستون ألفا و خمسمائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦٥

دينار، ثغر أسوان: خمسة و عشرون ألف دينار، ثغر عيذاب: يجرى فى غير هذا الديوان.

و قال فى متجدّدات سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة: و الذى انعقد عليه ارتفاع الديوان السلطانىّ ثلثمائة ألف و أربعة و خمسون ألفا و أربعة و أربعون دينارا، و الذى يميز زائد الارتفاع لسنة سبع و ثمانين و خمسمائة على ارتفاع سنة ست و ثمانين اثنان و عشرون ألفا و أربعمائة و خمسة و أربعون دينارا، و الذى انساق من البواقى للسنة المذكورة أحد و ثلاثون ألفا و ستمائة و اثنان و عشرون دينارا و الذى اشتمل عليه متحصل ديوان الخاص الملكى الناصرى بالديار المصرية لسنة سبع و ثمانين اثنان و عشرون ألفا و أربعمائة و خمسة و أربعون دينارا؛ و الذى انساق من البواقى للسنة المذكورة أحد و ثلاثون ألفا و ستمائة و اثنان و عشرون دينارا و الذى اشتمل عليه متحصل ديوان الخاص الملكى الناصرى بالديار المصرية لسنة سبع و ثمانين و خمسمائة ثلثمائة ألف و أربعة و خمسون ألفا و أربعمائة و أربعة و خمسون دينارا و نصف و ثلث و ثمن.

ذكر الروك الأخير الناصرى

و كان الجندى، إقطاعه بمفرده، و له تبع واحد من عشرين ألف درهم إلى ثلاثين، و فيهم من إقطاعه خمسة عشر ألفا و أقلهم عشرة آلاف، و ذلك سوى الضيافة، و بلغ خمسة آلاف درهم فى الإقطاع الثقيل، و كان الجندىّ يخرج إلى السكان بطوالة خيل، و يخرج مقدّم الحلقة كأمير عشرة، و تكون مضافته إذا نزل حوله، و أكثرهم يأكل على سماطه و لا يمكن الأمير أن يأكل إلا و جميع أجناده معه، و يأخذ غلمان أجناده كل يوم الطعام من مطبخه، و إذا رأى نارا توقد سأل عنها فيقال: إن فلانا اشتهى كذا، فيغضب ممن لا يأكل عنده، و مع ذلك كانت أشكالهم بشعة و ملابسهم غير خائلة.

فلما أفضت السلطنة إلى المنصور لاجين: راك البلاد و ذلك أن أرض مصر كانت أربعة و عشرين قيراطا، فيختص السلطان منها بأربعة قراريط، و يختص الأجناد بعشرة قراريط، و يختص الأمراء بعشرة قراريط، و كان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شىء، و يصير ذلك الإقطاع فى دواوين الأمراء، و يحتمى بها قطاع الطريق و تثور بها الفتن، و يقوم بها الهوشات و يمنع منها الحقوق و المقرّرات الديوانية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦٦

و تصير مأكلة لأعوان الأمراء و مستخدميهم، و مضرّة على أهل البلاد التى تجاورها، فأبطل السلطان ذلك، و ردّ تلك الإقطاعات على أربابها و أخرجها بأسرها من دواوين الأمراء.

و أوّل ما بدأ به ديوان الأمير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة، فأخرج منه ما كان فيه من هذه الإقطاعات، و كان يتحصل له منها مائة ألف أردب غلة فى كل سنة، و اقتدى به جميع الأمراء، و أخرجوا ما فى إقطاعاتهم من ذلك فبطلت الحمايات، و جعل السلطان

فى هذا الروك للأمراء و الأجناد أحد عشر قيراطا، و أفرد تسعة قراريط ليخدم بها عسكر أو يقطعهم إياها ثم رتب أوراقا بتكفية الأمراء و الأجناد بعشرة قراريط، و وفر قيراطا لزيادة من عساه يطلب زيادة لقلة متحصل إقطاعه، و أفرد لخاص السلطان عدّة أعمال جليلة، و أفرد للنائب منكوتمر لتفرقة المثالات فى تابعيه، فتنكرت قلوب الأمراء حتى كان من المنصور لاجين، و نائبه منكوتمر ما كان.

فلما كانت الأيام الناصرية راك الناصر محمد البلاد، قال جامع السيرة الناصرية: و فى سنة خمس عشرة و سبعمائة اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يروك الديار المصرية، و أن يبطل منها مكوسا كثيرة، و يفضل لخاص مملكته شيئا كثيرا من أراضى مصر، و كان سبب ذلك أنه اعتبر كثيرا من أخباز المماليك و الحاشية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و الأمير سلار و سائر المماليك البرجية، فإذا هى ما بين ألف دينار إلى ثمانمائة دينار، و خشى من قطع أخباز المذكورين، فولد له الرأى مع القاضى فخر الدين محمد بن فضل اللّه ناظر الجيش أن يروك ديار مصر، و يقرّر إقطاعات مما يختار، و يكتب بها مثالات سلطانية، فتقدّم الفخر، ناظر الجيش، فعمل أوراقا بما عليه عبر النواحى و مساحتها.

و عين السلطان لكل إقليم من أقاليم ديار مصر أناسا، و كتب مرسوما للأمير بدر الدين جيكل بن البابا أن يخرج لناحية الغربية و معه أعزل الحاجب و من الكتاب المكين بن فرويته، و أن يخرج الأمير عز الدين إيدمر الخطيرىّ إلى ناحية الشرقية، و معه الأمير ايتمش المجدى، و من الكتاب أمين الدولة ابن قرموط، و أن يخرج الأمير بلبان الصرخدى و القليجى و ابن طرنطاى، و بيبرس الجمدار إلى ناحية المنوفية و البحيرة، و أن يخرج البليلى و المرتينى إلى الوجه القبلى، و ندب معهم كتابا و مستوفين و قياسين، فساروا إلى حيث ذكر، فكان كل منهم إذا نزل بأوّل عمله طلب مشايخ كل بلد و دلائها و عدولها و قضاتها و سجلاتها التى بأيدى مقطعيها، و فحص عن متحصلها من عين و غلة و أصناف، و مقدار ما تحتوى عليه من الفدن و مزروعها و بورها، و ما فيها من ترايب و بواق و غرس و مستبحر، و عبرة الناحية و ما عليها لمقطعيها من غلة و دجاج و خراف و برسيم و كشك و كعك، و غير ذلك من الضيافة فإذا حرّر ذلك كله ابتدأ بقياس تلك الناحية و ضبط بالعدول و القياسين و قاضى العمل ما يظهر بالقياس الصحيح، و طلب مكلفات تلك القرية و غنداقها و فضل ما فيها من الخاص السلطانى و بلاد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦٧

الأمراء و إقطاعات الأجناد و الرزق حتى ينتهى إلى آخر عمله.

ثم حضروا بعد خمسة و سبعين يوما و قد تحرّر فى الأوراق المحضرة حال جميع ضياع أرض مصر، و مساحتها و عبرة أراضيها و ما يتحصل عن كل قرية من عين و غلة و صنف، فطلب السلطان الفخر ناظر الجيش و التقىّ الأسعد بن أمين الملك المعروف بكاتب سرلغى و سائر مستوفى الدولة و ألزمهم بعمل أوراق تشتمل على بلاد الخاص السلطانى التى عينها لهم، و على إقطاعات الأمراء، و أضاف على عبرة كل بلد ما كان على فلاحيها من ضيافة لمقطعيها و أضاف إلى العبرة ما فى الإقطاع من الجوالى، و كتب مثالات للأجناد بإقطاعات على هذا الحكم فاعتدّ منها بما كان يصرف فى كلف حمل الغلال من النواحى إلى ساحل القاهرة، و ما كان عليها من المكس، و أبطل السلطان عدّة مكوس: منها مكس ساحل الغلة، و كان جلّ متحصل الديوان و عليه إقطاعات الأمراء و الأجناد و يتحصل منه فى السنة أربعة آلاف ألف و ستمائة ألف درهم و عليه أربعمائة مقطع لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف و لكل من الأمراء من أربعين ألف إلى عشرة آلاف، و كانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جدّا، و ينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى، و يحلّ بالناس من ذلك بلاء شديد و تعب عظيم من المغارم و الظلم. فإن مظالمها كانت تتعدّد ما بين نواتية تسرق و كيالين تبخس و شادّين و كتاب يريد كل منهم شيئا، و كان مقرّر الأردب: درهمين للسلطان، و يلحقه نصف درهم غير ما ينهب و يسرق، و كان لهذه الجهة مكان يعرف بخص الكيالة فى ساحل بولاق يجلس فيه شاد و ستون متعمما ما بين كتاب و مستوفين و ناظر، و ثلاثون جنديا مباشرون، و لا يمكن أحدا من الناس أن يبيع قدحا من غلة فى سائر النواحى بل تحمل الغلات حتى تباع فى خص الكيالة ببولاق.

و مما أبطل أيضا نصف السمسرة، و هو عبارة عن أن من باع شيئا من الأشياء فإنه يعطى أجرة الدلال على ما تقرّر من قديم عن كل

مائة درهم درهمين، فلما ولى ناصر الدين الشيخى الوزارة قرّر على كل دلال من دلالته درهما من كل درهمين. فصار الدلال يعمل معدّله و يجتهد حتى ينال عادته و تصير الغرامة على البائع، فتضرّر الناس من ذلك و أوذوا فلم يغاثوا حتى أبطل ذلك السلطان، و مما أبطل رسوم الولاية و كانت جهة تتعلق بالولاة المقدّمين، فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق و بيوت الفواحش، و لهذه الجهة ضامن و تحت يده عدّة صبيان و عليها جند مستقطعون و أمراء و غيرهم، و كانت تشتمل على ظلم شنيع و فساد، قبيح و هتك قوم مستوزين و هجم لبيوت أكثر الناس، و مما أبطل مقرّر الحوائص و البغال من المدينة و سائر أعمال مصر كلها من الوجه القبلى و البحرى، فكان على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦٨

كل من الولاة و المقدّمين مقرر يحمل فى كل قسط من أقساط السنة إلى بيت المال عن ثمن حياصة ثلثمائة درهم، و عن ثمن بغل خمسمائة درهم و على هذه الجهة عدّة مقطعين و يفضل منها ما يحمل، و كان يصيب الناس من هذه الجهة ما لا يوصف و يحلّ بهم من عسف الرقاصين ما يهون معه الموت، و من ذلك مقرّر السجون، و هو عبارة عما يؤخذ من كل من يسجن فللسجان على حكم المقرّر ستة دراهم سوى كلف أخرى، و على هذه الجهة عدّة مقطعين و يرغب فيها الضمان و يتزايدون فى مبلغ ضمانها لكثرة ما يتحصل منها فإنه كان لو تخاصم رجل مع امرأته أو ابنه رفعه الوالى إلى السجن فبمجرّد ما يدخل السجن، و لو لم يقم به إلا لحظة واحدة أخذ منه المقرّر، و كذلك كان على سجن القضاة أيضا.

و من ذلك مقرر طرح الفراريج: و لها ضمان عدّة فى سائر نواحى أرض مصر يطرحون على الناس الفراريج فيمرّ بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم، و تقاسى الأرامل من العسف و الظلم شيئا كثيرا، و كان على هذه الجهة عدّة مقطعين، و لا يمكن أحدا من الناس فى جميع الأقاليم أن يشترى فروجا فما فوقه إلا من الضامن و من عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا من سوى الضامن جاءه الموت من كل مكان، و ما هو بميت.

و من ذلك مقرر الفرسان: و هو عبارة عما يجبيه ولاة النواحى من سائر البلاد فلا يؤخذ درهم مقرّر حتى يغرم عليه صاحبه درهمين و يقاسى الناس فيه أهوالا صعبة.

و من ذلك مقرّر الأقصاب و المعاصر: و هو ما يجبى من مزارعى قصب السكر، و من المعاصر و رجال المعاصر.

و من ذلك مقرّر رسوم الأفراح: و يجبى من سائر النواحى و لهذه الجهة عدّة ضمان و لا يعرف لهذه الجهة أصل البتة، و إنما يجبى بضرائب ينال الناس فيها مع المقرّر غرامات و روعات.

و من ذلك حماية المراكب: و هى عبارة عما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرّر الحماية و كانت هذه الجهة أشدّ ما ظلم به الناس فيؤخذ من كل من ركب البحر للسفر حتى من السؤال و المكدين.

و من ذلك حقوق القينات: و هو عبارة عما يجمع من الفواحش و المنكرات فيجبيه مهتار الطشتخاناه السلطانية من أوباش الناس.

و من ذلك شدّ الزعماء: و هى جهة مفردة و حقوق السودان و كشف المراكب و مقرر ما على كل جارية، أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة فيؤخذ من كل ذكر و أنثى مقرّر معين، و متوفر الجراريف، و هو ما يجبى من سائر النواحى فيحمل ذلك مهندسوا البلاد إلى بيت المال بإعانة الولاة لهم فى تحصيل ذلك و على هذه الجهة عدّة مقطعين من الجند.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٦٩

و مقرّر المشاعلية و هو عبارة عما يؤخذ عن كسح الأفنية و حمل ما يخرج منها من الوسخ إلى الكيمان، فكان إذا امتلأ سراب جامع أو مدرسة أو مسمط أو تربة أو منزل من منازل سائر الناس لا يمكنه و لو بلغ من العظمة ما عسى أن يبلغ التعرّض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة، و يقاوله على كسح ذلك بما يريد و كان من عادة الضامن الإشطاط فى السوم، و طلب أضعاف القيمة فإن لم يرض رب المنزل بما طلب الضامن و إلا تركه و انصرف فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ و يضطرّ إلى سؤاله ثانيا، فيعظم تحكمه و يشتدّ بأسه

إلى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فنائه و رفع ما هنالك من الأقذار.

و من ذلك إبطال المباشرين من النواحى: و كانت بلاد مصر كلها من الوجهين القبلىّ و البحرى ما من بلد صغير و كبير إلا و فيه عدّة من كتاب و شادّ و نحو ذلك، فأبطل السلطان المباشرين و تقدّم منعهم من مباشرة النواحى إلا من بلد فيها مال السلطان فقط، فأراح اللّه سبحانه الخلق بإبطال هذه الجهات من بلاء لا يقدر قدره و لا يمكن وصفه.

و لما أبطل السلطان، هذه الجهات، و فرغ من تعيين الإقطاعات للأمراء و الأجناد أفرز لخاص السلطان من بلاد أرض مصر عدّة نواح، مما كان فى إقطاعات البرجية و هى الجيزة و أعمالها و هو و الكوم الأحمر، و منفلوط و المرج و الخصوص، و غير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من الإقليم، و صار لإقطاعات الأمراء و الأجناد، و غيرهم أربعة عشر قيراطا، و مكر الأقباط فيما أمكنهم المكر فيه، فبدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر، ففرّقوا الإقطاع الواحد فى عدّة جهات، فصار بعض الجبى فى الصعيد و بعضه فى الشرقية، و بعضه فى الغربية إتعابا للجندىّ، و تكثيرا للكلفة، و أفردوا جوالى الذمّة من الخاص، و فرّقوها فى البلاد التى أقطعت للأمراء و الأجناد.

فإن النصارى كانوا مجتمعين فى ديوان واحد كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى، فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم إلى مقطع تلك الضيعة، فاتسع مجال النصارى، و صاروا يتنقلون فى القرى، و لا يدفعون من جزيتهم إلا ما يريدون، فقلّ متحصل هذه الجهة بعد كثرته، و أفردوا ما بقى من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التى تصرف للسماط ليتناولوا ذلك و يوردوا منه ما شاءوا، ثم يتولوا صرف ما يحصل منه فى جهات تستهلك بالأكل، و صارت جهات المكوس مما يتحدّث فيه الوزير، و شاد الدواوين.

ثم نظر السلطان فيما كان بيد الأميرين بيبرس الجاشنكير، و سلار نائب السلطنة من البلاد، فأخذ ما كان باسم كل منهما و باسم حواشيه، و لم يدع من ذلك شيئا مما كانوا قد

وقفوه حتى حله، و جعل الجميع إقطاعات، و اعتدّ فى سائر الإقطاعات بما كان يستهديه المقطع من فلاحه، فحسب ذلك و أقامه من جملة عبر الإقطاع و أبطل الهدية، فلم يتهيأ له الفراغ من ذلك إلى آخر السنة، فلما أهلّ المحرّم من سنة ست عشرة و سبعمائة، و قد نظمت الحسبانات على ثلث مغلّ سنة خمس عشرة. جلس السلطان فى الإيوان الذى استجدّه بقطعة الجبل، و قد تقدّم لسائر نقباء الأجناد على لسان نقيب الجيش بالحضور بأجنادهم، و جعل للعرض فى كل يوم أميرين من الأمراء المقدّمين بمضافيهما، فكان الأمير مقدّم الألف يقف، و معه مضافوه، و ناظر الجيش يستدعيهم من تقدمة ذلك الأمير بأسمائهم على قدر منازلهم، فيقدّم نقيب الجيش، الواحد بعد الواحد من يد نقيبه إلى ما بين يدى السلطان، فإذا مثل بحضرته سأله السلطان بنفسه من غير واسطة عن اسمه، و أصله و جنسه، و وقت حضوره إلى ديار مصر، و مع من قدم، و إلى من صار من الأمراء و غيرهم، و عن مشاهده التى حضرها فى الغزو، و عما يعرفه من صناعة الحرب و غير ذلك من الاستقصاء، فإذا انتهى استفهامه إياه ناوله بيده مثالا من غير تأمّل بحسب ما قسم اللّه له، فلم يمرّ به فى مدّة العرض أحد إلا و قد عرفه و أشار إلى الأمراء بذكر شىء من خبره.

هذا و قد تقدّم إلى سائر الأمراء بأسرهم بأن يحضروا إلى الإيوان عند العرض، و لا يعارض أحد منهم السلطان فى شىء يفعله، فكانوا يحضرون و هم سكوت لا يتكلم أحد منهم خوفا من مخالفة السلطان لما يقوله، و أخذ السلطان فى مواربة الأمراء فما أثنوا على أحد فى مجلس العرض إلا و أعطاه السلطان مثالا بإقطاع ردىء، فلما عملوا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة، و انفرد بالاستبداد بأموره دونهم، فما عرف منه أنه قدّم إليه أحد إلا و سأله: إن كان مملوكا عمن أقدمه من التجار، و سائر ما تقدّم، و إن كان شيخا فعن أصله و سنه و كم مصاف حضرها؟ حتى أتى على الجميع و أفرد المشايخ العاجزين فلم يعطهم إقطاعات، و جعل لكل منهم مرتبا يقوم به، فانتهى العرض فى طول المحرّم، و توفر كثير من مثالات الأجناد فبلغ عدّة مائتى مثال، ثم أخذ فى عرض أطباق المماليك السلطانية، و وفر من جوامكهم كثيرا، و قطع عدّة رواتب من رواتبهم، و عوّضهم عن ذلك إقطاعات، و جعل جهة مكس قطيا لضعفاء الأجناد ممن قطع خبزه فجعل لكل منهم فى السنة ثلاثة آلاف درهم.

و كان لبيبرس، و سلار الجوكندار، تعلقات كثيرة فى بيت المال و فى الأعمال كالجيزة و الإسكندرية من متجر، و حمايات فارتجع ذلك و أبطله و ما شابهه، و أضاف ما لم يقطعه إلى ديوان الخاص، و مما أمر به فى مدّة العرض أن لا يردّ أحد مثالا أخذه من السلطان و لو استقله، و لا يشفع أمير فى جندىّ، و إنّ من خالف ذلك ضرب و حبس و نفى و قطع خبزه، فعظمت مهابة السلطان و قويت حرمته، و لم يجسر أحد أن يردّ عليه مثالا أخذ من السلطان، و لا استطاع أمير أن يتكلم لأحد، و صار كثير ممن كان إقطاعه مثلا ألف دينار إلى إقطاع مائتى دينار، و نحوها و كثير ممن كان إقطاعه قليلا إلى إقطاع معتبر، فإنه كان يعطى المثال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٧١

من غير تأمّل كيفما وقعت يده عليه.

و قدّر اللّه سبحانه و تعالى أنّ السلطان كان من جملة صبيان مطبخه، رجل مضحك يهزل بحضرته، فيضحك منه، و يعجب به و لا يعترض فيما يقول من السخف، فجلس السلطان فى بعض أيام العرض فى البستان بقلعة الجبل، و عنده الخاصة من الأمراء فدخل هذا المضحك، و أخذ فى السخرية على عادته ليضحك السلطان، إلى أن قال: وجدت بعض أجناد الروك الناصرىّ، و هو راكب الإكديش، و خرجه خلفه و رمحه فوق كتفه يقصد بهذا السخرية، و الطعن، فغضب السلطان غضبا شديدا و صاح: خذوه و عرّوه ثيابه، فتبادره الأعوان، و جرّوه برجله، و نزعوا ثيابه و ربطوه فى الساقية مع القواديس، و أكثروا من ضرب الأبقار حتى أسرعت بدوران الساقية، فصار المسكين ينقلب مع القواديس و يغطس فى المادة تارة و يرقى أخرى ثم ينتكس، و الماء يمرّ عليه مقدار ساعة إلى أن انقطع حسه، و أشرف على الهلاك، و اشتدّ رعب الأمراء لما رأوا من قوّة غضب السلطان.

ثم تقدّم الأمير طغاى الدوادار فى طائفة من الأمراء الخاصكية، و اعتذروا عن هذا المسكين بأنه لم يرد إلا أن يضحك السلطان من كلامه، و لم يقصد عيب الأجناد، و لا انتقاصهم و نحو هذا من القول إلى أن أمر بحله، فإذا ليس فيه حركة، فسحب و رسم السلطان بأنه إن كان حيا لا يبيت بديار مصر، فأخرج من وقته منفيا و حمد اللّه كل من الأمراء على ما وفقه من السكوت عن الكلام فى حال العرض.

و ما زال الأمر بمصر على ما رسمه الملك الناصر فى هذا الروك إلى أن زالت دولة بنى قلاوون بالملك الظاهر برقوق فى شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، فأبقى الأمر على ذلك إلا أنّ أشياء منه أخذت تتلاشى قليلا قليلا إلى أن كانت الحوادث و المحن فى سنة ست و ثمانمائة حيث حدث من أنواع التغيرات، و تنوّع الظلم ما لم يخطر ببال أحد، و سيمرّ بك حمل من ذلك عند ذكر أسباب خراب إقليم مصر إن شاء اللّه تعالى، و كانت لأراضى مصر تقاو مخلدة فى نواحيها و هى على قسمين: تقاو سلطانية، و تقاو بلدية، فالتقاوى السلطانية، وضعها الملوك فى النواحى، و كان الأمير أو الجندىّ عند ما يستقرّ على الإقطاع يقبض ماله من التقاوى السلطانية، فإذا خرج عنه طولب بها، فلما كان الروك الناصرى خلدت تقاوى كل ناحية بها، و ضبطت فى الديوان السلطانى فبلغت جملتها مائة ألف و ستين ألف أردب سوى التقاوى البلدية.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٧٢

ذكر الديوان

اشارة

قال أقضى القضاة أبو الحسن الماوردىّ: الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال و الأموال، و من يقوم بها من الجيوش و العمال، و فى تسميته ديوانا و جهان: أحدهما: أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم، فقال: ديوانه، أى: مجانين، فسمى موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم، فقيل: ديوان. و الثانى: أن

الديوان اسم بالفارسية للشياطين، فسمى الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور، و وقوفهم على الجليّ و الخفيّ، و جمعهم لما شذ و تفرّق، و اطلاعهم على ما قرب و بعد، ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم، فقيل: ديوان.

انتهى.

و اعلم أن كتابة الديوان على ثلاثة أقسام: كتابة الجيوش، و كتابة الخراج، و كتابة الإنشاء و المكاتبات، و لا بدّ لكل دولة من استعمال هذه الأقسام الثلاثة، و قد أفرد العلماء فى كتابة الخراج، و فى كتابة الإنشاءات عدّة مصنفات، و لم أر أحدا جمع شيئا فى كتابة الجيوش، و العساكر، و كانت كتابة الدواوين فى صدر الإسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفا مدرجة، فلما انقضت أيام بنى أمية، و قام عبد اللّه بن محمد: أبو العباس السفاح، استوزر خالد بن برمك بعد أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال، فجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود، و كتب فيها و ترك الدروج إلى أن تصرّف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك فى الأمور أيام الرشيد، فاتخذ الكاغد، و تداوله الناس من بعده إلى اليوم.

و ذكر أبو النمر الوراق قال: حدّثنى أبو حازم القاضى قال: قال لى أبو الحسن بن المدبر: لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا، و قال: إنّ أرض مصر مساحتها للزراعة ثمانية و عشرون ألف ألف فدّان، و إنما المعمر منها ألف ألف فدّان. قال: و قال لى ابن المدبر: إنه كان يتقلد ديوان المشرق و ديوان المغرب. قال: و لم أبت قط ليلة من الليالى حتى أنهيه، و لا بقيته، و تقلدت مصر فكنت ربما نمت و قد بقى علىّ شيء من العمل فأستتمه إذا أصبحت.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٧٣

ذكر ديوان العساكر و الجيوش

يقال: إنّ أول من وضع ديوان الجند بخيلهم، كيهراسف، أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس، و إنّ كيقباذ قبله كان قد أخذ العشر من الغلات، و صرفه فى أرزاق جنده، و أما فى الإسلام، فما خرجه البخارى و مسلم من حديث حذيفة رضى اللّه عنه قال: قال النبى صلى اللّه عليه و سلم:

«اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس»، فكتبنا له ألفا و خمسمائة رجل، الحديث. ذكره البخاريّ فى باب كتابة الإمام الناس، و للبخارى من حديث عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى اللّه عليه و سلم فقال: يا رسول اللّه إنى اكتتبت فى غزوة كذا و كذا، و امرأتى حاجة؟ قال: «ارجع فاحجج مع امرأتك». و قال عمرو بن منبه عن معمر عن قتادة قال: آخر ما أتى به النبيّ صلى اللّه عليه و سلم ثمانمائة ألف درهم من البحرين، فما قام من مجلسه حتى أمضاه، و لم يكن للنبيّ صلى اللّه عليه و سلم بيت مال، و لا لأبى بكر.

و أوّل من اتخذ بيت مال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه. و قال ابن شهاب: عمر أوّل من دوّن الدواوين. و روى ابن سعد عن عائشة رضى اللّه عنها قالت: قسم أبى الفيء عام أوّل، فأعطى الحرّ عشرة، و الملوك عشرة، و المرأة عشرة، و أمتها عشرة، ثم قسم العام الثانى، فأعطاهم عشرين عشرين. فقيل: إن سببه أن أبا هريرة رضى اللّه عنه قدم على عمر رضى اللّه عنه بمال من البحرين، فقال له عمر: ما ذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر! و قال: أ تدرى ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرّات، فقال عمر: أطيب هو؟ قال: لا أدرى، فصعد عمر المنبر، فحمد اللّه، و أثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا، و إن شئتم عددنا لكم عدّا، فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدوّنون ديوانا لهم، فدوّن أنت ديوانا، فدوّن عمر. و قيل: بل سببه أن عمر بعث بعثا و عنده الهرمزان، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف منهم رجل من أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديوانا، فسأله عن الديوان حتى فسره له، فاستشار المسلمين فى تدوين الدواوين فقال له علىّ بن أبى طالب:

تقسم كل سنة ما اجتمع عندك من المال، و لا تمسك منه شيئا، و قال عثمان رضى اللّه عنه:

أرى مالا كثيرا يسع الناس، فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر، و قال خالد بن الوليد رضى اللّه عنه: قد كنت بالشام، فرأيت ملوكها دوّنوا ديوانا و جندوا جنودا، فدوّن ديوانا، و جند جنودا، فأخذ بقوله، و دعا عقيل بن أبى طالب، و مخرمة بن نوفل، و جبير بن مطعم، و كانوا كتاب قريش، فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فبدأوا ببنى هاشم، و كتبوهم، ثم أتبعوهم أولاد أبى بكر، و قومه، ثم عمر و قومه، و كتبوا القبائل، و وضعوها على الخلافة، ثم رفعوا ذلك إلى عمر رضى اللّه عنه، فلما نظر فيه قال:

لا، و لكن ابدأوا بقرابة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الأقرب، فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٧٤

فشكره العباس رضى اللّه عنه على ذلك، و قال: وصلت رحمك، و قد اختلف فى السنة التى فرض فيها عمر رضى اللّه عنه الأعطية و دوّن الدواوين فقال الكلبيّ فى سنة خمس عشرة، و حكى ابن سعد عن عمر الواقدى: أنه جعل ذلك فى سنة عشرين. قال الزهريّ: و كان ذلك فى المحرّم سنة عشرين من الهجرة، و قيل: لما فتح اللّه على المسلمين القادسية، و قدمت على عمر رضى اللّه عنه الفتوح من الشام جمع المسلمين، و قال: ما يحلّ للوالى من هذا المال، فقالوا: جميعا. أما الخاصة، فقوته و قوت عياله لا وكس و شطط، و كسوته و كسوتهم للشتاء و الصيف، و دابتان إلى جهاده و حوائجه و حملانه إلى حجته و عمرته، و القسم بالسوية، و أن يعطى أهل البلاد على قدر بلادهم و يرم أمور الناس بعد، و يتعاهدهم فى الشدائد و النوازل حتى تنكشف، و يبدأ بأهل الفىء ثم يجوزهم إلى كل مغلوب ما بلغ الفىء.

و قال الضحاك عن ابن عباس رضى اللّه عنهما: لما افتتحت القادسية، و صالح من صالح من أهل السواد، و افتتحت دمشق و صالح أهل الشام. قال عمر رضى اللّه عنه للناس:

اجتمعوا فأحضرونى علمكم فيما أفاء اللّه على أهل القادسية و أهل الشام، فاجتمع رأى علىّ و عمر رضى اللّه عنهما أن يأخذوه من قبل القرآن فقالوا: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى [الحشر/ ٧] يعنى: من الخمس فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ يعنى: من اللّه الأمر و على الرسول القسم وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ ثم فسروا ذلك بالآية الأخرى التى تليها:

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ [الحشر/ ٨] الآية، فأخذوا أربعة الأخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن بدىء به، و ثنى و ثلث و أربعة أخماس لمن أفاء اللّه عليه المغنم، ثم استشهدوا على ذلك بقوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ [الأنفال/ ٤١] الآية من تلك الطبقات الثلاث و أربعة أخماس لمن أفاء اللّه عليه، فقسم الأخماس على ذلك، فاجتمع على ذلك عمر و علىّ، و عمل به المسلمون بعد ذلك، فبدأ بالمهاجرين ثم الأنصار ثم التابعين الذين شهدوا معهم، و أعانوهم ثم فرض الأعطية من الجزاء على من صالح، أو دعا إلى الصلح من حرابة فردّه عليهم بالمعروف، و ليس فى الجزء أخماس الجزء لمن منع الذمّة، و وفى لهم ممن ولى ذلك منهم، و لمن لحق بهم، فأعانهم بأسوة إلا أن يواسوا بفضله عن طيب أنفس منهم، من لم ينل مثل الذى نالوا.

و عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال عمر رضى اللّه عنه: إنى مجيد المسلمين على الأعطية و مدوّنهم و متحرّى الحق، فقال عبد الرحمن بن عوف و عثمان و علىّ رضى اللّه عنهم: ابدأ بنفسك، قال: لا أبدأ إلا بعم رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، ثم الأقرب فالأقرب منهم من رسول اللّه، ففرض للعباس، و بدأ به، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر رضى اللّه عنه عن أهل الردّة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، و دخل فى ذلك من شهد الفتح، و قاتل عن أبى بكر و من ولى الأيام قبل القادسية، كل هؤلاء على ثلاثة آلاف ثلاثة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٧٥

آلاف، ثم فرض لأهل القادسية، و أهل الشام أصحاب اليرموك ألفين ألفين، و فرض لأهل البلاد النازح منهم ألفين و خمسمائة ألفين و خمسمائة، فقيل له: لو ألحقت أهل القادسية بأهل الأيام، فقال: لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا لاها اللّه إذن، و قيل له: قد

سوّيتهم على بعد دارهم بمن قد قربت داره، و قاتل عن فنائه، فقال: هم كانوا أحق بالزيادة لأنهم كانوا رداء الحقوق، و شجى للعدوّ. و أيم اللّه ما سوّيتهم حتى استطبتهم، فهلا قال المهاجرون مثل قولهم حين سوّينا بين السابقين من المهاجرين، و بين الأنصار، و قد كانت نصرة الأنصار بفنائهم، و هاجر إليهم المهاجرون من بعد، و فرض للروادف الذين ردفوا بعد افتتاح القادسية و اليرموك بعد الفتح ثلثمائة ثلثمائة سوّى كل طبقة فى العطاء ليس بينهم تفاضل، قويهم و ضعيفهم عربيهم و أعجميهم فى طبقاتهم سواء حتى إذا حوى أهل الأمصار من حووا من سباياهم، و ردفت المربع من الروادف فرض لهم على خمسين و مائتين، و فرض لمن ردف من الروادف الخمس على مائتين، فكان آخر من فرض له عمر رضى اللّه عنه أهل هجر على مائتين، و مات عمر على ذلك.

و أدخل فى أهل بدر أربعة من غير أهل بدر: الحسن و الحسين و أبا ذر و سلمان، و قال أبو سلمة: فرض عمر للعباس على خمسة و عشرين ألفا. و قال الزهرىّ: على اثنى عشر ألفا، و جعل نساء أهل بدر إلى الحديبية على أربعمائة أربعمائة، و نساء من بعد ذلك إلى الأيام قبل القادسية على ثلثمائة ثلثمائة، ثم نساء أهل القادسية على مائتين مائتين، ثم سوّى بين النساء بعد ذلك، و جعل للصبيان من أهل بدر و غيرهم مائة مائة، ثم دعا ستين مسكينا، فأطعمهم خبزا بملح فأحصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جزيتين، ففرض لكل إنسان يقوم بالأمر له و لعياله جزيتين جزيتين فى كل شهر: مسلمهم و كافرهم، و فرض لأزواج النبىّ صلى اللّه عليه و سلم عشرة آلاف عشرة آلاف، إلا من جرى عليه البيع، فقالت أمّهات المؤمنين: ما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يفضلنا عليهنّ فى القسمة و لكن كان يسوّى بيننا فسوّ بيننا، فجعلهن على عشرة آلاف عشرة آلاف، و فضل عائشة رضى اللّه عنها بألفين، فأبت. فقال لفضل: منزلتك عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فإذا أخذتها فشأنك.

و كان الناس أعشارا، فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف كل عريف على عشرة، و رزق الخيل على أعرافها، فما زالوا كذلك حتى اختطت الكوفة و البصرة، فغيرت العرفاء و الأعشار، و جعلت أسباعا، و جعل مائة عريف على كل مائة ألف درهم عريف، و كانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة و أربعين رجلا و ثلاثا و أربعين امرأة، و خمسين من العيال لهم مائة ألف درهم، و كل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف و عشرين امرأة، و لكل عيل مائة على مائة ألف درهم، و كل عرافة من الرادفة الأولى ستين رجلا و ستين امرأة، و أربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف و خمسمائة على مائة ألف درهم، و كان العطاء يدفع إلى أمراء الأسباع و أصحاب الرايات، و الرايات على أيادى العرب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٧۶

فيدفعونه إلى العرفاء و النقباء و الأمناء، فيدفعونه إلى أهله فى دورهم. فمات عمر رضى اللّه عنه و الأمر على ذلك، و قد عزم قبل موته أن يجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، و قال:

لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، ألف يخلفها الرجل فى أهله، و ألف يتزوّدها معه فى سفره، و ألف يتجهز بها، و ألف يترفق بها، فمات و هو فى ارتياد ذلك قبل أن يفعل، و كان يقرى البعوث على قدر المسافة إن كان بعيدا فسنة، و إن كان دون ذلك فستة أشهر، فإذا أخل الرجل بثغره نزعت عمامته، و أقيم فى مسجد حيه، فقيل هذا فلان قد أخل. و قال سيف بن عمر: أول عطاء أخذ سنة خمس عشرة، و كان عمرو بن العاص رضى اللّه عنه يبعث من مصر إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه، فلما استخلف عثمان رضى اللّه عنه لثلاث مضين من المحرّم سنة أربع و عشرين زاد الناس مائة، و كان أوّل من زاد، و رفد أهل الأمصار، و هو أوّل من رفدهم، و صنع فيهم الصنائع، فاستن به الخلفاء فى الزيادة.

و كان عمر، قد فرض لكل نفس منفوسة من أهل الفىء فى رمضان درهما فى كل يوم، و فرض لأمهات المؤمنين درهمين. فقيل له: لو صنعت لهم به طعاما، فجمعتهم عليه فقال: اشبعوا الناس فى بيوتهم، فأقرّ عثمان رضى اللّه عنه ذلك، و زاد فوضع لهم طعام رمضان. و قال: هو للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد، و لابن السبيل، و للمعترين بالناس فى رمضان فاقتدى به الخلفاء من بعده.

و كان بمصر، فى خلافة معاوية بن أبى سفيان أربعون ألفا، و كان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين، و كان إنما يحمل إلى معاوية

ستمائة ألف دينار عن فضل أعطيات الجند، و ما يصرف إلى الناس، و كان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر، رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ و هل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام، و لفلان جارية، فيكتب أسماءهم، و يقال: نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله، فيسميه و عياله فإذا فرغ من القيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك، و أعطى مسلمة بن مخلد الأنصارى أمير مصر، أهل الديوان أعطياتهم و أعطيات عيالهم، و أرزاقهم و نوائبهم و نوائب البلاد من الجسور، و أرزاق الكتبة و حملان القمح إلى الحجاز، و بعث إلى معاوية ستمائة ألف دينار فضلا.

و أوّل تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، ثم دوّن عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا، و دوّن قرّة بن شريك التدوين الثالث، ثم دوّن بشر بن صفوان تدوينا رابعا، ثم لم يكن بعد تدوين بشر شيء له ذكر إلا ما كان من إلحاق قيس بالديوان فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان.

فلما انقرضت دولة بنى أمية و غلبت المسودّة بنو العباس أحدثوا أشياء حتى إذا مات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٧٧

عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد لسبع خلون من رجب سنة ثمانى عشرة و مائتين، و بويع أخوه المعتصم، أبو إسحاق محمد بن هارون كتب إلى كندر بن نصر الصفدى أمير مصر، يأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب، و قطع العطاء عنهم ففعل ذلك، و كان مروان بن محمد الجعدى آخر خلائف بنى أمية قطع عن أهل مصر العطاء سنة، ثم كتب إليهم كتابا يعتذر فيه: إنى إنما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدوّ حضرنى، فاحتجت إلى المال، و قد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية، و عطاء هذه السنة فكلوه هنيئا مريئا، و أعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى اللّه قطع العطاء على يديه، و لما قطع كندر عطاء أهل مصر خرج يحيى بن الوزير الجروىّ فى جمع من لخم و جذام و قال له: هذا أمر لا يقوم فينا أفضل منه لأنا منعنا حقنا و فيئنا، فاجتمع إليه نحو خمسمائة رجل.

و مات كندر فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة و مائتين، و ولى ابنه المظفر مصر من بعده، فسار إلى يحيى، و قاتله فى بحيرة تنيس، و أخذه أسيرا فانقرضت دولة العرب من مصر، و صار جندها العجم و الموالى من عهد المعتصم إلى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مصر، فاستكثر من العبيد، و بلغت عدّتهم زيادة على أربعة و عشرين ألف غلام تركىّ، و أربعين ألف أسود، و سبعة آلاف حرّ مرتزق، ثم استجدّ ابنه الأمير أبو الجيش خمارويه بعده عدّة من شناترة حوف مصر، فلما كانت إمارة الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد على مصر، بلغت عدّة عساكره بمصر و الشام أربعمائة ألف تشتمل على عدّة طوائف.

ثم إن الأستاذ أبا المسك كافورا الإخشيدى استجدّ عدّة من السودان فى أيام تحكمه بمصر، فلما تغلب الإمام المعز لدين اللّه أبو تميم معدّ الفاطمى على مصر صارت عساكرها ما بين كتامة و زويلة و نحوها من طوائف البربر، و فيهم الروم و الصقالبة، و هم فى العدد كما قيل. و منهم معدّ. و لم تكن جيوشه تعدّ، و لا لما أوتيه كان حدّ، من كل ما يسعد فيه جدّ، و حتى قيل: إنه لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر بن فليبس المقدونى أكثر عددا من جيوش المعز، فلما قام فى الخلافة بمصر من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار استخدم الديلم و الأتراك و اختص بهم.

و ذكر الأمير المختار عبد الملك المسبحى فى تاريخه: أن خزانة الخاص حملها لما خرج العزيز إلى الشام عشرون ألف جمل خارجا عن خزائن القوّاد و أكابر الدولة.

و ذكر ابن ميسر فى تاريخه: أن عبيد السيدة أم المستنصر بالله أبى تميم، معدّ بن الظاهر لإعزاز دين اللّه أبى الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه أبى علىّ منصور بن العزيز بالله خاصة كانت عدّتهم خمسين ألف عبد سوى طوائف العسكر، و رأيت بخط الأسعد بن مماتى أن عدّة الجيوش بمصر فى أيام رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك كانت أربعين ألف فارس،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٧٨

و ستة و ثلاثين ألف راجل، و زاد غيره، و عشرة شوانى بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل، و هذا عند انقراض الدولة الفاطمية، فلما زالت

دولتهم على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، أزال جند مصر من العبيد السود و الأمراء المصريين و العربان و الأرمن، و غيرهم و استجدّ عسكرا من الأكراد و الأتراك خاصة، و بلغت عدّة عساكره بمصر اثنى عشر ألف فارس لا غير، فلما مات، افترقت من بعده، و لم يبق بمصر مع ابنه الملك العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس، و خمسمائة فارس إلا أن فيهم من له عشرة أتباع، و فيهم من له عشرون، و فيهم من له أكثر من ذلك إلى مائة تبع لرجل واحد من الجند، فكانوا إذا ركبوا ظاهر القاهرة يزيدون على مائتى ألف، ثم لم يزالوا فى افتراق، و اختلاف حتى زالت دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الأتراك، فحذوا حذو مواليهم بنى أيوب، و اقتصروا على الأتراك و شيء من الأكراد، و استجدّوا من المماليك التى تجلب من بلاد الترك شيئا كثيرا حتى يقال: إنّ عدّة مماليك الملك المنصور قلاون كانت سبعة آلاف مملوك، و يقال: اثنى عشر ألفا، و كانت عدّة مماليك ولده الأشرف خليل بن قلاون اثنى عشر ألف مملوك، لم تبلغ بعد ذلك قريبا من هذا إلى أن زالت دولة بنى قلاون فى شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة بالملك الظاهر برقوق، فأخذ فى محو المماليك الأشرفية، و أنشأ لنفسه دولة من المماليك الجركسية بلغت عدّتهم ما بين مشترى و مستخدم أربعة آلاف أو تزيد قليلا، فلما قدم من بعده ابنه الناصر فرج، افترقوا و اختلفوا، فلم يقتل حتى هلك كثير منهم بالقتل و غيره.

و عساكر مصر فى الدولة التركية على قسمين: أجناد الحلقة، و المماليك السلطانية، و أكثر ما كانت أجناد الحلقة فى أيام الناصر محمد بن قلاون، فإنها بلغت على ما رأيته فى جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصرى أربعة و عشرين ألف فارس، ثم ما زالت تنقص حتى صارت اليوم مع قلّة عدّتها سواء منها الألف و الواحد فإنها لا تنفع و لا تدفع، و أما المماليك، فإنها اليوم قليل عددها بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية لا تكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو دونها، و هى اليوم قسمان: أجناد الحلقة، و المماليك السلطانية.

و المماليك السلطانية ثلاثة أقسام: ظاهرية و ناصرية و مؤيدية، و المؤيدية ما بين حكمية و نوروزية، و من استجدّه المؤيد و إن خوفى ليكثر أن يكون الحال بعد الملك المؤيّد، أبى النصر شيخ- خلد اللّه ملكه- يتلاشى إلى أن يؤيد اللّه الملك بابنه الأمير، صارم الدين إبراهيم- شدّ اللّه به أزره- فإنه فتح من البلاد الرومية ما لا ملكه أحد من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج١، ص: ١٧٩

ملوك مصر فى الدولة الإسلامية قبله.

و الشبل فى المخبر مثل الأسد، و ابن السرىّ إذا سرى أسراهما. و لا غرو أن يحذو الفتى حذو والده،

بأبه اقتدى عدى فى الكرمو من يشابه أبه فما ظلم

إن الأصول عليها ينبت الشجر.

ثم لما ملك الأشرف برسباى صارت المماليك سبع طوائف: ظاهرية و ناصرية و مؤيدية و نوروزية و حكمية و ططرية و أشرفية، كل طائفة منها مباينة لجميعها، فلذلك اضمحلت شوكتهم، و انكسرت حدّتهم، و أمنت على السلطان غائلتهم، و لم يخف ثورتهم لتفرّقهم، و إن كانوا مجتمعين و تباينهم و إن كانوا فى الظاهر متفقين.

و اعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية و بنى العباس و الفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه أن تجبى أموال الخراج، ثم تفرّق من الديوان فى الأمراء أو العمال و الأجناد على قدر رتبهم، و بحسب مقاديرهم، و كان يقال لذلك فى صدر الإسلام العطاء، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم، فغير هذا الرسم، و فرّقت الأراضى إقطاعات على الجند، و أوّل من عرف أنه فرّق الإقطاعات على الجند نظام الملك أبو علىّ الحسن بن علىّ بن إسحاق بن العباس الطوسى وزير البرشلان بن داود بن ميكال بن سلجوق، ثم وزر ابنه ملكشاه بن البرشلان، و ذلك أن مملكته اتسعت، فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقلّ على قدر إقطاعه لأنه رأى أن فى تسليم الأراضى إلى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال

المملكة ديوان واحد، فإن الخرق يتسع و يدخل الخلل فى البلاد ففعل نظام الملك ذلك، و عمرت به البلاد، و كثرت الغلات، و اقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع و ثمانين و أربعمائة إلى يومنا هذا، و كانت الخلفاء ترزق من بيت المال. فذكر عطاء بن السائب، فى حديث: أن أبا بكر رضى اللّه عنه، لما استخلف فرض له كل يوم شطر شاة و ما يكسى به الرأس و البطن، و ذكر عن حميد بن هلال: أنه فرض له بردان إذا أخلقهما وضعهما، و أخذ مثلهما، و طهره إذا سافر و نفقته على أهله، كما كان ينفق قبل أن يستخلف.

و ذكر ابن الأثير فى تاريخه: أن الذى فرضوا له ستة آلاف درهم فى السنة، و فرض لعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لما استخلف ما يصلحه و يصلح عياله بالمعروف، و قال له علىّ رضى اللّه عنه: ليس لك غيره، فقال القوم: القول ما قال علىّ يأخذ قوته، و فرض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨٠

عمر لمعاوية بن أبى سفيان على عمله فى الشام عشرة آلاف دينار فى السنة، و قيل: بل رزقه ألف دينار و هو أشبه.

ذكر القطائع و الإقطاعات

يقال: اقتطع طائفة من الشىء: أخذها، و القطيعة ما اقتطعه منه و أقطعنى إياها أذن لى فى اقتطاعها و استقطعه إياهما: سأله أن يقطعه إياها، و أقطعه نهرا و أرضا أباح له ذلك، و قد أقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و تألف على الإسلام قوما، و أقطع الخلفاء من بعده من رأوا فى إقطاعه صلاحا.

روى ابن أبى نجيح عن عمرو بن شعيب عن أبيه: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا، فلم يعمروها، فجاء قوم فعمروها، فخاصمهم الجهينيون أو المزينيون إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فقال عمر: لو كانت منى أو من أبى بكر لرددتها، و لكنها قطيعة من رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، ثم قال: من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها، فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها.

و قال هشام بن عروة، عن أبيه: أقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الزبير أرضا فيها نخل من أموال بنى النضير، و ذكر أنها أرض يقال لها الجرف.

و ذكر أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: أقطع العقيق: أجمع الناس حتى جازت قطيعة عروة، فقال ابن الزبير: المستقطعون فند اليوم، فإن يك فيه خير فتحت قدمى. قال خوّات بن جبير: أقطعنيه فأقطعه إياه، و قال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: لما قدم النبىّ أقطع أبا بكر و أقطع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما، و قال أشعث بن سوار، عن حبيب بن أبى ثابت، عن صلت المكىّ، عن أبى رافع قال: أعطى النبىّ صلى اللّه عليه و سلم قوما أرضا فعجزوا عن عمارتها، فباعوها فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بثمانية آلاف دينارا و بثمانمائة ألف درهم، فوضعوا أموالهم عند علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فلما أخذوها، وجدوها ناقصة، فقالوا: هذا ناقص، قال: احسبوا زكاته، قال: فحسبوا زكاته فوجدوه وافيا، فقال: أ حسبتم أن أمسك مالا و لا أزكيه، و قد سأل تميم الدارى، رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أن يقطعه عيون البلد الذى كان منه بالشام قبل فتحه، ففعل.

و سأله أبو ثعلبة الخشنى أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم، فأعجبه ذلك و قال: ألا تسمعون ما يقول؟ فقال: و الذى بعثك بالحق ليفتحن عليك، فكتب له بذلك كتابا، و قال ثابت بن سعد عن أبيه عن جده: إن الأبيض بن جمال، استقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم ملح مأرب فأقطعه، فقال الأقرع بن حابس التميمى: يا رسول اللّه إنى وردت هذا الملح فى الجاهلية و هو بأرض ليس فيها ملح، من ورده أخذه، و هو مثل الماء العذب بالأرض، فاستقال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨١

الأبيض، فقال: قد أقلتك على أن تجعله منى صدقة، فقال النبىّ صلى اللّه عليه و سلم: «هو منك صدقة، و هو مثل الماء العذب من

ورده أخذه». و قال كثير بن عبد اللّه بن عوف المزنيّ عن أبيه عن جدّه: أقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بلال بن الحارث المعادن القبلية جليتها و غورتها، و قال مالك عن ربيعة عن قوم من علمائهم: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أقطع بلال بن الحرث المزنى معادن بناحية الفرع.

و عن ربيعة عن الحرث بن بلال عن أبيه بلال بن الحرث، أن النبيّ صلى اللّه عليه و سلم أقطعه العقيق أجمع، و عن حماد بن سلمة عن أبى مكين عن أبى عكرمة مولى بلال بن الحرث قال:

أقطع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بلالا أرضا فيها جبل معدن، فباع بنو بلال: عمر بن عبد العزيز أرضا منها، فظهر فيها معدن، أو قال: معدنان، فقالوا: إنما بعناك أرض حرث و لم نبعك المعادن، و جاءوا بكتاب النبى صلى اللّه عليه و سلم لهم فى جريدة، فقبلها عمر و فتح و مسح بها عينيه، و قال لقيمه: انظر ما خرج منها، و ما أنفقت، فقاصهم بالنفقة، و ردّ عليهم الفضل، و اصطفى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه من أرض السواد أموال كسرى، و أهل بيته، و ما هرب عنه أربابه أو هلكوا، فكان مبلغ غلته تسعة آلاف ألف درهم كان يصرفها فى مصالح المسلمين، و لم يقطع شيئا منها، ثم إن عثمان رضى اللّه عنه أقطعها لأنه رأى إقطاعها أوفر لغلتها من تعطيلها، و شرط على من أقطعها أن يأخذ منه حق الفيء، فكان مبلغ غلته خمسين ألف ألف درهم كان منها صلاته و عطاياه، ثم تناقلها الخلفاء بعده، فلما كان عام الجماجم سنة اثنتين و ثمانين فى فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، أحرق الديوان، و أخذ كل قوم ما يليهم، و أقطع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، ابن سندر منية الأصبغ، فحاز منها لنفسه ألف فدّان، و قال وكيع عن سفيان عن جابر الجعفى عن عامر: لم يقطع أبو بكر و لا ـ عمر و لا ـ علىّ رضى اللّه عنهم، و أوّل من أقطع القطائع، عثمان رضى اللّه عنه، و بيعت الأرضون فى خلافة عثمان.

قال الليث بن سعد: و لم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر إلا ابن سندر، فإنه أقطعه أرض منية الأصبغ، فلم تزل له حتى مات، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته، فليس بمصر قطيعة أقدم منها، و لا أفضل. و قال الأعمش عن إبراهيم بن المهاجر عن موسى بن طلحة قال: أقطع عثمان رضى اللّه عنه عبد اللّه ابن مسعود النهرين، و عمار بن ياسر إسنسا، و أقطع خبابا و صهيبا، و أقطع سعد بن أبى وقاص قرية هرمز و كان عبد اللّه بن مسعود و سعد يعطيان أرضهما بالثلث و الربع.

و قال سيف بن عمر، عن عمرو بن محمد عن عمر قال: أقطع الزبير و خباب و عبد اللّه ابن مسعود و عمار بن ياسر، و ابن هبار أزمان عثمان، فإن يكن عثمان أخطأ، فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأوا، و هم الذين أخذنا عنهم ديننا، و أقطع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، طلحة و جرير بن عبد اللّه و الربيل بن عمرو، و أقطع أبا مفرز دار النيل فى عدّة ممن أخذنا عنه، و إنما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨٢

و كتب عمر رضى اللّه عنه إلى عثمان بن حنيف مع جرير بن عبد اللّه البجلى: أما بعد، فأقطع جرير بن عبد اللّه قدر ما يقوّته و لا وكس و لا شطط، فكتب عثمان إلى عمر: إن جريرا قدم علىّ بكتاب منك نقطعه ما يقوّته، فكرهت أن أمضى ذلك حتى أراجعك فيه، فكتب إليه صدق جرير، فأنفذ ذلك، و قد أحسنت فى مؤامرتى، و أقطع أبو موسى الأشعرىّ، و أقطع علىّ بن أبى طالب رحبة كردوس بن هانى، و أقطع سويد بن غفلة الجعفى.

قال سيف عن ثابت بن هزيمة عن سويد بن غفلة قال: استقطعت عليا، فقال: اكتب هذا ما أقطع علىّ سويدا أرضا لدوابه ما بين كذا إلى كذا ما شاء اللّه، و ذكر أبو القسم، عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم ما أقطعه معاوية بن أبى سفيان و من بعده من الخلفاء من دور مصر، فأورد شيئا كثيرا.

و قد كان خلفاء بنى أمية و خلفاء بنى العباس يقطعون الأراضى من أرض مصر، النفر من خواصهم لا كما هو الحال اليوم، بل يكون مال خراج أرض مصر يصرف منه أعطية الجند، و سائر الكلف، و يحمل ما يفضل إلى بيت المال، و ما أقطع من الأراضى فإنه بيد من

أقطعه. و أما منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا. فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان و أمرائه و أجناده.

و أرض مصر اليوم على سبعة أقسام: قسم يجرى فى ديوان السلطان، و هذا القسم ثلاثة أقسام، منه ما يجرى فى الديوان الخاص، و منه ما يجرى فى الديوان المفرد، و قسم من أراضى مصر قد أقطع الأمراء و الأجناد، و قد ذكر تفصيل ذلك عند ذكر الروك الناصرى، و قسم ثالث جعل وقفا محبسا على الجوامع و المدارس و الخوانك، و على جهات البرّ، و على ذرارى واقفى تلك الأراضى و عتقائهم، و قسم رابع يقال له: الأحباس يجرى فيه أراض بأيدى قوم يأكلونها. إما عن قيامهم بمصالح مسجد أو جامع، و إما يكون لهم لا فى مقابلة عمل، و قسم خامس قد صار ملكا يباع و يشترى و يورث و يوهب لكونه اشترى من بيت المال، و قسم سادس لا يزرع للعجز عن زراعته فترعاه المواشى أو ينبت الحطب و نحوه، و قسم سابع لا يشمله ماء النيل، فهو قفر و هذا القسم منه ما لم يزل كذلك منذ عرفت أحوال الخليقة، و منه ما كان عامرا فى الدهر الأوّل ثم خرب، و سائر هذه الأقسام مذكورة أخبارها فى هذا الكتاب تجدها إن أنت تأمّلته إن شاء اللّه تعالى.

و قال أبو عبد اللّه القاسم بن سلام فى كتاب الأموال فى الكلام على حديث معمر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨٣

عن عبد اللّه بن طاوس عن أبيه طاوس قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «عادى الأرض للّه و لرسوله ثم هى لكم». قلت: ما معنى ذلك؟ قال: تكون إقطاعا، هذا الخبر أصل فى الإقطاع و العادى كل أرض كان لها سكان فانقرضوا، أى صارت خرابا فإن حكمها إلى الإمام قال:

و أما الأرض التى جعلها النبىّ صلى اللّه عليه و سلم لبعض الناس و هى عامرة لها أهل فإعطاء الإمام يكون على وجه النفل، و من ذلك ما أعطاه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم تميما الدارى، فإنه أعطاه أرضا بالشام من قبل أن يفتح الشام، و قبل أن يملكها المسلمون، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليهم، كما فعل نائبه، نفيلة، لما وهبها الشيبانى قبل افتتاح الحيرة، فأمضاها له خالد بن الوليد رضى اللّه عنه، و كذلك أمضى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لتميم الدارى لما فتحت فلسطين، ما كان النبىّ صلى اللّه عليه و سلم نفله، انتهى.

فقد خرّج أبو عبد اللّه، هذه العطية المعلقة مخرج النفل الذى ينفله الإمام بعض المقاتلة.

و قال أبو الحسن علىّ بن محمد بن حبيب الماوردى فى الأحكام السلطانية:

و الإقطاع ضربان: إقطاع استغلال، و إقطاع تمليك. و الثانى ينقسم إلى موات و عامر، و الثانى ضربان: أحدهما: ما يتعين مالكه و لا نظر للسلطان فيه إلا- بتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام فإن كانت فى دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد، فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها، فإنه يجوز فقد سأل تميم الدارى، رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أن يعطيه عيون البلد الذى كان منه قبل أن يفتح الشام ففعل، و سأله أبو ثعلبة الخشنى أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم فأعجبه ذلك و قال: ألا تسمعون ما يقول هذا؟

فقال: و الذى بعثك بالحق ليفتحنّ عليك، فكتب له بذلك كتابا.

قال الماوردىّ: و هكذا لو استوهب أحد من الإمام مالا فى دار الحرب و هو على ملك أهلها أو استوهبه شيئا من سبيها أو ذراريها ليكون أحق به إذا فتحت جاز و صحت العطية منه مع الجهالة بها لتعلقها بالأمور العامة.

و قد روى الشعبىّ: أن خزيمة بن أوس الطائىّ، قال للنبىّ صلى اللّه عليه و سلم: إن افتح اللّه عليك الحيرة فأعطنى بنت نفيلة، فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة قال له خزيمة: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أعطانى بنت نفيلة، فلا تدخلها فى صلحك، فشهد له بشر بن سعد، و محمد بن مسلمة، فاستثناها من الصلح و دفعها إلى خزيمة، فاشتريت بألف درهم، و كانت عجزت و حالت عما عهد منها،

فقيل له: قد أرخصتها و كان أهلها يدفعون لك أضعاف ما سألت، فقال: ما كنت أظنّ أن عددا يكون أكثر من ألف.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨۴

قال الماوردىّ: و إذا صح الإقطاع و التمليك على هذا الوجه نظر حال الفتح فإن كان صلحا خلصت الأرض لمقطعها، و كانت خارجة عن حكم الصلح بالإقطاع السابق، و إن كان الفتح عنوة كان المقطع و المستوهب أحق بما استقطعه، و استوهبه من الغانمين و نظر فى الغانمين فإن كانوا علموا بالإقطاع أو الهبة قبل الفتح، فليس لهم المطالبة بعوض، و إن لم يعلموا حتى فتحوا عاوضهم الإمام بما يستطيب نفوسهم من غير ذلك من الغنائم.

و قال أبو حنيفة رحمه اللّه تعالى: لا يلزم الإمام استطابة نفوسهم منه و لا من غيره من الغنائم إذا رأى المصلحة فى ذلك.

ذكر ديوان الخراج و الأموال

اشارة

يقال لكتابة الخراج: قلم التصريف، و أوّل ما دوّن هذا الديوان فى الإسلام بدمشق و العراق على ما كان عليه قبل الإسلام، و كان ديوان الشام بالرومية، و ديوان العراق بالفارسية، و ديوان مصر بالقبطية، فنقلت دواوين هذه الأمصار إلى العربية، و الذى نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية: عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان أمير مصر، فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع و ثمانين، و نسخها بالعربية و صرف أنتناش عن الديوان و جعل عليه ابن يربوع الفزارىّ من أهل حمص، و أوّل من نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية:

الوليد بن هشام بن مخزوم بن سليمان بن ذكوان، و توفى سنة اثنتين و عشرين و مائتين، و الأكثرون على أن الذى نقل ديوان العراق إلى العربية صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج، و كان مولى لبنى سعد، و هو يومئذ صاحب دواوين العراق، و ذلك بعد سنة ثمانين، و سبب ذلك أن صالح بن عبد الرحمن هذا، كان أبوه من سبى سجستان، و مهر صالح فى الكتابة، و كتب لزادان فروخ كاتب الحجاج بن يوسف الثقفىّ، و خط بين يديه بالفارسية و العربية، فخف على قلب الحجاج فخاف من زادان، و قال له: أنت الذى رقيتنى حتى وصلت إلى الأمير، و أراه قد استخفنى، و لا آمن أن يقدّمنى عليك، فتسقط منزلتك، فقال زادان: لا تظنّ ذلك هو أحوج إلىّ منى إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى، فقال صالح: و اللّه لو شئت أن أحوّل الحساب إلى العربية لحوّلته، قال: فحوّل منه أسطرا حتى أرى! ففعل، فقال له: تمارض، فتمارض، فبعث إليه الحجاج بطبيبه، فشق ذلك على زادان، و أمره أن لا يظهر للحجاج، فاتفق عقيب ذلك أن زادان قتل فى فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، و هو خارج من موضع كان فيه إلى منزله، فاستكتب الحجاج بعده صالحا، فأعلم الحجاج بما جرى له مع زادان فى نقل الديوان، فأعجبه ذلك و عزم عليه فى إمضائه، فنقله من الفارسية إلى العربية، و شق ذلك على الفرس، و بذلوا له مائة ألف درهم على أن لا يظهر النقل، فأبى عليهم، فقال له مروان شاه بن زادان فروخ: قطع اللّه أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية، و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨۵

عبد الحميد بن يحيى يقول: للّه در صالح ما أعظم منته على الكتاب.

و أما ديوان الشام، فإن الذى نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل، و اختلف فى وقت نقله فقيل: نقل فى خلافة عبد الملك بن مروان، و قيل:

فى خلافة هشام بن عبد الملك، و كان الذى يكتب على ديوان الشام، سرجون بن منصور النصرانى فى أيام معاوية بن أبى سفيان، ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون.

ذكر خراج مصر فى الإسلام

أوّل من جبى خراج مصر فى الإسلام، عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، فكانت جبايته اثنى عشر ألف ألف دينار، بفريضة دينارين دينارين من كل رجل، ثم جبى، عبد اللّه بن سعد ابن أبى سرح مصر أربعة عشر ألف ألف دينار، فقال عثمان بن عفان رضى اللّه عنه لعمرو بن العاص: يا أبا عبد اللّه درت اللقحة بأكثر من درها الأوّل، فقال: أضررتم بولدها، و هذا الذى جباه عمرو، ثم عبد اللّه إنما هو من الجماجم خاصة دون الخراج، و انحط خراج مصر بعدهما لنموّ الفساد مع الزمان، و سريان الخراب فى أكثر الأرض، و وقوع الحروب، فلم يجبها بنو أمية، و خلفاء بنى العباس إلا دون الثلاثة آلاف ألف، ما خلا أيام هشام بن عبد الملك، فإنه وصى عبيد اللّه بن الحبحاب عامل مصر بالعمارة فيقال: إنه لم يظهر من خراج مصر بعد تناقصه كثرة إلا فى وقتين، أحدهما فى خلافة هشام بن عبد الملك عند ما ولى الخراج عبيد اللّه بن الحبحاب، فخرج بنفسه و مسح العامر من أراضى مصر، و الغامر مما يركبه ماء النيل، فوجد قانون ذلك ثلاثين ألف ألف فدّان سوى ارتفاع الجرف و وسخ الأرض فراكها كلها، و عدّ لها غاية التعديل، فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار هذا و السعر راخ، و البلد بغير مكس، و لا ضريبة.

و فى سنة سبع و مائة لأوّل أيام هشام بن عبد الملك، وظف ابن الحبحاب بمصر، طبقات معلومة منسوبة فى الدواوين، و لم تزل إلى ما بعد ذهاب بنى أمية، و مبلغها ألف ألف دينار و سبعمائة ألف دينار و ثمانمائة و سبعة و ثلاثون دينارا منها على كور الصعيد: ألف ألف و أربعمائة دينار و عشرون دينارا. و نصف و الباقى على كور أسفل الأرض.

و يقال: إن أسامة بن زيد جباها فى خلافة سليمان بن عبد الملك، مبلغ اثنى عشر ألف ألف دينار.

و الوقت الثانى فى إمارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر، و قد خربت أرض مصر حتى بقى خراجها ثمانمائة ألف ألف دينار، فاستقصى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨٦

أحمد بن طولون فى العمارة، و بالغ فيها، فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار و ثلثمائة ألف دينار، و جباها ابنه الأمير أبو الجيش، خمارويه بن أحمد أربعة آلاف ألف دينار مع رخاء الأسعار أيامئذ، فإنه ربما بيع فى الأيام الطولونية القمح كل عشرة أرادب بدينار.

و ذكر ابن خرداذبه أن خراج مصر فى أيام فرعون، كان ستة و تسعين ألف ألف دينار، و أن ابن الحبحاب، و جباها ألفى ألف و سبعمائة ألف و ثلاثة و عشرين ألفا و ثمانمائة و تسعة و ثلاثين دينارا، و هذا و هم منه، فإن هذا القدر هو ما حمله إلى بيت المال بدمشق بعد أعطية أهل مصر، و كلفها قال: و حمل منها موسى بن عيسى الهاشمىّ ألفى ألف و مائة ألف و ثمانين ألف دينار، يعنى بعد العطاء و المؤن و سائر الكلف، قال: و كان خراج مصر إذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع أربعة آلاف ألف دينار و مائتى ألف و سبعة و خمسين ألف دينار، و المقبوض عن الفدّان دينارين فى خلافة المأمون و غيره.

و بلغ خراج مصر فى أيام الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد ألفى ألف دينار سوى ضياعه التى كانت ملكا له و الإخشيد أوّل من عمر الرواتب بمصر، و كان كاتبه، ابن كلا، قد عمل تقديرا عجز فيه المرتب عن الارتفاع مائتى ألف دينار، فقال له الإخشيد: كيف نعمل؟ قال: حط من الجرايات و الأرزاق فليس هؤلاء أولى من الواجب، فقال: غدا تجيئنى، و تدبر هذا، فلما أتاه من الغد قال له الإخشيد: قد فكرت فيما قلت فإذا أصحاب الرواتب الضعفاء، و فيهم المستورون و أبناء النعم، و لست آخذ هذا النقص إلا منك، فقال ابن كلا: سبحان اللّه! فقال: تسبيحا، و ما زال به الإخشيد حتى أخذ خطه بالقيام بذلك، فعوتب على ما صنعه، فقال: يا قوم اسمعوا إيش كان يعمل؟ جاءه أحمد بن محمد بن الماردانى فقال له: ما بينى و بين السلطان معاملة، و لا للإخشيد علىّ طريق، و هذه هدية عشرة آلاف دينار للإخشيد و ألف دينار لك، فجاءنى، و قال لك قبل ابن الماردانى مطالبة، فقلت: لا، فقال: هذه ألف دينار قد جاءتك على وجه الماء، فأعطانى ألفا و أخذ عشرة آلاف دينار، و أهدى إلىّ محمد بن علىّ الماردانى فى وقت عشرين ألف دينار

على يده فاستقللتها، فلما اجتمعنا عاتبته فقال لى: أرسلت إليك مائة ألف دينار و لابن كلا كاتبك عشرين ألف دينار، فأخذ المائة و أعطانى العشرين ألفا، فذكرت قول محمد بن علىّ له، فقال: ما أبرد هذا! حفظت لك المائة ألف لوقت حاجتك تريدها خذها، و أنا أعلم أنك تتلفها.

و بلغت الرواتب فى أيام كافور الإخشيدى، خمسمائة ألف دينار فى السنة لأرباب النعم و المستورين و أجناس الناس ليس فيهم أحد من الجيش، و لا من الحاشية، و لا من المتصرّفين فى الأعمال، فحسن له علىّ بن صالح الروذبادى الكاتب، أن يوفر من مال الرواتب شيئا ينتقصه من أرزاق الناس، فساعة جلس يعمل حكه جبينه، فحكه بقلمه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۸۷

و الحكاك يزيد به إلى أن قطع العمل، و قام لما به، فعولج حينئذ بالحديد حتى مات فى رمضان سنة سبع و أربعين و ثلثمائة، و هذه موعظة من اللّه لمن توسط للناس بالسوء، قال تعالى: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر/ ۴۳].

و لما مات كافور نزلت محن شديدة كثيرة بمصر من الغلاء و الفناء و الفتن، فاتضع خراجها إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر مولاه، المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، فجبى الخراج لسنة ثمان و خمسين و ثلثمائة ثلاثة آلاف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار و نيفا، و أمر الوزير الناصر للدين أبو الحسين عبد الرحمن اليازورى وزير مصر، فى خلافة المستنصر بالله بن الظاهر أن يعمل قدر ارتفاع الدولة، و ما عليها من النفقات، فعمل أرباب كل ديوان ارتفاعه، و ما عليه و سلّم الجميع لمتولى ديوان المجلس، و هو زمام الدواوين، فنظم عليه عملا جامعا و أتاه به، فوجد ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار منها، الشام ألف ألف دينار، و نفقاته بإزاء ارتفاعه، و الريف و باقى الدولة ألف ألف دينار. قال القاضى أبو الحسن فى كتاب المنهاج فى علم الخراج: وقفت على مقايسة عملت لأمير الجيوش، بدر الجمالى حين قدم مصر فى أيام الخليفة المستنصر و غلب على أمرها، و قهر من كان بها من المفسدين شرح فيها أن الذى اشتمل عليه الارتفاع فى الهلالىّ لسنة ثلاث و ثمانين و أربعمائة، و فى الخراجىّ على ما يقتضيه الديوان فيه، مما كان جاريا فى الأعمال المصرية من الخراج، و ما يجرى معه، و المضمون و المقطع و المورد بغيره و المحلول بالقاهرة و مصر و ضواحيهما و ناحيتى الشرقية و الغربية من أسفل الأرض، و أعمالها و تنيس و دمياط و أعمالها و الإسكندرية و البحيرة و الأعمال الصعيدية العالية، و الدانية و واحات، و عيذاب لسنة ثمانين و أربعمائة الخراجية على الرسوم المصرية، و ما كان من الأعمال الشامية التى أوّلها من حدّ الشجرتين، و هو أوّل الأعمال الفلسطينية و الأعمال الطرابلسية و لسنة ثمان و سبعين و أربعمائة الخراجية على ما استقرّت عليه الجملة عينا ثلاثة آلاف ألف و مائة ألف دينار، و إن الذى استقرّ عليه جملة ما كان يتأدّى فى سنة ست و ستين و أربعمائة الهلالية قبل نظر أمير الجيوش الموافقة لسنة ثلاث و ستين و أربعمائة الخراجية، فكان مبلغها ألفى ألف و ثمانمائة ألف دينار، و كان الزائد للسنة الجيوشية عما قبلها ثلثمائة ألف دينار، مما أعرب عنه حسن العمارة، و شمول العدل، و كان نظم هذه المقايسة سنة ثلاث و ثمانين و أربعمائة.

و ذكر ابن ميسر: أن الأفضل بن أمير الجيوش أمر بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر، فجاء خمسة آلاف ألف دينار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۱۸۸

و ذكر القاضى الفاضل فى مياوماته: أنه عبر البلاد من إسكندرية إلى عيذاب لسنة خمس و ثمانين و خمسمائة خارجا عن الثغور، و أرباب الأموال الديوانية، و عدّة نواح أربعة آلاف ألف و ستمائة ألف و ثلاثة و خمسين ألفا و تسعة و عشرين دينارا، ثم تقاصرت إلى أن جباها القاضى الموفق أبو الكرم بن معصوم العاصمىّ التنيسىّ، عينا خالصا إلى بيت المال بعد المؤن، و الكلف ألف ألف دينار، و مائتى ألف دينار إلى آخر سنة أربعين و خمسمائة، ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية.

و سبب اتضاع خراج مصر، بعد ما بلغ مع الروم فى آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين ألف ألف دينار، أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق فى كلف عمارة الأرض، فإنها تحتاج أن ينفق عليها ما بين ربع متحصلها إلى ثلثه، و آخر ما اعتبر حال أرض

مصر، فوجد مدّة حرثها ستين يوما، و مساحة أرضها مائة ألف ألف و ثمانين ألف ألف فدّان، يزرع منها فى مباشرة ابن مدبر أربعة و عشرون ألف ألف فدّان، و إنه لا يتم خراجها، حتى يكون فيها أربعمائة ألف و ثمانون ألف حرّاث يلزمون العمل فيها دائما، فإذا أقيم بها هذا القدر من العمال فى الأرض تمت عمارتها، و كمل خراجها، و آخر ما كان بها مائة ألف و عشرون ألف مزارع فى الصعيد، سبعون ألفا، و فى أسفل الأرض خمسون ألفا، و قد تغير الآن جميع ما كان بها من الأوضاع القديمة، و اختلت اختلالا فاضحا.

ذكر أصناف أراضى مصر و أقسام زراعتها

اعلم أن أراضى مصر عدّة أصناف: أعلاها قيمة و أوفاها سعرا و أعلاها قطيعة الباق ، و هو: أثر القرط، و المقاثى فإنه يصلح لزراعة القمح، و بعد الباق رى الشراقى، و هو الأرض التى ظمئت فى الخالية، فلما رويت فى الآتية، و صارت مستريحة من الزرع، و زرعت أنجب زرعها، و البرايب، و هو أثر القمح و الشعير و سعرها دون الباق لضعف الأرض بزراعة هذين الصنفين، فمتى زرعت على أثر أحدهما لم ينجب كنجابة الباق، و البرايب صالح لزراعة القرط و القطانى و المقاثى، فإن الأرض تستريح بزراعة هذه الأصناف و تصير فى القابل أرض باق، و السقماهية أثر الكتان فإن زرعت قمحا خسر، و الشتونية أثر ما روى، و بار فى السنة الماضية، و هو دون الشراقى، و السلايح ما روى و بار فحرث و تعطل، و هو مثل ریّ الشراقى فإن زرعه يكون ناجبا و النقا: كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها، و لم يبق بها شاغل عن قبول ما يزرع فيها من أصناف الزراعات، و الوسخ: كل أرض استحكم و سخها، و لم يقدر الزارعون على إزاحته كله منها بل حرثوا، و زرعوا فيها فجاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٨٩

زرعها مختلطا بالحلفاء و نحوها، و الغالب كل أرض حصل فيها نبات شغلها عن قبول الزراعة، و منع كثرته من زراعتها، و صارت مراعى، و الخرس: كل أرض فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع و كانت بها مراع و هو أشدّ من الوسخ الغالب، و إذا أدمن على إزالة ما فيها من الموانع تهيأ صلاحها، و الشراقى: كل أرض لم يصل إليها الماء إما لقصور ماء النيل أو علوّ الأرض، أو سدّ طريق الماء عنها، أو غير ذلك، و المستبحر: كل أرض و طيئة حصل بها الماء، و لم يجد مصرفا حتى فات أوان الزرع، و هو باق فى الأرض، و السباخ: كل أرض غلب عليها الملح حتى ملحت، و لم ينتفع بها فى زراعة الحبوب، و ربما زرعت ما لم يستحكم السباخ فيها غير الحبوب كالهليون و الباذنجان، و يزرع فيها القصب الفارسى.

و مما لا غنى لأراضى مصر عنه الجسور و هى على قسمين: سلطانية و بلدية.

فالجسور السلطانية: هى العامة النفع فى حفظ النيل على البلاد كافة إلى حين يستغنى عنه و لها رسوم موظفة على الأعمال الشرقية، و الأعمال الغربية، و كانت فى القديم تعمل من أموال النواحى و يتولى عملها مستقبلو الأراضى، و يعتدّ لهم بما صرف عليها مما عليهم من قبالات الأراضى، ثم صار بعد ذلك يستخرج برسم عملها من هذين العملين، مال بأيدى المستخدمين من الديوان، و يصرف عليها و يفضل من المال بقية تحمل إلى بيت المال، ثم صار يتولى ذلك أعيان أمراء الدولة إلى أن حدثت الحوادث فى أيام الناصر فرج، فصار يجبى من البلاد مال عظيم، و لا يصرف منه شىء البتة، بل يرفع إلى السلطان، و يتفرّق كثير منه بأيدى الأعوان، و يسخر أهل البلاد فى عمل الجسور، فيجىء الخلل كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى عند ذكر أسباب الخراب.

و أما

الجسور البلدية: فإنها عبارة عما يخص نفعها ناحية دون ناحية، و يتولى إقامتها المقطعون و الفلاحون من أصل مال الناحية. و محل الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته، و كفاية الرعية أمره. و محل الجسور البلدية، محل الدوز التى من داخل السور، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها، و يزيل ضررها و من العادة أن المقطع إذا انفصل و كان قد أنفق شيئا من مال إقطاعه فى إقامة جسر لأجل عمارة السنة التى انتقل الإقطاع عنه فيها، فإن له أن يستعيد من المقطع الثانى نظير ما

أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره.

و أصلح ما زرع القمح فى أثر الباق و الشراقى، و كان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح، و ربما زرع هناك على أثر الكتان و الشعير، و يزرع القمح من نصف شهر بابه إلى آخر هتور، و هذا فى العوالى من الأرض التى تخرج بدريا.

و أما البحائر المتأخرة: فيمتدّ وقت الزرع فيها إلى آخر كيهك، و مقدار ما يحتاج إليه

الفدّان الواحد من بذر القمح يختلف بحسب قوّة الأرض و ضعفها و رقتها و توسطها و ما يزرع فى اللوق و ما يزرع فى الحرث، و أكثر البذر من أردب إلى خمس ويبات و أربع ويبات أيضا.

و يوجد فى الصعيد أراض تحتمل دون هذا و فى حوف رمسيس أراض يكفى الفدّان منها نحو الويبتين، و يدرك الزرع بمصر فى بشنس و هو نيسان، و يختلف ما يخرج من فدّان القمح بحسب الأراضى فيرمى من أردبين إلى عشرين أردبا.

و قال أبو بكر بن وحشية فى كتاب الفلاحة: و ذكر أن فى مصر إذا زرعوا يخرج من المدّ ثلثمائة مدّ، و العلة فى ذلك حرارة هواء بلادهم مع سمن أرضهم، و كثرة كدورة ماء النيل.

و لما كان فى سنة ست و ثمانمائة انحسر الماء عن قطعة أرض من بركة الفيوم التى يقال لها اليوم: بحر يوسف، فزرعت و جاء زرعها عجيبا رمى الفدّان منها، أحدا و سبعين أردبا من شعير بكيل الفيوم، و أردبها تسع ويبات، و كانت قطيعة فدّان القمح ببلاد الصعيد فى أيام الفاطمية: ثلاثة أرادب، فلما مسحت البلاد فى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة تقرّر على كل فدّان أردبان و نصف، ثم صار يؤخذ أردبان عن الفدّان.

و أما أراضى أسفل الأرض فيأخذ عنها لا غلة، و يزرع الشعير فى أثر القمح و غيره فى الأرض التى غرقت و هى رطبة، و يتقدّم زراعته على زراعة القمح بأيام، و كذلك حصاده، فإنه يحصد قبل القمح، و يحتاج الفدّان منه أن يبذر فيه بحسب الأرض و يخرج أكثر من القمح و يكون إدراكه فى برموده و هو أذار.

و يزرع الفول فى الحرث إثر البرايب، من أوّل شهر بابه و يؤكل و هو أخضر فى شهر كيهك، و يحتاج الفدّان من البذر منه إلى ثلاث ويبات و نحوها، و يدرك فى برموده، و يتحصل من فدّانه، ما بين عشرين أردبا إلى ما دون ذلك.

و يزرع العدس و الحمص من هتور إلى كيهك، و الجلبان لا يزرع إلا فى أرق الأراضى حرثا من الأرض العالية، و يزرع تلويقا فى الأراضى الخرس، و يبذر فى كل فدّان من الحمص من أردب إلى ثمان ويبات، و من الجلبان: من أردب إلى أربع ويبات، و من العدس، من و يبتين إلى ما دونهما، و تدرك هذه الأصناف فى برموده، و يتحصل من فدّان الحمص من أربعة أرادب إلى عشرة، و من الجلبان، من عشرة أرادب إلى ما دونها، و العدس من عشرين أردبا فما دونها.

و أنجب ما يكون الكتان ذا زرع فى البرش ، و يحتاج أن يسبخ بتراب سباخ، و هو إذا

طال رقد، و يقلع قضبانا و يسمى حينئذ: أسلافا و ينشر فى موضعه حتى يجف، فإذا جف حمل و هدر و عزل جوزه، فيخرج منه بزر الكتان، و يستخرج منه الزيت الحار، و يزرع الكتان فى شهر هتور، و يحتاج الفدّان أن يبذر فيه من البزر ما بين أردب و ثلث إلى ما دون ذلك، و يدرك فى شهر برموده، و يخرج من الفدّان ما بين ثلاثين شدّة إلى ما دون ذلك، و من البزر من ستة أرادب إلى ما دونها، و كانت قطيعة الفدّان منه فى القديم بأرض الصعيد، من خمسة دنانير إلى ثلاثة، و فى دلاص ثلاثة عشر دينارا، و فيما عدا ذلك ثلاثة دنانير.

و يزرع القرط عند أخذ ماء النيل فى النقصان، و لا ينبغى تأخير زرعه إلى أوان هبوب الريح الجنوبية التى يقال لها: المريسية و أوّل ما يبذر فى شهر بابه، و ربما زرع بعد النوروز، و الحراثىّ منه، يزرع فى كيهك و طوبة، و يزرع أحيانا فى هتور و يبذر فى كل فدّان من

و يبتين و نصف إلى ما حولها، و يدرك الأخضر منه فى آخر شهر كيهك، و يدرك الحراثى فى طوبة و أمشير، و يتحصل من الفدّان الحراثىّ ما بين أردبين إلى أربع ويبات.

و يزرع البصل و الثوم من شهر هتور إلى نصف كيهك، و يبذر فى فدّان البصل، من نصف و ربع ويبة إلى ويبة، و الثوم من مائة حزمة إلى مائة و خمسين حزمة، و يدرك ذلك فى برموده، و البصل الذى يخرج ليزرع زريعة فإنه يزرع من أوّل كيهك إلى العاشر من طوبة، و يخرج من زريعته، عشرة أرادب من الفدّان و يدرك فى بشنس.

و يزرع الترمس فى طوبة و زريعته لكل فدّان أردب، و يدرك فى برموده، و يتحصل من الفدّان ما بين عشرين أردبا إلى ما دونها، و هذه هى الأصناف الشتوية.

و أما الأصناف الصيفية: فإنّ البطيخ و اللوبيا يزرعان من نصف برمهات إلى نصف برموده، و يزرع فى الفدّان قدحان و يدرك فى بشنس، و يزرع السمسم فى برموده و زريعته ربع ويبة للفدّان، و يدرك فى أبيب و مسرى، و يتحصل من الفدّان ما بين أردب إلى ستة أرادب.

و يزرع القطن فى برموده و زريعته أربع ويبات حب للفدّان، و يدرك فى توت فيخرج من الفدّان، من ثمانية قناطير بالجروىّ إلى ما دونها.

و يزرع قصب السكر من نصف برمهات فى أثر الباق و البرش و تبرش أرضه سبع سكك، و أنجبه ما تكامل له ثلاث غرقات قبل انقضاء شهر بشنس، و مقدار زريعته ثمن فدّان و ما حوله لكل فدّان، و يحتاج القصب إلى أرض جيدة دمثة قد شملها الرىّ، و علاها ماء النيل، و قلع ما بها من الحلفاء و نظفت، ثم برشت بالمقلقلات و هى محاريث كبار ستة

وجوه، و تجرّف حتى تتمهد، ثم تبرش ستة و جوه أخرى و تجرّف، و معنى البرش: الحرث.

فإذا صلحت الأرض و طابت و نعمت و صارت ترابا ناعما، و تساوت بالتحريف شقت حينئذ بالمقلقلات و يرمى فيها القصب قطعتين، قطعة مثناة، و قطعة مفردة بعد أن تجعل الأرض أحواضا و تفرز لها جداول يصل الماء إلى الأحواض، و يكون طول كل قطعة من القصب ثلاثة أنابيب كوامل، و بعض أنبوبة من أعلى القطعة و بعض أخرى من أسفلها، و يختار ما قصرت أنابيبه و كثرت كعوبه من القصب و يقال لهذا الفعل: النصب، فإذا كمل نصب القصب أعيد التراب عليه، و لا بدّ فى النصب أن تكون القطعة ملقاة لا قائمة، ثم يسقى من حين نصبه فى أوّل فصل الربيع لكل سبعة أيام مرّة فإذا أنبت القصب، و صار أوراقا ظاهرة نبتت معه الحلفاء و البقلة الحمقاء التى يسميها أهل مصر، الرجلة، فعند ذلك تعزق أرضه، و معنى العزاق: أن تنكش أرض القصب، و ينظف ما نبت مع القصب و لا يزال يتعاهد ذلك حتى يغزر القصب و يقوى و يتكاثف، فيقال عند ذلك: طرد القصب عزاقه فإنه لا يمكن عزاق الأرض، و لا يكون هذا حتى يبرز الأنبوب منه، و مجموع ما يسقى بالقادوس ثمانية و عشرون ماء، و العادة أن الذى ينصب من الأقصاب على كل مجال بحرانىّ أى مجاور للبحر إذا كانت مزاحة الغلة بالأبقار الجياد مع قرب رشا الآبار ثمانية أفدنة، و يحتاج إلى ثمانية أرؤس بقر، فإن كانت الآبار بعيدة عن مجرى النيل لا- يمكن حينئذ أن يقوم المجال بأكثر من ستة أفدنة إلى أربعة، فإذا طلع النيل و ارتفع سقى القصب عند ذلك ماء الراحة.

و صفة ذلك أن يقطع عليه من جانب جسر يكون قد أدير عليه ليقيه من الغرق عند ارتفاع النيل بالزيادة فيدخل الماء من ثلمه فى ذلك الجسر حتى يعلو على أرض القصب نحو شبر ثم يسدّ عنه الماء حتى لا يصل إليه، و يترك الماء فوق الأرض قدر ساعتين أو ثلاث إلى أن يسجن، ثم يصرف من جانب آخر حتى ينضب كله و يجدّد عليه ماء آخر كذلك فيتعاهد ما ذكرنا مرارا فى أيام متفرّقة بقدر معلوم، ثم يفطم بعد ذلك فإذا عمل ما قلناه و فى القصب حقه، فإن نقص عن ذلك حصل فيه الخلل، و لا بدّ للقصب من القطران قبل أن يحلو حتى لا- يسوّس، و يكسر القصب فى كيهك و لا بدّ من حرق آثار القصب بالنار ثم سقيه و عزقه كما تقدّم،

فينبت قصبا يقال له: الخلفة، و يسمى الأول: الرأس، و قنود الخلفة أجود غالبا من قنود الرأس، و وقت إدراك الرأس فى طوبة، و الخلفة فى نصف هتور، و غاية إدارة معاصر القصب إلى النوروز، و يحصل من الفدّان، ما بين أربعين أبلوجة قند إلى ثمانين أبلوجة، و الأبلوجة تسع قنطارا فما حوله.

و يزرع القلقاس مع القصب، و لكل فدّان عشرة قناطير قلقاس جروية و يدرك فى هتور.

و يزرع الباذنجان فى برمهات و برموده و بشنس و بؤونة و يدرك من بؤونة إلى مسرى.

و تزرع النيلة من بشنس، و الزريعة للفدّان وبية و يدرك من أبيب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٩٣

و يزرع الفجل طول السنة و زريعة الفدّان من قدح واحد إلى قدحين.

و يزرع اللفت فى أبيب و زريعة الفدّان قدح واحد، و يدرك بعد أربعين يوما.

و يزرع الخس فى طوبة شتلا، و يؤكل بعد شهرين.

و يزرع الكرنب فى توت شتلا و يدرك فى هتور.

و يغرس الكرم فى أمشير نقلا و تحويلا.

و يغرس التين و التفاح فى أمشير.

و يقلم التوت فى برمهات.

و يغرس و يبلّ اللوز و الخوخ و المشمش فى ماء طوبة ثلاثة أيام، و هى قضبان، ثم يغرس و يحوّل شجرها فى طوبة.

و يزرع نوى التمر ثم يتحوّل وديا فينقل.

و يدفن بصل النرجس فى مسرى.

و يزرع الياسمين فى أيام النسىء و فى أمشير.

و يزرع المرسين فى طوبة و أمشير غرسا.

و يزرع الريحان فى برموده.

و يزرع حب المنثور فى أيام النيل.

و يزرع الموز الشتوىّ فى طوبة و الصيفىّ فى أمشير.

و يحوّل الخيار شنبر فى برمهات.

و تقلم الكروم على ريح الشمال إلى ليال من برمهات حتى تخرج العين منها.

و تقلم الأشجار فى طوبة و أمشير إلا السدر، و هو شجر النبق فإنه يقلم فى برمودة.

و تسقى الأشجار فى طوبة ماء واحدا و يسمونه ماء الحياة، و تسقى فى أمشير ثانيا عند خروج الزهر، و تسقى فى برمهات ماءين آخرين إلى أن ينعقد التمر، و تسقى فى بشنس ثلاث مياه و تسقى فى بؤونة و أبيب و مسرى ماء فى كل سبعة أيام، و تسقى فى توت و بابة مرّة واحدة تغريقا من ماء النيل، و تسقى فى هتور من ماء النيل بتغريق المساطب، و يسقى البعل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٩٤

من الكروم فى هتور من ماء النيل مرّة واحدة تغريقا.

و جميع أراضى مصر تقاس بالفدّان، و هو عبارة عن أربعمائة قصبة حاكمية طولا فى عرض قصبة واحدة، و القصبة ستة أذرع و ثلثا ذراع بذراع القماش، و خمسة أذرع بذراع النجار تقريبا.

و قال القاضى أبو الحسن فى كتاب المنهاج: خراج مصر قد ضرب على قصبة فى المساحة اصطلح عليها زرع المزارع على حكمها، و

تكسير الفدّان أربعمائة قصبة لأنه عشرون قصبة طولا فى عشرين قصبة عرضا و قصبة المساحة تعرف بالحاكمية، و هى تقارب خمسة أذرع بالنجارى.

ذكر أقسام مال مصر

اعلم أن مال مصر فى زمننا ينقسم قسمين: أحدهما يقال له: خراجيّ، و الآخر يقال له: هلاليّ. فالمال الخراجيّ: ما يؤخذ مسانهة من الأراضى التى تزرع حبوبا و نخلا ـ و عنبا و فاكهة، و ما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم و الدجاج و الكشك و غيره من طرف الريف.

و المال الهلاليّ عدّة أبواب، كلها أحدثوها ولاة السوء شيئا بعد شىء، و أصل ذلك فى الإسلام أن أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، بلغه أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الجند، فيأخذون منهم العشر، فكتب إلى أبى موسى الأشعريّ، و هو على البصرة أن خذ من كل تاجر يمرّ بك من المسلمين من كل مائتى درهم خمسة دراهم، و خذ من كل تاجر من تجار العهد، يعنى أهل الذمة من كل عشرين درهما درهما، و من تجار الحرب، من كل عشرة دراهم درهما، و قيل لابن عمر: كان عمر يأخذ من المسلمين العشر، قال: لا، و نهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك، و كتب: ضعوا عن الناس هذه المكوس فليس بالمكس، و لكنه النجس.

و روى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أتاه ناس من أهل الشام فقالوا: أصبنا دواب و أموالا فخذ منها صدقة تطهر نابها، فقال: كيف أفعل ما لم يفعل من كان قبلى؟ و شاور، فقال علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه: لا بأس به إن لم يأخذه من بعدك، فأخذ عن العبد عشرة دراهم، و كذلك عن الفرس و عن الهجين ثمانية، و عن البرذون و البغل خمسة.

و أوّل من وضع على الحوانيت الخراج فى الإسلام أمير المؤمنين أبو عبد اللّه محمد بن أبى جعفر المنصور فى سنة سبع و ستين و مائة و ولى ذلك سعيد الجرسى.

و أوّل من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مدبر لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين و مائتين، فإنه كان من دهاة الناس، و شياطين الكتاب، فابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرّة من بعده لا تنقض، فأحاط بالنطرون و حجر عليه بعد ما كان مباحا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٩٥

لجميع الناس، و قرّر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى، و قرّر على ما يطعم اللّه من البحر مالا و سماه المصايد إلى غير ذلك، فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجيّ و هلاليّ، و كان الهلاليّ يعرف فى زمنه و ما بعده: بالمرافق و المعاون، فلما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون إمارة مصر، و أضاف إليه أمير المؤمنين المعتمد على اللّه الخراج و الثغور الشامية، رغب و تنزه عن أدناس المعاون و المرافق، و كتب بإسقاطها فى جميع أعماله، و كانت تبلغ بمصر خاصة، مائة ألف دينار فى كل سنة، و له فى ذلك خبر فيه أكبر معتبر قد ذكرته عند ذكر أخبار الجامع الطولونى من هذا الكتاب، ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عند ما ضعفت، و صارت تعرف: بالمكوس.

فلما استبدّ السلطان الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بملك مصر، أمر بإسقاط مكوس مصر و القاهرة. فكتب عنه القاضى الفاضل مرسوما بذلك، و كان جملة ذلك فى كل سنة: مائة ألف دينار.

تفصيلها: مكس البهار و عمالته: ثلاثة و ثلاثون ألفا و ثلثمائة و أربعة و ستون دينارا؛ مكس البضائع و القوافل و عمالتها: تسعة آلاف و ثلثمائة و خمسون دينارا؛ منفلت الصناعة عن مكس البز الوارد إليها و النحاس و القزدير و المرجان و الفاضلات: خمسة آلاف و مائة و ثلاثة و تسعون دينارا؛ الصادر عن الصناعة بمصر: ستة آلاف و ستمائة و ستة و ستون دينارا؛ سمسرة التمر: ثلثمائة دينار؛ الفندق بالمنية عن مكس البضائع: ثمانمائة دينار و ستة و خمسون دينارا؛ رسوم دار القند: ثلاثة آلاف و مائة و ثمانية دنانير؛ رسوم الخشب

الطويل و الملح: ستمائة و ستة و سبعون دينارا؛ رسوم العلب المنسوبة إلى بلبيس و البورى: مائة دينار؛ رسوم التفتيش بالصناعة عن البهار و غيره: مائتان و سبعة عشر دينارا؛ خيمة أرمنت عن الوارد إليها: سبعة و ستون دينارا؛ فندق القطن: ألفا دينار؛ سوق الغنم بالقاهرة و مصر و السمسرة و عبور الأغنام بالجيزة: ثلاثة آلاف و ثلثمائة و أحد عشر دينارا؛ عبور الأغنام و الكتّان و الأبقار بباب القنطرة: ألف و مائتا دينارا؛ واجب ما ورد من الكتان الحطب إلى الصناعة: مائتا دينار؛ رسوم واجب الغلات كالحبوب الواردة إلى الصناعة، و المقس و المنية و الجسر و التباين، و مفالت جزيرة الذهب، و طموه و منبر الدرج: ستة آلاف دينار.

مكس ما يرد إلى الصناعة من الأغنام: ستة و ثلاثون دينارا؛ الأغنام البيتوتية؛ اثنا عشر دينارا؛ العرصة و السرسناوى بالجيزة، و مكس الأغنام: مائة و تسعون دينارا؛ منفلت الفيوم عما يرد من الكتان من القبلة، و من البضائع الواردة من الفيوم و غيره: أربعة آلاف و مائة و ستون دينارا؛ مكس الورق المجلوب إلى الصناعة، و رسم التفتيش: مائتا دينارا؛ الحصة بساحل الغلة و الأقوات و الرسائل: سبعمائة و ثمانية و ستون دينارا؛ دار التفاح و الرطب بمصر و العرصة بالقاهرة: ألف و سبعمائة دينار؛ رسم ابن المليحى: مائتا دينار؛ دار الجبن: ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٩٦

دينار؛ مشارفة الخزائن: مائتان و أربعون دينارا؛ واجب الحلى الوارد من الوجه البحرى، و القطن: ألف و عشرون دينارا؛ رسم سمسرة الصفا: ألف و مائتا دينار؛ منفلت بالصعيد:

مائة و أحد و ستون دينارا؛ خاتم الشرب و الديبقى: ألف و خمسمائة دينار؛ مكس الصوف:

مائتا دينار؛ نصف الموردة بساحل المقس: أربعة عشر دينارا؛ دكة السمسار: ثلثمائة و خمسون دينارا؛ منفلت العريف بالصناعة و حملة البهار و البضائع: مائتان و ستة عشر دينارا؛ الحلفاء الواردة من القبلة: مائة و خمسة و ثلاثون دينارا؛ الوقد و السرقين و الطعم بدار التفاح و منفلت القبلة بالتبانين و الجسر: خمسة و ثلاثون دينارا؛ رسوم الصفا و الحمراء و رسوم دار الكتان: ستون دينارا؛ حماية الغلات بالمقس و دار الجبن: مائة و أربعون دينار؛ الحلفاء الواردة على الجسر و معدّية المقياس: مائة دينار؛ خمس البرنية بالجيزة: عشرون دينارا؛ تلّ التعريف بالصناعة: ثمانية و عشرون دينارا؛ منفلت الغلات بمعدّية جزيرة الذهب: عشرة دنانير؛ رسوم الحمام بساحل الغلة: خمسمائة و أربعة و ثلاثون دينارا؛ واجب الحناء الواردة فى البرّ: ثمانمائة دينار؛ واجب الحلفاء و القصاب: ثلاثة و ستون دينارا؛ مكس ما يرد من البضائع إلى المنية: مائة و أربعة و ثمانون دينارا؛ مسلخة شطنوف و البرانية:

مائتا دينار؛ سوق السكر: بين خمسون دينارا؛ رسوم خيمة الجملى بالشارع و سوق وردان:

تسعة عشر دينارا؛ واجب الفحم الوارد إلى القاهرة: عشرة دنانير؛ معدّية الجسر بالجيزة:

مائة و عشرون دينارا؛ خيمة البقرى: أربعون دينارا؛ الخيمة بدار الدباغة: تسعة عشر دينارا.

سمسرة الحبس الجيوشى: ثلثمائة و اثنا عشر دينارا؛ دكان الدهن و معصرة الشيرج و الخل بالقاهرة: خمسمائة دينار؛ الخل الحامض و ما معه: أربعمائة دينار؛ بيوت الغزل و المصطبة: ثلثمائة و خمسون دينارا؛ ذبائح الأبقار: ألف دينار؛ سوق السمك بالقاهرة و مصر: ألف و مائتا دينار؛ رسوم الدلالة: ثلثمائة دينار؛ سمسرة الكتان: ثلثمائة دينار؛ رسوم حماية الصناعتين: أربعمائة دينار؛ مربعة العسل: مائتان و اثنان و ثلاثون دينارا؛ معادى جزيرة الذهب و غيرها: ثلثمائة دينار؛ خاتم الشمع بالقاهرة: ثلاثة و ستون دينارا؛ زريبة الذبيحة: سبعمائة دينار؛ معدّية المقياس و أنبابة: مائتا دينار؛ حمولة السلجم: ثلثمائة و ثلاثون دينارا؛ دكة الدباغ: ثمانمائة دينار؛ سوق الرقيق: خمسمائة دينار؛ معمل الطبرى:

مائتان و أربعون دينارا؛ سوق منبوبة: مائة و أربعة و ستون دينارا؛ ذبائح الضأن بالجيزة، و رسوم ساحل السنط: عشرة دنانير؛ نخ السمك: خمسة دنانير؛ تنور الشوى: مائة دينار؛ نصف الرطل من مطابخ السكر: مائة و خمسة و ثلاثون دينارا؛ سوق الدواب بالقاهرة و مصر: أربعمائة دينار؛ سوق الجمال: مائتان و خمسون دينارا؛ قبان الحناء: ثلاثون دينارا؛ واجب طاقات الأدم: ستة و ثلاثون دينارا؛

امنفلت الخام بالشاشيين: ثلاثة و ثلاثون دينارا؛ أنولة القصار: أربعون دينارا؛ بيوت الفرّوج: ثلاثون دينارا؛ الشعر و الطارات: أربعة دنانير؛ رسوم الصبغ و الحرير: ثلثمائة و أربعة و ثلاثون دينارا؛ وزن الطفل: مائة و أربعون دينارا؛

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٩٧

معمل المزر: أربعة و ثمانون دينارا؛ الفاخور بمصر و القاهرة: مائتان و ستة و ثلاثون دينارا.

و ذكر ابن أبى طىّ: أن الذى أسقطه السلطان صلاح الدين و الذى سامح به لعدّة سنين، آخرها سنة أربع و ستين و خمسمائة مبلغه عن نيف ألف ألف دينار و ألفى ألف أردب، سامح بذلك و أبطله من الدواوين، و أسقطه عن المعاملين.

فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، أعاد المكوس و زاد فى شناعتها.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة تسعين و خمسمائة، و كان قد تتابع فى شعبان أهل مصر و القاهرة فى إظهار المنكرات، و ترك الإنكار لها، و إباحة أهل الأمر و النهى لها، و تفاحش الأمر فيها إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره، و أقيمت طاحون بحارة المحمودية لطحن حشيش المزر ، و أفردت برسمه و حميت بيوت المزر، و أقيمت عليها الضرائب الثقيلة، فمنها ما انتهى أمره فى كل يوم إلى ستة عشر دينارا، و منع المزر البيوتى ليتوفر الشراء من البيوت المحمية، و حملت أوانى الخمر على رؤوس الأشهاد، و فى الأسواق من غير منكر، و ظهر من عاجل عقوبة اللّه عز و جل، وقوف زيادة النيل عن معتادها، و زيادة سعر الغلة فى وقت ميسورها.

و قال فى متجدّدات سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة، و آل الأمر إلى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز و لحم إلى أن يتحمل فى بعض الأوقات لا كلها لبعض ما يتبلغ به من خبز، و كثر ضجيجهم، و شكواهم فلم يسمع. و وقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان، و فيما يصرف إلى عياله، و فيما يقتات به أولاده، و ما يغصب من أربابه، و أفضى هذا إلى غلاء الأسعار، فإنّ المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى أسعار المأكولات العامة بمقدار ما يؤخذ منهم للدار السلطانية، فأفضى ذلك إلى النظر فى المكاسب الخبيثة، و ضمن المزر و الخمر باثنى عشر ألف دينار.

و فسح فى إظهار منكره و الإعلان به و البيع له فى القاعات و الحوانيت، مع قرب استهلال رجب، و ما استطاع أحد من العامة الإنكار لا باليد و لا باللسان، و صار هذا السحت مما ينفرد السلطان به لنفقته و طعامه، و انتقل مال الثغور، و مال الجوالىّ الحل الطيب إلى أن يصير حوالات لمن لا يبالى من أين أخذ المال، و لا يفرّق بين الحرام و الحلال، و فى شهر رمضان: غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، و تظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطانىّ، و استيفاء رسمه بأيدى مستخدميه، و بلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار، و حصل منه شيء حمل إليه، فبلغنى أنه صنع به آلات للشراب ذهبيات و فضيات، و كثر اجتماع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٩٨

النساء و الرجال فى شهر رمضان لا ـ سيما على الخليج لما فتح، و على مصر لما زاد الماء و تلقى فيه النيل بمعاص نسأل اللّه أن لا يؤاخذنا بها، و أن لا يعاقبنا عليها بجرأة أهلها.

و قال جامع السيرة التركية: و لما استقل الملك المعز عز الدين أيبك التركمانىّ الصالحىّ بمملكة مصر فى سنة خمسين و ستمائة، بعد انقراض دولة بنى أيوب استوزر شخصا من نظار الدواوين يعرف بشرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزى، أحد كتاب الأقباط، و كان قد أظهر الإسلام من أيام الملك الكامل، و ترقى فى خدمة الكتابة، فقرّر فى وزارته أموالا على التجار، و ذوى اليسار، و أرباب العقار، و رتب مكوسا و ضمانات سموها:

حقوقا و معاملات.

و لما ولى الملك المظفر سيف الدين قطز: مملكة مصر، بعد خلعه الملك المنصور، علّى بن المعز أيبك أحدث عند سفره الذى قتل فيه مظالم كثيرة لأجل جمع المال، و صرفه فى الحركة لقتال جموع التتر، منها: تصقيع الأملاك، و تقويمها و زكاتها، و أحدث على كل إنسان دينارا يؤخذ منه، و أخذ ثلث التركات الأهلية، فبلغ ذلك ستمائة ألف دينار فى كل سنة.

فلما قتل قطز و جلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بعده على سرير الملك بقلعة الجبل، أبطل ذلك جميعه، و كتب به مساميح قرئت على المنابر، ثم أبطل ضمان المزر و جهاته فى سنة اثنتين و ستين و ستمائة.

و كتب و هو بالشام إلى الأمير عز الدين الحلىّ نائب السلطنة بمصر: أن يبطل بيوت المزر، و يعفى آثاره، و يخرب بيوته، و يكسر مواعينه، و يسقط ارتفاعه من الديوان. فإنّ بعض الصالحين تحدّث معى فى ذلك، و قال: القمح الذى جعله اللّه تعالى يداس بالأرجل، و قد تقرّبت إلى اللّه تعالى بإبطاله، و من ترك شيئا للّه عوّضه خيرا منه، و من كان له على هذه الجهة شىء يعوّضه اللّه من المال الحلال، فأبطل الحلىّ ذلك، و عوّض المقطعين عليه بدله.

و فى سنة ثلاث و ستين أبطل حراسة النهار بالقاهرة و مصر، و كانت جملة مستكثرة، و كتب بذلك توقيعا، و أبطل من أعمال الدقهلية و المرتاحية عن رسوم الولاية، أربعة و عشرين ألف دينار، و فى خامس عشرى شهر رمضان سنة اثنتين و ستين و ستمائة، قرىء بجامع مصر مكتوب بإبطال ما قرّر على رسوم ولاية مصر من الرسوم، و هى مائة ألف درهم مصرية، فبطل ذلك، و أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها فى سنة خمس و ستين و ستمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ١٩٩

و أمر بإراقة الخمور، و إبطال المنكرات، و تعفية بيوت المسكرات، و منع الخانات و الخواطىء بجميع أقطار مملكة مصر و الشام، فطهرت من ذلك البقاع، و لما وردت المراسيم بذلك على القاضى ناصر الدين أحمد بن المنير قال:

ليس لإبليس عندنا أربغير بلاد الأمير مأواه

حرفته الخمر و الحشيش معاحرّمتا ماؤه و مرعاه

و قال الأديب الفاضل أبو الحسين الجزار:

قد عطل الكوب من حبابهو أخلى الثغر من رضابه

و أصبح الشيخ و هو يبكىعلى الذى فات من شبابه

و فى تاسع جمادى الآخرة سنة ست و ستين و ستمائة، أمر الملك الظاهر بيبرس بإراقة الخمور و إبطال الفساد، و منع النساء الخواطىء من التعرّض للبغاء من جميع القاهرة و مصر، و سائر الأعمال المصرية، فتطهرت أرض مصر من هذا المنكر، و نهبت الخانات التى كانت معدّة لذلك، و سلب أهلها جميع ما كان لها، و نفى بعضهم، و حبست النساء حتى يتزوّجن.

و كتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك، و حط المال المقرّر على البغايا من الديوان، و عوّض الحاشية من جهات حلّ بنظيره، و فى سابع عشر ذى الحجة سنة تسع و ستين و ستمائة، أريقت الخمور، و أبطل ضمانها، و كان كل يوم ألف دينار، و كتب توقيع بذلك قرىء على المنابر، و افتتح سنة سبعين بإراقة الخمور، و التشدّد فى إزالة المنكرات، و كان يوما مشهودا بالقاهرة، و بلغه فى سنة أربع و سبعين عن الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف: بصدر الباز، و كان قد تمكن منه تمكنا كثيرا أنه يشرب الخمر، فشنقه تحت قلعة الجبل.

و لما ولى الملك المنصور سيف الدين قلاون الإلفى، مملكة مصر أبطل زكاة الدولة، و هو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبدا، و لو عدم منه، و إذا مات يؤخذ من ورثته، و أبطل ما كان يجبى من أهل إقليم مصر كله إذا حضر مبشر بفتح حصن، أو نحوه، فيؤخذ من الناس بالقاهرة و مصر على قدر طبقاتهم، و يجتمع من ذلك مال كثير، و أبطل ما كان يجبى من أهل الذمة، و هو دينار سوى الجالية برسم نفقة الأجناد فى كل سنة، و أبطل مقرّر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر و الغزاة، و كان يؤخذ من جميع تجار القاهرة و مصر من كل تاجر دينار، و أبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل مما يعمل به شوى و حلوى و فاكهة فى المقياس، و جعل مصر ذلك من بيت المال، و أبطل أشياء كثيرة من هذا النمط.

و أبطل الملك الناصر، محمد بن قلاون عدّة جهات قد ذكرت فى الروك الناصرىّ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٠٠

و آخر ما أدركنا إبطاله ضمان الأغانى، و ضمان القراريط فى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون.

فأما ضمان الأغانى فكان بلاء عظيما، و هو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجلّ امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، و قامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة، و كان على النساء، إذا تنفسن أو عرّسن امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء، أو أراد أحد أن يعمل فرحا لا بدّ من مال بتقرير تأخذه الضامنة، و من فعل فرحا بأغان أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة حلّ به بلاء لا يوصف.

و أما ضمان القراريط، فإنه كان يؤخذ من كل من باع ملكا عن كل ألف درهم، عشرون درهما، و كان متحصل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدّا.

و أبطل الملك الظاهر برقوق، ما كان يؤخذ من أهل البرلس و شورى و بلطيم شبه الجالية فى كل سنة ستين ألف درهم، و أبطل ما كان على القمح من مكس، يؤخذ من الفقراء بثغر دمياط ممن يبتاع من أردبين، فما دونهما، و أبطل ما كان يؤخذ مكسا من معمل الفرّوج بالنحريرية، و الأعمال الغربية، و أبطل ما كان يؤخذ تقدمة لمن يسرح إلى العباسة من الخيل و الجمال و الغنم و غير ذلك، و أبطل ما كان يؤخذ على الدريس و الحلفاء بباب النصر خارج القاهرة، و أبطل ضمان الأغانى بمنية ابن خصيب بأعمال الأشمونين، و بزفتا بالأعمال الغربية، و أبطل الأبقار التى كانت ترمى بالوجه البحرى عند فراغ الجسور، و أبطل الأمير بلبغا السالمى، لما ولى استادار السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة إحدى و ثمانمائة تعريف الغلال بمنية ابن خصيب، و ضمان العرصة بها و أخصاص الغسالين، و كانت من المظالم القبيحة، و أبطل من القاهرة ضمان بحيرة البقر، ثم أعاده القبط من بعده.

و قد بقيت إلى الآن من المكوس بقايا، أخبرنى الأمير الوزير المشير الإستادار بلبغا السالمى فى أيام وزارته، أن جهات المكوس بديار مصر تبلغ فى كل يوم، بضعا و سبعين ألف درهم، و أنه اعتبرها فلم يجدها تصرف فى شيء من مصالح الدولة، بل إنما هى منافع للقبط و حواشيهم، و كان قد عزم على إبطال المكوس فلم يمهل.

و المال الهلالى: عبارة عما يستأدى مشاهرة كأجر الأملاك المسقفة من الآدر و الحوانيت و الحمامات و الأفران و الطواحين، و عداد الغنم و الجهة الهوائية المضمونة و المحلولة، و عدّ بعض الكتاب، أحكار البيوت و ريع البساتين التى تستخرج أجرها مشاهرة و مصايد السمك و معاصر الشيرج و الزيت فى المال الهلالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٠١

و من اصطلاح كتاب مصر القدماء، أن تورد جزية أهل الذمة من اليهود و النصارى، قلما واحدا مستقلا بذاته بعد الهلالى، و قبل الخراجى، و ذلك أنها تستأدى مسانهة، و كانوا يرون وجوبها مشاهرة و فائدته فيمن أسلم أو مات أثناء الحول، فإنهم كانوا يلزمونه بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه، أو وفاته فلذلك أوردت فيما بين الهلالىّ و الخراجىّ.

و كانوا فى الإقطاعات الجيشية يجرونها، مجرى المال الهلالىّ عند خروج إقطاع من يقطع، و دخول آخر على ذلك الإقطاع، فإنها كانت تستخرج على حكم الشهور الهلالية لا الشمسية بحيث لو تعجلها مقطع فى غرّة السنة على العادة فى ذلك، و خرج الإقطاع عنه فى أثناء السنة بوفاة أو نقلة إلى غيره، استحق منها نظير ما مضى من شهور السنة إلى حين انتقال الإقطاع عنه، لا على حكم ما استحق من المغلّ، و يستحق المتصل من استقبال تاريخ منشوره كعادة النقود، و المتخلل بينهما من المدّة مستحق ذلك الديوان، فيردّ من جملة المحلولات من الإقطاعات و كان من أبواب الهلالى جهات تسمى المعاملات، و هى: الزكاة و المواريث و الثغور و المتجر و الشب و النطرون و الجبس الجيوشى و دار الضرب و دار العيار و الجاموس و أبقار الجبس و الأغنام و الغروس و البساتين و الأحكار و الرباع و المراكب، و ما يستأدى من الذمة غير الجوالى، و ساحل السنط، و الخراج و القرظ و مقرّر الجسور و موظف الاتبان و مقرّر

القصب و مقرّر البريد و مقرّر البسط و عشر العرق، و غير ذلك من جهات المكوس.

فأما الجزية: و تعرف فى زمننا بالجوالى فإنها تستخرج سلفا و تعجيلا فى غرّة السنة، و كان يتحصل منها مال كثير فيما مضى. قال القاضى الفاضل فى متجدّدات الحوادث الذى انعقد عليه ارتفاع الجوالى لسنة سبع و ثمانين و خمسمائة مائة ألف و ثلاثون ألف دينار، و أما فى وقتنا هذا، فإنّ الجوالى قلت جدّا لكثرة إظهار النصارى للإسلام فى الحوادث التى مرّت بهم.

و لما استبدّ السلطان الملك المؤيد شيخ بملك مصر، بعد الخليفة العباس بن محمد أمير المؤمنين المستعين بالله، ولى رجلا جباية الجوالى فكثر الاستقصاء عن الذمة و الكدّ فى الاستخراج منهم، فبلغت الجوالى فى سنة ست عشرة و ثمانمائة أحد عشر ألف دينار و أربعمائة دينار، سوى ما غرم للأعوان و هو قدر كثير.

و أما المراعى و هو الكلأ المطلق المباح الذى أنبته اللّه تعالى لرعى دواب بنى آدم فأوّل من أدخلها الديوان بمصر أحمد بن مدبر، لما ولى الخراج، و صير لذلك ديوانا و عاملا ـ جلدا يحظر على الناس أن يتبايعوا المراعى، أو يشتروها إلا من جهته، و أدركنا المراعى ببلاد الصعيد مما يضاف إلى الإقطاعات، فيأخذ الأمير ممن يرعى دوابه فى أرض بلده الكتيح فى كل سنة، مالا عن كل رأس فيجبى من صاحب الماشية بعدد أنعامه، فلما اختلّ أمر الصعيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٠٢

فى الحوادث الكائنة منذ سنة ست و ثمانمائة، تلاشى الأمر فى ذلك، و كانت العادة القديمة أن يندب للمراعى مشدّ و شهود، و كاتب، فيعدّون المواشى، و يستخرجون من أربابها عن كل رأس شيئا، و لا يكون ذلك إلا بعد هبوط النيل، و نبات الكلأ و استهلاكه للمرعى.

و أما المصايد فهى ما أطعم اللّه سبحانه و تعالى من صيد البحر، و أوّل من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر، و صير لها ديوانا و احتشم من ذكر المصايد، و شناعة القول فيها، فأمر أن يكتب فى الديوان خراج مضارب الأوتار و مغارس الشباك، فاستمرّ ذلك، و كان يندب لمباشرتها مشدّ و شهود و كاتب إلى عدّة جهات، مثل: خليج الإسكندرية، و بحيرة الإسكندرية، و بحيرة نسترو و ثغر دمياط و جنادل ثغر أسوان، و غير ذلك من البرك و البحيرات، فيخرجون عند هبوط النيل، و رجوع الماء من المزارع إلى بحر النيل بعد ما تكون أفواه الترع قد سكرت، و أبواب القناطر قد سدّت عند انتهاء زيادة النيل كيما يتراجع الماء، و يتكاثف مما يلى المزارع، ثم تنصب شباك، و تصرف المياه، فيأتى السمك و قد اندفع مع الماء الجارى، فتصدّه الشباك عن الانحدار مع الماء، و يجتمع فيها فيخرج إلى البر، و يوضع على أنخاخ و يملح، و يوضع فى الأمطار فإذا استوى بيع، و قيل له: الملوحة و الصير، و لا يكون ذلك إلا فيما كان من السمك فى قدر الأصبع فما دونه، و يسمون هذا الصنف إذا كان طريا ابسارية، فتؤكل مشوية و مقلية، و يصاد من بحيرة نسترو، و بحيرة تنيس، و بحيرة الإسكندرية، أسماك تعرف: بالبورى، و قيل لها ذلك لأنها كانت تصاد عند قرية من قرى تنيس يقال لها: بورة، و قد خربت، و النسبة إليها البورىّ، و نسب إليها جماعة من الناس منهم بنو البورى.

و قيل لهذا السمك البورىّ إضافة إلى القرية المذكورة، و قد بطل فى زمننا اليوم أمر هذه المصايد إلا من بحيرة نسترو بالبرلس و بحيرة تنيس بدمياط فقط، و هاتان البحيرتان تجريان فى ديوان الخاص و هما مضمنتان، و ما يخرج منهما من البورىّ و غيره من أنواع السمك، فللسلطان لا يقدر أحد أن يتعرّض لصيد شىء منه إلا أن يكون من صياديهما القائمين بالضمان، و ما عدا هاتين البحيرتين من البرك و الأملاق و الخلجان، فليست للسلطان، و أما بحيرة اسكندرية فقد جفت و ثغر أسوان، فقد خرج عن يد السلطنة و تغلب عليه أولاد الكفرة، ثم برك بأيدى أقوام كبركة الفيل، بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس، و بركة الرطلى، بيد أولاد الأمير بكتمر الحاجب، و غير ذلك. فإنّ أسماكها مضمنة لهم يبيعونها و مع ذلك لا يمنع أحد الصيد منها.

و أما بحر النيل فما صيد منه يحمل إلى دار السمك بالقاهرة، فيباع و يؤخذ منه مكس السلطان إلا أنّ الأمير جمال الدين يوسف الإستادار، زاد فيما كان يؤخذ من الصيادين مكسا، و من حينئذ قلّ السمك بالقاهرة و غلا سعره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٠٣

و قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ مصر: إنّ صنما كان بالإسكندرية يقال له شراحيل على حشفة من حشاف البحر مستقبلا بأصبع من كفة قسطنطينية لا يدرى أكان مما عمله سليمان النبىّ، أم عمله الإسكندر، فكانت الحيتان تدور بالإسكندرية، و تصاد عنده، فيما زعموا.

قال زيد بن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أخبرنى أبى عن أبيه: أنه انبطح على بطنه و مدّ يديه و رجليه فكان طوله طول قدم الصنم، فكتب رجل يقال له: أسامة بن زيد كان عاملا على مصر للوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين: إنّ عندنا بالإسكندرية صنما يقال له: شراحيل من نحاس، و قد غلت علينا الفلوس فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزله و يضربه فلوسا فعل، و إن رأى غير ذلك فليكتب إلىّ من أمره، فكتب إليه: لا تنزله حتى أبعث إليك ضمناء يحضرونه، فبعث إليه رجالا أمناء حتى أنزل من الحشفة، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة فضربه فلوسا، فانطلقت الحيتان فلم ترجع إلى ما هناك.

و أما الزكاة: فإنّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أوّل من جباها بمصر.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ستين و خمسمائة ثالث عشر ربيع الآخر، فرّقت الزكوات بعد ما جمعت على الفقراء و المساكين و أبناء السبيل و الغارمين، بعد أن رفع إلى بيت المال السهام الأربعة و هى: سهام العاملين، و المؤلفة، و فى سبيل اللّه، و فى الرقاب، و قرّرت لهم فريضة و استودى على الأموال و البضائع و على ما يتقرر عليه من المواشى، و النخل و الخضراوات.

قال: و الذى انعقد عليه ارتفاع الجوالى لسنة سبع و ثمانين و خمسمائة ثلاثون ألف دينار، و الزائد فى معاملة الزكاة و دار الضرب لسنتى ست و سبع و ثمانين و خمسمائة أحد و عشرون ألف دينار و ثمانمائة و أحد و ستون دينارا.

و قال فى سنة ثمان و ثمانين و استخدم ابن أحمدان فى ديوان الزكاة و كتب خطه بما مبلغه: اثنان و خمسون ألف دينار لسنة واحدة من مال الزكاة، و جعل الطواشى قراغش الشادّ فى هذا المال، و أن لا يتصرّف فيه بل يكون فى صندوق مودعا للمهمات التى يؤمر بها.

و لما قدم ابن عنين الشاعر من عند الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب بن شادى ملك اليمن إلى مصر، و قد أجزل صلته عند ما وفد عليه و فارقه، و قد أثرى ثراء كثيرا، قبض أرباب ديوان الزكاة بمصر على ما قدم به من المتجر و طالبوه بزكاة ما معه، و كان ذلك فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فقال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٠۴ ما كان من يتسمى بالعزيز لهاأهل و لا كل برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق فى فعالهماهذاك يعطى و هذا يأخذ الصدقه

ثم إنّ العزيز كشف عما يستأدى من الزكاة فإنه انتهى إليه فيها أقوال شنيعة منها: أنه أخذ من رجل فقير يبيع الملح فى قفة على رأسه، زكاة عما فى القفة، و أنه بيع جمل بخمسة دنانير ذهب، فأخذ زكاتها خمسة دراهم، فأمر بتفويض أمرها إلى أرباب الأموال و من وجب عليه حق.

ثم لما كانت سلطنة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب أخرج من زكاة الأموال التى كانت تجبى من الناس سهمى الفقراء و المساكين، و أمر بصرفهما فى مصارفهما الشرعية، و رتب من جملة هذين السهمين معاليم للفقهاء و الصلحاء، و أهل الخير تجرى عليهم، فاستحسن ذلك من فعله و حمله إلى ديوان الزكاة قبل منه، و من لم يحمل لا يتعرّض إليه فبخل الأغنياء بزكاة أموالهم حتى تضرّر الفقراء و المساكين، و أخذ السعاة يبذلون فى ضمانها الأموال لتعود إلى ما كانت عليه فولى النظر فى ديوان الزكاة القاضى الأسعد شرف الدين أبو المكارم أسعد بن مهذب بن مماتى، فاستخرج الزكاة من أربابها ثم ضمنت بمال كثير، و عاد الأمر فيها إلى ما كان عليه من العسف و الجور، و كانت أعوان متولى الزكاة تخرج إلى منية ابن خصيب و أخميم و قوص لكشف أحوال المسافرين من التجار و الحجاج و غيرهم، فيبحثون عن جميع ما معهم، و يدخلون أيديهم أوساط الرجال خشية أن يكون معهم

مال و يحلفون الجميع بالإيمان الحرجة على ما بأيديهم و ما عندهم غير ما وجدوه، و تقوم طائفة من مردة هذه الأعوان و بأيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة، فيصعدون إلى المراكب و يجسون بمسالهم جميع ما فيها من الأحمال و الغرائر مخافة أن يكون فيها شىء من بضاعة أو مال فيبالغون فى البحث و الاستقصاء بحيث يقبح، و يستشنع فعلهم و يقف الحجاج بين يدى هؤلاء الأعوان مواقف خزى و مهانة، لما يصدر منهم عند تفتيش أوساطهم و غرائر أزوادهم، و يحلّ بهم من العسف و سوء المعاملة ما لا يوصف، و كذلك يفعل فى جميع أرض مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين بن أيوب.

و أما الثغور فهى: دمياط و تنيس و رشيد و عيذاب و أسوان و الإسكندرية و هى أعظمها قدرا فإنه كان فيها عدّة جهات منها: الخمس و المتجر، فالخمس: ما يستأدى من تجار الروم الواردين فى البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولحوا عليه، و ربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار و مائتان و خمسة و ثلاثون دينارا، و ربما انحط عن عشرين دينارا. و يسمى كلاهما خمسا. و من أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر و لذلك ضرائب مقرّرة.

و قال القاضى الفاضل: و الحاصل من خمس الإسكندرية فى سنة سبع و ثمانين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٠٥

و خمسمائة ثمانية و عشرون ألف دينار و ستمائة و ثلاثة عشر دينارا، و المتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو إليها الحاجة و يقتضيه طلب الفائدة.

قال جامع سيرة الوزير اليازورى: و قصر النيل بمصر فى سنة أربع و أربعين و أربعمائة، و لم يكن فى مخازن الغلات شيء، فاشتدّت المسغبة بمصر، و كان لخلوّ المخازن سبب أوجب ذلك و هو أنّ الوزير، الناصر للدين لما أضيف إليه القضاء فى أيام أبى البركات الوزير كان يبتاع للسلطان فى كل سنة غلة بمائة ألف درهم، و تجعل متجرا فمثل القاضى بحضرة الخليفة المستعين بالله، و عرّفه أنّ المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرّة على المسلمين، و ربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن فى المخازن و تتلف، و أنه يقيم متجرا لا كلفة فيه على الناس، و يفيد أضعاف فائدة الغلة، و لا يخشى عليه من تغيره فى المخازن و لا انحطاط سعره و هو الخشب و الصابون و الحديد و الرصاص و العسل و ما أشبه ذلك، فأمضى السلطان له ما رآه، و استمرّ ذلك و دام الرخاء على الناس فوسعوا فيه مدّة سنين ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانا للمتجر و آخر من عمله الظاهر برقوق.

و أما

الشب: فإنّ معادنه بالصعيد، و كانت عادة الديوان الإنفاق، فى تحصيل القنطار، منه بالليثىّ يبلغ ثلاثين درهما، و كانت العربان تحضره من معادنه إلى ساحل أخميم و سيوط و البهنسا ليحمل إلى الإسكندرية أيام النيل فى الخليج و يشترى بالقنطار الليثىّ، و يباع بالقنطار الجروىّ، فيباع منه على تجار الروم قدر اثنى عشر ألف قنطاريا بالجروى بسعر أربعة دنانير كل قنطار إلى ستة دنانير و يباع منه بمصر على اللبوديين و الصباغين نحو الثمانين قنطارا بالجروىّ سعر ستة دنانير و نصف القنطار، و لا يقدر أحد على ابتياعه من العربان و لا غيرهم، فإن عثر على أحد أنه اشترى منه شيئا أو باعه سوى الديوان نكل به و استهلك ما وجد معه منه، و قد بطل هذا.

و أما

النطرون : فيوجد فى البرّ الغربىّ من أرض مصر بناحية الطرّانة، و هو أحمر و أخضر و يوجد منه بالفاقوسية شىء دون ما يوجد فى الطرّانة، و هو أيضا مما خطر عليه ابن مدبر من الأشياء التى كانت مباحة، و جعله فى ديوان السلطان و كان من بعده على ذلك إلى اليوم، و قد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشرة آلاف قنطار، و يعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين قنطارا يتسلمونها من الطرّانة، فتباع فى مصر بالقنطار المصرى، و فى بحر الشرق و الصعيد بالجروىّ، و فى دمياط بالليثى. قال القاضى الفاضل: و باب النطرون كان مضمونا إلى آخر سنة خمس و ثمانين و خمسمائة بمبلغ خمسة عشر ألفا و خمسمائة دينار، و حصل منه فى سنة ست و ثمانين مبلغ سبعة آلاف و ثمانمائة دينار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٠۶

و أدركنا النطرون إقطاعا لعدّة أجناد.

فلما تولى الأمير محمود بن علىّ الإستادارية، و صار مدبر الدولة فى أيام الظاهر برقوق حاز النطرون، و جعل له مكانا لا يباع فى غيره، و هو إلى الآن على ذلك. و أما الحبس الجيوشى: فكان فى البرّين الشرقىّ و الغربىّ. ففى الشرقىّ: بهتين و الأميرية و المنية، و كانت تسجل هذه النواحى بعين، و فى الغربىّ: سفط و نهيا و وسيم، و هذه النواحى حبسها أمير الجيوش، بدر الجمالى، على عقبه هى و البساتين ظاهر باب الفتوح، فلما مات و طال العهد استأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبا للفائدة، ثم أدخلت فى الديوان.

قال ابن المأمون فى تاريخه: و جميع البساتين المختصة بالورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم لم تزل فى مدّة أيام الوزير المأمون البطائحىّ بأيديهم لم تخرج عنهم بضمان و لا بغيره.

فلما توفى الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و جلس أبو علىّ بن الأفضل بن أمير الجيوش، فى الوزارة، أعاد الجميع إلى الملاك لكون نايبه فى ذلك الأوفر.

فلما قتل، و استبدّ الخليفة، الحافظ لدين اللّه أمر بالقبض على جميع الأملاك، و حلّ الأحباس المختصة بأمير الجيوش، فلم يزل يأنس به، لأنه غلام الأفضل و الوزير فى ذلك الوقت، و عز الملك غلام الأوحد بن أمير الجيوش يتلطفان و يراجعان الخليفة مع الكتب التى أظهرها الورثة، و عليها خطوط الخلفاء إلى أن أبقاها عليهم، و لم يخرجها عنهم، ثم ارتفعت الحوطة عنها فى سنة سبع و عشرين و خمسمائة للديوان الحافظى.

و لما خدم الخطير و المرتضى فى سنة إحدى و ثلاثين و خمسمائة فى وزارة رضوان بن و لخشى، أعاد البساتين خاصة دون البلاد على الورثة بحكم ما آل أمرها إليه من الاختلال و نقص الارتفاع.

و لما انقرض عقب أمير الجيوش و لم يبق منه سوى امرأة كبيرة، أفتى فقهاء ذلك العصر، ببطلان الحبس، فقبضت النواحى و صارت من جملة الأموال السلطانية، فمنها ما هو اليوم فى الديوان السلطانىّ، و منها ما صار وقفا و رزقا أحباسية و غير ذلك.

و أما

دار الضرب: فكان بالقاهرة دار الضرب، و بالإسكندرية دار الضرب، و بقوص دار الضرب، و لا يتولى عيار دار الضرب، إلّا قاضى القضاة أو من يستخلفه، ثم رذلت فى زمننا حتى صار يليها مسالمة فسقة اليهود، المصرّين على الفسق، مع ادّعائهم الإسلام، و كان يجتهد فى خلاص الذهب و تحرير عياره، إلى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٠٧

الناصرية، فجاءت غير خالصة، و كانت بمصر المعاملة بالورق، فأبطلها الملك الكامل، محمد بن أبى بكر بن أيوب فى سنة بضع و عشرين، و ضرب الدرهم المدوّر الذى يقال له:

الكاملىّ، و جعل فيه من النحاس قدر الثلث، و من الفضة الثلثين، و لم يزل يضرب بالقاهرة إلى أن أكثر الأمير، محمود الإستادار من ضرب الفلوس بالقاهرة و الإسكندرية، فبطلت الدراهم من مصر، و صارت معاملة أهلها إلى اليوم بالفلوس، و بها يقوّم الذهب و سائر المبيعات، و سيأتى ذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى، عند ذكر أسباب خراب مصر.

و كانت دار الضرب يحصل منها للسلطان مال كثير، فقلّ فى زماننا لقلة الأموال و دار الضرب اليوم جارية فى ديوان الخاص.

و أما

دار العيار: فكانت مكانا يحتاط فيه للرعية و تصلح موازينهم و مكاييلهم به و يحصل منها للسلطان مال، و جعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف سور القاهرة، و قد ذكرت فى خطط القاهرة من هذا الكتاب.

و أما الأحكار: فإنها أجر مقرّرة على ساحات بمصر، و القاهرة، فمنها ما صار دورا للسكنى، و منها ما أنشئ بساتين، و كانت تلك

الأجر من جملة الأموال السلطانية، و قد بطل ذلك من ديوان السلطان، و صارت أحكار مصر، و القاهرة و ما بينهما أوقافا على جهات متعدّدة.

و أما

الغروس: فكانت فى الغربية فقط عدّة أراض يؤخذ منها شبه الحكر عن كل فدّان مقرّر معلوم، و قد بطل ذلك من الديوان.

و أما مقرّر الجسور: فكان على كل ناحية تقرير بعدّة قطع معلومة يجبى منها عن كل قطعة عشرة دنانير لتصرف فى عمل الجسور، فيفضل منها مال كثير يحمل إلى بيت المال، و قد بطل هذا أيضا، و جدّد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذكرت فى أسباب الخراب.

و أما موظف الأتبان: فكان جميع تبن أرض مصر على ثلاثة أقسام: قسم للديوان، و قسم للمقطع، و قسم للفلاح، فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الأقاليم، و يؤخذ فى التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير و سدس دينار، فيحصل من ذلك مال كثير، و قد بطل هذا أيضا من الديوان.

و أما الخراج: فإنه كان فى البهنساوية و سفط ريشين و الأشمونين و الأسيوطية، و الأخميمية و القوصية: أشجار لا تحصى من سنط، لها حرّاس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول، فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه، و كان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار.

و كان يستخرج من هذه النواحى مال يقال له: رسم الخراج، و يحتج فى جبايته بأنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۰۸

نظير ما تقطعه أهل النواحى، و تنتفع به من أخشاب السنط فى عمائرها، و مقرّر آخر، كان يجبى منهم يعرف بمقرّر السنط، فيصرف من هذا المقرّر أجرة قطع الخشب و حزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار، و على المستخدمين فى ذلك أن لا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسطول، لكنهم إنما يقطعون الأطراف التى ينتفع بها فى الوقود فقط، و يقال لهذا الذى يقطع حطب النار، فيباع على التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير، و يكتب على أيديهم زنة ما بيع عليهم، فإذا وردت المراكب بالحطب إلى ساحل مصر، اعتبرت عليهم و قوبل ما فيها بما عين فى الرسالة الواردة و استخرج الثمن على ما فى الرسالة، و كانت العادة أنه لا يباع مما فى البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية، و قد بطل هذا جميعه، و استولت الأيدى على تلك الأشجار، فلم يبق منها شىء البتة و نسى هذا من الديوان.

و أما القرظ: فإنه ثمر شجر السنط، و كان لا يتصرّف فيه إلا الديوان، و متى وجد منه مع أحد شىء اشتراه من غير الديوان، نكل به و استهلك ما وجد معه منه، فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع، و يؤخذ من ثمنها الربع عندما تصل إلى ساحل مصر بعد ما تقوّم، أو ينادى عليها و كان فيها حيف كبير، و قد بطل ذلك.

و أما ما يستأدى من أهل الذمّة: فإنه كان يأخذ منهم عما يرد و يصدر معهم من البضائع فى مصر و الإسكندرية و أخميم خاصة دون بقية البلاد، ضرائب بتقرير فى الديوان، و قد بطل ذلك أيضا.

و أما مقرّر الجاموس و مقرّر بقر الخيس و مقرّر الأغنام: فإنه كان للسلطان من هذه الأصناف شىء كثير جدّا فيؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب فى نظير ما يتحصل منه فى كل سنة، من خمسة دنانير إلى ثلاثة دنانير، و من اللاحق بحق النصف من الراتب، و أقل ما تنتج كل مائة خمسون إلى غير ذلك من ضرائب مقرّرة على الجاموس، و على أبقار الخيس، و على الغنم البيض، و الغنم الشعارى، و على النحل، و قد بطل ذلك جميعه لقلة مال السلطان، و إعراضه عن العمارة و أسبابها، و تعاطى أسباب الخراب.

و أما المواريث: فإنها فى الدولة الفاطمية لم تكن كما هى اليوم، من أجل أنّ مذهبهم توريث ذوى الأرحام، و أنّ البنت إذا انفردت

استحقت المال بأجمعه، فلما انقضت أيامهم، و استولت الأيوبية، ثم الدولة التركية، صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية، و هى التى يستحقها بيت المال عند عدم الوارث، فتعدل فيه الوزارة مرّة و تظلم أخرى.

و أما المكوس: فقد تقدّم حدوثها، و ما كان من الملوك فيها، و الذى بقى منها إلى الآن بديار مصر يلى أمره الوزير، و فى الحقيقة إنما هو نفع للأقباط يتخوّلون فيه بغير حق، و قد تضاعفت المكوس فى زمننا عما كنا نعهده، منذ عهد تحدّث الأمير جمال الدين يوسف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۰۹

الإستادار فى الأموال السلطانية، كما ذكر فى أسباب الخراب.

و أما البراطيل: و هى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد، و محتسبيها و قضاتها و عمالها، فأوّل من عمل ذلك بمصر: الصالح بن رزيك فى ولاة النواحى فقط، ثم بطل، و عمل فى أيام العزيز بن صلاح الدين أحيانا، و عمله الأمير شيخون فى الولاة فقط، ثم أفحش فيه الظاهر برقوق كما يأتى فى أسباب الخراب.

و أما الحمايات و المستأجرات: فشىء حدث فى أيام الناصر فرج، و صار لذلك ديوان و مباشرون، و عمل مثل ذلك الأمراء، و هو من أعظم أسباب الخراب كما يذكر فى موضعه إن شاء اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۱۰

ذكر الأهرام

اشارة

اعلم أنّ الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جدّا، منها بناحية بوصير شىء كثير، بعضها كبار، و بعضها صغار، و بعضها طين و لبن، و أكثرها حجر، و بعضها مدرج، و أكثرها مخروط أملس، و قد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر، عدّة كثيرة كلها صغار هدمت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش، و بنى بها قلعة الجبل و السور المحيط بالقاهرة، و مصر و القناطر التى بالجيزة.

و أعظم الأهرام الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر، و قد اختلف الناس فى وقت بنائها، و اسم بانيها و السبب فى بنائها، و قالوا فى ذلك أقوالا متباينة، أكثرها غير صحيح، و سأقص عليك من نبأ ذلك ما يشفى، و يكفى إن شاء اللّه تعالى.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى أخبار مصر و عجائبها فى أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هوصال أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون فى مدينة أمسوس الآتى ذكرها عند ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب، و هو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين إلى شدّاد بن عاد، و القبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوّة سحرهم.

و سبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة، قد رأى سوريد فى منامه، كأنّ الأرض انقلبت بأهلها، و كأنّ الناس قد هربوا على وجوههم، و كأنّ الكواكب تتساقط و يصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة، فغمه ذلك، و لم يذكره لأحد، و علم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم، ثم رأى بعد ذلك بأيام كأنّ الكواكب الثابتة، نزلت إلى الأرض فى صور طيور بيض، و كأنها تختطف الناس، و تلقيهم بين جبلين عظيمين، و كأنّ الجبلين قد انطبقا عليهم، و كأن الكواكب المنيرة مظلمة مكسوفة، فانتبه مرعوبا مذعورا، و دخل إلى هيكل الشمس، و تضرّع و مرّغ خدّيه على التراب و بكى، فلما أصبح، جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر، و كانوا مائة و ثلاثين كاهنا، فخلا بهم و حدّثهم ما رآه أوّلا و آخرا، فأوّلوه بأمر عظيم يحدث فى العالم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۱۱

فقال عظيم الكهان، و يقال له: إقليمون: إنّ أحلام الملوك لا- تجرى على محال لعظم أقدارهم، و أنا أخبر الملك برؤيا رأيتها منذ سنة، و لم أذكرها لأحد من الناس، رأيت كأنى قاعد مع الملك على وسط المنار الذى بأمسوس، و كأنّ الفلك قد انحط من موضعه حتى قارب رؤوسنا، و كان علينا كالقبة المحيطة بنا، و كأن الملك قد رفع يديه نحو السماء، و كواكبها قد خالطتها فى صور شتى مختلفة الأشكال، و كأنّ الناس قد جفلوا إلى قصر الملك، و هم يستغيثون به، و كأنّ الملك قد رفع يديه حتى بلغتا رأسه، و أمرنى أن أفعل كما فعل، و نحن على و جل شديد، إذ رأينا منها موضعا قد انفتح، و خرج منه نور مضىء، و طلعت علينا منه الشمس، و كأنا استغثنا بالشمس، فخاطبتنا أن الفلك سيعود إلى موضعه، فانتبهت مرعوبا، ثم نمت فرأيت كأن مدينة أمسوس قد انقلبت بأهلها و الأصنام تهوى على رؤوسها، و كأن أناسا نزولا من السماء بأيديهم مقام من حديد يضربون الناس بها، فقلت لهم: و لم تفعلون بالناس كذا؟ قالوا: لأنهم كفروا بإلههم! قلت: فما بقى لهم من خلاص؟

قالوا: نعم، من أراد الخلاص، فليلحق بصاحب السفينة، فانتبهت مرعوبا فقال الملك:

خذوا الارتفاع للكواكب، و انظروا هل من حادث؟ فبلغوا غايتهم فى استقصاء ذلك، و أخبروا بأمر الطوفان، و بعده بالنار التى تخرج من برج الأسد تحرق العالم، فقال الملك:

انظروا هل تلحق هذه الآفة بلادنا؟ فقالوا: نعم، تأتى فى الطوفان على أكثره و يلحقه خراب يقيم عدّة سنين. قال: فانظروا هل يعود عامرا كما كان؟ أو يبقى مغمورا بالماء دائما؛ قالوا:

بل تعود البلاد كما كانت و تعمر، قال: ثم ما ذا؟ قالوا: يقصدها ملك يقتل أهلها، و يغنم مالها؛ قال: ثم ما ذا؟ قالوا: يقصدها قوم مشوّهون من ناحية جبل النيل، و يملكون أكثرها؛ قال: ثم ما ذا؟ قالوا: ينقطع نيلها و تخلو من أهلها؛ فأمر عند ذلك: بعمل الأهرام، و أن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل إلى مكان بعينه، ثم يفيض إلى مواضع من أرض الغرب و أرض الصعيد، و ملأها طلسمات و عجائب و أموالا و أصناما، و أجساد ملوكهم، و أمر الكهان فزبروا عليها جميع ما قالته الحكماء، و زبر فيها و فى سقوفها و حيطانها و أسطواناتها جميع العلوم الغامضة التى يدّعيها أهل مصر، و صوّر فيها صور الكواكب كلها، و زبر عليها أسماء العقاقير و منافعها و مضارها و علم الطلسمات و علم الحساب و الهندسة، و جميع علومهم مفسرا لمن يعرف كتابتهم و لغتهم.

و لما شرع فى بنائها أمر بقطع الأسطوانات العظيمة و نشر البلاط الهائل، و استخراج الرصاص من أرض المغرب و إحضار الصخور من ناحية أسوان، فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة، الشرقىّ و الغربىّ و الملوّن، و كانت لهم صحائف، و عليها كتابة، إذا قطع الحجر و تمّ إحكامه وضعوا عليه تلك الصحائف و ضربوه، فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم، ثم يعاودون ذلك حتى يصل الحجر إلى الأهرام، و كانوا يمدّون البلاطة، و يجعلون فى ثقب بوسطها قطبا من حديد قائما، ثم يركبون عليها بلاطة أخرى مثقوبة الوسط، و يدخلون

القطب فيها، ثم يذاب الرصاص و يصب فى القطب حول البلاطة بهندام و إتقان إلى أن كملت.

و جعل لها أبوابا تحت الأرض بأربعين ذراعا، فأما باب الهرم الشرقىّ، فإنه من الناحية الشرقية على مقدار مائة ذراع من وسط حائط الهرم، و أما باب الهرم الغربىّ، فإنه من الناحية الغربية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط، و أما باب الهرم الملوّن فإنه من الناحية الجنوبية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط، فإذا حفر بعد هذا القياس، وصل إلى باب الأزج المبنىّ، و يدخل إلى باب الهرم و جعل ارتفاع كل واحد من الأهرام فى الهواء مائة ذراع، بالذراع الملكىّ، و هو بذراعهم خمسمائة ذراع بذراعنا الآن، و جعل طول كل واحد من جميع جهاته، مائة ذراع بذراعهم، ثم هندسها من كل جانب حتى تحدّدت أعاليها من آخر طولها على ثمانية أذرع بذراعنا، و كان ابتداء بنائها فى طالع سعيد اجتمعوا عليه و تخيروه، فلما فرغت كساها ديباجا ملوّنا من فوقها إلى أسفلها، و عمل لها عيدا حضره أهل مملكته بأجمعهم ثم عمل فى الهرم الغربىّ، ثلاثين مخزنا من حجارة صوّان ملوّن، و ملئت بالأموال الجمة، و الآلات و التماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة، و آلات الحديد الفاخر من السلاح الذى لا يصدأ و الزجاج الذى ينطوى، و لا ينكسر و الطلسمات

الغربية، و أصناف العقاقير المفردة و المؤلفة، و السموم القاتلة، و عمل فى الهرم الشرقىّ أصناف القباب الفلكية و الكواكب، و ما عمله أجداده من التماثيل و الدخن التى يتقرّب بها إلى الكواكب و مصاحفها و كوّن الكواكب الثابتة، و ما يحدث فى أدوارها وقتا وقتا و ما عمل لها من التواريخ، و الحوادث التى مضت، و الأوقات التى ينتظر فيها ما يحدث، و كل من يلى مصر إلى آخر الزمان.

و جعل فيها المطاهر التى فيها المياه المدبرة و ما أشبه ذلك، و جعل فى الهرم الملوّن أجساد الكهنة فى توابيت من صوّان أسود، و مع كل كاهن مصحف فيه عجائب صناعاته و أعماله و سيرته، و ما عمل فى وقته، و ما كان، و ما يكون من أوّل الزمان إلى آخره، و جعل فى الحيطان من كل جانب أصناما تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها و أقدارها، و صفة كل صنعة و علاجها و ما يصلح لها، و لم يترك علما من العلوم حتى زبره و رسمه، و جعل فيها أموال الكواكب التى أهديت إلى الكواكب، و أموال الكهنة، و هو شيء عظيم لا يحصى.

و جعل لكل هرم منها خادما، فخادم الهرم الغربىّ: صنم من حجارة صوّان مجزع، و هو واقف و معه شبه حربة و على رأسه حية قد تطوّق بها من قرب منه، و ثبت إليه و طوّقت على عنقه و قتلته، ثم تعود إلى مكانها.

و جعل خادم الهرم الشرقىّ: صنما من جزع أسود مجزع بأسود و أبيض له عينان مفتوحتان برّاقتان، و هو جالس على كرسىّ، و معه حربة إذا نظر أحد إليه سمع من جهته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢١٣

صوتا يفزع منه، فيخرّ على وجهه، و لا يبرح حتى يموت.

و جعل خادم الهرم الملوّن: صنما من حجر البهت على قاعدة منه، من نظر إليه جذبه حتى يلتصق به، فلا يفارقه حتى يموت، فلما فرغ من ذلك، حصّن الأهرام بالأرواح الروحانية، و ذبح لها الذبائح لتمنع عن أنفسها من أرادها إلا من عمل لها أعمال الوصول إليها.

و ذكر القبط فى كتبهم: أنّ عليها منقوشا تفسيره بالعربية: أنا سوريد الملك، بنيت هذه الأهرام فى وقت كذا و كذا، و أتممت بناءها فى ست سنين، فمن أتى بعدى، و زعم أنه ملك مثلى، فليهدمها فى ستمائة سنة، و قد علم أن الهدم أيسر من البنيان، و إنى كسوتها عند فراغها بالديباج، فليكسها بالحصر، فنظروا فوجدوا أنه لا يقوم بهدمها شيء من الأزمان الطوال.

و حكى القبط فى كتبهم: أنّ روحانية الهرم الشمالىّ، غلام أمرد أصفر اللون عريان فى فمه أنياب كبار، و روحانية الهرم الجنوبىّ: امرأة عريانة بادية الفرج حسناء فى فمها أنياب كبار تستهوى الإنسان إذا رأته، و تضحك له حتى يدنو منها، فتسلبه عقله، و روحانية الهرم الملوّن: شيخ فى يده مجمرة من مجامر الكنائس يبخر بها، و قد رأى غير واحد من الناس هذه الروحانيات مرارا، و هى تطوف حول الأهرام وقت القائلة، و عند غروب الشمس.

قال: و لمّا مات سوريد، دفن فى الهرم، و معه أمواله و كنوزه. و قالت القبط: إن سوريد هو الذى بنى البرابى، و أودع فيها كنوزا و زبر عليها علوما و وكل بها روحانيات تحفظها ممن يقصدها، قال: و أما الأهرام الدهشورية، فيقال: إن شدات بن عديم هو الذى بناها من الحجارة التى كانت قد قطعت فى زمن أبيه، و شدادت هذا يزعم بعض الناس أنه شدّاد بن عاد، و قال: من أنكر أن يكون العادية دخلت مصر، و إنما غلطوا باسم شدات بن عديم، فقالوا: شدّاد بن عاد، لكثرة ما يجرى على ألسنتهم شدّاد بن عاد، و قلة ما يجرى على ألسنتهم شدات بن عديم، و إلّا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر، و لا قوى على أهلها غير بخت نصر، و اللّه أعلم.

و ذكر أبو الحسن المسعودى فى كتابه أخبار الزمان: و من أباده الحدثان، أن الخليفة عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد، لمّا قدم مصر و أتى على الأهرام، أحب أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها، فقيل له: إنك لا تقدر على ذلك؟ فقال: لا بدّ من فتح شيء منه، ففتحت له الثلمة المفتوحة الآن بنار توقد و خلّ يرش و معاول و حدّادين يعملون فيها حتى أنفق عليها أموالا عظيمة، فوجدوا عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعا، فلما انتهوا إلى آخر الحائط، وجدوا خلف الثقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب، وزن كل دينار أوقية، و كان عددها ألف دينار، فجعل المأمون يتعجب من ذلك الذهب و من جودته، ثم أمر بجملة ما أنفق على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢١٤

الثلمة فوجدوا الذهب الذى أصابوه لا يزيد على ما أنفقوه، و لا ينقص فعجب من معرفتهم بمقدار ما ينفق عليه، و من تركهم ما يوازيه فى الموضع عجبا عظيما، و قيل: إن المطهرة التى وجد فيها الذهب كانت من زبرجد، فأمر المأمون بحملها إلى خزانته، و كان آخر ما عمل من عجائب مصر.

و أقام الناس سنين يقصدونه، و ينزلون فيه الزلاقة التى فيه، فمنهم من يسلم و منهم من يهلك، فاتفق عشرون من الأحداث على دخوله، و أعدّوا لذلك ما يحتاجون من طعام و شراب، و حبال و شمع و نحوه، و نزلوا فى الزلاقة، فرأوا فيها من الخفاش ما يكون كالعقبان يضرب وجوههم، ثم إنهم أدلوا أحدهم بالحبال، فانطبق عليه المكان، و حاولوا جذبه حتى أعياهم فسمعوا صوتا أربعهم فغشى عليهم، ثم قاموا و خرجوا من الهرم، فبينما هم جلوس يتعجبون مما وقع لهم، إذ أخرجت الأرض صاحبهم حيا من بين أيديهم يتكلم بكلام لم يعرفوه، ثم سقط ميتا، فحملوه و مضوا به فأخذهم الخفراء و أتوا بهم إلى الوالى فحدّثوه خبرهم، ثم سألوا عن الكلام الذى قال صاحبهم قبل موته، فقيل لهم:

معناه: هذا جزاء من طلب ما ليس له، و كان الذى فسر لهم معناه بعض أهل الصعيد.

و قال على بن رضوان الطبيب: فكرت فى بناء الأهرام، فأوجب علم الهندسة العلمية و رفع الثقيل إلى فوق أن يكون القوم هندسوا سطحا مربعا، و نحتوا الحجارة ذكرا و أنثى، و رصوها بالجبس البحرىّ إلى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل، و كانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازى للمربع الأسفل مربعا أصغر من المربع السفلانىّ، ثم عملوا فى السطح المربع الفوقانىّ مربعا أصغر بمقدار ما بقى فى الحاشية ما يمكن رفع الثقيل إليه، و كلما رفعوا حجرا مهندما رصوه إليه ذكرا و أنثى، إلى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الأوّل، و لم يزالوا يفعلون ذلك إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك فقطعوا الارتفاع، و نحتوا الجوانب البارزة التى فرضوها لرفع الثقيل، و نزلوا فى النحت من فوق إلى أسفل، و صار الجميع هرما واحدا.

و

قياس الهرم الأوّل: بالذراع التى تقاس بها اليوم الأبنية بمصر، كل حاشية منه أربعمائة ذراع، يكون بالذراع السوداء التى طول كل ذراع منها أربعة و عشرون أصبعا خمسمائة ذراع، و ذلك أن قاعدته مربع متساوى الأضلاع، و الزوايا ضلعان منهما، على خط نصف النهار، و ضلعان على خط المشرق و المغرب، و كل ضلع بالذراع السوداء خمسمائة ذراع، و الخط المنحدر على استقامة من رأس الهرم إلى نصف ضلع المربع أربعمائة و سبعون ذراعا، يكون إذا تمم أيضا، خمسمائة ذراع.

و أحيط بالهرم، أربع مثلثات و مربع، و كل مثلث منها متساوى الساقين، كل ساق منه إذا تمم خمسمائة و ستون ذراعا، و المثلثات الأربعة تجتمع رؤوسها عند نقطة واحدة، و هى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢١٥

رأس الهرم إذا تمم فيلزم أن يكون عموده أربعمائة و ثلاثين ذراعا، و على هذا العمود مراكز أثقاله، و يكون تكسير كل مثلث من مثلثاته: مائة و خمسة و عشرين ألف ذراع، إذا اجتمع تكاسيرها كان مبلغ تكسير سطح هذا الهرم: خمسمائة ألف ذراع بالسوداء، و ما أحسب على وجه الأرض بناء أعظم منه و لا أحسن هندسة و لا أطول، و اللّه أعلم.

و قد فتح المأمون نقبا من هذا الهرم، فوجد فيه زلاقة تصعد إلى بيت مربع مكعب، و وجد فى سطحه قبر رخام و هو باق فيه إلى اليوم، و لم يقدر أحد يحطه، و بذلك أخبر جالينوس، أنها قبور. فقال فى آخر الخامسة من تدبير الصحة بهذا اللفظ، و هم يسمون، من كان فى هذا السن: الهرم، و هو اسم مشتق من الأهرام التى هم إليها صائرون عن قريب.

و قال الحوقلىّ فى صفة مصر: و بها الهرمان اللذان ليس على وجه الأرض لهما نظير فى ملك مسلم و لا كافر و لا عمل و لا يعمل لهما، و قرأ بعض بنى العباس على أحدهما:

إنى قد بنيتهما فمن كان يدّعى قوّة فى ملكه فليهدمها، فالهدم أيسر من البنيان، فهمّ بذلك و أظنه المأمون أو المعتصم، فإذا خراج مصر لا يقوم به يومئذ، و كان خراجها على عهده بالإنصاف فى الجباية و توخى الرفق بالرعية و المعدلة إذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع، أربعة آلاف ألف و مائتى ألف و سبعة و خمسين ألف دينار، و المقبوض على الفدّان، دينارين، فأعرض عن ذلك و لم يعد فيه شيئا.

و فى حدّ الفسطاط فى غربىّ النيل أبنية عظام يكثر عددها مفترشة فى سائر الصعيد تدعى: الأهرام، و ليست كالهرمين اللذين تجاه الفسطاط، و على فرسخين منها ارتفاع كل واحد منهما: أربعمائة ذراع، و عرضه كارتفاعه، مبنىّ بحجارة الكدّان التى سمك الحجر، و طوله و عرضه من العشر أذرع إلى الثمان بحسب ما دعت الحاجة إلى وضعه فى زيادته و نقصه، و أوجبته الهندسة عندهم لأنهما كلما ارتفعا فى البناء ضاقا حتى يصير أعلاهما من كل واحد منهما مثل مبرك جمل، و قد ملئت حيطانهما بالكتابة اليونانية، و قد ذكر قوم أنهما قبران و ليس كذلك، و إنما حمل صاحبهما على عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن فى مثلهما، فخزن ذخائره و أمواله فيهما، و أتى الطوفان، ثم نضب فصار ما كان فيهما إلى بيصر بن مصرايم بن حام بن نوح، و قد خزن فيهما بعض الملوك المتأخرين و جعلهما هراءه، و اللّه أعلم.

و قال أبو يعقوب محمد بن إسحاق النديم الوراق فى كتاب الفهرست: و قد ذكر هرمس البابلىّ قد اختلف فى أمره فقيل: إنه كان أحد السدنة السبعة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة، و إنه كان لترتيب عطارد و باسمه سمى، فإن عطارد باللغة الكلدانية: هرمس،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢١۶

و قيل: إنه انتقل إلى أرض مصر بأسباب، و إنه ملكها و كان له أولاد منهم: طا، و صا، و أشمن، و أتريب، و قفط، و إنه كان حكيم زمانه، و إنه لما توفى دفن فى البناء الذى يعرف بمدينة مصر: بأبى هرمس، و يعرفه العامة بالهرمين، فإن أحدهما قبره و الآخر قبر زوجته، و قيل: قبر ابنه الذى خلفه بعد موته، و هذه البنية يعنى الأهرام: طولها بالذراع الهاشمى، أربعمائة ذراع و ثمانون ذراعا على مساحة أربعمائة و ثمانين ذراعا، ثم ينخرط البناء فإذا حصل الإنسان فى رأسه كان مقدار سطحه أربعين ذراعا، هذا بالهندسة و فى وسط هذا السطح، قبة لطيفة فى وسطها شبيهة بالمقبرة، و عند رأس ذلك القبر صخرتان فى نهاية النظافة و الحسن و كثرة التلوّن، و على كل واحدة منهما شخصان من حجارة، صورة ذكر و أنثى، و قد تلاقيا بوجهيهما، و بيد الذكر لوح من حجارة فيه كتابة، و بيد الأنثى مرآة، و الرف ذهّب نقشه نقاش، و بين الصخرتين برنية من حجارة على رأسها غطاء ذهب، فلما قلع فإذا فيها شبيه بالنار بغير رائحة قد يبس، و فيها حقة ذهب فنزع رأسها، فإذا فيها دم عبيط ساعة قرعه الهواء جمد، كما يجمد الدم و جف، و على القبور أغطية حجارة، فلما قلعت إذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصحة و الجفاف بين الخلقة ظاهر الشعور، و إلى جنبه امرأة على هيئته، قال: و ذلك السطح منقر نحو قامة كما يدور مثل المسمار ذات آزاج من حجارة فيها صور و تماثيل مطروحة و قائمة، و غير ذلك من الآلة التى لا تعرف أشكالها.

و قال العلامة موفق الدين عبد اللطيف بن أبى العز يوسف بن أبى البركات محمد بن علىّ بن سعد البغدادى المعروف بابن المطحن فى سيرته، و جاء رجل جاهل عجمىّ، فخيّل إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أن الهرم الصغير تحته مطلب، فأخرج إليه الحجارين و أكثر العسكر و أخذوا فى هدمه، و أقاموا على ذلك شهورا، ثم تركوه عن عجز و خسران مبين فى المال و العقل، و من يرى حجارة الهرم يقول: إنه قد استوصل الهرم، و من يرى الهرم لا يجد به إلا تشعيثا يسيرا، و قد أشرفت على الحجارين فقلت لمقدّمهم: هل تقدرون على إعادته؟ فقال: لو بذل لنا السلطان عن كل حجر ألف دينار لم يمكنا ذلك.

و قال أبو الحسن المسعودى فى مروج الذهب: و أما الأهرام فطولها عظيم و بنيانها عجيب عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة، و الممالك الدائرة لا يدرى ما تلك الكتابة و لا المراد بها، و قد قال من عنى بتقدير ذرعها: أن مقدار ارتفاع الهرم الكبير ذهابا فى الجوّ نحو أربعمائة ذراع أو أكثر، و كلما صعد دق ذلك، و العرض نحو ما وصفنا، و عليها من الرسوم علوم و خواص و سحر

و أسرار الطبيعة، و إن من تلك الكتابة مكتوبا، إنا بنيناها فمن يدّعى موازاتنا فى الملك، و بلوغ القدرة و انتهاء أمر السلطان فليهدمها و ليزع رسمها فإن الهدم أيسر من البناء و التفريق أسهل من التأليف.

و قد ذكر أن بعض ملوك الإسلام شرع يهدم بعضها فإذا خراج مصر لا يفى بقلعها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج١، ص: ٢١٧

و هى من الحجر و الرخام، و أنها قبور لملوك، و كان الملك منهم إذا مات، وضع فى حوض من حجارة، و يسمى بمصر و الشام: الجرون، و أطبق عليه، ثم بنى من الهرم على مقدار ما يريدون من ارتفاع الأساس، ثم يحمل الحوض، و يوضع وسط الهرم، ثم يقنطر عليه البنيان، ثم يرفعون البناء على المقدار الذى يرونه، و يجعل باب الهرم تحت الهرم، ثم يحفر له طريق فى الأرض، و يعقد أزج طوله تحت الأرض مائة ذراع أو أكثر، و لكل هرم من هذه الأهرام باب مدخله على ما وصفت، قال: و كان القوم يبنون الهرم من هذه الأهرام مدرجا ذا مراق كالدرج، فإذا فرغوا نحتوه من فوق إلى أسفل، فهذه كانت جبلتهم، و كانوا مع ذلك لهم قوّة و صبر و طاعة.

و قال فى كتاب البنية و الإشراف: و الهرمان اللذان فى الجانب الغربىّ من فسطاط مصر هما من عجائب بنيان العالم، كل واحد منهما أربعمائة ذراع فى سمك مثل ذلك، مبنيان بالحجر العظيم على الرياح الأربع كل ركن من أركانهما يقابل ريحا منها فأعظمهما فيهما تأثيرا ريح الجنوب و هى: المريسى و أحد هذين الهرمين، قبر أعاديمون، و الآخر قبر هرمس، و بينهما نحو ألف سنة و أعاديمون المتقدّم، و كان سكان مصر و هم الأقباط يعتقدون نبوّتهما قبل ظهور النصرانية فيهم على ما يوجبه رأى الصابئين فى النبوّات لا على طريق الوحى، بل هم عندهم نفوس طاهرة صفت و تهذبت من أدناس هذا العالم، فاتحدت بهم موادّ علوية، فأخبروا عن الكائنات قبل كونها، و عن سرائر العالم و غير ذلك، و فى العرب:

من اليمانية من يرى أنهما قبر شدّاد بن عاد و غيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر فى قديم الدهر، و هم العرب العارية من العماليق و غيرهم و هى عند من ذكرنا من الصابئين قبور أجساد طاهرة.

و ذكر أبو زيد البلخىّ: أنه وجد مكتوبا على الأهرام بكتابتهم خط فعرّب، فإذا هو:

بنى هذان الهرمان و النسر الوقع فى السرطان، فحسبوا من ذلك الوقت إلى الهجرة النبوية، فإذا هو: ست و ثلاثون ألف سنة شمسية مرتين، يكون اثنتين و سبعين ألف سنة شمسية.

و قال الهمدانى فى كتاب الإكليل: لم يوجد مما كان تحت الماء وقت الغرق من القرى، قرية فيها بقية، سوى نهاوند وجدت كما هى اليوم لم تتغير، و أهرام الصعيد من أرض مصر.

و ذكر أبو محمد عبد اللّه بن عبد الرحيم القيسى فى كتاب تحفة الألباب: أن الأهرام مربعة الجملة مثلثة الوجوه، و عددها ثمانية عشر هرما، فى مقابلة مصر الفسطاط ثلاثة أهرام، أكبرها دورة ألفا ذراع فى كل وجه خمسمائة ذراع، و علوه خمسمائة ذراع، و كل حجر من حجارتهما ثلاثون ذراعا فى غلظ عشرة أذرع قد أحكم إلصاقه و نحته.

و منها عند مدينة فرعون يوسف، هرم أعظم، و أكبر دوره ثلاثة آلاف ذراع، و علوه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج١، ص: ٢١٨

سبعمائة من حجارة، كل حجر خمسون ذراعا، و عند مدينة فرعون موسى أهرام أكبر و أعظم، و هرم آخر يعرف بهرم، مدون كأنه جبل، و هو خمس طبقات، و فتح المأمون الهرم الكبير الذى تجاه الفسطاط، قال: و قد دخلت فى داخله، فرأيت قبة مربعة الأسفل مدوّرة الأعلى كبيرة فى وسطها بئر عمقها، عشرة أذرع، و هى مربعة ينزل الإنسان فيها، فيجد فى كل وجه من تربيع البئر بابا يفضى إلى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب على كل واحد، قد بليت بطول الزمان و اسودّت و أجسامهم مثلنا ليسوا طوالا، و لم يسقط من أجسامهم، و لا من شعورهم شىء، و ليس فيهم شيخ، و لا من شعره أبيض، و أجسادهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة، و لكنهم خفوا حتى صاروا كالغثا لطول الزمان، و فى تلك البئر أربعة من

الدور مملوءة بأجساد الموتى، و فيها خفاش كثير، و كانوا يدفنون أيضا جميع الحيوان فى الرمال، و لقد وجدت ثيابا ملفوفة كثيرا مقدار جرمها، أكثر من ذراع، و قد احترقت تلك الثياب من القدم، فأزلت الثياب إلى أن ظهرت خرق صحاح قوية بيض من كتان أمثال العصائب فيها أعلام من الحرير الأحمر، و فى داخلها هدهد ميت لم يتناثر من ريشه، و لا من جسده شيء كأنه قد مات الآن.

و فى القبة التى فى الهرم، باب يفضى إلى علو الهرم، و ليس فيه درج عرضه نحو خمسة أشبار، يقال: إنه صعد فيها فى زمان المأمون فأفضوا إلى قبة صغيرة فيها صورة آدمى من حجر أخضر كالدهنج، فأخرجت إلى المأمون، فإذا هى مطبقة، فلما فتحت وجد فيها جسد آدميّ عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر و على صدره نصل سيف لا قيمة له، و عند رأسه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة يضيء كلهب النار فأخذه المأمون.

و قد رأيت الصنم الذى أخرج منه ذلك الميت ملقى عند باب دار الملك بمصر فى سنة إحدى عشرة و خمسمائة.

و قال القاضى الجليل أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعى: روى عليّ بن الحسن بن خلف بن قديد عن يحيى بن عثمان بن صالح عن محمد بن عليّ بن صخر التميميّ قال:

حدّثنى رجل من عجم مصر من قرية من قراها تدعى قفط، و كان عالما بأمور مصر و أحوالها و طالبا لكتبها القديمة و معادنها، قال: وجدنا فى كتبنا القديمة، قال: و أما الأهرام فإن قوما احتفروا قبرا فى دير أبى هرميس، فوجدوا فيه ميتا فى أكفانه، و على صدره قرطاس ملفوف فى خرق فاستخرجوه من الخرق، فرأوا كتابا لا يعرفونه، و كان الكتاب بالقبطية الأولى، فطلبوا من يقرأه لهم، فلم يقدروا عليه، فقيل لهم: إنّ بدير القلمون من أرض الفيوم راهبا يقرأه، فخرجوا إليه، و قد ظنوا أنه فى الضيعة، فقرأه لهم، و كان فيه: كتب هذا الكتاب فى أوّل سنة من ملك ديقلطيانس الملك، و إنّا استنسخناه من كتاب نسخ: فى أوّل سنة من ملك فيلبش الملك، و إنّ فيلبش استنسخه من صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا، و كان من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢١٩

الكتاب الأوّل، ترجمه له أخوان من القبط يقال لأحدهما: ايلو، و الآخر: يرثا، و إن الملك فيلبس سألهما عن سبب معرفتهما بما جهله الناس من قراءته، فذكرا أنهما من ولد رجل من أهل مصر الأوائل لم ينج من الطوفان من أهل مصر أحد غيره، و كان سبب نجاته أنه أتى نوحا عليه السلام فآمن به، و لم يأته من أهل مصر غيره، فحمله معه فى السفينة، فلما نضب ماء الطوفان أتى مصر، و معه نفر من ولد حام بن نوح، و كان بها حتى هلك، فورث ولده علم كتاب أهل مصر الأوّل، فورثناه عنه كابرا عن كابر.

و كان تاريخه الذى مضى إلى أن استنسخه فيلبش، ألفا و ثلثمائة و اثنتين و سبعين سنة، و إنّ الذى استنسخه فى صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا على ما وجده فيلبش، و إن تاريخه إلى أن استنسخه ألف و سبعمائة سنة و خمس و ثمانون سنة.

و كان الكتاب المنسوخ: إنا نظرنا فيما تدل عليه النجوم، فرأينا أن آفة نازلة من السماء و خارجة من الأرض، فلما بان لنا الكون نظرنا ما هو فوجدناه ماء مفسدا للأرض و حيوانها و نباتها، فلما تمّ اليقين من ذلك عندنا قلنا لملكنا سوريد بن سهلوق: مر ببناء أفروشات و قبر لك و قبر لأهل بيتك، فبنى لهم الهرم الشرقيّ، و بنى لأخيه هو حيث الهرم الغربيّ، و بنى لابن هو حيث الهرم الملوّن، و بنيت أفروشات فى أسفل مصر، و أعلاها فكتبنا فى حيطانها علم غامض أمر النجوم و عللها و الصنعة و الهندسة و الطب، و غير ذلك مما ينفع و يضرّ ملخصا مفسرا لمن عرف كلامنا و كتابتنا، و إن هذه الآفة نازلة بأقطار العالم، و ذلك عند نزول قلب الأسد فى أوّل دقيقة من رأس السرطان، و يكون الكوكب عند نزوله إياها فى هذه المواضع من الفلك الشمس و القمر فى أوّل دقيقة من رأس الحمل، و قوريس فى درجة و ثمان و عشرين دقيقة من الحمل، و راويس فى الحوت فى تسع و عشرين درجة و ثمان و عشرين دقيقة، و آويس فى الحوت فى تسع و عشرين درجة و ثلاث دقائق، و أفرد و بطر فى الحوت فى ثمان و عشرين درجة و دقائق، و هرمس فى الحوت فى سبع و عشرين و دقائق، و الجوزهر فى الميزان و أوج القمر فى الأسد فى خمس درجات و دقائق.

ثم نظرنا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضرّ بالعالم؟ فأصبنا الكواكب تدل على أن آفة نازلة من السماء إلى الأرض و إنها ضدّ الآفة

الأولى و هى نار محرقة أقطار العالم، ثم نظرنا متى يكون هذا الكون المضر؟ فرأيناه يكون، عند حلول قلب الأسد فى آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشر من الأسد، و يكون إبليس معه فى دقيقة واحدة متصلة بقوريس من تثليث الرامى، و يكون راويس مشترى فى أوّل الأسد فى آخر احتراقه، و معه آويس فى دقيقة، و يكون سليس فى الدلو مقابلا لإيليس الشمس، و معه الذنب فى اثنتين و عشرين، و يكون كسوف شديد له مكث يوازى القمر، و يكون هرمس عطارد فى بعده الأبعد أمامها مقبلين، أما إفرد و بطن فللاستقامة، و أما هرمس فللرجعة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٢٠

قال الملك: فهل عندكم من خبر توقفونا عليه غير هاتين الآفتين؟ قالوا: إذا قطع قلب الأسد ثلثى سدس أدواره لم يبق من حيوان الأرض متحرّك إلا تلف، فإذا استتم أدواره تحللت عقد الفلك، و سقط على الأرض، قال لهم: و أىّ يوم فيه انحلال الفلك؟ قالوا: اليوم الثانى من بدو حركة الفلك، فهذا ما كان فى القرطاس.

فلما مات الملك سوريد بن سهلوق دفن فى الهرم الشرقىّ، و دفن هو حيث فى الهرم الغربىّ، و دفن كرورس فى الهرم الذى أسفله من حجارة أسوان و أعلاه كدان.

و لهذه الأهرام أبواب فى أزج تحت الأرض طول كل أزج مائة و خمسون ذراعا.

فأما باب الهرم الشرقىّ فمن الناحية البحرية، و أما باب أزج الهرم الموزر فمن الناحية القبلية.

و فى الأهرام من الذهب و حجارة الزمرد ما لا يحتمله الوصف.

و إنّ مترجم هذا الكتاب من القبطىّ إلى العربىّ أجمل التاريخين إلى أوّل يوم من توت، و هو يوم الأحد طلوع شمسه سنة خمس و عشرين و مائتين من سنى العرب، فبلغت أربعة آلاف و ثلثمائة و إحدى و عشرين سنة لسنى الشمس، ثم نظر كم مضى للطوفان إلى يومه هذا فوجده ألفا و سبعمائة و إحدى و أربعين سنة و تسعة و خمسين يوما و ثلاث عشرة ساعة و أربعة أخماس ساعة و تسعة و خمسين جزءا من أربعمائة جزء من ساعة، فألقاها من الجملة فبقى معه ثلثمائة و تسع و تسعون سنة و مائتان و خمسة أيام و عشر ساعات و أحد و عشرون جزءا من أربعمائة جزء من ساعة، فعلم أن هذا الكتاب المؤرخ كتب قبل الطوفان بهذه السنين و الأيام و الساعات و الكسر من الساعة.

و أما الهرم الذى بدير أبى هرميس، فإنه قبر قرياس، و كان فارس أهل مصر، و كان يعدّ بألف فارس، فإذا لقيهم لم يقوموا به و انهزموا، و إنه مات فجزع الملك عليه جزعا بلغ منه، و اكتأبت لموته الرعية، فدفنوه بدير هرميس و بنوا عليه الهرم مدرجا، و كان طينه الذى بنى به مع الحجارة من الفيوم، و هذا معروف إذا نظر إلى طينه لم يعرف له معدن إلا بالفيوم و ليس بمنف و وسيم له شبه من الطين.

و أما قبر الملك صاحب قرياس هذا، فإنه الهرم الكبير من الأهرام التى فى بحرى دير أبى هرميس، و على بابه لوح كدان مكتوب فيه باللازورد طول اللوح: ذراعان فى ذراع و كله مملوء كتبا مثل كتب البرابى يصعد إلى باب الهرم بدرج بعضها صحيح لم ينخرم، و فى هذا الهرم ذخائر صاحبه من الذهب و حجارة الزمرد، و إنما سدّ بابه حجارة سقطت من أعاليه و من وقف عليه رآه بيتا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٢١

و قال ابن عفير عن أشياخه: أن جياد بن مياد بن شمر بن شدّاد بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، ملك الإسكندرية، و كانت تسمى إرم ذات العماد، فطال ملكه، و بلغ ثلثمائة سنة.

و هو الذى سار و بنى الأهرام و زبر فيها: أنا جياد بن مياد بن شمر بن شدّاد الشادّ بزراعة الواد المؤيد الأوتاد الجامع الصخر فى البلاد المجند الأجناد الناصب العماد الكند الكناد تخرجه أمّة اسم نبيها حماد آية ذلك إذا غشى بلد البلاد سبعة ملوك أجناس السواد تاريخ هذا الزبر ألف سنة و أربعمائة سنة عداد.

و قال ابن عفير و ابن عبد الحكم: و فی زمان شدّاد بن عاد بنيت الأهرام فيما ذكر بعض المحدّثين، و لم نجد عند أحد من أهل العلم من أهل مصر معرفة فی الأهرام و لا خبر ثبت.

و قال محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكيم: ما أحسب الأهرام بنيت إلا قبل الطوفان، لأنها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس.

و قال عبد اللّه بن شبرمة الجرهمیّ: لما نزلت العماليق أرض مصر حين أخرجها جرهم من مكة بنت الأهرام و اتخذت لها المصانع، و بنت فيها العجائب، و لم تزل بمصر حتی أخرجها مالك بن ذعر الخزاعی.

و قال محمد بن عبد الحكم: كان من وراء الأهرام إلی المغرب أربعمائة مدينة سوی القری من مصر إلی المغرب فی غربیّ الأهرام.

و قال ابن عفير: و لم يزل مشايخنا من أهل مصر يقولون: الأهرام بناها شدّاد بن عاد و هو الذی بنی المغار، و جنّد الأجناد، فالمغار و الأجناد هی: الدفائن، و كانوا يقولون بالرجعة، و إذا مات أحدهم دفن معه ماله كائنا ما كان، و إن كان صانعا دفن معه آلة صنعته، و كانت الصابئة تحج إلی الأهرام.

و قال أبو الريحان البيروتی فی كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية: و الفرس و المجوس تنكر الطوفان، و أقرّ به بعض الفرس لكنهم قالوا: كان بالشام و المغرب منه شیء فی زمان طهمورث ، و لكنه لم يعمّ العمران كله، و لم يتجاوز عقبة حلوان، و لم يبل ممالك الشرق، و أن أهل المغرب لما أنذر به حكماؤهم بنوا أبنية كالهرمين بمصر ليدخلوها عند الآفة، و إن آثار دماء الطوفان و تأثيرات الأمواج كانت بينة علی أنصاف الهرمين لم تتجاوزهما، انتهی.

و يقال: إن الطوفان لما نضب ماؤه لم يوجد تحت الماء قرية سوی: نهاوند، و جدت

كما هی، و أهرام مصر و برابيها و هی التی بناها هرميس الأوّل الذی تسميه العرب: إدريس، و كان قد ألهمه اللّه علم النجوم، فدلته علی أنه سينزل بالأرض آفة و أنه سيبقی بقية من العالم يحتاجون فيها إلی علم، فبنی هو و أهل عصره الأهرام و البرابی و كتب علمه فيها.

و قال أبو الصلت الأندلسیّ فی رسالته: و قد ذكر أخلاق أهل مصر، إلا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوی المعارف و العلوم، و خصوصا علم الهندسة و النجوم، و يدل علی ذلك ما خلفوه من الصنائع البديعة المعجزة كالأهرام و البرابی، فإنها من الآثار التی حيرت الأذهان الثاقبة، و استعجزت الأفكار الراجحة، و تركت لها شغلا بالتعجب منها و التفكر فيها، و فی مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعری من قصيدته التی يرثی بها أباه:

تضلّ العقول الهبرزيات رشدهاو لا يسلم الرأی القويم من الأفن

و قد كان أرباب الفصاحة كلمارأوا حسنا عدّوه من صنعة الجن

و أیّ شیء أعجب، و أغرب بعد مقدورات اللّه عز و جلّ، و مصنوعاته من القدرة علی بناء جسم جسيم من أعظم الحجارة مربع القاعدة مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع و تسعة عشر ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع طول كل ضلع منها: أربعمائة ذراع و ستون، و هو مع العظم من أحكام الصنعة و إتقان الهندام، و حسن التقدير بحيث لم يتأثر إلی هلم جرّا بعصف الرياح و هطل السحاب، و زعزعة الزلازل و هذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربیّ علی ما شاهدناه منهما.

و قد ذكرت عجائب مصر و إن ما علی وجه الأرض بنية إلا و أنا أرثی لها من الليل و النهار إلّا الهرمان فأنا أرثی لليل و النهار منهما، و هذان الهرمان لهما إشراف علی أرض مصر و إطلال علی بطائحها، و إصعاد فی جوفها و هما اللذان أراد أبو الطيب المتنبی بقوله شعر:

أين الذی الهرمان من بنيانهما قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن سكانهاحينا و يدركها الفناء فتتبع

و اتفق يوما إنا خرجنا إليهما فلما طفنا بهما و استدرنا حولهما، كثر التعجب منهما فقال بعضنا:

بعيشك هل أبصرت أعجب منظراعلى طول ما أبصرت من هرمى مصر

أنافا عنانا للسماء و أشرفاعلى الجوّ إشراف السماك أو النسر

و قد وافينا نشزا من الأرض عالياكأنهما نهدان قاما على صدر

و زعم قوم: إنّ الأهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۲۳

مماتهم كما تميزوا عنهم فى حياتهم و توخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور و تراخى العصور.

و لما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقبها، فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد و عناء طويل، فوجدوا داخله مهاوى و مراقى يهول أمرها و يعسر السلوك فيها، و وجدوا فى أعلاها بيتا مكعبا طول كل ضلع من أضلاعه، نحو من ثمانية أذرع، و فى وسطه حوض رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمّة بالية قد أتت عليها العصور الخالية، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ما سواه، و يقال: إن النفقة على نقبة كانت عظيمة و المؤونة شديدة.

و من الناس من زعم: أنّ هرمس الأوّل المدعوّ بالمثلث، بالنبوّة و الملك و الحكمة، و هو الذى تسميه العبرانيون: خنوخ بن يزد بن مهلايل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، و هو إدريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعمّ الأرض، فأكثر من بنيان الأهرام و إيداعها الأموال و صحائف العلوم، و ما يشفق عليه من الذهاب و الدروس حفظا لها و احتياطا عليها.

و يقال: إن الذى بناها ملك اسمه: سوريد بن سهلوق بن سرياق، و قال آخرون: إن الذى بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط شدّاد بن عاد، لرؤيا رآها، و القبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر، و تحقق أن بانيها سوريد لرؤيا رآها، و هى أن آفة تنزل من السماء و هى الطوفان، و قالوا: إنه بناهما فى مدّة ستة أشهر، و غشاهما بالديباج الملوّن، و كتب عليهما:

قد بنيناهما فى ستة أشهر قل لمن يأتى من بعدنا يهدمهما فى ستمائة سنة، فالهدم أيسر من البنيان، و كسوناهما الديباج الملوّن، فليكسهما حصرا، فالحصر أهون من الديباج، و رأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين، مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها، لا تعرف اليوم أحرفها و لا تفهم معانيها، و بالجملة الأمر فيها عجيب، حتى أن غاية الوصف لها و الإغراق فى العبارة عنها، و عن حقيقة الموصوف منها بخلاف ما قاله علىّ بن العباس الرومىّ، و إن تباعد الموصوفان و تباين المقصودان إذ يقول:

إذا ما وصفت امرأ لامرىءفلا تغل فى وصفه و اقصد

فإنّك إن تغل تبد الظنون فيه إلى الغرض الأبعد

فيصغر من حيث عظمتهلفضل المغيب على المشهد

و يقال: إنّ المأمون أمر من صعد الهرم الكبير أن يدلى حبلا فكان طوله ألف ذراع بالذراع الملكىّ، و هو ذراع و خمسان، و تربيعه أربعمائة ذراع فى مثلها، و كان صعوده فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۲۴

ثلاث ساعات من النهار، و أنه وجد مقدار رأس الهرم قدر مبرك ثمانية جمال.

و يقال: إنه وجد على المقبور فى الهرم حلّة قد بليت، و لم يبق منها سوى سلوكها من الذهب، و أنّ ثخانة الطلاء الذى عليه قدر شبر من مرّ و صبر.

و يقال: إنه وجد فى موضع من هذا الهرم إيوان فى صدره ثلاثة أبواب على ثلاثة بيوت طول، كل باب منها عشرة أذرع فى عرض

خمسة أذرع من رخام منحوت محكم الهندام و على صفحاته خط أزرق لم يحسنوا قراءته، و أنهم أقاموا ثلاثة أيام يعملون الحيلة فى فتح هذه الأبواب إلى أن رأوا أمامها على عشرة أذرع منها ثلاثة أعمدة من مرمر، و فى كل عمود خرق فى طوله و فى وسط الخرق صورة طائر، ففى الأوّل من هذه العمد صورة حمام من حجر أخضر، و فى الأوسط صورة بازى من حجر أصفر، و فى العمود الثالث صورة ديك من حجر أحمر، فحرّكوا البازى، فتحرّك الباب الأوّل الذى فى مقابلته، فرفعوا البازى قليلا فارتفع الباب، و كان بحيث لا يرفعه مائة رجل من عظمه، فرفعوا التمثالين الآخرين، فارتفع البابان الآخران، فدخلوا إلى البيت الأوسط فوجدوا فيه ثلاثة سرر من حجارة شفافة مضيئة، و عليها ثلاثة من الأموات على كل ميت ثلاث حلل، و عند رأسه مصحف بخط مجهول، و وجدوا فى البيت الآخر عدّة رفوف من حجارة عليها أسفاط من حجارة، فيها أوان من الذهب عجيبة الصنعة مرصعة بأنواع الجواهر، و وجدوا فى البيت الثالث عدّة رفوف من حجارة عليها أسفاط من حجارة فيها آلات الحرب، و عدد السلاح، فقيس منها سيف فكان طوله سبعة أشبار، و كل ذرع من تلك الدروع اثنا عشر شبرا، فأمر المأمون بحمل ما وجد فى البيوت، و أمر فحطت العمد فانطبقت الأبواب كما كانت.

و يقال: كانت عدّة الأهرام ثمانية عشر هرما منها تجاه مدينة الفسطاط ثلاثة: أكبرها دوره ألفا ذراع و هو مربع فى كل وجه من وجوهه الأربعة خمسمائة ذراع، و يقال: إن المأمون لما فتحه وجد فيه حوضا من حجر مغطى بلوح من رخام، و هو مملوء بالذهب و على اللوح مكتوب بقلم عرّب فكان: إنّا عمرنا هذا الهرم فى ألف يوم و أبحنا لمن يهدمه فى ألف سنة، و الهدم أسهل من العمارة، و كسونا جميعه بالديباج و أبحنا لمن يكسوه الحصر، و الحصر أيسر من الديباج، و جعلنا فى كل جهة من جهاته ما لا يقدر ما يصرف على الوصول إليه، فأمر المأمون أن يحسب ما صرف على النقب، فبلغ قدر ما وجد فى الحوض من غير زيادة و لا نقص.

و يقال: إنه وجد فيه صورة آدميّ من حجر أخضر كالدهنج فيها طبق كالدواة ففتح فإذا فيه جسد آدميّ عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر، و على صدره نصل سيف لا قيمة له، و عند رأسه حجر من ياقوت أحمر فى قدر بيضة الدجاجة، فأخذه المأمون و قال: هذا خير من خراج الذهب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٢٥

و ذكر بعض مؤرخى مصر: أنّ هذا الصنم الأخضر الذى وجدت الرمّة فيه لم يزل معلقا عند دار الملك بمدينة مصر إلى سنة إحدى عشرة و ستمائة من سنى الهجرة.

و كان عند مدينة فرعون، هرمان، و عند ميدوم، هرم، و هذا آخرها.

و فى سنة تسع و سبعين و خمسمائة من سنى الهجرة ظهر بتربة بوصير من ناحية الجيزة بيت هرميس، ففتحه القاضى ابن الشهرزورى و أخذ منه أشياء من جملتها كباش، و قرود و ضفادع من حجر بازهر، و قوارير من دهنج، و أصنام من نحاس.

و قال ابن خرداذبه: من عجيب البنيان أن الهرمين بمصر، سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع، و كلما ارتفع دق، و هما من رخام و مرمر، و الطول أربعمائة ذراع فى عرض أربعمائة ذراع مكتوب عليهما: باليد كل سحر و كل عجيب من الطب، و مكتوب عليهما: إنى بنيتهما فمن يدّعى قوّة فى ملكه فليهدمهما فإنّ الهدم أيسر من البناء فاعتبر ذلك، فإذا خراج الدنيا لا يفى بهدمهما.

و قال فى كتاب عجائب البنيان عن الأهرام: قد انفردت مصر بهذه الأشكال، فليس لها بغيرها تمثال يظنهما الناظر للديار المصرية نهدين، و يحسبهما القابل أن مكارم أهلها قد أعدّتهما للتكرّم ابلوجين تراهما العين على بعد المسافة، و إذا حدثت عن عجائبهما يظنّ أنه حديث خرافة، و قد أكثر الناس فى ذكر الأهرام، و وصفها و مساحتها و هى كثيرة العدد جدّا، و كلّها ببرّ الجيزة على سمت مصر القديمة تمتدّ نحوا من مسافة ثلاثة أيام، و فى بوصير منها شىء كثير، و بعضها كبار، و بعضها صغار، و بعضها طين، و بعضها لبن، و أكثرها حجر، و بعضها مدرج و أكثرها مخروط أملس.

و قد كان منها بالجيزة: عدد كثير كلها صغار هدمت فى زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد الطواشى: بهاء الدين قراقوش، أخذ حجارتها و بنى بها القناطر فى الجيزة، و قد بقى من هذه الأهرام المهدومة تلّها.

و أمّا الأهرام المتحدّث عنها فهى: ثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط، و بينها مسافات كثيرة و زوايا متقابلة نحو الشرق، و اثنان عظيمان جدّا فى قدر واحد، و هما متقاربان و مبنيان بالحجارة البيض، و أما الثالث: فصغير عنهما نحو الربع لكنه مبنىّ بحجارة الصوّان الأحمر المنقط الشديد القوّة و الصلابة، و لا يكاد يؤثر فيه الحديد إلا فى الزمان الطويل، و تجده صغيرا بالقياس إلى ذينك فإذا أتيت إليه و أفردته بالنظر هالك مرآه و حيّر النظر فى تأمله!.

و قد سلك فى بناء الأهرام، طريق عجيب من الشكل و الإتقان، و لذلك صبرت على ممرّ الأيام لا بل على ممرّها صبر الزمان، فإنك إذا تأملتها وجدت الأذهان الشريفة قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٢٦

استهلكت فيها، و العقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها و الأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، و الملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثالا فى غاية إمكانها، حتى أنها تكاد تحدث عن قوّة قومها، و تخبر عن سيرتهم، و تنطق عن علومهم، و أذهانهم و تترجم عن سيرهم، و أخبارهم، و ذلك أن وضعها على شكل مخروط و يبتدئ من قاعدة مربعة، و ينتهى إلى نقطة. و من خواص الشكل المخروط: أن مركز ثقله فى وسطه يتساند على نفسه، و يتواقع على ذاته و يتحامل بعضه على بعض، و ليس له جهة أخرى يتساقط عليها.

و من عجيب وضعه، أنه شكل مربع قد قوبل بزوايا مهاب الرياح الأربع، فإن الريح تنكسر سورتها عند مسامتتها الزاوية، و ليست كذلك عندما تلقى السطح.

و ذكر المساح: أنّ قاعدة كل من الهرمين العظيمين أربعمائة ذراع بالذراع السوداء، و ينقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع فى مثلها، و ذكر أن بعض الرماة رمى سهما فى قطر أحدهما، و فى سمكة فسقط السهم دون نصف المسافة، و ذكر أنّ ذرع سطحها أحد عشر ذراعا بذراع اليد، و فى أحد هذين الهرمين، مدخل يلجه الناس يفضى بهم إلى مسالك ضيقة و أسراب متنافذة و آبار و مهالك، و غير ذلك على ما يحكيه من يلجه، و إنّ أناسا كثيرين لهم غرام به و تحيّل فيه فيتوغلون فى أعماقه، و لا بدّ أن ينتهوا إلى ما يعجزون عن سلوكه.

و أما المسلوك المطروق كثيرا، فزلاقة تفضى إلى أعلاه، فيوجد فيه بيت مربع فيه ناوس من حجر، و هذا المدخل ليس هو الباب فى أصل البناء، و إنما هو منقوب نقبا صادف اتفاقا، و ذكر أنّ المأمون فتحه.

و حكى من دخله و صعد إلى البيت الذى فى أعلاه فلما نزلوا حدّثوا بعظيم ما شاهدوه، و إنه مملوء بالخفافيش و أبوالها و تعظم فيه حتى تكون قدر الحمام، و فيه طاقات و روازن نحو أعلاه كأنها عملت مسالك للريح و منافذ للضوء بحجارة جافية طول الحجر منها: من عشرة أذرع إلى عشرين ذراعا، و سمكه من ذراعين إلى ثلاثة أذرع، و عرضه نحو ذلك.

و العجب كل العجب من وضع الحجر على الحجر بهندام ليس فى الإمكان أصح منه بحيث لا نجد بينهما مدخل إبرة و لا خلل شعرة، و بينهما طين لونه الزرقة لا يدرى ما هو؟

و لا صفته؟ و على تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم يوجد بديار مصر من يزعم أنه سمع من يعرفه، و هذه الكتابات كثيرة جدّا حتى لو نقل ما عليها إلى صحف لكانت قدر عشرة آلاف صحيفة، و قرأت فى بعض كتب الصابئة القديمة: أنّ أحد هذين الهرمين، قبر أعاديمون، و الآخر قبر هرمس، و يزعمون أنهما بيتان عظيمان، و أنّ أعاديمون أقدم و أعظم و إنّه كان يحجج إليهما و يهدى إليهما من أقطار البلاد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٢٧

و كان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه، سوّل له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر، فأخرج إليه النقابين و الحجارين و جماعة من أمراء دولته و عظماء مملكته و أمرهم بهدمه، فخيموا عنده

و حشروا الرجال و الصناع، و وفروا عليهم النفقات و أقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم و رجلهم يهدمون كل يوم بعد الجهد، و استفراغ بذل الوسع الحجر و الحجرين فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين و قوم من أسفل يجذبونه بالقلوس و الأشطان ، فإذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف الجبال، و تزلزل الأرض و يغوص في الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه، و يضربون فيه بالأسافين بعد ما ينقبون لها موضعا، و يثبتونها فيه فيتقطع قطعا و تسحب كل قطعة على العجل حتى يلقى في ذيل الجبل، و هي مسافة قريبة، فلما طال ثواءهم، و نفدت نفقاتهم، و تضاعف نصبهم، و وهت عزائمهم كفوا محسورين لم ينالوا بغية بل شوّهوا الهرم، و أبانوا عن عجز و فشل، و كان ذلك في سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة، و مع ذلك فإنّ الرائي لحجارة الهرم يظنّ أنه قد استؤصل فإذا عاين الهرم ظنّ أنه لم يهدم منه شيء و إنما سقط بعض جانب منه، و حين ما شوهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر، سئل مقدّم الحجارين فقيل له: لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردّوا حجرا واحدا إلى مكانه و هندامه هل كان يمكنكم؟ فأقسم بالله إنهم ليعجزون عنه و لو بذل لهم أضعاف ذلك.

و بإزاء الأهرام مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار لعلّ الفارس يدخلها برمحه و يتخللها يوما أجمع و لا ينهيها لكبرها وسعتها و بعدها و يظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام.

و أما مقاطع حجارة الهرم الأحمر فيقال: إنها بالقلزم و بأسوان، و عند هذه الأهرام آثار أبنية جبابرة و مغاير كثيرة منقبة، و قلما ترى من ذلك شيئا إلّا و ترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول، و للّه در الفقيه عمارة اليمنيّ حيث يقول:

خليليّ ما تحت السماء بنية تماثل في إتقانها هرمي مصر

بناء يخاف الدهر منه و كلّ ماعلى ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

تنزه طرفي في بديع بنائها و لم يتنزه في المراد بها فكرى

أخذ هذا من قول بعض الحكماء، كل شيء يخشى عليه من الدهر إلا الأهرام فإنه يخشى على الدهر منها، و قال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر بن الحاجب، و مات في سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٢٨

سبع و ثمانين و ثلثمائة:

انظر إلى الهرمين إذ برزا للعين في علو و في صعد

و كأنما الأرض العريضة قد ظمئت لطول حرارة الكبد

حسرت عن الثديين بارزة تدعو الإله لفرقة الولد

فأجابها بالنيل يشبعها ريا و ينقذها من الكمد

لكرامة المولى المقيم بها خير الأنام مقوّم الأود

و قال سيف الدين بن جبارة:

للّه أيّ عجيبة و غريبة في صنعة الأهرام للألباب

أخفت عن الأسماع قصة أهلها و نضت عن الأبداع كل نقاب

فكأنما هي كالخيام مقامة من غير ما عمد و لا أطناب

و قال آخر:

انظر إلى الهرمين و اسمع منهما ما يرويان عن الزمان الغابر

و انظر إلى سرّ الليالي فيهما نظرا بعين القلب لا بالناظر

لو ينطقان لخبرانا بالذي فعل الزمان بأوّل و بآخر

و إذا هما بديا لعينى ناظرو صفا له أذنى جواد عائر

و قال الإمام أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشى:

أ لست ترى الأهرام دام بناؤهاو يفنى لدينا العالم الإنس و الجنّ

كأن رحى الأفلاك أكوارها علىقواعدها الأهرام و العالم الطحن

و قال:

قد كان للماضين منسكان مصرهم

فالفضل عنهم فضلةو العلم فيهم علم

ثم انقضت أعلامهمو علمهم و احتطموا

و انظر تراها ظاهراباد عليها الهرم

و قال:

خليليّ لا باق على الحدثانمن الأوّل الباقى فيحدث ثانى

إلى هرمى مصر تناهت قوى الورىو قد هرمت فى دهرها الهرمان

فلا تعجبا أن قد هرمت فإنمارمانى بفقدان الشباب زمانى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۲۹ و عوجا بقرطاجنة فانظرا بهاجنايتى العادين تنتحبان

و إيوان كسرى فانظراه فإنهيخبر كما بالصدق كل أوان

فلا تحسبا أن الفناء يخصنىألا كل ما فوق البسيطة فانى

و وجدت بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى حجلة التلمسانى أنشدنى القاضى فخر الدين عبد الوهاب المصرىّ لنفسه فى الأهرام سنة خمس و خمسين و سبعمائة و أجاد:

أ مبانى الأهرام كم من واعظصدع القلوب و لم يفه بلسانه

اذكرننى قولا تقادم عهدهأين الذى الهرمان من بنيانه

هنّ الجبال الشامخات تكاد أنتمتدّ فوق الأرض عن كيوانه

لو أنّ كسرى جالس فى سفحهالأجلّ مجلسه على إيوانه

ثبتت على حرّ الزمان و بردهمددا و لم تأسف على حدثانه

و الشمس فى إحراقها و الريح عند هبوبها و السيل فى جريانه

هل عابد قد خصها بعبادةفمبانى الأهرام من أوثانه

أو قائل يقضى برجعى نفسهمن بعد فرقته إلى جثمانه

فاختارها لكنوزه و لجسمهقبرا ليأمن من أذى طوفانه

أو أنها للسائرات مراصديختار راصدها أعز مكانه

أو أنها وصفت شؤون كواكبأحكام فرس الدهر أو يونانه

أو أنهم نقشوا على حيطانهاعلما يحار الفكر فى تبيانه

فى قلب رائيها ليعلم نقشهافكر يعض عليه طرف بنانه

ذكر الصنم الذى يقال له أبو الهول

هذا الصنم بين الهرمين عرف أوّلا ببلهيب، و تقول أهل مصر اليوم أبو الهول.

قال القضاعى: صنم الهرمين و هو بلهويه، صنم كبير من حجارة فيما بين الهرمين لا يظهر منه سوى رأسه فقط تسميه العامة بأبى الهول و يقال: بلهيب، و يقال: إنه طلسم للرمل، لئلا يغلب على إبليز الجيزة.

و قال فى كتاب عجائب البنيان: و عند الأهرام رأس و عنق بارزة من الأرض فى غاية العظم تسميه الناس: أبا الهول، و يزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض، و يقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعا فصاعدا، و فى وجهه حمرة و دهان يلمع عليه رونق الطراوة، و هو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء و جمال كأنه يضحك تبسما.

و سئل بعض الفضلاء، عن عجيب ما رأى فقال: تناسب وجه أبى الهول، فإنّ أعضاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٣٠

وجهه كالأنف و العين و الأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة، فإنّ أنف الطفل مثلا مناسب له، و هو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوّها، و كذلك أنف الرجل لو كان لصبىّ لتشوّهت صورته، و على هذا سائر الأعضاء فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار ماهيته بالقياس إلى الصورة و على نسبتها، و العجب من مصوّره كيف قدر أن يحفظ التناسب للأعضاء مع عظمها، و إنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه.

و يقابله فى برّ مصر قريبا من دار الملك: صنم عظيم الخلقة و الهيئة متناسب الأعضاء كما وصف، و فى حجره مولود و على رأسه مأجور، الجميع صوّان ماتع يزعم الناس أنه امرأة و أنها سريّة أبى الهول المذكور، و هى بدرب منسوب إليها و يقال: لو وضع على رأس أبى الهول خيط و مدّ إلى سريته لكان على رأسها مستقيما.

و يقال: إن أبا الهول، طلسم الرمل يمنعه عن النيل، و إنّ السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر.

و قال ابن المتوّج : زقاق الصنم، هو الزقاق الشارع، أوّله بأوّل السوق الكبير بجوار درب عمار، و يعرف الصنم بسرية فرعون، و ذكر أنه طلسم النيل لئلا يغلب على البلد.

و قيل: إن بلهيب الذى عند الأهرام يقابله، و إنّ ظهر بلهيب إلى الرمل، و ظهر هذا إلى النيل، و كل منهما مستقبل الشرق، و قد نزل فى سنة إحدى عشرة و سبعمائة، أمير يعرف ببلاط فى نفر من الحجارين و القطاعين و كسروا الصنم المعروف بالسرية، و قطعوه أعتابا و قواعد ظنا أن يكون تحته مال، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة، فحفر تحتها إلى الماء فلم يوجد شىء، و جعل من حجرة قواعد تحتانية للعمد الصوّان التى بالجامع المستجد بظاهر مصر المعروف: بالجامع الجديد الناصرىّ، و أزيل عين هذا الصنم من مكانه، و اللّه أعلم.

و فى زمننا، كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، قام فى نحو من سنة ثمانين و سبعمائة لتغيير أشياء من المنكرات، و سار إلى الأهرام و شوّه وجه أبى الهول و شعثه، فهو على ذلك إلى اليوم، و من حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة، و أهل تلك النواحى يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضى فساد وجه أبى الهول و للّه عاقبة الأمور، و ما أحسن قول ظافر الحدّاد:

تأمّل هيئة الهرمين و اعجبو بينهما أبو الهول العجيب

كعمار يبتن على رحيلبمحبوبين بينهما رقيب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٣١ و ماء النيل تحتهما دموعو صوت الريح عندهما نحيب

و ظاهر سجن يوسف مثل صبتخلف فهو محزون كئيب

و يقال: إن أتريب بن قبط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح أوصى أخاه صا ، عند موته، أن يحمله فى سفينة و يدفنه بجزيرة فى وسط البحر، فلما مات، فعل ذلك من غير أن يعلم به أهل مصر فاتهمه الناس بقتل أتريب، و حاربوه تسع سنين، فلما مضى من حربهم

خمس سنين مضى بهم حتى أوقفهم على قبر أتريب، فحفروه فلم يجدوا به شيئا، و قد نقلته الشياطين إلى موضع أبى الهول، و دفنته هناك بجانب قبر أبيه و جدّه بيصر، فازدادوا له تهمة و عادوا إلى مدينة منف و تحاربوا فأتاهم إبليس، فدلهم على قبر أتريب حيث نقله، فأخرجوه من قبره، و وضعوه على سرير، فتكلم لهم الشيطان على لسانه حتى افتتنوا به و سجدوا له و عبدوه، فيما عبدوا من الأصنام، و قتلوا صا، و دفنوه على شاطىء النيل فكان النيل إذا زاد لا يعلو قبره، فافتتن به طائفة، و قال: قتل ظلما و صاروا يسجدون لقبره كما يسجد أولئك لأتريب، فعمد آخرون إلى حجر فنحتوه على صورة أشموم، و كان يقال له: أبو الهول، و نصبوه بين الهرمين، و جعلوا يسجدون له، فصار أهل مصر ثلاث فرق و لم تزل الصابئة تعظم أبا الهول و تقرّب إليه الديكة البيض و تبخره بالصندروس.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٣٢

ذكر الجبال

اشارة

اعلم أنّ أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين من الجنوب إلى الشمال قليلى الارتفاع، و أحدهما أعظم من الآخر، و الأعظم منهما هو الجبل الشرقىّ المعروف بجبل لوقا، و الغربىّ جبل صغير، و بعضه غير متصل ببعض و المسافة بينهما تضيق فى بعض المواضع و تتسع فى بعضها، و أوسع ما يكون بأسفل أرض مصر، و هذان الجبلان أقرعان لا يثبت فيهما نبات، كما يكون فى جبال البلدان الأخر، و علة ذلك: أنهما بورقيان مالحان لأنّ قوّة طين مصر تجذب منهما الرطوبات الموافقة فى التكوين، و لأنّ قوّة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب، و كذلك مياه الآبار منهما مالحة، و هذان الجبلان يجففان ما يدفن فيهما، فإنّ أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار.

و جبل لوقا فى مشرق أرض مصر يعوق عنها ريح الصبا، فعدمت مصر هذا الريح، و يعوق أيضا إشراق الشمس على أرض مصر إذا كانت على الأفق و تتعدّد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الإقليم، فيطلّ على الفسطاط، و على القاهرة الجبل المقطم.

ذكر الجبل المقطم

اعلم أنّ الجبل المقطم أوّله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط، و يمرّ على بلاد الططر حتى يأتى فرغانة إلى جبال اليتم الممتدّ بها نهر السغد إلى أن يصل الجبل إلى جيحون فيقطعه، و يمضى فى وسطه بين شعبتين منه و كأنه قطع، ثم فى وسطه و يستمرّ الجبل إلى الجورجان، و يأخذ على الطالقان إلى أعمال مروالرود إلى طوس، فيكون جميع مدن طوس فيه، و يتصل به جبال أصبهان و شيراز إلى أن يصل إلى البحر الهندى، و ينعطف هذا الجبل و يمتدّ إلى شهر زور فيمرّ على الدجلة، و يتصل بجبل الجودىّ موقف سفينة نوح عليه السلام فى الطوفان و لا يزال هذا الجبل مستمرّا من أعمال آمد و ميافارقين، حتى يمرّ بثغور حلب فيسمى هناك جبل اللكام ، إلى أن يعدّى الثغور فيسمى نهرا حتى يجاوز حمص فيسمى لبنان، ثم يمتدّ على الشام حتى ينتهى إلى بحر القلزم من جهة، و يتصل من الجهة الأخرى، و يسمى المقطم، ثم يتشعب و يتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٣٣

و يقال: إنه عرف بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

و جبل المقطم: يمرّ على جانبى النيل إلى النوبة و يعبر من فوق الفيوم فيتصل بالغرب إلى أرض مقراوة و يمضى مغربا إلى سجلماسة، و منها إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر.

و قال إبراهيم بن وصيف شاه: و ذكر مجىء مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح إلى أرض مصر، و كشف أصحاب إقليمون الكاهن عن

كنوز مصر، و علومهم التى هى بخط البرابى و آثارهم و المعادن من الذهب و الزبرجد و الفيروزج، و غير ذلك. و وصفوا لهم عمل الصنعة يعنى الكيمياء، فجعل مصرايم أهلها إلى رجل من أهل بيعة يقال له: مقيطام الحكيم، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى، فسمى به: المقطم، من أجل أنّ مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء، و اختصر من اسمه و بقى ما يدل عليه، فقيل له: جبل المقطم، يعنى جبل مقيطام الحكيم.

و قال البكرى رحمه اللّه تعالى عليه: المقطم، بضم أوّله و فتح ثانيه، و تشديد الطاء المهملة و فتحها: جبل متصل بمصر يوارون فيه موتاهم.

و قال القضاعى: المقطم، ذكر أبو عبد اللّه اليمنىّ، أنّ هذا الجبل باسمه، و ليس هذا بصحيح لأنه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم.

و الذى ذكره العلماء: أنّ المقطم مأخوذ من القطم، و هو القطع فكأنه لما كان منقطع الشجر و النبات سمى: مقطما، ذكر ذلك علىّ بن الحسن الهناءى الدوسى المنبوذ بكراع و غيره.

و روى عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم عن الليث بن سعد رضى اللّه عنه، قال:

سأل المقوقس عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار، و فى نسخة: بعشرين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك، و قال: اكتب بذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر: سله لم أعطاك به ما أعطاك و هى لا تزرع، و لا يستنبط بها ماء؟ فسأله، فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا المؤمنين فاقبر فيها، من مات قبلك من المؤمنين، و لا تبعه بشىء، فكان أوّل من قبر فيها رجلا ـ من المعافر، يقال له: عامر، فقيل: عمرت، فقال المقوقس لعمرو: و ما ذلك و ما على هذا عاهدتنا، فقطع لهم الحدّ الذى بين المقبرة و بينهم.

و ذكر عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر: أن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، سار فى سفح الجبل المقطم، و معه المقوقس، فقال له: ما لجبلكم هذا أقرع؟ أليس به نبات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٣۴

كجبال الشام فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل و غرسناه نخلا؟ فقال المقوقس: وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارا و نباتا و فاكهة، و كان منزل المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، فلما كانت الليلة التى كلم اللّه فيها موسى عليه السلام، أوحى اللّه إلى الجبال إنى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل منكم فسمت الجبال كلها، و تشامخت إلّا جبل بيت المقدس، فإنه هبط و تصاغر، فأوحى اللّه إليه لم فعلت ذلك؟ و هو به أخبر! فقال:

إعظاما و إجلالا لك يا رب، قال: فأمر اللّه سبحانه الجبال أن يحبوه كل جبل بما عليه من النبت، فجاد له المقطم بكل ما عليه من النبت حتى بقى كما ترى، فأوحى اللّه إليه: إنى معوّضك على فعلك بشجر الجنة، أو غراس الجنة، فكتب بذلك عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: إنى لا أعلم شجر الجنة غير المؤمنين فاجعله لهم مقبرة ففعل، فغضب المقوقس من ذلك، و قال لعمرو: ما على هذا صالحتنى، فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى.

قال: و روى أن موسى عليه السلام سجد، فسجد معه كل شجرة من المقطم إلى طرا.

و روى أنه مكتوب، و إذا فتح مقدّسى يريد وادى مسجد موسى عليه السلام بالمقطم عند مقطع الحجارة، فإنّ موسى عليه السلام كان يناجى ربه بذلك الوادى.

و روى أسد بن موسى قال: شهدت جنازة مع موسى بن لهيعة، فجلسنا حوله فرفع رأسه، فنظر إلى الجبل فقال: إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام، مرّ بسفح هذا الجبل، و عليه جبة صوف و قدّ شد وسطه بشريط و أمّه إلى جانبه، فالتفت إليها و قال: يا أمّه هذه مقبرة أمّة محمد صلى اللّه عليه و سلّم، و روى عبد اللّه بن لهيعة، عن عياش بن عباس: أن كعب الأحبار رضى اللّه عنه، سأل رجلا يريد مصر،

فقال له: اهدنى تربة من سفح مقطمها فأتاه منه بجراب، فلما حضرت كعبا الوفاة أمر به، فجعل فى لحده تحت جثته.

و روى عن كعب أنه سئل عن جبل مصر، فقال: إنه لمقدّس ما بين القصير إلى اليحموم، قال ابن لهيعة: و المقطّم: ما بين القصير إلى مقطع الحجارة، و ما بعد ذلك، فمن اليحموم و فى هذا الجبل حجر الجوهر، و شىء من الفولاذ، و هو يمتدّ إلى أقاصى بلاد السودان.

الجبل الأحمر

هذا الجبل مطلّ على القاهرة من شرقيها الشمالىّ، و يعرف: باليحموم. قال القضاعىّ: اليحاميم هى: الجبال المتفرّقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقىّ و جبابها، و تنتهى هذه الجبال إلى بعض طرق الجب، و قيل لها: اليحاميم لاختلاف ألوانها، و اليحموم فى كلام العرب الأسود المظلم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۵

و قال ابن عبد الحكم عن سعى بن عبيد أنه لما قدم مصر، و أهل مصر، قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبى عون التى فى العسكر فقال: ما لهم وضعوا مصلاهم فى الجبل الملعون و تركوا الجبل المقدّس، يعنى المقطّم؟.

و قال ابن عبد الظاهر: الجبل الأحمر، ذكر القضاعىّ: أن اليحموم هو: الجبل المطلّ على القاهرة، و لا أرى جبلا يطلّ على القاهرة غيره.

و قال البكرى: اليحموم، بفتح أوّله و إسكان ثانيه. قال الحربى: اليحموم: جبل بمصر.

و روى من طريق أبى قبيل، عن عبد اللّه بن عمرو: أنه سأل كعبا عن المقطم: المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج‌۱ ؛ ص۲۳۵

ملعون؟ قال: ليس بملعون، و لكنه مقدّس من القصير إلى اليحموم.

و ذكر البكرىّ أيضا: أنّ عابدا، بالباء الموحدة و الدال المهملة، على وزن فاعل: جبل بمصر قبل المقطم.

جبل يشكر

هذا الجبل فيما بين القاهرة و مصر عليه الجامع الطولونى. قال القضاعىّ: جبل يشكر: هو يشكر بن جديلة من لخم، و هو الذى عليه جامع ابن طولون، و يشكر بن جديلة:

قبيلة من قبائل العرب احتطت عند الفتح بهذا الجبل، فعرف بجبل يشكر لذلك.

قال ابن عبد الظاهر: و جامع ابن طولون على جبل يشكر، و هو مكان مشهور بإجابة الدعاء، و مكان مبارك، و قيل: إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات، و كان هذا الجبل يشرف على النيل، و ليس بينه و بين النيل شىء، و كان يشرف على البركتين، أعنى بركة الفيل، و البركة التى تعرف اليوم: ببركة قارون، و على هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التى تجرّب قبل إرسالها إلى الثغور.

الكبش: هو جبل، بجوار يشكر كان قديما يشرف على النيل من غربيه، ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر، صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوى و سمى: الكبش.

الشرف: اسم لثلاثة مواضع، فاثنان منها: فيما بين القاهرة و مصر، و واحد فيما بين بركة الحبش و فسطاط مصر، فأما الذى بظاهر القاهرة، فأحدهما عليه الآن قلعة الجبل، و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۳۶

من جملة الجبل المقطم، و الآخر: فيما بين الجامع الطولونىّ و مصر، فيشرف غربيه على جهة الخليج الكبير، و يصير فيما بين كوم الجارح، و خط الجامع الطولونىّ، و كان من خطة تجيب، ثم صار من جملة العسكر، و أما الشرف الثالث فيعرف اليوم: بالرصد، و هو يشرف على راشدة، و كان يقال للشرف: سند، و السند: ما قابلك من الجبل، و علا من السفح و يقال: فلان سند، أى: معتمد.

ذكر الرّصد

هـذا المكان شرف يطلّ من غربيّة على راشدة، و من قبليه على بركة الحبش، فيحسبه من رآه من جهة راشدة جبلا و هو من شرقيه سهل يتوصل إليه من القرافة بغير ارتقاء و لا صعود، و هو محاذ للشرف الذى كان من جملة العسكر، و الشرف الذى يعرف اليوم بالكبش، و كان يقال له قديما: الجرف، ثم عرف بالرصد من أجل أنّ الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ، أقام فوقه كرة لرصد الكواكب، فعرف من حينئذ بالرصد. قال فى كتاب عمل الرصد: و حمل إلى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر من الشام تقاويم لما يستأنف من السنين لاستقبال سنة خمسمائة من سنى الهجرة، قيل: مائة تقويم، أو نحوها، و كان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبىّ و ابن الهيثمى و سهلون و غيرهم، يطلق لهم الجارى فى كل شهر، و الرسوم و الكسوة على عمل التقويم فى كل سنة، و كان كل منهم يجتهد فى حسابه و ما تصل قدرته إليه، فإذا كان فى غرّة السنة حمل كلّ منهم تقويمه، فيقابل بينها و بين التقويمات المحضرة من الشام، فيوجد بينها اختلاف كثير، فأنكر ذلك، فلما كان غرّة ثلاث عشرة و خمسمائة عند إحصاء التقاويم على العادة، جمع المنجمين و الحساب، و أهل العلم و سألهم عن السبب فى الخلف بين التقاويم؟ فقالوا: الشامىّ يحسب و يعمل على رأى الزيج المهجور المأمونىّ، و نحن نعمل على رأى الزيج الحاكمىّ لقرب عهده، و بين المتقدّم و المتأخر تفاوت و خلف، و قد أجمع القدماء أن القريب العهد أصح من المتقدّم لتنقل الكواكب، و تغير الحساب، و تحدّثوا فى معنى ذلك بما هو مذكور فى موضعه، و أشاروا عليه بعمل رصد مستجدّ يصحح به الحساب، و يخرج به المعور و التفاوت، و تحصل به المنفعة العظيمة و الفائدة الجليلة و السمعة الشريفة و الذكر الباقى، فقال: من يتولى ذلك؟ فقال صاحب دسته و مشيره الشيخ الأجل أبو الحسن بن أبى أسامة: هذا القاضى ابن أبى العيش الطرابلسىّ المهندس العالم الفاضل، و كان ابن أبى العيش صهره زوج ابنته، و هو شيخ كبير السنّ و القدر كثير المال، و ساعده على ذلك القائد أبو عبد اللّه الذى تقلد الوزارة بعد الأفضل، و دعى بالمأمون بن البطائحىّ، فاستصوب الأفضل ذلك، و قال: مروه يهتم بذلك، و يستدعى ما يحتاج إليه، فكان أوّل ما بدأ به لما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٣٧

حصل ذلك أن مدح نفسه، و كان الأفضل غيورا على كل شيء أشدّ ما عليه من يفتخر أو يلبس ثيابا مذكورة، ثم قال: هذه الآلات عظيمة، و خطرها جسيم و لا كلّ أحد يقوم عليها، و لا يحسنها، و أكثر الكلام و التوسعة، و قال: يحتاج أنّ الذى يتولى ذلك يعتمد معه الإنعام و الإكرام لتطيب نفسه للمباشرة و ينشرح صدره، و يقدح خاطره لما يعمل فى حقه، فضجر الأفضل من ذلك، و قال: لقد أكثر فى مدح نفسه ولده و ما يعاملنا بعد، لا حاجة إلى معاملته، فأشار القائد بن البطائحىّ، و قال: هنا من يبلغ الغرض بأسهل مأخذ، و أقرب وقت و أسرعه، و ألطف معنى أبو سعيد بن قرقة الطبيب متولى خزائن السلاح و السروج و الصناعات و غير ذلك، فأحضره للوقت فاتفق له من الحديث الحسن السهل، و ما سبب عمل الآلات، و من ابتدأها من الأول.

و ذكر القدماء فى العلم: و من رصد منهم واحدا واحدا إلى آخرهم شرحا مستوفيا كأنه يحفظه ظاهرا، أو يقرأه من كتاب، فأعجب الأفضل و الحاضرين، و قال: أىّ شيء تحتاج؟

فقال: ما أحتاج كبير أمر، و الأمور سهلة و كلّ ما أحتاجه فى خزائن السلطان خلد اللّه ملكه، النحاس و الرصاص و الآلات، و كلّ ما أحتاج أستدعيه أوّلا أوّلا، إلّا لنفقات و أجرة الصناع، فيتولاها غيرى، فأعجب به. و قال: يطلق له جار لنفسه، فقال: أنا مستخدم فى عدّة خدم فجوارىّ تكفينى، فأنا مملوك الدولة ما أحتاج إلى جار، و إذا بلغت الغرض، و أنهيت الأشغال فهو المقصود. و كان قيل للأفضل، هذا الرصد يحتاج إلى أموال عظيمة، فقال: كم تقول يحتاج إليه؟ فقال: ما ينفق عليه إلا مثل ما ينفق عليه مسجد، أو مستنظر، فرجع يكرّر عليه القول، فقال: هاتوا ورقة، فكتب فيها المملوك يقبل الأرض و ينهى دعت الحاجة إلى خروج الأمر العالى إلى دار الوكالة بإطلاق مائتى قنطار من النحاس الثجر و ثمانين قنطارا من النحاس القضيب الأندلسىّ، و أربعين قنطارا من النحاس الأحمر و

من الرصاص ألف قنطار، و من الحطب، و من الحديد و الفولاذ من الصناعة ما لعله يحتاج إليه، و من الأخشاب و من النفقة مائة دينار على يد شاهد ينفق عليه، فإذا فرغت أستدعى غيرها، و أختار موضعا يصلح الرصد فيه، و يكون العمل و الصناعة فيه و مباشرة السلطان فيما يتوقف عليه و ما يستأمر فيه، فاستصوب الأفضل جميع ذلك، و أراد أن يخلع عليه. فقال القائد: هذا فيما بعد إذا شوهدت أعماله، فخدم من أوّل الحال إلى آخرها، و لم يحصل له الدرهم الفرد لأنه كان يستحيى أن يطلب، و هو مستخدم عندهم، و كانوا بأجمعهم يؤملون طول المدّة و البقاء، فقتل الأفضل ثانى سنة و تغيرت الأحوال، ثم إنهم اختاروا للرصد مسجد التنور فوق المقطم، فوجدوه بعيدا عن الحوائج، فأجمعوا على سطح الحرف بالمسجد المعروف:

بالفيلة الكبير.

و كان قد صرف على المسجد خاصة ستة آلاف دينار، فحفروا فى مسجد الفيلة نفرا فى الجبل مكان الصهريج الآن، فعمل فيه قالب الحلقة الكبيرة و قطرها عشرة أذرع و دورها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٣٨

ثلاثون ذراعا و هندموه و حرّروه أياما، و عمل حوله عشر هرج على كل هرجة منفاخان، و فى كل هرجة: أحد عشر قنطارا نحاسا، و أقلّ و أكثر و الجميع مائة قنطار و كسر، قسموها على الهرج و طرح فيها النار من العصر، و نفخوا إلى الثانية من النهار، و حضر الأفضل بكرة، و جلس على كرسىّ، فلما تهيأت الهرج، و دارت أمر الأفضل بفتحها، و قد وقف على كل هرجة رجل و أمروا بفتحها فى لحظة، ففتحت، و سال النحاس كالماء إلى القالب، و كان قد بقى فيه بعض النداوة، فلما استقرّ به النحاس بحرارته تقعقع المكان الندى، فلم تتمّ الحلقة، و لما بردت و كشف عنها إذ هى تامة ما خلا المكان الندىّ، فضجر الأفضل و ضاق صدره، و رمى الصناع بكيس فيه ألف درهم، و غضب و ركب فلاطفه ابن قرقة، و قال: مثل هذه الآلة العظيمة التى ما سمع قط بمثلها لو أعيد سبكها عشر مرّات حتى تصح ما كان كثيرا، فقال له الأفضل: اهتم فى إعادتها فسبكت و صحت، و لم يحضر الأفضل فى المرّة الثانية، ففرح بصحتها و عملت و رفعت إلى سطح مسجد الفيلة، و أحضر لها جميع صناع النحاس، و عمل لها بركار خشب من السنديان، و هو بركار عجيب، و بنى فى وسط الحلقة مسطبة حجارة منقبة لرجل البركار، و هو قائم مثل عروس الطاحون، و فيه ساعد مثل ناف الطاحون، و قد لبس بالحديد و الجميع سنديان جيد، و طرف الساعد مهيأ لعدّة فنون، تارة لتصحيح وجه الحلقة، و تارة لتعديل الأجناب، و تارة للخطوط و الحزوز، و أقام فى التصحيح فيها، و أخذ زوائدها بالمبارد مدّة طويلة، و جماعة الصناع و المهندسين و أرباب هذا العلم حاضرون، و استدعى لهم خيمة عظيمة ضربت على الجميع، و عقد تحت الحلقة أقباء وثيقة، و أرادوا قيامها على سطح مسجد الفيلة، فلم يتهيأ لهم فإنهم وجدوا المشرق لأوّل بروز الشمس مسدودا، فاتفقوا على نقلها إلى المسجد الجيوشىّ المجاور الأنطاكى المعروف أيضا بالرصد، و كان الأفضل، بناه ألطف من جامع الفيلة، و لم يكمل.

فلما صار برسم الرصد كمل، فحضر الأفضل، فى نقل الحلقة من جامع الفيلة إلى المسجد الجيوشىّ، و قد أحضرت الصوارى الطوال العظام، و السرياقات و المنحاتات من الإسكندرية و غيرها، و جمعت الأسطولية و رجال السودان، و بعض أصحاب الركاب و الجند حتى أدلوه و حملوه على العجل إلى مسجد الرصد الجيوشىّ، و ثانى يوم حضروا بأجمعهم حتى رفعوه إلى السطح و كملوه، و أقاموا الحلقة و جعلوا تحت أكتافها عمودين من رخام سبكوهما بالرصاص من أسفلهما و أعلاهما، حتى لا يرتخى ثقل النحاس، و جعل فى الوسط عمود رخام و بأعلاه قطب العضادة مسبوك بالنحاس الكثير لتدور عليه العضادة، و عملت من نحاس، فما تمارست، و لا دارت فعملوها من خشب ساج و قطبها و أطرافها من نحاس صفائح ليخف الدوران، ثم رصدوا بها الشمس بعد كلفة، و كانت الحلقة ترخى الدرجة و الدقائق كل وقت للثقل.

فعمل عمود من نحاس فوق عمود الرخام ليمسك رخوها، و غلبوا بعد ذلك فكانت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٣٩

تختلف لشدّة ما كانوا يحرّرونها بالشواقيل و عضادة الخشب، و تردّد إليها الأفضل مع كبر سنه، و هو يرتعش، و القائد يحمله إلى فوق، و يقعد زمانا من التعب لا يتكلّم و يده ترتعش، فرصدوا قدّامه، و فى خلال ذلك قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة و خمسمائة، و قيل للأفضل عن ابن قرقة: إنه أسرف فى كبر الحلقة، و عظم مقدارها، فقال له الأفضل:

لو اختصرت منها كان أهون، فقال: و حق نعمتك لو أمكننى أن أعمل حلقة تكون رجلها الواحدة على الأهرام، و الأخرى على التنور فعلت، فكلما كبرت الآلة صح التحرير، و أين هذا فى العالم العلوىّ، ثم أكثروا عليه، فعمل حلقة دونها فى الموضع المهندم بالطوب الأحمر تحت المسجد الجيوشى، كان قطرها أقل من سبعة أذرع و دورها نحو أحد و عشرين ذراعا.

فلما كملت، قتل الأفضل، و لم ينفق من مال السلطان فى الأجرة و المؤن، و ما لا بدّ منه سوى نحو مائة و ستين دينارا، فلما تمت الوزارة للمأمون البطائحىّ، أحب أن يكملها، و يقال له: الرصد المأمونى المصحح، كما قيل للأوّل: الرصد المأمونى الممتحن، فأخرج الأمر بنقل الرصد إلى باب النصر بالقاهرة، فنقل على الطريقة الأولى بالعتالين و الأسطولية و طوائف الرجال، و كان يدفع لهم كل يوم برسم الغداء جملة دراهم، فلما صار فوق العجل مضوا به على الخندق من وراء الفتح على المشاهد إلى مسجد الذخيرة من ظاهر القاهرة، و تعبوا فى دخوله من باب النصر تعبا عظيما لخوفهم أن يصدم فيتغير، فنصبوا الصوارى على عقد باب النصر من داخل الباب، و تكاثر الرجال فى جذب المياحين من أسفل، و من فوق حتى وصل إلى السطح الكبير.

ثم نقلوه من السطح الكبير إلى السطح الفوقانىّ، و أوقفوا له العمد كما تقدّم ذكره، و رصدوا بالحلقة الكبرى كما رصدوا بها على سطح الجرف، فصح لهم ما أرادوا من حال الشمس فقط، ثم اهتموا بعمل ذات حلق يكون قطرها خمسة أذرع، و سبكت فى فندق بالعطوفية من القاهرة، و كان الأمر فيها سهلا عندما لحقهم من العناء العظيم فى الحلقة الكبيرة، و الحلقة الوسطى، و تجرّد المأمون لعملها، و الحثّ فيها، و كان ابن قرقة يحضر كل يوم دفعتين، و يحضر أبو جعفر بن جسنداى و أبو البركات بن أبى الليث صاحب الديوان و بيده الحل، و العقد فقال له المأمون: اطلع إليهم كل يوم و أىّ شىء طلبوه وقع لهم به من غير مؤامرة، و كان قصده ما أطمعوه فيه من أن يقال: الرصد المأمونىّ المصحح، فلو أراد اللّه أن يبقى المأمون قليلا كان كمل جميع رصد الكواكب، لكنه قبض عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع عشرة و خمسمائة، و كان من جملة ما عدّد من ذنوبه عمل الرصد المذكور، و الاجتهاد فيه، و قيل: أطمعته نفسه فى الخلافة بكونه سماه الرصد المأمونىّ، و نسبه إلى نفسه، و لم ينسبه إلى الخليفة الآمر بأحكام اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٤٠

و أما العامة و الغوغاء، فكانوا يقولون: أرادوا أن يخاطبوا زحل، و أرادوا أن يعلموا الغيب، و قال آخرون منهم: عمل هذا للسحر، و نحو ذلك من الشناعات، فلما قبض على المأمون، بطل و أنكر الخليفة على عمله، فلم يجسر أحد أن يذكره، و أمر فكسر، و حمل إلى المناخات، و هرب المستخدمون و من كان فيه من الخاص، و كان فيه من المهندسين برسم خدمته و ملازمته فى كل يوم بحيث لا يتأخر منهم أحد (الشيخ أبو جعفر بن حسنداى و القاضى ابن أبى العيش، و الخطيب أبو الحسن علىّ بن سليمان بن أيوب، و الشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندرانىّ المهندس، و أبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس، و غيرهم من الحساب و المنجمين، كابن الحلبىّ و ابن الهيثمى و أبى نصر تلميذ سهلون و ابن دياب و القلعىّ، و جماعة يحضرون كل يوم إلى ضحوة النهار)، فيحضر صاحب الديوان ابن أبى الليث، و كان ابن حسنداى ربما تأخر فى بعض الأيام فإنه كان امرأ عظيما صاحب كبرياء و هيبة، و فى كل يوم يبعث المأمون من يتفقد الجماعة، و يطالعه بمن غاب منهم لأنه كان كثير التفقد للأمور كلها، و له غمازون و أصحاب أخبار لا تنام، و لا يكاد يفوته شىء من أحوال الخاصة و العامّة بمصر و القاهرة، و من يتحدّث.

و جعل فى كل بلد من الأعمال من يأتيه بسائر أخبارها. و أنا أدركت هذا الموضع الذى يعرف اليوم: بالرصد، حيث جامع الفيلة عامرا فيه عدّة مساكن و مساجد، و به أناس مقيمون دائما، و قد خرب ما هناك، و صار لا أنيس به و كان الملك الناصر: محمد بن قلاون، قد أنشأ فيه سواقى لنقل الماء من أماكن قد حفر لها خليج من البحر، بجوار رباط الآثار النبوية، فإذا صار الماء فى سفح هذا الجرف

المسمى بالرصد نقل بسواق هناك، قد أنشئت إلى أن يصير إلى القلعة، فمات و لم يكمل ما أراده من ذلك، كما ذكر في أخبار قلعة الجبل من هذا الكتاب، و ما زال موضع هذا الرصد منتزها لأهل مصر.

و يقال: إنّ المعز لدين اللّه معدّا لما قدم من بلاد المغرب إلى القاهرة لم يعجبه مكانها؟ و قال للقائد جوهر: فاتك بناء القاهرة على النيل، فهلا كنت بنيتها على الجرف؟

يعنى هذا المكان، و يقال: إن اللحم علق بالقاهرة، فتغير بعد يوم و ليلة، و علق بقلعة الجبل، فتغير بعد يومين و ليلتين، و علق في موضع الرصد، فلم يتغير ثلاثة أيام و لياليها لطيب هوائه، و للّه در القائل:

يا ليلة عاش سرورى بهاو مات من يحسدنا بالكمد

و بت بالمعشوق فى المشتهىو بات من يرقبنا بالرصد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٤١

ذكر مدائن أرض مصر

اشارة

قال ابن سيده : مدّن بالمكان: أقام، و المدينة: الحصن يبنى فى أسطحة الأرض، مشتق من ذلك، و الجمع: مدائن و مدن، و من هنا حكم أبو الحسن فيما حكى الفارسيّ عنه: أنّ مدينة فعيلة، و قال العلامة أثير الدين أبو حيان: المدينة معروفة مشتقة من مدن، فهى: فعيلة و من ذهب إلى أنها مفعلة من دان، فقوله ضعيف لإجماع العرب على الهمز فى جمعها، فإنهم قالوا: مدائن بالهمز، و لا يحفظ مداين بالياء، و لا ضرورة تدعو إلى أنها مفعلة من دان، و يقطع بأنها فعيلة جمعهم لها، على فعل فإنهم قالوا مدن، كما قالوا صحف فى صحيفة؛ و اعلم أن مدائن مصر كثيرة، منها ما دثر و جهل اسمه و رسمه، و منها ما عرف اسمه و بقى رسمه، و منها ما هو عامر.

و أوّل مدينة عرف اسمها فى أرض مصر، مدينة: أمسوس، و قد محا الطوفان رسمها، و لها أخبار معروفة؛ و بها كان ملك مصر قبل الطوفان، ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان، مدينة منف، و كان بها ملك القبط و الفراعنة، إلى أن خربها، بخت نصر، فلما قدم الإسكندر بن فيليبس المقدونيّ من مملكة الروم عمّر مدينة الإسكندرية عمارة جديدة، و صارت دار المملكة بمصر إلى أن قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين، و فتح أرض مصر، فاختط فسطاط مصر، و صارت مدينة مصر إلى أن قدم جوهر القائد من الغرب بعساكر المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، و ملك مصر، و اختط القاهرة، فصارت دار المملكة بمصر إلى زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فبنى قلعة الجبل، و صارت القاهرة مدينة مصر إلى يومنا هذا.

و فى أرض مصر: عدّة مدائن ليست دار ملك و هى: مدينة الفيوم، و مدينة دلاص، و مدينة أهناس، و مدينة البهنسا، و مدينة القيس، و مدينة طلخا، و مدينة الأشمونين، و مدينة أنصنا، و مدينة قوص، و مدينة سيوط، و مدينة فاو، و مدينة أخميم، و مدينة البلينا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٤٢

و مدين هوّ، و مدينة قنا و مدينة دندرة، و مدينة قفط، و مدينة الأقصر، و مدينة اسنا، و مدينة أرمنت، و مدينة أدفو، و ثغر أسوان، و أدركناه مدينة هذه مدائن الوجه القبلى.

و كان أهل مصر يسمون من سكن من القبط بالصعيد: المريس، و من سكن منهم أسفل الأرض يسمونه: البمبا، و فى الوجه البحرى مدينة: نوب من الحوف الشرقى بأسفل الأرض، و مدينة عين شمس، و مدينة أتريب، و مدينة تنوا، و من قراها ناحية زنكلون، و مدينة نمىّ، و مدينة بسطه و يعرف اليوم موضعها: بتل بسطة، و مدينة قربيط، و مدينة البتنون، و مدينة منوف، و مدينة طرّة، و مدينة منوف أيضا، و مدينة سخا، و مدينة الأوسة و هى: دميرة، و مدينة تيدة، و مدينة الأفراحون، و من جملة قراها: نشا، و مدينة بقيرة، و مدينة بنا،

و مدينة شبراساط، و مدينة سمنود، و مدينة نوسا، و مدينة سبتى، و مدينة النجوم، و قد غلب على مدينة النجوم: الرمال و السباخ و يعرف اليوم منها: قرية أدكو على ساحل البحر بين إسكندرية و رشيد، و مدينة تنيس، و مدينة دمياط، و مدينة الفرما، و مدينة العريش، و مدينة صا، و مدينة برنوط، و مدينة قرطسا، و مدينة أخنو، و مدينة رشيد، و مدينة مريوط، و مدينة لوبية و مراقية، و ليس بعد لوبية و مراقية إلا أرض أنطابلس و هى: بريّة، و فى كور القبلة مدينة فاران، و مدينة القلزم، و مدينة راية، و مدينة ايلة، و مدينة مدين؛ و أكثر هذه المدائن قد خرب و منها ما له أخبار معروفة، و قد استحدث فى الإسلام بعض مدائن و سيأتى من أخبار ذلك إن شاء اللّه ما يكفى.

و ديار مصر اليوم و جهان: قبلىّ و بحرىّ جملتهما، خمس عشرة ولاية.

فالوجه القبلىّ أكبرهما، و هو تسعة أعمال عمل قوص، و هو أجلها، و منه أسوان و غرب قمولة، و أسوان حدّ المملكة من الجنوب، و عمل أخميم، و عمل سيوط، و عمل منفلوط، و عمل الأشمونين و بها الطحاوية، و عمل البهنسا، و عمل الفيوم، و عمل اطفيح، و عمل الجيزة.

و الوجه البحرىّ ستة أعمال: عمل البحيرة، و هو متصل البرّ بالإسكندرية و برقة، و عمل الغربية و هى جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين: بحر دمياط، و بحر رشيد، و المنوفية و منها: أبيار التى تسمى: جزيرة بنى نصر، و عمل قليوب، و عمل الشرقية، و عمل أشموم طناح، و منها الدقهلية، و المرتاحية، و هنا موضع ثغر البرلس و ثغر رشيد و المنصورة، و فى هذا الوجه الإسكندرية و دمياط و هما مدينتان لا عمل لهما.

و ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: أن الكوكة و هى: أمّة من أهل أيلة ملكو الأرض و قسموا الصعيد على ثمانين كورة، و جعلوه أربعة أقسام، و كان عدد مدن مصر الداخلة فى كورها ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب، و الكور مثل: أخميم و قفط و قوص و الفيوم و يقال: إنّ مصر بن بيصر، قسم الأرض بين أولاده فأعطى ولده أشمون من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٤٣

حدّ بلده إلى رأس البحر إلى دمياط، و أعطى ولده أنصنا من حدّ أنصنا إلى الجنادل، و أعطى لولده صا: من صا أسفل الأرض إلى الإسكندرية، و أعطى لولده منوف وسط الأرض السفلى منف و ما حولها، و أعطى لولده قفط غربىّ الصعيد إلى الجنادل، و أعطى لولده أتريب شرقىّ الأرض إلى البريّة بريّة فاران، و أعطى لبناته الثلاثة و هن: الفرما، و سريام، و بدورة، بقاعا من أرض مصر محدّدة فيما بين إخوتهن.

ذكر مدينة أمسوس و عجائبها و ملوكها

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى كتاب أخبار مصر و عجائبها: و كانت مصر القديمة اسمها: أمسوس.

و أوّل من ملك أرض مصر نقراوش الجبار بن مصرايم. و معنى نقراوش: ملك قومه الأوّل ابن مركايل بن دوايل بن عرياب بن آدم عليه السلام، ركب فى نيف و سبعين راكبا من بنى عرياب جبابرة كلهم يطلبون موضعا يقطنون فيه فرارا من بنى أبيهم، عندما بغى بعضهم على بعض، و تحاسدوا و بغى عليهم بنو قابيل بن آدم، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فلما رأوا سعة البلد فيه، و حسنه أعجبهم، فأقاموا فيه و بنوا الأبنية المحكمة، و بنى نقراوش: مصر، و سماها باسم أبيه: مصرايم، ثم تركها، و أمر ببناء مدينة سماها:

أمسوس.

و قال ابن وصيف شاه: و كان قد وقع إليه علم ذلك من العلوم التى تعلمها دوايل من آدم عليه السلام، فبنى الأعلام، و أقام الأساطين و عمل المصانع و استخرج المعادن، و وضع الطلسمات و شق الأنهار و بنى المدائن، فكل علم جليل كان فى أيدى المصريين إنما هو

من فضل علم نقراوش، و أصحابه. كان ذلك مرموزا على الحجارة ففسره قليمون الكاهن الذى ركب مع نوح عليه السلام فى السفينة و نقراوش هو الذى بنى مدينة أمسوس، و عمل بها عجائب كثيرة منها: طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرّتين، و عند غروبها مرّتين، فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأون له. و منها صنم من حجر أسود فى وسط المدينة تجاهه صنم مثله إذا دخل إلى المدينة سارق لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما، فإذا دخل بينهما أطبقا عليه، فيؤخذ و عمل صورة من نحاس على منار عال لا يزال عليها سحاب يطلع، فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء، و عمل عمل حدّ البلاد أصناما من نحاس مجوّفة و ملأها كبريت، أو و كل بها روحانية النار، فكانت إذا قصدهم قاصد أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته، و عمل فوق جبل بطرس، منارا يفور بالماء، و يسقى ما حوله من المزارع، و لم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان، و يقال: إنه هو الذى أصلح مجرى النيل، و كان قبله يتفرّق بين الجبلين، و إنه وجه إلى بلاد النوبة جماعة هندسوه، و شقوا نهرا عظيما منه بنوا عليه المدن، و غرسوا الغروس، و أحب أن يعرف مخرج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٤٤

النيل، فسار حتى بلغ خلف خط الاستواء، و وقف على البحر الأسود الزفتى، و رأى النيل يجرى على البحر مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القمر، و يخرج منه إلى بطائح.

و يقال: إنه هو الذى عمل التماثيل التى هناك، و عاد إلى أمسوس و قسم البلاد بين أولاده، فجعل لابنه الأكبر و اسمه: نقاوش الجانب الغربىّ، و لابنه شورب الجانب الشرقىّ، و بنى لابنه الأصغر و اسمه: مصرايم مدينة برسان، و أسكنه فيها، و أقام ملكا على مصر مائة و ثمانين سنة، و لما مات لطخ جسده بأدوية ماسكة، و جعل فى تابوت من ذهب، و عمل له ناوس مصفح بالذهب، و وضع فيه و معه كنوز و إكسير و أوان من ذهب لا- يحصى ذلك لكثرته، و زبروا على الناوس تاريخ موته، و أقاموا عليه طلسما يمنعه من الحشرات المفسدة.

و ملك بعده ابنه نقاوش بن نقراوش و كان كأبيه فى علم الكهانة و الطلسمات، و هو أوّل من عمر بمصر هيكلا، و جعل فيه صور الكواكب السبعة، و كتب على هيكل كلّ كوكب منافعه و مضاره، و ألبسها كلها الثياب الفاخرة، و أقام لها خدمة و سدنة، و خرج من أمسوس مغرّبا، حتى بلغ البحر المحيط، و أقام عليه أساطين على رؤوسها أصنام تسرج عيونها فى الليل، و مضى على بلاد السودان إلى النيل، و أمر ببناء حائط على جنب النيل، و عمل له أبوابا يخرج منها الماء و بنى فى صحراء الغرب، خلف الواحات ثلاث مدن على أساطين مشرفات من حجارة ملوّنة شفافة، و فى كل مدينة عدّة خزائن من الحكمة، و فى إحداها صنم للشمس على صورة إنسان، و جسد طائر من ذهب و عيناه من جوهر أصفر، و هو جالس على سرير من مغناطيس، و فى يده مصحف العلوم، و فى إحداها صنم رأسه رأس إنسان بجسد طائر، و معه صورة امرأة جالسة قد عملت من زئبق معقود لها ذؤابتان فى يدها مرآة، و على رأسها صورة كوكب، و قد رفعت المرآة بيديها إلى وجهها، و فى إحداها مطهرة فيها سبعة ألوان من سائل يرد إليها و لا يغير بعضها لون بعض، و فى بعضها: صورة شيخ جالس قد عمل من الفيروزج و بين يديه صبية جلوس كلهم من عقيق، و فى بعضها صورة هرمس، يعنى عطارد، و هو ينظر إلى مائدة بين يديه من نوشادر على قوائم من كبريت أحمر، و فى وسطها صحفة من جوهر، و جعل فيها صورة عقاب من زبرجد أخضر، و عيناه من ياقوت أصفر، و بين يديه حية زرقاء من فضة قد لوت ذنبها على رجليه، و رفعت رأسها كأنها تنفخ عليه، و جعل فيها صفة المرّيخ و هو راكب على فرس و فى يده سيف مسلول من حديد أخضر، و جعل فيها عمودا من جوهر أحمر، و عليه قبة من ذهب فيها صورة المشترى، و جعل فيها قبلة من آنك على أربعة أعمدة من جزع أزرق، و فى سقفها صورة الشمس و القمر متحاذيين فى صورة رجل و امرأة يتحادثان، و جعل فيها قبة من كبريت أحمر فيها صورة الزهرة على هيئة امرأة ممسكة بضفائرها، و تحتها رجل من زبرجد أخضر فى يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٤٥

و جعل فى بقية الخزائن من كنوز الأموال و الجواهر و الحلى و إكسير الصنعة، و صنوف الأدوية و السموم القاتلة ما لا يحصى كثرة، و جعل على باب كل مدينة طلسما يمنع من دخولها، و أنفذ لها مسارب تحت الأرض ينفذ بعضها إلى بعض طول كل سرب ثلاثة أميال، و بنى أيضا مدينة بأرض مصر اسمها: حلجمة، و عمل فيها جنّة صفح حيطانها بالجواهر الملوّنة بالذهب، و غرس فيها أصناف الأشجار، و أجرى تحتها الأنهار، و غرس فيها شجرة مولدة تطعم سائر الفواكه، و عمل فيها قبة من رخام أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس، و وكل بها شياطين إذا خرج أحد من بيته فى الليل هلك.

و أقام بها أساطين زبر عليها جميع العلوم، و صور العقاقير و منافعها و مضارها، و جعل لهذه المدينة مسارب تتصل بمسارب تلك المدن الثلاث بين كل سرب منها، و بين هذه المدينة عشرون ميلا، فلم تزل هذه المدائن حتى أفسدها الطوفان، و لمّا مات بعد مائة و تسع سنين من ملكه على مصر جعل فى ناوس مطلسم، و دفن فيه.

و ملك بعده أخوه مصرام بن نقراوش الجبار بن مصرايم و يقال: به سميت مصر، و كان حكيما فعمل هيكلا للشمس من مرمر مموّه بذهب أحمر، و فى وسطه فرس من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر، و على رأسه قنديل من الزجاج فيه حجر مدبر يضيء أكثر من السراج، ثم إنه ذلل الأسد و ركبها و سار إلى البحر المحيط، و جعل فى وسطه قلعة بيضاء عليها صنم للشمس، و زبر عليه اسمه و صفته، و عمل صنما من نحاس زبر عليه:

أنا مصرايم الجبار كاشف الأسرار الغالب القهار، وضعت الطلسمات الصادقة، و أقمت الصور الناطقة، و نصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة ليعلم من بعدى، إنه لا يملك أحد أشدّ من أيدى، و عاد إلى أمسوس، و احتجب عن الناس ثلاثين سنة، و استخلف رجلا- يقال له: عيقام من ولد عرياب بن آدم، و كان كاهنا ساحرا. فلمّا مضت المدّة أحب أهل مصر أن يروه، فجمعهم عيقام بعدما أعلم مصرايم، فظهر لهم، فى أعلى مجلس مزين بأصناف الزينة فى صورة هائلة ملأت قلوبهم رعبا، فخرّوا له ساجدين، و دعوا له، ثم أحضر إليهم الطعام فأكلوا و شربوا، و أمرهم بالرجوع إلى مواضعهم و لم يروه بعدها.

فملك بعده خليفته عيقام، و قد حكى عنه أهل مصر حكايات لا تصدّقها العقول.

و يقال: إنّ إدريس عليه السلام، رفع فى أيامه و إنه رأى فى علمه كون الطوفان، فبنى خلف خط الاستواء فى سفح جبل القمر، قصرا من نحاس، و جعل فيه خمسة و ثمانين تمثالا من نحاس يخرج ماء النيل من حلوقها، و يصب فى بطحاء تنتهى إلى مصر، و سار إليه من أمسوس، فشاهد حكمة بنيانه و زخرفة حيطانه، و ما فيها من النقوش من صور الأفلاك، و غيرها، و كان قصرا تسرج فيه المصابيح، و تنصب به الموائد و عليها من كل الأطعمة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۴۶

الفاخرة فى الأوانى النفيسة ما لو أكل منها عسكر لما نقصت ذرة، و لا يعرف من عملها، و لا من وضعها، و فى وسط القصر بركة من ماء جامد الظاهر، و ترى حركته من وراء ما جمد منه، فأعجب بما رأى، و عاد إلى أمسوس، و استخلف ابنه عرياق، و قلده الملك، و أوصاه، و عاد إلى ذلك القصر، و أقام به حتى هلك.

و إلى عيقام هذا يعزى مصحف القبط الذى فيه تواريخهم، و جميع ما يجرى فى آخر الزمان.

فقام من بعده ابنه عرياق، و يقال: أرياق بن عيقام، و يقال له: الأثيم، فعمل أعمالا عجيبة منها شجرة صفراء لها أغصان من حديد بخطاطيف إذا قرب الظالم منها أخذته تلك الخطاطيف، و لا تفارقه حتى يقرّ بظلمه، و يخرج منه لخصمه، و منها: صنم من كدان أسود سمّاه: عبد زحل، كانوا يتحاكمون إليه، فمن زاغ عن الحق ثبت فى مكانه، و لم يقدر على الخروج منه حتى ينصف خصمه من نفسه، و لو أقام سنة و من كانت له حاجة قام ليلا و نظر إلى الكوكب، و تضرّع و ذكر اسم عرياق، فإذا أصبح وجد حاجته على بابه.

و عمل شجرة من حديد ذات أغصان، و لطخها بدواء مدبر، فكانت تجلب كل صنف من الدواب و السباع و الوحوش إليها، حتى يتمكن من صيدها، و كان إذا غضب على أهل إقليم سلط عليهم الوحوش و السباع، و تارة يجعل ماءهم من الإيداق، و يقال: إن

هاروت و ماروت كانا فى زمانه! و إنه بنى جنة عظيمة، و اغتصب النساء الحسان و أسكنهنّ فيها، فعملت عليه امرأة منهنّ و سمّته فهلك.

و ملك بعده لوجيم بن نقاوش، و يقال: بل هو من بنى نقراوش الجبار، و يعرف:

بلوجيم الفتى، و هو الذى أخذ الملك من عرياق بن عيقام الكاهن، و ردّه لبنى نقراوش بعد ما خرج منهم بلا حرب، و لا قتل و كان عالما بالكهانة، و الطلسمات فعمل أعمالا ـ عجيبة منها: أنّ الغداف و الغراب كثر فى أيامه، و أتلف الزرع، فعمل أربع منارات فى جوانب مدينة أمسوس الأربعة، و على كل منارة، صورة غراب فى فمه حية قد التوت عليه، فنفرت عنهم الطيور المضرّة من حينئذ، و لم تقر بهم حتى زالت المنارات بالطوفان، و كان حسن السيرة منصفا للرعية عادلا ـ مقرّبا للكهنة، و لما مات دفن فى ناوس، و معه كنوزه، و عمل عليه طلسم يمنعه.

و ملك بعده ابنه فحصليم، و كان فاضلا عالما كاهنا، فعمل أعمالا عجيبة، و هو أوّل من عمل مقياسا لزيادة ماء النيل بأن جمع أرباب العلوم و الهندسة، فقدّروا بيتا من رخام على حافة النيل، و فى وسطه بركة صغيرة من نحاس فيها ماء موزون، و عليها من جانبيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٤٧

عقابان من نحاس أحدهما ذكر، و الآخر أنثى، فإذا كان أوّل الشهر الذى يزيد فيه النيل فتح هذا البيت و جمع الكهان فيه بين يديه، و زمزم الكهان بكلامهم حتى يصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر، كان الماء تاما، و إن صفرت الأنثى، كان الماء ناقصا، فيستعدّون عند ذلك لغلاء الأسعار بما يصلحون به شأنهم، و هو الذى بنى القنطرة ببلاد النوبة على النيل، و لما مات جعل فى ناوس، و معه كنوزه و عمل عليه طلسم.

و ملك بعده ابنه، هو صال، و يقال: يوصال، و معناه: خادم الزهرة، و يقال: سومال بن لوجيم الملك النقراوشى من بنى نقراوش الجبار، و يقال: إن نوحا عليه السلام ولد فى أيامه، و كان فاضلا كاهنا عالما بالسحر، و الطلسمات، فعمل عجائب، منها أنه بنى مدينة عمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدورانها، و يبيت مغربا و يصبح مشرقا، و عمل سربا تحت النيل، فشق الأرض و خرج منه متنكرا، حتى بلغ مدينة بابل، و كشف أعمال الملوك، و كان نوح عليه السلام فى زمانه و ولد له عشرون ولدا، فجعل مع كل ولد منهم: قطرا، و هو رأس الكهنة، و أقام فى الملك مائة و سبع عشرة سنة، ثم لزم الهياكل و أقام أولاده على حالهم كل منهم فى قسمه الذى أعطاه إياه أبوه مدّة سبع سنين.

ثم اجتمعوا على واحد منهم و ملكوه عليهم و كان اسمه تدرشان، و قيل: تدرسان، فلما ملك نفى جميع إخوته إلى المدائن الداخلة فى الغرب، و اقتصر على امرأة من بنات عمه، و كانت ساحرة، و عمل له قصرا من خشب منقوشا فيه صورة الكواكب، و بسطه بأحسن الفرش و حمله على الماء، و صار يجلس فيه، فبينما هو فيه ذات يوم إذ هبت ريح شديدة اضطرب منها الماء، فانقلب القصر و تكسر فغرق، هو و من كان معه فى القصر.

و ملك بعده أخوه، نمرود الجبار، و يقال: شمرود بن هوصال، فأحسن السيرة و أنصف الرعية و بسط العدل، و جمع إخوته و فرّق عليهم كنوز أخيهم، فسرّ الناس به و طلب امرأة أخيه الساحرة، ففرّت منه بابنها إلى مدينة ببلاد الصعيد، و امتنعت عليه بسحرها، و أقامت مدّة و اجتمع السحرة إلى ابنها، و كان اسمه توميدون، و حملوه على طلب الملك، فسار و خرج إليه شمرود و أخوته، فاقتتلوا قتالا ـ عظيما كان فيه الظفر لتوميدون فقتله. و ملك من بعده، فقام توميدون بن تدرسان بالملك فى مدينة أمسوس، و كان عالما فاضلا، فتقوّى بسحر أمه، و عملت له أعمالا عجيبة، منها قبة من زجاج على هيئة الكرة تدور بدوران الفلك، و صوّرت فيها صور الكواكب، فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع و علوم العالم، فلما ماتت أمّه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه طلى جسدها بما يدفع عنه النتن و الحشرات، و دفنت تحت صنم القمر، و يقال: إنها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الأرواح، و تخبرهم بعجائب، و تجيب عما تسأل عنه، و لما مات توميدون بعد مائة سنة من ملكه عمل له صورة من زجاج مقسومة نصفين، و أدخل فيها بعد ما طلى

بالأدوية المانعة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۴۸

النتن، و أطبقت الصورة عليه حتى التحمت و أقيم فى هيكل الأصنام، و دفنت كنوزه عنده، و صار يعمل له فى كل سنة عيد.

و ملك بعده ابنه شرياق، و يقال له: سرياق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال، و كان كأبيه فى علم الكهانة و السحر و الطلسمات، فعمل أعمالا عجيبة منها: على باب مدينة أمسوس هيئة بطة من نحاس قائمة على أسطوانة إذا دخل غريب من ناحية من النواحى صفقت بجناحيها، و صرخت فيؤخذ ذلك الغريب، و يكشف أمره حتى يعرف فيما قدم، و شق من النيل نهرا يمرّ إلى مدائن الغرب و بنى عليه أعلاما و مدنا، و منتزهات، و سار ملك من بنى فراشى بن آدم و يقال: من بنى صوانيتى بن آدم خرج من ناحية العراق فى أيامه، و غلب على بلاد الشام، و قصد مصر ليأخذ ملكها، فقيل له: إنك لا تقدر عليها لسحر أهلها، فتنكر و دخل فى جماعة من خواصه ليكشف حال أهل مصر، فلما وصل إلى أوّل حدّ مصر حبسه الموكلون بذلك الحدّ هو و من معه، حتى يأمر الملك فيهم بأمره و بعثوا إليه بصفتهم، و كان قد رأى فى منامه كأنه على منار عال و كأن طائرا عظيما انقض عليه ليخطفه، فحاد عنه حتى كاد يسقط من المنار، فجاوزه الطائر و سلم منه فانتبه مذعورا.

و قص رؤياه على كبير الكهنة، فقال: يطلبك ملك، و لا يقدر عليك، و نظر فى نجومه، فرأى الملك الذى يطلب ملكه قد دخل إلى مصر، و كان ذلك هو الوقت الذى قدم عليه فيه الرسل بصفات الذين وصلوا إلى حدّ مصر، فأمر بإحضارهم إليه بعد ما يطاف بهم على عجائب مصر كلها ليروها، فأوثقوهم و ساروا بهم و أوقفوهم على عجائب أرض مصر، و ما فيها من الطلسمات حتى بلغوا إلى الإسكندرية، ثم إلى أمسوس، ثم إلى الجنة التى عملها مصرام، كان الملك شرياق مقيما بها، فعند ما وصلوا إليها أظهرت السحرة التماثيل العجيبة، فدخلوا عليه و حوله الكهنة، و بين يديه نار لا يصل إليه أحد حتى يخوضها، فمن كان بريئا لم تضرّه، و من كان يريد بالملك سوءا أو أضمر له مكروها أخذته النار، فشق القوم فى وسط النار واحدا بعد واحد من غير أن تضرّهم حتى انتهى الأمر إلى ملك العراق، فعندما دنا من النار أخذته بحرّها، فولى هاربا فاتبعوه حتى أخذوه و أوقفوه بين يدى شرياق، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر بصلب فصلب على الحصن الذى أخذ منه، و نودى عليه هذا جزاء من طلب ما لا يصل إليه، و عفا عن الباقين فساروا من مصر و تحدّثوا بما رأوه من العجائب، فانقطع طمع ملوك الأرض عن طلب ملك مصر، و مات شرياق بعد ما ملك مصر مائة و ثلاثين سنة، فجعل فى ناوس و معه أمواله و طلسم يحفظه ممن يقصده.

و ملك بعده ابنه: شهلوق، و كان عالما بالكهانة و الطلسمات، فقسم ماء النيل موزونا يصرف إلى كل ناحية قسطها، و رتب الدولة و عمل بيت نار، و هو أوّل من عبد النار، و عمل بأمسوس عجائب منها: شجرة على أعلى الجبال تقسم بها الرياح التى تمنع من أراد مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۴۹

بأذى أو فساد من جنىّ أو إنسىّ أو سبع أو طائر، و عمل بالمدينة قبة مركبة على سبعة أركان و لها سبعة أبواب على كل ركن باب، و فى وسط القبة قبة من صفر، و فى أعلاها صور الكواكب السبعة، و تحت القبة قبة أخرى معلقة على سبع أساطين، و على الباب الأوّل من القبة: أسد و لبوة من صفر، و هما رابضان، كان يذبح لهما جروا أسود و يبخرهما بشعره، و على الباب الثانى: ثور و بقرة يذبح لهما عجلا و يبخرهما بشعره، و على الباب الثالث:

خنزير و خنزيرة يذبح لهما خنوصا و يبخرهما بشعره، و على الباب الرابع: كبش و شاة يذبح لهما سخلة و يبخرهما بشعرها، و على الباس الخامس: ثعلب و ثعلبة يذبح لهما فرخ ثعلب و يبخرهما بشعره، و على الباب السادس: عقاب و أنثاه يذبح لهما فرخ عقاب و يبخرهما بريشه، و على الباب السابع: نسر و أنثاه يذبح لهما فرخ نسر و يبخرهما بريشه، و يلطخ كلا منهما بدم ما ذبح له، و تحرق سائر القرابين، و يوضع رمادها تحت عتبات أبواب القبة، و جعل لهذه القبة سدنة يشعلون المصابيح ليلا و نهارا، و قسم الناس بمصر سبع مراتب، لكل مرتبة منهم: باب من أبواب تلك القبة، فكان الخصم إذا تقدّم إلى شىء من تلك الصور، و كان ظالما فإنه يلتصق بها و

لا يتخلص منها حتى يخرج من الحق الذى عليه، الذكر للذكر، و الأنثى للأنثى، فيعرفون بذلك الظالم من المظلوم.

و لم تزل هذه القبة بأمسوس حتى أزالها الطوفان، و يقال: إنه رأى أباه فى النوم و هو يأمره أن ينطلق إلى جبل وصفه له من جبال مصر، فإنّ فيه كوّة صفتها كذا على بابها أفعى لها رأسان إذا أقبل إليها كشرت فى وجهه فخذ معك طائرين صغيرين ذكرا و أنثى، فاذبحهما لها و ألقمها إياهما، فإنها تأخذ برأسيهما، و تتنحى بهما إلى سرب فإذا غابت، أدخل الكوّة تجد فيها امرأة عظيمة من نور حار يابس، فإنها تسطع لك و تحس بحرارتها فلا تدن منها تحترق و لكن اقعد حذاءها و سلم عليها، فإنها تخاطبك فافهم ما تقول لك و اعمل به، فإنك تشرف بذلك، و تدلك على كنوز جدّك مصرام، فإنها حافظة لها، فلما انتبه عمل ما أمره أبوه فلما قعد بجانب المرأة و سلم، قالت له: أتعرفنى؟ قال: لا، قالت: أنا صورة النار المعبودة فى الأمم الخالية، و قد أردت أن تحيى ذكرى و تجدّد لى بيتا تقد لى فيه نارا دائمة بقدر واحد و تتخذ لها عيدا فى كل سنة تحضره أنت و قومك فإنك تتخذ بذلك عندى يدا أنيلك بها شرفا إلى شرفك، و ملكا إلى ملكك، و أمنع عنك من يطلبك بسوء، و أدلك على كنوز جدّك مصرام، فضمن لها أن يفعل كلّ ما أمرته به فدلته على الكنوز التى تحت المدائن المعلقة، و علمته كيف يصير إليها و كيف يحترس من الأرواح الموكلة بها، و ما ينجيه منها، ثم قال لها: كيف لى بأن أراك فى وقت آخر؟ قالت: لا تعد، فإنّ الأفعى لا تمكنك، و لكن بخر فى بيتك بكذا فإنى آتيك، فسرّ بذلك، و غابت عنه و خرج، ففعل ما أمرته به من عمل بيت النار، و أخذ كنوز مصرام، و لما مات جعل فى ناوس و معه سائر أمواله و كنوزه، و جعل عليه طلسم يحفظه ممن يقصده. و ملك بعده ابنه سوريد، و كان حكيما فاضلا، و هو أوّل من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۵۰

جبى الخراج بمصر، و أوّل من أمر بالإنفاق على المرضى، و الزمنى من خزائنه، و أوّل من سنّ رقعة الصباح، و عمل أعمالا عجيبة، منها مرآة من أخلاط كان ينظر فيها إلى الأقاليم فيعرف فيها ما حدث من الحوادث، و ما يخصب منها و ما يجدب، و أقام هذه المرأة فى وسط مدينة أمسوس، و كانت من نحاس.

و عمل فى أمسوس صورة امرأة جالسة فى حجرها صبىّ ترضعه، و كانت المرأة من نساء مصر إذا أصابتها علة فى موضع من جسمها أتت هذه الصورة، و مسحت ذلك الموضع من جسدها بمثل ذلك الموضع من الصورة، فتزول عنها العلة، و إن قلّ لبنها مسحت ثديها بثدى الصورة فيغزر لبنها، و إن قلّ حيضها مسحت فرجها بفرج الصورة فيكثر حيضها، و إن كثر دمها مسحت أسفل ركبها بمثل ذلك من الصورة، و إن عسرت ولادة امرأة مسحت رأس الصبىّ الذى فى حجر الصورة، فتضع حملها، و إن أرادت التحبب إلى زوجها مسحت وجهها و تقول: افعلى كذا و كذا، فإذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تتوب، و لم تزل هذه الصورة إلى أن أزالها الطوفان، و فى كتب القبط: أنها وجدت بعد الطوفان، و أن أكثر الناس عبدوها.

و عمل سوريد، صنما من أخلاط كثيرة، فكان من أصابته علة فى موضع من جسده غسل ذلك الموضع من الصنم بماء و شرب الماء، فإنه يبرأ و سوريد هذا هو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين إلى شدّاد بن عاد، و القبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوّة سحرهم، و لما مات سوريد دفن فى الهرم و معه كنوزه، و يقال: إنه كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة و أنه ملك مائة سنة و تسعين سنة.

فملك بعده ابنه هرجيب، و كان كأبيه حكيما فاضلا فى علم السحر و الطلسمات، فعمل أعمالا عجيبة، و استخرج معادن كثيرة و أظهر علم الكيمياء، و بنى أهرام دهشور و حمل إليها أموالا عظيمة و جواهر نفيسة، و عقاقير و سمومات، و جعل عليها روحانيات تحفظها وشج رجل رجلا، فأمر بقطع أصابعه و سرق رجل مالا، فملك المسروق له رق السارق، و لما مات دفن فى الهرم، و معه جميع أمواله و ذخائره.

و ملك بعده ابنه مناوس، و يقال: منقاوس، و كان كأبيه فى الحكمة إلا أنه كان جبارا فاسقا سفاكا للدماء، ينتزع النساء من أزواجهنّ و يبيح ذلك لخواصه، و عمل أعمالا عجيبة و استخرج كنوزا و بنى قصورا من ذهب و فضة، و أجرى فيها الأنهار و جعل حصباءها

من أصناف الجواهر النفيسة، و سلط رجلا جبارا اسمه: قرناس، على الناس و وجّهه لمحاربة الأمم الغريبة، فقتل منهم خلائق، و لما مات دفن في بعض قصوره و معه أمواله، و عمل عليه طلسم يحفظه و يمنعه من كل طالب.

و ملك بعده ابنه أفروس، و كان كأبيه في العلم و الحكمة، و لما ملك أظهر العدل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٥١

و أحسن السيرة و ردّ النساء اللاتي غصبن في أيام أبيه على أزواجهنّ، و عمل قبة طولها خمسون ذراعا في عرض مائة ذراع، و ركب في جوانبها طيورا من صفر تصفر بأصوات مختلفة مطربة لا تفتر ساعة، و عمل في وسط مدينة أمسوس، منارا عليه رأس إنسان من صفر كلما مضى من النهار أو الليل ساعة صاح صيحة يعلم من سمعها بمضيّ ساعة، و عمل منارا عليه قبة من صفر مذهب، و لطخها بلطوخات، فإذا غربت الشمس في كل ليلة اشتعلت القبة نورا تضيء له مدينة أمسوس طول الليل، حتى يصير مثل النهار لا تطفئها الرياح و لا الأمطار فإذا طلع النهار خمد ضوءها و أهدى لبعض ملوك بابل مدهنا من زبرجد قطره خمسة أشبار.

و يقال: إنه وجد بعد الطوفان، و عمل في الجبل الشرقيّ صنما عظيما قائما على قاعدة و هو مصبوغ مصفر بالذهب و وجهه إلى الشمس يدور معها حتى تغرب، ثم يدور ليلا حتى يحاذي المشرق مع الفجر، فإذا أشرقت الشمس استقبلها بوجهه، و بنى بصحراء الغرب مدنا كثيرة، و أودعها كنوزا عظيمة، و نكح ثلثمائة امرأة و لم يولد له ولد، فإنّ اللّه تعالى، كان قد أعقم الأرحام لما يريد من إهلاك العالم بالطوفان، و وقع الموت في الناس و البهائم، و لما مات وضع في ناوس بالجبل الشرقيّ، و معه أمواله و طلسم عليه.

و ملك بعده أرمالينوس، فعمل أعمالا عجيبة و بنى مدنا و مصانع جدّد الطلسمات، و كان له ابن عم يسمى: فرعان، و كان جبارا، فأبعده و جعله على جيش ساربه عنه، فقهر ملوكا و قتل أمما عظيمة، و غنم أموالا كثيرة، و عاد فشغفت به امرأة من نساء الملك، و ما زالت به حتى اجتمع بها تآلفا، و أقاما على ذلك مدّة، فخافا الملك أن يفطن بهما، فعملت المرأة لأرمالينوس سمّا في شرابه هلك منه.

و ملك بعده ابن عمه فرعان بن مشور، فلم ينازعه أحد لشجاعته و سياسته، و لم تطل أعوامه حتى رأى قليمون الكاهن، كأنّ طيورا بيضاء قد نزلت من السماء، و هي تقول: من أراد النجاة فليلحق بصاحب السفينة، و كان عندهم علم بحدوث الطوفان من أيام سوريد و بنائه الأهرام، لأجل ذلك، و اتخذ الناس سراديب تحت الأرض مصفحة بالزجاج قد حبست الرياح فيها بتدبير، و عمل منها فرعان لنفسه و لأهله عدّة، فما كذب أن جمع أهله و ولده و تلميذه و لحق بنوح عليه السلام، و آمن به و أقام معه حتى ركب في السفينة و جاء الطوفان في أيام فرعان، فأغرق أرض مصر كلها، و خرب عمائرها، و أزال تلك المعالم كلها، و أقام الماء عليها ستة أشهر، و وصل إلى أنصاف الهرمين العظيمين، و سيأتي خبر ذلك إن شاء اللّه تعالى عند ذكر محن مصر من هذا الكتاب.

و يقال: إنّ فرعان كان عاتيا متجبرا يغصب الأموال و النساء، و أنه كتب إلى الدر مثيل ابن لحويل ببابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام، و أنه استخف بالكهنة و الهياكل، ففسدت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٥٢

في أيامه أرض مصر، و نقص الزرع و أجدبت النواحي لانهماكه في ضلاله و ظلمه و إقباله على لهوه و لعبه، و إنّ الناس اقتدوا به ففشا ظلم بعضهم لبعض، و إنه لما أقبل الطوفان، و سحت الأمطار، قام سكران يريد الهرب إلى الهرم، فتخلخلت الأرض به، و طلب الأبواب فخانته رجلاه و سقط يخور، حتى هلك، و هلك من دخل الأسراب بالغم، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر مدينة منف و ملوكها

هذه المدينة كانت في غربيّ النيل على مسافة اثني عشر ميلا من مدينة فسطاط مصر، و هي أوّل مدينة عمرت بأرض مصر بعد الطوفان، و صارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التي تقدّم ذكرها، إلى أن أخربها بخت نصر، و قد ذكرها اللّه تعالى في كتابه

العزيز بقوله:

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها [القصص/ ١٥]. قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى كتاب جامع البيان فى تفسير القرآن، عن السدىّ: أنّه قال: كان موسى عليه السلام حين كبر يركب، كمراكب فرعون، و يلبس مثل ما يلبس، و كان إنما يدعى: ابن فرعون، ثم إنّ فرعون ركب مركبا، و ليس عنده موسى، فلما جاء موسى عليه السلام قيل له: إنّ فرعون قد ركب، فركب فى إثره فأدركه المقيل فى أرض يقال لها: منف، فدخلها نصف النهار، و قد تغلقت أسواقها و ليس فى طرقها أحد، و هى التى يقول اللّه جلّ ذكره: وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها [القصص/ ١٥].

قال ابن عبد الحكم، عن عبد اللّه بن لهيعة: أوّل من سكن بمصر بعد أن أغرق اللّه قوم نوح عليه السلام، بيصر بن حام بن نوح، فسكن منف، و هى أوّل مدينة عمرت بعد الطوفان هو و ولده، و هم ثلاثون نفسا منهم أربعة أولاد قد بلغوا و تزوّجوا، و هم: مصر و فارق و ماج و ياج و بنو بيصر، و كان مصر أكبرهم، فبذلك سميت: مافه، و مافه بلسان القبط ثلاثون، و كانت إقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم، و نقروا هناك منازل كثيرة. و قال ابن خرداذبه فى كتاب المسالك و الممالك: و مدينة منف هى (مدينة فرعون) التى كان ينزلها، و اتخذ لها سبعين بابا من حديد، و جعل حيطان المدينة من الحديد و الصفر، و فيها كانت الأنهار تجرى من تحت سريره، و هى أربعة، و يروى أنّ مدينة منف كانت قناطر و جسورا بتدبير، و تقدير حتى أنّ الماء ليجرى تحت منازلها و أفنيتها، فيحبسونه كيف شاءوا، و يرسلونه كيف شاءوا، فذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ [الزخرف/ ٥١]، و كان بها كثير من الأصنام لم تزل قائمة إلى أن سقطت فيما سقط من الأصنام فى الساعة التى أشار فيها النبىّ صلى اللّه عليه و سلم إلى الأصنام، يوم فتح مكة بقضيب فى يده، و هو يطوف حولها، و يقول: جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً [الإسراء/ ٨١] فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه، و لا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع، و فى تلك الساعة سقطت أصنام الأرض من الشرق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٥٣

إلى الغرب، و بقى أصحابها متعجبين لا يعلمون لها سببا أوجب سقوطها، و بقيت أصنام مدينة منف ساقطة من ساعته، و فيها الصنمان الكبيران المجاوران للبيت الأخضر الذى كان به صنم العزيز، و كان من ذهب و عيناه ياقوتتان لا يقدر على مثلهما، ثم قطعت الأصنام و البيت الأخضر من بعد سنة ستمائة.

و يقال: كانت منف ثلاثين ميلا طولا فى عشرين ميلا عرضا، و إنّ بعض بنى يافث بن نوح عمل فى أيام مصرايم آلة تحمل الماء حتى تلقيه على أعلى سور مدينة منف، و ذلك أنه جعلها درجا مجوّفة، كلما وصل الماء إلى درجة امتلأت الأخرى، حتى يصعد الماء إلى أعلى السور، ثم ينحط فيدخل جميع بيوت المدينة، ثم يخرج من موضع إلى خارج المدينة.

و كان بمنف بيت من الصوّان الأخضر الماتع الذى لا يعمل فيه الحديد قطعة واحدة، و فيه صور منقوشة و كتابة، و على وجه بابه صور حيات ناشرة صدورها، لو اجتمع ألوف من الناس على تحريكه ما قدروا لعظمه و ثقله، و الصابئة تقول: إنه بيت القمر، و كان هذا البيت من جملة سبعة بيوت كانت بمنف للكواكب السبعة، و هذا البيت الأخضر هدمه، الأمير سيف الدين شيخون العمرىّ، بعد سنة خمسين و سبعمائة، و منه شيء فى خانقاهه، و جامعه الذى بخط الصليبة خارج القاهرة.

و قال أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن القيسى فى كتابه تحفة الألباب: و رأيت فى قصر فرعون موسى بيتا كبيرا من صخرة واحدة أخضر كالآس فيه صورة الأفلاك و النجوم لم نر عجبا أحسن منه.

و قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ : و كانت دار الملك بمصر فى قديم الدهر مدينة منف، و هى فى غربىّ النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط، فلما بنى الإسكندر مدينة الإسكندرية رغب الناس فى عمارتها، فكانت دار العلم، و مقرّ الحكمة، إلى أن فتحها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و اختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة، بالفسطاط، فانتشر أهل

مصر، و غيرهم من العرب و العجم إلى سكناها، فصارت قاعدة ديار مصر، و مركزها إلى وقتنا هذا.

و قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب: و قد ذكر أخبار مدينة أمسوس، و خراب عمائر أرض مصر بطوفان نوح عليه السلام، و لما نزل الماء كان أوّل من ملك مصر بعد

الطوفان بيصر بن حام بن نوح، و كان معه ثلاثون من الجبابرة من أهله و ولده، فاجتمعوا و بنوا مدينة منف، و نزلوا بها، و كان قليمون الكاهن الذى تقدّم ذكره فى خبر مدينة أمسوس من جملتهم، و كان قد زوج ابنته ببيصر المذكور، و جاءت معه إلى مصر، و ولدت منه ولدا سماه: مصرايم، فلما مات بيصر، دفن فى موضع دير أبى هرميس، و يقال: دير أبى هرميس غربىّ الأهرام، و يقال: إنها أوّل مقبرة دفن فيها بأرض مصر، و كان موته بعد ألف و ثمانمائة و ست سنين مضت من وقت الطوفان، و قال غيره: ثم بنى مصرايم مدينة سماها باسمه، فجاءه رجل من بنى يافث، فعمل له سورا قائما، و صنع له درجا و أجرى الماء إلى أن بقى يصعد إلى أعلى السور بحكمة أتقنها، ثم ينزل ذلك الماء من أعلى السور إلى المدينة فينتفع به فيها بغير مشقة و لا كلفة، ثم يخرج من ناحية أخرى، و كتب على السور هذه صنعة من يموت لا صنعة من يدوم.

و ملك بعد بيصر، ابنه مصرايم. (و يقال له: مصر) بن بيصر، فأظهره قليمون الكاهن على كنوز مصر و علمه قراءة خطهم، و أطلعه على حكمهم و بنى مصرايم، المدن و شق الأنهار و غرس الأشجار، و بنى مدينة عظيمة سماها درسان، و هى العريش، و نكح امرأة من أولاد الكهنة، فولدت له ابنا سماه: قفطيم، و بنى مدينة رقودة مكان الإسكندرية.

و لما مات مصرايم، جعل له سرب طوله مائة و خمسون ذراعا، و بسط بالمرمر الأبيض و عمل فى وسطه مجلس مصفح بصفائح الذهب، و له أربعة أبواب، على كل باب: تمثال من ذهب على رأسه تاج من ذهب، و هو جالس على كرسىّ من ذهب قوائمه من زبرجد، و نقش فى صدر كل تمثال آيات مانعة و حبسوا جسده فى جسد من زبرجد أخضر شبه تابوت طوله أربعون ذراعا دفن فيه، و معه جميع ما كان فى خزائنه من ذهب، و فضة و جوهر منها ألف قطعة من زبرجد مخروط و ألف تمثال من جوهر نفيس، و ألف برنية من ذهب مملوءة درا نفيسا، و ألف آنية من ذهب، و عدّة سبائك من فضة، و عمل عليه طلسم مانع من الوصول إليه و زبروا عليه: مات مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد ألفين و ستمائة عام، و قيل: بعد سبعمائة سنة مضت من الطوفان، و لم يعبد الأصنام فصار إلى جنة لا هرم فيها و لا سقم، و لا همّ و لا حزن، و كتب اسم اللّه الأعظم عليه حتى لا يصل إليه أحد إلا ملك، يأتى فى آخر الزمان يدين بدين الملك الديان، و يؤمن بالبعث و الفرقان، و النبىّ الداعى إلى الإيمان فى آخر الزمان، و سقفوا فوق السرب بالصخور العظام، و هالوا عليه الرمال حتى سدّوا بين جبلين متقابلين.

و يقال: كان مصر بن بيصر، مع جدّ أبيه نوح عليه السلام فى السفينة، فدعا له أن يسكنه اللّه الأرض الطيبة المباركة التى هى أم البلاد و غوث العباد، و نهرها أفضل الأنهار، و يجعل له فيها أفضل البركات و يسخر له الأرض و لولده، و يذللها و يقوّيهم عليها، فسأله

عنها، فوصفها له، و أخبره بها، و كان بيصر بن حام قد كبر و ضعف فساقه ولده مصرايم، و جميع إخوته إلى مصر، فنزلوها و بذلك سميت: مصر.

و ملك بعده: ابنه قبطيم (و يقال له: قفط) بن مصرايم، و هو أوّل من عمل العجائب بعد الطوفان، فاستخرج المعادن و شق الأنهار، و نصب الأعلام و المنارات و عمل الطلسمات.

و يقال: إنّ مصرايم لما مات، اختلف أولاده من بعده، و كان قفط أصغرهم، فاجتمعوا عند الأهرام و رضوا بأنّ من غلب منهم أخاه أخذ الملك، فتحارب أشموم و أتريب، فغلب أتريب، ثم تحارب صا، هو و أشموم، فغلب أشموم، ثم تحارب قفط وصا، فغلب قفط فأخذ قفط الملك بعد أبيه، و أطاعه أخوته و سكن مدينة منف دار مملكة أبيه، و تزوّج امرأة ولدت له، أربعة أولادهم: قفطريم، و

أشمون، و أتريب، وصا، فتناسلوا و كثروا و عمروا البلاد، ثم إنه قسم الأرض بين أولاده الأربعة عند وفاته، فجعل لولده قفطريم من أسوان إلى قفط، و جعل لولده أشمون من مدينة قفط إلى مدينة منف، و جعل لولده أتريب الجرف كله، و جعل لولده صا من ناحية البحيرة إلى الغرب، و جعل أمرهم إلى قفطريم و أمر كل واحد منهم أن يبنى لنفسه مدينة فى حيزه، و جعل لنفسه سربا تحت الجبل الكبير، و صفحه بالمرمر، و عمل فيه منافذ للريح فصارت تنخرق فيه بدوىّ عظيم، و أقام فى السرب رؤوسا من نحاس مطلية تضىء كالسرج ليلا و نهارا. و لما مات وضع جسده بهذا السرب فى جرن من ذهب بعد ما ألبس ثيابا منسوجة بالدر و المرجان، و أقيم عند رأسه عمود من مرمر عليه جوهرة تضىء، و عمل حول الجرن توابيت من حجارة ملوّنة حولها مصاحف الحكمة، و وضعت عنده أمواله و كنوزه و ذخائره و زبروا عليه كما زبروا على أبيه، و انتقل كل من أولاده إلى حيزه، فانتقل صا بأهله و أولاده و سكن مدينة صا الآتى ذكرها.

و يقال: كانت البلبلة فى أيام قفط، و أنه ألهمه اللّه تعالى اللغة القبطية، و أنه أقام ملكا أربعمائة و ثمانين سنة، و مات، فدفن بأرض الواحات و ملك بعده أخو أشمن بن مصر، و قيل: بل أسكن فى حياته ابنه قفطريم فى حيزه، فشرع فى العمارة و كان جبارا عظيم الخلقة، فأثار من المعادن ما لم يثره أحد قبله و بنى مدينة دندرة، و عمل فى جبل قفط منارا عاليا يرى منه البحر الشرقىّ، و وجد هناك معادن من الزئبق، و عمل البركة التى سماها صيادة الطير، و هلك عاد بالريح فى آخر أيامه، و فى أيامه أثارت الشياطين الأصنام التى أغرقها الطوفان، فعبدت، و أقام ملكا أربعمائة و ثمانين سنة و مات.

و ذكر ابن عبد الحكيم: بعد مصر بن بيصر قفط بن مصر، و أنّ الذى ملك بعد قفط أخوه اشمن، ثم أتريب بن مصر، ثم صا بن مصر، ثم ابنه تدارس بن صا، ثم ابنه ماليق بن تدارس، ثم ابنه حزابا بن ماليق، ثم ابنه كلكلى بن حزابا، و يقال: إنّ أشمن، لما ملك بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۵۶

أخيه، سار إليه شدّاد بن هدّاد بن شدّاد بن عاد، و ملك أرض مصر، و هدم مبانيها، و بنى أهراما و مضى إلى موضع الإسكندرية، فبناها و أقام دهرا، ثم خرجت العادية من أرض مصر، فعاد أشمن إلى ملكه، و أنه ملك بعده أخوه صا، ثم ملك بعد صا ابنه تدارس، و فى أيامه بعث اللّه صالحا إلى ثمود و مات.

فملك ابنه ماليق البودسير، و كان من الجبابرة العظام عمل أعمالا عظيمة، منها منار فوقه قبة لها أربعة أركان فى كل ركن كوّة يخرج منها فى يوم معلوم عندهم من كل سنة، دخان ملتف فى ألوان شتى يستدلون بكل لون على شىء، فإن خرج الدخان أخضر، دل على العمارة و الخصب فى تلك السنة، و إن خرج أبيض، دل على الجدب و قلة الخير، و إن خرج أحمر، دل على الحروب و قصد الأعداء، و إن خرج أصفر، دل على النيران و آفات تحدث من الملك، و إن خرج أسود، دل على الأمطار و السيول، و فساد بعض الأرض، و إن خرج مختلطا، دل على كثرة الظلم و بغى الناس بعضهم على بعض.

و عمل شجرة من نحاس تجذب سائر الوحوش حتى تصل إليها، فلا تستطيع الحركة إلى أن تؤخذ، فشبع أهل مصر من لحوم الوحوش، و اتفق أنّ غرابا نقر عين صبى من أولاد الكهنة فقلعها، فعمل شجرة من نحاس عليها غراب منشور الجناحين و فى منقاره حية، و على ظهره أسطر، فكانت الغربان تقع على هذه الشجرة، و لا تبرح حتى تموت، و كانت الرمال قد كثرت فى أيامه على أرض مصر من ناحية الغرب، فعمل صنما من صوّان أسود على قاعدة منه، و فوق كتبه قفة فيها مسحاة و نقش على وجهه و صدره و ذراعيه كتابة، و جعل وجهه إلى الغرب، فانكشفت الرمال و رجعت بها الرياح إلى ورائها، و صارت تلالا عالية.

و بعث بهرمس الحكيم، إلى جبل القمر الذى يخرج منه النيل، فعمل تماثيل النحاس، و عدّل جانبى النيل، و كان قبله يفيض فى مواضع و ينقطع فى مواضع و سار مغرّبا لينظر ما وراء ذلك، فوقع على أرض واسعة ينخرق فيها الماء و الأشجار فبنى فيها منتزهات، و أقام بها و حوّل إليها عدّة من أهله فعمروا تلك النواحى حتى صارت أرض الغرب كلها معمورة، ثم خالطتهم البربر، و جرت بينهم حروب كثيرة أفنتهم، فخربت تلك البلاد، و لم يبق منها إلا الواحات، ثم إنّ البودسير احتجب عن الناس، و صار يبرز وجهه من مقعده

فى النادر، و ربما خاطبهم من حيث لا يرونه.

و ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: إنّ أوّل من تحقق بالكهانة و غير الدين و عبد الكواكب البودسير، و تزعم القبط أنّ الكواكب كانت تخاطبه، و أنّ له عجائب كثيرة منها: أنه استتر عن الناس عدّة سنين من ملكه، و كان يظهر لهم وقتا بعد وقت مرّة فى كل سنة، و هو حلول الشمس فى برج الحمل، و يدخل الناس إليه، فيخاطبهم، و هم يرونه فيأمرهم و ينهاهم و يحذرهم مخالفة أمره، ثم بنيت له قبة من فضة مطلية بذهب، فصار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٥٧

يجلس فى أعلاها، و له وجه عظيم فيخاطبهم.

(فلما مات ملك بعده ابنه أرقليمون): و كان كاهنا ساحرا، فعمل أعمالا عظيمة منها:

أنه كان يجلس فى السحاب، فيرونه فى صورة إنسان عظيم، و أقام مدّة على ذلك، ثم إنه غاب عن أهل مصر، و صاروا بغير ملك، ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أوّل برج الحمل، فأمرهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطيم و أعلمهم أنه ما بقى يعود إليهم.

فولوا عليهم عديم بن قفطيم: و كان جبارا عظيما و هو أوّل من صلب بمصر، و ذلك أنّ امرأة و رجلا زنيا، فصلبهما، و جعل ظهر كل منهما لظهر الآخر، و بنى أربع مدائن أودعها كنوزا عظيمة، و جعل عليها طلسمات، و عدّة عجائب و عمل منارا على البحر الشرقىّ، و عليه صنم إلى الشرق حتى لا يغلب البحر على أرض مصر، و عمل قنطرة على النيل فى أرض النوبة، و أقام ملكا مائة و أربعين سنة، و مات و عمره سبعمائة و ثلاثون سنة.

(و ملك بعده ابنه شدّات بن عديم): و هو الذى تسميه العامة: شدّاد بن عاد، و كان عالما كاهنا ساحرا و يقال: إنه هو الذى بنى الأهرام الدهشورية، و عمل أعمالا عظيمة و طلسمات عجيبة و بنى فى الجانب الشرقىّ مدائن، و فى أيامه بنيت قوص و غزا الحبشة، و سباهم و أقام ملكا تسعين سنة، و هو أوّل من اتخذ الجوارح و صاد بها و ولّد الكلاب السلوقية، و عمل فى بركة سيوط تماسيح منصوبة تنصب إليها التماسيح من النيل انصبابا، فيقتلها و يعلق جلودها فى السفن، و اتفق أنه طرد صيدا فكبابه فرسه فى و هدة، فهلك. و كان قد غضب على بعض خدمه فرماه من جبل عال، فتقطع، فرأى أنه يصيبه مثل ذلك، و لما هلك وضع فى ناوس و دفنت معه أمواله و عمل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده، و كتب عليه: لا ينبغى لذى القدرة أن يخرج عن الواجب، و لا يفعل ما لا يجوز له فعله، فيجازى بعمله.

هذا ناوس بن شدّات بن عديم، فعل ما لا يحلّ له فعله، فكوفىء عليه بمثله.

و ملك بعده ابنه منقاوش: و كان حكيما فاضلا كاهنا، عمل أعمالا عجيبة، و بنى أشياء معجبة منها: أنه عمل هيكلا لصور الكواكب على ثمانية فراسخ من منف، و كنز من الأموال ما لا يحصى، و فتح عليه من المعادن ما لم يفتح به على غيره، و سار فى الجنوب يوما ثم سار مغرّبا يوما و بعض آخر، فانتهى فى اليوم الثالث إلى جبل أسود، فعمل تحته أسرابا و مغاير، و دفن فيها أمواله و زبر عليها حتى أنه من كثرتها يقال: إنه دفن حمل اثنى عشر ألف عجلة ذهبا و جواهر، و أقام أربع سنين يرسل فى كل سنة عجلا كثيرة يدفنها، و بقيت آثار العجل ترى فيما بين منف و المغرب زمانا طويلا، و بنى هيكلا للقمر، و يقال: إنه هو الذى بنى مدينة منف لبناته، و كنّ ثلاثين بنتا، و أنه ألزم الناس بعمل الكيمياء، فكانوا لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٥٨

يفترون عن عملها ليلا و لا نهارا، حتى اجتمع عنده مال عظيم و جوهر كثير، و هو الذى بنى مدينة عين شمس، و قسم خراج مصر أرباعا، جعل الربع للملك، و الربع للجند، و الربع ينفق فى مصالح الأرض، و الربع الرابع يدفن لحادثة تحدث، و هو الذى قسم أرض مصر على مائة و ثلاثين كورة، و أقام ملكا إحدى و تسعين سنة و مات.

فملك بعده ابنه عديم بن منقاوش: و كان جبارا لا يطاق، و فى أيامه كان نزول الملكين اللذين يعلمان الناس السحر، و القبط تزعم أنهما نزلا بأرض مصر، ثم نقلا إلى بابل.

ثم ملك بعده أخوه مناوش بن منقاوش، و كان عالما كاهنا فاضلا، بنى مواضع كثيرة فى الجبال و الصحارى، و كنز فيها كنوزا عظيمة، و أقام عليها أعلاما، و بنى فى صحراء الغرب مدينة، و أقام لها منارا و كنز حولها كنوزا عظيمة، و جعل فيها شجرة تطلع كل لون من الفاكهة، و هو أوّل من عبد البقر بمصر، و كان يطلب الحكمة، و يستخرج كتبها، و كذا كان كل من ملك منهم يجتهد فى أن يعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله، و تثبت فى كتبهم و تزبر على الحجارة.

و لما مات ملك بعده ابنه هرميس: و كان قليل الحكمة، فلم يعمل شيئا مما عمله آباؤه، و مات و قد أقام إحدى عشرة سنة.

فملك بعده أشمون بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح: و كان حيزه من أشمون إلى منف فى الغرب، و حيزه فى الشرق إلى حدّ البحر الملح مما يحاذى برقة، و هو آخر حدّ مصر، و من بلاد الصعيد إلى حدود أخميم، و كانت منزله بمدينة الأشمونين و كان طولها اثنى عشر ميلا فى مثلها، و بنى فى شرقىّ النيل مدينة أنصنا، و بنى بها قصرا عظيما، و اتخذ بها أبنية و ملاعب و عجائب كثيرة، و بنى مدينة طهراطيس، و هو أوّل من لعب بالكرة و الصولجان.

و يقال: إنه بنى مدنا كثيرة عمل فيها عجائب منها: مدينة فى سفح الجبل لها أربعة أبواب من كل ناحية باب، فعلى الباب الشرقىّ: صورة عقاب، و على الباب الغربىّ: صورة ثور، و على الباب الشمالىّ: صورة أسد، و على الباب الجنوبىّ: صورة كلب؛ و فى هذه الصور روحانيات تنطق فإذا قدم غريب لا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها، و دفن تحت كل شكل من هذه الأشكال الأربعة صنفا من الكنوز، و غرس فى هذه المدينة شجرة مولدة تثمر كل لون من الفاكهة، و نصب منارا طوله ثمانون ذراعا فوقه قبة تتلوّن كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام ثم تعود إلى اللون الأوّل، فكانت تلك المدينة تكسى من تلك الألوان شعاعا مثل لونها، و أجرى حول المنار ماء شقه من النيل، و جعل فيه سمكا من كل لون و أقام حول المدينة طلسمات فى هيئة أناس رؤوسها كالقردة، و أسكن هذه المدينة السحرة، فعرفت بمدينة السحرة، و كانوا يعملون فيها أصناف السحر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٥٩

و بنى بالقرب منها مدينة عرفت بذات العجائب، و بنى مجالس مصفحة بزجاج ملوّن فى وسط النيل، و بنى سربا تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا.

و قيل: إنه هو الذى بنى مدينة عين شمس، و أنه ملك ثمانمائة سنة، و أنّ قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة، و أقاموا بمصر تسعين سنة، فأصابهم و باء خرجوا منه إلى المدينة بطريق الحجاز إلى وادى القرى، فعاد أشمون بعد خروج العادية إلى ملك مصر، و هو أوّل من عمل النوروز بمصر.

و فى زمانه: بنيت مدينة البهنسا، و لما مات جعل له ناوس فى آخر حدّ الأشمونين، و دفن فيه و معه كنوزه العظيمة و عجائبه الكثيرة منها: ألف برنية من العقاقير المدبرة لفنون الأعمال و ززبروا على ناوسه اسمه و نسبه، و جعل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده.

و ملك بعده ابنه صا: ثم بعد صا ابنه تدراس.

و قيل: ملك مناقيوش، و كان شجاعا فاضلا فاستأنف العمارة و بنى القرى و نصب الأعلام و عمل العجائب الهائلة، و بنى مدائن منها مدينة أخميم و حوّل الكهنة إليها، و أقام ملكا نيفا و أربعين سنة، و مات فدفن فى الهرم الشرقىّ و معه كنوزه.

و ملك بعده ابنه، و قد اختلف فى اسمه و كان فاضلا حازما معظما عند أهل مصر، و هو أوّل من عمل المارستان، و أول من عمل الميدان للرياضة، و فى أيامه بنيت مدينة سنترية فى صحراء الواحات، ثم إنّ نساء تغايرن عليه فقتلته إحداهنّ بسكين، فدفن فى ناوس و معه أمواله، و عمل عليه طلسم يحفظه.

و ملك بعده ابنه مرقورة: و كان حكيما كاهنا، و هو أوّل من ذلل السباع و ركبها، و بنى المدن، و عمر الهياكل، و أقام الأصنام، و لما

مات جعل له ناوس فى صحراء الغرب و دفن معه ماله.

و ملك بعده ابنه بلاطس: و كان صبيا، فدبرت أمّه أمر الملك، و كانت حازمة، فأجرت الأمور على أحسن ما يكون، و أظهرت العدل، و وضعت عن الناس الخراج فأحبّوها، و لما كبر ابنها أحب الصيد، فعملت له أمّه أعمالا عجيبة، و أقام ملكا ثلاث عشرة سنة و جدّر فمات، و انتقل الملك إلى أعمامه.

فملك بعده أتريب بن قبطيم بن مصرايم، و هو الثالث عشر من ملوك مصر بعد الطوفان، و هو الذى بنى مدينة أتريب، و عاش خمسمائة سنة منها مدّة ملكه ثلثمائة و ستون سنة، و يقال: إن النيل وقف فى أيام أتريب مائة و أربعين سنة، حتى أكلت البهائم بأرض مصر، و لم يبق بها بهيمة، و رؤى أتريب ماشيا و هو يبسط يديه و يقبضهما من الجوع، و مات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٦٠

عامّة أهل مصر جوعا، ثم أغيثوا بعد ذلك، و كثر الرخاء و دام مدّة مائتى سنة و بيع كل أردب بدانق و أقل، و لما مات اتهم أخوه صا بقتله و حاربه أهل مصر تسع سنين و قتلوه.

فملكت بعده ابنته تدرورة: و كانت كاهنة ساحرة فساست الملك أحسن سياسة، و دبرت الملك أجود تدبير، و عملت طلسمات عجيبة، منها طلسم منع الوحش و الطير أن يشرب من النيل، حتى مات أكثرها عطشا، و وقعت فى زمانها صيحة ارتجت لها الأرض فهلكت.

و ملك بعدها أخوها قليمون بن أتريب: و كان حكيما فاضلا فبنى البنيان و عمل الطلسمات، و فى أيامه بنيت مدينة تنيس الأولى، و بنيت مدينة دمياط، و أقام ملكا تسعين سنة، و مات فدفن فى ناوس.

و ملك بعده ابنه فرسون: و كان فاضلا كاهنا، بنى المدائن و جدّد الهياكل، و كان حدثا فقصده بعض ملوك حمير فى جموع عظيمة، فخرج إليهم و لقيه مدينة إيليا، و قاتله قتالا شديدا حتى تفانى من الفريقين معظمهما، و أظهر المصريون أشياء من سحرهم، فانهزم الحميرى فى طائفة يسيرة، و قتل فرسون عامّة أصحابه و أخذ ما كان معهم، و عاد مظفرا إلى مدينة منف، و عمل منارا على بحر القلزم فى رأسه مرآة تجذب المراكب إلى الساحل حتى يؤخذ منها ما هو مقرّر عليها من المال، و أقام ملكا مائتى سنة و ستين سنة، و مات فدفن فى ناوس خلف الجبل الأسود الشرقىّ، و عمل فيه قبة تحتوى على اثنى عشر بيتا فى كل بيت أعجوبة و دفن معه ماله و عمل عليه طلسم يحفظه.

و ملك بعده نحوه أربعة و صار الملك إلى صا بن قبطيم: و كان اصغر ولد أبيه و أحبهم إليه.

و لما مات ملك بعده نونية الكاهنة: و كانت ساحرة فكانت تجلس على سرير من نار فإذا تحاكم إليها أحد، و كان صادقا شق تلك النار من غير أن تضرّه، و إن كان كاذبا أخذته تلك النار، و كانت تتصوّر كل يوم فى صور كثيرة الأشكال، ثم بنت قصرا و احتجبت فيه، و جعلت فى سوره أنابيب من نحاس مجوّفة، و كتبت على كل أنبوب فنا من الفنون التى يتحاكم الناس بها إليها، فكان من أتاها فى محاكمة وقف عند الأنبوب الذى فيه محاكمته، و تكلم بما يريده، و سأل عنه بصوت خفىّ، فإذا فرغ جعل أذنه فى الأنبوب فيأتيه منه جواب ما سأل، و لم يزل هذا القصر و الأنابيب حتى أتلفه بخت نصر.

و ملك بعدها مرقونس: و كان فاضلا حكيما، و كانت أمه بنت ملك النوبة، فعملت عجائب و صنع فى أيامه كل غريبة، و ملك ثلاثا و سبعين سنة، و مات و عمره مائتان و أربعون سنة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٦١

فملك بعده ابنه ايساد و هو ابن خمس و أربعين سنة: و كان جبارا طماح العين، فانتزى امرأة أبيه، و انكشف أمره معها، و كان أكبر همه اللهو و اللعب، فجمع كل ملهٔ فى مملكته، و رفض العلوم، و أهمل أمر الهياكل و الكهنة، و ترك النظر فى أحوال الناس، و بنى قصورا على النيل ليتنزه فيها، و أتلف أكثر الأموال فى اللعب، فكرهه الناس، و كرههم إلى أن سمّوه، فمات عن مائة و عشرين سنة.

و ملك بعده ابنه صا: و يقال: إنّ صا هو ابن مرقونس، و هو أخود أيساد، و لما ملك سكن منف، و وعد الناس بخير و ملك الأحياز كلها، و عمل بها عجائب و طلسمات، و ردّ الكهنة إلى مراتبهم و نفى الملهين و أهل الشرّ، و نصب العقاب الذى عمله أبوه و شرّف هيكله و دعا إليه و بنى بداخل الواحات مدينة و نصب قرب البحر أعلاما كثيرة، و جعل على الأطراف أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم، و عمل على حافتى النيل مناير يوقد عليها إذا حزبهم أمر أو قصدهم أحد، و جعل بحافة بحر الملح منارا يعلم به أمر البحر، و يقال:

إنه بنى أكثر مدينة منف، و كل بنيان عظيم بالإسكندرية، و كان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء، و نظر فى النجوم و كان بها حاذقا، فرأى أن مصر، لا بدّ أن تغرق من نيلها، و إنها تخرب على يد رجل يأتى من ناحية الشام، فجمع كل فاعل بمصر، و بنى مدينة فى الواح الأقصى، و قصده ملك الإفرنجة، و ملك منه مدينة منف، و قدم معه ألف مركب، و هدم أكثر الإسكندرية و دخل إلى النيل من رشيد حتى أخذ منف و فرّ منه صا إلى المدائن الداخلة، و تحصن بها من عدوّه، فامتنعت بالطلسمات أياما كثيرة، ثم كانت العاقبة له و عاد عدوّه منهزما، و رجع إلى منف فتتبع الكهنة و قتل منهم كثيرا، و أقام ملكا سبعا و ستين سنة، و عاش مائة و سبعين سنة.

و ملك ابنه تدراس: و استولى على الأحياز كلها وصفا له الوقت و ملك مصر، و كان محتكما مجربا ذا أيد و قوّة و معرفة بالأمور، فأظهر العدل و أقام الهياكل و أهلها قياما حسنا و بنى بيتا للزهرة، و حفر خليج سخا و حارب بعض عمالقة الشام، و دخل إلى فلسطين و قتل بها خلقا و سبى بعض أهلها إلى مصر، و غزا السودان من الزنج و الحبشة و وجه فى النيل بثلاثمائة سفينة فلقى السودان، و كانوا زهاء ألف ألف فهزمهم، و قتل أكثرهم و أسر منهم خلقا كثيرا، و ساق الفيلة و النمور إلى مصر، و عمل على حدود بلده منارات زبر عليها اسمه و مسيره و ظفره، و فى أيامه بعث اللّه نبيه صالحا إلى ثمود، و يقال: إنه هو الذى أنزل النوبة حيث هى، و ذلك أنه لما أوغل فى أرض الحبشة، و قتل أمم السودان وجد فيهم أمة تقرأ صحف آدم و شيث و إدريس فمنّ عليها، و أنزلها على نحو من شهر من أرض مصر، فسموا النوبة، و مات بمنف.

فملك بعده ابنه ماليق: و كان عاقلا كريما، حسن الصورة مجرّبا مخالفا لأبيه و أهل

مصر فى عبادة الكواكب و البقر، و يقال: إنه كان موحدا على دين أجداده، قبطيم و مصرايم، و كانت القبط تذمه لذلك، و أمر الناس باتخاذ كل قارة من الخيل، و اقتنى السلاح و أكثر الأسفار، و أنشأ فى بحر المغرب مائتى سفينة و خرج فى جيش عظيم فى البرّ و البحر، و أتى البربر، فهزمهم و استأصل أكثرهم، و بلغ إفريقية، و سار إلى الأندلس يريد الإفرنجة، فلم يمرّ بأمّة إلا أبادها، فحشد له ملك الإفرنجة و حاربه شهرا، ثم طلب صلحه، و أهدى إليه فسار عنه، و دوّخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر و القبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة، و عمل أعمالا على البحر، و زبر عليها اسمه و مسيره و خرّب مدن البربر، و رجع فتلقاه أهل مصر بأصناف الرياحين و أنواع اللهو، و فرشت له الطرقات، فهابه الملوك، و حملوا إليه الهدايا و ما زال موحدا حتى مات.

فملك بعده ابنه حزابا: و كان لينا سهل الخلق قد عرّفه أبوه التوحيد، و نهاه عن عبادة الأصنام فرجع عن ذلك بعده إلى دين قومه، و غزا الهند و السودان بعد ما عمل مائة سفينة على شكل سفن الهند، و تجهز و حمل معه امرأته و وجوه أصحابه و استخلف ابنه كلكلى على مصر، و كان صبيا و جعل معه وزيرا كاهنا، فمرّ على ساحل اليمن و عاث فى مدائنه، و بلغ سرنديب و أوقع بأهلها، و بلغ جزيرة بين الهند و الصين، فأذعن له أهلها و تنقل فى تلك الجزائر سنين، فيقال: إنه أقام فى سفره سبع عشرة سنة، و رجع غانما، فهابه الملوك، و بنى عدّة هياكل، و أقام بها الأصنام للكواكب، ثم غزا نواحى الشام فأطاعه أهله و رجع فغزا النوبة و السودان، و ضرب عليهم خراجا يحملونه إليه، و رفع أقدار الكهنة و مصاحفهم، و كان يرى أن هذا الظفر بمعونة الكواكب له، و مات و قد ملك خمسا و سبعين سنة. فقام ابنه كلكلى و عقد له بالإسكندرية، فأقام بها شهرا، ثم قدم إلى منف، و كان أصناميا، فسرّ به أهل مصر، و كان يحب الحكمة، و إظهارالعجائب و يقرّب أهلها و يجيزهم و عمل الكيمياء و خزن أموالا عظيمة بصحارى الغرب، و هو أوّل من أظهر

علم الكيمياء بمصر، و كان علمها مكتوما، و كان من تقدّمه من الملوك أمر بترك صنعتها، فعملها كلكلى، و ملأ دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهب فى زمن بمصر أكثر منه فى وقته، و لا الخراج لأنه كان مائة ألف ألف، و بضعة عشر ألف ألف مثقال، فاستغنوا عن إثارة المعادن، و عمل أيضا من الحجارة الملوّنة التى تشف شيئا كثيرا، و عمل من الفيروزج و غيره أشياء.

و اخترع أمورا تخرج عن حدّ العقل حتى سمى حكيم الملوك، و غلب جميع الكهنة فى علومهم، و كان يخبرهم بما يغيب عنهم، و كان نمرود إبراهيم عليه السلام فى وقته، فاتصل بنمرود خبر حكمته و سحره، فاستزاره، و كان النمرود جبارا مشوّه الخلق يسكن السواد من العراق، و أتاه اللّه قوّة و قدرة و بطشا، فغلب على كثير من الأمم، فتقول القبط: إنّ النمرود لما استزار كلكلى وجه إليه أن يلقاه بموضع كذا، فسار إلى الموضع على أربعة أفراس تحمله ذوات أجنحة، و قد أحاط به نور كالنار، و حوله صور هائلة، و قد خيل بها و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢۶٣

متوشح بثعبان متحزم ببعضه، و قد فغر فاه و هو يضربه بقضيب آس، فلما رآه النمرود هاله، و أقرّ له بجليل الحكمة، و سأله: أن يكون ظهيرا له، و يقال: إنه كان يرتفع و يجلس على الهرم الغربىّ فى قبة تلوح على رأسه، فإذا دهم أهل البلد أمر اجتمعوا حول الهرم فيقيم أياما لا يأكل و لا يشرب، ثم استتر مدّة حتى توهموا أنه هلك فطمع فيه الملوك، و قصده ملك من الغرب فى جيش عظيم، حتى قدم وادى هبيب، فأقبل حتى جللهم من سحره بشىء كالغمام شديد الحرّ، فأقاموا تحته أياما متحيرين، ثم طار إلى مصر، و أمرهم بالخروج إلى الجيش، فوجدوهم قد ماتوا هم و دوابهم، فهابه الكهنة مهابة لم يهابوها أحدا قبله، و عمر طويلا و غاب فلم يعلم خبره.

و قال ابن عبد الحكم: إنّ كلكلى ابن حزابا ملكهم نحو مائة سنة ثم مات و لا ولد له.

فملك أخوه ماليا بن حزابا. قال ابن وصيف شاه: و قام أخوه ماليا: و كان شرها كثير الأكل و الشرب منفردا بالرفاهية غير ناظر فى شىء من الحكمة، و جعل أمر البلد إلى وزيره، و اشتغل بالنساء، و كان له من النساء ثمانون امرأة فهجم عليه ابنه طوطيس، و هو سكران فقتله، و قتل امرأة كانت عنده.

و ملك بعده ابنه طوطيس: و يقال: إنه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و يقال: الوليد بن الريان، و أنه أحد فراعنة مصر، من ولد دان بن فهلوج بن أمراز بن أشود بن سام بن نوح.

و قيل: فراعنة مصر من ولد عملاق الأوّل بن لاود بن سام بن نوح، و كان جبارا جريئا شديد البأس مهابا، و القبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر، و هو فرعون إبراهيم عليه السلام، و يقال: إن الفراعنة سبعة، هو أوّلهم، و حفر نهرا فى شرقىّ مصر بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرفأ السفن فى البحر الملح، و كان يحمل إلى هاجر أمّ إسماعيل التى أعطاها إبراهيم عليه السلام الحنطة و أصناف الغلات فتصل إلى جدّة فأحيى بلد الحجاز مدّة، و يقال: إن كل ما حليت به الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر، و لكثرة ما حمل إلى الحجاز سمته العرب من جرهم الصادوق.

و فى كتاب هروشيش: أن سلطان المصريين فى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، كان بأيدى قوم يدعون ببنى فاليق بن دارش، و دام ملكهم بمصر مائة و عشرين سنة، و قال ابن إسحاق عن بعضهم: إن فراعنة مصر من ولد دان بن فهلوج بن امراز بن أشود بن سام بن نوح، قال: و المشهور أنهم من العماليق، منهم الريان بن الوليد، و يقال: الوليد بن الريان فرعون يوسف، و الوليد بن مصعب فرعون موسى، و منهم سنان بن علوان.

قال ابن وصيف شاه: و إنما قيل له: فرعون، لأنه أكثر القتل و لم يرزق غير ابنة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢۶۴

و كانت عاقلة فخافت لكثرة قتله الناس، فقتلته بسمّ، و له فى الملك مائة و سبعون سنة.

و ملكت بعده جورياق: فوعدت الناس بالإحسان، و جمعت الأموال و قدّمت الكهنة و أهل الحكمة و رؤساء السحرة، و رفعت

أقدارهم و جدّدت الهياكل، و صار من لم يرضها إلى مدينة أتريب، و ملّكوا رجلا من ولد أتريب، و قد تقدّم خبره فى الإسكندرية، و جورياق أوّل امرأة ملكت مصر من ولد نوح عليه السلام، و ماتت.

فملكت بعدها ابنة عمها زلفى بنت مأمون: و كانت عذراء عاقلة، فوعدت الناس بالجميل، و قام عليها أيمن الإتريبيّ، و استنصر بملك العمالقة، فسير معه قائدا، فأخرجت إليه جيشا فالتقوا بالعريش، و اقتتلوا حتى فنى منهم كثير من الناس، ثم انهزم أصحاب زلفى إلى منف، و هم فى أقفيتهم، فخرجت زلفى إلى الصعيد، و نزلت الأشمونين، فكان بينها و بين عساكر العمالقة حروب انهزموا فيها، و خرجوا عن منف بعد ما عاثوا فيها و عدّوا إلى الجرف، فامتنعوا به، و صارت مصر بينهم نصفين، ثم إنّ زلفى عاودت الحرب، فاستمرّت ثلاثة أشهر حتى انهزمت إلى قوص و أيمن خلفها، فلما أيقنت أنها تؤخذ، سمّت نفسها، فهلكت.

و قال ابن عبد الحكم: ثم توفى طوطيس بن ماليا، فاستخلفت ابنته جورياق ابنة طوطيس، و لم يكن له ولد غيرها، ثم توفيت جورياق فاستخلفت ابنة عمها زلفى ابنة مأمون بن ماليا، فعمرت دهرا طويلا، و كثروا و نموا و ملأوا أرض مصر كلها، فطمعت فيهم العمالقة، فغزاهم الوليد بن دومع، فقاتلهم قتالا عظيما، ثم رضوا أن يملكوه عليهم فملكهم نحوا من مائة سنة، فطغى و تكبر، و أظهر الفاحشة، فسلط اللّه عليه سبعا فافترسه و أكل لحمه.

و الذى ملك مصر من الفراعنة خمسة: و ملك أيمن و تجبر، و قتل خلقا ممن حاربه، و كان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج فى جيش كثيف، فبعث غلاما يقال له: فرعون، إلى مصر، ففتحها. ثم قدم بعده و استباح أهل مصر، و أخذ أموالهم ثم خرج ليقف على مصب النيل فرأى جبل القمر، و أقام فى غيبته أربعين سنة، و رجع إلى مصر، و قد خالفه فرعون، و فرّ منه فاستعبد أهل مصر و ملكهم مائة و عشرين سنة حتى هلك.

و ملك ابنه الريان بن الوليد بن دومع: أحد العمالقة، و كان أقوى أهل الأرض فى زمانه و أعظمهم ملكا.

و العمالقة: ولد عمليق بن لاود بن سام بن نوح، و هو فرعون يوسف عليه السلام، و القبط تسميه: نهراوش، و قيل: فرعون يوسف، اسمه: الريان بن الوليد بن ليث بن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع بن عابر بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح، و قيل: فرعون

يوسف، هو: جدّ فرعون موسى أبو أبيه، و اسمه: برخو، و كان عظيم الخليق جميل الوجه عاقلا، فوعد الناس الجميل، و أسقط عنهم الخراج لثلاث سنين و فرّق المال فيهم.

و ملك رجلا من أهل بيته يقال له: أطفين، و هو الذى يقال له: العزيز، و كان عاقلا أديبا مستعملا للعدل و العمارة، فأمر أن ينصب له سرير من فضة فى قصر الملك يجلس عليه، و يخرج و جميع الكتاب و الوزراء بين يديه، فكفى نهراوش ما خلف ستره، و قام بجميع أموره و خلاه للذاته، فأقام على قصفه مدّة و البلد عامر، فقصده رجل من العمالقة، و سار إلى مصر فى جيوشه، فخرج إليه و قاتله و هزمه، و سار خلفه، و دخل الشام و عاث هنالك، فهابته الملوك و لاطفته.

و قيل: إنه بلغ الموصل، و ضرب على أهل الشام خراجا و خرج لغزو بلاد المغرب فى تسعمائة ألف، و مرّ بأرض البربر، و جلا كثيرا منهم، و مرّ إلى البحر الأخضر، و سار إلى الجنوب، فقدم النوبة و عاد إلى مدينة منف، و كان من خبر يوسف معه ما ذكر عند ذكر الفيوم.

و ملك بعده ابنه دريموش : و يقال: له دارم بن الريان، و هو الفرعون الرابع، فخالف سنة أبيه، و كان يوسف خليفته، فيقبل منه تارة، و يخالفه تارة، و ظهر فى أيامه معدن فضة فأثار منه شيئا عظيما.

و فى أيامه مات يوسف عليه السلام، فاستوزر بعده رجلا حمله على أذى الناس، و أخذ أموالهم، فبلغ ذلك منهم مبلغا عظيما، ثم زاد فى التجرّى حتى اقتلع كل امرأة جميلة بمدينة منف من أهلها، فكان لا- يسمع بامرأة حسناء فى موضع إلا وجّه إليها، فحملت إليه فاضطرب الناس و شنعوا عليه و عطلوا الصنائع و الأعمال و الأسواق، فعدا عليهم، و قتل منهم مقتلة عظيمة، و زاد الأمر حتى اجتمعوا

على خلعه، فبرز لهم و أسقط عنهم خراج ثلاث سنين، و أنفق فيهم مالا فسكتوا، و فى أيامه ثار القبط على بنى إسرائيل و طلبوا من الوزير، أن يخرجهم من مصر، فما زال بهم حتى أمسكوا، و بلغ الملك ذلك، و كان قد خرج إلى الصعيد فتوعد أهل مصر، فشغبوا عليه و حشدوا له، فحاربوه فقتل منهم خلقا كثيرا، و ظفر بمن بقى، فقتلهم و صلبهم على حافتى النيل، و عاد إلى أعظم ما كان عليه من أخذ الأموال و النساء، و استخدام أشراف القبط و بنى إسرائيل، فأجمع الكل على ذمّه، فركب النيل للنزهة، و ثار به ريح عاصف، فغرق، فلم يوجد إلا بناحية شطنوف، و قيل: فيما بين طرا و حلوان.

فقدّم الوزير ابنه معاديوس: و كان صبيا، و يقال له: معدان، فأسقط عن الناس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢۶۶

ما أسقطه أبوه من الخراج، و وعد بالإحسان فاستقام له الأمر، و ردّ نساء الناس، و هو خامس الفراعنة، و حدث فى زمانه طوفان مصر، و كثر بنوا إسرائيل و عابوا الأصنام، فأفردوا ناحية عن البلد بحيث لا يختلط بهم غيرهم، و أقطعوا موضعا فى قبلىّ منف، فاجتمعوا فيه، و بنوا فيه معبدا، و غلب بعض الكنعانيين على الشام، و منع من الضريبة التى كانت على أهل الشام لملك مصر، فاجتمع الناس إلى معدان، و حثوه على المسير لحربه، فامتنع من المسير و لزم الهيكل، فزعموا أنه قام فى هيكل زحل للعبادة، فتجلى له زحل، و خاطبه. و قال له: قد جعلتك ربا على أهل بلدك، و حبوتك بالقدرة عليهم، و على غيرهم، و سأرفعك إلىّ، فلا تخل من ذكرى فعظم عند نفسه و تجبر، و أمر الناس، أن يسموه ربا، و ترفع عن أن ينظر فى شىء من أمر الملك، و جعل عليه ابنه اكسامس.

فقام ابنه اكسامس فى الملك، و يقال: كلسم بن معدان، فرتب الناس مراتب، و قسم الكور و الأعمال، و أمر باستنباط العمارات، و إظهار الصناعات، و وسع على الناس فى أرزاقهم، و أمر بتنظيف الهياكل، و تجديد لباسها و أوانيها و زاد فى القرابين، و هو الذى يقال له: كاشم بن معدان بن دارم بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقى، و هو سادس الفراعنة، و سموا فراعنة، بفرعان، الأوّل فصار اسما لكل من تجبر و علا أمره، فطال ملكه، و أقام أعلاما كثيرة حول منف، و عمل مدنا كثيرة، و منابر للوقودات و طلسمات، و أقام سبع سنين بأجمل أمر، فلما مات وزير أبيه استخلف رجلا من أهل بيت المملكة يقال له ظلما بن قومس، و كان شجاعا ساحرا كاهنا كاتبا حكيما متصرّفا فى كل فنّ، و كانت نفسه تنازعه الملك، فأصلح أمر الملك و بنى مدنا من الجانبين، و رأى فى نجومه أنه سيكون حدث، فبنى بناحية رقودة و الصعيد ملاعب و مصانع و شكا إليه القبط من الإسرائيليين، فقال: هم عبيدكم، فأذلوهم من حينئذ، و خرج إلى ناحية البربر، فعاث و قتل و سبى، و فى أيامه:

بنيت منارة الإسكندرية، و هاج البحر الملح فغرّق كثيرا من القرى و الجنان و المصانع، و مات اكسامس، و كان ملكه إحدى و ثلاثين سنة، منها إحدى عشرة سنة يدبر أمره ظلما، فلما مات اضطرب الناس، و اتهموا ظلما أنه سمه فقام.

و ولى لاطيس بن اكسامس: و كان جريئا معجبا صلفا، فأمر و نهى، و ألزم الناس أعمالهم، و قال: أنا مستقيم ما استقمتم، و إن ملتم عن الواجب ملت عنكم، و حط جماعة عن مراتبهم، و صرف ظلما عن خلافته، و استخلف غيره، و أنفذ ظلما إلى الصعيد فى جماعة من الإسرائيليين، و جدّد بناء الهياكل و بنى القرى و أثار معادن كثيرة و كنز فى صحراء الشرق عدّة كنوز، و كان يحب الحكمة، ثم تجبر و علا أمره، و أمر أن لا يجلس أحد فى مجلسه، و لا فى قصر الملك، لا كاهن و لا غيره، بل يقومون على أرجلهم حتى يمضوا، و زاد فى أذى الناس و العنف بهم، و ممنع فضول ما بأيديهم و قصرهم على القوت، و جمع أموالهم و طلب النساء، و انتزع كثيرا منهنّ و فعل أكثر مما فعله من تقدّم قبله، و استعبد بنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢۶٧

إسرائيل، و قتل جماعة من الكهنة، فأبغضه الخاص و العام، و ثار ظلما بالصعيد، و كاتب وجوه الناس فكتب لاطيس بصرفه عن العمل، فامتنع و حارب عساكره، و زحف حتى دخل منف.

ظلما بن قومس: فرعون موسى، يقال: إن اسمه الوليد بن مصعب بن اراهون بن الهلوت بن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع بن عابر

بن اشليخا بن لود بن سام بن نوح، و إنه من العمالقة، و كان قصيرا طويل اللحية أشهل العين اليمنى صغير العين اليسرى، أعرج، و زعم قوم: أنه من القبط و أن نسبه و نسب أهل بيته مشهور عندهم، و قيل غير ذلك، و كان من خبره ما ذكرنا فى كنيسة دموة.

و قال ابن عبد الحكم: و لما أغرق اللّه فرعون بقيت مصر بعد غرقه، ليس فيها من أشراف أهلها أحد، و لم يبق إلا العبيد و الأجراء و النساء، فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا، و أجمع رأيهنّ أن يولين امرأة يقال لها: دلوكة.

فملكت دلوكة ابنة زبا: و يقال: دلوكة بنت قاران، و كان لها عقل و تجارب و معرفة، و كانت فى شرف منهنّ، و هى يومئذ بنت مائة و ستين سنة، فبنت جدارا حصنت به مصر من الأعداء، و كان من حدّ زنج إلى إفريقية إلى الواحات إلى بلد النوبة على كل موضع منه حرس قيام ليلهم، و نهارهم يقدون النار وقودا لا يطفأ أبدا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها فى ستة أشهر، و هو حائط العجوز، و فى أيامها، بنت تدورة الساحرة البرابى فى وسط منف، فملكتهم دلوكة عشرين سنة حتى بلغ صبىّ من أبناء أكابرهم يقال له: دركون بن بلاطس، ثم مات و استخلف ابنه تودست، ثم توفى تودست بن دركون، فاستخلف أدقاش، فلم يملك إلا ثلاث سنين، حتى مات فاستخلف أخوه مرينا بن مرينوس، ثم توفى فاستخلف أستادس بن مرينا، فطغى و تكبر و سفك الدم و أظهر الفاحشة، فخلعوه و قتلوه و بايعوا رجلا من أشرافهم يقال له: بلطوس بن مينا كيل، فملكهم أربعين سنة، ثم توفى فقام ابنه مالوس، ثم توفى مالوس، فاستخلف أخوهميناكيل بن بلطوس بن ميناكيل، فملكهم زمانا، ثم توفى و استخلف ابنه نوله بن ميناكيل، فملكهم مائة و عشرين سنة، و هو الأعرج الذى سبى ملك بيت المقدس، و قدم به إلى مصر، و كان قد تمكن و طغى و بلغ مبلغا لم يبلغه أحد ممن قبله بعد فرعون، فصرعته دابته، فمات.

و قيل له: الأعرج، لأنه لما غزا أهل بيت المقدس و نهبهم، و سبى ملكهم يوشيا بن أمون بن منشا بن حزقيا، همّ أن يصعد على كرسىّ نبىّ اللّه سليمان بن داود، و كان بلولب لا يمكن أحدا أن يصعد عليه إلا برجليه جميعا، فصعد برجل واحدة، و هى اليمنى، فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت، فلم يزل يجمع بها إلى أن مات، فلذلك سمى الأعرج.

فاستخلف مرينوس بن نولة، فملكهم زمانا، ثم توفى و استخلف ابنه قرقورة، فملكهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٦٨

ستين سنة، ثم توفى و استخلف أخوه نقاس بن مرنيوس، و انهدم البربا فى زمنه، فلم يقدر أحد على إصلاحه، ثم توفى نقاس و استخلف ابنه قوميس بن نقاس، فملكهم دهرا و حاربه بخت نصر و قتله، و خرّب مدينة منف، و غيرها من المدائن و سبى أهل مصر، و لم يترك بها أحدا حتى بقيت أرض مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن.

و ذكر فى ترجمة كتاب هروشيش الأندلسىّ فى وصف الدول و الحروب، أنّ فيما بين غرق فرعون موسى إلى مائة و سبع سنين، كان بمصر ملك يسمى نوشردس كان يقتل الغرباء، و الأضياف و يذبحهم لأوثانه، و يجعل دماءهم قربانا لها، و أن بعد غرق فرعون إلى ثلثمائة و ثمان و عشرين سنة، كان بمصر ملك يسمى: بروبة، و كان عظيم المملكة قوىّ السلطان أخذ بالحرب أكثر نواحى الجنوب برّا و بحرا، و هو أوّل من حارب الروم الذين قيل لهم بعد ذلك الغوط، و كان قد أرسل إليهم يدعوهم إلى طاعته، و يخوّفهم حربه، فأجابوه ليس من الرأى المحمود للملك الغنىّ محاربة قوم فقراء لكثرة نوازل الحروب، و اختلاف حوادثها بالظفر و الهلاك، و إنا لا ننتظر مجيئك، بل نسرع لغارتك، و أتبعوا قولهم عملا، و خرج فرعون إليهم، فخرجوا مسرعين إليه و هزموا جيوشه، و نهبوا عساكره و أمواله و عدده، و جميع ذخائره و مضوا فنهبوا أرض مصر حتى كادوا يغلبون عليها لولا و حول عرضت لهم منعتهم مما خلفها، ثم انصرفوا إلى بلاد الشام بحروب متصلة، حتى أذلوا أهلها، و جعلوهم يؤدّون إليهم المغارم، و أقاموا محاربين لمن خالفهم فى غزوتهم خمس عشرة سنة، و لم ينصرفوا إلى بلادهم حتى أتتهم من نسائهم من يقلن لهم: إما أن تنصرفوا، و إما أن تتخذ الأزواج و نطلب النسل من عند المجاورين لنا، فعند ذلك انصرفوا إلى بلادهم، و قد امتلأت أيديهم أموالا و أوقارا جمة، و قد خلفوا وراءهم ذكرا مفزعا.

و يقال: إنّ ملوك مدين ملكوا مصر، خمسمائة عام بعد غرق فرعون، و هلاك دلوكة حتى أخرجهم منها نبيّ اللّه سليمان بن داود، فعاد الملك بعدهم إلى القبط، و إنّ جالوت بن بالوت، لما قتله داود، سار ابنه جالوت بن جالوت إلى مصر، و بها ملوك مدين، فأنزله ملك مصر، بالجانب الغربيّ، فأقام بها مدّة ثم سار إلى بلاد الغرب.

و يقال: إنّ القبط ملكوا مصر بعد دلوكة، و ابنها مدّة ستمائة سنة و عشرين سنة، و عدّتهم سبعة و عشرون ملكا، هم: ديوسقوليطا، و مدّته ثمان و سبعون سنة، و قيل: ثمان و ثمانون سنة.

ثم ملك بعده سمانادوس، ستا و عشرين سنة، و قام بعده سوماناس مدّة مائة سنة، ثم ملك مفخراس أربع سنين، ثم ملك أماناقوناس تسع سنين، ثم اسحوريس ست سنين، ثم فسيناخس تسع سنين، ثم فسوسانس خمسا و ثلاثين سنة، ثم ملك سسوناخوسيس إحدى و عشرين سنة، ثم ملك اساليون خمس عشرة سنة، ثم طافالونيس ثلاث عشرة سنة، ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٦٩

نطافاناسطلس خمسا و عشرين سنة، ثم أساراثون تسع سنين، ثم ملك فسامرس عشر سنين، ثم أوفاينواس أربعا و أربعين سنة، ثم ساياقور اثنتى عشرة سنة، ثم سخس الحبشى اثنتى عشرة سنة ثم طراحوش الحبشى عشرين سنة، ثم أمراس الحبشى اثنتى عشرة سنة، ثم استطافينياس سبع سنين، ثم باخفاسوس ست سنين، ثم ياخو ثمان سنين، ثم فساماملطيقوش أربعا و أربعين سنة، ثم بحنوقا ست سنين، ثم فسامرتاس سبع عشرة سنة، ثم و افرس خمسا و عشرين سنة، ثم أماسلس اثنتين و أربعين سنة.

و ملك بعد هؤلاء: مصر خمسة ملوك من ملوك بابل، و هم: أمرطيوش ست سنين، ثم ما فرطاس سبع سنين، ثم أوخرس اثنتى عشرة سنة، ثم فساموت مدّة سنتين، ثم ملك موتاطوس سبع سنين.

ثم ملك ثلاثة ملوك من أثور، و هم: الجرامقة الذين ملكوا الموصل و الجزيرة، و هم:

نافاطانبوش ثلاث عشرة سنة، ثم طوس سبع سنين، ثم نافاطانياس ثمان عشرة سنة.

ثم انتقل ملك مصر منهم: إلى الإسكندر بن فيلبس اليونانى، و هذه أسماء رومية، و لعلها أو بعضها متداخل فيما تقدّم ذكره ممن ملك بعد دلوكة.

و بين بخت نصر، و بين الطوفان ألفا سنة و ثلثمائة و ست و خمسون سنة و أشهر، و يجتمع من حساب ما وقع فى التوراة، أنّ بين الطوفان، و بين خراب بيت المقدس على يد بخت نصر من السنين، ألفا و ستمائة و أربعا و ثمانين سنة، و هذا خلاف ما نقله المسعودىّ، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

ذكر مدينة الإسكندرية

اشارة

هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا و أقدمها وضعا، و قد بنيت غير مرّة، فأوّل ما بنيت بعد كون الطوفان فى زمان مصرايم بن بيصر بن نوح، و كان يقال لها: إذ ذاك مدينة رقودة، ثم بنيت بعد ذلك مرّتين.

فلما كان فى أيام اليونانيين، جدّدها الإسكندر بن فيلبس المقدونىّ الذى قهر دارا، و ملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف، بمائة و عشرين سنة شمسية، فعرفت به، و منذ جدّدها الإسكندر المذكور انتقل تخت المملكة من مدينة منف إلى الإسكندرية، فصارت دار المملكة بديار مصر، و لم تزل على ذلك حتى ظهر دين الإسلام، و قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين، و فتح الحصن و الإسكندرية، و صارت ديار مصر أرض إسلام، فانتقل تخت الملك حينئذ من الإسكندرية إلى فسطاط مصر، و صار الفسطاط من بعد الإسكندرية دار مملكة ديار مصر.

و سأقص عليك من أخبار الإسكندرية ما وصل إليه علمى، إن شاء اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧٠

ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: أنّ الكوكة، و هى أمّة فى غابر الدهر من أهل أيلة ملكوا الأرض و قسموها على ثلاثين كورة، و أربعة أقسام، كل قسم عمل، و بنوا فى كل عمل، مدينة بها ملك يجلس على منبر من ذهب، و له بربا، و هى بيت الحكمة، و له هيكل على اسم كوكب فيه أصنام من ذهب، و جعلوا الإسكندرية و اسمها رقودة، خمس عشرة كورة، و جعلوا فيها كبار الكهنة، و نصبوا فى هياكلها من أصنام الذهب أكثر مما نصبوا فى غيرها، فكان ما بها مائتا صنم من ذهب، و قسموا الصعيد ثمانين كورة على أربعة أقسام و ثلاثين مدينة فيها جميع العجائب.

و ذكر بطليموس فى كتاب الأقاليم و وصف الجزائر و البحار و المدن: أنّ مدينة الإسكندرية لبرج الأسد و دليلها المرّيخ، و ساعاتها أربع عشرة ساعة، و طولها ستون درجة و نصف درجة يكون ذلك أربع ساعات مستوية و ثلث عشر ساعة.

و قال ابن وصيف شاه فى ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن نوح، و علمهم أيضا عمل الطلسمات، و كانت تخرج من البحر دواب تفسد زرعهم و جنانهم و بنيانهم، فعملوا لها الطلسمات، فغابت، و لم تعد و بنوا على غير البحر مدنا منها مدينة رقودة مكان الإسكندرية، و جعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب، و القبة مذهبة و نصبوا فوقها، مرآة من أخلاط شتى، قطرها خمسة أشبار و ارتفاع القبة مائة ذراع، فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم، فإن كان مما يهمهم، و كان من البحر عملوا لتلك المرآة عملا، فألقت شعاعها على ذلك الشيء فأحرقته، فلم تزل إلى أن غلب البحر عليها.

و يقال: إنّ الإسكندر إنما عمل المنارة تشبيها بها، و كان عليها أيضا مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم، فاحتال عليهم بعض ملوكهم، و وجه إليها من أزالها، و كانت من زجاج مدبر.

قال: و ذكر بعض القبط أنّ رجلا من بنى الكهنة الذين قتلهم، ايساد ملك مصر سار إلى ملك كان فى بلاد الإفرنجة، فذكر له كثرة كنوز مصر و عجائبها، و ضمن له أن يوصله إلى ملكها و أموالها و يرفع عنه أذى طلسماتها حتى يبلغ جميع ما يريد، فلما اتصل صا بن مرقونس أخى ايساد، و هو ملك مصر يومئذ، أنّ صاحب بلاد الإفرنجة يتجهز إليه عمد إلى جبل بين البحر الملح و شرقىّ النيل، فأصعد إليه أكثر كنوزه، و بنى عليها قبابا مصفحة بالرصاص، و ظهر صاحب بلاد الإفرنجة فى ألف مركب، فكان لا يمرّ بشىء من أعلام مصر و منازلها إلا هدمه، و كسر الأصنام بمعونة ذلك الكاهن، حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها، و فيما حولها و هدم أكثر معالمها إلى أن دخل النيل من ناحية رشيد، و صعد إلى منف، و أهل النواحى يحاربونه، و هو ينهب ما مرّ به، و يقتل ما قدر عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة لأخذ كنوزها، فوجدها ممتنعة بالطلسمات الشداد، و المياه العميقة و الخنادق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧١

و الشداخات، فأقام عليها أياما كثيرة، فلم يمكنه الوصول إليها و غضب على الكاهن، فقتله من أجل أنّ جماعة من أصحابه هلكوا، فاجتمع أهل النواحى، و قتلوا من أصحابه الذين بالمراكب خلقا، و أحرقوا بعض المراكب، و قام أهل مصر بسحرهم و تهاويلهم فأتت رياح أغرقت أكثر مراكبه حتى نجا بنفسه، و قد خرج فعاد الناس إلى منازلهم و قراهم، و رجع الملك صا إلى مدينة منف، و أقام بها، و تجهز لغزو بلدان الروم، و بعث إليها و خرّب الجزائر فهابته الملوك، و تتبع الكهنة فقتل منهم خلقا كثيرا، و أقام ملكا سبعا و ستين سنة، و مات و عمره مائة و سبعون سنة، و دفن بمنف فى وسطها تحت الأرض، و معه الأموال و الجواهر و التماثيل و الطلسمات، كما فعل آباؤه منها: أربعة آلاف مثقال ذهبا على صور حيوانات برّية و بحرية، و تمثال عقاب من حجر أخضر، و تمثال تنين من ذهب، و زبروا عليها اسمه، و غلبته الملوك و سيرته، و عهد إلى ابنه تدراس.

قال: و لما جلست جورياق ابنة طوطيس، أوّل فراعنة مصر، و هو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام على سرير الملك بعد قتلها لأبيها، و عدت الناس بالإحسان، و أخذت فى جمع الأموال، فاجتمع لها ما لم يجتمع لملك، و قدّمت الكهنة و أهل الحكمة، و رؤساء

السحرة، و رفعت أقدارهم، و أمرت بتجديد الهياكل و صار من لم يرضها إلى مدينة أتريب، و ملكوا عليها رجلا من ولد أتريب يقال له: إيداخس، فعقد على رأسه تاجا، و اجتمع إليه جماعة، فأنفذت إليه جيشا فهزموه، و قتلوا أكثر أصحابه فهرب إلى الشام، و بها الكنعانيون فاستغاث بملكهم، فجهزه بجيش عظيم ففتحت جورياق الخزائن و فرّقت الأموال و قوّت السحر، فعملوا أعمالهم و تقدّم إيداخس بجيوش الكنعانيين، و عليها قائد منهم يقال له:

جيرون.

فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرا لها من عقلاء النساء، إلى القائد سرّا عن إيداخس تعرّفه رغبتها فى تزوّجه، و أنها لا تختار أحدا من أهل بيتها، و أنه إن قتل إيداخس تزوّجت به و سلمته ملك مصر، ففرح بذلك، و سمّ إيداخس بسمّ أنفذته إليه فقتله، و بعثت إليه بعد قتل إيداخس أنه لا يجوز أن أتزوّجك حتى يظهر قومك فى بلدى، و تبنى لى مدينة عجيبة، و كان افتخارهم حينئذ بالبنيان و إقامة الأعلام، و عمل العجائب، و قالت: انتقل من موضعك إلى غربىّ بلدى فثم آثار لنا كثيرة، فاقتف تلك الأعمال و ابن عليها، ففعل، و بنى مدينة فى صحراء الغرب، يقال لها: قيدومة، و أجرى إليها من النيل نهرا و غرس حولها غروسا كثيرة، و أقام بها منارا عاليا فوقه منظر مصفح بالذهب و الفضة و الزجاج و الرخام، و هى تمدّه بالأموال و تكاتب صاحبه عنه و تهاديه، و هو لا يعلم.

فلما فرغ منها قالت له: إنّ لنا مدينة أخرى حصينة كانت لأوائلنا، و قد خرّبت منها أمكنة، و تشعث حصنها، فامض إليها و اعمل فى إصلاحها حتى أنتقل أنا إلى هذه المدينة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧٢

التى بنيتها، فإذا فرغت من إصلاح تلك المدينة، فانفذ إلىّ جيشك حتى أصير إليك و أبعد عن مدينتى و أهل بيتى فإنى أكره أن تدخل علىّ بالقرب منهم، فمضى، و جدّ فى عمل الإسكندرية الثانية.

و أهل التاريخ يذكرون أنّ الذى قصدها الوليد بن دومع العمليقى ثانى الفراعنة، و كان سبب قصدها أنه كان به علة فوجه إلى الأقطار ليحمل إليه من مائها حتى يرى ما يلائمه، فوجه إلى مملكة مصر غلاما، فوقف على كثرة خيراتها، و حمل إليه من مائها و ألطافها، و عاد إليه فعرّفه حال مصر، فسار إليها فى جيش كثيف، و كاتب الملكة يخطبها لنفسه، فأجابته و شرطت عليه أن يبنى لها مدينة يظهر فيها أيده و قوّته، و يجعلها لها مهرا، فأجابها و شق مصر إلى ناحية الغرب، فبعثت إليه أصناف الرياحين و الفواكه و خلقت وجوه الدواب، فمضى إلى الإسكندرية، و قد خربت بعد خروج العادية منها فنقل ما كان من حجارتها و معالمها و عمدها، و وضع أساس مدينة عظيمة، و بعث إليها مائة ألف فاعل، و أقام فى بنائها مدّة، و أنفق جميع ما كان معه من المال و كلما بنى شيئا خرج من البحر دواب فتقلعه، فإذا أصبح لم يجد من البناء شيئا، فاهتم لذلك، و كانت جورياق قد أنفذت إليه ألف رأس من المعز اللبون يستعمل ألبانها فى مطبخه، و كانت مع راع تثق به يرعاها هنالك، فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء، فتتوق نفسه إليها، فإذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه، فإن صرعها، كانت له، و إن صرعته، أخذت من المعز رأسين، فكانت طول الأيام تصرعه، و تأخذ الغنم، حتى أخذت أكثر من نصفها و تغير باقيها لشغله بحبّ الجارية عن رعيها و نحل جسمه، فمرّ به صاحبه و سأله عن حاله، فأخبره الخبر خوفا من سطوته، فلبس ثياب الراعى، و تولى رعى الغنم يومه إلى المساء، فخرجت إليه الجارية و شرطت عليه الشرط، فأجابها و صارعها فصرعها و شدّها فقالت: إن كان و لا بدّ من أخذى، فسلمنى لصاحبى الأول، فإنه ألطف بى و قد عذبته مدّة، فردّها إليه، و قال له: سلها عن هذا البنيان الذى نبنيه، و يزال من ليلته من يفعل ذلك؟ و هل فى ثباته من حيلة؟ فسألها الراعى عن ذلك، فقالت: إنّ دواب البحر التى تنزع بنيانكم، فقال: فهل من حيلة؟ قالت:

نعم، تعملون توابيت من زجاج كثيف بأغطية، و تجعلون فيها أقواما يحسنون التصوير، و يكون معهم صحف و أنقاش، و زاد يكفيهم أياما و تحمل التوابيت فى المراكب بعد ما تشدّ بالحبال فإذا توسطوا الماء أمروا المصوّرين أن يصوّروا جميع ما يمرّ بهم، ثم ترفع تلك التوابيت فإذا وقفتم على تلك الصور فاعملوا لها أشباها من صفر أو حجارة أو رصاص و انصبوها قدّام البنيان الذى تبنونه من

جانب البحر، فإنّ تلك الدواب إذا خرجت، و رأت صورها هربت، و لم تعد، فعرّف الراعى صاحبه ذلك ففعله، و تمّ البنيان و بنى المدينة.

و قال قوم: إنّ صاحب البناء و الغنم هو جيرون، كان قصدهم قبل الوليد، و إنما أتاهم الوليد بعد جورياق و قهرهم و ملك مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧٣

و ذكروا: أنّ الأموال التى كانت مع جيرون نفدت كلها فى تلك المدينة، و لم تتم، فأمر الراعى أن يخبر الجارية فقالت: إنّ فى المدينة التى خربت ملعبا مستديرا حوله سبعة عمد على رؤوسها تماثيل من صفر قيام، فقرّب لكل تمثال منها ثورا سمينا، و لطخ العمود الذى تحته من دم الثور، و بخره بشعر من ذنبه، و شيء من نحاتة قرونه و أظلافه، و قل له:

هذا قربانك، فأطلق لى ما عندك، ثم قس من كل عمود إلى الجهة التى يتوجه إليها وجه التمثال، مائة ذراع، و احفر عند امتلاء القمر، و استقامة زحل، فإنك تنتهى بعد خمسين ذراعا إلى بلاطة عظيمة، فلطخها بمرارة الثور، و أقلها فإنك تنزل إلى سرب طوله، خمسون ذراعا فى آخره خزانة مقفلة، و مفتاح القفل تحت عتبة الباب، فخذه و لطخ الباب ببقية المرارة و دم الثور و بخره بنحاتة قرونه و أظلافه و شعر ذنبه، و أدخل فإنه يستقبلك صنم فى عنقه لوح من صفر مكتوب فيه جميع ما فى الخزانة فخذ ما شئت و لا تعترض ميتا تجده و لا ما عليه، و كذلك كل عمود و تمثاله فإنك تجد مثل تلك الخزانة، و هذه نواويس سبعة من الملوك و كنوزهم، فلما سمع ذلك سرّ به، و امتثله فوجد ما لا يدرك وصفه، و وجد من العجائب شيئا كثيرا، فتمّ بناء المدينة و بلغ ذلك جورياق، فساءها و كانت قد أرادت إتعابه و هلاكه بالحيلة.

و يقال: إنه وجد فيما وجد درجا من ذهب مختوما فيه مكحلة زبرجد فيها ذرور أخضر، و معها عرق أحمر من اكتحل من ذلك الذرور بالعرق، و كان أشيب عاد شابا و اسودّ شعره، و أضاء بصره حتى يدرك الروحانيين، و وجد تمثالا من ذهب إذ ظهر غيمت السماء و أمطرت، و تمثال غراب من حجر إذا سئل عن شيء صوّت و أجاب عنه، و وجد فى كل خزانة عشر أعجوبات.

فلما فرغ من بناء المدينة وجه إلى جورياق يحثها على القدوم إليه، فحملت إليه فرشا فاخرا ليبسطه فى المجلس الذى يجلس فيه، و قالت له: اقسم جيشك أثلاثا، فانفذ إليّ ثلثه حتى إذا بلغت ثلث الطريق، فانفذ الثلث الآخر، فإذا جزت نصف الطريق، فانفذ الثلث الباقى ليكونوا من ورائى لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك، و لا يكون عندك إلا صبية تثق بهم يخدمونك، فإنى أوافيك فى جوار تكفيك الخدمة، و لا أحتشمهنّ، ففعل.

و أقامت تحمل الجهاز إليه و الأموال حتى علم بمسيرها فوجه إليها ثلث جيشه، فعملت لهم الأطعمة و الأشربة المسمومة، و أنزلهم جواريها و حشمها، و قدّموا إليهم الأطعمة و الأشربة، و الطيب و أنواع اللهو، فلم يصبح منهم أحد حيا، و سارت فلقيها الثلث الآخر، ففعلت به مثل ذلك و هى توجه إليه أنها أنفذت جيشه إلى قصرها و مملكتها يحفظونهما، و سارت حتى دخلت عليه هى و ظئرها و جواريها، فنفخت ظئرها فى وجهه نفخة بهت إليها، و رشت عليه ما كان معها، فارتعدت أعضاؤه و قال: من ظنّ أنه يغلب النساء، فقد كذبته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧٤

نفسه و غلبته النساء، ثم إنها فصدت عروقه و قالت: دماء الملوك شفاء، و أخذت رأسه و وجهت به إلى قصرها، و نصبته عليه و حوّلت تلك الأموال إلى مدينة منف، و بنت منارا بالإسكندرية، و زبرت عليه اسمها و اسمه، و ما فعلت به و تاريخ الوقت.

فلما بلغ خبرها الملوك هابوها و أطاعوها و هادوها، و عملت بمصر عجائب كثيرة، و بنت على حدّ مصر من ناحية النوبة حصنا، و قنطرة يجرى ماء النيل من تحتها، و اعتلت فقلدت ابنة عمها زلفى بنت مأمون و ماتت.

و قال ابن خرداذبه: إنّ الإسكندرية بنيت فى ثلثمائة سنة، و أنّ أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا بخرق سود مخافة على أبصارهم من شدّة بياض حيطانها و منارتها العجيبة على سرطان زجاج فى البحر، و إنه كان فيها سوى أهلها ستمائة ألف من اليهود

خول لأهلها.

و قال ابن وصيف شاه: و كانت العمارة ممتدّة فى رمال رشيد و الإسكندرية إلى برقة فكان الرجل يسير فى أرض مصر، فلا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه و الخيرات، و لا- يسير إلا- فى ظلال تستره من حرّ الشمس، و عمل الملك صا بن قبطيم فى تلك الصحارى قصورا، و غرس فيها غروسا و ساق إليها من النيل أنهارا فكان يسلك من الجانب الغربىّ إلى حد الغرب فى عمارة متصلة، فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى، و خربت تلك المنازل و باد أهلها، و لا يزال من دخل تلك الصحارى يحكى ما رآه فيها من الآثار و العجائب.

و قال ابن عبد الحكم: و كان الذى بنى الإسكندرية، و أسس بناءها: ذو القرنين الرومىّ، و اسمه: الإسكندر، و به سميت: الإسكندرية، و هو أوّل من عمل لوشى، و كان أبوه أوّل القياصرة، و قيل: إنه رجل من أهل مصر اسمه مرزبا بن مرزبه اليونانىّ من ولد يونان بن يافث بن نوح صلى اللّه عليه و سلم، و قيل: كان من أهل لوبية كورة من كور مصر الغربية، و قال ابن لهيعة: و أهلها روم و يقال: هو رجل من حمير. قال تبع:

قد كان ذو القرنين جدّى مسلماملكا تدين له الملوك بمحشد

بلغ المغارب و المشارق يبتغى أسباب علم من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبهافى عين ذى خلب و ثأط حرمد

و يروى: قد كان ذو القرنين قبلى مسلما، و حدّثنى عثمان بن صالح، حدّثنى عبد اللّه بن وهب، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن سعد بن مسعود التجيبىّ، عن شيخين من قومه قالا: كنا بالإسكندرية فاستطلنا يومنا، فقلنا: لو انطلقنا إلى عقبة بن عامر نتحدّث عنده، فانطلقنا إليه فوجدناه جالسا فى داره، فأخبرنا: إنا استطلنا يومنا، فقال: و أنا مثل ذلك! إنما خرجت حين استطلته، ثم أقبل علينا فقال: كنت عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أخدمه، فإذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۷۵

أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف أو كتب فقالوا: استأذن لنا على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فانصرفت إليه، فأخبرته بمكانهم، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «ما لى و لهم يسألونى عما لا أدرى إنما أنا عبد لا أعلم إلا ما علمنى ربى». ثم قال: «أبلغنى و ضوءا» فتوضأ، ثم قام إلى مسجد بيته، فركع ركعتين، فلم ينصرف حتى عرفت السرور فى وجهه و البشر، ثم انصرف فقال: أدخلهم و من وجدت بالباب من أصحابى، فأدخله قال: فأدخلتهم فلما وقفوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال لهم: «إن شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا و إن أحببتم تكلمتم، و أخبرتكم»، قالوا: بلى، أخبرنا قبل أن نتكلم، قال: «أحببتم أن تسألونى عن ذى القرنين، و سأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم إن أول أمره إنه غلام من الروم أعطى ملكا، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر، فابتنى عنده مدينة يقال لها:

الإسكندرية، فلما فرغ من بنائها أتاه ملك، فعرج به حتى استقله فرفعه فقال: انظر ما تحتك، فقال: أرى مدينتى، و أرى مدائن معها، ثم عرج به، فقال: انظر! فقال: قد اختلطت مدينتى مع المدائن، فلا أعرفها، ثم زاد، فقال: انظر! فقال: أرى مدينتى وحدها و لا أرى غيرها، قال له الملك: إنما تلك الأرض كلها و الذى ترى يحيط بها هو البحر، و إنما أراد بك أن يريك الأرض، و قد جعلك لك سلطانا فيها سوف يعلم الجاهل، و يثبت العالم، فسار حتى بلغ مغرب الشمس، ثم سار حتى بلغ مطلع الشمس، ثم أتى السدّين و هما جبلان لينان يزلق عنهما كل شىء فبنى السدّ، ثم جاز يأجوج و مأجوج فوجد قوما وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج و مأجوج، ثم قطعهم فوجد أمّة قصارا يقاتلون القوم الذين وجوههم وجوه الكلاب، و وجد أمّة من الغرانيق يقاتلون القوم القصار، ثم مضى فوجد أمّة من الحيات تلتقم الحية منها الصخرة العظيمة، ثم أفضى إلى البحر المدير بالأرض فقالوا: نشهد أن أمره هكذا كما ذكرت و إنا نجده هكذا فى كتابنا» .

و عن خالد بن معدان الكلاعيّ: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم سئل عن ذى القرنين فقال: «ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب».

قال خالد: و سمع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه رجلا يقول: يا ذا القرنين، فقال:

اللهم غفرا أما رضيتم أن تسموا بالأنبياء حتى تسميتم بالملائكة.

و قال قتادة، عن الحسن: كان ذو القرنين ملكا و كان رجلا صالحا، قال: و إنما سمى ذا القرنين لأنّ عليا رضى اللّه عنه سئل عن ذى القرنين، فقال: لم يكن ملكا و لا نبيا و لكن كان عبدا صالحا أحب اللّه فأحبه و نصح للّه فنصحه اللّه بعثه اللّه عز و جل إلى قومه فضربوه على قرنيه فمات، فسمى ذا القرنين، و يقال: إنما سمى ذا القرنين لأنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧۶

جاوز قرنى الشمس من المغرب و المشرق.

و يقال: إنما سمى ذا القرنين لأنه كان له غديرتان من شعر رأسه يطأ فيهما، و قيل: بل كان له قرنان صغيران تواريهما العمامة.

و عن ابن شهاب: إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها و قرن الشمس من مشرقها.

و عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: كان أوّل شأن الإسكندرية أنّ فرعون اتخذ بها مصانع و مجالس، و كان أوّل من عمرها و بنى فيها، فلم تزل على بنائه و مصانعه، ثم تداولها ملوك مصر بعده فبنت دلوكة بنت زبا منارة الإسكندرية و منارة بوقير بعد فرعون، فلما ظهر سليمان بن داود عليهما السلام على الأرض اتخذ بها مجلسا، و بنى فيها مسجدا، ثم إن ذا القرنين ملكها، فهدم ما كان من بناء الملوك و الفراعنة، و غيرهم إلا بناء سليمان لم يهدمه، و لم يغيره، و أصلح ما كان رث منه، و أقرّ المنارة على حالها، ثم بنى الإسكندرية من أوّلها بناء يشبه بعضه بعضا ثم تداولها الملوك بعده من الروم و غيرهم، ليس من ملك إلا يكون له بناء يضعه بالإسكندرية يعرف به، و ينسب إليه.

قال ابن لهيعة: و بلغنى أنه وجد بالإسكندرية حجر مكتوب فيه: أنا شدّاد بن عاد، و أنا الذى نصب العماد، و حيّد الأحياد، و شدّ بذراعه الواد بنيتهنّ إذ لا شيب و لا موت، و إذ الحجارة فى اللين مثل الطين، و فى رواية: و كنزت فى البحر كنزا على اثنى عشر ذراعا لن يخرجه أحد حتى تخرجه أمّة محمد صلى اللّه عليه و سلم.

قال ابن لهيعة: و الأحياد كالمغار، و قال أبو على القاليّ فى كتاب الأمالى، و أنشد ابن الأعرابيّ و غيره:

تسألنى عن السنين كم لىفقلت عمر الحسل

أو عمر نوح زمن الفطحللو أننى أوتيت علم الحكل

و عشت دهرا زمن الفطحللكنت رهن هرم أو قتل

و فى رواية:

علم سليمان كلام النملأيام كان الصخر مثل الوحل

و قال آخر: زمن الفحطل إذ السلام رطاب، و عندهم أنّ زمن الفحطل: زمان كان بعد الطوفان عظم فيه الخصب، و حسنت أحوال أهله، و قال بعضهم: زمن الفحطل زمن لم يخلف بعده، و قوله: علم الحكل، الحكل ما لا يسمع صوته من الحيوان، و هذا الرجز لرؤبة بن العجاج بن رؤبة بن لبيد بن صخر بن كثيف بن حيى بن بكر بن ربيعة بن سعد بن مالك بن زيد مناة بن تميم، و ذلك أنه ورد ماء لعكل، فرأى فتاة فأعجبته، فخطبها، فقالت:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧٧

أرى سنا، فهل من مال؟ قال: نعم قطعة من إبل، قالت: فهل من ورق؟ قال: لا، قالت:

يا آل عكل أكبروا أمعارا. فقال رؤبة:

لما ازدرت قدرى و قلت إبلى تألفت و اتصلت بعكل

حظى و هزت رأسها تستبلى تسألنى عن السنين كم لى

فقلت لو عمرت عمر الحسل أو عمر نوح زمن الفطحل

و الصخر مبتلّ كطين الوحل و فى رواية:

لو أننى أوتيت علم الحكل علم سليمان كلام النمل

و سألت أبا بكر بن دريد عن زمن الفطحل، فقال: تزعم العرب أنه زمان كانت فيه الحجارة رطبة.

قال ابن عبد الحكم، و يقال: إنّ الذى بنى الإسكندرية شدّاد بن عاد، و اللّه أعلم.

و كانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض منيعة، و هى موضع المنارة و ما والاها، و الإسكندرية و هى موضع قصبة الإسكندرية اليوم و نفيطة، و كان على كل واحدة منهنّ سور و سور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهنّ جميعا، و قيل: كان على الإسكندرية سبعة حصون منيعة و سبعة خنادق، قال: و إنّ ذا القرنين لما بنى الإسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها و أرضها، فكان لباسهم فيها السواد و الحمرة، فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام، و لم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام، و إذا كان القمر أدخل الرجل الذى يخيط بالليل فى ضوء القمر مع بياض الرخام الخيط فى ثقب الإبرة.

و يقال: بنيت الإسكندرية فى ثلثمائة سنة، و سكنت ثلثمائة سنة، و خربت ثلثمائة سنة، و لقد مكثت سبعين سنة ما يدخلها أحد إلا و على بصره خرقة سوداء من بياض جصها و بلاطها، و لقد مكثت سبعين سنة ما يستسرج فيها، قال: و كانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل و النهار، و كانوا إذا غربت الشمس لم يخرج أحد من بيته، و من خرج اختطف و كان منهم راع يرعى على شاطيء البحر، فكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه، فكمن له الراعى فى موضع حتى خرج، فإذا جارية قد نفشت شعرها و مانعته عن نفسها فقوى عليها فذهب بها إلى منزله، فآنست به، فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس، فسألتهم فقالوا:

من خرج منا اختطف، فهيأت لهم الطلسمات، فكانت أوّل من وضع الطلسمات بمصر فى الإسكندرية، و قيل: كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرة النهار كالعجين فإذا انتصف النهار اشتدّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧٨

و قال المسعودىّ: ذكر جماعة من أهل العلم أنّ الإسكندر المقدونىّ، لما استقام ملكه فى بلاده و سار حتى يختار أرضا صحيحة الهواء و التربة و الماء، حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية، فأصاب فيها أثر بنيان و عمدا كثيرة من الرخام و فى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند، و هو القلم الأوّل من أقلام حمير و ملوك عاد، أنا شدّاد بن عاد شدّدت بساعدى الواد، و قطعت عظيم العماد و شوامخ الجبال، و الأطواد، و بنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، و أردت أن أبنى هنا مدينة كإرم و أنقل إليها كل ذى قدم و كرم من جميع العشائر و الأمم، و ذلك إذ لا خوف و لا هرم و لا اهتمام و لا سقم، فأصابنى ما أعجلنى، و عما أردت قطعنى، و مع وقوعه طال همى و شجنى، و قلّ نومى و سكنى، فارتحلت بالأمس عن دارى، لا لقهر ملك جبار و لا لخوف جيش جرّار، و لا عن رغبة و لا عن صغار، و لكن لتمام المقدار، و انقطاع الآثار، و سلطان العزيز الجبار، فمن رأى أثرى، و عرف خبرى و طول عمرى و نفاد صبرى و شدّة حذرى، فلا يغترّ بالدنيا بعدى، فإنها غرّارة غدّارة، تأخذ منه ما تعطى، و تسترجع منه ما تؤتى، و كلام كثير يرى فناء الدنيا و يمنع من الاغترار بها و السكون إليها.

فنزل الإسكندر مفكرا يتدبر هذا الكلام، و يعتبره ثم بعث يحشر الصناع من البلاد، و خط الأساس، و جعل طولها و عرضها أميالا و جمع إليها العمد و الرخام، و أتته المراكب، فيها أنواع الرخام، و أنواع المرمر و الأحجار من جزيرة صقلية، و بلاد إفريقية و أقريطش، و أقاصى بحر الروم مما يلى مصبه بحر أقيانوس، و حمل إليه أيضا من جزيرة رودس، و أمر الفعلة و الصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة، و جعل على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة، و جعل من الخشبة إلى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض، و

أوصل جميع ذلك بعمود من الرخام، و كان أمام مضربه و علق على العمود جرسا عظيما مصوّتا، و أمر الناس و القوّام على البنائين و الفعلة و الصناع أنهم إذا سمعوا صوت ذلك الجرس، و تحرّكت الجبال، و قد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا حرصوا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطاره، و أحب الإسكندر أن يجعل ذلك فى وقت يختاره و طالع سعد، فحرّك الإسكندر رأسه، و أخذته نعسة فى حال ارتقابه بالوقت المحمود، فجاء غراب، فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحرّكه، و خرج صوت الجرس و تحرّكت الجبال، و خفق ما عليها من الأجراس الصغار، و كان ذلك معمولا بحركات هندسية و حيل حكمية، فلما رأى الصناع تلك الجبال قد تحرّكت، و سمعوا الأصوات وضعوا الأساس دفعة واحدة و ارتفع الضجيج بالتحميد و التقديس، فاستيقظ الإسكندر من رقدته، و سأل عن الخبر فأخبر بذلك فأعجب! و قال: أردت أمرا و أراد اللّه غيره، و يأبى اللّه إلا ما يريد، أردت طول بقائها، و أراد اللّه سرعة فنائها و خرابها، و تداول الملوك إياها و إنّ الإسكندر لما أحكم بناءها، و ثبت أساسها و جنّ الليل عليهم خرجت دواب البحر، فأتت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٧٩

على جميع البنيان، فقال الإسكندر حين أصبح: هذا بدّ و الخراب فى عمارتها، و تحقق مراد البارى سبحانه من زوالها، فتطير من فعل الدواب فلم تزل البناة فى كل يوم تبنى و تحكم، و يوكل من يمنع الدواب إذا خرجت من البحر، فيصبحون و قد خرجت و خرّبت البنيان، فقلق الإسكندر لذلك وراعه ما رأى من البحر! فأقبل يفكر ما الذى يصنع و أىّ حيلة تنفع فى ذلك حتى تدفع الأذية عن المدينة، فسنحت له الحيلة عند خلوّه بنفسه و إيراده الأمور و إصدارها، فلما أصبح دعا الصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع، و جعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها، و قد أمسك ذلك بالقار و الزفت و غيره من الأطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء إلى التابوت، و قد جعل فيها مواضع للحبال، و دخل الإسكندر فى التابوت و رجلان من كتابه ممن له علم بإتقان التصوير، و أمر أن تسدّ عليه الأبواب و أن تطلى بما ذكرنا من الأطلية، و أمر بمركبين عظيمين فأخرجا إلى لجة البحر، و علق فى التابوت من أسفله مثقلات الرصاص و الحديد و الحجارة لتهوى بالتابوت سفلا، و جعل التابوت بين المركبين و ألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا، و شدّ حبال التابوت إلى المركبين و طوّل حباله، فغاص التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر، فنظروا إلى دواب البحر و حيوانه من ذلك الزجاج الشفاف فى صفاء ماء البحر فإذا بصور الشياطين على مثال الناس، و فيهم من له مثل رؤوس السباع، و فى أيديهم الفوس مع بعضهم، و فى أيدى بعضهم المناشير و المقامع يحكون بذلك صناع المدينة و الفعلة، و ما فى أيديهم من آلات البناء، فأثبت الإسكندر و من معه تلك الصور، و حكوها بالتصوير فى القراطيس على اختلاف أنواعها و تشوّه خلقها، و قدودها ثم حرّك الحبال، فلما أحس بذلك من فى المركبين جذبوا الحبال، و أخرجوا التابوت، فخرج الإسكندر، و أمر صناع الحديد و النحاس و الحجارة، فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما صوّر، فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطئ البحر، ثم أمرهم فبنوا، فلما جنّ الليل ظهرت الدواب و الآفات من البحر، فنظرت إلى صورها على العمد مقابلة إلى البحر، فرجعت و لم تعد بعد ذلك، فبنيت الإسكندرية و شيدت، و أمر الإسكندر أن يكتب على أبوابها: هذه الإسكندرية أردت أن أبنيها على الفلاح و النجاح و اليمن و السعادة و السرور و الثبات فى الدهور، و لم يرد البارى عز و جلّ ملك السماوات و الأرض، و مفنى الأمم أن يثبتها كذلك، فبنيتها، و أحكمت بنيانها و شيدت سورها، و آتانى اللّه عز و جل من كل شىء علما و حكمة، و سهل لى وجوه الأسباب، فلم يتعذر علىّ فى العالم شىء مما أردته، و لا امتنع عنى شىء مما طلبته لطفا من اللّه عز و جل، و صنعا لى و صلاحا لعباده من أهل عصرى، و الحمد للّه رب العالمين لا إله إلا هو رب كل شىء، و رسم بعد هذه الكتابة كلّ ما يحدث ببلده من الأحداث بعده فى مستقبل الزمان من الآفات و العمران و الخراب، و ما يؤول أمرها إليه إلى وقت دثور العالم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٨٠

و كان

بناء الإسكندرية طبقات، و تحتها قناطر مقنطرة عليها دور المدينة يسر تحتها الفارس، و بيده رمح لا تضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج و القناطر التى تحت المدينة، و قد عمل لتلك العقود و الآزاج مخاريق و متنفسات للضياء و منافذ للهواء، و قد كانت الإسكندرية تضىء بالليل بغير مصباح لشدّة بياض الرخام و المرمر، و كانت أسواقها و شوارعها و أزقتها مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شىء من المطر، و كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة الألوان بينها خنادق، و بين كل خندق و سور فصول، و ربما تعلق فى المدينة شقاق الحرير الأخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدّة بياضه.

فلما أحكم بناءها، و سكنها أهلها كانت آفات البحر، و سكانه على ما زعم الإخباريون من المصريين و الإسكندريين تختطف بالليل أهل المدينة، فيصبحون، و قد فقد منهم العديد الكثير، فلما علم بذلك الإسكندر اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعى: المسال، و هى باقية إلى هذه الغاية كل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السروة و طول كل واحد منها ثمانون ذراعا على عمد من نحاس، و جعل تحتها صورا و أشكالا و كتابة.

قال مؤلفه رحمه اللّه فيما تقدّم من حكاية ابن وصيف شاه: ما يتبين به و هم ما نقله المسعودىّ، من أن الإسكندر هو الذى عمل التابوت حتى صوّر أشكال حيوانات البحر، فإنّ ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر، و كذلك ما ذكره المسعودىّ من أنّ المسال، من عمل الإسكندر و هم أيضا، بل هذه المسال هى المناير التى كان ينوّر عليها و الأعلام التى كانت ملوك مصر القدماء تنصبها، و هى من أعمال ملوك القبط الأول، و من أعمال الفراعنة الذين ملكوا مصر من قديم الزمان.

ذكر الإسكندر

هو الإسكندر بن فيليبس بن آمنته (و يقال: آمنتاس) بن هركلش (و يقال: هرقول) الجبار، الذى هو ابن الإسكندر الأعظم، ولى أبوه فيليبس الملك فى بلد مجدونية (و يقال:

مقدونية) خمسا و عشرين سنة، استنبط فيها ضروبا من المكر و ابتدع أنواعا من الشرّ تقدّم فيها كل من ولى الملك بها قبله.

و كان فى أوّل أمره قد جعله أخوه الإسكندر رهينة عند أمير من الروم، فأقام عنده ثلاث سنين، و كان فيلسوفا فتعلم عنده ضروب الفلسفة، فلما قتل أخوه الإسكندر، اجتمع الناس على تولية فيليبس فولوه أميرا، فقام فى السلطان مقاما عظيما، فحارب الروم و غلب عليهم و مضى إلى البرية، فقتل بها من الناس آلافا، و غلب على مدائن فاجتمع له جمع لا يقاد، و جيش لا يرام، فأذل جميع الروم و ذهبت عينه فى بعض الحروب، و غمر البلدان و المدائن عمارة و هدما و سبيا و انتهابا، ثم حشد جميع أهل بلد الروم و عبأ عسكرا فيه: مائتا

ألف راجل، و خمسون ألف فارس، سوى من كان فيه من أصحابه المقدونيين، و من غيرهم من أجناس اليونانيين يريد غزو الفرس.

فبينما هو يجمع هذا الجمع نظر فى تزويج ابنة له يقال لها: قلوبطرة من ختنه أخى امرأته، و خال ولده الإسكندر، و جلس قبل العرس بيومين يحدّث قوّاده، إذ سئل عن أىّ الموتات أحق أن يتمناها الإنسان؟ فقال: الواجب على الرجل القوىّ الظافر المجرّب يريد نفسه أن لا يتمنى الموت إلا بالسيف فجأة لئلا يعذبه المرض، و تحل قوّته الأوجاع، فعجل له ما تمنى فى ذلك العرس، و ذلك أنه حضر لعبا كان على الخيل بين ولده الإسكندر، و ختنه الإسكندر، فبينما هو فى ذلك غافله أحد أحداث الروم بطعنة، فقتله بها ثائرا بأبيه عندما تمكن منه منفردا، فولى الإسكندر، الملك بعد أبيه فيليبس، و كان أوّل شىء أظهر فيه قوّته و عزمه فى بلد الروم، و كانوا قد خرجوا عن طاعة المقدونيين إلى طاعة الفرس، فدرسهم و استأصلهم، و خرّب مدنهم و جعلهم سبيا مبيعا، و جعل سائر بلادهم و كورهم تؤدّى إليه الخراج، ثم قتل جميع أختانه، و أكثر أقاربه فى وقت تعبيته لمحاربة الفرس، و كان جميع عسكره اثنين و عشرين ألف فارس، و ستين ألف راجل، و كانت مراكبه خمسمائة مركب و ثمانين مركبا، فحرّك بهذه العدّة كبار ملوك الدنيا، و سار إلى

الإسكندرية و دخل بيت المقدس، و قرّب فيه للّه تعالى قربانا و خرج يريد محاربة دارا، و كان فى عسكر دارا ملك الفرس فى أوّل ملاقاته إياه، ستمائة ألف مقاتل، فغلبه الإسكندر، و كانت إذ ذاك على الفرس وقعة شنعاء و نكبة دهياء قتل فيها منهم عدد لا يحصى، و لم يقتل من عسكر الإسكندر إلا مائة و عشرون فارسا و تسعون راجلا.

و مضى الإسكندر ففتح مدائن و انتهب ما فيها فبلغه أنّ دارا قد عبّأ و أقبل نحوه بجمع عظيم، فخاف أن يلحقه فى ضيق الجبال التى كان فيها، فقطع نحوا من مائة ميل فى سرعة عجيبة، حتى بلغ مدينة طرسوس، و كاد يهلك لفرط البرد حتى انقبض عصبه، فلاقاه دارا فى ثلثمائة ألف راجل، و مائة ألف فارس، فلما التقى الجمعان كاد الإسكندر يفرّ لكثرة ما كان فيه دارا، و قلة ما كان فيه، و وقع القتال بينهما و باشر القوّاد الحرب بأنفسهم، و تنازل الأبطال و اختلف الطعن و الضرب، و ضاق الفضاء بأهله، فباشر كلا الملكين الحرب بأنفسهما، دارا و الإسكندر، و كان الإسكندر أكمل أهل زمانه فروسية و أشجعهم و أقواهم جسما فباشرا حتى جرحا جميعا، و تمادى الحرب بينهما حتى انهزم دارا، و نزلت الوقيعة بالفرس، فقتل من راجلهم نحو من ثمانين ألفا، و من فرسانهم نحو من عشرة آلاف، و أسر منهم نحو من أربعين ألفا، و لم يسقط من عسكر الإسكندر إلا مائتان و ثلاثون راجلا، و مائة و خمسون فارسا، فانتهب الإسكندر جميع عسكر الفرس، و أصاب فيه من الذهب و الفضة و الأمتعة الشريفة ما لا يحصى كثرة، و أصيب من جملة الأسارى: أم دارا و زوجته و أخته و ابنتاه، فطلب دارا من الإسكندر فديتهنّ بنصف ملكه فلم يجبه إلى ذلك، فعبى دارا مرّة ثالثة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٨٢

و حشد الفرس عن آخرهم، و استجاش بكل من قدر عليه من الأمم فبعث الإسكندر قائدا فى أسطول للغارة على بلد الفرس، و مضى الإسكندر إلى الشام، فتلقاه هنالك ملوك الدنيا خاضعين له، فعفا عن بعض، و نفى بعضا، و قتل بعضا، و مضى إلى إحراز طرسوس، و كانت مدينة زاهرة قديمة عظيمة الشأن، و أهلها قد وثقوا بعون أهل إفريقية لهم لصهر كان بينهم، فحاصرهم فيها حتى افتتحها، و مضى منها إلى رودس و إلى مصر، فانتهب الجميع، و بنى مدينة الإسكندرية بأرض مصر، و قال هروشيوش: و له فى بنيانها أخبار طويلة و سياسات كرهنا تطويل كتابنا بها.

ثم إنّ دارا لمّا يئس من مصالحته أقبل فى أربعمائة ألف راجل و مائة ألف فارس، فتلقى الإسكندر مقبلا من ناحية مصر فى أعمال مدينة طرسوس، فكانت بينهما معركة عجيبة شنيعة اجتهادا من الروم على ما كانوا خبروه، و اعتادوا من الغلبة و الظفر، و اجتهادا من الفرس بالتوطين على الهلاك و تفضيل الموت على الرق و العبودية، فقلما يحكى عن معركة كان القتل فيها أكثر منه فى تلك المعركة، فلما نظر دارا إلى أصحابه يتغلب عليهم و يهزمون عزم على استعجال الموت فى تلك الحرب بالمباشرة لها بنفسه، و الصبر حتى يقتل معترضا للقتل، فلطف به بعض قوّاده حتى سلوه، فانهزم و ذهبت قوّة الفرس و عزهم، و ذل بعدها سلطانهم، و صار بلد المشرق كله فى طاعة الروم، و انقطع ملك الفرس مدّة أربعمائة عام و خمسين عاما، و اشتغل الإسكندر بتحصيل ما أصاب فى عسكر الفرس و النظر فيه و قسمته على عسكره ثلاثين يوما، ثم مضى إلى مدينة الفرس التى كانت رأس مملكتهم، و التى اجتمعت فيها أموال الدنيا و نعمها، فهدمها و نهب ما فيها، فبلغه عن دارا أنه صار عند قوم مكبلا فى كبول من فضة، فتهيأ و خرج فى ستة آلاف، فوجده بالطريق مجروحا جراحات كثيرة، فلم يلبث أن هلك منها، فأظهر الإسكندر الحزن عليه و المرثية له، و أمر بدفنه فى مقابر الملوك من أهل مملكته، و كان فى أمر هذه الثلاث معارك عبرة لمن اعتبر، و وعظ لمن اتعظ، إذ قتل فيها من أهل مملكة واحدة نحو من خمسة عشر ألف ألف بين راكب و راجل من أهل بلد آسيا، و هى العراق، و قد كان قتل من أهل تلك المملكة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف إلى ألف ألف ما بين راكب و راجل من أهل بلد العراق و الشام و طرسوس و مصر و جزيرة رودس، و جميع البلدان الذين درسهم الإسكندر أجمعين، و كان سلطان الدنيا مقسوما بين قوّاده بعد ما زلزل بدواهيه العظيمة العالم كله، و عمّ أهله بعضا بالمنايا الفظيعة، و بعضا بالتوطين عليها، و المباشرة لأهوالها، و أوصى عند وفاته أن يلقب كل قائم فى اليونانيين بعده: ببطليموس تهويلا للأعداء لأنّ معناه الحربىّ، فهذا هو الصحيح من خبر الإسكندر فلا يلتفت إلى ما خالفه.

و يقال: إنه كان أشقر أزرق، و هو أوّل من سمر بالليل، و كان له قوم يضحكونه و يحكون له الخرافات يريد بذلك حفظ ملكه، و حراسة نفسه لا اللذة، و به اقتدى الملوك فى

السمر، و اتخاذ المضحكين و المخرّفين.

ذكر تاريخ الإسكندر

قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى: تاريخ الإسكندر اليونانىّ، الذى يلقبه بعضهم بذى القرنين على سنى الروم، و عليه عمل أكثر الأمم لما خرج من بلاد يونان، و هو ابن ست و عشرين سنة لقتال دارا ملك الفرس.

و لما ورد بيت المقدس أمر اليهود، بترك تاريخ داود و موسى عليهما السلام، و التحوّل إلى تاريخه، فأجابوه و انتقلوا إلى تاريخه، و استعملوه فيما يحتاجون إليه بعد أن عملوه من السنة السادسة و العشرين لميلاده، و هو أوّل وقت تحرّكه، ليتموا ألف سنة من لدن، موسى عليه السلام، و بقوا معتصمين بهذا التاريخ، و مستعملين له و عليه عمل اليونانيين، و كانوا قبله يؤرخون بخروج يونان بن نورس عن بابل إلى المغرب.

و أوّل تاريخ الإسكندر يوم الاثنين أوّل تشرين الأوّل، و موافقه اليوم الرابع من بابه، و مبادى الأيام عندهم من وقت طلوع الشمس إلى وقت غروبها، و إلى أن يصبح الصباح و تطلع الشمس، فقد كمل يوم بليلته، و مبادى الشهور ترجع إلى عدد واحد له نظام يجرى عليه دائما.

و عدد شهور سنتهم: اثنا عشر شهرا يخالف بعضها بعضا فى العدد، و هذه أسماؤها، و عدد أيام كل شهر منها: (تشرين الأوّل) أحد و ثلاثون يوما، (تشرين الثانى) ثلاثون يوما، (كانون الأول) أحد و ثلاثون يوما، (كانون الثانى) أحد و ثلاثون يوما، (شباط) ثمانية و عشرون يوما و ربع، (آذار) أحد و ثلاثون يوما، (نيسان) ثلاثون يوما، (أيار) أحد و ثلاثون يوما، (حزيران) ثلاثون يوما، (تموز) أحد و ثلاثون يوما، (آب) أحد و ثلاثون يوما، (أيلول) ثلاثون يوما. فسبعة أشهر كل شهر منها أحد و ثلاثون يوما، و أربعة أشهر كل شهر ثلاثون يوما، و شهر واحد ثمانية و عشرون يوما و ربع يوم، و ذلك أنهم جعلوا شباط كل ثلاث سنين متواليات ثمانية و عشرين يوما، و جعلوه فى السنة الرابعة تسعة و عشرين يوما.

فيكون عدد أيام سنتهم، ثلثمائة و خمسة و ستين يوما و ربع يوم، و يجعلون السنة الرابعة ثلثمائة و ستة و ستين يوما، و يسمونها السنة الكبيسة، و إنما زادوا الربع فى كل سنة ليقرب عدد أيام سنتهم من عدد أيام السنة الشمسية، حتى تبقى أمورهم على نظام واحد، فتكون شهور البرد، و شهور الحرّ، و أوان الزرع و لقاح الشجر و جنى الثمر فى وقت معلوم من السنة لا يتغير وقت شيء من ذلك البتة، و كان ابتداء الكبيس فى السنة الثالثة من ملك الإسكندر.

و بين يوم الاثنين أوّل يوم من تاريخ الإسكندر هذا، و بين يوم الخميس أوّل شهر

المحرّم من السنة التى هاجر نبينا، محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من مكة إلى المدينة تسعمائة سنة و ثلاث و ثلاثون سنة، و مائة و خمسة و خمسون يوما.

و بينه و بين يوم الجمعة أوّل يوم من الطوفان: ألفا سنة و سبعمائة سنة، و اثنتان و تسعون سنة، و مائة و ثلاثة و تسعون يوما.

و بين ابتداء ملك بخت نصر، و بين أوّل تاريخ الإسكندر، أربعمائة و خمس و ثلاثون سنة شمسية و مائتا يوم و ثمانية و ثلاثون يوما.

و قال أبو بكر أحمد بن علىّ بن قيس بن وحشية فى كتاب الفلاحة النبطية الشهر المسمى تموز، فيما ذكر القبط بحسب ما وجدت فى كتبهم اسم رجل كانت له قصة عجيبة طويلة، و هو أنه دعا ملكا إلى عبادة الكواكب السبعة، و البروج الاثنى عشر، و أن الملك قتله و

عاش بعد القتلة، ثم قتله قتلات بعد ذلك قبيحة، و فى كلها يعيش، ثم مات فى آخرها.

و إنّ شهورهم هذه، كل واحد منها، اسم رجل فاضل عالم كان فى القديم من النبط الذين كانوا، مكان إقليم بابل قبل الكسدانيين، و ذلك أن تموز هذا ليس من الكسدانيين و لا- الكنعانيين و لا- العبرانيين و لا الجرامقة، و إنما هو من الحزناسيين الأوّلين و لذلك يقولون فى كل شهورهم: إنها أسماء رجال مضوا، و إنّ تشرين الأوّل، و تشرين الثانى، اسما أخوين كانا فاضلين فى العلوم، و كذلك كان كانون الأوّل و كانون الثانى، و إنّ شباط اسم رجل نكح ألف امرأة أبكارا كلهنّ، و لم ينسل نسلا، و لا ولد ولدا، فجعلوه فى آخر الشهور لنقصانه عن النسل، فصار النقصان من العدد فيه، و الصابئون من البابليين و الحزناسيين جميعا إلى وقتنا هذا ينوحون و يبكون على تموز فى الشهر المسمى تموز فى عيد لهم فيه منسوب إلى تموز، و يعدّدون تعديدا عظيما، و خاصة النساء، فإنهنّ يقمن ههنا جميعا، و ينحن و يبكين على تموز، و يهذين فى أمره هذيانا طويلا- و ليس عندهم علم من أمره أكثر من أن يقولوا، هكذا وجدنا أسلافنا ينوّحون و يبكون على تموز فى هذا العيد المنسوب إلى تموز، و النصارى تذكر أنهم يعملونه لرجل يسمى جورجيس أحد حواريّ عيسى عليه السلام، دعا ملكا من الملوك إلى دين النصرانية، فعذبه الملك بتلك القتلات، فلا أدرى وقع إلى النصارى قصة تموز، فأبدلوا مكانها اسم جورجيس، و خالفوا الصابئين فى الوقت، لأن الصابئين يعملون ذكران تموز، أوّل يوم من شهر تموز، و النصارى يعملون لجورجيس فى آخر نيسان.

و يقال: إنّ بعض ملوك رومية زاد فى شهور الروم، كانون الثانى و شباط، فإنّ شهورهم كانت إلى زمانه عشرة أشهر، كل شهر ستة و ثلاثون يوما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٨٥

و يقال: إنّ فيوفيوس، أوّل من ملك مدينة رومية، و أنه أقام ملكا ثلاثا و أربعين سنة، و زاد كانون الثانى و شباط فى شهور الروم بحكم أنها كانت إلى ذلك الزمان عشرة أشهر، كل شهر ستة و ثلاثون يوما، و كان سبب نقص شباط يومين، وقوع غارة فى أيام فيطن رئيس جيش الروم خلف، و حروب بينه و بين فريوريوس آلت إلى نصرة فيطن، و أخذه مملكة الروم، و أمر بفريوريوس، فنودى عليه (اعيا مرديا) و تفسيره: اخرج يا شباط، ثم غرق فى البحر و سموا شهر شباط فريوريوس ليكون تذكار سوء له، فإنّ هذا الفعل كان فى يومى التاسع و العشرين و الثلاثين من شباط فنقصوهما من شباط، و زادوهما فى تموز و كانون الثانى، فجعلوا كل شهر منهما أحدا و ثلاثين يوما، ثم بعد زمان جاء ملك آخر فقال:

لا يحسن أن يكون شباط فى وسط السنة، فنقله إلى آخرها، و لم يزل الروم من ذلك الوقت يتطيرون من شباط.

ذكر الفرق بين الإسكندر و ذى القرنين و أنهما رجلان

اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار، أنّ ذا القرنين الذى ذكره اللّه فى كتابه العزيز، فقال: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً [الكهف/ ٨٣] الآيات، عربىّ، قد كثر ذكره فى أشعار العرب، و أنّ اسمه: الصعب بن ذى مراثد بن الحارث الرائش بن الهمال ذى سدد بن عاد ذى منح بن عامر الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

و أنه ملك من ملوك حمير، و هم العرب العاربة، و يقال لهم أيضا: العرب العرباء، و كان ذو القرنين تبعا متوّجا، و لما ولى الملك تجبر، ثم تواضع للّه، و اجتمع بالخضر.

و قد غلط من ظن أنّ الإسكندر بن فيلبس هو ذو القرنين الذى بنى السدّ، فإنّ لفظة ذو عربية، و ذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن و ذاك رومىّ يونانىّ.

قال أبو جعفر الطبرىّ: و كان الخضر فى أيام أفريدون الملك بن الضحاك فى قول عامة علماء أهل الكتاب الأول، و قبل موسى بن

عمران عليه السلام، و قيل: إنه كان على مقدّمة ذى القرنين الأكبر الذى كان على أيام إبراهيم الخليل عليه السلام.

و أنّ الخضر بلغ مع ذى القرنين أيام مسيره فى البلاد نهر الحياة، فشرب من مائه، و هو لا يعلم به ذو القرنين و لا من معه، فخلد، و هو حىّ عندهم إلى الآن، و قال آخرون:

إنّ ذا القرنين الذى كان على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام هو: أفريدون بن الضحاك، و على مقدّمته كان الخضر.

و قال أبو محمد عبد الملك بن هشام فى كتاب التيجان فى معرفة ملوك الزمان، بعد ما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٨٦

ذكر نسب ذى القرنين الذى ذكرناه، و كان تبعا متوّجا لما ولى الملك تجبر، ثم تواضع، و اجتمع بالخضر ببيت المقدس، و سار معه مشارق الأرض و مغاربها، و أوتى من كل شيء سببا، كما أخبر اللّه تعالى و بنى السدّ على يأجوج و مأجوج و مات بالعراق.

و أما الإسكندر فإنه يونانىّ، و يعرف بالإسكندر المجدونى (و يقال: المقدونى).

سئل ابن عباس رضى اللّه عنهما عن ذى القرنين ممن كان؟ فقال: من حمير، و هو الصعب بن ذى مراثد الذى مكنه اللّه تعالى فى الأرض و أتاه من كل شيء سببا، فبلغ قرنى الشمس، و رأس الأرض و بنى السدّ على يأجوج و مأجوج؛ قيل له: فالإسكندر؟ قال: كان رجلا- صالحا روميا حكيما بنى على البحر فى إفريقية منارا و أخذ أرض رومة و أتى بحر الغرب، و أكثر عمل الآثار فى الغرب من المصانع و المدن.

و سئل كعب الأحبار عن ذى القرنين؟ فقال: الصحيح عندنا من أحبارنا و أسلافنا أنه من حمير، و أنه الصعب بن ذى مراثد، و الإسكندر كان رجلا من يونان من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل صلوات اللّه و سلامه عليهما، و رجال الإسكندر أدركوا المسيح ابن مريم منهم: جالينوس، و أرسطاطاليس.

و قال الهمدانى فى كتاب الأنساب: و ولد كهلان بن سبأ زيدا، فولد زيد عربيا و مالكا و غالبا و عميكرب.

و قال الهيثم: عميكرب بن سبأ أخو حمير و كهلان، فولد عميكرب أبا مالك فدرحا و مهيليل ابنى عميكرب، و ولد غالب جنادة بن غالب، و قد ملك بعد مهيليل بن عميكرب بن سبأ، و ولد عريب عمرا، فولد عمر و زيدا، و الهميسع و يكنى أبا الصعب، و هو ذو القرنين الأوّل، و هو المساح و البناء، و فيه يقول النعمان بن بشير:

فمن ذا يعاددنا من الناس معشراكراما فذو القرنين منا و حاتم

و فيه يقول الحارثى:

سمّوا لنا واحدا منكم فنعرفهفى الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين و ذى القرنين يقبلهأهل الحجى فأحق القول ما قبلا

و فيه يقول ابن أبى ذئب الخزاعى:

و منا الذى بالخافقين تغرّباو أصعد فى كل البلاد و صوّبا

فقد نال قرن الشمس شرقا و مغرباو فى ردم يأجوج بنى ثم نصبا

و ذلك ذو القرنين تفخر حميربعسكر قيل ليس يحصى فيحسبا

قال الهمدانى: و علماء همدان تقول: ذو القرنين: الصعب بن مالك بن الحارث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٨٧

الأعلى بن ربيعة بن الجبار بن مالك.

و فى ذى القرنين أقاويل كثيرة، و قال الإمام فخر الدين الرازى فى كتاب تفسير القرآن الكريم، و مما يعترض به على من قال: إنّ الإسكندر هو ذو القرنين، أن معلم الإسكندر كان أرسطاطاليس بأمره يأتمر، و بنهيه ينتهى، و اعتقاد أرسطاطاليس مشهور، و ذو

القرنين نبىّ، فكيف يقتدى نبىّ بأمر كافر فى هذا إشكال؟.

و قال الجاحظ فى كتاب الحيوان: إنّ ذا القرنين كانت أمه آدمية، و أبوه من الملائكة، و لذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه رجلا ينادى رجلا يا ذا القرنين، قال:

أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة؟! و روى المختار ابن أبى عبيد: أنّ عليا رضى اللّه عنه كان إذا ذكر ذا القرنين قال: ذلك الملك الأمرط، و اللّه أعلم.

ذكر من ولى الملك بالإسكندرية بعد الإسكندر

قال فى كتاب هروشيوش: إنّ الإسكندر ملك الدنيا اثنتى عشرة سنة، فكانت الدنيا مأسورة بين يديه، طول ولايته، فلما مات، تركها بين يدى قوّاده المستخلفين تحته، فكان مثله معهم كمثل الأسد الذى ألقى صيده بين يدى أشباله، فتقاتلت عليه تلك الأشبال بعده، و ذلك أنهم اقتسموا البلاد، فصارت مصر و إفريقية كلها و بلاد الغرب إلى قائده، و صاحب خيله الذى ولى مكانه، و هو بطليموس بن لاوى، و يقال: بطليموس بن ارنبا المنطقى، و ذكر بقية ممالك القوّاد من أقصى بلاد الهند إلى آخر بلاد المغرب، ثم قال: فثارت بينهم حروب و سببها رسالة كانت خرجت من عند الإسكندر بأن يرجع جميع الغرباء المنفيين إلى بلادهم، و يسقط عنهم الرق و العبودية، فاستثقل ذلك ملك بلاد الروم إذ خاف أن يكون الغرباء و المنفيون إذا رجعوا إلى بلدانهم و مواطنهم يطلبون النقمة لأنفسهم، فكان هذا الأمر، سبب خروجهم عن طاعة سلطان المجدونيين.

و قال غيره: و بطليموس هذا سبى بنى معدّ بعد ما غزا فلسطين، ثم أطلقهم و حباهم بآنية جوهر وضعت فى بيت المقدس، و ملك عشرين سنة، و قال غيره: ولى أربعين سنة، و قيل: ثمانيا و ثلاثين سنة، و قيل: إن اسمه فيلدلفوس، و هو محب الأب و كان مجدونيا، و هو الذى غنم اليهود، و نقل كثيرا منهم إلى مصر، و فى زمانه كان زينون الفيلسوف، و كان هذا الملك فيلسوفا، و أقبل برديقا أحد قوّاد الإسكندر إلى مصر، بعسكر عظيم و جيش عرمرم، فتفرّق سلطان مجدونية على قسمين، ثم إنّ بطليموس جمع عساكر مصر و إفريقية، و لاقى برديقا، فهزمه و أصاب عسكره، ثم قتله و أصاب ما كان معه، و حارب عدّة من قوّاد الإسكندر.

و قال غيره: و كان بطليموس هذا حكيما عالما شابا مدبرا، و هو أوّل من اقتنى البزاة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۲۸۸

و لعب بها و ضراها، و كان من قبله من الملوك لا يلعب بها.

و لمّا مات، ملك الإسكندرية بعده بطليموس الثانى، و اسمه: فيلوذوفوس، و يقال له:

محب الأخ، و كانت مدّة ملكه ثمانيا و ثلاثين سنة، و هو الذى أطلق اليهود الذين كانوا مأسورين بأرض مصر، و ردّ الأوانى المقدّسه على عزيز النبىّ، و هو الذى تخير السبعين مترجما من علماء اليهود الذين ترجموا كتب التوراة و الأنبياء من اللسان العبرانىّ إلى اللسان الرومىّ اليونانىّ و اللاطينىّ، و كان فيلسوفا منجما، و مات فولى بعده ابنه بطليموس أوراخيطس المعروف بمحب الأب ستا و عشرين سنة.

ثم ولى بعده أخوه بطليموس فيلوبطور سبع عشرة سنة، و هو الذى قتل من اليهود نحوا من ستين ألفا، و تغلب عليهم، و يقال: إنه صاحب علم الفلك و النجوم و كتاب المجسطى.

ثم ملك بعده ابنه بطليموس أسفاميش، محب الأم أربعا و عشرين سنة.

ثم ولى بعده ابنه بطليموس فلوناطرة، و هو الصانع، خمسا و ثلاثين سنة، و هو الذى غلب ملك الشام، و حمل اليهود أنواع البلاء و العذاب.

ثم ملك الإسكندرية بعده ابنه بطليموس أبرياطيش، و هو الإسكندرانىّ، تسعا و عشرين سنة، و فى زمانه غلب الرومانيون على

الأندلس و احترقت مدينة قرطاجنة بالنار، و أقامت النار فيها سبعة عشر يوما فهدمت، و حوّلت أساساتها حتى صار رخام أسوارها غبارا، و ذلك إلى تسعمائة سنة من وقت بنيانها، و بيع جميع أهلها رقيقا إلا قليلا من خيارهم و أشرافهم، و كان المتولى لتخريبها قوّاد رومة.

ثم ولى بعده ابنه بطليموس شوطار الذى يقال له: الحديد، سبع عشرة سنة، و كان قبيح السيرة، تزوّج بأخته، ثم فارقها على أقبح حال مما تزوّجها عليه فى خبر له، ثم تزوّج ربيبته التى كانت بنت أخته، ثم زوّجها من ابنه المولود من أخته، و كثرت فواحشه حتى نفاه أهل الإسكندرية فمات منفيا.

و ولى أخوه بطليموس الإسكندر، و هو الجوّال، عشر سنين.

ثم ولى بعده ابنه بطليموس ديوشيش، ثمانيا و ثلاثين سنة، و فى زمانه غلب قائد الرومانيين على بيت المقدس، و جعل اليهود يؤدّون إليه الجزية.

و ظهرت فى ذلك الزمان علامات فى السماء مهولة، منها: أنه ظهر فى السماء بناحية مطلع الشمس من مدينة رومة مما يلى ناحية الجنوب، نار ملتهبة عظيمة، و كسر قوم خبزا فى صنع لهم، فانفجر من الخبز دم سائل، و نزل بمدينة رومة مدّة سبعة أيام متوالية برد كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٨٩

يوجد فى داخله حجارة و شقاف، و انفتحت الأرض، فصار فيها غور عظيم، و خرج منه لهب اشتعل حتى ظنوه بلغ السماء، و نظر أهل رومة يومئذ إلى عمود من الأرض إلى السماء لونه لون الذهب، و كان من عظمه تكاد الشمس أن تغيب منه.

ثم ولى الإسكندرية بعده كلوباطرة، سنتين، فدامت مملكة الإسكندرية، و هى الدولة المجدونية إلى أوّل ملوك قيصر الذى هو أوّل ملوك الرومانيين، مائتين و إحدى و ثمانين سنة، فبعث قيصر قائدين بعساكر كثيرة لفتح مصر، فتزوّج أحدهما كلوباطرة ابنة ديوشيش الملقب بطليموس، و قتل القائد الآخر، و خالف قيصر، فسار إليه قيصر بنفسه، و جرت أمور آلت إلى فتح الإسكندرية بعد حروب، و استولى قيصر على مملكة مصر، و قتل كلوباطرة و ولديها، و قتل القائد الذى تزوّجها، و يقال: بل سمت نفسها عندما تيقنت غلبة قيصر لها، و يقال: إنها كانت ذات حزم و معرفة و تدبير، و إنها حفرت خليج الإسكندرية و أجرت فيه الماء من مصر، و بنت بالإسكندرية أبنية عجيبة منها هيكل زحل، و عملت فيه صنما من نحاس أسود، و كان أهل مصر و الإسكندرية يعملون له عيدا فى اليوم الثانى و العشرين من هتور، و يحتج إليه اليونانيون من سائر الأقطار، و يذبحون له ذبائح لا تحصى كثرة، فلما ظهرت ملة النصارى فى الإسكندرية جعلوا هيكل زحل كنيسة و لم تزل إلى أن هدمها جيوش المعز لدين اللّه عند قدومهم من المغرب إلى أرض مصر فى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة من سنى الهجرة النبوية.

و يقال: إن كلوباطرة هى التى بنت حائط العجوز بمصر، و يشبه أن يكون هذا غير صحيح، و يقال: إنها بنت مقياسا بمدينة إخميم، و مقياسا آخر بأنصنا، و يقال: كانت مدّة ملكها ثلاثين سنة، و ليس بصحيح، و بموت كلوباطرة انقطعت مملكة مصر.

و صارت تحت يد ملوك الروم من أهل مدينة رومة، ثم تحت يد ملوك الروم من أهل قسطنطينة، فلم تزل تحت أيديهم يولون فيها من قبلهم من شاءوا، فيصير إلى الإسكندرية، و يقيم بها إلى أن قدم عمرو بن العاص بالمسلمين، و فتح اللّه على يده الحصن و الإسكندرية، و جميع أرض مصر.

و يقال: معنى كلوباطرة: الباكية، فكان جميع المدّة التى ما بين ذهاب دولة البطالسة من الإسكندرية، و قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، و فتحها ستمائة سنة و بعضا و سبعين سنة، و فى خلال هذه المدّة قوى جانب ملوك الفرس على القياصرة، و ملكوا منهم بلاد الشام، و استولوا على أرض مصر و الإسكندرية فى أيام كسرى أبرويز بن هرمز، فبعث قائدا إلى مصر، و ملك الإسكندرية، و قتل الروم و أقاموا بالإسكندرية مدّة عشر سنين، فلما استبدّ هرقل بمملكة الروم، و خرج من القسطنطينية لجمع الأموال من سائر مملكته

أخذ حماه و دمشق و سار إلى بيت المقدس، و قد خرّبها الفرس، فأمر ببنائها و سار منها إلى أرض مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۰

و دخل الإسكندرية، و قتل من بها من الفرس، و أقام بها بطريقا، ثم عاد إلى قسطنطينية فاستمرّت مصر بعده تحت إيالة الروم حتى ملكها المسلمون.

و يقال: إن كل بناء بمصر من آجر فهو للفرس، و ما فيها من بناء حجر فهو للروم، و اللّه أعلم.

ذكر منارة الإسكندرية

قال المسعوديّ: فأما منارة الإسكندرية، فذهب الأكثرون من المصريين و الإسكندرانيين ممن عنى بأخبار بلدهم أن الإسكندر بن فيليبس المقدونى هو الذى بناها و منهم من رأى أن دلوكة الملكة ابنتها و جعلتها مرقبا لمن يرد من العدوّ إلى بلدهم، و من الناس من رأى، أن العاشر من فراعنة مصر، هو الذى بناها، و منهم من رأى أن الذى بنى مدينة رومة هو الذى بنى مدينة الإسكندرية و منارتها، و الأهرام بمصر، و إنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لشهرته باستيلائه على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به، و ذكروا فى ذلك أخبارا كثيرة يستدلون بها على ما قالوا، و الإسكندر لم يطرقه فى هذا البحر عدوّ و لا هاب ملكا يرد إليه فى بلده، و يغزوه فى داره فيكون هو الذى جعلها مرقبا و إنّ الذى بناها جعلها على كرسيّ من الزجاج على هيئة السرطان فى جوف البحر، و على طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البرّ، و جعل على أعلاها تماثيل من النحاس و غيره، منها: تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس، أينما كانت من الفلك، و إذا علت فى الفلك فأصبعه يشير بها نحوها، فإذا انخفضت صارت يده سفلا، تدور معها حيث دارت، و منها: تمثال يشير بيده إلى البحر، إذا صار العدوّ منه على نحو من ليلة فإذا دنا و جاوز أن يرى بالبصر لقرب المسافة، سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من مسيرة ميلين أو ثلاثة، فيعلم أهل المدينة أن العدوّ قد دنا منهم فيرمقونه بأبصارهم، و منها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوّت فى الساعة التى قبلها و صوته مطرب.

و قد كان ملك الروم، فى ملك الوليد بن عبد الملك بن مروان، أنفذ خادما من خواص خدمه، ذا رأى و دهاء، فجاء مستأمنا إلى بعض الثغور، فورد بآلة حسنة و معه جماعة، فجاء إلى الوليد، فأخبره: أنه من خواص الملك، و أنه أراد قتله لموجدة و حال بلغته عنه لم يكن لها أصل، و أنه استوحش، و رغب فى الإسلام، فأسلم على يد الوليد و تقرّب من قلبه، و تنصح إليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق و غيرها من الشام بكتب كانت معه، فيها صفات تلك الدفائن، فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال و الجواهر، شرهت نفسه و استحكم طمعه.

فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين! إنّ ها هنا أموالا و جواهر و دفائن للملوك، فسأله

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۲۹۱

الوليد عن الخبر؟ فقال: تحت منارة الإسكندرية أموال ملوك الأرض، و ذلك أن الإسكندر احتوى على الأموال و الجواهر التى كانت لشدّاد بن عاد و ملوك مصر، فبنى لها أزجا تحت الأرض، و قنطر لها الأقباء و القناطر و السراديب، و أودعها تلك الذخائر من العين و الورق و الجوهر، و بنى فوق ذلك هذه المنارة، و كان طولها فى الهواء ألف ذراع، و المرآة فى علوه، و الدبادبة جلوس حوله، فإذا نظروا إلى العدوّ فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوّتوا لمن قرب منهم، و نشروا أعلاما فيراها من بعد منهم، فتحذر الناس و تنذر البلد، فلا يكون للعدوّ عليهم سبيل.

فبعث الوليد مع الخادم، بجيش و أناس من ثقاته و خواصه، فهدم نصف المنارة من أعلاها، و أزيلت المرآة فضج الناس من هذا! و علموا أنها مكيدة و حيلة فى أمرها، فلما علم الخادم استفاضة ذلك و أنه سينم إلى الوليد و أنه قد بلغ ما يحتاج إليه هرب فى الليل فى مركب كان قد أعدّه، و واطأ على ذلك، فتمت حيلته و بقيت المنارة على ما ذكرنا إلى هذا الوقت و هو سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة.

و كان حوالى منارة الإسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجوهر يتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر، يقال: إنّ ذلك من آلات اتخذها الإسكندر للشراب، فلما مات كسرتها أمه، و رمت بها فى تلك المواضع من البحر، و منهم من رأى أن الإسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر، و غرّقه حول المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها، لأنّ من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا فى كل عصر، و يقال: إنّ هذه المنارة إنما جعلت المرآة فى أعلاها، لأنّ ملوك الروم بعد الإسكندر كانت تحارب ملوك مصر و الإسكندرية، فجعل من كان بالإسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد فى البحر من عدوّهم، و كان من يدخلها يتيه فيها إلا أن يكون عارفا بالدخول و الخروج فيها لكثرة بيوتها و طبقاتها و ممرّاتها.

و قد ذكر: أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة، فتاهوا فيها، و فى طرق تؤول إلى مهاو تهوى إلى السرطان الزجاج، و فيه مخارق إلى البحر، فتهوّرت دوابهم، و فقد منهم عدد كثير و علم بهم بعد ذلك، و قيل: إن تهوّرهم كان على كرسيّ لها قدّامها، و فى المنارة مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه مطوّعة المصريين و غيرهم. و فى سنة سبع و سبعين و سبعمائة، سقط رأس المنارة من زلزلة، و يقال: إنّ منارة الإسكندرية، كانت مبنية بحجارة مهندمة مضببة برصاص على قناطر من الزجاج، و تلك القناطر على ظهر سرطان، و كان فى المنارة، ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض، و كانت الدابة تصعد بحملها إلى سائر البيوت من داخل المنارة، و لهذه البيوتات طاقات تشرف على البحر، و كانت على الجانب الشرقيّ من المنارة كتابة عرّبت، فإذا هى:

بنت هذه المنظرة قريبا بنت مرينوس اليونانية لرصد الكواكب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٩٢

و قال ابن وصيف شاه: و قد ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح و بنوا على البحر مدنا منها رقودة مكان الإسكندرية، و جعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب و القبة مذهبة، و نصبوا فوقها منارة عليها مرآة من أخلاط شتى، قطرها خمسة أشبار، و كان ارتفاع القبة مائة ذراع، فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم، فإن كان مما يهمهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملا، فألقت شعاعها على ذلك الشيء فأحرقته، فلم تزل على حالها إلى أن غلب عليها البحر فنسفها.

و يقال: إنّ الإسكندر إنما عمل المنار الذى كان شبيها بها و قد كان أيضا عليه مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم، فاحتال بعض ملوك الروم، فوجه من أزالها، و كانت من زجاج مدبر.

و قال المسعودىّ فى كتاب التنبيه و الأشراف: و قد كان وزير المتوكل، عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان لمّا أمر المستعين بنفيه إلى برقة فى سنة ثمان و أربعين و مائتين، صار إلى الإسكندرية من بلاد مصر، فرأى حمرة الشمس على علو المنارة التى بها وقت المغيب، فقدّر أنه يلزمه أن لا يفطر إذا كان صائما أو تغرب الشمس من جميع أقطار الأرض، فأمر إنسانا أن يصعد إلى أعلى منارة الإسكندرية و معه حجر، و أن يتأمّل موضع سقوط الشمس، فإذا أسقطت رمى بالحجر، ففعل الرجل ذلك، فوصل الحجر إلى قرار الأرض بعد صلاة العشاء الآخرة، فجعل إفطاره بعد صلاة العشاء الآخرة، فيما بعد إذا صام فى مثل ذلك الوقت، و كان عند رجوعه إلى سرّ من رأى لا يفطر إلا بعد عشاء الآخرة، و عنده أنّ هذا فرضه، و أنّ الوقتين متساويان، و هذا غاية ما يكون من قلة العلم بالفرض و مجارى الشرق و الغرب.

و قد ذكر أرسطاطاليس فى كتاب الآثار العلوية: أن بناحية المشرق الصيفيّ جبلا شامخا جدّا، و أنّ من علامة ارتفاعه أن الشمس لا تغيب عنه إلى ثلاث ساعات من الليل، و تشرق عليه قبل الصبح بثلاث ساعات.

و منارة الإسكندرية أحد بنيان العالم العجيب، بناها بعض البطالسة ملوك اليونانيين بعد وفاة الإسكندر بن فيليبس الملك، لما كان بينهم و بين ملوك رومة من الحروب فى البرّ و البحر، فجعلوا هذه المنارة مرقبا فى أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار المشفة ليشاهد منها مراكب البحر إذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها، فكانوا يراعون ذلك فى تلك المرآة فيستعدّون

لهم قبل ورودهم، و طول المنارة فى هذا الوقت على التقريب، مائتان و ثلاثون ذراعا، و كان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع، فهدمت على طول الأزمان و ترادف الزلازل و الأمطار، لأنّ بلد الإسكندرية تمطر و ليس سبيلها سبيل فسطاط مصر إذ كان الأغلب عليها أن لا تمطر إلا اليسير، و بناؤها ثلاثة أشكال، فقريب من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٩٣

النصف، و أكثر من الثلث مربع الشكل، بناؤه بأحجار بيض يكون نحوا من مائة ذراع و عشرة أذرع على التقريب، ثم من بعد ذلك مثمن الشكل، مبنى بالحجر و الجص نحو من نيف و ستين ذراعا و حواليه فضاء يدور فيه الإنسان و أعلاها مدوّر.

و كان أحمد بن طولون رمّ شيئا منها، و جعل فى أعلاه قبة من الخشب ليصعد إليها من داخلها و هى مبسوطة موربة بغير درج، و فى الجهة الشمالية من المنارة، كتابة برصاص مدفون بقلم يونانىّ طول كلّ حرف ذراع فى عرض شبر، و مقدارها على جهة الأرض نحو من مائة ذراع، و ماء البحر قد بلغ أصلها، و قد كان تهدّم أحد أركانها الغربية مما يلى البحر.

فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، و بينها و بين مدينة الإسكندرية فى هذا الوقت نحو من ميل، و هى على طرف لسان من الأرض قد ركب البحر جنبتيه، و هى مبنية على فم ميناء الإسكندرية و ليس بالميناء القديم، لأنّ القديم فى المدينة العتيقة لا ترسى فيه المراكب لبعده عن العمران، و الميناء هو الموضع الذى ترسى فيه مراكب البحر.

و أهل الإسكندرية يخبرون عن أسلافهم أنهم شاهدوا بين المنارة و بين البحر نحوا مما بين المدينة و المنارة فى هذا الوقت، فغلب عليه ماء البحر فى المدّة اليسيرة و أنّ ذلك فى زيادة، قال: و تهدّم فى شهر رمضان سنة أربع و أربعين و ثلثمائة، نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التى كانت ببلاد مصر، و كثير من بلاد الشام و المغرب فى ساعة واحدة على ما وردت به علينا الأخبار المتواترة، و نحن بفسطاط مصر، و كانت عظيمة جدّا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية، و ذلك لنصف يوم السبت لثمان عشرة خلت من هذا الشهر و هو الخامس من كانون الآخر، و التاسع من طوبة، و كان لهذه المنارة مجمع فى يوم خميس العدس يخرج سائر أهل الإسكندرية إلى المنارة من مساكنهم بمآكلهم و لا بد أن يكون فيها عدس، فيفتح باب المنار، و يدخله الناس، فمنهم من يذكر اللّه، و منهم من يصلى، و منهم من يلهو و لا يزالون إلى نصف النهار، ثم ينصرفون و من ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدوّ.

و كان فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل، فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد، فإذا رأى أهل المنار ما يريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة، فإذا رآها الحرس ضربوا الأبواق و الأجراس، فيتحرّك عند ذلك الناس لمحاربة العدوّ.

و يقال: إنّ المنار كان بعيدا عن البحر، فلما كان فى أيام قسطنطين بن قسطنطين هاج البحر و غرّق مواضع كثيرة و كنائس عديدة بمدينة الإسكندرية، و لم يزل يغلب عليها بعد ذلك و يأخذ منها شيئا بعد شىء.

و ذكر بعضهم: أنه قاسه فكان مائتى ذراع و ثلاثة و ثلاثين ذراعا و هى ثلاث طبقات،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٩٤

الطبقة الأولى: مربعة و هى مائة و إحدى و عشرون ذراعا و نصف ذراع، و الطبقة الثانية: مثمنة و هى: إحدى و ثمانون ذراعا و نصف ذراع، و الطبقة الثالثة: مدوّرة و هى إحدى و ثلاثون ذراعا و نصف ذراع.

و ذكر ابن جبير فى رحلته: أن منار الإسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا، و أنه ذرع أحد جوانبه الأربعة فى سنة ثمان و سبعين و خمسمائة، فأناف على خمسين ذراعا، و أنّ طول المنار أزيد من مائة و خمسين قامة، و فى أعلاه مسجد يتبرّك الناس بالصلاة فيه.

و قال ابن عبد الحكم: و يقال: إنّ الذى بنى منار الإسكندرية كلوباطرة الملكة و هى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية، و لم يكن يبلغها إنما كان يعدل من قرية يقال لها: كسا قبالة الكريون، فحفرته حتى أدخلته الإسكندرية و هى التى بلطت قاعه.

و لما استولى أحمد بن طولون على الإسكندرية بنى فى أعلى المنار قبة من خشب فأخذتها الرياح، و فى أيام الظاهر بيبرس تداعى بعض أركان المنار، و سقط فأمر ببناء ما انهدم منه، فى سنة ثلاث و سبعين و ستمائة، و بنى مكان هذه القبة مسجد أو هدم فى ذى

الحجة سنة اثنتين و سبعمائة عند حدوث الزلزلة، ثم بنى فى شهور سنة ثلاث و سبعمائة على يد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و هو باق إلى يومنا هذا، و للّه در الوجيه الدروىّ، حيث يقول فى منار الإسكندرية:

و سامية الأرجاء تهدى أخا السرىضياء إذا ما حندس الليل أظلما

لبست بها بردا من الإنس صافيافكان بتذكار الأحبة معلما

و قد ظللتنى من ذراها بقبةألاحظ فيها من صحابى أنجما

فخيّل أنّ البحر تحتى غمامةو أنى قد خيمت فى كبد السما

و قال ابن قلاقس من أبيات:

و منزل جاوز الجوزاء مرتقياكأنما فيه للنسرين أوكار

راسى القرارة سامى الفرع فى يدهللنون و النور أخبار و أخبار

أطلقت فيه عنان النظم فاطردتخيل لها فى بديع الشعر مضمار

و قال الوزير أبو عبد اللّه محمد بن الحسن بن عبد ربه:

للّه در منار إسكندرية كميسمو إليه على بعد من الحدق

من شامخ الأنف فى عرنينه شممكأنه باهت فى دارة الأفق

للمنشآت الجوارى عند رؤيتهكموقع النوم فى أجفان ذى أرق

و قال عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر: ذكر أهل العلم أن المنارة كانت فى وسط الإسكندرية، حتى غلب عليها البحر، فصارت فى جوفه، ألا ترى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٩٥

الأبنية و الأساسات فى البحر إلى الآن عيانا.

و قال عبد اللّه بن عمر: و عجائب الدنيا أربعة: مرآة كانت معلقة بمنارة الإسكندرية، فكان يجلس الجالس تحتها، فيرى من بالقسطنطينية و بينهما عرض البحر، و ذكر الثلاثة؟!.

ذكر الملعب الذى كان بالإسكندرية و غيره من العجائب

قال القضاعىّ: و من عجائب مصر: الإسكندرية و ما بها من العجائب، فمن عجائبها:

المنارة، و السوارى، و الملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة، ثم يرمون بأكرة، فلا تقع فى حجر أحد إلا ملك مصر، و حضر عيدا من أعيادهم، عمرو بن العاص، فوقعت الأكرة فى حجره، فملك البلد بعد ذلك فى الإسلام، ثم حضر هذا الملعب ألف ألف من الناس، فلا يكون فيهم أحد إلا و هو ينظر فى وجه صاحبه، ثم إن قرىء كتاب سمعوه جميعا، أو لعب لون من اللعب رأوه عن آخرهم لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العلية و السفلية.

و قال ابن عبد الحكم: فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة، و قدم عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه، الجابية، خلا به عمرو بن العاص، و استأذنه فى المسير إلى مصر، و كان عمرو قد دخل فى الجاهلية مصر، و عرف طرقها، و رأى كثرة ما فيها، و كان سبب دخوله إياها أنه قدم إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش، فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية، قدم للصلاة فى بيت المقدس، فخرج فى بعض جبالها يسيح، و كان عمرو يرعى إبله و إبل أصحابه، و كانت رعية الإبل نوبا بينهم، فبينا عمرو يرعى إبله، إذ مرّ به ذلك الشماس، و قد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحرّ، فوقف على عمرو، فاستسقاه، فسقاه عمرو من قربة له، فشرب حتى روى، و نام الشماس مكانه، و كانت إلى جنب الشماس حيث نام حفرة، فخرجت منها حية عظيمة، فبصر بها عمرو،

فنزع لها بسهم فقتلها، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه اللّه منها، فقال لعمرو: ما هذه؟ فأخبره عمرو أنه رماها، فقتلها، فأقبل إلى عمرو، فقبّل رأسه، و قال: قد أحيانى اللّه بك مرّتين: مرّة من شدّة العطش، و مرّة من هذه الحيۀ، فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا، فقال له الشماس: و كم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك؟ قال: رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا، فإنى لا- أملك إلا- بعيرين، فآمل أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثۀ أبعرة، فقال له الشماس: أ رأيت ديۀ أحدكم بينكم كم هى؟ قال: مائۀ من الإبل، فقال له الشماس: لسنا أصحاب إبل إنما نحن أصحاب دنانير، قال: تكون ألف دينار، فقال له الشماس: إنى رجل غريب فى هذه البلاد، و إنما قدمت أصلى فى كنيسۀ بيت المقدس، و أسيح فى هذه الجبال شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسى، و قد قضيت ذلك، و أنا أريد الرجوع إلى بلادى، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج١، ص: ٢٩٦

و لك علىّ عهد اللّه و ميثاقه أن أعطيك ديتين، لأنّ اللّه عز و جل أحيانى بك مرّتين، فقال له عمرو: أين بلادك؟ قال: مصر فى مدينۀ يقال لها: الإسكندريۀ، فقال له عمرو: لا أعرفها، و لم أدخلها قط، فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها! فقال له عمرو: تفى لى بما تقول، ولى عليك بذلك العهد و الميثاق، فقال له الشماس: نعم لك و اللّه علىّ العهد و الميثاق أن أفى لك، و أن أردّك إلى أصحابك، فقال له عمرو: كم يكون مكثى فى ذلك؟ قال: شهرا تنطلق معى ذاهبا عشرا، و تقيم عندنا عشرا، و ترجع فى عشر، و لك علىّ أن أحفظك ذاهبا و أن أبعث معك من يحفظك راجعا، فقال له عمرو: انظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك، فانطلق عمرو إلى أصحابه، فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس، و قال لهم: تقيمون علىّ حتى أرجع إليكم و لكم علىّ العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى رجل منكم آنس به، فقالوا: نعم، و بعثوا معه رجلا منهم، فانطلق عمرو و صاحبه مع الشماس، حتى انتهوا إلى مصر فرأى عمرو من عمارتها، و كثرة أهلها و ما بها من الأموال و الخير ما أعجبه! فقال عمرو للشماس: ما رأيت مثل ذلك، و مضى إلى الإسكندريۀ، فنظر عمرو إلى كثرة ما فيها من الأموال و العمارة، و جودة بنائها، و كثرة أهلها، فازداد عجبا، و وافق دخول عمرو الإسكندريۀ عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم و أشرافهم، و لهم كرة من ذهب مكالۀ يترامى بها ملوكهم، و هم يتلقونها بأكمامهم، و فيما اختبروا من تلك الكرة على ما وصفها من مضى منهم، أنها من وقعت الكرة فى كمه و استقرّت فيه لم يمت حتى يملكهم.

فلما قدم عمرو الإسكندريۀ أكرمه الشماس الإكرام كله، و كساه ثوب ديباج ألبسه إياه، و جلس عمرو و الشماس مع الناس فى ذلك المجلس، حيث يترامون بالكرة و هم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم، فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو، فعجبوا من ذلك، و قالوا: ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرّة! أ ترى هذا الأعرابىّ يملكنا؟ هذا ما لا يكون أبدا، و إنّ ذلك الشماس مشى فى أهل الإسكندريۀ، و أعلمهم أنّ عمرا أحياه مرّتين، و أنه قد ضمن له ألفى دينار، و سألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم، ففعلوا، و دفعوها إلى عمرو، فانطلق عمرو و صاحبه، و بعث معهما الشماس دليلا و رسولا، و زوّدهما و أكرمهما، حتى رجع هو و صاحبه إلى أصحابهما، فبذلك عرف عمرو مدخل مصر و مخرجها، و رأى منها ما علم أنها أفضل البلاد، و أكثرها أموالا، فلما رجع عمرو إلى أصحابه، دفع إليهم بيما بينهم ألف دينار، و أمسك لنفسه ألفا، قال عمرو: و كان أوّل مال اعتقدته و تأثلته.

ذكر عمود السوارى

هذا العمود حجر أحمر منقط، و هو من الصوّان الماتع كان حوله، نحو أربعمائۀ عمود كسرها قراجا والى الإسكندريۀ فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج١، ص: ٢٩٧

و رماها بشاطئ البحر ليوعر على العدوّ سلوكه إذا قدموا، و يذكر أن هذا العمود من جملۀ أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس

الذى كان يدرس به الحكمة، و أنه كان دار علم، و فيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و يقال: إنّ ارتفاع هذا العمود سبعون ذراعا و قطره خمسة أذرع، و ذكر بعضهم: أنّ طوله بقاعدتيه: اثنان و ستون ذراعا و سدس ذراع، و هو على نشز طوله ثلاثة و عشرون ذراعا و نصف ذراع، فجملة ذلك خمسة و ثمانون ذراعا و ثلثا ذراع، و طول قاعدته السفلى اثنا عشر ذراعا، و طول القاعدة العليا سبعة أذرع و نصف.

قال المسعودىّ: و فى الجانب الغربىّ من صعيد مصر، جبل رخام عظيم، كانت الأوائل تقطع منه العمد و غيرها، و كانوا يحملون ما عملوا بعد النقر، فأما العمد و القواعد و الرءوس التى يسميها أهل مصر الأسوانية، و منها حجارة الطواحين، فتلك نقرها الأوّلون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين، و منها العمد التى بالإسكندرية، و العمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله، و قد رأيت فى جبل أسوان، أخا هذا العمود، و قد هندس و نقر و لم يصل من الجبل، و لم يحمل ما ظهر منه، و إنما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم، انتهى.

و كان بالإسكندرية من العمد العظام، و أنواع الحجارة و الرخام الذى لا تقلّ القطعة منه، إلا بألوف من الناس، و قد علقت بين السماء و الأرض على فوق المائة ذراع، و فوق رؤوس أساطين دائر الأسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعا إلى العشرين ذراعا، و الحجر فوقه عشرة أذرع فى عشرة أذرع، فى سمك عشرة أذرع بغرائب الألوان.

و كان بالإسكندرية قصر عظيم لا نظير له فى معمور الأرض على ربوة عظيمة، بإزاء باب البلد طوله خمسمائة ذراع، و عرضه على النصف من ذلك، و بابه من أعظم بناء و أتقنه، كل عضادة منه حجر واحد، و عتبته حجر واحد، و كان فيه نحو مائة أسطوانة و بإزائه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها، غلظها ستة و ثلاثون شبرا، و علوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر، و عليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء، و تحتها قاعدة حجر أحمر محكم الصناعة، عرض كل ضلع منه عشرون شبرا فى ارتفاع ثمانية أشبار، و الأسطوانة منزلة فى عمود من حديد قد خرقت به الأرض، فإذا اشتدّت الرياح رأيتها تتحرّك، و ربما وضع تحتها الحجارة، فطحنتها لشدّة حركتها، و كانت هذه الأسطوانة إحدى عجائب الدنيا، و قد زعم قوم أنها مما عمله الجنّ لسليمان بن داود عليهما السلام، كما هى عادتهم فى نسبة كل ما يستعظمون عمله إلى أنه من صنيع الجنّ، و ليس كذلك، بل كانت مما عمله القدماء من أهل مصر.

و كان فى وسطه، قبة و من حولها أساطين، و على الجميع قبة من حجر واحد رخام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٢٩٨

أبيض كأحسن ما أنت راء من الصنائع.

و يقال: إن بعض ملوك مصر دخل الإسكندرية، فأعجبه هذا القصر، و أراد أن يبنى مثله، فجمع الصناع و المهندسين ليقيموا له قصرا عظيما على هيئته، فما منهم إلا من اعترف بعجزه عن مثله، إلّا شيخا منهم، فإنه التزم أن يصنع مثله، فسرّ الملك ذلك، و أذن له فى طلب ما يحتاج إليه من المؤن و الآلات و الرجال، فقال: ائتونى بثورين مطيقين و عجلة كبيرة، فللحال أتى بذلك فمضى إلى المقابر القديمة، و حفر منها قبرا أخرج منه: جمجمة عظيمة، رفعها عدّة من الرجال على العجلة، فما جرّها الثوران مع قوّتهما إلّا بعد جهد و عناء، فلما وقف بها بين يدى الملك، قال: أصلح اللّه سيدنا! إن أتيتنى بقوم رؤوسهم مثل هذا الرأس عملت لك مثل هذا القصر؟ فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن إقامة مثل ذلك القصر.

و قد ذكر: أنه كان بالإسكندرية ضرس إنسان عند قصاب، يزن به اللحم، زنته ثمانية أرطال.

و يقال: إنّ عمود السوارى الموجود الآن خارج مدينة الإسكندرية، أحد سبعة أعمدة، أتى بأحدها، البتون بن مرّة العادى، و هو يحمله تحت إبطه من جبل بريم الأحمر قبليّ أسوان إلى الإسكندرية، فانكسر ضلعه، لأنه كان ضعيف القوى فى قومه، فشق ذلك على يعمر بن شدّاد بن عاد، و قال: ليتنى فديته بنصف ملكى، و جاء بعمود آخر، جحدر بن سنان الثمودىّ، و كان قويا، فحمله من أسوان تحت

إبطه، و جاء بقية رجالهم كل رجل بعمود، فأقام العمد السبعة، الجارود بن قطن المؤتفكى، و كان بناءها بعد أن اختاروا لها طالعا سعيدا، كما هى عادتهم فى عامّة أعمالهم، و قد ذكر غير واحد، أن الصخور فى القديم من الدهر كانت تلين، فعمل منها أعمدة، ناعط و مارب و بينون و ماثر اليمن، و أعمدة دمشق و مصر و مدين و تدمر، و إنّ كل شىء كان يتكلم، قال أمية بن أبى الصلت:

و إذ هم لا لبوس لهم عراؤ إذ صخر السلام لهم رطاب

و قال قوم: عمود السوارى من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا، يقال له: بيت الحكمة، و ذلك حيث انتهت علوم أهل الغرب إلى خمس فرق، و هم: أصحاب الرواق هذا، و أصحاب الأسطوانة و كانوا ببعلبك، و أصحاب المظال و هم بأنطاكية، و أصحاب البرابى و كانوا بصعيد مصر، و المشاؤون و كانوا بمقدونية، و كأنى بمن قلّ علمه ينكر علىّ إيراد هذا الفصل، و يراه من قبيل المحال، و مما وضعه القصاص، و يجزم بكذبه، فلا يوحشنك حكايتى له، و اسمع قول اللّه تعالى عن عاد قوم هود: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِی الْخَلْقِ بَصْطَةً [الأعراف/ ۶۹] أى طولا و عظم جسم.

قال عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما: كان أطولهم مائة ذراع، و أقصرهم ستين

ذراعا، و هذه الزيادة كانت على خلق آبائهم، و قيل: على خلق قوم نوح، و قال وهب بن منبه: كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، و كانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع، و كذلك مناخرهم.

و روى شهر بن حوشب عن أبى هريرة رضى اللّه عنه: إنه قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليحمل المصراعين لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يطيقوه، و إن كان أحدهم ليغمز بقدمه الأرض فيدخل فيها.

و روى عبد اللّه بن لهيعة، عن يزيد بن عمرو المعافرىّ، عن ابن بجرة، قال: استظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام، فى قحف رجل من العماليق. و عن زيد بن أسلم:

بلغنى أنّ الضبعة و أولادها ربين فى حجاج عين رجل من العماليق، و قال تعالى: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِی لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِی الْبِلادِ [الفجر/ ۸].

قال المبرّد: و قولها يعنى الخنساء: رفيع العماد إنما تريد الطول، يقال: رجل معمد:

يريد طولا و منه قوله تعالى: إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ أى: الطوال.

و قال البغوىّ: سموا ذات العماد لأنهم كانوا أهل عمدة سيارة، و هو قول قتادة و مجاهد و الكلبىّ، و رواية عطاء عن ابن عباس، و قال بعضهم: سموا ذات العماد لطول قاماتهم، قال ابن عباس: يعنى طولهم مثل العماد، قال مقاتل: كان طول أحدهم اثنى عشر ذراعا.

و فى كشاف الزمخشرىّ: لم يخلق مثلها، مثل عاد فى البلاد عظم أجرام و قوّة، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع، و كان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها، فيلقيها على الحىّ فيهلكهم، و قد ذكر غير واحد أنه وجد فى خلافة المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد، كنز بمصر فيه ضلم إنسان طوله أربعة عشر شبرا فى عرض ثلاثة أشبار.

و اعلم أن أعين بنى آدم ضيقة و قد نشأت نفوسهم فى محل صغير، فإذا حدّث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبلغ أجسامهم مما ليس له عندهم أصل يقيسونه على إلا- ما يشاهدونه، أو يألفونه عجلوا إلى الارتياب فيه، و سارعوا إلى الشك فى الخبر عنه، إلّا من كان معه علم و فهم، فإنه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلا- على قبوله، أو ردّه، و كيف يردّ مثل هذه الأخبار. و فى الصحيح: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: «حلق اللّه آدم طوله ستون ذراعا فى السماء» ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن.

و ذكر محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسىّ الغرناطىّ فى كتاب تحفة

الألباب قال: نقل الشعبىّ فى كتاب سير الملوك: أن الضحاك بن علوان، لما هرب منه لام بن عاد إلى ناحية الشمال أرسل فى طلبه

أميرين مع كل أمير طائفة من الجبارين خرج أحدهما قاصدا إلى بلغار، و الآخر إلى باشقرد، فأقام أولئك الجبارون فى أرض بلغار، و فى باشقرد. قال الإقليشىّ: و قد رأيت صورهم فى باشقرد، و رأيت قبورهم بها، فكان مما رأيته، ثنية أحدهم طولها: أربعة أشبار، و عرضها شبران، و قد كان عندى فى باشقرد نصف أصل الثنية أخرجت لى من فكه الأسفل، فكان عرضها شبرا، و وزنها ألف مثقال، و مائتا مثقال، أنا و زنتها بيدى، و هى الآن فى دارى فى باشقرد، و كان دور فلك ذلك العادىّ سبعة عشر ذراعا، و فى بيت بعض أصحابى فى باشقرد، عضد أحدهم طوله ثمانية و عشرون ذراعا، و أضلاعه كل ضلع عرضه ثلاثة أشبار، و أكثر كاللوح الرخام، و أخرج إلىّ نصف رسغ يد أحدهم، فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدىّ جميعا، قال: و لقد رأيت فى بلد بلغار سنة ثلاثين و خمسمائة من نسل العاديين رجلا طوالا كان طوله أكثر من سبعة أذرع، و كان يسمى: دنقى و كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الطفل الصغير، و كان إذا وقع القتال بتلك الناحية، يقاتل بشجرة من شجر البلوط، يمسكها كالعصا فى يده لو ضرب بها الفيل قتله، و كان خيّرا متواضعا، كلما التقانى سلم علىّ، و رحب بى و أكرمنى، و كان رأسى لا يصل إلى حقوه، و كان له أخت على طوله رأيتها فى بلغار مرارا عدّة.

قال لى القاضى يعقوب بن النعمان، يعنى قاضى بلغار: إن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها، و كان اسمه آدم، و كان من أقوى أهل بلغار ضمته إلى صدرها، فكسرت أضلاعه، فمات من ساعته. قال: و لم يكن فى بلغار حمّام تسعهم، إلا حمّام واحدة واسعة الأبواب، انتهى.

و قد حدّثنى الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد الفريابى عن أبيه: أنه شاهد قبرا احتفر بمدينة قرطاجنة من إفريقية، فإذا جثة رجل قدر عظيم رأسه كثورين عظيمين، و وجد معه لوح مكتوب بالقلم المسند، و هو قلم عاد، و حروفه مقطعة، ما نصه:

أنا كوش بن كنعان ابن الملوك من آل عاد، ملكت بهذه الأرض ألف مدينة، و بنيت بها على ألف بكر، و ركبت من الخيل العتاق سبعة آلاف، حمر و صفر و شهب و بيض و دهم، ثم لم يغن عنى ذلك شيئا، أو جاءنى صائح، فصاح بى صيحة أخرجتنى من الدنيا، فمن كان عاقلا ممن جاء بعده فليعتبر بى و أنشد:

يا واقفا يرعى السهى برسم ربع قد و هى

قف و استمع ثم اعتبرإن كنت من أهل النهى

بالأمس كنا فوقهاو اليوم صرنا تحتها

لكل حدّ غايةلكل أمر منتهى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٠١

قال: فأمر السلطان أبو بكر بن يحيى الحفصىّ ، صاحب تونس بطمه، فطم القبر.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: و أنا أدركت شيئا من ذلك، و هو أنه ترافع فى بعض الأيام طائفة من الحجارين إلى السلطان الملك الظاهر برقوق أعوام، بضع و تسعين و سبعمائة، و قد اختلفوا على مال وجدوه بجبل المقطم، و هو أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغار فيما يلى قلعة الجبل من بحريها، فانكشف لهم حجر أسود عليه كتابة، فاجتمعوا على قطع ما بين يدى هذا الحجر طمعا فى وجود مال، فانتهى بهم القطع إلى عمود عظيم قائم فى قلب الجبل، فلعجلتهم أقبلوا بمعاولهم عليه حتى تكسر قطعا، فإذا هو مجوّف، و إنسان قائم على قدميه بطوله و تناثر لهم من جهة رأسه دنانير كثيرة، فاقتسموها و تنافسوا فى قسمتها، و اختلفوا حتى اشتهر أمرهم، و ترافعوا إلى السلطان، فبعث من كشف المغار فوجد الحجر و العمود، و قد تكسر فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير، و لم يجد من يعرف ما قد كتب على الحجر، و تسامع الناس بالخبر، فأقبلوا إلى المغار و عبثوا برمّة الميت، فأخبرنى من شاهد سنا من أسنان هذا الميت، أنها سوداء بقدر الباذنجانة و إن عظم ساقه فيما بين قدمه إلى ركبته خمسة أذرع فيجىء هذا من حساب طوله عشرين ذراعا و أزيد، و دماغ سنّ واحدة من أسنانه فى قدر الباذنجانة، ما هو إلا كالقبة الكبيرة، و أخبرنى السيد الشريف قاضى القضاة بدمشق شهاب الدين

أحمد بن علىّ بن إبراهيم الحسينىّ المعروف: بابن عدنان و بابن أبى الجن: أنه وقف فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة بمقبرة باب الصغير من دمشق على قبر ليدفن فيه ميت لهم، فلما تهيأ القبر، و لم يبق إلا أن يدلى فيه الميت، انخسف و خرج من الخسف ذباب كثير كبار زرق الألوان حتى كادت تظلهم، فنزل الحفار فى الخسف، فإذا قبر طوله اثنان و عشرون ذراعا و فيه بطوله ميت قد صار كالرماد.

و أخبرنى أيضا: أنه شاهد بهذه المقبرة ضرس إنسان و له ثلاث شعب، و قد سقطت منه قطعة و هو فى قدر البطيخة، و أنه وزن بحضرته فبلغ رطلين و تسع أواقى بالرطل الشامى، و إنّ القطعة التى انكسرت منه نحو أوقيتين بالشامى، فيكون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثنى عشر رطلا بالمصرىّ، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر طرف مما قيل فى الإسكندرية

قال أبو عمرو الكندىّ: أجمع الناس أنه ليس فى الدنيا مدينة على ثلاث طبقات، غير الإسكندرية، و لما دخل عبد العزيز بن مروان الإسكندرية، سأل رجلا من علماء الروم عنها و عن عدد أهلها؟ فقال: و اللّه أيها الأمير، ما أدرك علم هذا أحد من الملوك، و الذى أخبرك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٠٢

كم كان فيها من اليهود، فإنّ ملك الروم أمر بإحصائهم، فكانوا ستمائة ألف. قال: فما هذا الخراب الذى فى أطرافها، قال: بلغنى عن بعض ملوك فارس حين ملكوا مصر أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم لعمران الإسكندرية، فأتاه كبراء أهلها و علماؤهم، و قالوا: أيها الملك لا تتعب فإنّ الإسكندرية أقام الإسكندر على بنائها، ثلثمائة سنة، و عمرت ثلثمائة سنة، و إنها لخراب منذ ثلثمائة سنة، و لقد أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون فيها نهارا إلا بخرق سود فى أيديهم خوفا على أبصارهم من شدّة بياضها.

و من فضائلها ما قاله بعض المفسرين من أهل العلم: أنها المدينة التى وصفها اللّه عز و جلّ فى كتابه العزيز فقال: إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ [الفجر/ ٨].

قال أحمد بن صالح: قال لى سفيان بن عيينة: يا مصرىّ أين تسكن؟ قلت: أسكن الفسطاط، فقال: أتاتى الإسكندرية؟ قلت: نعم، قال: تلك كنانة اللّه يجعل فيها خيار سهامه.

و قال و قال عبد اللّه بن مرزوق الصدفىّ، لما نعى لى ابن عمى خالد بن يزيد، و كان قد توفى بالإسكندرية، لقينى موسى بن علىّ بن رباح و عبد اللّه بن لهيعة و الليث بن سعد متفرّقين كلهم يقول: أليس مات بالإسكندرية؟ فأقول: نعم، فيقولون: هو حىّ عند اللّه يرزق و يجرى عليه أجر رباطه ما أقامت الدنيا، و له أجر شهيد حتى يحشر على ذلك، و قال الذين ينظرون فى الأهوية و البلدان و ترتب الأقاليم و الأمصار: أنه لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان طولها بمربوط من كورة الإسكندرية، و وادى فرغانة. و قال الحسن بن صفوان: و أما الإسكندرية و تنيس، و أمثالهما، فقربها من البحر و سكون الحرارة و البرد عندهم، و ظهور ريح الصبا فيهم مما يصلح أمرهم، و يرق طباعهم، و يرفع همتهم و ليس يعرض لهم ما يعرض لأهل اليشمون من غلظ الطبع و الحمارية، و قد وصف أهل الإسكندرية بالبخل، قال جلال الدين بن مكرم بن أبى الحسن بن أحمد الخزرجى ملك الحفاظ:

نزيل اسكندرية ليس يقرى بغير الماء أو نعت السوارى

و يتحف حين يكرم بالهواء الملاتن و الإشارة للمنار

و ذكر البحر و الأمواج فيه و وصف مراكب الروم الكبار

فلا يطمع نزيلهم بخبز فما فيها لذاك الحرف قارى

و قال أحمد بن جرادية من الفسطاط إلى ذوات الساحل، أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى مربوط ثلاثون ميلا، ثم إلى كوم شريك ثلاثون ميلا، ثم إلى كريون أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى الإسكندرية أربعة و عشرون ميلا، و قال آخر: و طريق الإسكندرية إذا نضّب

ماء النيل يأخذ بين المدائن و الضياع، و ذلك إذا أخذت من شطنوف إلى سبك العبيد، فهو منزل فيه منية لطيفة، و بينهما اثنا عشر سقسا، و من سبك إلى مدينة منوف، و هى كبيرة فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٠٣

حمامات و أسواق، و بها قوم فيهم يسار و وجوه من النار، و بينهما ستة عشر سقسا، و من منوف إلى محلة صرد و فيها منبر و حمام و فنادق، و سوق صالح ستة عشر سقسا، و من محلة صرد إلى سخا و هى مدينة كبيرة ذات حمامات و أسواق، و عمل واسع و إقليم جليل له عامل بعسكر و جند، و به الكتان الكثير و زيت الفجل، و قموح عظيمة ستة عشر سقسا، و من سخا إلى شبر كمية و هى مدينة كبيرة بها جامع و أسواق ستة عشر سقسا، و من شبر كمية إلى مسير و هى مدينة بها جامع و أسواق ستة عشر سقسا، و من مسير إلى سنهور و هى مدينة ذات إقليم كبير و بها حمامات و أسواق، و عمل كبير ستة عشر سقسا، و من سنهور إلى التخوم و هى إقليم و بها حمامات و فنادق و أسواق ستة عشر سقسا، و من التخوم إلى نسترو، و كانت مدينة عظيمة حسنة على بحيرة اليشمون عشرون سقسا، و من نسترو إلى البرلس و هى مدينة كثيرة الصيد فى البحيرة و بها حمامات عشر سقسات، و من نسترو إلى البرلس إلى اخنا و هى حصن على شط بحر الملح عشر سقسات، و من اخنا إلى رشيد و هى مدينة على النيل و منها يصب النيل فى البحر من فوهة تعرف بالأشتوم و هى المدخل ثلاثون سقسا، و كان بها أسواق صالحة و حمام، و بها نخيل و ضريبة على ما يحمل من الإسكندرية.

و هذا الطريق الآخذ من شطنوف إلى رشيد ربما امتنع سلوكه عند زيادة النيل، و الثياب المنسوجة بالإسكندرية لا نظير لها، و تحمل إلى أقطار الأرض، و فى ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عمل ثيابا يقال لها الشرب كل زنة درهم بدرهم فضة، و ما يدخل فى الطرز، فيباع بنظير وزنه مرّات عديدة.

ذكر فتح الإسكندرية

قال أبو عمرو الكندى: لما حاز المسلمون الحصن بما فيه، أجمع عمرو على المسير إلى الإسكندرية، فسار إليها فى ربيع الأوّل سنة عشرين، و قال غيره: بل سار فى جمادى الآخرة منها.

و ذكر سيف بن عمر: أنّ عمرو بن العاص بعث إلى الإسكندرية، و هو على عين شمس، عوف بن مالك، فنزل عليها، و بعث يقول لأهلها: إن شئتم أن نزلوا فلكم الأمان، فقالوا: نعم، فراسلهم و تربصوا أهل عين شمس، و سار المسلمون من بين ذلك.

و قال ابن عبد الحكم: و يقال: إنّ المقوقس إنما صالح عمرو بن العاص، لما فتح الإسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر، و ألحّ عليهم فخافوه، و سأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط على أن يستنظر رأى الملك، فحدّثنا يزيد بن أبى حبيب: أنّ المقوقس الرومى الذى كان ملكا على مصر صالح عمرو بن العاص، على أن يسير من أراد من الروم المسير، و يقرّ من أراد من الروم على أمر قد سماه، فبلغ ذلك هرقل ملك الروم، فسخط أشد السخط، و أنكر أشدّ الإنكار، و بعث الجيوش، فأغلقوا أبواب الإسكندرية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٠٤

و آذنوا عمرا بالحرب، فخرج إليه المقوقس، فقال: أسألك ثلاثا، قال: ما هنّ؟ قال:

لا تبذل للروم ما بذلت لى، فإنى قد نصحت لهم، فاستغشونى. و لا تنقض القبط، فإنّ النقض لم يأت من قبلهم، و أن تأمر بى إذا متّ فادفنى فى بخنس، فقال عمرو: هذه أهونهنّ علينا، قال: فخرج عمرو بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، و خرج معه جماعة من رؤساء القبط، و قد أصلحوا لهم الطرق، و أقاموا لهم الجسور و الأسواق، و صارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم، و سمعت بذلك الروم فاستعدّت و استجاشت، و قدمت عليهم مراكب من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدّة و السلاح، فخرج إليهم عمرو من الفسطاط، متوجها إلى الإسكندرية، فلم ير منهم أحدا حتى بلغ مربوط، فلقى فيها طائفة من الروم، فقاتلهم قتالا خفيفا، فهزمهم اللّه، و مضى عمرو بمن معه حتى لقى جمع الروم بكوم شريك، فاقتتلوا ثلاثة أيام، ثم فتح اللّه على المسلمين و ولى الروم

أكتافهم.

و يقال: بل أرسل عمرو بن العاص، شريك بن سميّ فى آثارهم، فأدركهم عند الكوم الذى يقال له: كوم شريك، فهزمهم، و كان على مقدّمة عمرو، و عمرو بمربوط، فألجأوه إلى الكوم، فاعتصم به، و أحاطت به الروم، فلما رأى ذلك شريك بن سميّ، أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفىّ، و هو صاحب الفرس الأشقر الذى يقال له: أشقر صدف، و كان لا يجارى سرعة، فانحط عليهم من الكوم، و طلبته الروم، فلم تدركه حتى أتى عمرا، فأخبره، فأقبل عمرو متوجها، و سمعت به الروم، فانصرفت، ثم التقوا بسلطيس، فاقتتلوا قتالا شديدا، ثم هزمهم اللّه تعالى، ثم التقوا بالكريون، فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما، و كان عبد اللّه بن عمرو، على المقدّمة، و حامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو، فأصابت عبد اللّه بن عمرو جراحات كثيرة، فقال: يا وردان لو تقهقرت قليلا نصيب الروم، فقال وردان:

الروم تريد الروح أمامك و ليس خلفك، فتقدّم عبد اللّه، فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال:

أقول لها إذا جشأت و جاشترويدك تحمدى أو تستريحى

و هذا البيت لعمرو بن الإطنابة، و هو أنّ رجلا من بنى النجار كان مجاورا لمعاذ بن النعمان، فقتل، فقال معاذ: لا أقتل به إلا عمرو بن الإطنابة، و هو يومئذ أشرف الخزرج، فقال عمرو:

ألا من مبلغ الأكفاء عنىو قد تهدى النصيحة للنصيح

بأنكم و ما تزجون شطرىمن القول المرغى و الصريح

سيقدم بعضكم عجلا عليهو ما أثر اللسان إلى الجروح

أبت لى عفتى و أبى بلائىو أخذى الحمد بالثمن الربيح

و إعطائى على المكروه مالىو إقدامى على البطل المشيح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۰۵ و قولى كلما جشأت و جاشتمكانك تحمدى أو تستريحى

لأدفع عن مآثر صالحاتو أحمى بعد عن عرض صحيح

بذى شطب كلون الملح صافو نفس لم تقرّ على القبيح

الشطب: سعف النخل الأخضر، الواحدة شطبة، و جشأت: ارتفعت من حزن أو فزع، و جاشت: دارت للغثيان، و قيل: هما بمعنى ارتفع، و المشيح: البارد المنكمش.

فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال، فقال عمرو: هو ابنى حقا، و صلى عمرو يومئذ صلاة الخوف، ثم فتح اللّه للمسلمين، و قتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، و اتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية، فتحصن بها الروم، و كان عليها حصون متينة لا ترام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون و معهم رؤساء القبط يمدّونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة و العلوفة، فأقاموا شهرين ثم تحوّل، فخرجت عليه خيل من ناحية البحيرة مستترة بالحصن، فواقعوه، فقتل يومئذ من المسلمين، اثنا عشر رجلا، و رسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية فى المراكب بمادة الروم.

و كان ملك الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية ففى ذلك انقطاع الروم و هلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، و إنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية، فقال الملك: لئن غلبونا على الإسكندرية، هلكت الروم، و انقطع ملكها، فأمر بجهازه و مصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه، فلما فرغ من جهازه صرعه اللّه عز و جل، فأماته و كفى المسلمين مؤنته، و كان موته فى سنة تسع عشرة، فكسر اللّه بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه.

و قال الليث: مات هرقل فى سنة عشرين، و فيها فتحت قيسارية الشام. قال:

و استأسدت العرب عند ذلك، و ألحت بالقتال على أهل الإسكندرية، فقاتلوهم قتالا شديدا، و خرج طرف من الروم من باب حصن الإسكندرية، فحملوا على الناس، فقتلوا رجلا من مهرة و احتزوا رأسه، و مضوا به، فجعل المهريون يتغضبون، و يقولون: لا ندفنه إلا برأسه، فقال عمرو: تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم، احملوا على القوم إذا خرجوا، فاقتلوا منهم رجلا- ثم ارموا برأسه، يرمونكم برأس صاحبكم، فخرجت الروم إليهم فاقتتلوا، فقتل من الروم رجل من بطارقتهم، فاحتزوا رأسه، و رموا به الروم، فرمت الروم برأس المهرى إليهم، فقال: دونكم الآن فادفنوا صاحبكم.

و كان عمرو يقول: ثلاث قبائل من مصر، أما مهرة فقوم يقتلون و لا يقتلون، و أما عافق فقوم يقتلون و لا يقتلون، و أما بلى فأكثرها رجلا- صحب النبيّ صلى اللّه عليه و سلم، و أفضلها فارسا. و قال رجل لعمرو: لو جعلت المنجنيق و رميتهم به لهدم حائطهم، فقال عمرو:

تستطيع أن يفنى مقامك من الصف، و قيل له: إنّ العدوّ قد غشوك و نحن نخاف على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٠۶

رابطة يريدون امرأته، فقال: إذا يتخذوا أرباطا كثيرة.

و لما استجرّ القتال، بارز رجل من الروم، مسلمة بن مخلد، فصرعه الروميّ، و ألقاه عن فرسه، و هوى إليه ليقتله، حتى حماه رجل من أصحابه، و كان مسلمة لا يقاوم، و لكنها مقادير، ففرحت بذلك الروم و شق على المسلمين، و غضب عمرو بن العاص لذلك، و كان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن، فقال عمرو عند ذلك: ما بال الرجل السته الذى يشبه النساء يتعرّض مداخل الرجال، و يتشبه بهم، فغضب من ذلك مسلمة، و لم يراجعه، ثم اشتدّ القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية، فقاتلهم العرب فى الحصن، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعا من الحصن إلا- أربعة نفر تفرّقوا فى الحصن، و أغلقوا عليهم باب الحصن، أحدهم: عمرو بن العاص، و الآخر مسلمة، و لم نحفظ الآخرين، و حالوا بينهم و بين أصحابهم، و لا- يدرى الروم من هم، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص و أصحابه التجأوا إلى ديماس من حماماتهم، فدخلوا فيه، فاحترزوا به، فأمروا روميا أن يكلمهم بالعربية، فقال لهم: إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى، فاستأسروا، و لا تقتلوا أنفسكم فامتنعوا عليه، ثم قال لهم: إنّ فى أيدى أصحابكم منا رجالا أسروهم، و نحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا، و لا- نقتلكم، فأبوا عليه، فلما رأى ذلك الروميّ منهم قال لهم: هل لكم إلى خصلة، و هى نصف فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا، و أمكنتمونا من أنفسكم، و إن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم، فرضوا بذلك، و تعاهدوا عليه، و عمرو و مسلمة و صاحباهما فى الحصن فى الديماس، فتداعوا إلى البراز فبرز رجل من الروم، و قد وثقت الروم بنجدته و شدّته، و قالوا: يبرز رجل منكم لصاحبنا، فأراد عمرو أن يبرز، فمنعه مسلمة، و قال: ما هذا تخطىء مرّتين تشذ من أصحابك، و أنت أمير، و إنما قوامهم بك، و قلوبهم معلقة نحوك لا يدرون ما أمرك، و لا ترضى حتى تبارز و تتعرّض للقتل، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك مكانك، و أنا أكفيك إن شاء اللّه تعالى، فقال عمرو: دونك فربما فرّجها اللّه بك، فبرز مسلمة للروميّ، فتجاولا ساعة، ثم أعانه اللّه عليه، فقتله. فكرّ مسلمة و أصحابه و وفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، ففتحوا لهم باب الحصن، فخرجوا و لا يدرى الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك، فأسفوا على ذلك، و أكلوا أيديهم تغيظا على ما فاتهم، فلما خرجوا استحيى عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب، فقال عمرو عند ذلك: استغفر لى ما كنت قلت لك، فاستغفر له، و قال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار: مرّتين فى الجاهلية، و هذه الثالثة، و ما منهنّ مرّة إلا و قد ندمت، و ما استحييت من واحدة منهنّ أشدّ مما استحييت مما قلت لك، و و اللّه إنى لأرجو أن لا أعود إلى الرابعة ما بقيت، قال: و أقام عمرو محاصر الإسكندرية أشهرا، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، قال: ما أبطأوا بالفتح إلا لما أحدثوا، و كتب إلى عمرو بن العاص: أمّا بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنين و ما ذاك إلا لما أحدثتم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٠٧

و أحببتم من الدنيا ما أحب عدوّكم، فإنّ اللّه تبارك و تعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم، و قد كنت وجهت إليك أربعة نفر، و أعلمتك أن الرجل منهم مقاوم ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غيّرهم ما غيّر غيرهم، فإذا أتاك كتابى هذا فاخطب الناس، و حضهم على قتال عدوّهم، و رغبهم فى الصبر و النية، و قدّم أولئك الأربعة فى صدور الناس و مر الناس جميعا أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد، و ليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة، و وقت الإجابة و ليعجّ الناس إلى اللّه، و يسألوه النصر على عدوّهم، فلما أتى عمرو بن العاص رضى اللّه عنه الكتاب، جمع الناس و قرأ عليهم كتاب عمر رضى اللّه عنه، ثم دعا أولئك النفر فقدّمهم أمام الناس، و أمر الناس أن يتطهروا، و يصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى اللّه تعالى و يسألوه النصر، ففعلوا، ففتح اللّه عليهم.

و يقال: إنّ عمرو بن العاص استشار مسلمة، فقال: أشر عليّ فى قتال هؤلاء، فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة و تجارب من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذى يباشر القتال و يكفيكه، فقال عمرو: من ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت، فدعاه عمرو فأتاه و هو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت ناولنى سنان رمحك، فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه، و عقد له، و ولاه قتال الروم، فتقدّم عبادة مكانه، فصادف الروم و قاتلهم، ففتح اللّه على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.

و كان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل، تسعة أشهر و خمسة أشهر قبل ذلك، و فتحت يوم الجمعة لمستهل المحرّم سنة إحدى و عشرين، و قال أبو عمرو الكندى: و حاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر، ثم فتحها عنوة و هو الفتح الأوّل، و يقال: بل فتحها عمرو لمستهل المحرّم سنة إحدى و عشرين.

قال القضاعىّ عن الليث: أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها، و فتحها ستة أشهر، ثم انتقل إلى الفسطاط، فاتخذها دارا فى ذى القعدة.

و قال ابن عبد الحكم: فلما هزم اللّه تعالى الروم، و فتح الإسكندرية، هرب الروم فى البرّ و البحر، فخلف عمرو بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه و مضى و من معه فى طلب من هرب من الروم فى البرّ، فرجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلّا من هرب منهم، و بلغ ذلك عمرا، فكرّ راجعا، ففتحها، و أقام بها و كتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: قد فتح علينا الإسكندرية بغير عقد و لا عهد، فكتب إليه عمرو رضى اللّه عنه يقبح رأيه، و يأمره أن لا يجاوزها. قال ابن لهيعة: و هو فتح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۰۸

الإسكندرية الثانى، و كان سبب فتحها هذا: أنّ رجلا يقال له: ابن بسامة كان بوّابا، فسأل عمرا أن يؤمّنه على نفسه و أرضه و أهل بيته، و يفتح له الباب، فأجابه عمرو إلى ذلك، ففتح له ابن بسامة الباب، فدخل عمرو و قتل من المسلمين من حين كان من آمر الإسكندرية ما كان إلى أن فتحت اثنان و عشرون رجلا، و بعث عمرو بن العاص، معاوية بن خديج وافدا إلى عمر بن الخطاب بشيرا له بالفتح، فقال له معاوية: ألا تكتب معى، فقال له عمرو:

و ما أصنع بالكتاب أ لست رجلا عربيا تبلغ الرسالة، و ما رأيت و حضرت.

فلما قدم على عمر، أخبره بفتح الإسكندرية فخرّ عمر ساجدا، و قال: الحمد للّه، و قال معاوية بن خديج: بعثنى عمرو بن العاص إلى عمر رضى اللّه عنه بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة فى الظهيرة، فأنخت راحلتى بباب المسجد ثم دخلت المسجد، فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فرأتنى شاحبا عليّ ثياب السفر، فأتتنى، و قالت: من أنت؟ فقلت: أنا معاوية بن خديج، رسول عمرو بن العاص، فانصرفت عنى، ثم أقبلت تشدّ أسمع حفيف إزارها على ساقها، حتى دنت منى، ثم قالت:

قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك، فتبعتها، فلما دخلت فإذا بعمر يتناول رداءه بإحدى يديه، و يشدّ إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟

فقلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح اللّه الإسكندرية فخرج معى إلى المسجد، فقال للمؤذن: أذن فى الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، ثم قال لى: قم فأخبر أصحابك، فقمت فأخبرتهم ثم صلى و دخل منزله، و استقبل القبلة، فدعا بدعوات، ثم جلس، فقال: يا جارية! هل من طعام؟ فأتت بخبز و زيت، فقال: كل، فأكلت حياء، ثم قال: كل، فإنّ المسافر يحب الطعام فلو كنت آكلا لأكلت معك، فأصبت على حياء، ثم قال: يا جارية! هل من تمر؟ فأتت بتمر فى طبق، فقال: كل، فأكلت على حياء، ثم قال: ما ذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت: أمير المؤمنين قائل، قال:

بئس ما قلت، أو بئس ما ظننت لئن نمت النهار لأضيعنّ الرعية، و لئن نمت الليل لأضيعنّ نفسى، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية.

ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك إلى عمر بن الخطاب: أمّا بعد! فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية، بأربعة آلاف حمام، و أربعين ألف يهودىّ، عليهم الجزية، و أربعمائة ملهى للملوك.

و عن أبى قبيل: أنّ عمرا لما فتح الإسكندرية وجد فيها: اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر، و ترحل من الإسكندرية فى الليلة التى دخلها عمرو، و فى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو، سبعون ألف يهودىّ.

و كان بالإسكندرية فيما أحصى من الحمامات: اثنا عشر ألف ديماس، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس، كل مجلس يسع جماعة نفر، و كان عدّة من بالإسكندرية من الروم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۰۹

مائتى ألف رجل، فلحق بأرض الروم أهل القوّة و ركبوا السفن، و كان بها مائة مركب من المراكب الكبار، فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال و المتاع و الأهل، و بقى من بقى من الأسارى من بلغ الخراج، فأحصى يومئذ ستمائة ألف، سوى النساء و الصبيان، فاختلف الناس على عمرو فى قسمها، فكان أكثر الناس يريدون قسمها، فقال عمرو: لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه يعلمه بفتحها و شأنها، و يعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها، فكتب إليه عمر: لا تقسمها و ذرها يكون خراجها فيئا للمسلمين، و قوّة لهم على جهاد عدوّهم، فأقرّها عمرو، و أحصى أهلها، و فرض عليهم الخراج، فكانت مصر صلحا كلها بفريضة دينارين على كل رجل، لا يزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض و الزرع إلا الإسكندرية، فإنهم كانوا يؤدّون الخراج و الجزية على قدر ما يرى من وليهم لأنّ الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد و لا عقد، و لم يكن لهم صلح و لا ذمّة.

و قد كانت قرى من قرى مصر قاتلت، فسبوا منها قرية يقال لها: بلهيب، و قرية يقال لها: الخيس، و قرية يقال لها: سلطيس، فوقع سباياهم بالمدينة و غيرها، فردّهم عمر بن الخطاب إلى قراهم، و صيرهم و جماعة القبط أهل ذمّة.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أنّ عمرا سبى أهل بلهيب، و سلطيس، و قرطيا و سخا، فتفرّقوا، و بلغ أوّلهم المدينة حين نقضوا، ثم كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بردّهم، فردّ من وج منهم، و فى رواية: إنّ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كتب فى أهل سلطيس خاصة من كان منهم فى أيديكم، فخيروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين له مالهم، و عليه ما عليهم، و إن اختار دينه، فخلوا بينه و بين قريته، فكان البلهيبى، خير يومئذ، فاختار الإسلام.

و فى رواية: إنّ أهل سلطيس، وصا، و بلهيب، ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم، فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم، و قالوا: هؤلاء لنا فىء مع الإسكندرية، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: أن تجعل الإسكندرية و هؤلاء الثلاث قريات، ذمّة للمسلمين، و تضرب عليهم الخراج، و يكون خراجهم، و ما صالح عليه القبط، قوّة للمسلمين على عدوّهم، و لا يجعلون فيئا و لا عبيدا، ففعل ذلك.

و يقال: إنما ردّهم عمر رضى اللّه عنه، لعهد كان تقدّم لهم. و قال ابن لهيعة: جبى عمرو جزية الإسكندرية ستمائة ألف دينار، لأنه وجد ثلثمائة ألف من أهل الذمّة، فقدّر عليهم دينارين دينارين، فبلغت ذلك، و قيل: كانت جزية الإسكندرية ثمانية عشر ألف دينار،

فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك، بلغت ستة و ثلاثين ألف دينار، و يقال: إنّ عمرو بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١٠

العاص، استبقى أهل الإسكندرية، فلم يقتل و لم يسب، بل جعلهم ذمّة كأهل النوبة.

ذكر ما كان من فعل المسلمين بالإسكندرية و انتقاض الروم

قال ابن عبد الحكم: فأمّا الإسكندرية فلم يكن بها خطط، و إنما كانت أخائذ، من أخذ منزلا نزل فيه هو و بنو أبيه، و إنّ عمرو بن العاص، لما فتح الإسكندرية، أقبل هو و عبادة بن الصامت، حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص، فقال معاوية بن خديج: ننزل، فنزل عمرو القصر، و نزل أبو ذر منزلا كان غربىّ المصلى الذى عند مسجد عمرو، مما يلى البحر، و قد انهدم، و نزل معاوية بن خديج فوق التل، و ضرب عبادة بن الصامت خباءه فلم يزل فيه حتى خرج من الإسكندرية.

و يقال: إنّ أبا الدرداء كان معه، و اللّه أعلم. قال: فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الناس، و ربعا فى السواحل، و النصف مقيمون معه، و كان يصير بالإسكندرية خاصة الربع فى الصيف، بقدر ستة أشهر، و يعقب بعدهم شاتية ستة أشهر، و كان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه، و اتخذوا فيه أخائذ.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أن المسلمين لما سكنوا الإسكندرية فى رباطهم، ثم قفلوا، ثم غزوا ابتدروا، فكان الرجل منهم يأتى المنزل الذى كان فيه صاحبه قبل ذلك، فيبتدره فيسكنه، فلما غزوا قال عمرو: إنى أخاف أن تخرّبوا المنازل إذا كنتم تتعاورونها، فلما كان عند الكريون قال لهم: سيروا على بركة اللّه، فمن ركز منكم رمحه فى دار فهى له، و لبنى بنيه، فكان الرجل يدخل الدار، فيركز رمحه فى منزل منها، ثم يأتى الآخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار، فكانت الدار تكون لقبيلتين و ثلاث، و كانوا يسكنونها حتى إذا قفلوا سكنها الروم، و عليهم مرمّتها، و كان يزيد بن أبى حبيب يقول: لا يحلّ من كرائها شىء، و لا بيعها و لا يورث منها شىء، إنما كانت لهم يسنونها فى رباطهم.

و عن يزيد بن أبى حبيب: أنّ عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية، و رأى بيوتها و بناءها مفروغا منها، همّ أن يسكنها، و قال: مساكن قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، يستأذنه فى ذلك، فسأل عمر الرسول: هل يحول بينى و بين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو: إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى و بينهم شتاء و لا صيفا، فتحوّل عمرو بن العاص إلى الفسطاط، و قال: و كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص، و هو نازل بمدائن كسرى، و إلى عامله بالبصرة، و إلى عمرو بن العاص، و هو نازل بالإسكندرية أن لا تجعلوا بينى و بينكم ماء، متى ما أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم، قدمت، فتحوّل سعد بن أبى وقاص من مدائن كسرى إلى الكوفة، و تحوّل صاحب البصرة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١١

المكان الذى كان فيه، فنزل البصرة، و تحوّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط، و كان عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية، و كان على الولاء لا يغفلها، و يكنف مرابطها، و لا يأمن الروم عليها.

و كتب عثمان رضى اللّه عنه إلى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح: قد علمت كيف كان همّ أمير المؤمنين بالإسكندرية، و قد نقضت الروم مرّتين، فألزم الإسكندرية مرابطيها، ثم أجر عليهم أرزاقهم، و أعقب بينهم فى كل ستة أشهر، قال: و كانت الإسكندرية انتقضت، و جاءت الروم عليهم، منويل الخصىّ فى المراكب، حتى أرسوا بالإسكندرية، فأجابهم من بها من الروم، و لم يكن المقوقس تحرّك و نكث، و قد كان عثمان رضى اللّه عنه، عزل عمرو بن العاص، و ولى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، فلما نزلت الروم، سأل أهل مصر، عثمان أن يقرّ عمرا حتى يفرغ من قتال الروم، فإنّ له معرفة بالحرب و هيبة فى العدوّ، ففعل.

و كان على الإسكندرية سورها، فحلف عمرو بن العاص: لئن أظفره اللّه عليهم ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من

كل مكان، فخرج إليهم عمرو فى البرّ و البحر، فضموا إلى المقوقس من أطاعه من القبط، و أمّا الروم فلم يطعه منهم أحد، فقال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضهم قبل أن يكثر مددهم، فلا آمن أن تنتقض مصر كلها، فقال عمرو:

لا، و لكن أدعهم حتى يسيروا إلىّ فإنهم يصيبون من مرّوا به، فيخزى اللّه بعضهم ببعض، فخرجوا من الإسكندرية و معهم من نقض من أهل القرى، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها، و يأكلون أطعمتها، و ينتهبون ما مرّوا به، فلم يتعرّض لهم عمرو، حتى بلغوا نفيوس، فلقوهم فى البرّ و البحر، فبدأت الروم القبط، فرموا بالنشاب فى الماء رميا شديدا، حتى أصابت النشاب يومئذ فرس عمرو فى لبته، و هو فى البرّ، فعقر فنزل عنه عمرو، ثم خرجوا من البحر، فاجتمعوا هم و الذين فى البرّ، فنفحوا المسلمين بالنشاب، فاستأخر المسلمون عنهم شيئا، و حملوا على المسلمين حملة ولى المسلمون منها، و انهزم شريك بن سمىّ فى خيله، و كانت الروم قد جعلت صفوفا خلف صفوف، و برز يومئذ بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب، فدعا إلى البراز، فبرز إليه رجل من زبيد يقال له: حومل، يكنى: أبا مذحج، فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح، و أخذ السيف، فألقى حومل رمحه، و أخذ سيفه، و كان يعرف بالنجدة، فجعل عمرو يصيح: أبا مذحج، فيجيبه: لبيك، و الناس على شاطىء النيل فى البرّ على تعبيتهم و صفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيف، ثم حمل عليه البطريق، فاحتمله، و كان نحيفا فاخترط حومل خنجرا، كان فى منطقته أو فى ذراعه، فضرب به نحر العلج أو ترقوته، فأثبته و وقع عليه، فأخذ سلبه، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمه اللّه، فرؤى عمرو يحمل سريره بين عمودى نعشه حتى دفنه بالمقطم، ثم شدّ المسلمون عليهم، فكانت هزيمتهم، فطلبهم

المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح اللّه عليهم، و قتل منويل الخصى، و قتلهم عمرو حتى أمعن فى مدينتهم، فكلم فى ذلك، فأمر برفع السيف عنهم، و بنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا، و هو المسجد الذى بالإسكندرية الذى يقال له:

مسجد الرحمة، سمى بذلك لرفع عمرو السيف هناك، و هدم سورها كله، و جمع ما أصاب منهم، فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض، فقالوا: قد كنا على صلحنا، و قد مرّ علينا هؤلاء اللصوص، فأخذوا متاعنا و دوابنا، و هو قائم فى يديك، فردّ عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه، و أقاموا عليه البينة، و قال بعضهم لعمرو: ما حلّ لك ما صنعت بنا، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا فى ذمّتك، و لم ننقض، فأما من نقض، فأبعده اللّه، فندم عمرو و قال:

يا ليتنى كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية.

و كان سبب نقض الإسكندرية هذا أن ظلما صاحب إخنا قدم على عمرو، فقال:

أخبرنا ما على أحدنا من الجزية، فيصير لها، فقال عمرو، و هو يشير إلى ركن كنيسة: لو أعطيتنى من الركن إلى السقف ما أخبرتك؟ إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، و إن خفف عنا خففنا عنكم، فغضب صاحب إخنا، و خرج إلى الروم فقدم بهم، فهزمهم اللّه تعالى، و أسر فأتى به إلى عمرو، فقال له الناس: اقتله، فقال: لا بل انطلق، فجئنا بجيش آخر و سوّره و توجه و كساه برنس أرجوان، فرضى بأداء الجزية، فقيل له: لو أتيت ملك الروم، فقال: لو أتيته لقتلنى، و قال: قتلت أصحابى، و عن أبى قبيل: أن عتبة بن أبى سفيان عقد لعلقمة القطيفىّ على الإسكندرية، و بعث معه اثنى عشر ألفا فكتب علقمة إلى معاوية بن أبى سفيان، يشكو عتبة حين غرّر به، و بمن معه، فكتب إليه معاوية: إنى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام، و بخمسة آلاف من أهل المدينة، فكان فى الإسكندرية سبعة و عشرون ألفا، و فى رواية: أن علقمة بن يزيد كان على الإسكندرية، و معه اثنا عشر ألفا، فكتب إلى معاوية: إنك خلفتنى بالإسكندرية، و ليس معى إلا اثنا عشر ألفا ما يكاد بعضنا يرى بعضا من القلة، فكتب إليه معاوية: إنى قد أمددتك بعبد اللّه بن مطيع فى أربعة آلاف من أهل المدينة، و أمرت معن بن يزيد السلمىّ أن يكون بالرملة فى أربعة آلاف مسكين بأعنة خيولهم متى بلغهم عنك فزع، يعبروا إليك. قال ابن لهيعة: و قد كان عمرو بن العاص يقول: ولاية مصر جامعة، تعدل الخلافة.

و كان عمرو حين توجه إلى الإسكندرية، خرّب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان.

و اختلف علينا السبب الذى خربت له، فحدثنا سعيد بن عفير: أنّ عمرا لما توجه إلى نفيوس، لقتال الروم، عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح، فاختطفه أهل الخربة، فغيبوه، ففقده عمرو، و سأل عنه وقفا أثره، فوجدوه فى بعض دورهم، فأمر بإخرابها و إخراجهم منها، و قيل: كان أهل الخربة رهبانا كلهم، فغدروا بقوم من ساقة عمرو، فقتلوهم بعد أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١٣

بلغ عمرو الكريون، فأقام عمرو و وجه إليهم وردان، فقتلهم و خرّبها فهى خراب إلى اليوم، و قيل: كان أهل الخربة، أهل تويت، و خبت، فأرسل عمرو إلى أرضهم، فأخذ له منها جراب فيه تراب من ترابها، فكلمهم فلم يجيبوه إلى شىء، فأمر بإخراجهم، ثم أمر بالتراب ففرش تحت مصلاه، ثم قعد عليه، ثم دعاهم، فكلمهم، فأجابوه إلى ما أحبّ، ثم أمر بالتراب فرفع، ثم دعاهم فلم يجيبوه إلى شىء، فعل ذلك مرارا، فلما رأى عمرو ذلك، قال: هذه بلدة لا يصلح أن توطأ، فأمر بإخرابها، فلما هزم اللّه الروم، أراد عثمان رضى اللّه عنه، أن يكون عمرو بن العاص على الحرب، و عبد اللّه بن سعد على الخراج، فقال عمرو:

إنا إذا كماسك البقرة بقرنيها، و آخر يحلبها؛ فأبى عمرو، و كان فتح عمرو هذا عنوة قسرا فى خلافة عثمان سنة خمس و عشرين، و بينه و بين الفتح الأوّل أربع سنين. و قال الليث: كان فتح الإسكندرية الأوّل سنة اثنتين و عشرين، و كان فتحها الآخر خمسة و عشرين. و أقامت الجيش من السماء يقاتلون الناس سبع سنين بعد أن فتحت مصر مما يفتحون عليهم من تلك المياه و الغياض، قال: ثم غزا عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، ذا الصوارى، فى سنة أربع و ثلاثين.

و كان من حديث هذه الغزوة: أنّ عبد اللّه بن سعد لما نزل ذو الصوارى أنزل نصف الناس، مع بسر بن أرطاة فى البرّ، فلما مضوا أتى آت إلى عبد اللّه بن سعد فقال: ما كنت فاعلا- حين ينزل بك ابن هرقل فى ألف مركب فافعله الساعة، و كانت مراكب المسلمين مائتى مركب و نيفا، فقام عبد اللّه بن سعد بين ظهرانى الناس، فقال: بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل إليكم فى ألف مركب فأشيروا علىّ، فما كلمه رجل من المسلمين، فجلس قليلا لترجع إليهم أفئدتهم، ثم قام الثانية، فكلمهم فما كلمه أحد، فجلس. ثم قام الثالثة، فقال:

إنه لم يبق شىء فأشيروا علىّ، فقام رجل من أهل المدينة، كان متطوّعا مع عبد اللّه بن سعد، فقال: أيها الأمير، إنّ اللّه جلّ ثناؤه يقول: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة/ ٢٤٩]، فقال عبد اللّه: اركبوا، فركبوا، و إنما فى كل مركب نصف شحنته، لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البرّ مع بسر، فلقوهم، فاقتتلوا بالنبل و النشاب، و تأخر ابن هرقل، لئلاتصيبه الهزيمة، و جعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار، فقال:

ما فعلوا؟ قالوا: قد اقتتلوا بالنبل و النشاب، فقال: غلبت الروم، ثم أتوه فقال: ما فعلوا؟

قالوا: قد نفد النبل و النشاب فهم يرمون بالحجارة، فقال: غلبت الروم، ثم أتوه فقال:

ما فعلوا؟ قالوا: قد نفدت الحجارة، و ربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف، قال: غلبت الروم، و كانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال، قال: فقرن مركب عبد اللّه يومئذ و هو الأمير بمركب من مراكب العدوّ، فكان مركب العدوّ يجترّ مركب عبد اللّه إليهم، فقام علقمة بن يزيد القطيفىّ، و كان مع عبد اللّه بن سعد فى المركب، فضرب السلسلة بسيفه، فقطعها فسأل عبد اللّه امرأته بعد ذلك، بسيسة ابنة حمزة بن يشرح، و كانت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١٤

مع عبد اللّه يومئذ، و كان الناس يغزون بنسائهم فى المراكب: من رأيت أشدّ قتالا؟ قالت علقمة: صاحب السلسلة، و كان عبد اللّه قد خطب بسيسة إلى أبيها، فقال له: إن علقمة قد خطبها، و له علىّ فيها رأى، فإن تركها أفعل، فكلم عبد اللّه علقمة، فتركها، فتزوّجها عبد اللّه بن سعد، ثم هلك عنها عبد اللّه، فتزوّجها بعده علقمة بن زيد، ثم هلك عنها علقمة، فتزوّجها بعده كريب بن أبرهة، و ماتت تحته. و قيل: مشت الروم إلى قسطنطين ابن هرقل فى سنة خمس و ثلاثين، فقالوا: أ نترك الإسكندرية فى أيدى العرب و هى مدينتنا الكبرى؟ فقال: ما أصنع بكم ما تقدرون أن تمالكوا ساعة إذا لقيتم العرب، قالوا: اخرج على أنا نموت، فتبايعوا على ذلك، فخرج فى

ألف مركب يريد الإسكندرية، فسار فى أيام غالبة الرياح، فبعث اللّه عليهم ريحا فغرّقهم إلا قسطنطين فإنه نجا بمركبه، فألقته الريح بصقلية، فسألوه عن أمره فأخبرهم، فقالوا: شتّت النصرانية، و أفنيت رجالها لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردّهم، فقال: خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا، فصنعوا له الحمام، و دخلوا عليه فقال: ويلكم يذهب رجالكم، و تقتلون ملككم؟ قالوا: كأنه غرق معهم، ثم قتلوه و خلوا من كان معه فى المركب. قال أبو عمرو الكنديّ: و إنما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صوارى المراكب و اجتماعها.

ذكر بحيرة الإسكندرية

قال ابن عبد الحكم: كانت بحيرة الإسكندرية كروما كلها لامرأة المقوقس، فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم، فكثر الخمر عليها، حتى ضاقت به ذرعا، فقالت: لا حاجة لى فى الخمر، أعطونى دنانير، فقالوا: ليس عندنا، فأرسلت إليهم الماء، فغرّقتها فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان حتى استخرجها الخلفاء من بنى العباس، فسدّوا جسورها و زرعوها، ثم صارت بحيرة طولها إقلاع يوم فى عرض يوم، و يصير إليها الماء من أشتوم فى البحر الروميّ، و يخرج منها إلى بحيرة دونها فى خليج عليه مدينتان: إحداهما الحدبة، و الأخرى اتكو، و هى كثيرة المقاثى و النخل، و كلها فى الرمل و يصب فى هذه البحيرة خليج من النيل يسمى: الحافر، طوله نصف يوم أقلاعا، و هو كثير الطير و السمك و العشب، و كان السمك بوجود هذه البحيرة فى الإسكندرية غاية فى الكثرة، يباع بأقلّ القيم، و أبخس الأثمان، ثم انقطع الماء عن هذه البحيرة منذ.

ذكر خليج الإسكندرية

يقال: إن كلوباطرة الملكة، هى التى ساقت خليج الإسكندرية حتى أدخلته إليها، و لم يكن يبلغها الماء، فحفرته حتى أدخلته الإسكندرية، و بلطت قاعه بالرخام من أوّله إلى آخره، و لم يزل يوجد ذلك فيه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١٥

و قال أبو الحسن المخزومى فى كتاب المنهاج: أمّا خليج الإسكندرية فإنه من فوهة الخليج إلى ترعة بودرة ليس على شيء منها سدّ بمخرج محلة تبوك اسينة أورين محلة، فرنو محلة، حسن منية طراد، و تعرف بالقاعة محلتا نصر و مسروق، فأمّا ترعة لقانة فإنها تفتح بعد سبعة أيام من توت، و الترعة الجديدة تفتح فى السادس عشر من توت، و ترعة بودرة تفتح بعد سبعة أيام من توت، و ترعة بو يحيى، و ترعة بو السحما، و ترعة القهوقية ليس على شيء من ذلك سدّ، و ترعة الشراك تفتح بعد سبعة أيام من توت، و ترعة بو خراشة، و ترعة البربيط يشرب منها ديسو و سمخراط، و شيرنوبة، و منية حماد، و سنادة، و بعض محلة مارية، و ترعة فيشة بلخا تفتح فى ثانى عشر توت، و جرت العادة أن تفتح فى النوروز، ترعة بويط، و مقطع سمديسة يفتح فى الثانى و العشرين من توت، و مقطع ياطس يفتح فى تاسع عشر توت، و لما سدّ المقطع المذكور عملت بعد ذلك ترعة تروى الصفقة القبلية منها، فتفتح فى يوم النوروز، و لما استحدثت ترعة أفلاقة، و خرجت فى أرض ياطس جرت العادة إذا رويت الصفقة القبلية من أفلاقة، تطلق الترعة المذكورة على القسم البحرىّ من ياطس إلى أن يروى، و ترعة القارورة محدثة، و ترعة بفوها تفتح فى ثانى عشر توت، و ترعة افلاقة تفتح فى عاشر توت، و ترعة اسكنيدة تفتح فى سادس توت.

تراع

بحر دمنهور تفتح فى العشرين من مسرى إلى سادس توت، و يروى منها بعض طاموس، و بعض كنيسة الغيط، و بعض قرطسا و دمنهور، ترعة القواديس منها تشرب شبرا النخلة، و كوم التلول، و تراع شبرا النخلة تفتح على أعاليها من أوّل توت، و ترعة بسطرى تفتح فى خامس عشر مسرى، و ترعة مسيد تفتح فى ثامن توت، و ترعة سنتوية تفتح فى ثامن عشر توت، و بحر دمشوية يفتح فى

العشرين من مسرى، و منه تشرب منية رزقون و سفط كرداسة و دمشوية و محلة الشيخ و مصيل، و ترعة دمشوية تفتح فى تاسع توت و يقيم الماء عليها سبعة عشر يوما، و تفتح إلى محلة الشيخ و مصيل يقيم الماء عليها ثلاثين يوما، و يسدّ بعد ذلك على دمشوية سبعة أيام، و على سفط و منية رزقون، ترعة برسيق كانت تفتح فى أوّل توت.

محلة برسيق: ليس عليها سدّ.

محلة الكروم تفتح فى ثامن توت و منها تشرب عدّة أماكن و هى محلة الكروم و كفورها، و هى دنيسة، و كوم الولائد و كوم الصخرة و ديرامس و الصفاصف، و ما يخرج عن كفورها، و هى تلمسان و الجلمون من حقوق محلة كيل، و منها تشرب الجهة الغربية.

شبرابار ليس عليها سدّ و ترعة قافلة كانت تفتح فى ثامن توت، و ليس عليها الآن سدّ، و ترعة بلقطر و كفورها كانت تفتح فى تاسع توت، و ليس عليها الآن سدّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١۶

ترعة الراهب ليس عليها سدّ، و ترعة دسونس المقاريضى تسقى الحلفاية و تفتح فى ثامن توت، و كذلك ترعة مرحنا و الملعقية، و ترعة نيلامة، و بيشاى، و آخر تراع الحجيجة، و ترعة الكريون تفتح فى ثامن توت، و ترعة السلقون كانت تفتح فى سادس توت، و ليس عليها الآن سدّ، و ترعة أرمياخ تفتح فى ثانى عشر توت، و ترعة ابلوق تفتح فى سادس توت، و أمّا جون رمسيس، فإنّ بحر رمسيس كان يضرب السدّ فيه على تراع رمسيس من أوّل النيل إلى سابع عشر توت، و الذى يشرب من السدّ المذكور من النواحى و الكفور رمسيس و محلة جعفر و فليشان، و بعض أبنية البعيدىّ، و بعض خربتا و بعض البلكوس، و بعض بولين و بعض محلة وافد و البيضاء، و بعض طيلاس، ثم يفتح سدّ دكدولة، و هو محدث يقيم الماء عليه عشرة أيام، و تشرب منه دكدولة، و محلة معن و منية أسامى و بعض صيفية، ثم يقطع سدّ الفطامى و هو محدث، و منه يشرب بعض جنبوية و بليانة البحرية و السرّة و أبو حمار و البهوط، ثم يقطع سدّ رسونس، و أبو دينار و ترعة طبرينة، فيشرب منه دنسال و طلموس يقيم الماء عليها ستة أيام، و منه تشرب منية عطية و سلطيس.

و أما

بحر دمنهور فإنه يسدّ على سلطيس إلى سابع عشر توت، و منه تشرب سلطيس و زهرا و بعض طابوس و بعض قرطسا و بعض كنيسة الغيط و دمنهور، ثم يقطع سدّ نديبة و هو محدث فيقيم ثمانية أيام و منه تشرب نديبة و دقرس و العميرية و النسرين، ثم يفتح و يسدّ على محلة خفض، و محلة كيل و محلة نمير، ثم يقطع سدّ سلطيس، و هو محدث فيقيم عشرة أيام بعد اختلاط الماءين ببحر دمنهور، و رمسيس، ثم يقطع جسر ملولة و منه تشرب تروجة و أرسيس و المراسى و غابة الأعساس و بعض سمرو، و محلة نمير، و يبقى هناك إلى انقضاء النيل.

و أمّا

ترعة طبرينة فهى محدثة و إذا رويت طبرينة تطلق على دسونس أمّ دينار، ثم تقطع على طاموس بمقدار ريّها ثم تطلق فى النيل العالى على أرض قراقس و يطلق الماء على قرطسا و كنيسة الغيط و خليج الطبرينة إذا خرج الماء منه يسقى منه فى أوّل النيل إلى أن يضرب جسر شبراوسيم، فيسقى منه شبراوسيم، و بعض البلكوس، و حفيرة الزعفرانى، و بعض بولين، و مسجد غانم و الصوّاف و كوم شريك و منية مغبين، و تل الفطامى و محلة وافد، ثم يقطع جسر دليجة، و منه يشرب بعض خربتا، و بعض فليشان و بعض بولين و البيضاء، و دنست و تلبانة الأبراج، و تل بقا و الحدّين و اليهودية، و النسوم، و أبو صمادة و الحصن و قلاوة بنى عبيد و طوخ دخاية و درشا و سقرا و دليجة و لمحة و طيبة، ثم يقطع على منية و زراقة الحجر و المحزون و بعض حيارس و افزيم و أبو سمار و أمّ الضروع.

خليج ابن زلوم و يعرف بخليج ابن ظلوم، و سدّ مخرج التعيدى لا يفتح إلى عشرة أيام من توت، و منه يشرب شابور و كنيسة مبارك و بعض سرسيقة و بعض دموشة و منية يزيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١٧

و حوض الماصلى و حصة سلمون و بعض سنيت و بعض التعيدى و بعض فليشان، ثم يفتح فيشرب منه أمليط و بعض انباى و بعض كنيسة عبد الملك و بعض أرمنية و ميسنا و بعض محلة عبيد و سفط خالد و برنامة و شبرانوبة و كيمان شراس، و بعض دمشوه و تقام الحرّاس على جسر سفط، و يشرب من خليج الإسكندرية و ما يفيض منه أهل الباطن، و أهل البحيرة فى فجاج و أودية، فيكون ذلك الماء صلة و هم قبيل من دنانة و الرمحانة و بنى يزان، و قبائل البربر، و يزرعون عليه فيستوفى منهم الخراج و بين مشارق الفرما من ناحية جوجير و قاقوس و بين آخر ما يشرب من خليج الإسكندرية مسيرة شهر كان عامرا كله فى محلول و معقود إلى ما بعد الخمسين و ثلثمائة من سنى الهجرة، و قد خرب معظم ذلك.

و قال أبو بكر الطرطوسى عمن حدّثه من مشايخ البحر أنه قال: شاهدت الإسكندرية و الصيد فى الخليج: مطلق للرعية و السمك فيه يطفو الماء به كثرة، حتى تصيده الأطفال بالخرق، ثم حجره الوالى و منع الناس من صيده فذهب حتى كاد لا يرى فيه إلا الواحدة بعد الواحدة إلى يومنا هذا. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج ١ ؛ ص٣١٧

قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب الموالى عن الحارث بن مسكين: أنه تقلد قضاء مصر من قبل أمير المؤمنين الواثق باللّه فى سنة تسع و ثلاثين و مائتين، فذكر سيرته و قال:

و حفر خليج الإسكندرية، و ورد الكتاب بصرفه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و أربعين و مائتين.

و قال جامع السيرة الطولونية: و فى ربيع الأوّل سنة تسع و خمسين و مائتين أمر أحمد بن طولون بحفر خليج الإسكندرية.

و قال المسعودىّ: و قد كان النيل انقطع عن بلاد الإسكندرية قبل سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، و قد كان الإسكندر، بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل و كان عليها معظم ماء النيل، فكان يسقى الإسكندرية، و بلاط مربوط، و كانت بلاد مربوط، فى نهاية العمارة و الجنان المتصلة بأرض برقة، و كانت السفن تجرى فى النيل و تتصل بأسواق الإسكندرية، و قد بلط أرض خليجها فى المدينة بالأحجار و المرمر و انقطع الماء عنها لعوارض سدّت خليجها، و منعت الناس دخوله، فصار شربهم من الآبار، و صار النيل على يوم منهم.

و ذكر المسبحىّ: أن الحاكم بأمر اللّه، أبا منصور بن العزيز، أطلق لحفر خليج الإسكندرية فى سنة أربع و أربعمائة، خمسة عشر ألف دينار، فحفر كله، و فى سنة اثنتين و ستين و ستمائة، بعث الملك الظاهر بيبرس، الأمير عليا أمير جاندار لحفر خليج الإسكندرية، و قد امتلأت فوهته بالطين، و قلّ الماء فى الإسكندرية فابتدأ بالحفر من التعيدى، و أنشأ هناك مسجدا و تولى مباشرة هذا الحفر، المعلم تعاسيف، ناظر الدواوين، ثم بعث السلطان فى سنة أربع و ستين و ستمائة لحفر هذا الخليج، الأمير علم الدين سنجر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣١٨

المسرورى، ثم سار بعامّة الأمراء و الأجناد و باشر الحفر بنفسه، و عمل فيه الأمراء، و جميع الناس إلى أن زالت الرمال التى كانت على الساحل بين التعيدى و فم الخليج، ثم عدّى إلى بار نبار، و غرّق مراكب هناك، و بنى عليها بالحجارة، فلما تم الغرض عاد إلى قلعة الجبل، ثم تعطل استمرار جريان الماء فيه بطول السنة، و صار يحفر سريعا بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء إليه، و احتاج أهل الإسكندرية فى طول السنة إلى الشرب من الصهاريج التى يخزن فيها الماء إلى أن كانت سنة عشر و سبعمائة، فقدم الأمير بدر الدين بكتوت الخزندارى المعروف بأمير شكار، متولى الإسكندرية إلى قلعة الجبل، و حسّن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون حفره، و ذكر له ما فى ذلك من المنافع أوّلها حمل الغلال و أصناف المتجر إلى الإسكندرية فى المركب، و فى ذلك توفير للكلف و زيادة فى مال الديوان، و ثانيها عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى بإنشاء الضياع و السواقى، فينمو الخراج بهذا نموّا كثيرا، و ثالثها انتفاع الناس به فى عمارة بساتينهم، و شرب مائه دائما، فأعجب السلطان ذلك، و ندب الأمير بدر الدين محمد بن كندغدى بن الوزيرى مع بكتوت لعمله، و تقدّم إلى جميع أمراء الدولة بإخراج مباشريهم لإحضار رجال النواحى الجارية فى إقطاعاتهم العمل

للحفير، و كتب لولاة الأعمال بالوقوف فى العمل، فاجتمع من النواحى نحو الأربعين ألف رجل، جمعت فى نحو العشرين يوما، و وقع العمل فى شهر رجب من السنة المذكورة و أفرد لكل أهل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل، فجاء قياس الحفر، من فم بحر النيل إلى ناحية شنبار، ثمانية آلاف قصبة حاكمية، و من شنبار إلى الإسكندرية مثلها، و كان الخليج الأصلىّ يدخل الماء إليه، من حدّ شنبار، فجعل فم هذا البحر يرمى عليه، و عمل عمقه، ست قصبات فى عرض، ثمانى قصبات، فلما انتهوا إلى حدّ الخليج الأوّل حفر أيضا على نظير الخليج المستجدّ، فصارا بحرا واحدا، و ركبت عليه السدود، و القناطر، و وجد فى الخليج الأوّل عند حفره من الرصاص المبنىّ تحت الصهاريج شىء كثير جدّا، فلم يتعرّض السلطان لشىء منه، و أنعم به على الأمير بكتوت، و عظمت المشقة فى حفر هذا الخليج، فإنّ الذى تجاوز البحر منه غلب عليه الماء، فصارت الرجال تغطس فيه و ترفع الطين من أسفله، ثم كثر الماء فركبت السواقى حتى نزحته، إلا أنّ عظيم النفع به سهل جميع ذلك، فإنّ السفن جرت فيه طول السنة، و استغنى أهل الإسكندرية عن شرب ماء الصهاريج، و بادر الناس للعمارة على جانبى الخليج، فلم يمض غير قليل حتى استجدّ عليه ما يزيد على مائة ألف فدّان زرعت بعد ما كانت سباخا، و ما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس و النيلة و السمسم، و فوق الأربعين ضيعة، و أزيد من ألف غيط بالإسكندرية، و عمرت منه عدّة بلاد كثيرة، و تحوّل عالم عظيم إلى سكنى ما استجدّ عليه.

و فيه: و لما فرغ العمل فى الخليج شرع الأمير بكتوت فى عمل جسر من ماله، فإنّ الناس كانوا فى وقت هيجان البحر يجدون مشقة عظيمة لغلبة الماء على أراضى السباخ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ٣١٩

فأقام ثلاثة أشهر حتى بنى رصيفا دك أساسه بالحجر و الرصاص، و أعلاه بالحجر و الكلس، و عمل فيه ثلاثين قنطرة، و أنشأ خانا ينزله الناس، و رتب فيه الخفراء و وقف على مصالحه رزقة، فبلغ مصروفه نحو الستين ألف دينار مصرية سوى ما أخذ من الحجارة التى بعضها من قصر قديم كان خارج الإسكندرية، و سوى ما وجده من الرصاص فى سرب بأسفل هذا القصر ينتهى بمن يمشى فيه إلى قريب البحر، و سوى ما أنعم به عليه من الرصاص الموجود بالخليج، و لم يزل الخليج فيه الماء طول السنة إلى ما بعد سنة سبعين و سبعمائة، فانقطع الماء منه و صار الماء لا يدخل إليه إلا فى أيام زيادة ماء النيل فقط ثم يجف عند نقصه فتلف من أجل هذا أكثر بساتين الإسكندرية و خربت و تلاشى كثير من القرى التى كانت على هذا الخليج.

و سبب انقطاع الماء عنه غلبة الروم على الأشتوم الذى كان يعبر منه ماء بحر الملح إلى بحيرة الإسكندرية حتى جفت، و صار الرمل تلقيه الرياح فى الخليج فانطمّ منه و علا قاعه، و قصد من أدركناه من ملوك مصر حفر هذا الخليج غير مرّة، فلم يتهيأ ذلك إلى أن كانت سلطنة الملك الأشرف، برسباى، فندب لحفره الأمير جرباش الكريمى المعروف بعاشق، فتوجه إليه و جمع له من قدر عليه من رجال النواحى فبلغت عدّتهم ثمانمائة و خمسة و سبعين رجلا ابتدؤوا فى حفره من حادى عشر جمادى الأولى سنة ست و عشرين و ثمانمائة إلى حادى عشر شعبان لتمام تسعين يوما، فانتهى عملهم، و مشى الماء فى الخليج، حتى انتهى إلى حدّه من مدينة الإسكندرية، و جرت فيه السفن، فسرّ الناس به سرورا كبيرا و جبى ما أنفق على العمال فى الحفر من أرباب النواحى التى على الخليج، و من أرباب البساتين بالإسكندرية، و لم يكن فى حفره كبير شناعة مما جرت به عادة الولاة فى مثل ذلك، و للّه الحمد، و عند ما انتهى قدم الأمير جرباش إلى قلعة الجبل، فخلع السلطان عليه و شكره، ثم عمله حاجب الحجاب، فلم يستمرّ ذلك إلا قليلا حتى انطمّ بالرمل و تعذر سلوك الخليج بالمراكب إلا فى أيام النيل فقط.

ذكر جمل حوادث الإسكندريّة

و فى سنة تسع و تسعين و مائة، عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبد اللّه الخزاعىّ أمير مصر، و بين عبد العزيز بن الوزير الجروىّ، الثائر بتنيس، فعقد المطلب على الإسكندرية، لمحمد بن هبيرة بن هاشم بن خديج، فاستخلف محمد خاله، عمر بن عبد

الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج، الذى يقال له: عمر بن ملاك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۲۰

ثم عزله المطلب بعد ثلاثة أشهر، بأخيه الفضل بن عبد اللّه بن مالك، و كانت بالإسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم، و كان سبب قدوم هذه المراكب ما جرى لأهل قرطبة بوقعة الربض مع الحكم بن هشام فى سنة اثنتين و ثمانين و مائة، فأخرج جماعة منهم، فوصلوا إلى صغر الإسكندرية، زيادة على عشرة آلاف، و كان سبب ثورتهم أنّ قصابا من الإسكندرية، رمى وجه رجل منهم بكرش، فأنفوا من ذلك و صاروا إلى ما صاروا إليه، و ذلك لما نزلوا رمل الإسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم، و كذلك كانوا على الزمان، و كانت الأمراء لا تبيحهم دخول الإسكندرية إنما كان الناس يخرجون إليهم، فيبايعونهم، فلما عزل عمر بن ملاك كتب إليه عبد العزيز الجرويّ يأمره بالوثوب على الإسكندرية، و الدعاء له بها، فبعث عمر بن ملاك إلى الأندلسيين، فدعاهم إلى القيام معه فى إخراج الفضل عنها، فساروا معه، و أخرج الفضل، و دعا للجروى، فوثب أهل الإسكندرية على الأندلسيين و أخرجوهم و ردّوا الفضل، و قتل من الأندلسيين نفر، و انهزم الباقون إلى مراكبهم، فعزل المطلب أخاه، و ولى عليها إسحاق بن أبرهة بن الصباح، فى شهر رمضان سنة تسع و تسعين، ثم عزله بأبى ذكر بن جنادة المعافرى.

فلما اقتتل السرى بن الحكم هو و المطلب بن عبد اللّه، و غلب السرى على مصر، وثب عمر بن ملاك، على أبى بكر، و أخرجه من الإسكندرية، و دعا للجروىّ، و أقبل الأندلسيون إليه فأفسدوا، فأمرهم بالخروج إلى مراكبهم، فشق ذلك عليهم، و ظهرت بالإسكندرية طائفة يسمون بالصوفية، يأمرون بالمعروف، و يعارضون السلطان فى أموره، فترأس عليهم رجل منهم يقال له: أبو عبد الرحمن الصوفىّ، فصاروا مع الأندلسيين يدا واحدة، و اعتضدوا بلخم، و كانت لخم أعز من فى ناحية الإسكندرية، فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفىّ إلى عمر بن ملاك فى امرأة، فقضى على أبى عبد الرحمن، فوجد فى نفسه من ذلك، و خرج إلى الأندلسيين فألّف بينهم و بين لخم، و رجا أهل الأندلس أن يدركوا ثارا من عمر بن ملاك، فساروا إلى عمر بن ملاك، و هم زهاء عشرة آلاف، فحصروه فى قصره، و خشى أنّ القصر لا يمنعه منهم، و خاف أن يدخلوا عليه عنوة، فيفضح فى حرمه، فاغتسل، و تحنط، و تكفن، و أمر أهله أن يدلوه إليهم، فدلى فأخذته السيوف، فقتل.

ثم ولى أخوه محمد بن عبد اللّه الذى يلقب: جيوس، فقتل، ثم ولى عليهم عبد اللّه البطال بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج، فقتل، ثم ولى عليهم أخوه أبو هبيرة الحارث، فقتل، ثم ولى عليهم خديج بن عبد الواحد، فقتل، و انصرف القوم، و ذلك فى ذى القعدة، ثم فسد ما بين لخم و الأندلسيين عند مقتل ابن ملاك و اقتتلوا، فانهزمت لخم.

فظفر الأندلسيون بالإسكندرية فى ذى الحجة، فولوها أبا عبد الرحمن الصوفىّ، فبلغ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۲۱

من الفساد و النهب و القتل ما لم يسمع بمثله، فعزله الأندلسيون، و ولوا رجلا منهم يعرف بالكنانىّ، ثم حاربت بنو مدلج الأندلسيين فظفر بهم الأندلسيون و نفروهم عن البلاد، فلم يقدر بنو مدلج على الرجوع إلى أرض الإسكندرية حتى طلب السرىّ من الأندلسيين أن يردّوهم، فأذنوا لهم حينئذ و رجعوا، و كان أبو قبيل يقول: أنا على الإسكندرية من أربعين مركبا مسلمين و ليسوا بمسلمين، تأتى فى آخر الصيف أخوف منى عليها من الروم، فيقال له: ما هذه الأربعون مركبا فى هذا الخلق، لو كانت نيرانا تضطرم، فيقول: اسكت ويلك منها، و ممن فيها يكون خراب الإسكندرية و ما حولها، و بلغ عبد العزيز الجروىّ قتل ابن ملاك، فسار فى خمسين ألفا، حتى نزل على حصن الإسكندرية، و حصرها حتى أجهد من فيها، فبلغه: أن السرى بن الحكم بعث إلى تنيس بعثا، فكرّ راجعا فى المحرّم سنة إحدى و مائتين، فدعا الأندلسيون للسرى، ثم لما خلع أهل مصر المأمون، و دعوا لإبراهيم بن المهدىّ، و قام الجروىّ بذلك سار إلى الإسكندرية و حصر الأندلسيين حتى دخلها صلحا، و دعى له بها ثم سار عنها إلى الفسطاط، فحارب السرى و قتل ابنه، ثم انصرف، فسار الأندلسيون بعامل الجروىّ، و أخرجوه من الإسكندرية و خلعوا الجروىّ، و دعوا للسرىّ فسار إليهم الجروىّ فى شهر

رمضان سنة ثلاث و مائتين، فعارضته القبط بسخا و أمدّتهم بنو مدلج، و هم فى نحو من مائتى ألف فهزمهم، و بعث بجيوشه إلى الإسكندرية فحاصروها، و كانت بين السرىّ و بين أهل الصعيد حروب، ثم إنّ الجروىّ سار إلى الإسكندرية سيره الرابع، و حاصرها و نصب عليها المجانيق سبعة أشهر، من أوّل شعبان سنة أربع و مائتين إلى سلخ صفر سنة خمس، فأصاب الجروىّ فلقة من حجر منجنيقة، فمات سلخ صفر سنة خمس و مائتين، و قام من بعده ابنه علىّ.

فلم تزل الفتن بالأندلسيين فى الإسكندرية متصلة إلى أن قدم عبد اللّه بن طاهر إلى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون، و أخرج عبيد اللّه بن السرىّ من مصر، و سار إلى الإسكندرية فى قوّاد العجم من أهل خراسان مستهلّ صفر سنة اثنتى عشرة و مائتين، فحاصرها بضع عشرة ليلة، حتى خرج إليه أهلها بأمان و صالحه الأندلسيون على أن يسيرهم من الإسكندرية حيث أحبوا، على أن لا يخرجوا فى مراكبهم أحدا من أهل مصر، و لا ـ عبدا و لا ـ آبقا، فإن فعلوا فقد حلت له دماؤهم، و نكث عهدهم و توجهوا، فبعث ابن طاهر، من يفتش عليهم مراكبهم، فوجدوا فيها جمعا من الذين اشترط عليهم أن لا ـ يخرجوهم، فأمر بإحراق مراكبهم، فسألوه أن يردّهم إلى شرطهم، ففعل و ساروا إلى جزيرة أقريطش، و ملكوها، و كان الأمير معهم أبو حفص عمر بن عيسى، ثم ملكها ولده من بعده، و عمرها الأندلسيون إلى أن غزاها الروم سنة خمس و أربعين و ثلثمائة، و ملكها بعد حصار طويل، و ولى على الإسكندرية إلياس بن أسد بن سامان، و رجع إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة، ثم سار إلى العراق، و لما انتقض أسفل الأرض فى جمادى الأولى سنة ست عشرة و مائتين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٢٢

و حاربهم الأفشين و معه عيسى بن منصور الرافقىّ أمير مصر، و بعث عبد اللّه بن يزيد بن مزيد الشيبانىّ إلى الغربية، فانهزم إلى الإسكندرية، و استجاشت عليه بنو مدلج و حصروه فى شوّال، فسار الأفشين و أوقع بمن فى طريقه حتى قدم الإسكندرية فى جنوده، فلقيته طائفة من بنى مدلج، فهزمهم مرّتين و أسر منهم و قتل و دخل الإسكندرية لعشر بقين من ذى الحجة، ففرّ منه رؤساؤها.

و كان عليها معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج، فأصلح أمرها، ثم خرج إلى أهل البشرود، فامتنعوا عليه حتى قدم المأمون إلى مصر، فصار إلى البشرود و الأفشين قد أوقع بالقبط بها كما تقدّم ذكره.

و لما ولى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب إفريقية فى سنة إحدى و ستين و مائتين حسنت سيرته، فكانت القوافل و التجار تسير فى الطرق و هى آمنة و بنى الحصون، و المحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبتة إلى الإسكندرية، فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية فى ليلة واحدة، و بينهما مسيرة أشهر.

و فى سنة اثنتين و ثلثمائة دخل حباسة فى جيوش إفريقية إلى الإسكندرية فى المحرّم، و معه مائة ألف أو زيادة عليها، و قدمت الجيوش من المشرق، مددا لتكين أمير مصر، و سار حباسة من الإسكندرية و نودى بالنضير فى الفسطاط لعشر بقين من جمادى الآخرة، فلم يتخلّف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة و العامّة، إلا من عجز عن الحركة لمرض، أو عذر، و أتاهم حباسة فلقوه و هزموه، ثم دار عليهم، فقتل من أهل مصر نحوا من عشرة آلاف، و نهض حباسة إلى إفريقية، و أقاموا بمصر مضطربين.

فأقبل مؤنس الخادم من العراق فى رمضان بجيوش كثيرة، فصرف تكين فى ذى القعدة، و ولى ذكاء الأعور فى صفر سنة ثلاث و ثلثمائة، فخرج فى جيوشه إلى الإسكندرية، و تتبع كل من يومأ إليه بمكاتبة صاحب إفريقية، فسجن منهم، و قتل كثيرا و جلا أهل لوبية و مراقية إلى الإسكندرية فى شوّال سنة أربع و ثلثمائة، خوفا من صاحب برقة.

و فى سنة سبع و ثلثمائة، سارت مقدّمة المهدىّ، عبيد اللّه من إفريقية مع ابنه أبى القاسم إلى لوبية، فهرب أهل الإسكندرية وجلوا عنها، و خرج منها مظفر بن ذكاء الأعور فى جيشه، و دخلت إليها العساكر يوم الجمعة لثمان خلون من صفر، و فرّ أهل القوّة من الفسطاط إلى الشأم، فخرج ذكاء أمير مصر إلى الجيزة، و عسكر بها، ثم مرض و مات على مصافه بالجيزة فى ربيع الأوّل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٢٣

فولى تكين بعده ولايته الثانية من قبل المقتدر، و نزل الجيزة و أقبلت مراكب صاحب إفريقية إلى الإسكندرية عليها سليمان الخادم، فقدم ثمل الخادم صاحب مراكب طرسوس، فالتقيا برشيد فى شوّال، فاقتتلا فبعث اللّه ريحا على مراكب سليمان ألقتها إلى البر فتكسر أكثرها، و أخذ من فيها أخذا باليد، و قتل أكثرهم، و أسر من بقى و سيقوا إلى الفسطاط فقتل منهم نحو سبعمائة رجل، و سار أبو القاسم بن المهدى من الإسكندرية إلى الفيوم، و ملك جزيرة الأشمونين و الفيوم، و أزال عنها جند مصر، فمضى ثمل الخادم فى مراكبه إلى الإسكندرية، فقاتل من بها من أهل إفريقية، فظفر بهم، و نقل أهل الإسكندرية إلى رشيد و عاد إلى الفسطاط، و مضى فى مراكبه إلى اللاهون، و لحقته العساكر، فدخلوا إلى الفيوم فى صفر سنة سبع و ثلثمائة، فخرج أبو القاسم بن المهدى إلى برقة، و لم يكن بينهما قتال، و رجعت العساكر إلى الفسطاط، و ما زالت الإسكندرية و أعمالها فى اضطراب إلى أن قدمت جيوش المعز لدين اللّه، مع القائد جوهر فى سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، فملكتها و ما برحت إلى أن قام بها نزار بن المستنصر، و كان من أمره ما قد ذكر عند ذكر خزائن القصر.

و فى سنة اثنتى عشرة و ستمائة، اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج، و قدمت بطسة إلى المينا فيها من ملوك الفرنج، ملكان، فهموا أن يثوروا و يقتلوا أهل البلد، و يملكوها، فتوجه الملك العادل، أبو بكر بن أيوب، إليها و قبض على التجار المذكورين، و على من بالبطسة و استصفى أموالهم، و سجنهم و سجن الملكين، و جرت خطوب حتى أطلق السلطان نساءهم، و عاد إلى القاهرة.

و فى سنة أربع و خمسين و خمسمائة، بنى الملك الصالح طلائع بن رزيك على بلبيس حصنا من لبن.

و فى سنة اثنتين و ستين و خمسمائة، كانت وقعة البابين بين الوزير شاور، و أسد الدين شيركوه، فانهزم عسكر شيركوه، و مضى منهم طائفة إلى الإسكندرية، ثم كانت لشيركوه على شاور، فانهزم منه إلى القاهرة، و مضى شيركوه إلى الإسكندرية، فخرج إليه أهل الثغر، و فيهم: نجم الدين محمد بن مصال والى الثغر و قاضيه الأشرف بن الخباب، و ناظره القاضى الرشيد بن الزبير، و سرّوا بقدومه و سلّموه المدينة؛ ثم سار منها يريد بلاد الصعيد.

و استخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الثغر فى ألف فارس، فنزل عليه شاور، و معه: مرى ملك الفرنج، فقام معه أهل الثغر، و استعدّوا لقتال شاور، فكان ما أخرجوه أربعة و عشرين ألف فرس، فوعدهم شاور أن يضع عنهم المكوس و الواجبات، و يعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين، فأبوا ذلك، و ألحوا فى قتاله، فحصرهم حتى قلّ الطعام عندهم، فتوجه إليهم شيركوه و قد حشد من العربان جموعا كثيرة، فبعث إليه شاور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٢۴

و بذل له خمسة آلاف دينار على أن يرجع إلى الشأم، فأجابه إلى ذلك، و فتحت المدينة، و خرج صلاح الدين إلى مرى ملك الفرنج، و جلس معه، فما زال به شاور أن يسلمه صلاح الدين، فلم يوافقه، بل سيره إلى عمه شيركوه من البحر على عكا بمن معه إلى دمشق، و دخل شاور إلى الإسكندرية فى سابع عشر شوّال، فاستتر ابن مصال، و فرّ إلى الشأم، و قبض على ابن الخباب، و عوقب حتى فداه أهله بمال جزيل، و لم يقدر على ابن الزبير، و خرج إلى رشيد.

هذا و قد امتنع الفقيه أبو الطاهر بن عوف، و جماعة كثيرة بالمنار فوقف عليهم شاور، فقال له ابن عوف: اعذرنا يا أمير الجيوش، و سامحنا بما فعلناه، فعفا عنهم، و ولى القاضى الأشرف أبا القاسم عبد الرحمن بن منصور بن نجا، ناظرا على الأموال، و خرج و معه مرى ملك الفرنج إلى القاهرة، ثم توجه مرى إلى بلاده.

و فى سنة إحدى و سبعين و ستمائة، ورد الخبر بحركة الفرنج إلى ثغور مصر، فاهتم الملك الظاهر بيبرس بأمر الشوانى، و نصب على أسوار الإسكندرية نحو مائة منجنيق.

و فى يوم الخميس شهر رجب سنة سبع و عشرين، خرج بعض تجار الفرنج إلى ظاهر باب البحر حيث تجتمع العامّة للفرجة، و تعرّض إلى صبىّ أمرد يراوده عن نفسه، فأنكر ذلك بعض من هناك من المسلمين، و قال: هذا ما يحل، فأخذ الفرنجى خفا كان بيده، و

ضربه على وجهه، فصاح بالناس، فأتوه، فقام الفرنج مع صاحبهم، و اتسع الخرق إلى أن ركب متولى الثغر، و أغلق أبواب المدينة، و طلب من آثار الفتنة ففرّوا، و عاد إلى داره، و ترك الأبواب مغلقة، و كان بظاهر المدينة خلق كثيرة قد توجهوا على عادتهم فى حوائجهم فحيل بينهم و بين بيوتهم، و جاء الليل و هم قيام على الأبواب يضجون و يصيحون، فمضى أعيان البلد إلى المتولى، و ما زالوا به، حتى فتح لهم، فدخلوا مبادرين و هم يزدحمون، فمات منهم زيادة على عشرة أنفس، و تلفت أعضاء جماعة، و ذهب من عمائم الناس و مناديلهم، و غير ذلك شىء كثير؛ و عظم البكاء و الصراخ طول الليل، فلما كان من الغد، ركب الوالى لكشف أحوال الناس، فتكاثروا عليه و رجموه، فانهزم منهم إلى داره فتبعوه و قاتلوه، فقاتلهم من أعلى الدار حتى سفكت بينهما دماء كثيرة، و أحرقوا بابه، و نهبوا دورا بجانبه.

فكتب يستنجد والى دمنهور و من حوله من العربان، فأتوه و احتاطوا بالمدينة، و سرّح الطائر إلى السلطان بخروج أهل الإسكندرية عن الطاعة، فاشتدّ غضبه و خشى من إطلاقهم الأمراء المسجونين، و بعث إلى القضاة فجمعهم و استفتاهم فى قتالهم، فكتبوا بما يجب، و خرج إليهم الوزير مغلطاى الجمالىّ، و طوغان شادّ الدواوين، و أيدمر أمير جندار، و عدّة من المماليك السلطانية، و ناظر الخاص، و مع الوزير تذكرة بإراقة دماء أهل الفساد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٢٥

و مصادرة جماعة و أخذ أموال أهل البلد، و القبض على الأسلحة المعدّة بها للغزاة و إمساك القاضى و الشهود و حمل الأمراء المسجونين إلى القاهرة، فساروا فى عاشره، و قدموا الثغر بعد ثلاثة أيام، و نزل الوزير بالخيس، و فرض على الناس خمسمائة ألف دينار مصرية، و أحضر قاضى القضاة، عماد الدين و نائبه فى الحديد، و أنكر عليهما كونهما شهرا النداء فى البلد بالغزاة فى سبيل اللّه، فأنكرا وقوع هذا منهما، و أنهما لم يكن فى قدرتهما ردّ السواد الأعظم، فضرب نائبه ابن الشيبى ضربا مبرّحا، و ألزمه بحمل ستمائة ألف درهم، و ألزم القاضى بخمسمائة ألف درهم، و كان قد رسم بشنقه، فتلطف فى مكاتبة السلطان، و اعتذر عنه و برّأه حتى عفا عنه، و تتبع العامّة فوسط منهم ثلاثين رجلا فى يوم الجمعة، ثالث عشره، فتسارع الناس إلى دورهم من الخوف، فذهبت عدّة عمائم و اشتدّ الخوف مدّة عشرين يوما، و كتب السلطان تتوالى بالإيقاع بأهل الثغر، و أخذ أموالهم و الوزير يحسن فى الجواب إلى أن جهز الأمراء المسجونين، و سار من الثغر، و قد استعرض ما به من السلاح، فوجد ستة آلاف عدّة كاملة جعلها جميعها فى قاعة و ختم عليها، و بلغت الجباية من الناس ما ينيف على مائتين و ستين ألف دينار، فكانت هذه من المحن العظيمة، و الحوادث الشنيعة، و للّه الأمر من قبل و من بعد.

ذكر مدينة أتريب

هذه المدينة بناها أتريب بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. قال ابن وصيف شاه: و كان أتريب قد انتقل إلى حيزه بعد موت أبيه قبطيم، و هى المدينة التى كان أبوه بناها له، و كان طولها اثنى عشر ميلا، و لها اثنا عشر بابا، و جعل فى شارعها الأعظم ثلاث قباب عالية على أعمدة بعضها فوق بعض منها قبة فى وسط المدينة، و قبتان فى طرفيها، و جعل على كل قبة مرقبا كبيرا و فى كل ناحية منها ملعبا، و مجالس و منتزهات تشرق، و شق فى غربيها نهرا و عقد عليه قناطر، و جعل من فوقها مجالس متصلة، و حولها المنازل تدور بالخليج متصلة بالقناطر على رياض مزروعة من خلفها الجنان و البساتين، و على كل باب من الأبواب، أعجوبة من تماثيل و أصنام متحرّكة، و أصنام تمنع من يؤذى، و جعل فى داخل كل باب صورة شيطانين من صفر، فإذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذى عن يمنة الباب، و إن كان من أهل الشرّ بكى الشيطان الذى عن يسرة الباب، و جعل فى كل منتزه منها من الوحش الآلف و الطيور المغرّدة كل مستحسن، و فوق قباب المدينة صورا تصفر إذا هبت الرياح، و نصب مرآة ترى البلاد البعيدة، و بنى حذاءها فى الشرق مدينة، و جعل فيها ملاعب و أصناما بارزة فى صور مختلفة، و فى وسطها بركة إذا مرّ بها الطير سقط عليها، فلا

يبرح حتى يؤخذ و جعل لها حصنا، باثنى عشر بابا، على كل باب تمثال يعمل بأعجوبة، و عمل حواليها جنانا، و جعل بالقرب منها فى ناحية الشرق مجلسا منقوشا على ثمانى أساطين، و فوقه قبة عليها طائر منشور الجناحين يصفر فى كل يوم ثلاث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٢٦

تصفيرات، بكرة و نصف النهار و عند غروب الشمس، و أقام فيها أصناما و عجائب كثيرة، و بنى مدنا كثيرة، و أقام فيها رجلا يقال له: برسان، يعمل الكيمياء، و ضرب منها دنانير فى كل دينار، سبعة مثاقيل عليها صورته، و عاش أتريب ملكا ثلثمائة و ستين سنة، و بلغ من العمر خمسمائة سنة، و عمل له ناوس فى جبل بالشرق، حفر له تحته سرب بطن بالزجاج و المرمر، و جعل على سرير من ذهب مرصع، و حملت إليه ذخائره و جعلوا على بابه صورة تنين لا يدنو منه أحد إلا أهلكه، و سوّروا عليه الرمال، و زبروا عليه اسمه و تاريخ وقته.

و قال ابن الكندىّ: أربع كور بمصر ليس على وجه الأرض أفضل منها، و لا تحت السماء لهنّ نظير: كورة الفيوم، و كورة أتريب، و كورة سمنود، و كورة أنصنا؛ و كورة أتريب من جملة كور أسفل الأرض، و هى مائة و ثمانى قرى.

و كان يقال: مدائن السحرة من ديار مصر سبع و هى: أرمنت، و بيا، و بوصير، و أنصنا، و صان، و أتريب، و صا.

ذكر مدينة تنيس

تنيس: بكسر التاء المنقوطة باثنتين من فوقها و كسر النون المشدّدة و ياء آخر الحروف و سين مهملة: بلدة من بلاد مصر فى وسط الماء، و هى من كورة الخليج سميت بتنيس بن حام بن نوح، و يقال: بناها قليمون من ولد أتريب بن قبطيم، أحد ملوك القبط فى القديم.

قال ابن وصيف شاه: و ملكت بعد أتريب، ابنته، فدبرت الملك وساسته بأيد و قوّة خمسا و ثلاثين سنة، و ماتت، فقام بالملك من بعدها، ابن أختها، قليمون الملك، فردّ الوزراء إلى مراتبهم، و أقام الكهان على مواضعهم و لم يخرج الأمر عن رأيهم، و جدّ فى العمارات و طلب الحكم.

و فى أيامه بنيت تنيس الأولى التى غرّقها البحر، و كان بينه و بينها شىء كثير و حولها الزرع و الشجر و الكروم و قرى و معاصر للخمر و عمارة لم يكن أحسن منها، فأمر الملك أن يبنى له فى وسطها مجالس، و ينصب له عليها قباب و تزين بأحسن الزينة و النقوش، و أمر بفرشها و إصلاحها، و كان إذا بدا النيل يجرى، انتقل الملك إليها، فأقام بها إلى النوروز، و رجع و كان للملك بها أمناء يقسمون المياه، و يعطون كل قرية قسطها، و كان على تلك القرى، حصن يدور بقناطر، و كان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها و الزيادة فيها و يجعلها له منتزها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٢٧

و يقال: إنّ الجنتين اللتين ذكرهما اللّه تعالى فى كتابه العزيز إذ يقول: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ [الكهف/ ٣٢] الآيات، كانتا لأخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع، فأحسنا عمارته و هندسته و بنيانه، و كان الملك يتنزه فيهما، و يؤتى منهما بغرائب الفواكه و البقول، و يعمل له من الأطعمة و الأشربة ما يستطيبه، فعجب بذلك المكان أحد الأخوين، و كان كثير الضيافة و الصدقة، ففرّق ماله فى وجوه البرّ، و كان الآخر ممسكا يسخر من أخيه إذا فرّق ماله، و كلما باع من قسمه شيئا اشتراه منه حتى بقى لا يملك شيئا، و صارت تلك الجنة لأخيه و احتاج إلى سؤاله، فانتهره و طرده، و عيره بالتبذير، و قال: قد كنت أنصحك بصيانة مالك، فلم تفعل، و نفعنى إمساكى فصرت أكثر منك مالا و ولدا، و ولى عنه مسرورا بماله و جنته، فأمر اللّه تعالى البحر، فركب تلك القرى، و غرّقها جميعها، فأقبل صاحبها يولول و يدعو بالثبور و يقول: يا ليتنى لم أشرك بى أحدا، قال اللّه جلّ جلاله: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ [الكهف/ ٤٣].

و فى زمان قليمون الملك، بنيت دمياط، و ملك قليمون تسعين سنة، و عمل لنفسه ناوسا فى الجبل الشرقىّ، و حوّل إليه الأموال و

الجواهر و سائر الذخائر، و جعل من داخله تماثيل تدور بلواليب فى أيديها سيوف من دخل قطعته، و جعل عن يمينه و يساره، أسدين من نحاس مذهب بلوالب، من أتاه حطماه، و زبر عليه: هذا قبر قليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصر عمّر دهرا، و أتاه الموت فما استطاع له دفعا، فمن وصل إليه فلا يسلبه ما عليه و ليأخذ من بين يديه.

و يقال: إنّ تنيس أخ لدمياط.

و قال المسعودىّ فى كتاب مروج الذهب و غيره: تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء و طيب تربة، و كانت جنانا و نخلا و كرما و شجرا و مزارع، و كانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض، و لم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض، و لا أحسن اتصالا من جنانها و كرومها، و لم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم، و كان الماء منحدرا إليها لا ينقطع عنها صيفا و لا شتاء يسقون جنانهم إذا شاءوا، و كذلك زروعهم و سائره يصب إلى البحر من جميع خلجانه، و من الموضع المعروف بالأشتوم، و قد كان بين البحر و بين هذه الأرض مسيرة يوم، و كان فيما بين العريش و جزيرة قبرس، طريق مسلوك إلى قبرس، تسلكه الدواب يبسا و لم يكن بين العريش و جزيرة قبرس فى البحر سير طويل، حتى علا الماء الطريق الذى كان بين العريش و قبرس، فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتا و إحدى و خمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم: بحيرة تنيس، فأغرقه و صار يزيد فى كل عام، حتى أغرقها بأجمعها، فما كان من القرى التى فى قرارها غرق، و أما الذى كان منها على ارتفاع من الأرض فبقى منه تونة و بورا و غير ذلك مما هو

باق إلى هذا الوقت، و الماء محيط بها، و كان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تنيس، فنبشوهم واحدا بعد واحد، و كان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن تفتح مصر بمائة سنة. قال: و قد كان لملك من الملوك التى كانت دارها، الفرما مع أركون من أراكنة: البلينا، و ما اتصل بها من الأرض، حروب عملت فيها خنادق و خلجان فتحت من النيل إلى البحر يمتنع بها كل واحد من الآخر، و كان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل و استيلائه على هذه الأرض.

و قال فى كتاب أخبار الزمان: و كانت تنيس عظيمة لها مائة باب، و قال ابن بطلان:

تنيس بلد صغير على جزيرة فى وسط البحر، ميله إلى الجنوب عن وسط الإقليم الرابع، خمس درج، و أرضه سبخة، و هواؤه مختلف، و شرب أهله من مياه مخزونة فى صهاريج تملأ فى كل سنة عند عذوبة مياه البحر بدخول ماء النيل إليها، و جميع حاجاتها مجلوبة إليها فى المراكب، و أكثر أغذية أهلها السمك و الجبن و ألبان البقر، فإنّ ضمان الجبن السلطانىّ سبعمائة دينار حسابا عن كل ألف قالب دينار و نصف، و ضمان السمك عشرة آلاف دينار، و أخلاق أهلها سهلة منقادة، و طبائعهم مائلة إلى الرطوبة و الأنوثة.

قال أبو السرىّ الطبيب: إنه كان يولد بها فى كل سنة مائتا مخنث، و هم يحبون النظافة و الدماثة و الغناء و اللذة، و أكثرهم يبيتون سكارى، و هم قليلو الرياضة لضيق البلد، و أبدانهم ممتلئة الأخلاط و حصل بها مرض يقال له: الفواق التنيسىّ، فلما فتحت دمياط، سار إليها المسلمون، فبرز إليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة و القبط و الروم، فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبى ثور فى أيدى المسلمين، و انهزام أصحابه، فدخل المسلمون البلد و بنوا كنيستها جامعا، و قسموا الغنائم و ساروا إلى الفرما، فلم تزل تنيس بيد المسلمين، إلى أن كانت إمرة بشر بن صفوان الكلبىّ على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك فى شهر رمضان سنة إحدى و مائة، فنزل الروم تنيس، فقتل مزاحم بن مسلمة المرادىّ أميرها فى جمع من الموالى، و فيهم يقول الشاعر:

أ لم تربع فيخبرك الرجال بما لاقى بتنيس الموالى

و كانت تنيس مدينة كبيرة، و فيها آثار كثيرة للأوائل، و كان أهلها مياسير أصحاب ثراء، و أكثرهم حاجة، و بها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا، و كان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له: البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء و لحمة غير أوقيتين، و ينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل و لا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار، و ليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه،

و هو سادج بغير ذهب مائة دينار عينا، غير طراز تنيس و دمياط، و كان النيل إذا أطلق يشرب منه من بمشارق الفرما من ناحية جرجير، و فاقوس من خليج تنيس، فكانت من أجلّ مدن مصر، و إن كانت شطا، و ديفو، و دميرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٢٩

و تونة، و ما قاربها من تلك الجزائر يعمل بها الرفيع فليس ذلك يقارب التنيسيّ و الدمياطيّ، و كان الحمل منها إلى ما بعد سنة ستين و ثلثمائة، يبلغ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق، فلما تولى الوزير يعقوب بن كلس تدبير المال استأصل ذلك بالنوائب، و كان يسكن بمدينة تنيس و دمياط نصارى تحت الذمّة، و كان أهل تنيس يصيدون السمانى و غير ذلك من الطير على أبواب دورهم، و السمانى طائر يخرج من البحر، فيقع فى تلك الشباك، و كانت السفن تركب من تنيس إلى الفرما و هى على ساحل البحر.

و لما مات هارون الرشيد، و قام من بعده ابنه محمد الأمين، و أراد الغدر و النكث بالمأمون، كان على مصر، حاتم بن هرثمة بن أعين من قبل الأمين، فلما ثار عليه أهل تنو، و نمى بعث إليهم السرىّ بن الحكم، و عبد العزيز بن الوزير الجروىّ، فغلبا بعد الثمانية من شوّال سنة أربع و تسعين و مائة، ثم ولى الأمير جابر بن الأشعث الطائىّ مصر، و صرف حاتم بن هرثمة، و كان جابر لينا، فلما تباعد ما بين محمد الأمين و بين أخيه عبد اللّه المأمون، و خلع محمد أخاه من ولاية العهد، و ترك الدعاء له على المنابر، و عهد إلى ابنه موسى، و لقبه بالشديد و دعى له، تكلم الجند بمصر بينهم فى خلع محمد غضبا للمأمون، فبعث إليهم جابر ينهاهم عن ذلك، و يخوّفهم عواقب الفتن، و أقبل السرىّ بن الحكم يدعو الناس، إلى خلع محمد، و كان ممن دخل إلى مصر فى أيام الرشيد من جند، الليث بن الفضل، و كان خاملا فارتفع ذكره بقيامه فى خلع محمد الأمين.

و كتب المأمون إلى أشراف مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته، فأجابوه و بايعوا المأمون فى رجب سنة ست و تسعين و مائة، و وثبوا بجابر، فأخرجوه و ولوا عباد بن محمد، فبلغ ذلك محمد الأمين، فكتب إلى رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشىّ، و كان رئيس قيس الحوف، فانقاد أهل الحوف كلهم معه، يمنها و قيسها، و أظهروا دعوة الأمين، و خلع المأمون، و ساروا إلى الفسطاط لمحاربة أهلها و اقتتلوا، فكانت بينهما قتلى، ثم انصرفوا و عادوا مرارا إلى الحرب، فعقد عباد بن محمد لعبد العزيز الجروىّ، و سيره فى جيش ليحارب القوم فى دارهم، فخرج فى ذى القعدة سنة سبع و تسعين و مائة، و حاربهم بعمريط، فانهزم الجروىّ، و مضى فى قومه من لخم و جذام إلى فاقوس، فقال له قومه: لم لا تدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض؟ فمضى فيهم إلى تنيس، فنزلها ثم بعث بعماله يجبون الخراج من أسفل الأرض، فبعث ربيعة بن قيس يمنعه من الجبايه، و سار أهل الحوف فى المحرّم سنة ثمان و تسعين إلى الفسطاط، فاقتتلوا، و قتل جمع من الفريقين، و بلغ أهل الحوف قتل الأمين، فتفرّقوا.

و ولى إمرة مصر، مطلب بن عبد اللّه الخزاعىّ من قبل المأمون، فدخلها فى ربيع الأوّل، و ولى عبد العزيز الجروىّ شرطته، ثم عزله و عقد له على حرب أسفل الأرض، ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٣٠

صرف المطلب، و ولى العباس بن موسى بن عيسى فى شوّال، فولى عبد العزيز الشرطة، فلما ثار الجند و أعادوا المطلب فى المحرّم سنة تسع و تسعين، هرب الجروىّ إلى تنيس، و أقبل العباس بن موسى بن عيسى من مكة إلى الحوف، فنزل ببلبيس، و دعا قيسا إلى نصرته، ثم مضى إلى الجروىّ بتنيس، فأشار عليه أن ينزل دار قيس، فرجع إلى بلبيس فى جمادى الآخرة، و بها مات مسموما فى طعام دسه إليه المطلب على يد قيس، فدان أهل الأحواف للمطلب، و بايعوه، و سارعوا إلى جب عميرة و سالموه عند ما لقوه، و بعث إلى الجروىّ يأمره بالشخوص إلى الفسطاط فامتنع من ذلك، و سار فى مراكبه حتى نزل شطنوف، فبعث إليه المطلب السرىّ بن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح، فأجابهم إليه، ثم اجتهد فى الغدر بهم، فتيقظوا له، فمضى راجعا إلى بنا، فاتبعوه و حاربوه.

ثم عاد، فدعاهم إلى الصلح و لاطف السرىّ، فخرج إليه فى زلاج و خرج الجروىّ فى مثله، فالتقيا فى وسط النيل مقابل سندفا، و قد

أعدّ الجروىّ فى باطن زلاجة الحبال، و أمر أصحابه بسندفا إذا لصق بزلاج السرىّ، أن يجرّوا الحبال إليهم، فلصق الجروىّ بزلاج السرىّ، فربطه فى زلاجه، و جرّ الحبال، و أسر السرىّ، و مضى به إلى تنيس، فسجنه بها، و ذلك فى جمادى الأولى، ثم كرّ الجروىّ و قاتل، فلقيه جموع المطلب بسفط سليط فى رجب، فظفر، و لما عزل عمر بن ملاك عن الإسكندرية، ثار بالأندلسيين، و دعا للجروىّ، فأقبل عبد اللّه بن موسى بن عيسى إلى مصر طالبا بدم أخيه العباس فى المحرّم سنة مائتين، فنزل على عبد العزيز الجروىّ، فسار معه فى جيوش كثيرة العدد فى البرّ و البحر حتى نزل الجيزة، فخرج إليه المطلب فى أهل مصر، فحاربوه فى صفر، فرجع الجروىّ إلى شرقيون، و مضى عبد اللّه بن موسى إلى الحجاز، و ظهر المطلب على أنّ أبا حرملة فرجا الأسود، هو الذى كاتب عبد اللّه بن موسى، و حرّضه على المسير، فطلبه ففرّ إلى الجروىّ، و جدّ المطلب فى أمر الجروىّ، فأخرج الجروىّ السرىّ بن الحكم من السجن، و عاهده و عاقده على أن يثور بالمطلب و يخلعه، فعاهده السرىّ على ذلك فأطلقه، و ألقى إلى أهل مصر أنّ كتاب ورد بولايته فاستقبله الجند من أهل خراسان، و عقدوا له عليهم و امتنع المصريون من ولايته، فنزل داره بالحمراء، و أمدّه قيس بجمع منهم و حارب المصريين فهزمهم، و قتل منهم، فطلب المطلب منه الأمان، فأمنه، و خرج من مصر.

و استبدّ السرىّ بن الحكم، بأمر مصر فى مستهل شهر رمضان ، فلما قتل الأندلسيون، عمر بن ملاك بالإسكندرية، سار إليها الجروىّ فى خمسين ألفا، فبعث السرىّ إلى تنيس بعثا، فكرّ الجروىّ راجعا إلى تنيس فى محرّم سنة إحدى و مائتين، فلما ثار الجند بالسرىّ فى شهر ربيع الأوّل، و بايعوا سليمان بن غالب، قام عباد بن محمد عليه و خلعه،

و قام بالأمر علىّ بن حمزة بن جعفر بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس، فى مستهل شعبان، فامتنع عباد أن يبايعه، و لحق بالجروىّ، ثم لحق به أيضا سليمان بن غالب، فكان معه و عاد السرىّ إلى ولايته مصر، فى شعبان و قوى سلطانه.

فلما كان فى المحرّم سنة اثنتين مائتين، ورد كتاب المأمون إليه يأمره، بالبيعة لولىّ عهده علىّ بن موسى الرضى، فبويع له بمصر، و قام فى فساد ذلك إبراهيم بن المهدىّ ببغداد، و كتب إلى وجوه الجند بمصر، يأمرهم بخلع المأمون، و ولىّ عهده و بالوثوب على السرىّ، فقام بذلك الحارث بن زرعة بن محرّم بالفسطاط، و عبد العزيز بن الوزير الجروىّ بأسفل الأرض، و مسلمة بن عبد الملك الطحاوىّ الأزدىّ بالصعيد، و خالفوا السرىّ، و دعوا إلى إبراهيم بن المهدىّ، و عقدوا على ذلك الأمر لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدىّ، فحاربه السرىّ، و ظفر به فى صفر و لحق كل من كره بيعة علىّ الرضى بالجروىّ، لمنعته بتنيس و شدّة سلطانه، فسار إلى الإسكندرية، و ملكها و دعى له بها و ببلاد الصعيد، ثم سار فى جمع كبير لمحاربة السرىّ، و استعدّ كل منهما لصاحبه بأعظم ما قدر عليه، فبعث إليه السرىّ ابنه ميمونا، فالتقيا بشطنوف، فقتل ميمون فى جمادى الأولى سنة ثلاث و مائتين، و أقبل الجروىّ على مراكبه إلى الفسطاط ليحرقها، فخرج إليه أهل المسجد، و سألوه الكف، فانصرف عنها و حارب الإسكندرية غير مرّة، و قتل بها من حجر أصابه من منجنيقه فى آخر صفر سنة خمس و مائتين.

و مات السرىّ بعده بثلاثة أشهر فى آخر جمادى الأولى، و قام بعده الجروىّ ابنه علىّ بن عبد العزيز الجروىّ، فحارب أبا نصر محمد بن السرىّ أمير مصر بعد أبيه بشطنوف، ثم التقيا بدمنهور، فيقال: إنّ القتلى بينهما يومئذ كانوا سبعة آلاف، و انهزم ابن السرىّ إلى الفسطاط، فتبعته مراكب ابن الجورىّ، ثم عادت فدخل أبو حرملة فرج بينهما حتى اصطلحا، و مات ابن السرىّ فى شعبان سنة ست و مائتين، فولى بعده أخوه عبيد اللّه بن السرىّ، فكف عن ابن الجروىّ.

و بعث المأمون، مخلد بن يزيد بن مزيد الشيبانىّ إلى مصر فى جيش من ربيعة، فامتنع عبيد اللّه بن السرىّ من التسليم له، و مانعه فاقتتلوا، و انضم علىّ بن الجروىّ إلى خالد بن يزيد، و أقام له الأنزال و أغاثه، و سار حتى نزل على خندق عبيد اللّه بن السرىّ، فاقتتلا فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع و مائتين، و جرت بينهما حروب بعد ذلك آلت إلى ترفع خالد إلى أرض الحوف، فكره ذلك ابن الجروىّ، و مكر به حتى أخرجه من عمله إلى غربىّ النيل فنزل نهيا، و انصرف ابن الجروىّ إلى تنيس، فصار خالد فى ضرّ و جهد، و

عسكر له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٣٢

ابن السرىّ فى شهر رمضان و أسره و أخرجه من مصر إلى مكة فى البحر.

و بعث المأمون، بولاية عبيد اللّه بن السرىّ، على ما فى يده و هو فسطاط مصر، و صعيدها و غربيها، و بولاية علىّ بن عبد العزيز الجروىّ تنيس مع الحوف الشرقىّ، و ضمنه خراجه، و أقبل ابن الجروىّ على استخراج خراجه من أهل الحوف فمانعوه، و كتبوا إلى ابن السرىّ يستمدّونه عليه، فأمدّهم بأخيه، فالتقيا بكورة بنا فى بلقينة، فاقتتلوا فى صفر سنة تسع و مائتين، و امتدّت الحروب بينهما إلى أثناء ربيع الأوّل و هم منتصفون، فانصرف ابن الجروىّ فيمن معه إلى دمياط، فسار ابن السرىّ إلى محلة شريقون، و نهبها و بعث إلى تنيس و دمياط فملكها، و لحق ابن الجروىّ بالفرما، و سار منها إلى العريش، فنزل فيما بينها و بين غزة، ثم عاد و أغار على الفرما فى جمادى الآخرة، ففرّ أصحاب ابن السرىّ من تنيس، و سار ابن الجروىّ إلى شطنوف، فخرج إليه ابن السرىّ، و اقتتلا، فكانت لابن الجروىّ فى أوّل النهار، ثم أتاه كمين ابن السرىّ فانهزم، و ذلك فى رجب، فمضى إلى العريش، و سار ابن السرىّ إلى تنيس و دمياط، ثم أقبل ابن الجروىّ فى المحرّم سنة عشر و مائتين، و ملك تنيس و دمياط بغير قتال، فبعث إليه ابن السرىّ البعوث فحاربهم.

فبينما هم فى ذلك إذ قدم عبد اللّه بن طاهر، فتلقاه ابن الجروىّ بالأموال و الأنزال، و انضم إليه و نزل معه ببلبيس، فامتنع ابن السرىّ، و دافع ابن طاهر، فتراخى له و بعث، فجبى المال، و نزل زفتا، و بعث إلى شطنوف عيسى الجلودىّ على جسر عقده من زفتا، و جعل ابن الجروىّ على سفنه التى جاءته من الشام لمعرفته بالحرب، فهزم مراكب ابن السرىّ فى المحرّم سنة إحدى عشرة، و صالح ابن طاهر عبيد اللّه بن السرىّ فى صفر، و خلع عليه، و أجازه بعشرة آلاف دينار، و أقرّه بالخروج إلى المأمون، فسكنت فتن مصر بعبد اللّه بن طاهر.

و فى سنة سبع و سبعين و ثلثمائة، ولدت بتنيس، معزى جديا له قرون عدّة، و رأسه مع صدره و بدنه، و مقدّمه بصوف أبيض، و مؤخره بشعر أسود، و ذنبه ذنب شاة.

و ولدت امرأة سخلة لها رأس مدوّر، و لها يدان و رجلان و ذنب.

و لثلاث بقين من ذى الحجة من هذه السنة، حدث بتنيس رعد و برق و ريح شديدة و سواد عظيم فى الجوّ، ثم ظهر وقت السحر فى السماء عمود نار احمرّت منه السماء و الأرض أشدّ حمرة و خرج غبار و دخان يأخذ بالأنفس، فلم يزل إلى الرابعة من النهار حتى ظهرت الشمس، و لم يزل كذلك خمسة أيام.

و فى سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، حضر عند قاضى تنيس أبى محمد عبد اللّه بن أبى الريس رجل و امرأة فطالبت المرأة الرجل بفرض واجب عليه، فقال الرجل: تزوّجت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٣٣

بها منذ خمسة أيام، فوجدت لها ما للرجال و ما للنساء! فبعث إليها القاضى امرأة لتشرف عليها، فأخبرت أن لها فوق القبل: ذكرا بخصيتين، و الفرج تحتها، و الذكر أقلف، و إنها رائعة الحسن، فطلقها الزوج.

قال أبو عمرو الكندىّ: حدّثنى أبو نصر أحمد بن علىّ، قال: حدّثنى يس بن عبد الأحد قال: سمعت أبى يقول: لما دخل عبد اللّه بن طاهر مصر كنت فيمن دخل عليه، فقال: حدّثنا عبد اللّه بن لهيعة عن أبى قبيل عن سبيع، قال: يا أهل مصر كيف بكم إذا كان فى بلدكم فتن، فوليكم فيها الأعرج، ثم الأصفر، ثم الأمرد، ثم يأتى رجل من ولد الحسين لا يدفع، و لا يمنع تبلغ راياته البحر الأخضر، يملأها عدلا، فقلت: كان ذلك، كانت الفتنة، فوليها السرىّ و هو الأعرج، و الأصفر ابنه أبو النصر، و الأمرد عبيد اللّه بن السرىّ، و أنت عبد اللّه بن طاهر بن الحسين، ثم إن عبد اللّه بن طاهر سار إلى الإسكندرية، و أصلح أمرها، و أخرج ابن الجروىّ إلى العراق، ثم قدم بالأفشين إلى مصر فى ذى الحجة سنة خمس عشرة، و قد أمر الأفشين أن يطالبه بالأموال التى عنده، فإن دفعها إليه و إلا قتله، فطالبه،

فلم يدفع إليه شيئا، فقدّمه بعد الأضحى بثلاث فقتله.

و فى جمادى الآخرة سنة تسع عشرة و مائتين، ثار يحيى بن الوزير فى تنيس، فخرج إليه المظفر بن كندر أمير مصر، فقاتله فى بحيرة تنيس، و أسره و تفرّق عنه أصحابه.

و فى سنة تسع و ثلاثين و مائتين، أمر المتوكل ببناء حصن على البحر بتنيس، فتولى عمارته، عنبسة بن إسحاق أمير مصر، و أنفق فيه و فى حصن دمياط و الفرما مالا عظيما.

و فى سنة تسع و أربعين و مائتين عذبت بحيرة تنيس صيفا و شتاء، ثم عادت ملحا صيفا و شتاء، و كانت قبل ذلك تقيم ستة أشهر عذبة و ستة أشهر مالحة.

و فى سنة ثمان و أربعين و ثلثمائة، وصلت مراكب من صقلية، فنهبوا مدينة تنيس. و فى سنة ثمان و سبعين و ثلثمائة، صيد بأشتوم تنيس حوت طوله ثمانية و عشرون ذراعا و نصف من ذلك، طول رأسه، تسعة أذرع، و دائر بطنه مع ظهره، خمسة عشر ذراعا، و فتحة فمه، تسعة و عشرون شبرا، و عرض ذنبه، خمسة أذرع و نصف، و له يدان يجذف بهما طول كل يد، ثلاثة أذرع، و هو أملس أغبر غليظ الجلد مخطط البطن ببياض و سواد و لسانه أحمر، و فيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منه أمساط شبه الذبل، و له عينان كعينى البقر.

فأمر أمير تنيس أبو إسحاق بن لوبة به فشق بطنه، و ملح بمائة أردب ملح و رفع فكه الأعلى بعود خشب طويل، و كان الرجل يدخل إلى جوفه بقفاف الملح، و هو قائم غير منحن و حمل إلى القصر حتى رآه العزيز بالله. و فى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الأوّل سنة تسع و سبعين و ثلثمائة، شاهد أهل تنيس، تسعة أعمدة من نار تلتهب فى آفاق السماء من ناحية الشمال، فخرج الناس إلى ظاهر البلد يدعون اللّه تعالى، حتى أصبحوا فخبت تلك النيران، و فيها صيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٣٤

ببحيرة تنيس، حوت طوله ذراع و نصفه الأعلى فيه، رأس و عينان و عنق و صدره على صورة أسد و يداه فى صدره بمخالبه و نصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر فحمل إلى القاهرة. و فى سنة سبع و تسعين و ثلثمائة ولدت جارية بنتا برأسين، أحدهما بوجه أبيض مستدير، و الآخر بوجه أسمر فيه سهولة فى كل وجه عينان، فكانت ترضعهما، و كلاهما مركب على عنق واحد فى جسد واحد بيدين و رجلين و فرج و دبر، فحملت إلى العزيز حتى رآها و وهب لأمها جملة من المال، ثم عادت إلى تنيس و ماتت بعد شهور.

و فى سنة إحدى و سبعين و خمسمائة وصل إلى تنيس من شوانى صقلية نحو أربعين مركبا، فحصروها يومين، و أقلعوا ثم وصل إليها من صقلية أيضا فى سنة ثلاث و سبعين نحو أربعين مركبا فقاتلوا أهل تنيس حتى ملكوها. و كان محمد بن إسحاق صاحب الأسطول قد حيل بينه و بين مراكبه، فتحيز فى طائفة من المسلمين إلى مصلى تنيس، فلما اجنهم الليل، هجم بمن معه البلد على الفرنج، و هم فى غفلة، فأخذ منهم مائة و عشرين، فقطع رؤوسهم، فأصبح الفرنج إلى المصلى و قاتلوا من بها من المسلمين، فقتل من المسلمين نحو السبعين، و سار من بقى منهم إلى دمياط، فمال الفرنج على تنيس و ألقوا فيها النار، فأحرقوها، و ساروا و قد امتلأت أيديهم بالغنائم و الأسرى إلى جهة الإسكندرية بعد ما أقاموا بتنيس، أربعة أيام.

ثم لما كانت سنة ست و سبعين و خمسمائة نزل فرنج عسقلان فى عشر حراريق على أعمال تنيس، و عليها رجل منهم، يقال له: المعز، فأسر جماعة، و كان على مصر، الملك العادل من قبل أخيه الملك الناصر، صلاح الدين يوسف، عند ما سار إلى بلاد الشام، ثم مضى المعز، و عاد فأسر و نهب، فثار به المسلمون، و قاتلوه فظفرهم اللّه به و قبضوا عليه، و قطعوا يديه و رجليه و صلبوه.

و فى سنة سبع و سبعين و خمسمائة، انتدب السلطان لعمارة قلعة تنيس، و تجديد الآلات بها عندما اشتدّ خوف أهل تنيس من الإقامة بها، فقدّر لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار عن ثمن أصناف و آجر.

و فى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة، كتب بإخلاء تنيس، و نقل أهلها إلى دمياط، فأخليت فى صفر من الذرارى و الأثقال، و لم يبق

بها سوى المقاتلة فى قلعتها.

و فى شوّال من سنة أربع و عشرين و ستمائة، أمر الملك الكامل، محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، بهدم مدينة تنيس، و كان من المدن الجليلة تعمل بها الثياب السرية، و تصنع بها كسوة الكعبة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۳۵

قال الفاكهىّ فى كتاب أخبار مكة: و رأيت كسوة مما يلى الركن الغربىّ، يعنى من الكعبة، مكتوبا عليها، مما أمر به السرىّ بن الحكم و عبد العزيز بن الوزير الجروىّ، بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين ، و طاهر بن الحسين سنة سبع و تسعين و مائة، و رأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها إلا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود، مما أمر به أمير المؤمنين، المأمون سنة ست و مائتين، و رأيت كسوة من كسا المهدىّ مكتوبا عليها: بسم اللّه بركة من اللّه لعبد اللّه المهدىّ محمد أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين و ستين و مائة، و رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها: بسم اللّه، بركة من اللّه مما أمر به عبد اللّه المهدىّ محمد أمير المؤمنين أصلحه اللّه محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع و خمسين و مائة.

قال المسبحىّ فى حوادث سنة أربع و ثمانين و ثلثمائة: و فى ذى القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس و دمياط و الفرما بهديته، و هى أسفاط و تخوت و صناديق مال، و خيل و بغال و حمير و ثلاث مظال، و كسوتان للكعبة.

و فى ذى الحجة سنة اثنتين و أربعمائة وردت هدية تنيس الواردة فى كل سنة منها خمس نوق مزينة و مائة رأس من الخيل بسروجها و لجمها و تجافيف و صناعات عدّة، و ثلاث قباب ديبقية بمراتبها، و متحرقات و بنود، و ما جرى الرسم بحمله من المتاع و المال و البز.

و لما قدم الحاكم استدعت أخته، السيدة سيدة الملك إلى عامل تنيس عن الحاكم بأن يحمل مالا كان اجتمع قبله، و يعجل توجيهه، و قيل: إنه كان ألف ألف دينار، و ألفى ألف درهم اجتمعت من ارتفاع البلد لثلاث سنين، و أمره الحاكم بتركها عنده، فحمل ذلك إليها و به استعانت على ما دبرت.

و فى سنة خمس عشرة و أربعمائة ورد الخبر على الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه، أبى هاشم علىّ بن الحاكم بأمر اللّه: أن السودان و غيرهم ثاروا بتنيس، و طلبوا أرزاقهم و ضيقوا على العامل، حتى هرب، و أنهم عاثوا فى البلد و أفسدوا، و مدّوا أيديهم إلى الناس، و قطعوا الطرقات و أخذوا من المودع ألفا و خمسمائة دينار، فقام الجرجراى و قعد، و قال:

كيف يفعل هذا بخزانة السلطان؟ و ساءنا فعل هذا بتنيس، أو بيت المال و سير خمسين فارسا للقبض على الجناة، و ما زالت تنيس مدينة عامرة ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها، و لا أحصن من عمارتها إلى أن خرّبها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة أربع و عشرين و ستمائة، فاستمرّت خرابا، و لم يبق منها إلا رسومها فى وسط البحيرة، و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۳۶

من جملة كورة تنيس: بورا، و منها، و إيوان، و شطا، و بحيرتها الآن يصاد منها السمك، و هى قليلة العمق يسار فيها بالعادىّ و تلتقى السفينتان هذه صاعدة، و هذه نازلة بريح واحدة، و قلع كل واحدة منها مملوء بالريح سيرهما فى السرعة مستو توسط البحيرة عدّة جزائر تعرف اليوم بالعزب، جمع عزبة، بضم العين المهملة و زاء ثم باء موحدة، سكنها طائفة من الصيادين، و فى بعضها ملاحات يؤخذ منها ملح عذب لذيذ ملوحته، و ماؤها ملح، و قد يحلو أيام النيل.

تونة: و كان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها: تونة يعمل بها طراز تنيس، و يصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا.

قال الفاكهى: و رأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها:

بسم اللّه، بركة من اللّه للخليفة الرشيد عبد اللّه هارون أمير المؤمنين أكرمه اللّه مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة

تسعين و مائة.

سمناى: قرية من قرى تنيس غلبت عليها بحيرة تنيس، فصارت جزيرة، فلما كان فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع و ثلاثين و ثمانمائة، كشف عن حجارة و آجرّ بها، فإذا عضادات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الإمام المعز لدين اللّه، و على بعضها اسم الإمام العزيز باللّه نزار، و منها ما عليه اسم الإمام الحاكم بأمر اللّه، و منها ما عليه اسم الإمام الظاهر لإعزاز دين اللّه، و منها ما عليه اسم المستنصر، و هو أكثرها؛ أخبرنى بذلك من شاهده و رآه.

بورا: كانت فيما بين تنيس و دمياط، و إليها ينسب السمك الذى يقال له: البورىّ، و إليها ينسب أيضا بنو البورىّ، الذين كانوا بالقاهرة و الإسكندرية.

و فى سنة عشر و ستمائة، وصل العدوّ إليها بشوانية، و سباها فقدمت إليها القطائع التى كانت على رشيد، فسار عنها العدوّ.

القيس: بفتح القاف و بعدها سين مهملة، بلد ينسب إليها الثياب القيسية آثارها إلى اليوم باقية على البحر الملح فيما بين السوادة و الواردة، و بعدها من مدينة الفرما قريب من ستة برد فى البرّ، و هناك تل عظيم من رمل خارج فى البحر الشامىّ يقطع الفرنج عنده الطريق على المارة، و بالقرب من التل سباخ ينبت فيه ملح يحمله العربان إلى غزة و الرملة، و بقرب هذا السباخ آبار يزرع عندها مقاثى لعربان تلك البوادى.

ذكر مدينة صا

قال ابن وصيف شاه: و لما قسم قبطيم بن مصرايم الأرض بين أشمون و أتريب و قفط وصا، انتقل كل واحد إلى قسمه و حيزه، فخرج صا بأهله و ولده و حشمه إلى حيزه، و هو بلد البحيرة و الإسكندرية حتى انتهى إلى برقة، و نزل مدينة صا قبل أن تبنى الإسكندرية، و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۳۷

صا أصغر ولد أبيه و أحبهم إليه، فلما ملك حيزه أمر بالنظر فى العمارات و بناء المدائن و البلدان و الهياكل، و إظهار العجائب كما صنع إخوته و طلب الزيادة فى ذلك.

و قال مرهون الهندىّ: صاحب بانة فبنى من حدّ صا إلى حدّ لوبية، و مراقيه على البحر أعلاما، و جعل على رؤوس تلك الأعلام مرائى من أخلاط شتى، فكان منها ما يمنع من دواب البحر و أذاها، و منها ما إذا قصدتم عدوّ من الجزائر و أصابها الشمس، ألقت شعاعا على مراكبهم، فأحرقتها، و منها ما يرى المدائن التى تحاذيهم من عدوة البحر، و ما يعمله أهلها، و منها ما ينظر فيها إلى إقليم مصر فيعلم منه ما يخصب، و ما يجدب فى كل سنة، و جعل فيها حمامات تقدمن نفسها، و جعل مستشرفات و منتزهات، و كان ينزل كل يوم منها فى موضع بمن يخصه من خدمه و حشمه، و جعل حواليها بساتين و سرح فيها الطيور المغرّدة، و الوحش المستأمن، و الأنهار المطردة و الرياض المونقة، و جعل شرفات قصوره من حجارة ملوّنة تلمع إذا أصابتها الشمس، فينشر شعاعها على ما حولها، و لم يدع شيئا من آلة النعمة و الرفاهية إلا استعمله، فكانت العمارة ممتدّة فى رمال رشيد و رمال الإسكندرية إلى برقة، و كان الرجل يسافر فى أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه و الخيرات، و لا يسير إلا فى ظلال تستره من الشمس، و عمل فى تلك الصحارى قصورا، و غرس فيها غروسا، و ساق إليها من النيل أنهارا، فكان يسلك من الجانب الغربىّ إلى حدّ الغرب فى عمارة متصلة، فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحارى، و خربت تلك المنازل و باد أهلها، و لا يزال من دخل تلك الصحارى يحكى ما رآه فيها من الآثار و العجائب.

قال مؤلفه رحمه اللّه: حدّثنى الثقة، عمن دخل مدينة صا، و مشى فى خرابها فإذا هو بلبنة طولها أربعة أشبار، فتناولها و أخذ يتأملها، ثم كسرها فإذا فيها سنبلة قدر شبر وافر، كأنها كما حصدت، و فركها بيده فخرج منها قمح أبيض، كبار حبه جدّا فى قدر حب اللوبيا،

فأكله كله فلم يجد فيه تغيرا، و دخل آخر إليها قبيل سنة تسعين و سبعمائة، و أخذ منها لبنة طولها ذراع و نصف فى عرض ذراع، فكسرها فإذا فيها سنبلة قمح ثخن كل قمحة منها فى مقدار ما يكون أكبر من الحمص، فلم يطق كسره إلا بعد ما رضه بالحجارة رضا، و وجد بصا: صنم لطيف طول أصبع فاتفق أنه ألقى فى خابية ماء فصار خمرا، و كان ذلك عند رجل من تنيس، فصلحت حاله من بيعه ذلك الخمر، فطلبه الأمير الأوحد مستولى تنيس، و ما زال به حتى أخذ الصنم منه.

رمل الغرابى

اعلم أنّ هذا الرمل ممتدّ فى الأرض و يسميه بعضهم: الرمل الهبير، و طوله من وراء جبل طى إلى أن يتصل مشرقا بالبحر، و يمضى من وراء جبل طى إلى أرض مصر، ثم إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٣٨

بلد النوبة، و يمتدّ إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر، و منه عرق يضرب من القادسية إلى البحرين، فيعبر البحرين فيمرّ على مشارق خورستان و فارس إلى أن يرد سجستان و يمرّ مشرقا إلى مرو آخذا على جيحون فى برّية خوارزم، و يأخذ فى بلاد الحدلحية إلى الصين و البحر المحيط فى جهة الشرق، و هو على ما وصفته و سقته من المحيط بالمشرق إلى المحيط بالمغرب، و فيه جبال عظام لا ترتقى، و بعضه فى أرض سهلة ينتقل من مكان إلى مكان، و منه أصفر لين اللمس و أحمر و أزرق سماوىّ و أسود حالك و أكحل مشبع كالنيل و أبيض كالثلج، و منه ما يحكى الغبار نعومة، و منه خشن جريش اللمس، و زعم بعضهم أن رمل الغرابىّ، و ما يتصل به من حدّ العريش إلى أرض العباسة حادث.

و ذكر فى سبب كونه، خبر فيه معتبر، و هو أنّ شدّاد بن هدّاد بن شدّاد بن عاد، أحد الملوك العادية، قدم إلى مصر، و غلب بكثرة جيوشه أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ملك مصر، و هدم ما بناه هو و آباؤه، و بنى لنفسه أهراما و نصب أعلاما زبر عليها الطلسمات، و اختط موضع الإسكندرية، و أقام هناك دهرا إلى أن نزل به و بقومه و باء، فخرجوا من أرض مصر إلى جهة وادى القرى فيما بين المدينة النبوية، و أرض الشام، و عمروا الملاعب و المصانع لحبس المياه التى تجتمع من الأمطار و السيول، فكان سعة كل مصنع ميلا فى ميل، و غرسوا النخل و غيره، و زرعوا أصناف الزراعات، فيما بين راية و أيلة إلى البحر الغربىّ، و امتدّت منازلهم من الدثنة إلى العريش و الجفار فى أرض سهلة ذات عيون تجرى و أشجار مثمرة، و زروع كثيرة، فأقاموا بهذه الأرض دهرا طويلا، حتى عثوا و بغوا و تجبروا و طغوا، و قالوا: نحن الأكثرون قوّة الأشدّون الأغلبون، فسلط اللّه عليهم الريح فأهلكتهم و نسفت مصانعهم و ديارهم، حتى سحلتها رملا فما تراه من هذه الرمال التى بأرض الجفار، ما بين العباسة حيث المنزلة التى تعرف اليوم بالصالحية إلى العريش من رمل مصانع العادية، و سالة صخورهم لما أهلكهم اللّه بالريح و دمّرهم تدميرا، و إياك و إنكار ذلك لغرابته، ففى القرآن الكريم ما يشهد لصحته، قال تعالى: وَ فِی عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [الذاريات/ ٤١] أى كالشيء الهالك البالى، و قيل: الرميم: نبات الأرض إذا يبس، و ديس، و قيل: الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم، و الرميم: الخلق البالى من كل شيء.

مراقية: مدينة مراقية، كورة من كور مصر الغربية، و هى آخر حدّ أرض مصر، و فى آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس، و هى برقة و بعدها من مدينة سنترية نحو من بريدين، و كان قطرا كبيرا به نخل كثير و مزارع، و به عيون جارية، و بها إلى اليوم بقية، و ثمرها جيد إلى الغاية و زرعها إذا بذر ينبت من الحبة الواحدة من القمح، مائة سنبلة، و أقل ما تنبت تسعون سنبلة، و كذلك الأرز بها فإنه جيد زاك و بها إلى اليوم بساتين متعدّدة، و كانت مراقية فى القديم من الزمان سكنها البربر الذين نفاهم داود عليه السلام من أرض فلسطين، فنزلها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٣٩

منهم خلائق، و منها تفرّقت البربر، فنزلت زناتة و مغيلة و ضريسة الجبال، و نزلت لواتة أرض برقة، و نزلت هوّارة طرابلس المغرب، ثم انتشرت البربر إلى السويس، فلما كان فى شوّال سنة أربع و ثلثمائة من سنى الهجرة المحمدية جلى أهل لوبية و مراقية إلى الإسكندرية خوفا من صاحب برقة، و لم تزل فى اختلال إلى أن تلاشت فى زمننا، و بها بعد ذلك بقية جيدة.

كوم شريك: هذا المكان بالقرب من الإسكندرية، له ذكر فى الأخبار عرف بشريك بن سميّ بن عبد يغوث بن جزء المرادىّ القطيفىّ، من الصحابة رضى اللّه عنهم، و كان على مقدّمة عمرو بن العاص فى فتح الإسكندرية الثانى، فعند ما كثرت جمائع الروم انحاز شريك إلى هذا الكوم بأصحابه، و دافع الروم حتى أدركه عمرو، و كوم شريك هذا من جملة حوف رمسيس.

غيفة: قرية تقارب مدينة بلبيس، من الفسطاط إليها مرحلتان، كانت منزلة قافلة الحاج، و يقال: إنّ صواع الملك الذى فقد من مدينة مصر وجد فى رحال إخوة يوسف عليه السلام، بغيفة هذه.

سمنود: كان بها بربا عليه هيئة درقة، فيها كتابة حكى ابن زولاق عن أبى القاسم مأمون العدل: أنه نسخ الكتابة فى قرطاس و صوّره على درقة، قال: فما كنت أستقبل به أحدا، إلا ولى هاربا، و كان بها أيضا تماثيل و صور من يملك مصر، فيهم قوم عليهم شاسيات، و بأيديهم الحراب، و عليهم مكتوب هؤلاء يملكون مدينة مصر.

ذكر مدينة بلبيس

و سميت فى التوراة: أرض حاشان، و فيها نزل يعقوب لما قدم على ولده يوسف عليهما السلام، فأنزله بأرض حاشان، و هى: بلبيس إلى العلاقمة من أجل مواشيهم. قال ابن سعيد: بلبيس و اليها يصل حكمه إلى الواردة و هى آخر حدّ مصر، و إليها تنتهى المعادلة بفضة السواد، و يصير الناس يتعاملون بالفلوس بعدها إلى العريش، و هى أوّل الشام، و قيل:

هى آخر مصر.

و قال أبو عبيد البكرىّ: بلبيس، فتح أوّله و إسكان ثانيه بعده باء مثل الأولى مفتوحة أيضا و ياء ساكنة و سين مهملة، و هو موضع قريب مصر معروف، و ذكر ابن خرداذبه فى كتاب المسالك و الممالك: أن بين بلبيس، و مدينة فسطاط مصر، أربعة و عشرين ميلا.

و ذكر الواقدىّ: أنّ المقوقس زوّج ابنته أرمانوسة من قسطنطين بن هرقل، و جهزها بأموالها و جواريها و غلمانها و حشمها لتسير إليه حتى يبنى عليها فى مدينة فيسارية، و هم محاصرون لها، فخرجت إلى بلبيس، و أقامت بها، و بعثت حاجبها الكبير فى ألفى فارس إلى الفرما ليحفظ الطريق، و لا يدع أحدا من الروم و لا غيرهم يعبر إلى مصر، و بعث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٤٠

المقوقس رسله إلى أطراف بلاده مما يلى الشام، أن لا يتركوا أحدا يدخل أرض مصر مخافة أن يتحدّثوا بغلبة المسلمين على الشام، فيدخل الرعب فى قلوب عساكره، فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية، و سار عمرو بن العاص إلى مصر، نزل على بلبيس، و بها أرمانوسة ابنة المقوقس، فقاتل من بها و قتل منهم زهاء ألف فارس، و أسر ثلاثة آلاف، و انهزم من بقى إلى المقوقس، و أخذت أرمانوسة و جميع مالها و سائر ما كان للقبط فى بلبيس، فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسيّر إليه ابنته أرمانوسة مكرمة فى جميع مالها مع قيس بن أبى العاص السهمىّ، فسرّ بقدومها، ثم سار عمرو إلى القصر، و لم تزل من مدائن مصر الكبار، حتى نزل عليها مرى ملك الفرنج، و أخذها عنوة بعد حصار طويل، و قتل منها آلافا، و لها أخبار كثيرة و قد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر، بعد سنة ست و ثمانمائة بعد ما أدركناه، و بها عمارة كثيرة، و فيها عدّة بساتين و أهلها أصحاب يسار و نعم سنية.

ذكر بلد الورادة

الورادة من جملة الجفار. قال عبيد اللّه بن عبد اللّه بن خرداذبه فى كتاب المسالك و الممالك: و صفة الطريق و الأرض من الرملة

إلى أردود، اثنا عشر ميلا، ثم إلى غزة عشرون ميلا، ثم إلى العريش أربعة و عشرون ميلا فى رمل، ثم الورادة ثمانية عشر ميلا، ثم إلى الغريب عشرون ميلا، ثم إلى الفرما أربعة و عشرون ميلا.

قال الخليفة المأمون:

لليلك كان بالميدان أقصر منه بالفرما

غريب فى قرى مصريقاسى الهم و السدما

ثم إلى جرير ثلاثون ميلا، ثم إلى القاصرة أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلا، ثم إلى بلبيس أحد و عشرون ميلا، ثم إلى فسطاط مدينة مصر أربعة و عشرون ميلا.

و قال جامع تاريخ دمياط: و لما افتتح المسلمون الفرما، بعد ما افتتحوا دمياط و تنيس، ساروا إلى البقارة فأسلم من بها، و ساروا منها إلى الورادة، فدخل أهلها فى الإسلام و ما حولها إلى عسقلان.

و قال القاضى الفاضل فى متجدّدات شهر المحرّم سبع و ستين و خمسمائة: و صابحنا الورادة فبتنا على مينا الورادة، و دخلنا الورادة فرأيت تاريخ منارة جامعها سنة ثمان و أربعمائة، و اسم الحاكم بأمر اللّه عليها، و الورادة من جملة الجفار، و يقال: أخذ اسمها من الورود، و لم يزل جامعها عامرا تقام به الجمعة إلى ما بعد السبعمائة، و بلد الورّادة القديمة فى شرقىّ المنزلة التى يقال لها اليوم: الصالحية، و بها آثار عمائر و نخل قليل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۱

الصالحية: هذه البلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى، بأرض المسانح و العلاقمة فى أوّل الرمل الذى بين مصر و الشام، و أنشأ بها قصورا و جامعا و سوقا لتكون منزلة العساكر إذا خرجوا من الرمل، و ذلك فى سنة أربع و أربعين و ستمائة.

ذكر مدينة أيلة

ذكر ابن حبيب: أنّ أثال، بضم أوّله ثم ثاء مثلثة، وادى أيلة، و أيلة، بفتح أوّله على وزن فعلة، مدينة على شاطىء البحر فيما بين مصر و مكة سميت: بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام، و أيلة، أوّل حدّ الحجاز، و قد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح، بها التجارة الكثيرة و أهلها أخلاط من الناس، و كانت حدّ مملكة الروم فى الزمن الغابر، و على ميل منها باب معقود لقيصر، قد كان فيه مسلحته، يأخذون المكس، و بين أيلة و القدس، ست مراحل.

و الطور الذى كلم اللّه عليه موسى عليه السلام، على يوم و ليلة من أيلة، و كانت فى الإسلام منزلا لبنى أمية، و أكثرهم موالى عثمان بن عفان، و كانوا سقاة الحاج، و كان بها علم كثير، و آداب و متاجر و أسواق عامرة، و كانت كثيرة النخل و الزروع، و عقبة أيلة لا يصعد إليها من هو راكب، و أصلحها فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، و سوّى طريقها، و رمّ ما استرم منها، و كان بأيلة مساجد عديدة، و بها كثير من اليهود، و يزعمون أن عندهم برد النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، و أنه بعثه إليهم أمانا و كانوا يخرجونه رداء عدنيا ملفوفا فى الثياب قد أبرز منه قدر شبر فقط، و يقال: إنّ أيلة هى القرية التى ذكرها اللّه تعالى فى كتابه حيث قال:

وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ [الأعراف/ ۱۶۳].

و قد اختلف فى تعيين هذه القرية، فقال ابن عباس رضى اللّه عنهما: و عكرمة و السدىّ، هى أيلة؛ و عن ابن عباس أيضا: أنها مدينة بين أيلة و الطور؛ و عن الزهرىّ: إنها طبرية؛ و قال قتادة و زيد بن أسلم: هى ساحل من سواحل الشام بين مدين و عينونة، يقال لها: معناة، و سئل الحسين بن الفضل، هل تجد فى كتاب اللّه الحلال لا يأتيك إلا قوتا و الحرام يأتيك جزافا؟ قال: نعم فى قصة أيلة: إِذْ

تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ [الأعراف/ ۱۶۳].

و كان من خبر أهل القرية أنهم كانوا من بنى إسرائيل، و قد حرّم اللّه عليهم العمل فى يوم السبت، فزين لهم إبليس الحيلة، و قال: إنما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة، فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۲

و قيل: كان الرجل يأخذ خيطا، و يضع فيه وهقه، و يلقيه فى ذنب الحوت، و هو بتحريك الهاء و إسكانها، حبل كالطول، و يجعل فى الطرف الآخر من الخيط وتدا، و يتركه كذلك إلى يوم الأحد، ثم تطرّق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى حتى كثر الصيد للحيتان، و مشى به فى الأسواق، و أعلن الفسقة بصيده، فقامت طائفة من بنى إسرائيل، و جاهرت بالنهى، و اعتزلت و قالت: لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار، فأصبح الناهون، ذات يوم فى مجالسهم، و لم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إنّ للناس لشأنا، فعلوا على الجدار فإذا هم قردة، فدخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، فجعلت تأتيهم فتشم ثيابهم، و تبكى، فيقول الناهون للقردة: أ لم ننهكم، فتقول برأسها: نعم. قال قتادة:

فصارت الشباب قردة، و الشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا، و هلك سائرهم.

و قيل: إنّ ذلك كان فى زمن نبىّ اللّه داود عليه السلام، و قيل: إنّ أيلة أصلها أيليالية، و قد وقع ذكرها فى التوراة كذلك، و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ: دكالة من البربر، بطن من المصامدة، و قالت طائفة: إنّ دكالة ولد أيلة، و يقال: أيل الذى سميت به عقبة أيلة، و أخر، أنهم من دغفل بن أيلة، و أنهم يعزون إلى البربر، و يقولون: نحن من ربيعة الفرس، و فى ذلك خلاف عظيم.

و ذكر المسعودىّ: أن يوشع بن نون عليه السلام حارب السميدع بن هزبر بن مالك العمليقىّ، ملك الشام، ببلد أيلة نحو مدين و قتله، و احتوى على ملكه، و فى ذلك يقول عون بن سعيد الجرهمىّ:

أ لم تر أن العملقىّ بن هرمزبأيلة أمسى لحمه قد تمزعا

تداعت عليه من يهود جحافل ثمانون ألفا حاسرين و درّعا

و هى أبيات كثيرة. و قال ابن إسحاق: فلما انتهى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إلى تبوك، أتاه تحية بن روبة صاحب أيلة فصالحه، و أعطاه الجزية، و أتاه أهل جرباء و أذرح، فأعطوه الجزية، و كتب لهم كتابا فهو عندهم، و كتب لتحية بن روبة: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا أمنة من اللّه و محمد النبىّ رسوله لتحية بن روبة و أهل أيلة أساقفهم و سائرهم فى البرّ و البحر لهم ذمّة اللّه و ذمّة النبىّ، و من كان معهم من أهل الشام، و أهل اليمن، و أهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، و إنه طيب لمن أخذه من الناس، و إنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه و لا طريقا يريدونه من برّ أو بحر». هذا كتاب جهيم بن الصلت و شرحبيل بن حسنة، بإذن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كان ذلك فى سنة تسع من الهجرة، و لم تزل مدينة أيلة عامرة آهلة.

و فى سنة خمس عشرة و أربعمائة، طرق عبد اللّه بن إدريس الجعفرى أيلة و معه بعض بنى الجرّاح و نهبها و أخذ منها ثلاثة آلاف دينار، و عدّة غلال، و سبى النساء و الأطفال، ثم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۴۳

إنه صرف عن ولاية وادى القرى، فسارت إليه سرية من القاهرة لمحاربته.

قال القاضى الفاضل: و فى سنة ست و ستين و خمسمائة، أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، مراكب مفصلة و حملها على الجمال، و سار بها من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة، و كانت قد ملكها الفرنج، و امتنعوا بها، فنازلها فى ربيع الأوّل، و أقام المراكب و أصلحها و طرحها فى البحر، و شحنها بالمقاتلة و الأسلحة، و قاتل قلعة أيلة فى البرّ و البحر حتى فتحها فى العشرين من شهر ربيع الآخر، و قتل من بها من الفرنج و أسرهم، و أسكن بها جماعة من ثقاته، و قوّاهم بما يحتاجون إليه من سلاح و غيره، و عاد

إلى القاهرة فى آخر جمادى الأولى.

و فى سنة سبع و سبعين، وصل كتاب النائب بقلعة أيلة: أنّ المراكب على تحفظ و خوف شديد من الفرنج، ثم وصل الإيريس، لعنه اللّه، إلى أيلة، و ربط العقبة و سير عسكره إلى ناحية تبوك و ربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر، فلما كان فى شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة، حتى صارت به مياه استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدّة شهرين، و تأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر، و وهت لضعف أساسها فتداركها أصحابها و أصلحوها.

و ذكر أبو الحسن المسعودىّ فى كتاب أخبار الزمان: و من أباده الحدثان: الكوكة، و هم أمّة لهم أربعة ملوك، ملكوا أرض أيلة و الحجاز و بنى كل واحد منهم مدينة سماها باسمه، و جعلوا سائر الأرض خيمات، و قسموها على ثلاثين كورة و جعلوها أربعة أعمال لكل عمل، ملك يجلس على منبر ذهب فى مدينته، و عمل بربا و هى بيت الحكمة و عمل هيكلا لأخذ الكواكب، و جعل فيه أصناما من ذهب كل صنم له مرتبة، و كانت الإسكندرية و اسمها رقودة، فجعلوا لها خمس عشرة كورة، و جعلوا فيها كبار الكهنة، و نصبوا فى هياكلها من أصنام الذهب أكثر مما فى غيرها، و كان فيها مائتا صنم من ذهب و قسموا الصعيد على ثمانين كورة، و جعلوا أربعة أقسام، و كان عدد مدن أهل مصر الداخلة فى كورها، ثلاثين مدينة فيها العجائب.

و قيل: إنّ حمير الأكبر و اسمه العرنجج بن سبأ الأكبر و اسمه عامر و يعرف بعبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لما ملك بعد أبيه جمع جيوشه، و سار يطأ الأمم و يدوس الممالك، كما فعل أبوه فأمعن فى المشرق حتى أبعد يأجوج و مأجوج إلى مطلع الشمس، ثم قفل نحو المغرب، فجاءه قبائل من أهل اليمن من بنى هود بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، يشكون من ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، و ما نزل بهم من ظلمهم، فأمر برفعهم من أرض اليمن، و أنزلهم أيلة فعمروها من أيلة إلى ذات الآصال إلى أطراف جبل نجد، فقطعت ثمود هناك الصخور، و نحتوا من الجبال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٤٤

البيوت، و تكبروا و طغوا، فبعث اللّه فيهم صالحا نبيا و رسولا، فكذبوه و سألوه، أن يخرج لهم ناقة من صخرة، فأخرجها لهم، فعقروها، فأهلكهم اللّه بالصيحة، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

و قد ذكر أنّ موسى عليه السلام، سار ببنى إسرائيل بعد موت أخيه هارون إلى أرض أولاد العيص و هى التى تعرف بجبال السراة جنب بلد الشوبك، ثم مرّ فيها إلى أيلة، و توجه بعد أيام إلى بريّة باب حيث بلاد الكرك، حتى حارب تلك الأمم، و كان إلى جانب أيلة مدينة يقال لها: عصبون جليلة عظيمة.

مربوط: كورة من كور الإسكندرية، كانت لشدّة بياضها لا يكاد يبين فيها دخول الليل إلا بعد وقت، و كان الناس يمشون فيها، و فى أيديهم خرق سود خوفا على أبصارهم، و من شدّة بياضها لبس الرهبان السواد، و كانت بلاد مربوط فى نهاية العمارة و الجنان المتصلة بأرض برقة، و هى اليوم من قرى الإسكندرية يزرع بها الفواكه و غيرها، و قد وقفها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، على جهات برّ بالجامع الحاكمى من القاهرة و بها جامع عمر فى سنة ست و ستين و ستمائة، ثم استأجرها الملك المؤيد شيخ المحمودى فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و جدّد عمارة بستانها، و قد خرب لترداد عرب لبدة و برقة إليه، فاستمرّت فى ديوان السلطان.

وادى هبيب: هذا الوادى بالجانب الغربيّ من أرض مصر، فيما بين مربوط و الفيوم، يجلب منه الملح و النطرون عرف بهبيب بن محمد بن معقل بن الواقعة بن حزام بن عفان الغفارىّ، أحد أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم شهد فتح مكة، و روى عنه أبو تميم الجيشانىّ، و أسلم مولى تجيب و سعيد بن عبد الرحمن الغفارىّ، و كان قد اعتزل عند فتنة عثمان رضى اللّه عنه بهذا الوادى، فعرف به، و كان يقول: لا يفرق بين قضاء دين رمضان، و يجمع بين الصلاتين فى السفر، و يقال لهذا الوادى أيضا: وادى الملوك، و وادى النطرون، و بريّة شهاب، و بريّة الإسقيط، و ميزان القلوب، و كان به مائة دير للنصارى، و بقى به سبعة ديورة، و قد ذكرت عند ذكر

الأديار من هذا الكتاب، و هو واد كثير الفوائد فيه النطرون، و يتحصل منه مال كثير و فيه الملح الأندرانىّ و الملح السلطانىّ، و هو على هيئة ألواح الرخام، و فيه:

الوكت و الكحل الأسود، و معمل الزجاج و فيه الماسكة، و هو طين أصفر فى داخل حجر أسود يحك فى الماء، و يشرب لوجع المعدة، و فيه البردىّ لعمل الحصر، و فيه عين الغراب و هو ماء فى هيئة البركة و طولها نحو خمسة عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع فى مغار بالجبل لا يعلم من أين يأتى، و لا إلى أين يذهب و هو حلو رائق.

و يذكر أنه خرج منه سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فتلقوا عمرو بن العاص بالطرّانة مرجعه من الإسكندرية يطلبون، أمانة لهم على أنفسهم و أديارهم، فكتب لهم بذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٤٥

أمانا بقى عندهم، و كتب لهم أيضا بجراية الوجه البحرى، فاستمرّت بأيديهم، و إنّ جرايتهم جاءت فى سنة زيادة على خمسة آلاف أردب و هى الآن لا تبلغ مائة أردب.

ذكر مدينة مدين

اشارة

اعلم أن مدين أمّة شعيب هم: بنو مديان بن إبراهيم عليه السلام، و أمهم قنطوراء ابنة يقطان الكنعانية، ولدت له ثمانية من الولد، تناسلت منهم أمم، و مدين على بحر القلزم تحاذى تبوك على نحو ست مراحل و هى أكبر من تبوك، و بها البئر التى استقى منها موسى لسائمة شعيب، و عمل عليها بيت.

قال الفرّاء: مدين اسم بلد و قطر، و قيل: اسم قبيلة سميت باسم أبيها مدين.

و يقال له: مديان بن إبراهيم، قاله مقاتل و غيره، و الجمهور على أنّ مدين أعجمىّ، و قيل: عربىّ، فإن كان عربيا فإنه يحتمل أن يكون فعيلا من مدّن بالمكان، أقام به، و هو بناء نادر، و قيل: مهمل أو مفعلا من دان فتصحيحه شاذ، و هو ممنوع الصرف على كل حال، سواء كان اسم الأرض أو اسم القبيلة عجميا أو عربيا.

و قال المسعودىّ: قد تنازع أهل الشرائع فى قوم شعيب بن نوفل بن رعويل بن مرّ بن عيقا بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، و كان لسانه العربية، فمنهم من رأى أنهم من العرب الدائرة و الأمم البائدة، و بعض من ذكرنا من الأجيال الخالية، و منهم من رأى أنهم من ولد المحصن بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم الخليل، و أنّ شعيبا آخرهم فى النسب، و قد كانوا عدّة ملوك تفرّقوا فى ممالك متصلة، فمنهم المسمى: بأبجد، و هوّز، و حطى، و كلمن، و سعفص، و قرشت، و هم على ما ذكرنا بنو المحصن بن جندل.

و أحرف الجمل هى: أسماء هؤلاء الملوك و هى الاثنان و العشرون حرفا التى عليها حساب الجمل، و قد قيل فى هذه الحروف غير ما ذكرنا من الوجوه، فكان أبجد، ملك مكة، و ما يليها من الحجاز، و كان هوّز و حطى، ملكين ببلادوج، و هى الطائف و ما اتصل بذلك من أرض نجد، و كلمن و سعفص و قرشت، ملوك بمدين، و قيل: ببلاد مصر، و كان كلمن على ملك مدين، و من الناس من رأى أنه كان ملك جميع من سمينا مشاعا متصلا على ما ذكرنا، و إنّ عذاب يوم الظلة كان فى ملك، كلمن منهم، و إنّ شعيبا دعاهم، فكذبوه وعدهم بعذاب يوم الظلة، ففتح عليهم باب من السماء من نار، و نجا شعيب بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بأيلة، و هى غيضة نحو مدين، فلما أحس القوم بالبلاء و اشتدّ عليهم الحرّ، و أيقنوا بالهلاك طلبوا شعيبا، و من آمن معه، و قد أظلتهم سحابة بيضاء طيبة النسيم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٤٦

و الهواء لا يجدون فيها ألم العذاب، فأخرجوا شعيبا و من آمن معه من مواضعهم، و أزالوهم عن أماكنهم، و توهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم، فجعلها اللّه عليهم نارا، فأتت عليهم فرثت جارية بنت كلمن أباها، و كانت بالحجاز فقالت:

كلمن هدّم ركنى هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه الحتف نارا وسط ظله

كوّنت نارا فأضحتدار قومى مضمحله

و قال المتنصر بن المنذر المدينيّ:

ألا يا شعيب قد نطقت مقالةأبدت بها عمرا و تحيى بنى عمرو

هم ملكوا أرض الحجاز بأوجه كمثل شعاع الشمس فى صورة البدر

و هم قطنوا البيت الحرام و زينواقطورا و فازوا بالمكارم و الفخر

ملوك بنى حطى و سعفص ذى الندىو هوّز أرباب الثنية و الحجر

قال المسعوديّ: و لهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب و سير، و كيفية تغلبهم على هذه الممالك، و تملكهم عليها و إبادتهم من كان فيها قبلهم من الأمم، و قيل: إنّ الأيكة المذكورة فى قوله عز و جل: كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ [الشعراء/ ١٧٦]، و فى قوله سبحانه و تعالى: وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ [الحجر/ ٧٨] هى مدين، و قيل: من ساحل البحر إلى مدين، و قيل: هى غيضة نحو مدين، و قيل: بل أصحاب الأيكة، الذين بعث إليهم شعيب كانوا بتبوك بين الحجر، و أوّل الشام، و لم يكن شعيب منهم، و إنما كان من مدين.

و قال أبو عبيد البكريّ: الأيكة المذكورة فى كتاب اللّه تعالى التى كانت منازل قوم شعيب، روى عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما فيها روايتان، إحداهما: إنّ الأيكة من مدين إلى شعيب، و الرواية الثانية: إنها من ساحل البحر إلى مدين، و كان شجرهم المقل و الأيكة عند أهل اللغة الشجر الملتف، و كانوا أصحاب شجر ملتف، و قال قوم: الأيكة:

الغيضة، و ليكة: اسم البلد و ما حولها كما قيل: مكة، و بكة.

و قال أبو جعفر النحاس: و لا يعلم ليكة اسم البلد، و قال ابن قتيبة: و كان بعضهم يزعم أن بكة، هو موضع المسجد و ما حولها مكة كما فرق بين الأيكة و ليكة، فقيل:

الأيكة: الغيضة، و ليكة البلد: حولها.

و قال البكريّ: مدين بلد بالشام معلوم تلقاء غزة، و هو المذكور فى كتاب اللّه تعالى، و هذا و هم، بل مدين من أرض مصر، و بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، سرية إلى مدينة مدين، أميرهم: زيد بن حارثة رضى اللّه عنه، فأصاب سبيا من أهل ميتا. قال ابن إسحاق: و ميتا هى السواحل، فبيعوا و فرّق بين الأمهات و الأولاد، فخرج رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و هم يبكون فقال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٤٧

«ما لهم»؟ فأخبر خبرهم، فقال: «لا تبيعوهم إلّا جميعا». و مدين من منازل جذام بن عدىّ بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عزيب بن زيد بن كهلان.

و شعيب النبيّ المبعوث إلى أهل مدينة أحد بنى وائل بن جذام.

و قد روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال لوفد جذام: «مرحبا بقوم شعيب و أصهار موسى و لا تقوم الساعة حتى يتزوّج فيكم المسيح و يولد له».

و قال محمد بن سهل الأحول: مدين من أعراض المدينة مثل فدك و الفرع و رهاط.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: و كان بأرض مدين، عدّة مدائن كثيرة قد باد أهلها، و خربت، و بقى منها إلى يومنا هذا، و هو سنة خمس

و عشرين و ثمانمائة نحو الأربعين مدينة قائمة منها ما يعرف اسمه، و منها ما قد جهل اسمه، فمما يعرف اسمه فيما بين أرض الحجاز، و بلاد فلسطين، و ديار مصر، ست عشرة مدينة منها: فى ناحية فلسطين، عشر مدائن، و هى الخلصة، و السنيطة، و المدرة، و المنية، و الأعوج، و الخويرق، و البئرين، و الماءين، و السبع، و المعلق، و أعظم هذه المدائن العشر: الخلصة و السنيطة، و كثيرا ما تنقل حجارتها إلى غزة و يبنى بها هناك، و من مدائن مدين بناحية بحر القلزم و الطور مدينة فاران، و مدينة الرقة، و مدينة القلزم، و مدينة أيلة، و مدينة مدين، و بمدينة مدين إلى الآن آثار عجيبة و عمد عظيمة.

و وجد فى مدينة الأعوج، أعوام بضع و ستين و سبعمائة جب بقلعتها بعيد المهوى يبلغ عمقه نحو مائة ذراع، و بقاعه عدة أسفار على رفوف حمل منها سفر طوله، ذراعان و أزيد، قد غلف بلوحين من خشب، و كتابته بالقلم المسند، طول الألف و اللام، نحو شبر، فوجد ببلاد الكرك من قرأه، فإذا هو سفر من عشرة أسفار قد ابتدأه، بحمد اللّه، ثم قال: خروج موسى من أرض مصر إلى بلاد مدين، و ملوك بنى مدين فيما بعد شعيب، فذكر لموسى عليه السلام، عدّة أسماء منها، اسمه بالعربية: موسى بن عمران، و بالعبرانية: موشى، و بالفارسية: داران، و بالقبطية: هروسيس، و ذكر أنه تزوّج ابنة شعيب، و أنه أقام بمدينة ثمانى حجج، ثم قال لابن شعيب: قد أتممت لك شرطك، و سأزيدك سنتين فضلا منى.

بقية خبر مدينة مدين

قال: و خرج موسى متوجها إلى مصر، و الملك يومئذ على مدين أبجد. قال: و قوى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٤٨

أمر أبجد، فطغى حتى ملك الحجاز و اليمن، و كان له خمسة أولاد هم: هوّز، و حطى، و كلمن، و سعفص، و قرشت، فأقام أبجد ملكا باليمن، مائة سنة. و مات و قد استخلف من بعده ابنه: كلمن باليمن، و جعل ابنه هوّز على الحجاز، و ابنه حطى على أرض مصر، و ابنه سعفص على الجزيرة، و بلادها حيث الموصل و حرّان إلى أرض العراق، و ابنه قرشت على العراق و مشارفها من خراسان، و كان قرشت هو الجبار فيهم، و كان سعفص و هوّز و كلمن أهل عدل و حلم، و كان حطى صاحب بطش و جرأة.

و كان بنو إسرائيل إذ ذاك بالشام، فلم يملك أولاد أبجد أرض الشام، و لا احتووا عليها، و كانت مدّة ملكهم نحوا من مائة و خمسين سنة، فتم لهم بدولة أبيهم أبجد ثلثمائة سنة و أزيد.

ثم ملك بعدهم على بنى إسرائيل، روزيت بن هوّز، و عرزيت بن حطى بن أبجد نحو سبع سنين، ثم خرجت الدولة عن أولاد أبجد، و أقام هذا الكتاب عندهم زمانا، ثم أعادوه إلى الجبّ من قلعة الأعوج.

حدّثنى بهذا الخبر، الحافظ المتقن الضابط أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الغريانيّ التونسيّ المالكيّ، قال: حدثنى به شتر بن غنيم العامرىّ شيخ لقيه بأرض فلسطين، أنه شاهد الكتاب المذكور، و هو شاب، و حفظ منه ما تقدّم ذكره.

و قيل: إنّ مالك بن دعر بن حجر بن جديلة بن لخم كان له أربعة و عشرون ولدا ذكرا، فكثرت أولادهم، حتى بنوا المدائن و القرى و الحصون، و عمروا بلاد مدين كلها، و غلبوا على بلاد الشام و مصر و الحجاز، و غيرها خمسمائة سنة، و قيل: إنما كان استيلاء ملوك مدين على مصر، خمسمائة سنة بعد غرق فرعون موسى، و هلاكه دلوكة بنت زفان، حتى أخرجهم منها نبىّ اللّه سليمان بن داود، فعاد الملك إلى القبط بعدهم.

ذكر مدينة فاران

هذه المدينة بساحل بحر القلزم، و هى من مدن العماليق على تل بين جبلين، و فى الجبلين ثقوب كثيرة لا تحصى مملوءة أمواتا، و من هناك إلى بحر القلزم، مرحلة واحدة، و يقال له هناك ساحل بحر فاران، و هو البحر الذى أغرق اللّه فيه فرعون، و بين مدينة فاران، و

التيه مرحلتان، و يذكر أنّ فاران اسم لجبال مكة، و قيل: اسم لجبال الحجاز، و هى التى ذكرت فى التوراة، و التحقيق أنّ فاران و الطور كورتان من كور مصر القبلية، و هى غير فاران المذكورة فى التوراة، و قيل: إنّ فاران بن عمرو بن عمليق هو الذى نسب إليه جبال الحرم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۴۹

فقيل: جبال فاران، و بعضهم يقول: جبال فران و كانت مدينة فاران من جملة مدائن، مدين إلى اليوم، و بها نخل كثير مثمر، أكلت من ثمره، و بها نهر عظيم، و هى خراب يمرّ بها العربان.

ذكر أرض الجفار

اعلم أنّ الجفار اسم لخمس مدائن، و هى: الفرما، و البقارة، و الورادة، و العريش، و رفح، و الجفار كله رمل و سمى بالجفار لشدّة المشى فيه على الناس، و الدواب من كثرة رمله، و بعد مراحله، و الجفار تجفر فيه الإبل، فاتخذ له هذا الاسم كما قيل للحبل الذى يهجر به البعير، هجار، و للذى يحجر به حجار، و للذى يعقل به عقال، و للذى يبطن به بطان، و للذى يخطم به خطام، و للذى يزم به زمام، و اشتقت البقارة من البقر، و الواردة من الوريد، و العريش أخذ من العريش، و قيل: إن رفح اسم جبل.

و كان يسكن الجفار فى القديم خذام بن العريان.

و يقال: إنّ أرض الجفار كانت فى الدهر الأوّل و الزمن الغابر متصلة العمارة، كثيرة البركات مشهورة بالخيرات لكثرة زراعة أهلها الزعفران و العصفر و قصب السكر، و كان ماؤها غزيرا عذبا، ثم صار بها نخل يحدق بها من كل النواحى إلى أن دمرها اللّه تدميرا، فصارت إلى اليوم ذات رمل عظيم يسلك فيه إلى العريش، و إلى رفح كله قفر تعرف بقعته برمل الغرابىّ قليل الماء عديم المرعى، لا أنيس به، فسبحان محيل الأحوال.

ذكر صعيد مصر

الصعيد: المرتفع من الأرض، و قيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة، و قيل:

ما لم يخالطه رمل و لا سبخة، و قيل: هو وجه الأرض، و قيل: الأرض الطيبة، و قيل: هو كل تراب طيب، و تسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الاسم إنما حدث فى الإسلام، سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر، و لذلك يقال فيها: أعلى الأرض، و لأنها أرض ليس فيها رمل و لا سباخ، بل كلها أرض طيبة مباركة، و يقال للصعيد أيضا: الوجه القبلىّ.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: و لما حضرت مصرايم الوفاة، عهد إلى ابنه قبطيم، و كان قد قسم أرض مصر بين بنيه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۵۰

فجعل لقبطيم من بلد إلى أسوان، و لأشمون، من بلد أشمون إلى منف، و لأتريب، الحوف كله، و لصا من ناحية صا البحيرة إلى قرب برقة، و قال لأخيه فارق لك من برقة إلى الغرب، فهو صاحب إفريقية و ولده الأفارق، و أمر كلّ واحد من بنيه أن يبنى لنفسه مدينة فى موضعه.

و قال ابن عبد الحكم: فلما كثر ولد مصر و أولاد أولادهم، قطع مصر لكل واحد منهم قطعة يحوزها لنفسه و لولده، و قسم لهم هذا النيل، فقطع لابنه قفط، موضع قفط فسكنها، و به سميت: قفط قفطا، و ما فوقها إلى أسوان، و ما دونها إلى أشمون فى الشرق و الغرب، و قطع لأشمون من أشمون فما دونها فى الشرق و الغرب إلى منف، فسكن أشمون أشمون، فسميت به، و قطع لأتريب ما بين منف إلى صا فسكن أتريب فسميت به، و قطع لصا ما بين صا إلى البحر، فسكن صا فسميت به، فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء: جزأين بالصعيد، و جزأين بأسفل الأرض.

و قال أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوى فى كتاب الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد: مسافة إقليم الصعيد الأعلى مسيرة اثنى عشر يوما بسير الجمال، و عرضه ثلاث ساعات، و أكثر بحسب الأماكن العامرة، و يتصل عرضه فى الكورة الشرقية بالبحر الملح و أراضى البجة، و فى الغربية، بألواح و هى كورتان: شرقية، و غربية، و النيل بينهما فاصل، و أوّل الشرقية من مرج بنى هميم المتصلة أرضها بأراضى جرجا من عمل أخميم، و آخرها من قبلىّ الهو و يليها أوّل أراضى النوبة، و فى هذه الكورة تيج، و قفط و قوص، و أوّل الكورة الغربية، برديس تتصل أرضها بأرض جرجا، و فى هذه الكورة الغربية سمهود، و آخر الكورة الغربية أسوان و بحافته أكثر النخل من الجانبين، تكون مساحة الأراضى التى فيها النخل و البساتين تقارب عشرين ألف فدّان، و المستولى على إقليم الصعيد المشترى.

و يقال: كان بصعيد مصر، نخلة تحمل عشرة أرادب تمرا، فغصبها بعض الولاة فلم تحمل فى ذلك العام و لا تمرة واحدة، و كانت هذه النخلة فى الجانب الغربىّ، و بيع منها فى الغلاء كل ويبة بدينار.

و يقال: لما صوّرت الدنيا لأمير المؤمنين هارون بن محمد الرشيد لم يستحسن إلا كورة سيوط من صعيد مصر، فإنها ثلاثون ألف فدّان فى استواء من الأرض لو وقعت فيها قطرة ماء لانتشرت فى جميعها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥١

و بالصعيد بقايا سحر قديم، حكى الأمير طقطبا والى قوص فى أيام الناصر محمد بن قلاون قال: أمسكت امرأة ساحرة، فقلت لها: أريد أن أبصر شيئا من سحرك؟ فقالت:

أجود عملى أن أسحر العقرب على اسم شخص بعينه، فلا بدّ أن تقع عليه و يصيبه سمها، فتقتله. فقلت: أرينى هذا و اقصدينى بسحرك؟ فأخذت عقربا و عملت ما أحبت، ثم أرسلت العقرب فتبعنى! و أنا أتنحى عنه، و هو يقصدنى فجلست على تخت وضعته على بركة ماء، فأقبل العقرب إلى ذلك الماء، و أخذ فى التوصل إلىّ، فلم يطق ذلك، فمرّ إلى الحائط و صعد فيه، و أنا أشاهده، حتى وصل إلى السقف و مرّ فيه إلى أن صار فوقى و ألقى نفسه صوبى، و سعى نحوى حتى قرب منى، فضربته فقتلته، ثم قتلت الساحرة أيضا.

و أرض الصعيد كثيرة المواشى من الضأن و غير ذلك لكثرة نتاجه، حتى أن الرأس الواحد من نعاج الضأن، يتولد عنه فى عشر سنين، ألف و أربع و عشرون رأسا! و ذلك بتقدير السلامة، و أن تلد كلها أناثا، و تلدّ مرّة واحدة فى كل سنة، و لا تلد فى كل بطن غير رأس واحد، و إلا فإن ولدت فى السنة مرّتين، و كان فى كل بطن رأسان تضاعف العدد، و تأمل حساب ما قلناه تجده صحيحا، و قد شوهد كثيرا أنّ من أغنام الصعيد، ما يلد فى السنة ثلاث مرّات و يلد فى البطن الواحد، ثلاثة أرؤس.

و كانت الكثرة و الغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل، و هم: بنو هلال، و بلى، و جهينة، و قريش، و لواته، و بنو كلاب، و كان ينزل مع هؤلاء عدّة قبائل سواهم من الأنصار، و من مزينة، و بنى دراج و بنى كلاب و ثعلبة و جذام.

و بلغ من عمارة الصعيد، أن الرجل فى أيام الناصر، محمد بن قلاون، و ما بعدها كان يمرّ من القاهرة إلى أسوان، فلا يحتاج إلى نفقة، بل يجد بكل بلد و ناحية، عدّة دور للضيافة، إذا دخل دارا منها، أحضر لدابته علفها، و جىء له بما يليق به من الأكل و نحوه، و آل أمره الآن إلى أن لا يجد الرجل أحدا فيما بين القاهرة و أسوان يضيفه لضيق الحال، ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقى فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون سنة ست و سبعين و سبعمائة، و تزايد تلاشيه فى أيام الظاهر برقوق لجور الولاة، و لم يزل فى إدبار، إلى أن كانت سنة ست و ثمانمائة، و شرقت مصر بقصور مدّ النيل، فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف، حتى أنه مات من مدينة قوص سبعة عشر ألف إنسان، و ذلك كله سوى الطرحى على الطرقات، و من لا يعرف من الغرباء و نحوهم، ثم دمّر فى أيام المؤيد شيخ، فلم يبق منه إلا رسوم تبذل الولاة الجهد فى محوها، نسأل اللّه حسن الخاتمة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥٢

ذكر الجنادل و لمع من أخبار أرض النّوبة

اشارة

الجندل: ما يقلّ الرجل من الحجارة، و قيل: هو الحجر كله، الواحدة، جندلة، و الجندل: الجنادل.

قال سيبويه: و قالوا جندل يعنون: الجنادل، و صرفوه لنقصان البناء عما لا ينصرف، و أرض جندلة، ذات جندل و قيل: الجندل، المكان الغليظ فيه حجارة، و مكان جندل، كثير الجندل.

قال عبد اللّه بن أحمد بن سليم الأسوانيّ فى كتاب أخبار النوبة: و المقرة و علوة و البجة و النيل، و أوّل بلد النوبة، قرية تعرف بالقصر من أسوان إليها خمسة أميال، و آخر حصن للمسلمين، جزيرة تعرف ببلاق، بينها و بين قرية النوبة ميل، و هو ساحل بلد النوبة، و من أسوان إلى هذا الموضع، جنادل كثيرة الحجر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة، و دلالة من يخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك، لأنّ هذه الجنادل متقطعة و شعاب معترضة فى النيل، و لانصبابه فيها خرير عظيم و دوىّ يسمع من بعد، و بهذه القرية مسلحة، و باب إلى بلد النوبة، و منها إلى الجنادل الأولى من بلد النوبة، عشر مراحل، و هى الناحية التى يتصرّف فيها المسلمون، و لهم فيما قرب أملاك و يتجرون فى أعلاها، و فيها جماعة من المسلمين قاطنون، لا يفصح أحدهم بالعربية، و شجرها كثير، و هى ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال، و ما تخرج عن النيل، و قراها متسطرة على شاطئه و شجرها النخل و المقل، و أعلاها أوسع من أدناها، و فى أعلاها الكروم، و النيل لا يروى مزارعها لارتفاع أرضها، و زرعها، الفدّان و الفدّانان و الثلاثة على أعناق البقر بالدواليب، و القمح عندهم قليل و الشعير أكثر و السلت، و يعتقبون الأرض لضيقها، فيزرعونها فى الصيف بعد تطريتها بالزبل و التراب.

الدخن و الذرة و الجاورس و السمسم و اللوبيا.

و هذه الناحية نجراش مدينة المريس، و قلعة ابريم، و قلعة أخرى دونها، و بها مينا تعرف بأدواء ينسب إليها، لقمان الحكيم، و ذو النون، و بها بربا عجيب، و لهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجلّ ولاتهم لقربه من أرض الإسلام، و من يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه فى تجارة أو هدية إليه، أو إلى مولاه يقبل الجميع، و يكافىء عليه بالرقيق، و لا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه لمسلم و لا لغيره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥٣

و أوّل الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى، هى ساحل، و إليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أوّل بلدهم، و لا تتجاوزها المراكب، و لا يطلق لأحد من المسلمين، و لا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم، و منها إلى المقس الأعلى، ست مراحل، و هى جنادل كلها، و شرّ ناحية رأيتها لهم لصعوبتها، و ضيقها و مشقة مسالكها، أما بحرها، فجنادل و جبال معترضة فيه، حتى إن النيل ينصب من شعاب و يضيق فى مواضع، حتى يكون سعة ما بين الجانبين، خمسين ذراعا، و برّها مجاوب ضيقة، و جبال شاهقة، و طرقات ضيقة، حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها، و الراجل الضعيف يعجز عن سلوكها، و رمال فى غربها و شرقها، و هذه الجبال حصنهم، و إليها يفزع أهل الناحية التى قبلها المتصلة بأرض الإسلام، و فى جزائرها نخل يسير و زرع حقير، و أكثر أكلهم السمك و يدّهنون بشحمه، و هى من أرض مريس، و صاحب الجبل و اليهم، و المسلحة بالمقس الأعلى صاحبها من قبل كبيرهم شديد الضبط لها، حتى أنّ عظيمهم إذا صار بها وقف به المسلحى، و أوهم أنه يفتش عليه، حتى يجد الطريق إلى ولده و وزيره، فمن دونهما و لا يجوزها دينار و لا درهم إذ كانوا لا يتبايعون بذلك إلا دون الجنادل مع المسلمين، و ما فوق ذلك لا بيع بينهم و لا شراء، و إنما هى معاوضة بالرقيق و المواشى و الحبال و الحديد و الحبوب، و لا يطلق لأحد أن يجوزها إلا بإذن الملك، و من خالف كان جزاؤه القتل كائنا من كان، و بهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم حتى إنّ العسكر منهم يهجم على البلد إلى البادية و غيرهم، فلا يعلمون به، و السنباد الذى يخرط به الجوهر، يخرج من النيل فى هذه المواضع، يغطس عليه فيوجد جسمه باردا مخالفا للحجارة فإذا أشكل عليه نفخ فيه

بالفم فيعرق، و من هذه المسلحة إلى قرية تعرف: بساى، جنادل أيضا، و هى آخر كرسيهم، و لهم فيها أسقف و فيها بربا.
ثم ناحية سقلودا و تفسيرها السبع ولاة، و هى أشبه الأرض بالأرض المتاخمة لأرض الإسلام فى السعة و الضيق فى مواضع، و النخل و الكرم و الزرع و شجر المقل، و فيها شىء من شجر القطن، و يعمل منه ثياب و خشة، و بها شجر الزيتون، و واليها من قبل كبيرهم و تحت يده ولاة يتصرّفون، و فيها قلعة تعرف: بأصطنون، و هى أوّل الجنادل الثلاثة، و هى أشدّ الجنادل صعوبة لأنّ فيها جبلا معترضا من الشرق إلى الغرب فى النيل، و الماء ينصب من ثلاثة أبواب، و ربما رجع إلى ما بين عند انحساره شديد الخرير عجيب المنظر يتحدّر الماء عليه من علو الجبل و قبليّة فرش حجارة فى النيل نحو ثلاثة برد إلى قرية تعرف:
بيستو، و هى آخر قرى مريس، و أوّل بلد مقرة، و من هذا الموضع إلى حدّ المسلمين لسانهم مريسى، و هى آخر عمل متملكهم، ثم ناحية بقون، و تفسيرها بالعجب، و هى عند اسمها لحسنها، و ما رأيت على النيل أوسع منها، و قدّرت أن سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل، الجزائر تقطعه و الأنهار منه تجرى بينها على أرض منخفضة، و قرى
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥٤
متصلة، و عمارة حسنة بأبرجة حمام، و مواش و أنعام و أكثر ميرة مدينتهم منها، و طيورها النقيط و النوبى و الببغاء، و غير ذلك من الطيور الحسان، و أكثر نزهة كبيرهم فى هذه الناحية.
قال: و كنت معه فى بعض الأوقات، فكان سيرنا فى ظل شجر من الحافتين فى الخلجان الضيقة، و قيل: إنّ التمساح لا يضرّ هناك، و رأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة، ثم سفد بقل، و هى ناحية ضيقة شبيهة بأوّل بلادهم إلا أنّ فيها جزائر حسانا، و فيها دون المرحلتين نحو، ثلاثين قرية بالأبنية الحسان، و الكنائس و الأديار و النخل الكثير و الكروم و البساتين و الزرع، و مروج كبار فيها إبل و جمال صهب مؤبلة للنتاج، و كبيرهم يكثر الدخول إليها لأنّ طرفها القبلىّ يحاذى دنقلة مدينتهم، و من مدينة دنقلة دار المملكة إلى أسوان، خمسون مرحلة، و ذكر صفتها، ثم قال: إنهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط، و بخشب الساج الذى يأتى به النيل فى وقت الزيادة سقالات منحوتة لا يدرى من أين تأتى.
و لقد رأيت على بعضها علامة غريبة، و مسافة ما بين دنقلة إلى أوّل بلد علوة أكثر مما بينها و بين أسوان، و فى ذلك من القرى و الضياع و الجزائر و المواشى و النخل و الشجر و المقل و الزرع و الكرم، أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام، و فى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام، فيها الجبال و الوحش و السباع، و مفاوز يخاف فيها العطش، و النيل يعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس، و إلى مغربها مسيرة أيام، حتى يصير المصعد كالمنحدر، و هى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف: بالشلة، و هو بلد يعرف بشنقير، و منه خرج العمرى، و تغلب على هذه الناحية إلى أن كان من أمره ما كان، و فرس البحر، يكثر فى هذه المواضع، و من هذه الموضع طرق إلى سواكن و باضع و دهلك و جزائر البحر، و منها عبر من نجا من بنى أمية عند هربهم إلى النوبة، و فيها خلق من البجة يعرفون بالرنافج انتقلوا إلى النوبة قديما و قطنوا هناك و هم على حدتهم فى الرعى و اللغة، لا يخالطون النوبة، و لا يسكنون قراهم، و عليهم وال من قبل النوبة.

ذكر تشعب النيل من بلاد علوة و من يسكن عليه من الأمم

اعلم أنّ النوبة و المقرة جنسان بلسانين، كلاهما على النيل، فالنوبة هم: المريس المجاورون لأرض الإسلام، و بين أوّل بلدهم، و بين أسوان خمسة أميال، و يقال: إنّ سلها جدّ النوبة، و مقرى جدّ المقرة من اليمن.
و قيل: النوبة و مقرى من حمير، و أكثر أهل الأنساب على أنهم جميعا من ولد حام بن نوح، و كان بين النوبة و المقرة حروب قبل النصرانية، و أوّل أرض المقرة قرية تعرف بنافة على مرحلة من أسوان، و مدينة ملكهم، يقال لها: نجراش، على أقل من عشر مراحل من أسوان، و يقال: إن موسى صلوات اللّه عليه، غزاهم قبل مبعثه فى أيام فرعون، فأخرب نافة، و كانوا صابئة يعبدون الكواكب، و

ينصبون التماثيل لهم، ثم تنصروا جميعا النوبة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥٥

و المقرة، و مدينة دنقلة، و هى دار مملكتهم، و أوّل بلاد علوة، قرى فى الشرق على شاطىء النيل تعرف بالأبواب، و لهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح.

و النيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار، فمنها نهر يأتى من ناحية المشرق كدر الماء يجف فى الصيف حتى يسكن بطنه، فإذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء، و زادت البرك التى فيه، و أقبل المطر و السيول فى سائر البلد، فوقعت الزيادة فى النيل، و قيل: إنّ آخر هذا النهر، عين عظيمة تأتى من جبل.

قال مؤرخ النوبة: و حدّثنى سيمون صاحب عهد بلد علوة، أنه يوجد فى بطن هذا النهر، حوت لا قشر له ليس هو من جنس ما فى النيل، يحفر عليه قامة و أكثر، حتى يخرج، و هو كبير و عليه جنس مولد بين العلوة و البجة، يقال لهم: الديجيون، و جنس يقال لهم: بازة يأتى من عندهم طير يعرف بحمام بازين، و بعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة، ثم النيل الأبيض، و هو نهر يأتى من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن.

قال: و قد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذى عندهم، و عن لونه، فذكر أنه يخرج من جبال الرمل، أو جبل الرمل و أنه يجتمع فى بلد السودان فى برك عظام، ثم ينصب إلى ما لا يعرف، و إنه ليس بأبيض، فإمّا أن يكون اكتسب ذلك اللون، مما يمرّ عليه أو من نهر آخر ينصب إليه، و عليه أجناس من جانبيه، ثم النيل الأخضر، و هو نهر يأتى من القبلة مما يلى الشرق شديد الخضرة، صافى اللون جدّا، يرى ما فى قعره من السمك، و طعمه مخالف لطعم النيل، يعطش الشارب منه بسرعة، و حيتان الجميع واحدة، غير أنّ الطعم مختلف، و يأتى فيه وقت الزيادة خشب الساج و البقم و الغثاء، و خشب له رائحة كرائحة اللبان، و خشب غليظ ينحت و يعمل منه مقدام، و على شاطئه ينبت هذا الخشب أيضا، و قيل: إنه وجد فيه عود البخور.

قال: و قد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التى تأتى فيه وقت الزيادة، علامة غريبة، و يجتمع هذان النهران الأبيض و الأخضر عند مدينة متملك بلد علوة، و يبقيان على ألوانهما قريبا من مرحلة، ثم يختلطان بعد ذلك، و بينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما.

قال: و أخبرنى من نقل النيل الأبيض، و صبه فى النيل الأخضر فبقى فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا، و بين هذين النهرين، جزيرة لا يعرف لها غاية، و كذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية، فأوّلهما يعرف عرضه، ثم يتسع فيصير مسافة شهر، ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض، لأنّ فيهما أجناسا كثيرة و خلقا عظيما، قال:

و بلغنى أنّ بعض متملكى بلد علوة سار فيها يريد أقصاها، فلم يأت عليه بعد سنين، و إنّ فى طرفها القبلىّ جنسا يسكنون و دوابهم فى بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدّة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥٦

حرّ الشمس، و يسرحون فى الليل، و فيهم قوم عراة، و الأنهار الأربعة الباقية، تأتى أيضا من القبلة مما يلى الشرق أيضا فى وقت واحد، و لا يعرف لها نهاية أيضا، و هى دون النهرين الأبيض و الأخضر فى العرض، و كثرة الخلجان و الجزائر، و جميع الأنهار الأربعة تنصب فى الأخضر، و كذلك الأوّل الذى قدّمت ذكره، ثم يجتمع مع الأبيض، و كلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن و غيرها، و أحد هذه الأربعة يأتى مرّة من بلاد الحبشة.

قال: و لقد أكثرت السؤال عنها، و استكشفتها من قوم عن قوم، فما وجدت مخبرا يقول إنه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار، و الذى انتهى إليه علم من عرّفنى عن آخرين إلى خراب، و أنه يأتى فى وقت الزيادة فى هذه الأنهار، آلة مراكب و أبواب و غير ذلك، فيدل على عمارة بعد الخراب، فأمّا الزيادة فيجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتى من ذاتها، و الدليل على ذلك النهر الذى يجف و يسكن بطنه، ثم ينبع وقت الزيادة.

و من عجائبه: أنّ زيادته فى أنهار مجتمعة، و سائر النواحى و البلدان فى مصر و ما يليها و الصعيد و أسوان و بلد النوبة و علوة، و ما وراء ذلك فى زمان واحد، و أكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ربما وجدت مثلا بأسوان، و لا توجد بقوص، ثم تأتى بعد فإذا كثرت الأمطار عندهم و اتصلت السيول، علم أنها سنة رىّ، و إذا قصرت الأمطار علم أنها سنة ظمأ، قال:

و أما من طرق بلاد الزنج فإنهم أخبرونى عن مسيرهم فى بحر الصين إلى بلاد الزنج بالريح الشمالىّ، مساحلين للجانب الشرقىّ من جزيرة مصر، حتى ينتهوا إلى موضع يعرف برأس حفرى، و هو عندهم آخر جزيرة مصر، فينظرون كوكبا يهتدون به، فيقصدون الغرب، ثم يعودون إلى البحرى، و يصير الشمال فى وجوههم، حتى يأتوا إلى قبيلة من بلاد الزنج و هى مدينة متملكهم، و تصير قبلتهم للصلاة إلى جدّة.

قال: و بعض الأنهار الأربعة يأتى، من بلاد الزنج لأنه يأتى فيه الخشب الزنجىّ، و سوبة مدينة العلوى شرقىّ الجزيرة الكبرى التى بين البحرين الأبيض و الأخضر فى الطرف الشمالىّ منها عند مجتمعهما، و شرقيها، النهر الذى يجف، و يسكن بطنه، و فيها أبنية حسان و دور واسعة، و كنائس كثيرة الذهب، و بساتين و لها رباط فيه جماعة من المسلمين، و متملك علوة أكثر مالا من متملك المقرة، و أعظم جيشا، و عنده من الخيل ما ليس عند المقرى، و بلده أخصب و أوسع، و النخل و الكرم عندهم يسير و أكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الأرز منها، خبزهم و مزرهم و اللحم عندهم كثير لكثرة المواشى، و المروج الواسعة العظيمة السعة، حتى أنه لا يوصل إلى الجبل إلا فى أيام، و عندهم خيل عتاق، و جمال صهب عراب، و دينهم النصرانية يعاقبة، و أساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة، و كتبهم بالرومية يفسرونها بلسانهم، و هم أقل فهما من النوبة، و ملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم، و بغير جرم، و لا ينكرون ذلك عليه، بل يسجدون له و لا يعصون أمره على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥٧

المكروه الواقع بهم، و ينادون الملك يعيش فليكن أمره، و هو يتتوّج بالذهب، و الذهب كثير فى بلده.

و مما فى بلده من العجائب: أنّ فى الجزيرة الكبرى التى بين البحرين جنسا يعرف:

بالكرنينا، لهم أرض واسعة مزروعة من النيل و المطر، فإذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر، و اختط على مقدار ما معه و زرع فى أربعة أركان الخطة يسيرا، و جعل البذر فى وسطه الخطة و شيئا من المزر، و انصرف عنه فإذا أصبح وجد ما اختط، قد زرع و شرب المزر، فإذا كان وقت الحصاد، حصد يسيرا منه و وضعه فى موضع أراده و معه مزر، و ينصرف، فيجد الزرع قد حصد بأسره، و جرّن فإذا أراد دراسه و تذريته فعل به كذلك، و ربما أراد أحدهم أن ينقى زرعه من الحشيش، فيلفظ بقلع شىء من الزرع فيصبح، و قد قلع جميع الزرع، و هذه الناحية التى فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين فى شهرين يزرع جميعها فى وقت واحد، و ميرة بلد، علوة و متملكهم من هذه الناحية، فيوجهون المراكب، فتوسق، و ربما وقع بينهم حرب.

قال: و هذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة و العلوة، و كل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه و لا يرتابون به، و لولا أنّ اشتهاره و انتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله، لما ذكرت شيئا منه لشناعته، فأما أهل الناحية، فيزعمون أن الجنّ تفعل ذلك، و أنها تظهر لبعضهم، و تخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها، و تعمل لهم عجائب، و أنّ السحاب يطيعهم؟!.

قال: و من عجائب ما حدّثنى به متملك المقرة للنوبة، أنهم يمطرون فى الجبال، و يلتقطون منه للوقت سمكا على وجه الأرض، و سألتهم عن جنسه، فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر، قال: و قد رأيت جماعة و أجناسا ممن تقدّم ذكر أكثرهم يعترفون بالبارى سبحانه و تعالى، و يتقرّبون إليه بالشمس و القمر و الكواكب، و منهم من لا يعرف البارى و يعبد الشمس و النار، و منهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة، و ذكر أنه رأى رجلا فى مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده؟ فقال: مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة، و سأله عن دينه؟

فقال: ربى و ربك اللّه، و ربّ الملك، و ربّ الناس كلهم واحد، و إنه قال له: فأين يكون؟

قال: فى السماء وحده، و قال: إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء، أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل، و دعوا اللّه، فيجابون للوقت و تقضى حاجتهم قبل أن ينزلوه، و سأله هل أرسل فيكم رسول؟ قال: لا، فذكر له بعثة موسى و عيسى و محمد صلوات اللّه عليهم و سلامه، و ما أبدوا به من المعجزات، فقال: إذا كانوا فعلوا هذا، فقد صدقوا، ثم قال: قد صدّقتهم إن كانوا فعلوا.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و قد غلب أولاد، كنز الدولة على النوبة و ملكوها (من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥٨

سنة) و بنى بدنقلة جامع يأوى إليه الغرباء، و اعلم أنّ على ضفة النيل أيضا، الكانم، و ملكها مسلم، و بينه و بين بلاد مالى مسافة بعيدة جدّا، و قاعدة ملكه بلدة اسمها حيميى، و أوّل مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زرلا، و آخرها طولا بلدة يقال لها: كاكا، و بينهما نحو ثلاثة أشهر، و هم يتلثمون، و ملكهم متحجب لا يرى إلا يومى العيدين بكرة، و عند العصر، و طول السنة لا يكلمه أحد إلا من وراء حجاب، و غالب عيشهم الأرز، و هو ينبت من غير بذر، و عندهم القمح و الذرة و التين و الليمون و الباذنجان و اللفت و الرطب، و يتعاملون بقماش ينسج عندهم اسمه: دندى طول كل ثوب، عشرة أذرع، يشترون به من ربع ذراع فأكثر، و يتعاملون أيضا بالودع و الخرز و النحاس المكسر و الورق، و جميع ذلك بسعر ذلك القماش، و فى جنوبها شعارى و صحارى، فيها أشخاص متوحشة كالغيول قريبة من شكل الآدميّ لا يلحقها الفارس تؤذى الناس، و يظهر فى الليل أيضا شبه نار تضىء، فإذا مشى أحد ليلحقها بعدت عنه، و لو جرى إليها لا يصل إليها بل لا تزال أمامه فإذا رماها بحجر، فأصابها تشظى منها شرر، و تعظم عندهم اليقطينة حتى تصنع منها مراكب يعبر فيها فى النيل.

و هذه البلاد بين إفريقية و برقة ممتدّة فى الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط، و هى بلاد قحطان و شطن و سوء مزاج، و أوّل من بث بها الإسلام، الهادى العثمانىّ، ادّعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و صارت بعده، لليزنيين من بنى سيف بن ذى يزن، و هم على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه اللّه، و العدل قائم بينهم، و هم يابسون فى الدين لا يلينون، و بنوا بمدينة مصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق فى سنى أربعين و ستمائة، و صارت و فودهم تنزل بها، و سيرد ذكرها فى المدارس إن شاء اللّه تعالى.

ذكر البجة و يقال إنهم من البربر

اعلم أنّ أول بلد البجة من قرية تعرف بالخزبة معدن الزمرّذ فى صحراء قوص، و بين هذا الموضع، و بين قوص نحو من ثلاث مراحل، و ذكر الجاحظ أنه ليس فى الدنيا معدن للزمرّذ غير هذا الموضع، و هو يوجد فى مغاير بعيدة مظلمة يدخل إليها بالمصابيح، و بحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال، و يحفر عليه بالمعاول، فيوجد فى وسط الحجارة، و حوله غشيم دونه فى الصبغ و الجوهر، و آخر بلاد البجة، أوّل بلاد الحبشة، و هم فى بطن هذه الجزيرة أعنى جزيرة مصر إلى سيف البحر الملح مما يلى جزائر سواكن، و باضع، و دهلك، و هم بادية يتبعون الكلأ، حيثما كان الرعى بأخبية من جلود.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٥٩

و أنسابهم من جهة النساء، و لكل بطن منهم رئيس، و ليس عليهم متملك و لا لهم دين، و هم يورثون، ابن البنت و ابن الأخت دون ولد الصلب، و يقولون: إنّ ولادة ابن الأخت و ابن البنت، أصح فإنه إن كان من زوجها، أو من غيره، فهو ولدها على كل حال، و كان لهم قديما رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه يسكن قرية تعرف: بهجر، هى أقصى جزيرة البجة، و يركبون النجب الصهب، و تنتج عندهم، و كذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضا، و المواشى من البقر و الغنم و الضأن غاية فى الكثرة عندهم، و بقرهم، و حسان ملعمة بقرون عظام، و منها جمّ و كباشهم كذلك منمرة و لها ألبان، و غذاؤهم اللحم و شرب اللبن، و أكلهم للجبن قليل، و فيهم من يأكله، و أبدانهم صحاح و بطونهم خماص، و ألوانهم مشرقة الصفرة، و لهم سرعة فى الجرى يباينون بها الناس، و كذلك

جمالهم شديدة العدو صبورة عليه، و على العطش، يسابقون عليها الخيل، و يقاتلون عليها، و تدور بهم كما يشتهون، و يقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره، و يتطاردون عليها في الحرب، فيرمى الواحد منهم الحربة فإن وقعت في الرمية طار إليها الجمل، فأخذها صاحبها، و إن وقعت في الأرض ضرب الجمل بجرانه الأرض فأخذها صاحبها.

و نبغ منهم في بعض الأوقات رجل يعرف بكلاز شديد مقدام، و له جمل ما سمع بمثله في السرعة، و كان أعور، و صاحبه كذلك التزم لقومه أنه يشرف على مصلى مصر يوم العيد، و قد قرب العيد قربا لا يكون للبلوغ إليها في مثله حقيقة، فوفى بذلك، و أشرف على المقطم و ضربت الخيل خلفه فلم يلحق، و هذا هو الذي أوجب أن يكون في السفح طليعة يوم العيد، و كان الطولونية و غيرهم: من أمراء مصر يوقفون في سفح الجبل المقطم، مما يلي الموضع المعروف: بالحبش، جيشا كثيفا مراعيا للناس حتى ينصرفوا من عيدهم في كل عيد، و هم أصحاب ذمّة فإذا غدر أحدهم رفع المغدور به ثوبا على حربة، و قال: هذا عرش فلان يعني أبا الغادر، فتصير سيئة عليه إلى أن يترضاه، و هم يبالغون في الضيافة، فإذا طرق أحدهما الضيف ذبح له، فإذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الأنعام إليه سواء كانت له أو لغيره، و إن لم يكن شيء نحر راحلة الضيف، و عوّضه ما هو خير منها، و سلاحهم الحراب السباعية مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع، و العود أربعة أذرع، و بذلك سميت سباعية و الحديدة في عرض السيف لا يخرجونها من أيديهم إلا في بعض الأوقات، لأنّ في آخر العود شيئا شبيها بالفلكة يمنع خروجها عن أيديهم، و صناع هذه الحراب نساء في موضع لا يختلط بهنّ رجل إلا المشترى منهنّ.

فإذا ولدت إحداهنّ من الطارقين لهنّ جارية استحيتها، و إن ولدت غلاما قتلته، و يقلن: إنّ الرجال بلاء و حرب، و درقهم من جلود البقر مشعرة، و درق مقلوبة تعرف بالأكسومة من جلود الجواميس، و كذلك الدهلكية و من دابة في البحر، و قسيّهم عربية كبار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٦٠

غلاظ من السدر و الشوحط يرمون عليها بنبل مسموم، و هذا السم يعمل من عروق شجر الغلف يطبخ على النار حتى يصير مثل الغرا فإذا أرادوا تجربته شرط أحدهم جسده، و سيل الدم ثم شممه هذا السم، فإذا تراجع الدم علم أنه جيد، و مسح الدم لئلا يرجع إلى جسمه فيقتله، فإذا أصاب الإنسان قتل لوقته، و لو مثل شرطة الحجام، و ليس له عمل في غير الجرح و الدم و إن شرب منه لم يضرّ، و بلدانهم كلها معادن، و كلما تصاعدت كانت أجود ذهبا و أكثر، و فيها معادن الفضة و النحاس و الحديد و الرصاص و حجر المغناطيس و المرقشيتا و الحمست و الزمرّذ و حجارة شطبا، فإذا بلّت الشطبة منها بزيت و قدت مثل الفتيلة و غير ذلك مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه.

و البجة لا تتعرّض لعمل شيء من هذه المعادن، و في أوديتهم شجر المقل و الإهليلج و الإذخر، و الشيح و السنا و الحنظل، و شجر البان و غير ذلك، و بأقصى بلدهم:

النخل و شجر الكرم و الرياحين، و غير ذلك مما لم يزرعه أحد، و بها سائر الوحش من السباع و الفيلة و النمور و الفهود و القردة و عناق الأرض و الزباد، و دابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب قليلة البقاء إذا صيدت، و من الطيور: الببغاء، و النقيط، و النوبيّ، و القماريّ، و دجاج الحبش، و حمام بازين، و غير ذلك.

و ليس منهم رجل إلاـ منزوع البيضة اليمنى، و أما النساء فمقطوع أشفار فروجهنّ و إنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوّج بمقدار ذكر الرجل، ثم قلّ هذا الفعل عندهم، و قيل: إنّ السبب في ذلك أنّ ملكا من الملوك حاربهم قديما، ثم صالحهم و شرط عليهم قطع ثديّ من يولد لهم من النساء، و قطع ذكور من يولد من الرجال، أراد بذلك قطع النسل منهم، فوفوا بالشرط، و قلبوا المعنى في أن جعلوا قطع الثديّ للرجال، و الفروج للنساء، و فيهم جنس يقلعون ثناياهم و يقولون: لا نتشبه بالحمير، و فيهم جنس آخر في آخر بلاد البجة يقال لهم:

البازة، نساء جميعهم يتسمون باسم واحد، و كذلك الرجال، فطرقهم في وقت رجل مسلم له جمال، فدعا بعضهم بعضا، و قالوا: هذا

اللّه قد نزل من السماء، و هو جالس تحت الشجرة، فجعلوا ينظرون إليه من بعد.

و تعظم الحيات ببلدهم و تكثر أصنافها، و رئيت حية في غدير ماء، قد أخرجت ذنبها و التفت على امرأة وردت فقتلتها، فرؤى شحمها قد خرج من دبرها من شدّة الضغطة، و بها حية ليس لها رأس، و طرفاها سواء منقشة ليست بالكبيرة إذا مشى الإنسان على أثرها مات، و إذا قتلت و أمسك القاتل ما قتلها به من عود أو حربة في يده، و لم يلقه من ساعته مات، و قتلت حية منها بخشبة، فانشقت الخشبة، و إذا تأمّل هذه الحية أحد، و هي ميتة أو حية أصابه ضررها، و في البجة شرّ و تسرع إليه، و لهم في الإسلام و قبله أذية على شرق صعيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٦١

مصر خرّبوا هناك قرى عديدة، و كانت فراعنة مصر تغزوهم و توادعهم أحيانا لحاجتهم إلى المعادن، و كذلك الروم لما أن ملكوا مصر، و لهم في المعادن آثار مشهورة، و كان أصحابهم بها و قد فتحت مصر.

قال عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم: و تجمع لعبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، في انصرافه من النوبة على شاطىء النيل البجة، فسأل عن شأنهم؟ فأخبر: أن ليس لهم ملك يرجعون إليه، فهان عليه أمرهم، و تركهم، فلم يكن لهم عقد و لا صلح، و كان أوّل من هادنهم عبيد اللّه بن الحبحاب السلوليّ، و يذكر أنه وجد في كتاب ابن الحبحاب، لهم ثلثمائة بكر في كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجارا غير مقيمين على أن لا يقتلوا مسلما، و لا ذميّا، فإن قتلاه فلا عهد لهم، و لا يؤوا عبيد المسلمين، و أن يردّوا آبقيهم إذا وقعوا إليهم.

و يقال: إنهم كانوا يؤاخذون بهذا و بكل شاة أخذها البجاوي فعليه أربعة دنانير، و للبقرة عشرة، و كان وكيلهم مقيما بالريف رهينة بيد المسلمين، ثم كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم و تزوّجوا فيهم، و أسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب إسلاما ضعيفا، و هم شوكة القوم، و وجوههم، و هم مما يلي مصر من أوّل حدّهم إلى العلاقي، و عيذاب المعبر منه إلى جدّة و ما وراء ذلك، و منهم جنس آخر يعرفون بالرنافج هم أكثر عددا من الحدارب غير أنهم تبع لهم و خفراؤهم يحمونهم و يحبونهم المواشي و لكل رئيس من الحدارب، قوم من الرنافج في حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الرنافج قديما أظهر عليهم، ثم كثرت أذيتهم على المسلمين، و كان ولاة أسوان من العراق، فرفع إلى أمير المؤمنين المأمون خبرهم، فأخرج إليهم عبد اللّه بن الجهم، فكانت له معهم وقائع، ثم وادعهم، و كتب بينه و بين ركنون رئيسهم الكبير الذي يكون بقريتهم، هجر المقدّم ذكرها كتابا نسخته: هذا كتاب، كتبه عبد اللّه بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبي إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه اللّه في شهر ربيع الأوّل سنة ست عشرة و مائتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان، إنك سألتني و طلبت إليّ أن أؤمنك و أهل بلدك من البجة، و أعقد لك و لهم أمانا عليّ، و على جميع المسلمين، فأجبتك إلى أن عقدت لك، و على جميع المسلمين أمانا ما استقمت، و استقاموا على ما أعطيتني، و شرطت لي في كتابي هذا، و ذلك أن يكون سهل بلدك و جبلها من منتهى حدّ أسوان من أرض مصر إلى حدّ ما بين دهلك و باضع ملكا للمأمون عبد اللّه بن هارون أمير المؤمنين أعزه اللّه تعالى، و أنت و جميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا أنك تكون في

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٦٢

بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجة، و على أن تؤدّي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة، و ذلك مائة من الإبل، أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة في بيت المال، و الخيار في ذلك لأمير المؤمنين و لولاته، و ليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج، و على أنّ كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أو كتاب اللّه أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به، أو قتل أحدا من المسلمين حرّا أو عبدا، فقد برئت منه الذمّة، ذمّة اللّه و ذمّة رسوله صلى اللّه عليه و سلم، و ذمّة أمير المؤمنين، أعزه اللّه، و ذمة جماعة المسلمين، و حلّ دمه كما يحلّ دم أهل الحرب و ذراريهم، و على أنّ أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال أو دلّه على عورة من عورات المسلمين، أو أثر لعزتهم فقد نقض ذمّة عهده و حلّ دمه، و على أنّ أحدا منكم إن قتل أحدا من

المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرّا أو عبدا أو أحدا من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمّتهم ما لا ببلد البجة، أو ببلاد الإسلام أو ببلاد النوبة أو فى شيء من البلدان برّا أو بحرا، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات، و فى قتل العبد المسلم عشر قيم، و فى قتل الذمىّ عشر ديات من دياتهم، و فى كل مال أصبتموه للمسلمين، و أهل الذمّة عشرة أضعافه، و إن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، و لا تؤوا أحدا من آبقى المسلمين، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردّوه إلى المسلمين، و على أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزمهم فى ذلك، و على أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحا، و لا تدخلون المدائن و القرى بحال، و لا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم و التجارة فيها برّا و لا بحرا، و لا تخيفوا السبيل، و لا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين، و لا أهل الذمّة، و لا تسرقوا لمسلم و لا ذمىّ مالا و على أن لا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون، بصيحة و هجر، و سائر بلادكم طولا و عرضا فإن فعلتم ذلك، فلا عهد لكم و لا ذمّة.

و على أن كنون بن عبد العزيز، يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفى للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج، و ردّ ما أصابه البجة للمسلمين من دم و مال، و على أن أحدا من البجة لا يعترض حدّ القصر إلى قرية يقال لها قبان، من بلد النوبة حدّا لا عمدة عقد، عبد اللّه بن الجهم، مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز، كبير البجة الأمان على ما سمينا و شرطنا فى كتابنا هذا، و على أن يوافى به أمير المؤمنين فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له، و لا ذمّة، و على كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة، لقبض صدقات من أسلم من البجة، و على كنون الوفاء بما شرط، لعبد اللّه بن الجهم، و أخذ بذلك عهد اللّه عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء و الميثاق.

و لكنون بن عبد العزيز، و لجميع البجة: عهد اللّه و ميثاقه و ذمّة أمير المؤمنين، و ذمّة الأمير، أبى إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد، و ذمّة عبد اللّه بن الجهم، و ذمّة المسلمين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣۶٣

بالوفاء، بما أعطاه عبد اللّه بن الجهم، ما وفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه، فإن غيّر كنون، أو بدّل أحد من البجة، فذمّة اللّه جل اسمه، و ذمّة أمير المؤمنين، و ذمّة الأمير أبى إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد، و ذمّة عبد اللّه بن الجهم، و ذمّة المسلمين بريئة منهم، و ترجم جميع ما فى هذا الكتاب حرفا حرفا، زكريا بن صالح المخزومىّ من سكان جدّة و عبد اللّه بن إسماعيل القرشىّ، ثم نسق جماعة من شهود أسوان، فأقام البجة على ذلك برهة، ثم عادوا إلى غزو الريف من صعيد مصر، و كثر الضجيج منهم إلى أمير المؤمنين، جعفر المتوكل على اللّه، فندب لحربهم، محمد بن عبد اللّه القمىّ، فسأل أن يختار من الرجال، من أحبّ، و لم يرغب إلى الكثرة لصعوبة المسالك.

فخرج إليهم من مصر فى عدّة قليلة، و رجال منتخبة، و سارت المراكب فى البحر، فاجتمع البجة لهم فى عدد كثير عظيم قد ركبوا الإبل، فهاب المسلمون ذلك، فشغلهم بكتاب طويل كتبه فى طومار، و لفه بثوب فاجتمعوا لقراءته، فحمل عليهم، و فى أعناق الخيل الأجراس، فنفرت الجمال بالبجة، و لم تثبت لصلصلة الأجراس، فركب المسلمون أقفيتهم، و قتلوا منهم مقتلة عظيمة، و قتل كبيرهم، فقام من بعده، ابن أخيه، و بعث يطلب الهدنة، فصالحهم، على أن يطأ بساط أمير المؤمنين، فسار إلى بغداد، و قدم على المتوكل، بسرّمن‌رأى فى سنة إحدى و أربعين و مائتين، فصولح على أداء الإداوة و البقط، و اشترط عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن.

و أقام القمىّ بأسوان مدّة، و ترك فى خزائنها ما كان معه من السلاح و آلة الغزو، فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئا، فلما كثر المسلمون فى المعادن، و اختلطوا بالبجة، قلّ شرهم، و ظهر التبر لكثرة طلابه، و تسامع الناس به فوفدوا من البلدان، و قدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحميد العمرىّ، بعد محاربته النوبة فى سنة خمس و خمسين و مائتين، و معه ربيعة و جهينة و

غيرهم من العرب، فكثرت بهم العمارة فى البجة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان، ستين ألف راحلة، غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب، و مالت البجة إلى ربيعة و تروّحوا إليهم.

و قيل: إنّ كهان البجة قبل إسلام من أسلم منهم ذكرت، عن معبودهم الطاعة لربيعة، و لكنون معا، فهم على ذلك، فلما قتل العمرىّ، و استولت ربيعة على الجزائر، والاهم على ذلك البجة، فأخرجت من خالفها من العرب، و تصاهروا إلى رؤساء البجة، و بذلك كف ضررهم عن المسلمين.

و البجة الداخلة فى صحراء بلد علوة مما يلى البحر الملح إلى أوّل الحبشة، و رجالهم فى الظعن و المواشى و اتباع الرعى و المعيشة، و المراكب و السلاح، كحال الحدارب، إلا أن الحدارب أشجع و أهدى من الداخلة على كفرهم من عبادة الشيطان، و الاقتداء بكهانهم، المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٦٤

و لكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها، فإذا رأوا استخباره عما يحتاجون إليه تعرّى، و دخل إلى القبة مستدبرا، و يخرج إليهم و به أثر جنون و صرع، يقول: الشيطان يقرئكم السلام، و يقول لكم: ارحلوا عن هذه الحلة، فإنّ الرهط الفلانىّ يقع بكم، و سألتم عن الغزو إلى بلد كذا، فسيروا فإنكم تظفرون و تغنمون كذا و كذا، و الجمال التى تأخذونها من موضع كذا هى لى، و الجارية الفلانية التى تجدونها فى الخباء الفلانىّ، و الغنم التى من صفتها كذا، و نحو هذا القول، فيزعمون أنه يصدقهم فى أكثر من ذلك، فإذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ما ذكر، و دفعوه إلى الكاهن يتموّله و يحرّمون ألبان نوقها على من لم يقبل، فإذا أرادوا الرحيل حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد، فيزعمون أن ذلك الجمل لا يثور إلا بجهد، و كذلك سيره و يتصبب عرقا، و الخيمة فارغة لا شيء فيها، و قد بقى فى الحدارب جماعة على هذا المذهب، و منهم من يتمسك بذلك مع إسلامه.

قال مؤرخ النوبة: و منه لخصت ما تقدّم ذكره، و قد قرأت فى خطبة الأجناس لأمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه: ذكر البجة و الكجة و يقول عنهم: شديد كلبهم، قليل سلبهم، فالبجة كذلك، و أما الكجة، فلا أعرفهم انتهى ما ذكره عبد اللّه بن أحمد مؤرخ النوبة.

و قال أبو الحسن المسعودى: فأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم و نيل مصر، و تشعبوا فرقا و ملّكوا عليهم ملكا، و فى أرضهم معادن الذهب، و هو التبر و معادن الزمرّذ، و تتصل سراياهم و مناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة، فيغزون و يسبون، و قد كانت النوبة قبل ذلك أشدّ من البجة إلى أن قوى الإسلام، و ظهر و سكن جماعة من المسلمين معدن الذهب، و بلاد العلاقى و عيذاب، و سكن فى تلك الديار خلق من من العرب من ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان، فاشتدّت شوكتهم، و تزوّجوا من البجة، فقويت البجة، ثم صاهرها قوم من ربيعة، فقويت ربيعة بالبجة على من ناواها، و جاورها من قحطان و غيرهم، ممن سكن تلك الديار.

و صاحب المعدن فى وقتنا هذا، و هو سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة يركب فى ثلاثة آلاف ألف من ربيعة و أحلافها من مصر، و اليمن و ثلاثين ألف حراب على النجب من البجة فى الجحف التحاوية، و هم الحدارب، و هم مسلمون ممن بين سائر البجة، و الداخلة من البجة، كفار يعبدون صنما لهم، و البجة المالكة لمعدن الزمرّذ يتصل ديارها بالعلاقى، و هو معدن الذهب، و بين العلاقى و النيل خمس عشرة مرحلة و أقرب العمارة إليه مدينة أسوان، و جزيرة سواكن أقل من ميل فى ميل، و بينها و بين البحر الحبشى بحر قصير يخاض، و أهلها طائفة من البجة تسمى: الخاسة، و هم مسلمون و لهم بها ملك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٦٥

و قال الهمدانىّ: نكح كنعان بن حام أرتيب بنت شاويل بن ترس بن يافث، فولدت له حقا، و الأساود، و نوبة، و قران، و الزنج، و الزغاوة، و أجناس السودان، و قيل: البجة من ولد حام بن نوح، و قيل: من ولد كوش بن كنعان بن حام، و قيل: البجة قبيلة من الحبش أصحاب أخبية من شعر، و ألوانهم أشدّ سوادا من الحبشة يتزيون بزىّ العرب، و ليس لهم مدن و لا قرى و لا مزارع، و معيشتهم مما ينقل إليهم من أرض الحبشة، و أرض مصر و النوبة.

و كانت البجة تعبد الأصنام، ثم أسلموا فى إمارة عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، و فيهم كرم و سماحة، و هم قبائل و أفخاذ لكل فخذ رئيس، و هم أهل نجعة و طعامهم اللحم و اللبن فقط.

ذكر مدينة أسوان

اشارة

أسوان من قولهم: أسى الرجل، يأسى أسى: إذا حزن، و رجل أسيان و أسوان: أى حزين، و أسوان فى آخر بلاد الصعيد، و هى ثغر من ثغور الإقليم يفصل بين النوبة و أرض مصر، و كانت كثيرة الحنطة، و غيرها من الحبوب و الفواكه و الخضراوات و البقول، و كانت كثيرة الحيوان من الإبل و البقر و الغنم، و لحمانها هناك غاية فى الطيب و السمن، و كانت أسعارها أبدا رخيصة، و بها تجارات و بضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة، و لا يتصل بأسوان من شرقها بلد إسلامىّ، و فى جنوبها جبل به معدن الزمرّذ، و هو فى برّية منقطعة عن العمارة، و على خمسة عشر يوما من أسوان، معدن الذهب، و يتصل بأسوان من غربيها:

الواحات، و يسلك من أسوان إلى عيذاب، و يتوصل من عيذاب إلى الحجاز و إلى اليمن و الهند.

قال المسعودىّ: و مدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان، و نزار بن ربيعة و مضر، و خلق كثير من قريش، و أكثرهم من الحجاز و البلد كثير النخل خصيب، كثير الخير تودع النواة فى الأرض فتنبت نخلة، و يؤكل من ثمرها بعد سنتين، و لمن بأسوان ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدّون خراجها إلى ملك النوبة، و ابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الإسلام فى دولة بنى أمية و بنى العباس.

و قد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم، يوفد و فدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه أنّ أناسا من أهل مملكته و عبيده، باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان و أنها ضياعه و القوم عبيد لا أملاك لهم، و إنما تملكهم على هذه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٦٦

الضياع تملك العبيد العامرين فيها، فجعل المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان، و من بها من أهل العلم و الشيوخ، و علم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن يقدّموا إلى من ابتيع منهم من النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم أن لا يقرّوا لملكهم بالعبودية، و أن يقولوا سبيلنا معاشر النوبة، سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته، و ترك مخالفته فإن كنتم أنتم عبيدا لملككم و أموالكم له، فنحن كذلك، فلما جمع الحاكم بينهم و بين صاحب الملك، أتوا بهذا الكلام للحاكم و نحوه، مما أوقفوهم عليه من هذا المعنى، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت.

و توارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس، و صار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين من وصفنا، أحرار غير عبيد، و النوع الآخر من أهل مملكته عبيد و هم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان و هى بلاد مريس. قال: و أما النوبة، فافترقت فرقتين، فرقة فى شرق النيل و غربه، فأناخت على شاطئه، و اتصلت ديارها بديار القبط من أرض صعيد مصر، و اتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعدة، و لحقوا بقريب من أعاليه، و بنوا دار مملكة، و هى مدينة عظيمة تدعى: دنقلة، و الفرقة الأخرى من النوبة، يقال لها: علوة و بنوا مدينة عظيمة سموها: سرقته، و البلد المتصل مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس، و إليه تضاف الريح المريسية، و عمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد، و مدينة أسوان. قال: و فى الجانب الشرقىّ من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمد و غيرها. فأما العمد و القواعد و الرءوس التى يسميها أهل مصر الأسوانية، و منها حجارة الطواحين، فتلك نقرها الأوّلون قبل حدوث النصرانية بمئين من السنين، و منها العمد التى بالإسكندرية. و فى ذى الحجة

سنة أربع و أربعين و ثلثمائة، أغار ملك النوبة على أسوان، و قتل جمعا من المسلمين، فخرج إليه محمد بن عبد اللّه الخازن على عسكر مصر من قبل، أو نوجور بن الإخشيد في محرّم سنة خمس و أربعين، فساروا في البرّ و البحر، و بعثوا بعدّة من النوبة أسروهم، فضربت أعناقهم، بعد ما أوقع بملك النوبة، و سار الخازن، حتى فتح مدينة أبريم و سبى أهلها، و قدم إلى مصر في نصف جمادى الأولى سنة خمس و أربعين بمائة و خمسين أسيرا، و عدّة رؤوس. و قال القاضي الفاضل: إنّ متحصل ثغر أسوان في سنة خمس و ثمانين و خمسمائة بلغ، خمسة و عشرين ألف دينار. و قال الكمال جعفر الأدفوي: و كان بأسوان ثمانون رسولا من رسل الشرع، و تحصل من أسوان في سنة واحدة، ثلاثون ألف أردب تمرا، و أخبرنا من وقف على مكتوب كان فيه أربعون شريفا خاصة، و أنّ مكتوبا آخر رأى فيه ستين شريفا دون من عداهم.

قال: و وقفت أنا، على مكتوب فيه نحو من أربعين مؤرخ بما بعد العشرين و ستمائة من الهجرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣۶٧

و كان بثغر أسوان، بنو الكنز من ربيعة أمراء ممدوحون مقصودون، صنع لهم الفاضل الشديد، أبو الحسن بن عرام سيرة، ذكر فيها مناقبهم، و أسماء من مدحهم و من ورد عليهم، و لما أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا إلى كنز الدولة و أصحابه ترحلوا عن البلاد، فدخلوا بيوتهم، فوجدوا بها قصائد من مدحهم منها، قصيدة أبي محمد الحسن بن الزبير قال فيها:

و ينجده إن خانه الدهر أوسطاأناس إذا ما أنجد الذل اتهموا

أجاروا فما تحت الكواكب خائفو جادوا فما فوق البسيطة معدم

و أنه أجازه عليها بألف دينار، و وقف عليه ساقية تساوي ألف دينار، و كان بأسوان رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة و السودان عليه، فلما زالت الدولة الفاطمية أهمل ذلك، فسار ملك النوبة في عشرة آلاف، و نزله تجاه أسوان في جزيرة و أسر من كان فيها من المسلمين، ثم تلاشى بعد ذلك أمر الثغر، و استولى عليه أولاد الكنز من بعد سنة تسعين و سبعمائة، فأفسدوا فسادا كبيرا، و كانت لهم مع ولاة أسوان عدّة حروب إلى أن كانت المحن منذ سنة ست و ثمانمائة، و خرب إقليم الصعيد، فارتفعت يد السنة عن ثغر أسوان، و لم يبق للسلطان في مدينة أسوان وال، و اتضع حاله عدّة سنين، ثم زحفتّ هوّارة في محرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة إلى أسوان، و حاربت أولاد الكنز و هزموهم، و قتلوا كثيرا من الناس، و سبوا ما هناك من النساء و الأولاد، و استرقوا الجميع و هدموا سور مدينة أسوان، و مضوا بالسبي، و قد تركوها خرابا يبابا لا سكن بها، فاستمرت على ذلك بعد ما كانت بحيث يقول عنها عبد اللّه بن أحمد بن سليم الأسوانيّ في كتاب أخبار النوبة: أن أبا عبد الرحمن عبد اللّه بن عبد الحميد العمريّ، لما غلب على المعدن كتب إلى أسوان يسأل التجار الخروج إليه بالجهاز من طريق المعدن، فخرج إليه رجل يعرف بعثمان بن حيخلة التميميّ في ألف راحلة فيها الجهاز و البرّ.

و ذكر أنّ العمريّ لما عاد إلى بلاد البجة بعد حروبه للنوبة، كثرت العمارة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان، ستين ألف راحلة، غير الجلاب التي تحمل من القلزم إلى عيذاب، قال: و مما شاهده جماعة من شيوخنا الثقات بأسوان بقرية تدعى أساشي، هي من أسوان على مرحلتين و نصف، أنهم رأوا شرقها من جانب النيل قرية بسور، و خارج بابها جميزة و ناس يدخلون و يخرجون، فإذا عبروا إلى الموضع لم يجدوا شيئا، و هذا يكون في الشتاء دون الصيف قبل طلوع الشمس، و الناس مجمعون على رؤيتها، و صحة هذا الخبر، و كان بها أنواع من التمر و أنواع من الرطب منها نوع من الرطب، أشدّ ما يكون من خضرة السلق.

و أمر هارون الرشيد، أن يجمع له من ألوان تمر أسوان من كل صنف، تمرة واحدة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣۶٨

فجمع له ويبة، و لا يعرف في الدنيا بسر يتتمر قبل أن يصير رطبا إلا بأسوان.

ذكر بلاق

بلاق: أجلّ حصن للمسلمين، و هى جزيرة تقرب من الجنادل، محيط بها النيل فيها بلد كبير يسكنه خلق كثير من الناس و بها نخل عظيم، و منبر فى جامع و إليها تنتهى سفن النوبة، و سفن المسلمين من أسوان، و بينها و بين القرية التى تعرف بالقصر، و هى أوّل بلد النوبة ميل واحد، و بينها و بين أسوان أربعة أميال، و من أسوان إلى هذا الموضع، جنادل فى البحر، لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة، و دلالة من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك، و بالقصر مسلحة و باب إلى بلد النوبة.

ذكر حائط العجوز

هذا الحائط، كان حصنا لأرض مصر، يحدق بجميعها، و كان فيه محارس و مسالح، و من ورائه خليج يجرى فيه الماء، معقود عليه القناطر، عملته دلوكة بنت زبا، و قد وهى و تلاشى، و لم يبق منه إلا يسير فى شط النيل الشرقىّ ينتهى إلى أسوان.

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر: فبقيت مصر بعد غرقهم، يعنى فرعون و جنوده، و ليس فيها من أشراف أهلها أحد، و لم يبق بها إلا العبيد، و الأجراء، و النساء، فأعظم أشراف من بمصر من النساء، أن يولين منهم أحدا، و أجمع رأيهنّ، أن يولين امرأة منهن يقال لها: دلوكة بنت زبا، و كان لها عقل و معرفة و تجارب، و كانت فى شرف منهنّ و موضع، و هى يومئذ بنت مائة سنة و ستين سنة، فملكوها، فخافت أن يتناولها ملوك الأرض، فجمعت نساء الأشراف فقالت لهنّ: إنّ بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد، و لا يمدّ عينه إليها، و قد هلك أكابرنا و أشرافنا، و ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم، و قد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا، فأضع عليه المحارس من كل ناحية، فإنا لا نأمن من أن يطمع فينا الناس، فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها، المزارع و المدائن و القرى، و جعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء، و أقامت القناطر و الترع، و جعلت فيه محارس و مسالح على كل ثلاثة أميال، محرس و مسلحة، و فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، و جعلت فى كل محرس رجالا، و أجرت عليهم الأرزاق، و أمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض بالأجراس، فأتاهم الخبر من أىّ جهة كانت فى ساعة واحدة، فنظروا فى ذلك، فمنعت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۶۹

بذلك مصر، ممن أرادها، و فرغت من بنائه فى ستة أشهر، و هو الجدار الذى يقال له: جدار العجوز بمصر، و قد بقيت بالصعيد منه بقايا كبيرة، و اللّه أعلم.

ذكر البقط

البقط: ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام، و يحمل إلى مصر، ضريبة عليهم، فإن كانت هذه الكلمة عربية، فهى إمّا من قولهم فى الأرض بقط من بقل و عشب، أى نبذ من مرعى، فيكون معناه على هذا، نبذة من المال أو يكون من قولهم، إنّ فى بنى تميم، بقطا من ربيعة أى فرقة أو قطعة، فيكون معناه على هذا، فرقة من المال، أو قطعة منه، و منه بقط الأرض، فرقة منها، و بقط الشىء: فرّقه.

و البقط: أن تعطى الحبة على الثلث أو الربع، و البقط أيضا: ما سقط من التمر إذا قطع، فأخطأ المخرف، فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة، و كان يؤخذ منهم فى قرية يقال لها: القصر، مسافتها من أسوان خمسة أميال فيما بين بلد بلاق و بلد النوبة، و كان القصر فرضة لقوص، و أوّل ما تقرّر هذا البقط على النوبة فى إمارة عمرو بن العاص، لما بعث عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين، و قيل: سنة إحدى و عشرين فى عشرين ألفا، فمكث بها زمانا، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه.

فلما مات عمرو رضى اللّه عنه، نقض النوبة الصلح الذى جرى بينهم و بين عبد اللّه بن سعد، و كثرت سراياهم إلى الصعيد، فأخربوا، و

أفسدوا، فغزاهم مرّة ثانية عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، و هو على إمارة مصر فى خلافة عثمان رضى اللّه عنه، سنة إحدى و ثلاثين، و حصرهم بمدينة دنقلة حصارا شديدا، و رماهم بالمنجنيق، و لم تكن النوبة تعرفه و خسف بهم كنيستهم بحجر، فبهرهم ذلك، و طلب ملكهم و اسمه: قليدوروث الصلح، و خرج إلى عبد اللّه و أبدى ضعفا و مسكنة و تواضعا، فتلقاه عبد اللّه و رفعه و قرّبه، ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة و ستين رأسا فى كل سنة، و وعده عبد اللّه بحبوب يهديها إليه لما شكا له قلة الطعام ببلده، و كتب لهم كتابا نسخته بعد البسملة.

عهد من الأمير عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، لعظيم النوبة و لجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير و الصغير من النوبة من حدّ أرض أسوان إلى حدّ أرض علوة أنّ عبد اللّه ابن سعد، جعل لهم أمانا و هدنة جارية بينهم، و بين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر، و غيرهم من المسلمين، و أهل الذمّة، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان اللّه و أمان رسوله محمد النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، أن لا ـ نحاربكم، و لا ننصب لكم حربا و لا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا و بينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، و ندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، و عليكم حفظ من نزل بلدكم، أو يطرقه من مسلم أو معاهد، حتى يخرج عنكم، و إنّ عليكم ردّ كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين، حتى تردّوه إلى أرض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧٠

الإسلام، و لا تستولوا عليه، و لا تمنعوا منه و لا تتعرّضوا لمسلم قصده و حاوره إلى أن ينصرف عنه، و عليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، و لا تمنعوا منه مصليا، و عليكم كنسه و إسراجه و تكرمته، و عليكم فى كل سنة ثلثمائة و ستون رأسا، تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران و إناث، ليس فيها شيخ هرم، و لا عجوز، و لا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى أسوان، و ليس على مسلم دفع عدوّ عرض لكم و لا منعه عنكم، من حدّ أرض علوة إلى أرض أسوان، فإن أنتم آويتم عبد المسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا، أو تعرّضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس و الستين رأسا، فقد برئت منكم هذه الهدنة و الأمان وعدنا نحن و أنتم على سواء حتى يحكم اللّه بيننا، و هو خير الحاكمين علينا بذلك عهد اللّه و ميثاقه و ذمّته و ذمّة رسوله محمد صلى اللّه عليه و سلم، و لنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمّة المسيح، و ذمّة الحواريين، و ذمّة من تعظمونه من أهل دينكم، و ملتكم اللّه الشاهد بيننا و بينكم على ذلك. كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى و ثلاثين.

و كانت النوبة دفعت إلى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكثهم، و أهدوا إلى عمرو أربعين رأسا من الرقيق، فلم يقبلها، و ردّ الهدية إلى كبير البقط و يقال له:

سمقوس، فاشترى له بذلك جهازا و خمرا، و وجهه إليه، و بعث إليهم عبد اللّه بن سعد، ما وعدهم به من الحبوب، قمحا و شعيرا و عدسا و ثيابا و خيلا، ثم تطاول الرسم على ذلك، فصار رسما يأخذونه عند دفع البقط فى كل سنة، و صارت الأربعون رأسا التى أهديت إلى عمرو يأخذها والى مصر.

و عن أبى خليفة حميد بن هشام البحترىّ، أن الذى صولح عليه النوبة، ثلثمائة و ستون رأسا لفىء المسلمين، و لصاحب مصر أربعون رأسا و يدفع إليهم ألف أردب قمحا، و لرسله ثلثمائة أردب، و من الشعير كذلك، و من الخمر ألف اقتيز للمتملك، و لرسله ثلثمائة اقتيز، و فرسين من نتاج خيل الإمارة، و من أصناف الثياب مائة ثوب، و من القباطىّ أربعة أثواب للمتملك و لرسله ثلاثة، و من البقطرية، ثمانية أثواب، و من المعلمة خمسة أثواب و جبة مجملة للملك، و من قمص أبى بقطر عشرة أثواب، و من أحاص عشرة أثواب، و هى ثياب غلاظ.

قال أبو خليفة: ليس فى كتاب عبد اللّه بن وهب و لا فى كتاب الواقدىّ تسمية ينتهى إليها، و إنما أخذت التسمية من أبى زكريا، قال أبو زكريا: سمعت والدى عمرو بن صالح يقول هذا الخبر، فحفظت منه، ما وقفت عليه، و قال: حضرت مجلس الأمير، عبد اللّه بن

طاهر، و هو على مصر، فقال: أنت عثمان بن صالح، الذى وجهنا إليك فى كتاب بقط النوبة، قلت: نعم، فأقبل علىّ محفوظ بن سليمان، فقال: ما أعجب أمر هذه البلدة وجهنا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧١

إليهم نطلب علما من علومهم، و إلى هذا الشيخ، فما شقانا أحد منهم، فقلت: أصلح اللّه الأمير، إنّ الذى طلبت من خبر النوبة عندى، قد حفظه شيوخ عن الشيوخ الذين حضروا هناك، و الهدنة و الصلح الذى جرى بين عبد اللّه بن سعد، و بين النوبة، ثم حدّثته عن أخبارهم، كما سمعت فأنكر عطية الخمر، فقلت: قد أنكرها عبد العزيز بن مروان، و كان هذا المجلس بفسطاط مصر سنة إحدى عشرة و مائتين، بعد أن تم الصلح بينه و بين عبد اللّه بن السرىّ بن الحكم التميمىّ الأمير كان قبله، قال عثمان بن صالح، فوجه الأمير إلى الديوان بظهر المسجد الجامع بمصر، فاستخرج منه خبر النوبة، فوجده كما ذكرت، فسرّه ذلك.

و عن مالك بن أنس: أنه كان يرى أنّ أرض النوبة إلى حدّ علوة صلح، و كان لا يجيز شراء رقيقهم، و كان أصحابه مثل عبد اللّه بن عبد الحكم، و عبد اللّه بن وهب، و الليث بن سعد، و يزيد بن أبى حبيب و غيرهم من فقهاء مصر، يرون خلاف ذلك.

قال الليث بن سعد: نحن أعرف بأرض النوبة من الإمام مالك بن أنس، إنما صولحوا على أن لا تغزوهم، و لا تمنع منهم عدوّا فما استرقه متملكهم، أو غزا بعضهم بعضا، فشراؤه جائز، و ما استرقه بغاة المسلمين و سرّاقهم، فغير جائز، و كان عند جماعة منهم جوار نوبيات لفرشهم، و لم يزل النوبة يؤدّون البقط فى كل سنة، و يدفع إليهم ما تقدّم ذكره إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم باللّه، أبى إسحاق بن الرشيد، و كبير النوبة، يومئذ زكرياء بن بجنس، و كانت النوبة، ربما عجزت عن دفع البقط، فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم، و يمنع من إخراج الجهاز إليهم، فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكرياء على أبيه، بذله الطاعة لغيره، و استعجزه فيما يدفع، فقال له أبوه فما تشاء، قال:

عصيانهم و محاربتهم، قال أبوه: هذا شىء رآه السلف من آبائنا صوابا و أخشى أن يفضى هذا الأمر إليك فتقدم على محاربة المسلمين، غير أنى أوجهك إلى ملكهم رسولا فأنت ترى حالنا و حالهم فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة و إلا سألته الإحسان إلينا، فشخص فيرقى إلى بغداد، و كانت البلدان تزين له و يسير على المدن، و انحدر بانحداره رئيس البجة بأسبابه، و لقيا المعتصم، فنظروا إلى ما بهرهما من حال العراق فى كثرة الجيوش، و عظم العمارة مع ما شاهداه فى طريقهما، فقرّب المعتصم فيرقى و أدناه و أحسن إليه إحسانا تامّا، و قبل هديته، و كافأه بأضعافها، و قال له: تمنّ ما شئت، فسأله فى إطلاق المحبوسين فأجابه إلى ذلك، و كبر فى عين المعتصم و وهب له الدار التى نزلها بالعراق و أمر أن يشترى له فى كل منزل من طريقه دار تكون لرسلهم، فإنه امتنع من دخول دار لأحد فى طريقه فأخذ له بمصر: دار بالجيزة، و أخرى ببنى وائل، و أجرى لهم فى ديوان مصر سبعمائة دينار و فرسا و سرجا و لجاما و سيفا محلّى و ثوبا مثقلا و عمامة من الخز و قميص شرب و رداء شرب و ثيابا لرسله غير محدودة عند وصول البقط إلى مصر، و لهم حملان و خلع على المتولى لقبض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧٢

البقط، و عليهم رسوم معلومة لقابض البقط و المتصرّفين معه، و ما يهدى إليهم بعد ذلك فغير محدود، و هو عندهم هدية يجازون عليها، و نظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون، فوجده أكثر من البقط، و أنكر عطية الخمر، و أجرى الحبوب و الثياب التى تقدّم ذكرها، و قرّر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين، و كتب لهم كتابا بذلك بقى فى يد النوبة، و ادّعى النوبىّ على قوم من أهل أسوان أنهم اشتروا أملاكا من عبيده، فأمر المعتصم بالنظر فى ذلك، فأحضر والى البلد، و المختار للحكم فيه، التابعين من النوبة و سألاهم: عما ادّعاه صاحبهم من بيعهم، فأنكروا ذلك، و قالوا: نحن رعية، فزال ما ادّعاه، و طلب أشياء غير ذلك من إزالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها إلى الحدّ الذى بينهم و بين المسلمين لأنّ المسلحة على أرضهم، فلم يجبه إلى ذلك، و لم يزل الرسم جاريا بدفع البقط على هذا التقرير، و يدفع إليهم ما أجراه المعتصم إلى أن قدمت الدولة الفاطمية إلى مصر، ذكر ذلك مؤرخ النوبة.

و قال أبو الحسن المسعودىّ: و البقط هو ما يقبض من السبى فى كل سنة، و يحمل إلى مصر ضريبة عليهم، و هو ثلثمائة رأس و خمسة و ستون رأسا لبيت المال بشرط الهدنة بين النوبة و المسلمين، و للأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأسا، و لخليفته المقيم بأسوان و هو المتولى لقبض البقط عشرون رأسا و للحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط، خمسة أرؤس و لاثنى عشر شاهدا عدول من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأسا من السبى على حسب ما جرى به الرسم فى صدر الإسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين و النوبة.

و قال البلاذرى فى كتاب الفتوحات: إنّ المقرّر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعاما، أى غلة و ألزمهم أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور، ثلثمائة و ستين رأسا و زراقة.

و فى سنة أربع و سبعين و ستمائة، كثر خبث داود، متملك النوبة، و أقبل إلى أن قرب من مدينة أسوان، و حرّق عدّة سواق، بعد ما أفسد بعيذاب، فمضى إليه والى قوص، فلم يدركه، و قبض على صاحب الخيل فى عدّة من النوبة، و حملهم إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى بقلعة الجبل فوسطهم و قدم سكندة ابن أخت متملك النوبة متظلما من خاله داود، فجرّد السلطان معه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى الإستادار، و الأمير عز الدين إيبك الأفرم، و أمير جاندار فى جماعة كثيرة من العسكر، و من أجناد الولايات و عربان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧٣

الوجه القبلىّ و الزراقين و الرماة و رجال الحراريق، فساروا فى أوّل شعبان من القاهرة حتى وصلوا إلى أرض النوبة، فخرجوا إلى لقائهم على النجب بأيديهم الحراب، و عليهم دكادك سود، فاقتتل الفريقان قتالا كبيرا، انهزم فيه النوبة و أغاز الأفرم على قلعة الدار، و قتل و سبى و أوغل الفارقانى فى أرض النوبة برّا و بحرا، يقتل و يأسر، فحاز من المواشى ما لا يعدّ، و نزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل، و نفر المراكب من الجنادل، ففرّ النوبة إلى الجزائر، و كتب لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أمانا، فحلف لسكندة على الطاعة، و أحضر رجال المريس و من فرّ، و خاض الأفرم إلى برج فى الماء و حصره، حتى أخذه و قتل به مائتين و أسر أخا لداود، فهرب داود و العسكر فى أثره، مدّة ثلاثة أيام و هم يقتلون و يأسرون، حتى أذعن القوم، و أسرت أم داود و أخته، و لم يقدر على داود، فتقرّر سكندة عوضه، و قرّر على نفسه القطيعة فى كل سنة ثلاث فيلة، و ثلاث زرافات، و خمس فهود من أناثها، و مائة نجيب أصهب، و أربعمائة رأس من البقر المنتجة، على أن تكون بلاد النوبة نصفين، نصفها للسلطان، و نصفها لعمارة البلاد، و حفظها ما خلا بلاد الجنادل، فإنها كلها للسلطان لقربها من أسوان، و هى نحو الربع من بلاد النوبة، و أن يحمل ما بها من التمر و القطن، و الحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان، و أن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية، فيدفع كل بالغ منهم فى السنة دينارا عينا، و كتب نسخة يمين بذلك، حلف عليها الملك سكندة.

و نسخة يمين أخرى، حلفت عليها الرعية، و خرّب الأميران كنائس النوبة، و أخذ ما فيها، و قبض على نحو عشرين أميرا من أمراء النوبة، و أفرج عمن كان بأيدى النوبة من أهل أسوان و عيذاب من المسلمين فى أسرهم، و ألبس سكندة تاج الملك، و أقعد على سرير المملكة، بعد ما حلف و التزم أن يحمل جميع ما لداود، و لكل من قتل و أسر من مال و دواب إلى السلطان مع البقط القديم، و هو أربعمائة رأس من الرقيق، فى كل سنة و زرافة من ذلك ما كان للخليفة ثلثمائة و ستون رأسا، و لنائبه بمصر أربعون رأسا، على أن يطلق لهم إذا و صلوا بالبقط تاما من القمح ألف أردب لمتملكهم، و ثلثمائة أردب لرسله.

ذكر صحراء عيذاب

اعلم أنّ حجاج مصر و المغرب، أقاموا زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة شرّفها اللّه تعالى، إلا من صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص، و يعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون البحر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۷۴

فى الجلاب إلى جدّة ساحل مكة، و كذلك تجار الهند و اليمن و الحبشة، يردون فى البحر إلى عيذاب، ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص، و منها يردون مدينة مصر، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر، أو يرد من قوافل التجار و الحجاج، حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة و الفلفل، و نحو ذلك لتوجد ملقاة بها و القفول صاعدة و هابطة لا يعترض لها أحد، إلى أن يأخذها صاحبها.

فلم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم و إيابهم، زيادة على مائتى سنة من أعوام بضع و خمسين و أربعمائة، إلى أعوام بضع و ستين و ستمائة، و ذلك منذ كانت الشدّة العظمى فى أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر، و انقطاع الحج فى البرّ إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، الكعبة و عمل لها مفتاحا، ثم أخرج قافلة الحاج من البرّ فى سنة ست و ستين و ستمائة، فقلّ سلوك الحجاج لهذه الصحراء، و استمرّت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص، حتى بطل ذلك بعد سنة ستين و سبعمائة، و تلاشى أمر قوص من حينئذ، و هذه الصحراء مسافتها من قوص إلى عيذاب سبعة عشر يوما، و يفقد فيها الماء ثلاثة أيام متوالية، و تارة يفقد أربعة أيام، و عيذاب مدينة على ساحل بحر جدّة، و هى غير مسوّرة، و أكثر بيوتها أخصاص، و كانت من أعظم مراسى الدنيا بسبب أنّ مراكب الهند و اليمن تحط فيها البضائع، و تقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة و الواردة، فلما انقطع ورود مراكب الهند و اليمن إليها صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن إلى أن كانت أعوام بضع و عشرين و ثمانمائة، فصارت جدّة أعظم مراسى الدنيا، و كذلك هرمز، فإنها مرسى جليل، و عيذاب فى صحراء لا نبات فيها، و كل ما يؤكل بها مجلوب إليها حتى الماء، و كان لأهلها من الحجاج و التجار فوائد لا تحصى، و كان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقرّرة، و كانوا يكارون الحجاج الجلاب التى تحملهم فى البحر إلى جدّة، و من جدّة إلى عيذاب، فيجتمع لهم من ذلك مال عظيم، و لم يكن فى أهل عيذاب إلا من له جلبة فأكثر على قدر يساره.

و فى

بحر عيذاب، مغاص اللؤلؤ فى جزائر قريبة منها تخرج إليها الغوّاصون فى وقت معين من كل سنة، فى الزوارق حتى يوافوه بتلك الجزائر، فيقيمون هنالك أياما، ثم يعودون بما قسم لهم من الحظ و المغاص فيها قريب القعر، و عيش أهل عيذاب، عيش البهائم، و هم أقرب إلى الوحش فى أخلاقهم من الإنس، و كان الحجاج: يجدون فى ركوبهم الجلاب على البحر أهوالا ـ عظيمة لأنّ الرياح تلقيهم فى الغالب بمراس فى صحارى بعيدة مما يلى الجنوب، فينزل إليهم التجار من جبالهم، فيكارونهم الجمال، و يسلكون بهم على غير ماء، فربما هلك أكثرهم عطشا، و أخذ التجار ما كان معهم، و منهم من يضلّ و يهلك عطشا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۳۷۵

و الذى يسلم منهم يدخل إلى عيذاب، كأنه نشر من كفن، قد استحالت هيئاتهم و تغيرت صفاتهم، و أكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى، و منهم من يساعده الريح فتحطه بمرسى عيذاب، و هو الأقل و جلباتهم التى تحمل الحجاج فى البحر لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما يخيط خشبها بالقنبار، و هو متخذ من شجر النارجيل، و يخللونها بدسر من عيدان النخل، ثم يسقونها بسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش، و هو حوت عظيم فى البحر، يبتلع الغرقى و قلاع هذه الجلاب من خوص شجر المقل.

و لأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت فإنهم يبالغون فى شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصا على الأجرة، و لا يبالون بما يصيب الناس فى البحر، بل يقولون دائما علينا بالألواح، و على الحجاج بالأرواح، و أهل عيذاب من البجاة.

و لهم ملك منهم، و بها وال من قبل سلطان مصر، و أدركت قاضيها عندنا بالقاهرة، أسود اللون، و البجاة قوم لا دين لهم، و لا عقل، و رجالهم و نساؤهم أبدا عراة، و على عوراتهم خرق، و كثير منهم لا يسترون عوراتهم، و عيذاب حرّها شديد بسموم محرق.

ذكر مدينة الأقصر

هذه المدينة من مدائن الصعيد العظيمة، يقال: إنّ أهلها المريس، و منها: الحمير المريسية.

ذكر البلينا

هذه و ذكر الكمال الأدفوىّ: أنه وقع بين أهل البلاد، و والى قوص، فتوجهوا إلى القاهرة و صرفوه، و ولى غيره و طلع الخطيب بالبلينا صحبته، و كان إقطاعه أرمنت، فلما وصل إليها أضافه أهلها، بستين منسفا من طعام اللبن، فقال للخطيب: فى بلادكم مثل هذا؟ فقال الخطيب: و حلوى، فلما وصل إلى أخميم، تقدّم الخطيب إلى البلينا، فعند ما وصل الوالى إليها، أخرجوا له ستين منسفا حلوى، و ستين منسفا شواء، قال: و بعض الحكام بها فى عيد من الأعياد، امتدحه من أهلها خمسة و عشرون شاعرا، و فيها من لا يرضى بمدح القاضى، و فيها من تقصر رتبته عن ذلك، قال: و كان عدّة مسابك للسكر، و يوصف أهلها بالمكارم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧۶

ذكر سمهود

هذه المدينة بالجانب الغربىّ من النيل، قال الأدفوى: كان بسمهود سبعة عشر حجرا لاعتصار قصب السكر. و يقال: إنّ الفار لا يدخل قصبها.

ذكر إرجنّوس

هذه المدينة من جملة عمل البهنسا، بها كنيسة بظاهرها، فيها بئر يقال لها بئر سيرس صغيرة، لها عيد يعمل فى اليوم الخامس و العشرين من بشنس أحد شهور القبط، فيفور بها الماء، عند مضى ست ساعات من النهار حتى يطفو، ثم يعود إلى ما كان عليه، و يستدل النصارى على زيادة النيل فى كل سنة، بقدر ما علا الماء من الأرض، فيزعمون أنّ الأمر فى النيل و زيادته يكون موافقا لذلك.

ذكر أبويط

هذه المدينة أيضا من جملة البهنساوية، كان بها منارة محكمة البناء، إذا هزها الرجل تحرّكت يمينا و شمالا، فيرى ميلها رؤية ظاهرة بانتقال ظلها عن موضعه.

ذكر ملوى

هذه المدينة بالجانب الغربىّ من النيل، و أرضها معروفة بزراعة قصب السكر، و كان بها عدّة أحجار لاعتصاره، و آخر من كان بها أولاد فضيل، بلغت زراعتهم فى أيام الناصر محمد بن قلاون ألفا و خمسمائة فدّان من القصب، فى كل سنة، فأوقع النشو، ناظر الخاص الحوطة على موجودهم فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، فوجد من جملة مالهم، أربعة عشر ألف قنطار من القند، حملها إلى دار القند بمصر، سوى العسل، و ألزمهم بحمل ثمانية آلاف قنطار بعد ذلك، و أفرج عنهم فوجدوا لهم حاصلا لم يهتد له النشو فيه عشرة آلاف قنطار قند، سوى مالهم من عبيد و غلال و غير ذلك.

ذكر مدينة أنصنا

اعلم أن مدينة أنصنا إحدى مدائن صعيد مصر القديمة، و فيها عدّة عجائب، منها الملعب، و يقال: إنه كان مقياس النيل، و إنه من بناء

دلوكة أحد من ملك مصر، و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧٧

كالطيلسان، و في دائرة عمد على عدّة أيام السنة الشمسية، كلها من الصوّان الأحمر الماتع، و مسافة ما بين كل عمودين، مقدار خطوة إنسان، و كان ماء النيل يدخل إلى هذا الملعب من فوهة عند زيادة الماء، فإذا بلغ ماء النيل الحدّ الذي كان إذ ذاك يحصل منه ريّ أرض مصر و كفايتها، جلس الملك عند ذلك في مشرف له، و صعد القوم من خواصه إلى رؤوس الأعمدة المذكورة، فيتعادون عليها ما بين ذاهب و آت، و يتساقطون من الأعمدة إلى الملعب، و هو ممتلئ بالماء.

قال أبو عبيد البكريّ: أنصنا، بفتح أوّله و إسكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة و نون و ألف، كورة من كور مصر معروفة منها: كانت سريّة النبيّ صلى اللّه عليه و سلم أمّ ابنه إبراهيم من قرية يقال لها حفن من قرى هذه الكورة، و يقال: إن سحرة فرعون كانوا منها، و إنه جلبهم منها يوم الموعد للقاء موسى عليه السلام.

و يقال: إنّ التمساح لا يضرّ بساحل أنصنا لطلاسم وضعت بها، و إنه إذا حاذى برّها انقلب على ظهره، حتى يجاوزها، و يقال: إنّ الذي بنى مدينة أنصنا أشمون بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح، و هي واقعة في شرقيّ النيل، و كانت حسنة البساتين و المنتزهات كثيرة الثمار و الفواكه، و هي الآن خراب.

و قال أبو حنيفة الدينوريّ: و لا ينبت البنج إلا بأنصنا، و هو عود ينشر منه ألواح للسفن، و ربما أرعفت ناشرها و يباع اللوح منها بخمسين دينارا و نحوها، و إذا شدّ لوح منها بلوح، و طرح في الماء ستة أيام صارا لوحا واحدا، و كان لأنصنا سور عتيق هدمه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و جعل على كل مركب منحدر في النيل، جزأ من حمل صخره إلى القاهرة، فنقل بأسره إليها.

ذكر القيس

اعلم أن القيس من البلاد التي تجاور مدينة البهنسا، و كان يقال: القيس و البهنسا. قال ابن عبد الحكم: بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى أتى القيس، فنزل بها فسميت به.

و قال ابن يونس: قيس بن الحارث المراديّ، ثم الكعبيّ، شهد فتح مصر، يروي عن عمر بن الخطاب، و كان يفتي الناس في زمانه، روى عنه سويد بن قيس، و قيل: شديد بن قيس بن ثعلبة، و روى عنه عسكر بن سوادة، و هو الذي فتح القرية بصعيد مصر المعروفة بالقيس، فنسبت إليه.

و قال ابن الكنديّ: و لهم ثياب الصوف و أكسية المرعز، و ليس هي بالدنيا إلا بمصر، و ذكر بعض أهل مصر: أنّ معاوية بن أبي سفيان، لما كبر كان لا يدفأ، فاجتمعوا أنه لا يدفّيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧٨

إلا الأكسية تعمل بمصر من صوفها المرعز العسليّ العين المصبوغ، فعمل له منها عدد، فما احتاج منها إلا إلى واحد، و لهم طراز القيس، و البهنسا في الستور و المضارب يعرفون به، و منه طراز أهل الدنيا.

و ظهر بها بالقرب من البهنسا، سرب في أيام السلطان، الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، فأمر متولي البهنساوية بكشفه، فجمع له أهل المعرفة بالعوم و الغطس، فكانوا ما ينيف على مائتي رجل ما فيهم إلا من نزل السرب، فلم يجد له قرارا، و لا جوانب، فأمر بعمل مركب طويل رقيق بحيث يمكن إدخاله من رأس السرب، و شحنه بالأزراد و الرجال، و ركب فيه حبالا مربوطة في خوازيق عند رأس السرب، و حمل مع الرجال آلات يعرفون بها أوقات الليل و النهار، و عدّة شموع و غيرها، مما تستخرج به النار و تشعل به، و أمرهم أن يسلكوا بالمركب في السرب حتى ينفد نصف ما معهم من الزاد، فساروا بالمركب في ظلمة، و هم يرخون الحبال، و لا يجدون لما هم سائرون فيه من الماء جوانب، فما زالوا حتى قلت أزوادهم، فأبطلوا حركة المركب بالمجاذيف إلى داخل السرب، و جرّوا الحبال ليرجعوا إلى حيث دخلوا، حتى انتهوا إلى رأس السرب، فكانت مدّة غيبتهم في السرب، ستة أيام أربعة منها

دخولا- إلى جوفه و تطواف جوانبه، و يومان رجوعا إلى رأس السرب، و لم يقفوا فى هذه المدّة على نهاية السرب، فكتب بذلك الأمير علاء الدين الطنبغا والى البهنسا إلى الملك الكامل، فتعجب عجبا كثيرا، و اشتغل عن ذلك بمحاربة الفرنج على دمياط، فلما رحلوا عن دمياط، و عادوا إلى القاهرة، خرج بعد ذلك حتى شاهد السرب المذكور.

ذكر دروط بلهاسة

اعلم أن: دروط و هى: بفتح الدال المهملة و ضم الراء و سكون الواو و طاء، اسم لثلاث قرى: دروط أشموم من الأشمونين، و دروط سريان، من الأشمونين أيضا، و دروط بلهاسة من ناحية البهنسا بالصعيد، و بها جامع أنشأه زياد بن المغيرة بن زياد بن عمرو العتكىّ، و مات فى المحرّم سنة إحدى و تسعين و مائة، فدفن به، و قال فيه الشاعر:

حلف الجود حلفه برّ فيهاما برا اللّه واحدا كزياد

كان غيثا لمصر إذ كان حياو أمانا من السنين الشداد

و مات أخوه إبراهيم بن المغيرة سنة سبع و تسعين و مائة فقال الشاعر فيه:

ابن المغيرة إبراهيم من ذهب يزداد حسنا على طول الدهارير

لو كان يملك ما فى الأرض عجله إلى العفاة و لم يهمم بتأخير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٧٩

و مات أحمد بن زياد بن المغيرة فى المحرّم سنة ست و ثلاثين و مائتين فقال الشاعر فيه:

أحمد مات ماجدا مفقوداو لقد كان أحمد محمودا

ورث المجد عن أب ثم عمّ مثله ليس بعده موجودا

ذكر سكر

هى من الأطفيحية تجاهها، واد به إلى وقتنا هذا، شكل جمل من الحجر كأكبر ما يرى من الجمال، و أحسنها هيئة، و هو قائم على أربعة، و قد استقبل بوجهه المشرق، و على فخذه الأيمن كتابة بقلمهم و هى أحرف مقطعة فى ثلاثة أسطر، ثم على نحو مائة و خمسين خطوة منه جمل آخر مثله سواء، و وجهه إلى وجه الجمل الأوّل، و ليس عليه كتابة، و فيما بين الجملين المذكورين، هيئة أعدال قد ملئت قماشا عدّتها أربعون زكيبة موضوعة بالأرض، عشرين تجاه عشرين، و جميعها من حجارة، و لا يشك من رآها أنها أحمال قماش، و بعد مائة و خمسين خطوة منها، جمل ثالث على هيئة الجملين المذكورين، و هو أيضا قائم و ظهره إلى ظهر الجمل الثانى، و وجهه إلى الجبل و هناك آخر الوادى، و ليس على هذا الجمل أيضا كتابة أخبرنى بذلك من لا اتهم روايته.

ذكر منية الخصيب

هذه المدينة تنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر، من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد.

ذكر منية الناسك

هى بلدة من جملة الأطفيحية عرفت بالناسك أخى الوزير بهرام الأرمنىّ فى أيام الخليفة، الحافظ لدين اللّه أبى الميمون عبد المجيد بن محمد، ولى من قبل أخيه مدينة قوص سنة تسع و عشرين و خمسمائة، و ولاية قوص يومئذ، أجل ولايات مصر، فجار على المسلمين، و اشتدّ عسفه، و أذاه لهم فعند ما وصل الخبر بقيام رضوان بن و لخشى على بهرام و هزيمته منه، و تقلده الوزارة بعده، ثار

أهل قوص بالناسك فى جمادى الآخرة سنة إحدى و ثلاثين و خمسمائة، و قتلوه و ربطوا كلبا ميتا فى رجله و سحبوه، حتى ألقوه على مزبلة، و كان نصرانيا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٠

ذكر الجيزة

قال ابن سيده: الجيزة الناحية و الجانب، و جمعها جيز وجيز و الجيز: جانب الوادى، و قد يقال فيه: الجيزة، و اعلم أنّ الجيزة اسم لقرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربىّ، تجاه مدينة فسطاط مصر، لها فى كل يوم أحد سوق عظيم يجىء إليه من النواحى أصناف كثيرة جدّا، و يجتمع فيه عالم عظيم، و بها عدّة مساجد جامعة.

و قد روى الحافظ أبو بكر بن ثابت الخطيب من حديث نبيط بن شريط قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم: «الجيزة روضة من رياض الجنة و مصر خزائن اللّه فى أرضه». و يقال: إنّ مسجد التوبة الذى بالجيزة، كان فيه تابوت موسى عليه السّلام الذى قذفته أمّه فيه بالنيل، و بها النخلة التى أرضعت مريم تحتها عيسى فلم يثمر غيرها.

و قال ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب: فاستحبت همدان و من والاها الجيزة، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما بما صنع اللّه للمسلمين، و ما فتح عليهم، و ما فعلوا فى خططهم، و ما استحبت همدان من النزول بالجيزة، فكتب إليه عمر يحمد اللّه على ما كان من ذلك، و يقول له: كيف رضيت أن تفرّق أصحابك لم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك و بينهم بحر، و لا تدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره؟

فاجمعهم إليك فإن أبوا عليك، و أعجبهم موضعهم بالجيزة، و أحبوا ما هنالك، فابن عليهم من فىء المسلمين حصنا، فعرض عليهم عمرو ذلك، فأبوا و أعجبهم موضعهم بالجيزة، و من والاهم على ذلك من رهطهم يافع و غيرها، و أحبوا ما هنالك، فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن فى الجيزة فى سنة إحدى و عشرين، و فرغ من بنائه فى سنة اثنتين و عشرين.

و يقال: إن عمرو بن العاص، لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا إلى الفسطاط قالوا:

مقدم قدمناه فى سبيل اللّه ما كنا لنرحل منه إلى غيره، فنزلت يافع الجيزة فيها مبرح بن شهاب، و همدان، و ذو أصبح، فيهم أبو شمر بن أبرهة و طائفة من الحجر.

و قال القضاعىّ: و لما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية، و نزل الفسطاط جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفا من عدوّ يغشاهم من تلك الناحية، فجعل فيها آل ذى أصبح من حمير، و هم كثير، و يافع بن زيد من رعين، و جعل فيها همدان، و جعل فيها طائفة من الأزديين بنى الحجر بن الهبو بن الأزد، و طائفة من الحبشة، و ديوانهم فى الأزد، فلما استقرّ عمرو فى الفسطاط، أمر الذين خلفهم بالجيزة أن ينضموا إليه فكرهوا ذلك، و قالوا: هذا مقدم قدمناه فى سبيل اللّه، و أقمنا به ما كنا بالذين نرغب عنه، و نحن به منذ أشهر، فكتب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨١

عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما بذلك يخبره، أنّ همدان و آل ذى أصبح و يافعا و من كان معهم أحبوا المقام بالجيزة، فكتب إليه كيف رضيت أن تفرّق عنك أصحابك، و تجعل بينك و بينهم بحرا لا تدرى ما يفجأهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم، فاجمعهم إليك، و لا تفرّقهم فإن أبوا و أعجبهم مكانهم، فابن عليهم حصنا من فىء المسلمين، فجمعهم عمرو و أخبرهم بكتاب عمر فامتنعوا من الخروج من الجيزة، فأمر عمرو ببناء الحصن عليهم، فكرهوا ذلك، و قالوا: لا حصن أحصن لنا من سيوفنا، و كرهت ذلك همدان و يافع، فأقرع عمرو بينهم، فوقعت القرعة على يافع، فبنى فيهم الحصن فى سنة إحدى و عشرين، و فرغ من بنائه فى سنة اثنتين عشرين، و أمرهم عمرو بالخطط بها، فاختط ذو أصبح من حمير من الشرق، و مضوا إلى الغرب، حتى بلغوا أرض

الحرث و الزرع، و كرهوا أن يبنى الحصن فيهم، و اختط يافع بن الحرث من رعين، بوسط الجيزة و بنى الحصن فى خططهم و خرجت طائفة منهم عن الحصن أنفه منه، و اختطت بكيل بن جشم من نوف من همدان فى مهب الجنوب من الجيزة فى شرقيها، و اختطت حاشد بن جشم من نوف فى مهب الشمال من الجيزة فى غربيها، و اختطت الجباوية بنو عامر بن بكيل فى قبليّ الجيزة، و اختطت بنو حجر بن أرحب بن بكيل فى قبليّ الجيزة، و اختط بنو كعب بن مالك بن الحجر بن الهبو بن الأزد، فيما بين بكيل و يافع، و الحبشة اختطوا على الشارع الأعظم.

و المسجد الجامع بالجيزة بناه محمد بن عبد اللّه الخازن فى المحرّم سنة خمسين و ثلثمائة بأمر الأمير عليّ بن الإخشيد، فتقدّم كافور، إلى الخازن ببنائه، و عمل له مستغلا، و كان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد همدان، و هو مسجد مراحق بن عامر بن بكيل، كان يجمع فيه الجمعة فى الجيزة، و شارف بناء هذا الجامع الخازن، أبو الحسن بن أبى جعفر الطحاويّ، و احتاجوا إلى عمد للجامع، فمضى الخازن فى الليل إلى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمدها، و نصب بدلها أركانا، و حمل العمد إلى الجامع، فترك أبو الحسن بن الطحاويّ الصلاة فيه مذ ذاك تورّعا.

قال اليمنيّ: و قد كان ابن الطحاويّ، يصلى فى جامع الفسطاط العتيق، و بعض عمده أو أكثرها و رخامه من كنائس الإسكندرية، و أرياف مصر، و بعضه بناه قرّة بن شريك، عامل الوليد بن عبد الملك، و يقال: إنّ بالجيزة قبر كعب الأحبار، و إنه كان بها أحجار و رخام قد صوّرت فيها التماسيح، فكانت لا تظهر فيما يلى البلد من النيل، مقدار ثلاثة أميال علوا و سفلا.

و فى سنة أربع و عشرين و سبعمائة منع الملك الناصر، محمد بن قلاون، الوزير أن يتعرّض إلى شىء مما يتحصل من مال الجيزة، فصار جميعه يحمل إليه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٢

قال القضاعيّ: سجن يوسف عليه السلام ببوصير من عمل الجيزة، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان، و فيه أثر نبيين، أحدهما يوسف، سجن به المدّة التى ذكر أن مبلغها سبع سنين، و كان الوحى ينزل عليه فيه، و سطح السجن موضع معروف، بإجابة الدعاء، يذكر أن كافور الإخشيديّ، سأل أبا بكر بن الحدّاد عن موضع معروف بإجابة الدعاء ليدعو فيه؟ فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن، و النبيّ الآخر موسى عليه السلام، و قد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى.

أخبرنا أبو الحسن عليّ بن إبراهيم الشرفيّ بالشرف قال: حدّثنا أبو محمد عبد اللّه بن الورد، و كان قد هلكت أخته، و ورث منها مورثا و كنا نسمع عليه دائما، و كان لسجن يوسف وقت يمضى الناس إليه يتفرّجون، فقال لنا يوما: يا أصحابنا هذا أوان السجن، و نريد أن نذهب إليه، و أخرج عشرة دنانير، فناولها لأصحابه و قال لهم: ما اشتهيتموه، فاشتروه، فمضى أصحاب الحديث، و اشتروا ما أرادوا و عدّينا يوم أحد الجيزة كلنا، و بتنا فى مسجد همدان، فلما كان الصباح مشينا حتى جئنا إلى مسجد موسى، و هو الذى فى السهل، و منه يطلع إلى السجن، و بينه و بين السجن تل عظيم من الرمل، فقال الشيخ: من يحملنى و يطلع بى إلى هذا السجن حتى أحدّثه بحديث لا أحدّثه لأحد بعده، حتى تفارق روحى الدنيا.

قال الشرفيّ: فأخذت الشيخ، و حملته حتى صرت فى أعلاه، فنزل و قال: معك ورقة؟ قلت: لا، قال: أبصر لى بلاطة، فأخذ فحمة و كتب: حدّثنى يحيى بن أيوب، عن يحيى بن بكير، عن زيد بن أسلم بن يسار، عن ابن عباس قال: إنّ جبريل أتى إلى يوسف فى هذا السجن فى هذا البيت المظلم، فقال له يوسف: من أنت الذى مذ دخلت السجن ما رأيت أحسن وجها منك؟ فقال له: أنا جبريل، فبكى يوسف، فقال: ما يبكيك يا نبيّ اللّه، فقال: إيش يعمل جبريل فى مقام المذنبين؟ فقال: أما علمت أنّ اللّه تعالى يطهر البقاع بالأنبياء، و اللّه لقد طهر اللّه بك السجن و ما حوله، فما أقام إلى آخر النهار، حتى أخرج من السجن.

قال القضاعيّ: سقط بين يحيى و زيد رجل، و قال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاويّ، و ذكر سجن يوسف لو سافر الرجل من العراق ليصلى فيه، و ينظر إليه لما عنفته فى سفره.

و ذكر المسبحىّ: فى حوادث شهر ربيع الأوّل سنة خمس عشرة و أربعمائة، أنّ العامّة و السوقة طافت بمصر بالطبول و البوقات يجمعون من التجار، و أرباب الأسواق ما ينفقونه فى مضيهم إلى سجن يوسف، فقال لهم التجار: شغلنا بعدم الأقوات يمنعنا من هذا، و كان قد اشتدّ الغلاء، و أنهوا حالهم إلى الحضرة المطهرة، يعنى أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين اللّه أبا الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، فرسم لنائب الدولة أبى طاهر بن كافى متولى الشرطة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٣

السفلى: الترسيم على التجار، حتى يدفعوا إليهم ما جرت به رسومهم، و رسم لهم بالخروج إلى سجن يوسف، و وعدوا أن يطلق لهم من الحضرة ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الهبة، فخرجوا، و فى يوم السبت لتسع خلون من جمادى الأولى ركب القائد الأجل عز الدولة، و سناها معضاد الخادم الأسود، فى سائر الأتراك و وجوه القوّاد، و شق البلد، و نزل إلى الصناعة التى بالجسر بمن معه، ثم خرج من هناك، و عدّى فى سائر عساكره إلى الجيزة، حتى رتب لأمير المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه، لأنه عدّى يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت منه فى أربع عشاريات، و أربع عشرة بغلة من بغال النقل، و فى جميع من معه من خاصته و حرمه إلى سجن يوسف عليه السلام، و أقام هناك يومين و ليلتين، إلى أن عاد الرمادية الخارجون إلى السجن بالتماثيل، و المضاحك و الحكايات و السماجات، فضحك منهم و استظرفهم، و عاد إلى قصره بكرة يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت منه، و أقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطرقون الشوارع بالخيال و السماجات و التماثيل، و يطلعون إلى القاهرة بذلك ليشاهدهم أمير المؤمنين، و يعودون و معهم سجل قد كتب لهم أن لا يعارض أحد منهم فى ذهابه و عوده، و أن يعتمد إكرامهم و صيانتهم، و لم يزالوا على ذلك إلى أن تكامل جميعهم، و كان دخولهم من سجن يوسف يوم السبت لأربع عشرة بقيت من جمادى الأولى، و شقوا الشوارع بالحكايات و السماجات و التماثيل فتعطل الناس فى ذلك اليوم عن أشغالهم و معايشهم، و اجتمع فى الأسواق خلق كثير لنظرهم، و ظل الناس أكثر هذا اليوم على ذلك، و أطلق لجميعهم ثمانية آلاف درهم، و كانوا اثنى عشر سوقا و نزلوا مسرورين، و بخارج مدينة الجيزة موضع يعرف بأبى هريرة، فيظنّ من لا علم له أنه أبو هريرة الصحابىّ، و ليس كذلك، بل هو منسوب إلى ابن ابنته.

ذكر قرية ترسا

قال القضاعىّ: و ذكر أنّ القاسم بن عبيد اللّه بن الحبحاب، عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر، بنى فى الجيزة قرية تعرف بترسا.

و القاسم هذا خرج إلى مصر، و ولى خلافة عن أبيه، عبيد اللّه بن الحبحاب السلولىّ على الخراج، فى خلافة هشام بن عبد الملك، ثم أمّره هشام على خراج مصر، حين خرج أبوه إلى إمارة إفريقية فى سنة ست عشرة و مائة، فلم يزل إلى سنة أربع و عشرين و مائة، فنزع عن مصر، و جمع لحفص بن الوليد، عربها و عجمها، فصار يلى الخراج و الصلاة معا، و بترسا هذه كانت وقعة هارون بن محمد الجعدىّ.

ذكر منية أندونة

هى إحدى قرى الجيزة، عرفت بأندونة، كاتب أحمد المدائنى الذى كان يتقلد ضياع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٤

موسى بن بغا، التى بمصر، فقبض أحمد بن طولون على أندونة هذا، و كان نصرانيا، فأخذ منه خمسين ألف دينار.

ذكر وسيم

قال ابن عبد الحكم: و خرج عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان، أمير مصر إلى وسيم، و كانت لرجل من القبط، فسأل عبد اللّه أن يأتيه إلى منزله، و يجعل له مائة ألف دينار، فخرج إليه عبد اللّه بن عبد الملك، و قيل: إنما خرج عبد اللّه إلى قرية أبى النمرس، مع رجل من الكتاب، يقال له: ابن حنظلة، فأتى عبد اللّه العزل، و ولاية قرّة بن شريك، و هو هناك، فلما بلغه ذلك، قام ليلبس سراويله، فلبسه منكوسا، و قيل: إنّ عبد اللّه لمّا بلغه العزل، ردّ المال على صاحبه، و قال: قد عزلنا، و كان عبد اللّه قد ركب معه إلى المعديّة، و عدّى أصحابه قبله تأخر، فورد الكتاب بعزله، فقال صاحب المال: و اللّه لا بدّ أن تشرّف منزلى، و تكون ضيفى، و تأكل طعامى، و و اللّه لا عاد لى شيء من ذلك، و لا أدعك منصرفا فعدّى معه.

ذكر منية عقبة

هذه القرية بالجيزة عرفت بعقبة بن عامر الجهنيّ رضى اللّه عنه.

قال ابن عبد الحكم: كتب عقبة بن عامر إلى معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنهما، يسأله أرضا يسترفق فيها عند قرية عقبة، فكتب له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع، فقال له مولى له: كان عنده، انظر أصلحك اللّه أرضا صالحة، فقال عقبة: ليس لنا ذلك، إنّ فى عهدهم شروطا ستة منها، أن لا يؤخذ من أرضهم شيء، و لا من نسائهم، و لا من أولادهم، و لا يزاد عليهم و يدفع عنهم موضع الخوف من عدوّهم، و أنا شاهد لهم بذلك.

و فى رواية: كتب عقبة إلى معاوية يسأله نقيعا فى قرية يبنى فيه منازل و مساكن، فأمر له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع، فقال له مواليه و من كان عنده: انظر إلى أرض تعجبك، فاختط فيها و ابتن، فقال: إنه ليس لنا ذلك، لهم فى عهدهم ستة شروط منها، أن لا يؤخذ من أرضهم شيء، و لا يزاد عليهم، و لا يكلفوا غير طاقتهم، و لا تؤخذ ذراريهم، و أن يقاتل عنهم عدوّهم من ورائهم.

قال أبو سعيد بن يونس: و هذه الأرض التى اقتطعها عقبة هى: المنية المعروفة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٥

بمنية عقبة فى جيزة فسطاط مصر.

عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو بن عدىّ بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة بن عدىّ بن غنم بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة، كذا نسبه أبو عمرو الكندىّ.

و قال الحافظ: أبو عمر بن عبد البر، عقبة بن عامر بن حسن الجهنيّ من جهينة بن زيد بن مسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، و قد اختلف فى هذا النسب، يكنى:

أبا حماد، و قيل: أبا أسد، و قيل: أبا عمرو، و قيل: أبا سعاد، و قيل: أبا الأسود.

و قال خليفة بن خياط: و قتل أبو عامر عقبة بن عامر الجهنيّ يوم النهروان، شهيدا و ذلك سنة ثمان و ثلثين، و هذا غلط منه، و فى كتابه بعد، و فى سنة ثمان و خمسين توفى عقبة بن عامر الجهنيّ، قال: سكن عقبة بن عامر مصر، و كان واليا عليها، و ابتنى بها دارا، و توفى فى آخر خلافة معاوية، روى عنه من الصحابة جابر، و ابن عباس، و أبو أمامة، و مسلمة بن مخلد، و أما رواته من التابعين فكثير.

و قال الكندىّ: ثم وليها عقبة بن عامر من قبل معاوية، و جمع له صلاتها و خراجها، فجعل على شرطته حمادا، و كان عقبة قارئا فقيها فرضيا شاعرا له الهجرة و الصحبة السابقة، و كان صاحب بغلة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلّم الشهباء الذى يقودها فى الأسفار، و كان صرف عقبة من مصر، بمسلمة بن مخلد لعشر بقين من ربيع الأوّل سنة أربعين، فكانت ولايته سنتين و ثلاثة أشهر.

و قال ابن يونس: توفى بمصر سنة ثمان و خمسين، و دفن فى مقبرتها بالمقطم، و كان يخضب بالسواد رحمه اللّه تعالى.

ذكر حلوان

يقال: إنها تنسب إلى حلوان بن بابليون بن عمرو بن امرئ القيس، ملك مصر بن سائب بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و كان حلوان هذا بالشام على مقدّمة أبرهة ذى المنار أحد التابعة.

قال ابن عبد الحكم: و كان الطاعون قد وقع بالفسطاط، فخرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط، فنزل بحلوان داخلا فى الصحراء فى موضع منها يقال له: أبو قرقورة، و هو رأس العين التى احتفرها عبد العزيز بن مروان، و ساقها إلى نخيلة التى غرسها بحلوان، فكان ابن خديج يرسل إلى عبد العزيز فى كل يوم بخبر ما يحدث فى البلد من موت و غيره، فأرسل إليه ذات يوم رسولا، فأتاه فقال له عبد العزيز: ما اسمك؟ فقال: أبو طالب، فثقل ذلك على عبد العزيز، و غاظه، فقال له عبد العزيز: أسألك عن اسمك؟! فتقول أبو طالب! ما اسمك؟ فقال: مدرك، فتفاءل بذلك، و مرض فى مخرجه ذلك، و مات هنالك، فحمل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٦

فى البحر يراد به الفسطاط حتى تغير، فأنزل فى بعض خصوص ساحل مريس، فغسل فيه، و أخرجت من هنالك جنازته، و خرج معه بالمجامر فيها العود لما كان قد تغير من ريحه، و أوصى عبد العزيز أن يمرّ بجنازته إذا مات على منزل، جناب بن مرثد بن زيد بن هانىء الرعينىّ، صاحب حرسه، و كان صديقا له و قد توفى قبل عبد العزيز فمرّ بجنازته على باب جناب، و قد خرج عيال جناب، و لبسن السواد و وقفن على الباب صائحات، ثم اتبعنه إلى المقبرة، و كان لنصيب من عبد العزيز ناحية، فقدم عليه فى مرضه، فأذن له، فلما رأى شدّة مرضه أنشأ يقول:

و نزور سيدنا و سيد غيرناليت التشكى كان بالعوّاد

لو كان يقبل فدية لفديتهبالمصطفى من طارفى و تلادى

فلما سمع صوته، فتح عينيه، و أمر له بألف دينار، و استبشر بذلك آل عبد العزيز، و فرحوا به، ثم مات.

و قال الكندى: و وقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين، فخرج عبد العزيز بن مروان منها إلى الشرقية منتديا، فنزل حلوان، فأعجبته فاتخذها و سكنها، و جعل بها الحرس و الأعوان و الشرط، فكان عليهم جناب بن مرثد بحلوان، و بنى عبد العزيز بحلوان الدور و المساجد، و عمّرها أحسن عمارة و أحكمها و غرس نخلها و كرمها، فقال ابن قيس الرقيات:

سقيا لحلوان ذى الكروم و ماصنف من تينه و من عنبه

نخل مواقير بالفناء من البرنىّ يهتز ثم فى سربه

أسود سكانه الحمام فماينفك غربانه على رطبه

و لما غرس عبد العزيز، نخل حلوان و أطعم دخله، و الجند معه، فجعل يطوف فيه و يقف على غروسه و مساقيه، فقال يزيد بن عروة الجملىّ: ألا ـ قلت أيها الأمير، كما قال العبد الصالح: ما شاء اللّه لا قوّة إلا باللّه، فقال: أذكرتنى شكرا يا غلام، قل لأنيتاس: يزيد فى عطائه عشرة دنانير.

عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشىّ الأموىّ، أبو الأصبغ، أمّه ليلى ابنة زبان بن الأصبغ الكندىّ، روى عن أبى هريرة، و عقبة بن عامر الجهنىّ، و روى عنه علىّ بن رباح، و بحير بن داخرة، و عبيد اللّه بن مالك الخولانىّ، و كعب بن علقمة، و وثقه النسائى و ابن سعد.

و لما سار أبوه مروان إلى مصر، بعثه فى جيش إلى أيلة، ليدخل مصر من تلك الناحية، فبعث إليه ابن جحدم أمير مصر بجيش عليهم: زهير بن قيس البلوىّ، فلقى عبد العزيز ببصاق، و هى سطح عقبة أيلة، فقاتله فانهزم زهير و من معه، فلما غلب مروان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٧

على مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس و ستين، جعل صلاتها و خراجها إلى ابنه عبد العزيز بعد ما أقام بمصر شهرين، فقال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين! كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى؟ فقال له مروان: يا بنى عمّهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك،

و اجعل وجهك طلقا تصف لك مودّتهم، و أوقع إلى كل رئيس منهم إنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينا على غيره، و ينقاد قومه إليك، و قد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا، و جعلت لك موسى بن نصير وزيرا أو مشيرا، و ما عليك يا بنيّ أن تكون أميرا بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك و خمولك فى منزلك، و أوصاه عند مخرجه من مصر إلى الشام، فقال: أوصيك بتقوى اللّه فى سرّ أمرك و علانيته، فإنّ اللّه مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون، و أوصيك أن لا تجعل لداعى اللّه عليك سبيلا، فإن المؤذن يدعو إلى فريضة افترضها اللّه، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا، و أوصيك أن لا تعد الناس موعدا إلا أنفذته لهم، و إن حملته على الأسنة، و أوصيك أن لا تعجل فى شيء من الحكم حتى تستشير، فإنّ اللّه لو أغنى أحدا عن ذلك لأغنى نبيه محمدا صلى اللّه عليه و سلّم عن ذلك، بالوحى الذى يأتيه، قال اللّه عز و جل: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [١٥٩/ آل عمران].

و خرج مروان من مصر، لهلال رجب سنة خمس و ستين، فوليها عبد العزيز على صلاتها و خراجها، و توفى مروان لهلال رمضان، و بويع ابنه عبد الملك بن مروان، فأقرّ أخاه عبد العزيز و وفد على عبد الملك فى سنة سبع و ستين، و جعل له الحرس و الخيل و الأعوان جناب بن مرثد الرعينىّ، فاشتدّ سلطانه، و كان الرجل إذا غلظ لعبد العزيز و خرج تناوله جناب و من معه فضربوه، و حبسوه، و عبد العزيز أوّل من عرّف بمصر فى سنة إحدى و سبعين.

قال يزيد بن أبى حبيب: أوّل من أحدث القعود يوم عرفة فى المسجد بعد العصر عبد العزيز بن مروان.

و فى سنة اثنتين و سبعين، صرف بعث البحر إلى مكة، لقتال عبد اللّه بن الزبير، و جعل عليهم مالك بن شرحبيل الخولانىّ، و هم: ثلاثة آلاف رجل فيهم: عبد الرحمن بن بحنس، مولى ابن أبزى، و هو الذى قتل ابن الزبير و خرج إلى الإسكندرية فى سنة أربع و سبعين، و وفد على أخيه عبد الملك فى سنة خمس و سبعين، و هدم جامع الفسطاط كله، و زاد فيه من جوانبه كلها فى سنة سبع و سبعين، و أمر بضرب الدنانير المنقوشة.

و قال ابن عفير: كان لعبد العزيز ألف جفنة، كل يوم تنصب حول داره، و كانت له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٨

مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل، و كتب عبد الملك إليه، أن ينزل له عن ولاية العهد، ليعهد إلى الوليد و سليمان، فأبى ذلك، و كتب إليه إن يكن لك ولد فلنا أولاد، و يقضى اللّه ما يشاء، فغضب عبد الملك، و قال: فرّق اللّه بينى و بينه، فلم يزل به علىّ حتى رضى، فقدم على عبد العزيز، فأخبره عن عبد الملك و عن حاله، ثم أخبره بدعوته فقال: أفعل أنا، و اللّه مفارقه، و اللّه ما دعا دعوة قط إلا أجيبت، و كان عبد العزيز يقول: قدمت مصر فى إمرة مسلمة بن مخلد، فتمنيت بها ثلاث أمانىّ، فأدركتها تمنيت ولاية مصر، و أن أجمع بين امرأتى مسلمة و يحجبنى قيس بن كليب حاجبه، فتوفى مسلمة، و قدم مصر، فوليها و حجبه قيس، و تزوّج امرأتى مسلمة، و توفى ابنه الأصبغ بن عبد العزيز لتسع بقين من ربيع الآخر، سنة ست و ثمانين، فمرض عبد العزيز و توفى ليلة الاثنين لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ست و ثمانين، فحمل فى النيل من حلوان إلى الفسطاط، فدفن بها.

و قال ابن أبى مليكة: رأيت عبد العزيز بن مروان حين حضره الموت يقول: ألا ليتنى لم أك شيئا مذكورا، ألا ليتنى كنابتة من الأرض أو كراعى إبل فى طرف الحجاز، و لما مات لم يوجد له مال ناض! إلا سبعة آلاف دينار، و حلوان، و القيسارية، و ثياب بعضها مرقوع، و خيل و رقيق، و كانت ولايته على مصر، عشرين سنة و عشرة أشهر و ثلاثة عشر يوما، و لم يلها فى الإسلام قبله أطول ولاية منه.

و كان بحلوان فى النيل، معدّية من صوّان تعدّى بالخيل تحمل فيها الناس و غيرهم من البرّ الشرقىّ بحلوان إلى البرّ الغربىّ فلما كان و هذا من الأسرار التى فى الخليقة، فإنّ جميع الأجسام المعدنية كالحديد و النحاس و الفضة و الرصاص و الذهب و القصدير، إذ عمل من شيء منها إناء يسع من الماء أكثر من وزنه، فإنه يعوم على وجه الماء، و يحمل ما يمكنه، و لا يغرق، و ما برح المسافرون فى بحر الهند إذا أظلم عليهم الليل و لم يروا ما يهديهم من الكواكب إلى معرفة الجهات، يحملون حديدة مجوّفة على شكل سمكة، و يبالغون

فى ترقيقها جهد المقدرة، ثم يعمل فى فم السمكة شيء من مغناطيس جيدا، ويحك فيها بالمغناطيس، فإنّ السمكة إذا وضعت فى الماء دارت، و استقبلت القطب الجنوبيّ بفمها، و استدبرت القطب الشمالىّ و هذا أيضا من أسرار الخليفة فإذا عرفوا جهتى الجنوب و الشمال تبين منهما المشرق و المغرب، فإنّ من استقبل الجنوب فقد استدبر الشمال و صار المغرب عن يمينه و المشرق عن يساره، فإذا تحدّدت الجهات الأربع عرفوا مواقع البلاد بها، فيقصدون حينئذ جهة الناحية التى يريدونها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٨٩

ذكر مدينة العريش

العريش مدينة فيما بين أرض فلسطين و إقليم مصر، و هى مدينة قديمة من جملة المدائن التى اختطت بعد الطوفان.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: عن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، و كان غلاما مرفها فلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر، و ستره بحشيش الأرض، ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع مدينة و سمّاها: درسان، أى: باب الجنة، فزرعوا و غرسوا الأشجار و الجنان من درسان إلى البحر، فكانت كلها زروعا و جنانا و عمارة.

و قال آخر: إنما سميت بذلك، لأنّ بيصر بن حام بن نوح، تحمّل فى ولده و هم أربعة، و معهم أولادهم، فكانوا ثلاثين ما بين ذكر و أنثى، و قدم ابنه مصر بن بيصر أمامه نحو أرض مصر، حتى خرج من حدّ الشام، فتاهوا، و سقط مصر فى موضع العريش، و قد اشتدّ تعبه و نام، فرأى قائلا يبشره بحصوله فى أرض ذات خير و در، و ملك و فخر، فانتبه فزعا فإذا عليه، عريش من أطراف الشجر، و حوله عيون ماء، فحمد اللّه و سأله أن يجمعه بأبيه و إخوته، و أن يبارك له فى أرضه، فاستجيب له، و قادهم اللّه إليه، فنزلوا فى العريش، و أقاموا به، فأخرج اللّه لهم من البحر دوابّ ما بين خيل و حمر و بقر و غنم و إبل، فساقوها حتى أتوا موضع مدينة منف، فنزلوه، و بنوا فيه قرية سميت بالقبطية: مافة يعنى قرية ثلاثين، فنمت ذرية بيصر حتى عمروا الأرض، و زرعوا و كثرت مواشيهم، و ظهرت لهم المعادن، فكان الرجل منهم يستخرج القطعة من الزبرجد، يعمل منها مائة كبيرة، و يخرج من الذهب ما تكون القطعة منه مثل الأسطوانة و كالبعير الرابض.

و قال ابن سعيد عن البيهقىّ: كان دخول إخوة يوسف و أبويه، عليهم السلام، عليه بمدينة العريش، و هى أوّل أرض مصر، لأنه خرج إلى تلقيهم، حتى نزل المدينة بطرف سلطانه، و كان له هناك عرش، و هو سرير السلطنة، فأجلس أبويه عليه، و كانت تلك المدينة تسمى فى القديم بمدينة العرش لذلك، ثم سمتها العامّة مدينة العريش، فغلب ذلك عليها.

و يقال: إنه كان ليوسف عليه السلام حرس فى أطراف أرض مصر من جميع جوانبها، فلما أصاب الشام القحط، و سارت إخوة يوسف لتمتار من مصر أقاموا بالعريش، و كتب صاحب الحرس إلى يوسف، إنّ أولاد يعقوب الكنعانىّ، يريدون البلد لقحط نزل بهم، فعمل إخوة يوسف عند ذلك عرشا يستظلون به من الشمس، حتى يعود الجواب، فسمى الموضع العريش، و كتب يوسف بالإذن لهم، فكان من شأنهم ما قد ذكر فى موضعه، و يقال للعرش: الج فهذا كما ترى، و ابن وصيف شاه أعرف بأخبار مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩٠

و فى سنة خمس عشرة و أربعمائة، طرق عبد اللّه بن إدريس الجعفرىّ العريش بمعاونة بنى الجرّاح و أحرقها، و أخذ جميع ما فيها.

و قال القاضى الفاضل: و فى جمادى الآخرة سنة سبع و سبعين و خمسمائة، ورد الخبر، بأنّ نخل العريش قطع الفرنج أكثره، و حملوا جذوعه إلى بلادهم، و ملئت منه، و لم يجدوا مخاطبا على ذلك، و نقل عن ابن عبد الحكم: أنّ الجفار بأجمعه كان أيام فرعون موسى فى غاية العمارة بالمياه و القرى و السكان، و أنّ قول اللّه تعالى: وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ [١٣٧/ الأعراف عن هذه المواضع و أنّ العمارة متصلة منه إلى اليمن، و لذلك سميت العريش: عريشا، و قيل: إنها نهاية التخوم من الشام، و إنّ إليه كان ينتهى رعاة إبراهيم الخليل عليه السلام بمواشيه، و إنه عليه السلام اتخذ به عريشا كان يجلس فيه، حتى تحلب مواشيه بين

يديه، فسمی العريش من أجل ذلك، و قيل: إنّ مالك بن دعر بن حجر بن جذيلة بن لخم كان له أربعة و عشرون ولدا منهم: العريش بن مالك، و به سميت العريش لأنه نزل بها و بناها مدينة، و عن كعب الأحبار: أنّ بالعريش قبور عشرة أنبياء.

ذكر مدينة الفرماء

قال البكرىّ: الفرماء بفتح أوّله، و ثانيه ممدود على وزن فعلاء، و قد يقصر مدينة تلقاء مصر.

و قال ابن خالويه فی كتاب ليس الفرما: هذه سميت بأخی الإسكندر كان يسمی:

الفرما، و كان كافرا، و هی قرية أم إسماعيل بن إبراهيم، انتهی.

و يقال: اسمه الفرما بن فيلقوس، و يقال فيه: ابن فليس، و يقال: بليس؛ و كانت الفرما علی شط بحيرة تنيس، و كانت مدينة خصباء، و بها قبر جالينوس الحكيم، و بنی بها المتوكل علی اللّه حصنا علی البحر تولی بناءه عنبسة بن إسحاق، أمير مصر فی سنة تسع و ثلاثين و مائتين، عند ما بنی حصن دمياط، و حصن تنيس، و أنفق فيها مالا عظيما، و لما فتح عمرو بن العاص، عين شمس، أنفذ إلی الفرماء، أبرهة بن الصباح، فصالحه أهلها علی خمسمائة دينار هرقلية، و أربعمائة ناقة، و ألف رأس من الغنم، فرحل عنهم إلی البقارة.

و فی سنة ثلاث و أربعين و ثلثمائة، نزل الروم عليها، فنفر الناس إليهم، و قتلوا منهم رجلين، ثم نزلوا فی جمادی الأولی سنة تسع و أربعين و ثلثمائة، فخرج إليهم المسلمون،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۳۹۱

و أخذوا منهم مركبا، و قتلوا من فيه و أسروا عشرة.

و قال اليعقوبیّ : الفرما، أوّل مدن مصر من جهة الشمال، و بها أخلاط من الناس، و بينها و بين البحر الأخضر، ثلاثة أميال.

و قال ابن الكندیّ: و منها الفرما، و هی أكثر عجائب، و أقدم آثارا، و يذكر أهل مصر:

أنه كان منها طريق إلی جزيرة قبرس فی البرّ، فغلب عليها البحر، و يقولون: إنه كان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام الأبلق، و إنّ مقطع الأبيض بلوبية.

و قال يحيی بن عثمان: كنت أرابط فی الفرما، و كان بينها و بين البحر قريب من يوم يخرج الناس و المرابطون فی أخصاص علی الساحل، ثم علا البحر علی ذلك كله. و قال ابن قديد: وجّه ابن المدبر، و كان بتنيس، إلی الفرما فی هدم أبواب من حجارة شرقیّ الحصن، احتاج أن يعمل منها جيرا، فلما قلع منها حجر، أو حجران، خرج أهل الفرما بالسلاح، فمنعوا من قلعها، و قالوا: هذه الأبواب التی قال اللّه فيها علی لسان يعقوب عليه السلام: يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ [يوسف/ ۶۷] و الفرما بها النخل العجيب الذی يثمر حين ينقطع البسر و الرطب من سائر الدنيا، فيبتدیء هذا الرطب من حين يلد النخل فی الكوانين، فلا ينقطع أربعة أشهر، حتی يجیء البلح فی الربيع، و هذا لا يوجد فی بلد من البلدان لا بالبصرة و لا بالحجاز و لا باليمن، و لا بغيرها من البلدان، و يكون فی هذا البسر، ما وزن البسرة الواحدة فوق العشرين درهما، و فيه ما طول البسرة نحو الشبر و الفتر.

و قال ابن المأمون البطائحی فی حوادث سنة تسع و خمسمائة: و وصلت النجابون من والی الشرقية تخبر بأنّ بغدوين ملك الفرنج، وصل إلی أعمال الفرما، فسيّر الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلی والی الشرقية بأن يسير المركزية و المقطعين بها، و سيّر الراجل من العطوفية، و أن يسير الوالی بنفسه بعد أن يتقدّم إلی العربان بأسرهم بأن يكونوا فی الطوالع، و يطاردوا الفرنج، و يشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر إليه، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام، و تجهيز الأصحاب و الحواشی، فلما تواصلت العساكر و تقدّمها العربان، و طاردوا الفرنج، و علم بغدوين ملك الفرنج أنّ العساكر متواصلة إليه، و تحقق أن الإقامة لا تمكنه أمر أصحابه بالنهب و التخريب و الإحراق و هدم المساجد، فأحرق جامعها و مساجدها و جميع البلد، و عزم علی الرحيل، فأخذه اللّه سبحانه و تعالی، و عجل بنفسه إلی النار، فكتم أصحابه موته، و ساروا بعد أن شقوا بطن بغدوين، و ملأوه ملحا حتی بقی إلی بلاده، فدفنوه بها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩٢

و أما العساكر الإسلامية فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدوّ، و عادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان، و كتب إلى الأمير ظهير الدين طفدكين صاحب دمشق بأن يتوجه إلى بلاد الفرنج، فسار إلى عسقلان، و حملت إليه الضيافات و طولع بخبر وصوله، فأمر بحمل الخيام، و عدّة وافرة من الخيل و الكسوات و البنود و الأعلام، و سيف ذهب، و منطقة ذهب، و طوق ذهب، و بدلة طقم، و خيمة كبيرة مكملة و مرتبة ملوكية و فرشها و جميع آلاتها، و ما تحتاج إليه من آلات الفضة، و سير برسم شمس الخواص، و هو مقدم كبير خلعة مذهبة و منطقة ذهب و سيف، و سير برسم المميزين من الواصلين، خلع و سيوف، و سلم ذلك بثبت لأحد الحجاب، و سير معه فرّاشان برسم الخيام، و أمر بضرب الخيمة الكبيرة و فرشها، و أن يركب والى عسقلان و ظهير الدين و شمس الخواص و جميع الأمراء الواصلين و المقيمين بعسقلان إلى باب الخيمة و يقبلوه، ثم إلى بساطها و المرتبة المنصوبة، ثم يجلس الوالى و ظهير الدين و شمس الخواص و المقدّمون، و يقف الناس بأجمعهم إجلالا و تعظيما، و يخلع على الأمير ظهير الدين، و شمس الخواص، و تشدّ المناطق فى أوساطهما، و يقلدا بالسيوف و يخلع بعدهما على المميزين، ثم يسير ظهير الدين و المقدّمون بالتشريف و الأعلام، و الرايات المسيرة إليهم إلى أن يصلوا إلى الخيام التى ضربت لهم، فإذا كان كل يوم يركب الوالى، و الأميران و المقدّمون و العساكر إلى الخيمة الملوكية، و يتفاوضون فيما يجب من تدبير العساكر، فامتثل ذلك، و تواصلت الغارات على بلاد العدوّ و أسروا و قتلوا، فسير إليهم الخلع ثانيا، و جعل الشمس الخواص خاصة فى هذه السفرة عشرة آلاف دينار، و تسلم ظهير الدين الخيمة الكبيرة بما فيها، و كان تقدير ما حصل له و لأصحابه ثلاثين ألف دينار و بلغ المنفق فى هذه النوبة و على ذهاب بغدوين و هلاكه مائة ألف دينار.

و فى شهر رجب سنة خمس و أربعين و خمسمائة، نزل الفرنج على الفرما فى جمع كبير، و أحرقوها و نهبوا أهلها، و آخر أمرها أنّ الوزير شاور خرّبها لما خرج منها متوليها، ملهم أخو الضرغام فى سنة ، فاستمرّت خرابا لم تعمر بعد ذلك، و كان بالفرما و البقارة و الورادة عرب من جذام يقال لهم: القاطع، و هو جرى بن عوف بن مالك بن شنوءة بن بديل بن جشم بن جذام منهم: عبد العزيز بن الوزير بن صابى بن مالك بن عامر بن عدىّ بن حرش بن بقر بن نصر بن القاطع، مات فى صفر سنة خمس و مائتين، و للسروىّ و الجروىّ هنا أخبار كثيرة، نبهنا عليها فى كتاب عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط.

و قال ابن الكندىّ: و بها مجمع البحرين، و هو البرزخ الذى ذكره اللّه عزّ و جل، فقال:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ [الرحمن/ ١٩] و قال: و جعل بين البحرين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩٣

حاجزا و هما بحر الروم و بحر الصين، و الحاجز بينهما مسيرة ليلة، ما بين القلزم و الفرما، و ليس يتقاربان فى بلد من البلدان أقرب منهما بهذا الموضع، و بينهما فى السفر مسيرة شهور.

ذكر مدينة القلزم

القلزم: بضم القاف و سكون اللام و ضم الزاى و ميم، بلدة كانت على ساحل بحر اليمن فى أقصاه من جهة مصر، و هى كورة من كور مصر، و إليها ينسب بحر القلزم، و بالقرب منها غرق فرعون، و بينها و بين مدينة مصر ثلاثة أيام، و قد خربت و يعرف اليوم موضعها بالسويس تجاه عجرود، و لم يكن بالقلزم ماء و لا شجر و لا زرع، و إنما يحمل الماء إليها من آبار بعيدة، و كان بها فرضة مصر و الشام، و منها تحمل الحمولات إلى الحجاز و اليمن، و لم يكن بين القلزم و فاران قرية و لا مدينة، و هى نخل يسير فيه صيادو السمك، و كذلك من فاران و جيلان إلى أيلة.

قال ابن الطوير : و البلد المعروف بالقلزم، أكثرها باق إلى اليوم، و يراها الراكب السائر من مصر إلى الحجاز، و كانت فى القديم ساحلا من سواحل الديار المصرية، و رأيت شيئا من حسابه من جهة مستخدميه فى حواصل القصر، و ما ينفق على واليه و قاضيه و

داعيه و خطيبه، و الأجناد المركزين به لحفظه و قربه و جامعه و مساجده، و كان مسكونا مأهولا.

قال المسبحى فى حوادث سنة سبع و ثمانين و ثلثمائة و فى شهر رمضان: سامح أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أهل مدينة القلزم، مما كان يؤخذ من مكوس المراكب.

و قال ابن خرداذبة عن التجار، فيركبون فى البحر الغربىّ، و يخرجون بالفرماء، و يحملون تجاراتهم على الظهر إلى القلزم، و بينهما خمسة و عشرون فرسخا، ثم يركبون البحر الشرقىّ، من القلزم إلى تجار جدّة، ثم يمضون إلى السند و الهند و الصين، و من القلزم ينزل الناس فى بريّة و صحراء، ست مراحل إلى أيلة، و يتزوّدون من الماء لهذه المراحل الست، و يقال: إنّ بين القلزم و بحر الروم ثلاث مراحل، و إنّ ما بينهما هو البرزخ الذى ذكره تعالى بقوله: بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ [الرحمن/ ١٩].

ذكر التيه

هو أرض بالقرب من أيلة بينهما عقبة، لا يكاد الراكب يصعدها لصعوبتها، إلا أنها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩۴

مهدت فى زمان خمارويه بن أحمد بن طولون، و يسير الراكب مرحلتين فى محض التيه هذا، حتى يوافى ساحل بحر فاران، حيث كانت مدينة قاران، و هناك غرق فرعون، و التيه مقدار أربعين فرسخا فى مثلها، و فيه تاه بنو إسرائيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة و لا أووا إلى بيت و لا بدّلوا ثوبا، و فيه مات موسى عليه السلام.

و يقال: إنّ طول التيه نحو من ستة أيام، و اتفق أنّ المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين فى سنة اثنتين و خمسين و ستمائة مرّ طائفة منهم بالتيه، فتاهوا فيه خمسة أيام، ثم تراءى لهم فى اليوم السادس سواد على بعد، فقصدوه، فإذا مدينة عظيمة لها سور و أبواب كلها من رخام أخضر، فدخلوا بها، و طافوا بها، فإذا هى قد غلب عليها الرمل، حتى طمّ أسواقها و دورها، و وجدوا بها أوانى و ملابس، و كانوا إذا تناولوا منها شيئا، تناثر من طول البلى، و وجدوا فى صينية بعض البزازين، تسعة دنانير ذهبا، عليها صورة غزال، و كتابة عبرانية، و حفروا موضعا فإذا حجر على صهريج ماء، فشربوا منه ماء أبرد من الثلج، ثم خرجوا و مشوا ليلة فإذا بطائفة من العربان، فحملوهم إلى مدينة الكرك، فدفعوا الدنانير لبعض الصيارفة فإذا عليها، أنها ضربت فى أيام موسى عليه السلام، و دفع لهم فى كل دينار مائة درهم، و قيل لهم: إنّ هذه المدينة الخضراء من مدن بنى إسرائيل، و لها طوفان رمل يزيد تارة، و ينقص أخرى لا يراها إلا تائه، و اللّه أعلم.

ذكر مدينة دمياط

إعلم أنّ دمياط: كورة من كور أرض مصر، بينها و بين تنيس اثنا عشر فرسخا، و يقال: سميت بدمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

و يقال: إنّ إدريس عليه السلام، كان أوّل ما أنزل عليه ذو القوّة و الجبروت، أنا اللّه مدين المدائن الفلك بأمرى و صنعى أجمع بين العذب و الملح و النار و الثلج، و ذلك بقدرتى و مكنون علمى، الدال و الميم و الألف و الطاء، قيل هم: بالسريان، دمياط، فتكون دمياط كلمة سريانية، أصلها دمط أى: القدرة إشارة إلى مجمع العذب و الملح.

و قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: دمياط بلد قديم بنى فى زمن قليمون بن اتريب بن قبطيم بن مصرايم على اسم غلام كانت أمّه ساحرة لقليمون.

و لما قدم المسلمون إلى أرض مصر كان على دمياط رجل، من أخوال المقوقس، يقال له: الهاموك، فلما افتتح عمرو بن العاص مصر امتنع الهاموك بدمياط، و استعدّ للحرب، فأنفذ إليه عمرو بن العاص المقداد بن الأسود، فى طائفة من المسلمين، فحاربهم الهاموك و

قتل ابنه فى الحرب، فعاد إلى دمياط، و جمع إليه أصحابه، فاستشارهم فى أمره، و كان عنده حكيم قد حضر الشورى، فقال: أيها الملك إنّ جوهر العقل لا قيمة له،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩٥

و ما استغنى به أحد إلّا هداه إلى سبيل الفوز و النجاة من الهلاك، و هؤلاء العرب من بدء أمرهم، لم تردّ لهم راية، و قد فتحوا البلاد، و أذلوا العباد، و ما لأحد عليهم قدرة، و لسنا بأشدّ من جيوش الشام، و لا أعز و لا أمنع، و إنّ القوم قد أيدوا بالنصر و الظفر و الرأى، أن تعقد مع القلوم صلحا ننال به الأمن و حقن الدماء و صيانة الحرم، فما أنت بأكثر رجالا من المقوقس. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج ١ ؛ ص٣٩٥

م يعبأ الهاموك بقوله، و غضب منه، فقتله، و كان له ابن عارف عاقل، و له دار ملاصقة للسور، فخرج إلى المسلمين فى الليل، و دلهم على عورات البلد، فاستولى المسلمون عليها، و تمكنوا منها، و برز الهاموك للحرب، فلم يشعر بالمسلمين إلا و هم يكبرون على سور البلد، و قد ملكوه، فعند ما رأى شطا بن الهاموك المسلمين فوق السور، لحق بالمسلمين، و معه عدّة من أصحابه، ففت ذلك فى عضد أبيه، و استأمن للمقداد، فتسلم المسلمون دمياط، و استخلف المقداد عليها، و سير بخبر الفتح، إلى عمرو بن العاص، و خرج شطا، و قد أسلم إلى البرلس و الدميرة و أشموم طناح، فحشد أهل تلك النواحى، و قدم بهم مدد للمسلمين، و عونا لهم على عدوّهم، و سار بهم مع المسلمين لفتح تنيس، فبرز لأهلها، و قاتلهم قتالا شديدا، حتى قتل رحمه اللّه فى المعركة شهيدا بعد ما أنكى فيهم، و قتل منهم، فحمل من المعركة، و دفن فى مكانه المعروف به، خارج دمياط، و كان قتله فى ليلة الجمعة النصف من شعبان، فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة، موسما يجتمع الناس فيها من النواحى، عند شطا، و يحيونها، و هم على ذلك إلى اليوم، و ما زالت دمياط بيد المسلمين إلى أن نزل عليها الروم فى سنة تسعين من الهجرة، فأسروا خالد بن كيسان، و كان على البحر هناك و سيروه إلى ملك الروم، فأنفذه إلى أمير المؤمنين، الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التى كانت بينه و بين الروم.

فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك، نازل الروم دمياط فى ثلثمائة و ستين مركبا، فقتلوا و سبوا، و ذلك فى سنة إحدى و عشرين و مائة، و لما كانت الفتنة بين الأخوين: محمد الأمين، و عبد اللّه المأمون، و كانت الفتن بأرض مصر، طمع الروم فى البلاد، و نازلوا دمياط فى أعوام بضع و مائتين.

ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين، المتوكل على اللّه و أمير مصر يومئذ عنبسة بن إسحاق ، نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، فملكوها، و ما فيها و قتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين، و سبوا النساء و الأطفال، و أهل الذمّة، فنفر إليهم عنبسة بن إسحاق يوم النحر فى جيشه، و نفر كثير من الناس إليهم، فلم يدركوهم، و مضى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩٦

الروم إلى تنيس، فأقاموا بأشتومها، فلم يتبعهم عنبسة، فقال يحيى بن الفضيل للمتوكل:

أ ترضى بأن يوطأ حريمك عنوةو أن يستباح المسلمون و يحربوا

حمار أتى دمياط و الروم وثببتنيس رأى العين منه و أقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل مأصابوه من دمياط و الحرب ترتب

فما رام من دمياط شبرا و لا درىمن العجز ما يأتى و ما يتجنب

فلا تنسنا إنا بدار مضيعةبمصر و إنّ الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط، فابتدىء فى بنائه، يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع و ثلاثين، و أنشأ من حينئذ الأسطول بمصر، فلما كان فى سنة سبع طرق الروم دمياط فى نحو مائتى مركب، فأقاموا يعبثون فى السواحل شهرا، و هم يقتلون و يأسرون و كانت للمسلمين معهم معارك.

ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الإخشيدىّ، طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع و خمسين و ثلثمائة فى بعض و عشرين مركبا، فقتلوا و أسروا مائة و خمسين من المسلمين.

و فى سنة ثمان و أربعمائة، ظهر بدمياط سمكة عظيمة طولها مائتان و ستون ذراعا، و عرضها مائة ذراع، و كانت حمير الملح تدخل فى جوفها موسوقة، فتفرّغ و تخرج، و وقف خمسة رجال فى قحفها، و معهم المجاريف يجرفون الشحم، و يناولونه الناس، و أقام أهل تلك النواحى مدّة طويلة يأكلون من لحمها.

و فى أيام الخليفة الفائز بنصر اللّه عيسى، و الوزير حينئذ الصالح طلائع بن رزيك، نزل على دمياط نحو ستين مركبا فى جمادى الآخرة سنة خمسين و خمسمائة، بعث بها لوجيز بن رجاو، صاحب صقلية، فعاثوا و قتلوا، و نزلوا تنيس و رشيد و الإسكندرية، فأكثروا فيها الفساد.

ثم كانت خلافة العاضد لدين اللّه فى وزارة شاور بن مجير السعدىّ، الوزارة الثانية عند ما حضر ملك الفرنج مرى إلى القاهرة، و حصرها و قرّر على أهلها المال، و احترقت مدينة الفسطاط، فنزل على تنيس و أشموم و منية عمر، و صاحب أسطول الفرنج فى عشرين شونة، فتل و أسر و سبى.

و فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد، و صل الفرنج إلى دمياط فى شهر ربيع الأول سنة خمس و ستين و خمسمائة، و هم فيما يزيد على ألف و مائتى مركب، فخرجت العساكر من القاهرة، و قد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف و خمسين ألف دينار، فأقامت الحرب مدّة خمسة و خمسين يوما، و كانت صعبة شديدة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩٧

و اتهم فى هذه النوبة عدّة من أعيان المصريين بممالأة الفرنج و مكاتبتهم، و قبض عليهم الملك الناصر، و قتلهم.

و كان سبب هذه النوبة أنّ الغزو لما قدموا إلى مصر من الشام صحبة أسد الدين شيركوه، تحرّك الفرنج لغزو ديار مصر، خشية من تمكن الغزو بها، فاستمدّوا إخوانهم أهل صقلية، فأمدّوهم بالأموال و السلاح، و بعثوا إليهم بعدّة وافرة، فساروا بالدبابات و المجانيق، و نزلوا على دمياط فى صفر، و هم فى العدّة التى ذكرنا من المراكب، و أحاطوا بها بحرا و برّا، فبعث السلطان بابن أخيه تقىّ الدين عمرو، و أتبعه بالأمير شهاب الدين الحازمىّ فى العساكر إلى دمياط، و أمدّهما بالأموال و الميرة و السلاح، و اشتدّ الأمر على أهل دمياط، و هم ثابتون على محاربة الفرنج.

فسيّر صلاح الدين إلى نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام يستنجده، و يعلمه بأنه لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفا من قيام المصريين عليه، فجهز إليه العساكر شيئا بعد شيء، و خرج نور الدين من دمشق بنفسه إلى بلاد الفرنج التى بالساحل، و أغار عليها و استباحها، فبلغ ذلك الفرنج، و هم على دمياط، فخافوا على بلادهم من نور الدين، أن يتمكن منها، فرحلوا عن دمياط فى الخامس و العشرين من ربيع الأوّل بعد ما غرق لهم نحو الثلاثمائة مركب، و قلّت رجالهم بفناء وقع فيهم، و أحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات و غيرها، و كان صلاح الدين يقول: ما رأيت أكرم من العاضد! أرسل إلىّ مدّة مقام الفرنج عل دمياط: ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلىّ من الثياب و غيرها.

و فى سنة سبع و سبعين و خمسمائة رتبت المقاتلة على البرجين، و شدّت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها، و يدافع عن الدخول من بين البرجين، و رمّ شعث سور المدينة، و سدّت ثلمة، و أتقنت السلسلة التى بين البرجين، فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار، و اعتبر السور، فكان قياسه: أربعة آلاف و ستمائة و ثلاثين ذراعا.

و فى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة أمر السلطان، بقطع أشجار بساتين دمياط، و حفر خندقها، و عمل جسر عند سلسلة البرج.

و فى سنة خمس عشرة و ستمائة، كانت واقعة دمياط العظمى، و كان سبب هذه الواقعة أنّ الفرنج فى سنة أربع عشرة و ستمائة، تتابعت إمدادهم من رومية الكبرى : مقرّ البابا، و من غيرها من بلاد الفرنج، و ساروا إلى مدينة عكا، فاجتمع بها عدّة من ملوك الفرنج، و

تعاقدوا على قصد القدس، و أخذه من أيدى المسلمين، فصاروا بعكا فى جمع عظيم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩٨

و بلغ ذلك الملك أبا بكر بن أيوب، فخرج من مصر فى العساكر إلى الرملة، فبرز الفرنج من عكا فى جموع عظيمة، فسار العادل إلى بيسان، فقصده الفرنج، فخافهم لكثرتهم، و قلة عسكره، فأخذ على عقبة رفيق يريد دمشق، و كان أهل بيسان و ما حولها، قد اطمأنوا لنزول السلطان هناك، فأقاموا فى أماكنهم، و ما هو إلا أن سار السلطان، و إذا بالفرنج قد وضعوا السيف فى الناس، و نهبوا البلاد، فحازوا من أموال المسلمين ما لا يحصى كثرة، و أخذوا بيسان و بانياس و سائر القرى التى هناك، و أقاموا ثلاثة أيام ثم عادوا إلى مرج عكا بالغنائم و السبى، و هلك من المسلمين خلق كثير، فاستراح الفرنج بالمرج أياما، ثم عادوا ثانيا و نهبوا صيدا و الشقيف، و عادوا إلى مرج عكا، فأقاموا به، و كان ذلك كله فيما بين النصف من شهر رمضان و عيد الفطر، و الملك العادل مقيم بمرج الصفر، و قد سير ابنه المعظم عيسى بعسكر إلى نابلس لمنع الفرنج من طروقها، و الوصول إلى بيت المقدس، فنازل الفرنج قلعة الطور سبعة عشر يوما، ثم عادوا إلى عكا، و عزموا على قصد الديار المصرية، فركبوا بجموعهم البحر، و ساروا إلى دمياط فى صفر، فنزلوا عليها يوم الثلاثاء رابع ربيع الأوّل سنة خمس عشرة و ستمائة الموافق لثامن حزيران، و هم نحو السبعين ألف فارس و أربعمائة ألف راجل، فخيموا تجاه دمياط فى البرّ الغربىّ، و حفروا على عسكرهم خندقا، و أقاموا عليه سورا و شرعوا فى قتال برج دمياط، فإنه كان برجا منيعا فيه سلاسل من حديد غلاظ، تمدّ على النيل، لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر فى النيل، و ذلك أنّ النيل إذا انتهى إلى فسطاط مصر، مرّ عليه فى ناحية الشمال إلى شطنوف، فإذا صار إلى شطنوف انقسم قسمين أحدهما يمرّ فى الشمال إلى رشيد، فيصب فى البحر الملح، و الشطر الآخر يمرّ من شطنوف إلى جوجر، ثم يتفرّق من عند جوجر فرقتين، فرقة تمرّ إلى أشموم فتصب فى بحيرة تنيس، و فرقة تمرّ من جوجر إلى دمياط، فتصب فى البحر الملح هناك، و تصير هذه الفرقة من النيل فاصلة بين مدينة دمياط و البرّ الغربىّ، و هذا البرّ الغربىّ من دمياط يعرف بجزيرة دمياط، يحيط بها ماء النيل و البحر الملح.

و فى مدّة إقامة الفرنج بهذا البرّ الغربىّ، عملوا الآلات و المراسى، و أقاموا أبراجا يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه، فإنهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور فى النيل إلى القاهرة و مصر، و كان هذا البرج مشحونا بالمقاتلة، فتحيل الفرنج عليه، و عملوا برجا من الصوارى على بسطة كبيرة، و أقلعوا بها حتى أسندوها إليه، و قاتلوا من به حتى أخذوه.

فبلغ نزول الفرنج على دمياط الملك الكامل، و كان يحلف أباه الملك العادل على ديار مصر، فخرج بمن معه من العساكر فى ثالث يوم من وقوع الطائر، بخبر نزول الفرنج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٣٩٩

لخمس خلون منه، و أمر والى الغربية بجمع العربان، و سار فى جمع كبير، و خرج الأسطول، فأقام تحت دمياط، و نزل السلطان بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية، قرب دمياط، و امتدّت عساكره إلى دمياط لتمنع الفرنج من السور و القتال مستمرّ و البرج ممتنع مدّة أربعة أشهر، و العادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئا بعد شىء حتى تكاملت عند الملك الكامل، و اهتمّ الملك لنزول الفرنج على دمياط، و اشتدّ خوفه، فرحل من مرج الصفر إلى عالقين فنزل به المرض، و مات فى سابع جمادى الآخرة، فكتم الملك المعظم عيسى موته و حمله فى محفة، و جعل عنده خادما و طبيبا راكبا إلى جانب المحفة، و الشر بدار يصلح الشراب، و يحمله إلى الخادم فيشربه، و يوهم الناس، أنّ السلطان شربه، إلى أن دخلوا به إلى قلعة دمشق، و صارت إليها الخزائن و البيوتات، فأعلن بموته.

و تسلم ابنه الملك المعظم، جميع ما كان معه، و دفنه بالقلعة، ثم نقله إلى مدرسة العادلية بدمشق، و بلغ الملك الكامل موت أبيه، و هو بمنزلة العادلية قرب دمياط، فاستقلّ بمملكة ديار مصر، و اشتدّ الفرنج، و ألحوا فى القتال، حتى استولوا على برج السلسلة، و قطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم فى بحر النيل، و يتمكنوا من البلاد فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسرا عظيما، لمنع الفرنج من عبور النيل، فقاتلت الفرنج عليه قتالا شديدا إلى أن قطعوه و كان قد أنفق على البرج و الجسر، ما ينيف على سبعين ألف دينار، و

كان الكامل يركب فى كل يوم عدّة مرار من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور، و إعمال الحيلة فى مكايدة الفرنج، فأمر الملك الكامل، أن يفرّق عدّة من المراكب فى النيل حتى تمنع الفرنج من سلوك النيل، فعمد الفرنج إلى خليج هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجرى فيه قديما، فحفروه و عمقوا حفره، و أجروا فيه الماء إلى البحر الملح، و أصعدوا مراكبهم فيه إلى بورة على أرض جيزة دمياط، مقابل المنزلة التى بها السلطان ليقاتلوه من هناك، فلما صاروا فى بورة جاؤوه، و قاتلوه فى الماء، و زحفوا إليه عدّة مرار، فلم يظفروا منه بطائل و لم يتغير على أهل دمياط شىء لأنّ الميرة و الإمداد متصلة إليهم، و النيل يحجز بينهم بين الفرنج، و أبواب المدينة مفتحة و ليس عليها من الحصر ضيق و لا ضرر، و العربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة، بحيث امتنعوا من الرقاد خوفا من غاراتهم، فلما قوى طمع العرب فى الفرنج حتى صاروا يخطفونهم نهارا، و يأخذون الخيم بمن فيها، أكمن الفرنج لهم عدّة كمناء، و قتلوا منهم خلقا كثيرا، و أدرك الناس الشتاء، و هاج البحر على مخيم المسلمين و غرّقهم، فعظم البلاء و تزايد الغم و ألح الفرنج فى القتال، و كادوا أن يملكوا، فبعث اللّه ريحا قطعت مراسى مرمة الفرنج.

و كانت من عجائب الدنيا، فمرّت إلى برّ المسلمين فأخذوها فإذا هى مصفحة بالحديد، لا تعمل فيها النار و مساحتها خمسمائة ذراع، فكسروها، فإذا فيها مسا ميرزنة الواحد منها خمسة و عشرون رطلا، و بعث الكامل إلى الآفاق سبعين رسولا يستنجد أهل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٠٠

الإسلام لنصرة المسلمين، و يخوّفهم من غلبة الفرنج على مصر.

فساروا فى شوّال و أتته النجدات، من حماه و حلب، و بينا الناس فى ذلك إذ طمع الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين أبى الحسين علىّ بن أحمد الهكارىّ:

المعروف بابن المشطوب فى الملك الكامل عند ما بلغه موت الملك العادل، و كان له لفيف ينقادون إليه و يطيعونه، و كان أميرا كبيرا مقدّما عظيما فى الأكراد الهكارية وافر الحرمة عند الملوك، معدودا بينهم، مثل واحد منهم، و كان مع ذلك عالى الهمة غزير الجود واسع الكرم شجاعا أبىّ النفس تهابه الملوك، و له الوقائع المشهورة، و هو من أمراء دولة صلاح الدين يوسف، فاتفق مع جماعة من الجند و الأكراد على خلع الملك الكامل، و إقامة أخيه الملك الفائز إبراهيم ليصير له الحكم، و وافقه الأمير عز الدين الحميدى، و الأمير أسد الدين الهكارىّ، و الأمير مجاهد الدين، و جماعة من الأمراء، فلما بلغ ذلك الملك الكامل دخل عليهم، و هم مجتمعون و المصحف بين أيديهم ليحلفوا للفائز، فلما رأوه انفضوا، فخشى على نفسه فخرج، فاتفق وصول الصاحب، صفىّ الدين بن سكر من آمد إلى الملك الكامل، فإنه كان استدعاه بعد موت أبيه، فتلقاه و أكرمه، و ذكر له ما هو فيه، فضمن له تحصيل المال، فلما كان فى الليل ركب، الملك الكامل و توجه من العادلية فى جريدة إلى أشموم طناح، فنزلها و أصبح العسكر بغير سلطان، فركب كل منهم هواه، و لم يعطف الأخ على أخيه، و تركوا أثقالهم و خيامهم و أموالهم و أسلحتهم، و لحقوا بالسلطان.

فبادر الفرنج فى الصباح إلى مدينة دمياط، و نزلوا البرّ الشرقىّ، يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة بغير منازع و لا مدافع، و أخذوا سائر ما كان فى عسكر المسلمين، و كان شيئا لا يحيط به الوصف، و داخل السلطان و هم عظيم، و كاد أن يفارق البلاد، فإنه تخيل من جميع من معه، و اشتدّ طمع الفرنج فى أرض مصر كلها، و ظنوا أنهم قد ملكوها إلا أنّ اللّه سبحانه و تعالى: أغاث المسلمين، و ثبت السلطان، و واقاه أخوه الملك المعظم، بأشموم طناح، فاشتدّ به أزره، و قوى جأشه، و أطلعه على ما كان من ابن المشطوب، فوعده بإزاحة ما يكره، ثم إنّ المعظم ركب إلى خيمة ابن المشطوب، و استدعاه للركوب معه و مسايرته، فاستمهله حتى يلبس خفيه و ثياب الركوب، فلم يمهله، و أعجله فركب معه و سايره حتى خرج به من العسكر الكاملىّ.

ثم قال له: يا عماد الدين، هذه البلاد لك و أشتهى أن تهبها لنا، و أعطاه نفقة، و سلمه إلى جماعة من أصحابه، يثق بهم، و قال لهم: أخرجوه من الرمل، و لا تفارقوه حتى يخرج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٠١

من الشام، فلم يسع ابن المشطوب إلا امتثال ما قال المعظم لأنه معه بمفرده، و لا قدرة له على الممانعة، فساروا به إلى حماه، ثم مضى منها إلى المشرق، و لما شيّع الملك المعظم ابن المشطوب رجع إلى الملك الكامل، و أمر أخاه الفائز إبراهيم أن يسير إلى ملوك الشام فى رسالة عن أخيه الملك الكامل لاستدعائهم إلى قتال الفرنج، فمضى إلى دمشق و خرج منها إلى حماه، فمات بها مسموما على ما قيل، فثبت للملك الكامل، أمر الملك و سكن روعه، هذا و الفرنج قد أحاطوا بدمياط برّا و بحرا، و أحدقوا و ضيقوا على أهلها، و منعوا القوت من الوصول إليهم، و حفروا على عسكرهم المحيط بدمياط خندقا، و بنوا عليه سورا، و أهل دمياط يقاتلونهم أشدّ القتال، و يمانعونهم، و قد غلت عندهم الأسعار لقلّة الأقوات، ثم إنّ المعظم فارق الملك الكامل، و سار إلى بلاد الشام.

و أقام الكامل لمحاربة الفرنج، و انتدب شمائل أحد الجاندارية فى الركاب للدخول إلى دمياط، فكان يسبح فى الماء، و يصل إلى أهل دمياط، فيعدهم بوصول النجدات، فحظى بذلك عند الكامل، و تقرّب منه، حتى عمله والى القاهرة، و إليه تنسب خزانة شمائل بالقاهرة، فلم يزل الحال على ذلك إلى أن دخلت سنة ست عشرة، فجهز الملك المنصور محمد بن عمرو بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماه ابنه المظفر تقىّ الدين محمودا إلى مصر نجدة لخاله الملك الكامل على الفرنج فى جيش كثيف، فوصل إلى العسكر، و تلقاه الملك الكامل، و أنزله فى ميمنة العسكر منزلة أبيه و جدّه عند السلطان صلاح الدين يوسف، فألح الفرنج فى القتال، و كان بدمياط نحو العشرين ألف مقاتل، فنهكتهم الأمراض و غلت عندهم الأسعار حتى بلغت بيضة الدجاجة عندهم عدّة دنانير.

قال الحافظ عبد العظيم المنذرى : سمعت الشيخ أبا الحسن علىّ بن فضل يقول:

كان لبعض بنى خيار، بقرة فذبحوها، و باعوها فى الحصار، فجاءت ثمانمائة دينار.

و قال فى المعجم المترجم: سمعت الأمير أبا بكر بن حسن بن خسويام يقول: كنت بدمياط فى حصار العدوّ بها، فبيع السكر بها بمائة و أربعين دينارا الرطل، و الدجاجة بثلاثين دينارا، قال: و اشتريت ثلاث دجاجات بتسعين دينارا، و الراوية بأربعين درهما، و القبر يحفر بأربعين مثقالا، و أخذت أختى جملا، فشقت جوفه و ملأته دجاجا و فاكهة و بقلا، و غير ذلك، و خاطته و رمته فى البحر، و كتبت إلىّ تقول: قد فعلت كذا، فإذا رأيتم جملا ميتا، فخذوه فوقع لنا ليلا، فأخذناه و كان فيه ما يساوى جملة، ففرّقته على الناس، ثم عمل بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۰۲

ذلك، ثلاثة جمال على هيئته، ففطن لها الفرنج، فأخذوها و امتلأت مساكنهم، و طرقات البلد من الموتى و عدمت الأقوات، و صار السكر، كعزة الياقوت، و فقدت اللحوم، فلم يقدر عليها بوجه و آلت بهم الحال، إلى أن لم يبق بها سوى قليل من القمح و الشعير فقط. فتسوّر الفرنج و أخذوا منه البلد فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان، و كانت مدّة الحصار ستة عشر شهرا و اثنين و عشرين يوما، و لما أخذوا البلد وضعوا السيف فى الناس، فتجاوزوا الحدّ فى القتل و أسرفوا فى مقدار القتلى، و بلغ ذلك السلطان، فرحل بعد أخذ دمياط بيومين، و نزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم، و رأس بحر دمياط و حيز فى المنزلة التى صار يقال لها المنصورة، و حصّن الفرنج أسوار دمياط، و جعلوا الجامع كنيسة و بثوا سراياهم فى القرى، فقتلوا و نهبوا، و سيّر السلطان الكتب إلى الآفاق ليستحث الناس على الحضور، لدفع الفرنج عن ملك مصر، و شرع العسكر فى بناء الدور و الفنادق و الحمامات، و الأسواق بمنزلة المنصورة، و جهز الفرنج من أسروه من المسلمين فى البحر إلى عكا، و خرجوا من دمياط، و نازلوا السلطان تجاه المنصورة، و صار بينهم و بينه بحر أشموم، و بحر دمياط، و كان الفرنج فى مائتى ألف راجل، و عشرة آلاف فارس، فقدّم المسلمون شوانيهم أمام المنصورة، و عدّتها مائة قطعة، و اجتمع الناس من القاهرة و مصر، و سائر النواحى من أسوان إلى القاهرة، و وصل الأمير حسام الدين يونس، و الفقيه تقىّ الدين، أبو الطاهر محمد بن الحسن بن عبد الرحمن المحلى، فأخرجا الناس من القاهرة و مصر، و نودى بالنفير العام و خرج الأمير علاء الدين جلدك، و جمال الدين بن صيرم، لجمع الناس فيما بين القاهرة إلى آخر الحوف الشرقىّ، فاجتمع عالم لا يقع عليه حصر، و أنزل السلطان على ناحية شار مساح ألف فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج و دمياط، و سارت الشوانى، و معها حراقة

كبيرة على رأس بحر المحلة، و عليها الأمير بدر الدين بن حسون، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر و البحر.

و سارت عساكر المسلمين من الشرق و الشام إلى الديار المصرية، و كان قد خرج الفرنج من داخل البحر لمدد الفرنج على دمياط، فقدم منهم أمم لا- تحصى، يريدون التوغل فى أرض مصر، فلما تكاملوا بدمياط، خرجوا منها فى حدّهم و حديدهم، و نزلوا تجاه الملك الكامل، كما تقدّم، فقدمت النجدات يقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل، و على ساقتها الملك المعظم عيسى، فتلقاهم الملك الكامل و أنزلهم عنده بالمنصورة فى ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة، و تتابع مجىء الملوك، حتى بلغت عدّة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس، فحاربوا الفرنج فى البر و البحر، و أخذوا منهم ست شوانى و جلاسة و بطسة و أسروا من الفرنج ألفين و مائتين، ثم ظفر المسلمون، بثلاث قطائع أخر، فتضعضع الفرنج لذلك، و ضاق بهم المقام.

فبعثوا يطلبون الصلح، فقدم عند مجىء رسلهم أهل الإسكندرية فى ثمانية آلاف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴٠٣

مقاتل، و كان الذى طلب الفرنج القدس و عسقلان و طبرية و جبلة و اللاذقية، و سائر ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من الساحل ليرحلوا عن ديار مصر، فبذل المسلمون لهم سائر ما ذكر من البلاد، خلا مدينة الكرك و الشوبك، فامتنع الفرنج من الصلح، و قالوا لا- بدّ من أخذهم الكرك و الشوبك، و مبلغ ثلثمائة ألف دينار، عوضا عما خرّبه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من أسوار القدس، و كان المعظم لما مات أبوه العادل، و استولى الفرنج على دمياط، و نازلوا الملك الكامل قبالة المنصورة، خاف أن يصل منهم فى البحر، من يأخذ القدس، و يتحصنوا به فأمر بتخريب أسواره، و كانت أسواره و أبراجه فى غاية العظمة و المنعة، فأتى الهدم على جميعها ما خلا- برج داود، و انتقل أكثر الناس من القدس، و لم يبق به إلا- القليل، و نقل المعظم ما كان بالقدس من الأسلحة و الآلات، فامتنع المسلمون من إجابة الفرنج إلى ذلك، و قاتلوهم و عبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها الفرنج، و حفروا مكانا عظيما فى النيل، و كان فى قوّة الزيادة، فركب الماء أكثر تلك الأرض، و صار حائلا بين الفرنج و مدينة دمياط، و انحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة، فأمر السلطان للوقت، بنصب الجسور عند أشموم طناح، فعبرت العساكر عليها، و ملكت الطريق التى يسلكها الفرنج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها، فاضطربوا و ضاقت عليهم الأرض.

و اتفق مع ذلك وصول مرمّة عظيمة للفرنج فى البحر حولها عدّة حراقات تحميها، و قد ملئت كلها بالميرة و الأسلحة، فقاتلهم شوانى المسلمين و ظفرها اللّه بهم، فأخذها المسلمون، و عند ما علم الفرنج ذلك أيقنوا بالهلاك، و صار المسلمون يرمونهم بالنشاب، و يحملون على أطرافهم، فهدموا حينئذ خيامهم و مجانيقهم، و ألقوا فيها النار، و هموا بالزحف على المسلمين و مقاتلتهم ليخلصوا إلى دمياط، فحال بينهم و بين ذلك كثرة الوحل و المياه الراكبة على الأرض، و خشوا من الإقامة لقلة أقواتهم، فذلوا و سألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين، فاستشار السلطان فى ذلك، فاختلف الناس عليه، فمنهم من امتنع من تأمين الفرنج و رأى أن يؤخذوا عنوة، و منهم من جنح إلى إعطائهم الأمان خوفا ممن وراءهم من الفرنج فى الجزائر و غيرها، ثم اتفقوا على الأمان و أن يعطى كل من الفريقين رهائن، فتقرّر ذلك فى تاسع شهر رجب سنة ثمان عشرة، و سير الفرنج عشرين ملكا رهنا عند الملك الكامل.

و بعث الملك الكامل بابنه الملك الصالح، نجم الدين أيوب، و جماعة من الأمراء إلى الفرنج، و جلس السلطان مجلسا عظيما لقدوم ملك الفرنج، و قد وقف إخوته و أهل بيته بين يديه، و صار فى أبهة و ناموس مهاب، و خرج قسوس الفرنج و رهبانهم إلى دمياط، فسلموها للمسلمين فى تاسع عشرة، و كان يوم تسليمها يوما عظيما و عند ما تسلم المسلمون دمياط، و صارت بأيديهم، قدمت نجدة فى البحر للفرنج، فكان من جميل صنع اللّه، تأخرها حتى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴٠۴

ملكت دمياط بأيدى المسلمين، فإنها لو قدمت قبل ذلك لقوى بها الفرنج، فإنّ المسلمين وجدوا مدينة دمياط، قد حصنها الفرنج، و صارت بحيث لا ترام، و لما تمّ الأمر بعث الفرنج بولد السلطان، و أمرائه إليه، و سيّر إليهم السلطان من كان عنده من الملوك فى

الرهن، و تقرّرت الهدنة بين الفرنج و المسلمين، مدّة ثمانى سنين، و كان مما وقع الصلح عليه أن كلا من المسلمين و الفرنج يطلق ما عنده من الأسرى، و حلف السلطان و إخوته، و حلفت ملوك الفرنج، و تفرّق الناس إلى بلادهم.

و دخل الملك الكامل إلى دمياط بإخوته و عساكره، و كان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة و رحل الفرنج إلى بلادهم، و عاد السلطان إلى مقرّ ملكه، و أطلقت الأسرى من ديار مصر، و كان فيهم من له من أيام السلطان صلاح الدين يوسف، و سارت ملوك الشام بعساكرها إلى بلادها، و عمت بشارة أخذ المسلمين مدينة دمياط من الفرنج، سائر الآفاق، فإنّ التتر كانوا قد استولوا على ممالك المشرق، فأشرف الفرنج على أخذ ديار مصر من أيدى المسلمين، و كانت مدّة نزول الفرنج على دمياط إلى أن أقلعوا عنها سائرين إلى بلادهم، ثلاث سنين و أربعة أشهر و تسعة عشر يوما منها مدّة استيلائهم على مدينة دمياط سنة و عشرة أشهر و أربعة و عشرون يوما.

فلما كان فى سنة ست و أربعين و ستمائة حدث بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، محمد ورم فى مأبضه تكوّن منه، ناصور فتح و عسر برؤه، فمرض من ذلك، و انضاف إليه قرحة فى الصدر، فلزم الفراش إلا أنّ علوّ همته اقتضى مسيره من ديار مصر إلى الشام فسار فى محفة، و نزل بقلعة دمشق، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر، و أخبره سرّا بأن بواش الذى يقال له: رواد فرنس، عازم على المسير إلى أرض مصر، و أخذها فسار السلطان من دمشق، و هو مريض فى محفة، و نزل بأشموم طناح فى المحرّم سنة سبع و أربعين، و جمع فى مدينة دمياط من الأقوات و الأزواد و الأسلحة و آلات القتال شيئا كثيرا خوفا أن يجرى على دمياط ما جرى فى أيام أبيه، فأخذت بغير ذلك.

و لما نزل السلطان، بأشموم كتب إلى الأمير حسام الدين أبى علىّ بن علىّ الهديانىّ، نائبه بديار مصر، أن يجهز الأسطول من صناعة مصر، فشرع فى الاهتمام بذلك و شحن الأسطول بالرجال و السلاح، و سائر ما يحتاج إليه و سيره شيئا بعد شىء، و جهز السلطان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، و معه الأمراء و العساكر، فنزل بجيرة دمياط من برّها الغربىّ، و صار النيل بينه و بينها، فلما كان فى الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر وردت مراكب الفرنج البحريين فيها جموعهم العظيمة و قد انضم إليهم فرنج الساحل و أرسوا بإزاء المسلمين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٠٥

و بعث ملكهم إلى السلطان كتابا نصه: أما بعد: فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمّة العيسوية، كما أنه لا يخفى علىّ أنك أمين الأمّة المحمدية، و غير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس، و ما يحملونه إلينا من الأموال و الهدايا، و نحن نسوقهم سوق البقر و نقتل منهم الرجال، و نرمّل النساء، و نستأسر البنات و الصبيان و نخلى منهم الديار، و أنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية، و بذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الإيمان، و أدخلت علىّ الأقساء و الرهبان، و حملت قدّامى الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا إليك، و قاتلتك فى أعز البقاع إليك، فإما إن تكون البلاد لى فيا هدية حصلت فى يدىّ، و إما أن تكون البلاد لك و الغلبة علىّ، فيدك العليا ممتدّة إلىّ، و قد عرّفتك و حذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى، تملأ السهل و الجبل، و عددهم كعدد الحصى، و هم مرسلون إليك بأسياف القضاء.

فلما قرىء الكتاب على السلطان، و قد اشتدّ به المرض بكى، و استرجع.

فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد، الجواب: بسم اللّه الرحمن الرحيم، و صلواته على سيدنا محمد رسول اللّه و آله و صحبه أجمعين، أما بعد: فإنه وصل كتابك، و أنت تهدّد فيه بكثرة جيوشك، و عدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، و ما قتل منا فرد إلا جدّدناه، و لا بغى علينا باغ إلا دمّرناه، و لو رأت عينك أيها المغرور، حدّ سيوفنا، و عظم حروبنا، و فتحنا منكم الحصون و السواحل، و تخريبنا ديار الأواخر منكم و الأوائل، لكان لك أن تعض على أنا ملك بالندم، و لا بدّ أن تزل بك القدم فى يوم أوّله لنا و آخره عليك، فهنالك تسىء الظنون، و سيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون، فإذا قرأت كتابى هذا، فتكون فيه على أوّل سورة النحل: أَتى

أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل/ ١] و تكون على آخر سورة ص:

وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [ص/ ٨٨]، و نعود إلى قول اللّه تعالى، و هو أصدق القائلين: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة/ ٢٤٩]، و قول الحكماء: إنّ الباغى له مصرع و بغيك يصرعك، و إلى البلاد يقلبك و السلام.

و فى يوم السبت ورد الفرنج و ضربوا خيامهم فى أكثر البلاد التى فيها عساكر المسلمين، و كانت خيمة الملك رواد فرنس حمراء، فناوشهم المسلمون القتال، و استشهد يومئذ الأمير نجم الدين يوسف بن شيخ الإسلام، و الأمير صارم الدين أزبك الوزيرىّ، فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعساكر المسلمين جبنا و صلفا، و سار بهم فى برّ دمياط، و سار إلى جهة أشموم طناح، فخاف من كان فى مدينة دمياط، و خرجوا منها على وجوههم فى الليل لا يلتفتون إلى شىء، و تركوا المدينة خالية من الناس، و لحقوا بالعسكر فى أشموم، و هم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من النساء و الأولاد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٠٦

و مرّوا هاربين إلى القاهرة، فأخذ منهم قطاع الطريق، ما عليهم من الثياب، و تركوهم عرايا، فشنعت القالة على الأمير فخر الدين من كل أحد، و عدّ جميع ما نزل بالمسلمين من البلاء بسبب هزيمته، فإن دمياط كانت مشحونة بالمقاتلة و الأزواد العظيمة و الأسلحة و غيرها، خوفا أن يصيبها فى هذه المدّة ما أصابها فى أيام الكامل، فإنه ما أتى عليها ذاك إلا من قلّة الأقوات بها، و مع ذلك امتنعت من الفرنج أكثر من سنة، حتى فنى أهلها كما تقدّم، و لكن اللّه يفعل ما يريد.

و لما أصبح الفرنج يوم الأحد لسبع بقين من صفر قصدوا دمياط فإذا أبواب المدينة مفتحة، و لا أحد يدفع عنها، فظنوا أنّ ذلك مكيدة، و تمهلوا حتى ظهر لهم خلوّها فدخلوا إليها من غير مانع و لا مدافع، و استولوا على ما بها من الأسلحة العظيمة، و آلات الحرب، و الأقوات الخارجة عن الحدّ فى الكثرة و الأموال و الأمتعة صفوا بغير كلفة، فأصيب الإسلام و المسلمون ببلاء، لو لا لطف اللّه لمحى اسم الإسلام و رسمه بالكلية، و انزعج الناس فى القاهرة و مصر انزعاجا عظيما، لما نزل بالمسلمين مع شدّة مرض السلطان، و عدم حركته، و أما السلطان فإنه اشتدّ حنقه على الأمير فخر الدين، و قال: أما قدرت أنت و العساكر أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج؟ و أقام عليه القيامة، لكن الوقت لم يكن يسع غير الصبر و الإغضاء، و غضب على الكنانيين الذين كانوا بدمياط و وبخهم، فقالوا: ما نعمل إذا كانت عساكر السلطان بأجمعهم و أمراؤه هربوا و أخربوا الزردخاناه، كيف لا نهرب نحن؟ فأمر بشنقهم لكونهم خرجوا من دمياط بغير إذن، و كانت عدّة من شنق من الأمراء الكنانية زيادة على خمسين أميرا فى ساعة واحدة، و من جملتهم أمير جسيم، له ابن جميل يسأل أن يشنق قبل ابنه، فأمر السلطان أن يشنق ابنه قبله، فشنق الابن ثم الأب، و يقال: إنّ شنق هؤلاء كان بفتوى الفقهاء، فخاف جماعة من الأمراء، و هموا بالقيام على السلطان.

فأشار عليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بأنّ السلطان على خطة، فإن مات فقد كفيتم أمره، و إلا فهو بين أيديكم و أخذ السلطان فى إصلاح سور المنصورة، و انتقل إليها لخمس بقين من صفر، و جعل الستائر على السور، و قدمت الشوانى إلى تجاه المنصورة، و فيها العدد الكاملة و شرع العسكر فى تجديد الأبنية هناك، و قدم من العربان، و أهل النواحى و من المطوّعة خلق لا يحصى عددهم، و أخذوا فى الإغارة على الفرنج، فملأ الفرنج أسوار مدينة دمياط بالمقاتلة و الآلات، فلما كان أوّل ربيع الأوّل قدم إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العربان، ستة و ثلاثون منهم: فارسان، و فى خامس ربيع الآخر، ورد منهم تسعة و ثلاثون، و فى سابعه ورد اثنان و عشرون أسيرا، و فى سادس عشره ورد خمسة و أربعون أسيرا منهم: ثلاثة خيالة، و فى ثامن عشر جمادى الأولى ورد خمسون أسيرا.

هذا و مرض السلطان يتزايد، و قواه تتناقص حتى آيس الأطباء منه، و فى ثالث عشر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٠٧

رجب قدم إلى القاهرة سبعة و أربعون أسيرا، و أحد عشر فارسا، و ظفر المسلمون بمسطح للفرنج فى البحر فيه مقاتلة من نستراوة.

فلما كانت ليلة الأحد لأربع عشرة مضت من شعبان، مات الملك الصالح بالمنصورة، فلم يظهر موته، و حمل فى تابوت إلى قلعة الروضة، و قام بأمر العسكر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ.

فإنّ شجرة الدر زوجة السلطان، لما مات أحضرت الأمير فخر الدين، و الطواشى جمال الدين محسنا، و إليه أمر المماليك البحرية و الحاشية و أعلمتهما بموته، فكتما ذلك خوفا من الفرنج، لأنهم كانوا قد أشرفوا على تملك ديار مصر، فقام الأمير فخر الدين بالتدبير.

و سيروا إلى الملك المعظم توران شاه ، و هو بحصن كيفا ، الفارس أقطاى لإحضاره، و أخذ الأمير فخر الدين فى تحليف العسكر للملك الصالح، و ابنه الملك المعظم بولاية العهد من بعده، و للأمير فخر الدين بأتابكية العسكر، و القيام بأمر الملك حتى حلفهم كلهم بالمنصورة و بالقاهرة فى دار الوزارة عند الأمير حسام الدين بن أبى علىّ فى يوم الخميس لاثنتى عشرة بقيت من شعبان، و كانت العلامات تخرج من الدهاليز السلطانية بالمنصورة إلى القاهرة بخط خادم يقال له: سهيل لا يشك من رآها، إنها خط السلطان، و مشى ذلك على الأمير حسام الدين بالقاهرة، و لم يتفوّه أحد بموت السلطان إلى أن كان يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان، ورد الأمر إلى القاهرة بدعاء الخطباء فى الجمعة الثانية للملك المعظم بعد الدعاء للسلطان، و أن ينقش اسمه على السكة، فلما علم الفرنج بموت السلطان، خرجوا من دمياط بفارسهم و راجلهم، و شوانيهم تحاذيهم فى البحر حتى نزلوا، فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان.

فورد فى يوم الجمعة من الغد كتاب إلى القاهرة من العسكر، أوّله: انفروا خفافا و ثقالا و جاهدوا بأموالكم و أنفسكم فى سبيل اللّه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، و فيه مواعظ بليغة بالحث على الجهاد، فقرىء على منبر جامع القاهرة، و قد جمع الناس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٠٨

لسماعه، فارتجت القاهرة و مصر، و ظواهرهما بالبكاء و العويل، و أيقن الناس باستيلاء الفرنج على البلاد لخلوّ الوقت من ملك يقوم بالأمر لكنهم لم يهنوا، و خرجوا من القاهرة و مصر، و سائر الأعمال، فاجتمع عالم عظيم.

فلما كان يوم الثلاثاء أوّل شهر رمضان، اقتتل المسلمون و الفرنج، فاستشهد العلائىّ أمير مجلس و جماعة، و نزل الفرنج، شارمساح ، و فى يوم الاثنين سابعه نزلوا البرمون، فاضطرب الناس و زلزلوا زلزالا شديدا لقربهم من العسكر، و فى يوم الأحد ثالث عشره، و صلوا تجاه المنصور، و صار بينهم و بين المسلمين، بحر أشموم، و خندقوا عليهم و أداروا على خندقهم سورا ستروه بكثير من الستائر، و نصبوا المجانيق، ليرموا بها على المسلمين، و صارت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل، و شوانى المسلمين بإزاء المنصورة، و التحم القتال برّا و بحرا.

و فى سادس عشره نفر إلى المسلمين، ستة خيالة، أخبروا بمضايقة الفرنج، و فى يوم عيد الفطر، أسروا من الفرنج، كند من أقارب الملك، و أبلى عوامّ المسلمين فى قتال الفرنج بلاء كبيرا، و أنكوهم نكاية عظيمة، و صاروا يقتلون منهم فى كل وقت، و يأسرون و يلقون أنفسهم فى الماء، و يمرّون فيه إلى الجانب الذى فيه الفرنج، و يتحيلون فى اختطاف الفرنج بكل حيلة، و لا يهابون الموت، حتى إن إنسانا قوّر بطيخة، و حملها على رأسه، و غطس فى الماء حتى حاذى الفرنج، فظنه بعضهم بطيخة، و نزل حتى يأخذها، فخطفه و أتى به إلى المسلمين، و فى يوم الأربعاء سابع شوّال، أخذ المسلمون شونة للفرنج فيها: كندا، و مائتا رجل، و فى يوم الخميس النصف منه ركب الفرنج إلى برّ المسلمين و اقتتلوا فقتل منهم أربعون فارسا، و سير فى عدّة إلى القاهرة بسبعة و ستين أسيرا منهم: ثلاثة من أكابر الدواداريه، و فى يوم الخميس، ثانى عشرية أحرقت للفرنج مرمّة عظيمة فى البحر، و استظهر المسلمون عليهم، و كان بحر أشموم فيه مخايض، فدل بعض من لا دين له ممن يظهر الإسلام الفرنج عليها، فركبوا سحر يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة أو رابعه، و لم يشعر المسلمون بهم إلا و قد هجموا على العسكر، و كان الأمير فخر الدين قد عبر إلى الحمام، فأتاه الصريخ بأنّ الفرنج قد هجموا على العسكر، فركب دهشا غير معتدّ، و لا متحفظ و ساق ليأمر الأمراء و الأجناد بالركوب فى طائفة من مماليكه، فلقيه عدّة من الفرنج الدوادارية ، و حملوا عليه ففرّ أصحابه، و أتته طعنة فى جنبه، و أخذته السيوف من كل جانب حتى لحق باللّه عز و جل، و فى

الحال غدت مماليكه فى طائفة إلى داره، و كسروا صناديقه و خزائنه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴٠٩

و نهبوا أمواله و خيوله، و ساق الفرنج عند مقتل الأمير فخر الدين إلى المنصورة، ففرّ المسلمون خوفا منهم، و تفرّقوا يمنة و يسرة، و كادت الكسرة أن تكون، و تمحوا الفرنج كلمة الإسلام من أرض مصر، و وصل الملك، رواد فرنس إلى باب قصر السلطان، و لم يبق إلا أن يملكه فأذن اللّه تعالى أنّ طائفة المماليك من البحرية و الجمدارية ، الذين استجدّهم الملك الصالح، و من جملتهم: بيبرس البندقدارى حملوا على الفرنج حملة صدقوا فيها اللقاء، حتى أزاحوهم عن مواقفهم، و أبلوا فى مكافحتهم بالسيوف و الدبابيس، فانهزموا و بلغت عدّة من قتل من فرسان الفرنج الخيالة فى هذه النوبة، ألفا و خمسمائة فارس، و أما الرجالة فإنها كانت وصلت إلى الجسر لتعدّى، فلو تراخى الأمر حتى صاروا مع المسلمين لأعضل الداء، على أن هذه الواقعة كانت بين الأزقة و الدروب، و لو لا ضيق المجال، لما أفلت من الفرنج أحد فنجا من بقى منهم، و ضربوا عليهم سورا و حفروا خندقا، و صارت طائفة منهم فى البرّ الشرقىّ، و معظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط، و كانت البطاقة عند الكبسة سرّحت على جناح الطائر إلى القاهرة، فانزعج الناس انزعاجا عظيما، و وردت السوقة و بعض العسكر، و لم تغلق أبواب القاهرة ليلة الأربعاء، و فى يوم الأربعاء: سقط الطائر بالبشارة بهزيمة الفرنج، و عدّة من قتل منهم، فزينت القاهرة و ضربت البشائر بقلعة الجبل.

و سار المعظم، توران شاه إلى دمشق، فدخلها يوم السبت آخر شهر رمضان، و استولى على من بها، و لأربع مضين من شوّال، سقط الطائر بوصوله إلى دمشق، فضربت البشائر فى العسكر بالمنصورة، و فى قلعة الجبل، و سار من دمشق لثلاث بقين منه، فتواترت الأخبار بقدومه، و خرج الأمير حسام الدين بن أبى علىّ إلى لقائه، فوافاه بالصالحية لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة، و من يومئذ أعلن بموت الملك الصالح، بعد ما كان قبل ذلك لا ينطق أحد بموته البتة، بل الأمور على حالها، و الدهليز السلطانىّ بحاله و السماط على العادة، و شجرة الدر، أم خليل زوجة السلطان تدبر الأمور، و تقول: السلطان مريض ما إليه وصول، ثم سار من الصالحية، فتلقاه الأمراء و المماليك، و استقرّ بقصر السلطنة من المنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة، و فى أثناء هذه المدّة، عمل المسلمون مراكب و حملوها على الجمال إلى بحلة المحلة، و ألقوها فيه و شحنوها بالمقاتلة، فعند ما حاذت مراكب الفرنج بحر المحلة، و تلك المراكب فيه مكمنة، خرجت عليهم و وقع الحرب بينهما، و قدم الأسطول الإسلامىّ من جهة المنصورة، و أحاط بالفرنج، فظفر باثنين و خمسين مركبا للفرنج، و قتل و أسر منهم نحو ألف رجل، فانقطعت الميرة عن الفرنج، و اشتدّ عندهم الغلاء، و صاروا محصورين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴١٠

فلما كان أوّل يوم من ذى الحجة، أخذ الفرنج من المراكب فى بحر المحلة سبع حراريق، و فرّ من كان فيها من المسلمين، و فى يوم عرفة برزت الشوانى الإسلامية إلى مراكب قدمت للفرنج فيها ميرة، فأخذت منها اثنين و ثلاثين مركبا منها تسع شوانى، فوهنت قوّة الفرنج، و تزايد الغلاء عندهم، و شرعوا فى طلب الهدنة من المسلمين، على أن يسلموا دمياط، و يأخذوا بدلا منها القدس، و بعض بلاد الساحل، فلم يجابوا إلى ذلك، فلما كان اليوم السابع و العشرون من ذى الحجة، أحرق الفرنج أخشابهم كلها، و أتلفوا مراكبهم، يريدون التحصن بدمياط، و رحلوا فى ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرّم سنة ثمان و أربعين و ستمائة إلى دمياط، و أخذت مراكبهم فى الانحدار قبالتهم، فركب المسلمون أقفيتهم بعدما عدّوا إلى برّهم و طلع الفجر من يوم الأربعاء، و قد أحاط المسلمون بالفرنج، و قتلوا و أسروا منهم كثيرا، حتى قيل: إن عدد من قتل من الفرسان على فارسكور ، يزيد على عشرة آلاف، و أسر من الخيالة و الرجال و الصناع و السوقة، ما يناهز مائة ألف، و نهب من المال و الذخائر و الخيول و البغال، ما لا يحصى، و انحاز الملك رواد فرنس، و أكابر الفرنج إلى تلّ، و وقفوا مستسلمين، و سألوا الأمان، فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحىّ، و نزلوا على أمانة.

و أحيط بهم و سيقوا إلى المنصورة، فقيد رواد فرنس، و اعتقل فى الدار التى كان ينزل فيها القاضى، فخر الدين إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشاء، و وكل به الطواشى صبيح المعظمىّ، و اعتقل معه أخوه و رتب له راتب يحمل إليه فى كل يوم، و رسم الملك المعظم

لسيف الدين يوسف بن الطورى أحد من وصل صحبته من الشرق أن يتولى قتل الأسرى، فكان يخرج منهم كل ليلة، ثلثمائة رجل و يقتلهم، و يلقيهم فى البحر حتى فنوا. و لما قبض على الملك رواد فرنس، رحل الملك المعظم من المنصورة، و نزل بالدهليز السلطانىّ على فارسكور و عمل له برجا من خشب و تراخى فى قصد دمياط، و كتب بخطه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور، نائبه بدمشق و ولده توران شاه.

الحمد للّه الذى أذهب عنا الحزن و ما النصر إلا من عند اللّه و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه، و أما بنعمة ربك فحدّث، و إن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها، نبشر المجلس السامى الجمالىّ، بل نبشر المسلمين كافة بما منّ اللّه به على المسلمين، من الظفر بعدوّ الدين فإنه كان قد استكمل أمره، و استحكم شرّه، و يئس العباد من البلاد، و الأهل و الأولاد فنودوا ألا تيأسوا من روح اللّه.

و لما كان يوم الاثنين مستهلّ السنة المباركة، و هى سنة ثمان و أربعين و ستمائة، تمم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤١١

اللّه على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن و بذلنا الأموال، و فرّقنا السلاح، و جمعنا العربان و المطوّعة، و خلقا لا يعلمهم إلا اللّه جاءوا من كل فج عميق، و مكان سحيق، فلما رأى العدوّ ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم، و بين الملك الكامل فأبينا، و لما كانت ليلة الأربعاء تركوا خيامهم و أموالهم و أثقالهم، و قصدوا دمياط هاربين، فسرنا فى آثارهم طالبين، و ما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامّة الليل، و قد حلّ بهم الخزى و الويل، فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللجج، و أما الأسرى فحدّث عن الحر، و لا حرج، و التجأ الفرنسيس إلى المينة، و طلب الأمان، فأمّناه، و أخذناه و أكرمناه، و سلمناه دمياط بعون اللّه تعالى، و قوّته و جلاله و عظمته، و بعث مع الكتاب غفارة الملك فرنسيس، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور، و هى: اشكر لاطا أحمر بفرو سنجاب، فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

إنّ غفارة الفرنسيس جاءتفهى حقا لسيد الأمراء

كبياض القرطاس لونا و لكن صبغتها سيوفنا بالدماء

و قال آخر:

أسيّد أملاك الزمان بأسرهمتنجزت من نصر الإله و عوده

فلا زال مولانا يبيح حمى العدىو يلبس أثواب الملوك عبيده

و أخذ الملك المعظم، يهدّد زوجة أبيه، شجرة الدر، و يطالبها بمال أبيه، فخافته و كاتبت مماليك الملك الصالح، تحرّضهم عليه، و كان المعظم لما وصل إليه الفارس، أقطاى إلى حصن كيفا، وعده أن يعطيه إمرة، فلم يف له بها، و أعرض مع ذلك عن مماليك أبيه، و اطّرح أمراءه، و صرف الأمير حسام الدين بن أبى علىّ، عن نيابة السلطنة، و أحضره إلى العسكر، و لم يعبأ به و أبعد غلمان أبيه، و اختص بمن وصل معه من المشرق، و جعلهم فى الوظائف السلطانية، فجعل الطواشى مسرورا خادمه إستادارا، و عمل صبيحا، و كان عبدا حبشيا فحلا- خازنداره، و أمر أن تكون له عصا من ذهب، و أعطاه مالا جزيلا، و إقطاعات جليلة، و كان إذا سكر جمع الشمع، و ضرب رؤوسها بالسيف، حتى تنقطع، و يقول هكذا أفعل بالبحرية، فإنه كان فيه هرج و خفة، و احتجب على العكوف بملاذه، فنفرت منه النفوس، و بقى كذلك إلى يوم الاثنين، تاسع عشرى المحرّم، و قد جلس على السماط، فتقدّم إليه أحد المماليك البحرية، و ضربه بسيف قطع أصابع يديه، ففرّ إلى البرج، فاقتحموا عليه، و سيوفهم مصلتة، فصعد أعلى البرج الخشب، فرموه بالنشاب، و أطلقوا الناس فى البرج، فألقى نفسه و مرّ إلى البحر، و هو يقول: ما أريد ملككم دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمين؟ ما فيكم من يصطنعنى و يجيرنى؟ و سائر العساكر بالسيوف واقفة، فلم يجبه أحد و النشاب يأخذه من كل ناحية، و أدركوه، فقطع بالسيوف و مات حريقا غريقا قتيلا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤١٢

فى يوم الاثنين المذكور، و ترك على الشط ثلاثة أيام، ثم دفن.

و لما قتل الملك المعظم، اتفق أهل الدولة، على إقامة شجرة الدر، والدة خليل فى مملكة مصر، و أن يكون مقدّم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركمانىّ الصالحىّ، و حلف الكل على ذلك، و سيروا إليها عز الدين الرومىّ، فقدم عليها فى قلعة الجبل، و أعلمها بما اتفق فرضيت به، و كتبت على التواقيع علامتها، و هى والدة خليل، و خطب لها على المنابر بمصر و القاهرة، و جرى الحديث مع الملك روادفرنس فى تسليم دمياط، و تولى مفاوضته فى ذلك الأمير حسام الدين بن أبى علىّ الهديانىّ، فأجاب إلى تسليمها، و أن يخلى عنه بعد محاورات، و سير إلى الفرنج بدمياط يأمرهم بتسليمها إلى المسلمين، فسلموها بعد جهد جهيد من كثرة المراجعات فى يوم الجمعة ثالث صفر، و رفع العلم السلطانىّ على سورها، و أعلن فيها بكلمة الإسلام، و شهادة الحق بعد ما أقامت بيد الفرنج، أحد عشر شهرا و سبعة أيام، و أفرج عن الملك روادفرنس، و عن أخيه، و زوجته، و من بقى من أصحابه إلى البرّ الغربىّ، و ركبوا البحر من الغد، و هو يوم السبت رابع صفر، و أقلعوا إلى عكا. و فى هذه النوبة يقول الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح:

قل للفرنسيس إذا جئتهمقال نصح عن قؤول نصيح

آجرك اللّه على ما جرىمن قبل عباد يسوع المسيح

أتيت مصر تبتغى ملكهاتحسب أنّ الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلى أدهمضاق به عن ناظريك الفسيح

و كل أصحابك أودعتهمبحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفا لا يرى منهمإلا قتيل أو أسير جريح

وفقك اللّه لأمثالهالعلّ عيسى منكم يستريح

إن كان بابا كم بذار راضيافرب غشّ قد أتى من نصيح

قل لهم أن أضمروا عودةلأخذ ثأر أو لنقد صحيح

دار ابن لقمان على حالهاو القيد باق و الطواشى صبيح

و قدّر اللّه أن الفرنسيس هذا بعد خلاصه من هذه الوقعة جمع عدّة جموع، و قصد يونس، فقال شاب من أهلها يقال له أحمد بن إسماعيل الزيات:

يا فرنسيس هذه أخت مصرفتأهب لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبرو طواشيك منكر و نكير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤١٣

فكان هذا فألا حسنا، فإنه مات و هو على محاصرة تونس، و لما تسلم الأمراء دمياط وردت البشرى إلى القاهرة، فضربت البشائر، و زينت القاهرة و مصر، فقدمت العساكر من دمياط يوم الخميس تاسع صفر، فلما كان فى سلطنة الأشرف موسى بن الملك المسعود، أقسيس بن الملك الكامل، و الملك المعزّ عز الدين التركمانىّ، و كثر الاختلاف بمصر، و استولى الملك الناصر يوسف بن العزيز على دمشق، اتفق أرباب الدولة بمصر، و هم المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفا من مسير الفرنج إليها مرّة أخرى، فسيروا إليها الحجارين و الفعلة، فوقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان و أربعين و ستمائة، حتى خربت كلها، و محيت آثارها، و لم يبق منها سوى الجامع، و صار فى قبليها أخصاص على النيل سكنها الناس الضعفاء، و سمّوها المنشية، و هذا السور هو الذى بناه أمير المؤمنين المتوكل على اللّه، كما تقدّم ذكره.

فلما استبدّ الملك الظاهر بيبرس البندقدارى: الصالحىّ بمملكة مصر بعد قتل الملك المظفر ، قطز أخرج من مصر عدّة من الحجارين فى سنة تسع و خمسين و ستمائة، لردم فم بحر دمياط، فمضوا و قطعوا كثيرا من القرابيص، و ألقوها فى بحر النيل الذى ينصب من

شمال دمياط فی البحر الملح، حتی ضاق، و تعذر دخول المراکب منه إلی دمياط، و هو إلی اليوم علی ذلک لا تقدر مراکب البحر الکبار أن تدخل منه، و إنما ينقل ما فيها من البضائع فی مراکب نيلية تعرف عند أهل دمياط، بالجروم واحدها: جرم، و تصير مراکب البحر، جبل فی فم البحر، أو رمل يتربی هناک، و هذا قول باطل، حملهم عليه ما يجدونه من تلاف المراکب إذا هجمت علی هذا المکان، و جهلهم بأحوال الوجود، و ما مرّ من الوقائع، و إلی يومنا هذا يخاف علی المراکب عند ورودها فم البحر، و کثيرا ما تتلف فيه.

و قد سرت إليه حتی شاهدته، و رأيته من أعجب ما يراه الإنسان.

و أما دمياط الآن فإنها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط، و عمل هناک أخصاص، و ما برحت تزداد إلی أن صارت بلدة کبيرة ذات أسواق و حمامات و جوامع و مدارس و مساجد، و دورها تشرف علی النيل الأعظم، و من ورائها البساتين، و هی أحسن بلاد اللّه منظرا.

و قد أخبرنی الأمير الوزير المشير الإستادار يلبغا السالمیّ رحمه اللّه أنه لم ير فی البلاد التی سلکها من سمرقند إلی مصر أحسن من دمياط هذه، فظننت أنه يغلو فی مدحها إلی أن شاهدتها، فإذا هی أحسن بلد و أنزهه، و فيها أقول:

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۱۴ سقی عهد دمياط و حياه من عهدفقد زادنی ذکراه وجدا علی وجد

و لا زالت الأنواء تسقی سحابهاديارا حکت من حسنها جنة الخلد

فيا حسن هاتيک الديار و طيبهافکم قد حوت حسنا يجلّ عن العدّ

فللّه أنهار تحف بروضهالکالمرهف المصقول أو صفحة الخد

و بشنينها الريان يحکی متيماتبدّل من وصل الأحبة بالصدّ

فقام علی رجليه فی الدمع غارقايراعی نجوم الليل من وحشة الفقد

و ظلّ علی الأقدام تحسب أنهلطول انتظار من حبيب علی وعد

و لا سيما تلک النواعير إنهاتجدّد حزن الواله المدنف الفرد

أطارحها شجوی و صارت کأنماتطارح شکواها بمثل الذی أبدی

فقد خلتها الأفلاک فيها نجومهاتدور بمحض النفع منها و بالسعد

و فی البرک الغرّاء يا حسن نوفرحلا و غدا بالزهو يسطو علی الورد

سماء من البلور فيها کواکبعجيبة صبغ اللون محکمة النضد

و فی شاطیء النيل المقدّس نزهةتعيد شباب الشيب فی عيشه الرغد

و تنشی رياحا تطرد الهمّ و الأسیو تنشی ليالی الوصل من طيبها عندی

و فی مرج البحرين جمّ عجائبتلوح و تبدو من قريب و من بعد

کأنّ التقاء النيل بالبحر إذ غدامليکان سارا فی الجحافل من جند

و قد نزلا للحرب و احتدم اللقاو لا طعن إلا بالمثقفة الملد

فظلا کما باتا و ما برحا کماهما من جليل الخطب فی أعظم الجهد

فکم قد مضی لی من أفانين لذةبشاطئها العذب الشهیّ لذی الورد

و کم قد نعمنا فی البساتين برهةبعيش هنیء فی أمان و فی سعد

و فی البرزخ المأنوس کم لی خلوةو عند شطا عن أيمن العلم الفرد

هناک تری عين البصيرة ما تریمن الفضل و الأفضال و الخير و المجد

فيا رب هيئ لى بفضلك عودةو منّ بها فى غير بلوى و لا جهد

و بدمياط حيث كانت المدينة التى هدمت جامع من أجلّ مساجد المسلمين تسمية العامّة، مسجد فتح، و هو المسجد الذى أسسه المسلمون عند فتح دمياط.

أوّل ما فتح اللّه أرض مصر على يد عمرو بن العاص، و على بابه مكتوب بالقلم الكوفىّ، أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة، و فيه عدّة من عمد الرخام منها، ما يعز وجود مثله، و إنما عرف بجامع فتح لنزول شخص يقال له: فاتح به، فقالت العامّة: جامع فتح.

و إنما هو: فاتح بن عثمان الأسمر التكرورىّ، قدم من مراكش إلى دمياط على قدم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤١۵

التجريد، و سقى بها الماء فى الأسواق احتسابا من غير أن يتناول من أحد شيئا، و نزل فى ظاهر الثغر و لزم الصلاة مع الجماعة، و ترك الناس جميعا، ثم أقام بناحية تونة من بحيرة تنيس، و هى خراب نحو سبع سنين، ورمّ مسجدها، ثم انتقل من تونة إلى جامع دمياط، و أقام فى وكر بأسفل المنارة من غير أن يخالط أحدا إلا إذا أقيمت الصلاة، خرج و صلى فإذا سلّم الإمام، عاد إلى و كره، فإن عارضه أحد بحديث كلّمه، و هو قائم بعد انصرافه من الصلاة، و كانت حاله أبدا اتصالا فى انفصال، و قربا فى ابتعاد، و أنسا فى نفار، و حج فكان يفارق أصحابه عند الرحيل، فلا يرونه إلا وقت النزول، و يكون سيره منفردا عنهم لا يكلم أحدا إلى أن عاد إلى دمياط، فأخذ فى ترميم الجامع، و تنظيفه بنفسه، حتى نقى ما كان فيه من الوطواط بسقوفه، و ساق الماء إلى صهاريجه، و بلط صحنه و سبك سطحه بالجبس، و أقام فيه.

و كان قبل ذلك من حين خربت دمياط، لا يفتح إلا فى يوم الجمعة فقط، فرتب فيه إماما راتبا يصلى الخمس، و سكن فى بيت الخطابة، و واظب على إقامة الأوراد به، و جعل فيه قرّاء يتلون القرآن بكرة و أصيلا و قرّر فيه رجلا يقرأ ميعادا يذكر الناس و يعلمهم، و كان يقول: لو علمت بدمياط مكانا أفضل من الجامع لأقمت به، و لو علمت فى الأرض بلدا يكون فيه الفقير، أخمل من دمياط لرحلت إليه، و أقمت به، و كان إذا ورد عليه أحد من الفقراء، و لا يجد ما يطعمه باع، من لباسه ما يضيفه به، و كان يبيت و يصبح، و ليس له معلوم، و لا ما يقع عليه العين، أو تسمعه الأذن، و كان يؤثر فى السرّ الفقراء و الأرامل، و لا يسأل أحدا شيئا، و لا يقبل غالبا، و إذا قبل ما يفتح اللّه عليه آثر به، و كان يبذل جهده فى كتم حاله، و اللّه تعالى يظهر خيره و بركته من غير قصد منه لذلك، و عرفت له عدّة كرامات، و كان سلوكه على طريق السلف من التمسك بالكتاب و السنة و النفور عن الفتنة، و ترك الدعاوى و اطراحها و ستر حاله و التحفظ فى أقواله، و أفعاله، و كان لا يرافق أحدا فى الليل، و لا يعلم أحد يوم صومه من يوم فطره، و يجعل دائما قول إن شاء اللّه تعالى، مكان قول غيره، و اللّه.

ثم إنّ الشيخ عبد العزيز الدميرىّ، أشار عليه بالنكاح و قال له: النكاح من السنة، فتزوّج فى آخر عمره بامرأتين و لم يدخل على واحدة منهما نهارا البتة، و لا أكل عندهما، و لا شرب قط، و كان ليله ظرفا للعبادة، لكنه يأتى إليهما أحيانا، و ينقطع أحيانا لاستغراق زمنه كله فى القيام بوظائف العبادات و إيثار الخلوة، و كان خواص خدمه لا يعلمون بصومه من فطره، و إنما يحمل إليه ما يأكل، و يوضع عنه بالخلوة، فلا يرى قط آكلا، و كان يحب الفقر، و يؤثر حال المسكنة، و يتطارح على الخمول و الجفا و يتواضع مع الفقراء، و يتعاظم على العظماء و الأغنياء، و كان يقرأ فى المصحف، و يطالع الكتب، و لم يره أحد يخط بيده شيئا، و كانت تلاوته للقرآن بخشوع و تدبر، و لم يعمل له سجادة قط، و لا أخذ على أحد عهدا، و لا لبس طاقية، و لا قال أنا شيخ، و لا أنا فقير، و متى قال فى كلامه: إنا تفطّن لما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤١۶

وقع فيه، و استعاذ بالله من قول أنا، و لا حضر قط سماعا، و لا أنكر على من يحضره، و كان سلوكه صلاحا من غير إصلاح، و يبالغ فى الترفع على أبناء الدنيا، و يترامى على الفقراء، و يقدّم لهم الأكل، و لم يقدّم لغنىّ أكلا البتة، و إذا اجتمع عنده الناس، قدّم الفقير على

الغنىّ، و إذا مضى الفقير من عنده سار معه، و شيعه عدّة خطوات، و هو حاف بغير نعل و وقف على قدميه ينظره حتى يتوارى عنه، و من كان من الفقراء يشار إليه بمشيخة، جلس بين يديه بأدب مع إمامته و تقدّمه فى الطريق، و يقول: ما أقول لأحد افعل أو لا تفعل، من أراد السلوك يكفيه أن ينظر إلى أفعاله، فإنّ من لم يتسلك بنظره لا يتسلك بسمعه.

و قال له شخص من خواصه: يا سيدى ادع اللّه لنا أن يفتح علينا، فنحن فقراء، فقال:

إن أردتم فتح اللّه، فلا تبقوا فى البيت شيئا، ثم اطلبوا فتح اللّه بعد ذلك، فقد جاء لا تسأل اللّه، و لك خاتم من حديد، و من كلامه: الفقير بحال البكر، إذا سأل زالت بكارته، و سأله بعض خواصه: أن يدعو له بسعة، و شكا له الضيق، فقال: أنا ما أدعو لك بسعة بل أطلب لك الأفضل و الأكمل.

و كان مع اشتغاله بالعبادة و استغراق أوقاته فيها، لا يغفل عن صاحبه، و لا ينسى حاجته حتى يقضيها، و يلازم الوفاء لأصحابه و يحسن معاشرتهم، و يعرف أحوال الناس على طبقاتهم، و يعظم العلم و يكرم الأيتام و يشفق على الضعفاء و الأرامل، و يبذل شفاعته فى قضاء حوائج الخاص و العام من غير أن يملّ، و لا يتبرّم بكثرة ذلك، و يكثر من الإيثار فى السرّ، و لا يمسك لنفسه شيئا، و يستقلّ ما منه مع كثرة إحسانه، و يستكثر ما يدفع إليه و إن كان يسيرا، و يكافىء عليه بأحسن منه، و لم يصحب قط، أميرا و لا وزيرا بل كان فى سلوكه و طريقه يرفع فى تواضع و يعزز مع مسكنة، و قرب فى ابتعاد، و اتصال فى انفصال، و زهد فى الدنيا، و أهلها، و كان أكبر من خبره، و من دعائه لنفسه و لمن يسأل له الدعاء: اللهم بعّدنا عن الدنيا و أهلها، و بعّدها عنا، و ما زال على ذلك إلى أن مات آخر ليلة أسفر صباحها عن الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس و تسعين و ستمائة، و ترك و لدين ليس لهما قوت ليلة، و عليه مبلغ ألفى درهم دينا، و دفن بجوار الجامع، و قبره يزار إلى يومنا هذا.

ذكر شطا

شطا: مدينة عند تنيس و دمياط، و إليها تنسب الثياب الشطوية، و يقال: إنها عرفت بشطا بن الهاموك، و كان أبوه خال المقوقس، و كان على دمياط، فلما فتح اللّه الحصن على يد عمرو بن العاص، و استولى على أرض مصر، جهز بعثا لفتح دمياط، فنازلوها إلى أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤١٧

ملكوا سور المدينة، فخرج شطا فى ألفين من أصحابه، و لحق بالمسلمين، و قد كان قبل ذلك يحب الخير، و يميل إلى ما يسمعه من سيرة أهل الإسلام.

و لما ملك المسلمون دمياط، امتنع عليهم صاحب تنيس، فخرج شطا إلى البرلس و الدميرة و أشموم طناح يستنجد، فجمع الناس لقتال أهل تنيس، و سار بهم من كان بدمياط من المسلمين، و من قدم مددا من عند عمرو بن العاص إلى قتال أهل تنيس، فالتقى الفريقان، و أبلى شطا منهم بلاء حسنا، و قتل من أبطال تنيس اثنى عشر رجلا، و استشهد فى ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة إحدى و عشرين من الهجرة، فقبر حيث هو الآن خارج دمياط، و بنى على قبره، و صار الناس يجتمعون هناك فى ليلة النصف من شعبان كل عام، و يغدون للحضور من القرى، و هم على ذلك إلى يومنا هذا، و كانت تعمل كسوة الكعبة بشطا.

قال الفاكهىّ: و رأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين، هارون الرشيد من قباطىّ مصر مكتوبا عليها: بسم اللّه بركة من اللّه لعبد اللّه هارون أمير المؤمنين، أطال اللّه بقاءه، مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا، كسوة الكعبة سنة إحدى و تسعين و مائة.

و من المواضع المشهورة بدمياط: البرزخ: و هو مسجد بحيرة دمياط تسميه العامّة البرزخ، و لا أعرف مستندهم فى ذلك، و شاهدت فيه عجبا، و هو أنّ به منارة كبيرة مبنية من الآجرّ إذا هزّها أحد، اهتزت، فلما صعدت أعلاها حيث يقف المؤذنون، و حرّكتها رأيت ظلها، قد تحرّك بتحريكى لها، و يوجد حول هذا المسجد، رمم أموات يشبه أن تكون ممن استشهد فى وقائع الفرنج، و اللّه يعلم و

أنتم لا تعلمون.

ديبق: قرية من قرى دمياط ينسب إليها الثياب المثقلة و العمائم الشرب الملوّنة، و الديبقىّ العلم المذهب، و كانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها، و يكون طول كل عمامة منها مائة ذراع، و فيها رقمات منسوجة بالذهب، فتبلغ العمامة من الذهب، خمسمائة دينار، سوى الحرير و الغزل.

و حدثت هذه العمائم و غيرها فى أيام العزيز بالله بن المعز سنة خمس و ستين و ثلثمائة، إلى أن مات فى شعبان سنة ست و ثمانين و ثلثمائة.

النحريرية: قرية من الأعمال الغربية أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر السعدى، نقيب الجيش فى أيام الناصر محمد بن قلاون، و بالغ فى عمارتها، فبلغت فى أيامه عشرة آلاف درهم فضة، ثم خرج عنها، فعمرت للسلطان، و اتسع أمرها حتى أنشئ فيها زيادة على ثلاثين بستانا، و وصل حكرها لكثرة سكانها إلى ألف درهم فضة لكل فدّان، و صارت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۱۸

بلدا كبيرا لعمل يبلغ فى السنة ما بين خراجىّ و هلالىّ ثلثمائة ألف درهم فضة عنها خمسة عشر ألف دينار ذهبا.

و مات سنقر هذا فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، و إليه تنسب المدرسة السعدية بخط حدرة البقر خارج باب زويلة.

جزيرة بنى نصر: منسوبة إلى بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، و ذلك أن بنى حماس بن ظالم بن جعيل بن عمرو بن درهمان بن نصير بن معاوية بن بكر بن هوازن، كانت لهم شوكة شديدة بأرض مصر، و كثروا حتى ملؤوا أسفل الأرض، و غلبوا عليها حتى قويت عليهم، قبيلة من البربر تعرف: بلواتة، و لواتة تزعم أنها من قيس، فأجلت بنى نصر، و أسكنها الجدار، فصاروا أهل قرى فى مكان عرف بهم وسط النيل، و هى جزيرة بنى نصر هذه.

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر و دمشق

اعلم: أن

البريد، أوّل من رتب دوابه الملك دارا بن بهمن بن كيبشتاسف بن كيهراسف، أحد ملوك الفرس.

و أما فى الإسلام، فأوّل من أقام البريد أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور، أقامه فيما بين مكة و المدينة و اليمن، و جعله بغالا و إبلا، و ذلك فى سنة ست و ستين و مائة.

و أصل هذه الكلمة، بريد ذنب، فإنّ دارا: أقام فى سكك البريد، دوابّ محذوفة الأذناب سميت بريد ذنب، و حذف منها نصفها الأخير فقيل: بريد، و هذا الدرب الذى يسلكه العساكر و التجار و غيرهم، من القاهرة على الرمل إلى مدينة غزة، ليس هو الدرب الذى يسلك فى القديم من مصر إلى الشام، و لم يحدث هذا الدرب الذى يسلك فيه من الرمل الآن إلا بعد الخمسمائة من سنى الهجرة، عند ما انقرضت الدولة الفاطمية.

و كان الدرب أوّلا- قبل استيلاء الفرنج على سواحل البلاد الشامية غير هذا، قال أبو عبيد اللّه بن عبد اللّه بن خرداذبه فى كتاب المسالك و الممالك و صفة الأرض و الطريق من دمشق إلى الكسوة : اثنا عشر ميلا، ثم إلى جاسم أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى فيق أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى طبرية مدينة الأردن ستة أميال، و من طبرية إلى اللجون عشرون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۱۹

ميلا، ثم إلى القلنسوة عشرون ميلا، ثم إلى الرملة مدينة فلسطين أربعة و عشرون ميلا، و الطريق من الرملة إلى أزدود اثنا عشر ميلا، ثم إلى غزة عشرون ميلا، ثم إلى العريش أربعة و عشرون ميلا فى رمل، ثم إلى الورادة ثمانية عشر ميلا، ثم إلى أم العرب عشرون ميلا، ثم إلى الفرما أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى جرير ثلاثون ميلا، ثم إلى القاصرة أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر

ميلا، ثم إلى بلبيس أحد و عشرون ميلا، ثم إلى الفسطاط مدينة مصر أربعة و عشرون ميلا، فهذا كما ترى. إنما كان الدرب المسلوك من مصر إلى دمشق، على غير ما هو الآن، فيسلك من بلبيس إلى الفرما فى البلاد التى تعرف اليوم ببلاد السباخ من الحوف، و يسلك من الفرما و هى بالقرب من قطية إلى أم العرب، و هى بلاد خراب على البحر، فيما بين قطية و الورادة، و يقصدها قوم من الناس، و يحفرون فى كيمانها، فيجدون دراهم من فضة خالصة ثقيلة الوزن، كبيرة المقدار، و يسلك من أم العرب، إلى الورادة و كانت بلدة فى غير موضعها الآن، قد ذكرت فى هذا الكتاب.

فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين و أربعمائة لأخذ البلاد من أيدى المسلمين، و أخذ بغدوين الشوبك و عمّره فى سنة تسع و خمسمائة، و كان قد خرب من تقادم السنين، و أغار على العريش، و هو يومئذ عامر، بطل السفر حينئذ من مصر إلى الشام، و صار يسلك على طريق البرّ مع العرب مخافة الفرنج إلى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، بيت المقدس من أيدى الفرنج فى سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة، و أكثر من الإيقاع بالفرنج، و افتتح منهم عدّة بلاد بالساحل، و صار يسلك هذا الدرب على الرمل، فسلكه المسافرون من حينئذ إلى أن ولى ملك مصر، الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فأنشأ بأرض السباخ على طرف الرمل بلدة عرفت إلى اليوم بالصالحية، و ذلك فى سنة أربع و أربعين و ستمائة، و صار ينزل بها و يقيم فيها، و نزل بها من بعده الملوك.

فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، رتب البريد فى سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام، و يعود فى مثلها، فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعة مرّتين، و يتحكم فى سائر ممالكه بالعزل و الولاية، و هو مقيم بالقلعة، و أنفق فى ذلك مالا عظيما حتى تم ترتيبه، و كان ذلك فى سنة تسع و خمسين و ستمائة، و ما زال أمر البريد مستمرّا فيما بين القاهرة و دمشق، يوجد بكل مركز من مراكزه عدّة من الخيول المعدّة للركوب، و تعرف بخيل البريد، و عندها عدّة سوّاس، و للخيل رجال يعرفون بالسوّاقين، و أحدهم سوّاق يركب مع رسم بركوبه، خيل البريد ليسوق له فرسه، و يخدمه مدّة مسيره، و لا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطانىّ، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۲۰

و تارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطانىّ، و كانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد و علف و غيره و لكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة، أو ماشية، لا تحمل زادا و لا ماء.

فلما أخذ تيمور لنك دمشق، و سبى أهلها، و حرّقها فى سنة ثلاث و ثمانمائة، خربت مراكز البريد، و اشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن، و ما دهوا به من كثرة الفتن عن إقامة البريد، فاختلّ بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشا، و الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا، و هو سنة ثمان عشرة و ثمانمائة.

ذكر مدينة حطين

هذه المدينة: آثارها إلى اليوم باقية، فيما بين حبوة، و العاقولة بأرض العاقولة، فيما بين قطية، و العريش، تجاهها بميل ماء عذب تسميه العرب: أبا العروق، و هو شرقيها، و هذه المدينة تنسب إلى حطين، و يقال: حطى بن الملك أبى جاد المدينى، و أهل قطية اليوم يسمون تلك الأرض، ببلاد حطين و الجفر، و ملك حطين هذا، أرض مصر بعد موت أبيه، و كان صاحب حرب و بطش، و كان ينزل بقلعة فى جبال الأردن قريبا من طبرية و إليه تنسب قرية حطين التى بها الآن قبر شعيب بالقرب من صفد.

ذكر مدينة الرقة

هذه المدينة: من جملة مدائن: مدين، فيما بين بحر القلزم و جبل الطور، كان بها عند ما خرج موسى عليه السلام، ببنى إسرائيل من مصر، قوم من لخم آل فرعون، يعبدون البقر، و إياهم عنى اللّه بقوله تعالى: وَ جاوَزْنا بِبَنِی إِسْرائِیلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلی قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلی أَصْنامٍ لَهُمْ [الأعراف/ ١٣٨] الآية.

قال قتادة: أولئك القوم من لخم، و كانوا نزولا بالرقة، و قيل: كانت أصنامهم تماثيل البقر، و لهذا أخرج لهم السامرىّ عجلا، و آثار هذه المدينة باقية إلى اليوم، فيما بقى من مدينة فاران، و القلزم، و مدين، و أيلة ، تمرّ بها الأعراب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۲۱

ذكر عين شمس

و كان يقال لها فى القديم: رعمساس، و كانت عين شمس، هيكلا يحج الناس إليه، و يقصدونه من أقطار الأرض فى جملة ما كان يحج إليه من الهياكل التى كانت فى قديم الدهر، و يقال: إنّ الصابئة أخذت هذه الهياكل عن عاد و ثمود، و يزعمون أنه عن شيث بن آدم، و عن هرمس الأوّل، و هو إدريس، و إن إدريس هو أوّل من تكلم فى الجواهر العلوية و الحركات النجومية، و بنى الهياكل و مجد اللّه فيها.

و يقال: إنّ الهياكل كانت عدّتها فى الزمن الغابر: اثنى عشر هيكلا، و هى هيكل:

العلة الأولى، و هيكل: العقل، و هيكل: السياسة، و هيكل: الصورة، و هيكل: النفس؛ و كانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات، و الهيكل السادس هيكل: زحل، و هو مسدّس، و بعده هيكل: المشترى و هو مثلث، ثم هيكل: المرّيخ، و هو مربع، و هيكل: الشمس، و هو أيضا مربع، و هيكل: الزهرة، و هو مثلث مستطيل، و هيكل: عطارد مثلث فى جوف مربع مستطيل، و هيكل: القمر مثمن.

و عللوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا: لما كان صانع العالم مقدّسا عن صفات الحدوث، وجب العجز عن إدراك جلاله، و تعين أن يتقرّب إليه عباده بالمقرّبين لديه، و هم:

الروحانيون ليشفعوا لهم، و يكونوا وسائط لهم عنده، و عنوا بالروحانيين: الملائكة، و زعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها، و هى هياكلها و أنه لا بدّ لكل روحانىّ من هيكل، و لا بدّ لكل هيكل من فلك، و أن نسبة الروحانىّ، إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد، و زعموا: أنه لا بدّ من رؤية المتوسط بين العباد، و بين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه، و يستفيد منه، ففزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات، فعرفوا بيوتها من الفلك، و عرفوا مطالعها و مغاربها و اتصالاتها، و ما لها من الأيام و الليالى، و الساعات و الأشخاص و الصور و الأقاليم، و غير ذلك مما هو معروف فى موضعه من العلم الرياضى.

و سموا هذه السبعة السيارة: أربابا و آلهة، و سموا: الشمس إله الآلهة و رب الأرباب، و زعموا أنها المفيضة على ألسنة أنوارها، و المظهرة فيها آثارها، فكانوا يتقرّبون إلى الهياكل تقرّبا إلى الرّوحانيين لتقرّبهم إلى البارى، لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين، و كلّ من تقرّب إلى شخص، فقد تقرّب إلى روحه.

و كانوا: يصلون لكل كوكب يوما، يزعمون أنه رب ذلك اليوم، و كانت صلاتهم فى ثلاثة أوقات: الأولى عند طلوع الشمس، و الثانية عند استوائها فى الفلك، و الثالثة عند

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۲۲

غروبها، فيصلون لزحل يوم السبت، و للمشترى يوم الأحد، و للمريخ يوم الاثنين، و للشمس يوم الثلاثاء، و للزهرة يوم الأربعاء، و لعطارد يوم الخميس، و للقمر يوم الجمعة.

و يقال: إنه كان ببلخ هيكل بناه: بنو حمير على اسم القمر لتعارض به الكعبة، فكانت الفرس تحجه و تكسوه الحرير، و كان اسمه: نوبهر، فلما تمجست الفرس، عملته بيت نار، و قيل للموكل بسدانته: برمك، يعنى والى مكة، و انتهت البرمكة إلى جد خالد جدّ جعفر

بن يحيى بن خالد، فأسلم على يد هشام بن عبد الملك، و سماه عبد اللّه، و خرّب هذا الهيكل، قيس بن الهيثم فى أوّل خلافة معاوية سنة إحدى و أربعين، و كان بناء عظيما حوله أروقة و ثلثمائة و ستون مقصورة لسكن خدّامه.

و كان بصنعاء، قصر غمدان من بناء الضحاك، و كان هيكل الزهرة، و هدم فى خلافة عثمان بن عفان.

و كان بالأندلس: فى الجبل الفارق بين جزيرة الأندلس، و الأرض الكبيرة، هيكل المشترى من بناء كلوبطرة بنت بطليموس.

و كان بفرغانة بيت يقال له: كلوسان هيكل للشمس، بناه بعض ملوك الفرس، الأول خرّبه المعتصم، و قد اختلف فيمن بنى هيكل عين شمس، و سأقص من أخباره ما لم أره مجموعا فى كتاب.

قال ابن وصيف شاه: و قد كان الملك، منقاوس إذا ركب، عملوا بين يديه التخاييل العجيبة، فيجتمع الناس، و يعجبون من أعمالهم، و أمر أن يبنى له هيكل للعبادة يكون له خصوصا، و يجعل فيه قبة فيها صورة الشمس و الكواكب، و جعل حولها أصناما، و عجائب، فكان الملك يركب إليه و يقيم فيه سبعة أيام، و جعل فيه عمودين زبر عليهما تاريخ الوقت الذى عمله فيه، و هما باقيان إلى اليوم، و هو الموضع الذى يقال له عين شمس، و نقل إلى عين شمس كنوزا و جواهر و طلسمات و عقاقير و عجائب، و دفنها بها و بنواحيها، و أقام ملكا بإحدى و تسعين سنة، و مات من الطاعون، و قيل: من سمّ، و عمل له ناوس فى صحراء الغرب، و قيل: فى غربىّ قوص، و دفن معه مصاحف الحكمة و الصنعة، و تماثيل الذهب و الجوهر، و من الذهب المضروب شىء كثير، و دفن معه تمثال روحانىّ الشمس من ذهب يلمع، و له جناحان من زبرجد، و صنم على صورة امرأته، و كان يحبها.

فلما ماتت، أمر أن تعمل صورتها فى الهياكل كلها، و عمل صورتها من ذهب بذؤابتين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٢٣

سوداوين، و عليها حلة من جواهر منظومة، و هى جالسة على كرسىّ، و كان يجعلها بين يديه فى كل موضع يجلس فيه يتسلى بذلك عنها، فدفنت هذه الصورة معه تحت رجليه كأنها تخاطبه.

و قال الحكيم الفاضل أحمد بن خليفة فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء:

و اشتاق فيثاغورس إلى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر، فورد على أهل مدينة الشمس المعروفة فى زماننا بعين شمس، فقبلوه قبولا كريما، و امتحنوه زمانا، فلم يجدوا عليه نقصا و لا تقصيرا، فوجهوا به إلى كهنة منف كى يبالغوا فى امتحانه، فقبلوه على كراهة و استقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيبا، و لا أصابوا له عثرة، فبعثوا به إلى أهل ديوسوس ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقا، و لا إلى إدحاضه سبيلا، ففرضوا عليه فرائض صعبة، كيما يمتنع من قبولها، فيدحضوه و يحرموه طلبته، مخالفة لفرائض اليونانين، فقبل ذلك، و قام به، فاشتدّ إعجابهم به، و فشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطانا على ضحايا الرب، و على سائر قرابينهم، و لم يعط ذلك لغريب قط.

و يقال: إنه كان للكواكب السبعة السيارة، هياكل تحج الناس إليها من سائر أقطار الدنيا، وضعها القدماء، فجعلوا على اسم كل كوكب هيكلا فى ناحية من نواحى الأرض، و زعموا أن البيت الأوّل هو الكعبة، و أنه مما أوصى إدريس الذى يسمونه هرمس الأوّل المثلث، أن يحج إليه، و زعموا أنه منسوب لزحل، و البيت الثانى بيت المرّيخ، و كان بمدينة صور من الساحل الشامىّ، و البيت الثالث للمشترى، و كان بدمشق، بناه جيرون بن سعد بن عاد، و موضعه الآن جامع بنى أمية، و البيت الرابع بيت الشمس بمصر، و يقال: إنه من بناء هرشيك أحد ملوك الطبقة الأولى من ملوك الفرس، و هو المسمى بعين شمس، و البيت الخامس بيت الزهرة، و كان بمنتيح، و البيت السادس بيت عطارد، و هو بصيدا من ساحل البحر الشامىّ، و البيت السابع بيت القمر، و كان بحرّان و يقال: إنه قلعتها، و يسمى المدوّر، و لم يزل عامرا إلى أن خرّبه التتر، و يقال: إنه كان هو هيكل الصابئة الأعظم. و قال شافع بن علىّ فى كتاب عجائب البلدان: و عين شمس مدينة صغيرة تشاهد سورها محدقا بها مهدوما، و يظهر من أمرها أنها كانت بيت عبادة، و فيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة ما يكون طول الصنم، بقدر ثلاثين ذراعا، و أعضاؤه فى تلك النسبة من العظم، و كل هذه

الأصنام قائمة على قواعد، و بعضها قاعد على نصبات عجيبة و إتقانات محكمة، و باب المدينة موجود إلى الآن، و على معظم تلك الحجارة تصاوير على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٢٤

شكل الإنسان و غيره من الحيوان، و كتابة كثيرة بالقلم المجهول، و قلما ترى حجرا خلا عن كتابة أو نقش أو صورة.

و في هذه المدينة، المسلتان المشهورتان، و تسميان مسلتي فرعون و صفة المسلة قاعدة مربعة طولها عشرة أذرع في مثلها عرضا في نحوها سمكا، قد وضعت على أساس ثابت في الأرض، ثم أقيم عليها، عمود مثلث مخروط ينيف طوله على مائة ذراع، يبتدئ من القاعدة ببسطة، قطرها خمسة أذرع، و ينتهي إلى نقطة، و قد لبّس رأسها بقلنسوة نحاس إلى نحو ثلاثة أذرع منها كالقمع، و قد تنزنجر بالمطر، و طول المدّة، و اخضرّ، و سال من خضرته على بسيط المسلة، و كلها عليها كتابات بذلك القلم، و كانت المسلتان قائمتين، ثم خربت إحداهما، و انصدعت من نصفها العظم الثقل، و أخذ النحاس من رأسها، ثم إنّ حولها من الأصنام شيئا كثيرا لا يحصى عدده على نصف تلك العظمى، أو يليها، و قلما يوجد في هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة، بل فصوصها بعضها على بعض، و قد تهدّم أكثرها، و إنما بقيت قواعدها.

و قال محمد بن إبراهيم الجزريّ في تاريخه: و في رابع شهر رمضان، يعني من سنة ست و خمسين و ستمائة: وقعت إحدى مسلتي فرعون التي بأراضي المطرية من ضواحي القاهرة، فوجدوا داخلها مائتي قنطار من نحاس، و أخذ من رأسها عشرة آلاف دينار.

و يقال: إنّ عين شمس، بناها الوليد بن دومع من الملوك العماليق، و قيل: بناها الريان بن الوليد، و كانت سرير ملكه.

و الفرس تزعم: أنّ هرشيك بناها.

و يقال: طول العمودين مائة ذراع، و قيل: أربعة و ثمانون ذراعا، و قيل: خمسون ذراعا.

و يقال: إنّ بخت نصر هو الذي خرّب عين شمس لما دخل إلى مصر.

و قال القضاعيّ: و عين شمس، و هي هيكل الشمس بها العمودان اللذان لم ير أعجب منهما، و لا من شأنهما، طولهما في السماء نحو من خمسين ذراعا، و هما محمولان على وجه الأرض، و بينهما صورة إنسان على دابة، و على رأسهما شبه الصومعتين من نحاس، فإذا جاء النيل، قطر من رأسيهما ما تستبينه و تراه منهما واضحا ينبع حتى يجري من أسافلهما، فينبت في أصلهما العوسج و غيره، و إذا دخلت الشمس دقيقة من الجدي، و هو أقصر يوم في السنة، انتهت إلى الجنوبيّ منهما، فطلعت عليه على قمة رأسه، و هما منتهى الميلين و خط الاستواء في الواسطة منهما، ثم خطرت بينهما ذاهبة، و جائية سائر السنة، كذا يقول أهل العلم بذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٢٥

و قال ابن سعيد في كتاب المغرب: و كانت عين شمس في قديم الزمان عظيمة الطول و العرض، متصلة البناء بمصر القديمة، حيث مدينة الفسطاط الآن، و لما قدم عمرو بن العاص، نازل عين شمس، و كان جمع القوم حتى فتحها.

و قال جامع السيرة الطولونية: كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعتدل الخلق، من كدّان أبيض محكم الصنعة يتخيل من استعرضه أنه ناطق، فوصف لأحمد بن طولون، فاشتاق إلى تأمّله، فنهاه ندوسة عنه، و قال: ما رآه وال قط إلا عزل، فركب إليه، و كان هذا في سنة ثمان و خمسين و مائتين، و تأمّله، ثم دعا بالقطاعين، و أمرهم باجتثاثه من الأرض، و لم يترك منه شيئا، ثم قال لندوسة خازنه: يا ندوسة من صرف منا صاحبه؟ فقال: أنت أيها الأمير، و عاش بعدها أحمد اثنتي عشرة سنة أميرا. و بني العزيز بالله نزار بن المعز قصورا بعين شمس.

و قال أبو عبيد البكريّ: عين شمس، بفتح الشين و إسكان ثانيه بعده سين مهملة، عين ماء معروفة.

قال محمد بن حبيب: عين شمس حيث بني فرعون الصرح، و زعم قوم: أنّ عين شمس إلى هذا الماء أضيف، و أوّل من سمى هذا الاسم، سبا بن يشجب.

و ذكر الكلبيّ: أن شمسا الذى تسموا به صنم قديم.

و قال ابن خرداذبه: و أسطوانتين بعين شمس من أرض مصر، و من بقايا أساطين كانت هناك فى رأس كل أسطوانة: طوق من نحاس يقطر من إحداهما ماء من تحت الطوق إلى نصف الأسطوانة لا- يجاوزه، و لا- ينقطع قطره ليلا- و لا- نهارا، فموضعه من الأسطوانة أخضب رطب، و لا يصل الماء إلى الأرض، و هو من بناء أوسهنك.

و ذكر محمد بن عبد الرحيم فى كتاب تحفة الألباب: أنّ هذا المنار مربع علوه:

مائة ذراع قطعة واحدة محدّد الرأس على قاعدة من حجر، و على رأس المنار، غشاء من صفر كالذهب فيه صورة إنسان على كرسيّ، قد استقبل المشرق، و يخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر، ماء يسيل، مقدار عشرة أذرع، و قد نبت منه شيء كالطحلب، فلا يبرح لمعان الماء على تلك الخضرة أبدا صيفا و شتاء، لا ينقطع و لا يصل إلى الأرض منه شيء،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۲۶

و بعين شمس نبت يزرع كالقضبان يسمى البلسم، يتخذ منه دهن البلسان لا يعرف بمكان من الأرض إلا هناك، و تؤكل لحمى هذه القضبان، فيكون له طعم، و فيه حرارة، و حرافة لذيذة.

و بناحية المطرية من حاضرة عين شمس، البلسان، و هو شجر قصار يسقى من ماء بئر هناك، و هذه البئر، تعظمها النصارى و تقصدها، و تغتسل بمائها، و تستشفى به، و يخرج لاعتصار البلسان أوان إدراكه من قبل السلطان، من يتولى ذلك، و يحفظه و يحمل إلى الخزانة السلطانية، ثم ينقل منه إلى قلاع الشام، و المارستانات لمعالجة المبرودين، و لا يؤخذ منه شيء إلا من خزانة السلطان بعد أخذ مرسوم بذلك، و لملوك النصارى من الحبشة و الروم و الفرنج فيه غلوّ عظيم، و هم يتهادونه من صاحب مصر، و يرون أنهم لا يصح عندهم لأحد أن يتنصر إلا أن ينغمس فى ماء المعمودية، و يعتقدون أنه لا بدّ أن يكون فى ماء المعمودية شيء من دهن البلسان، و يسمونه: الميرون.

و كان فى القديم، إذا وصل من الشام خبر انتهى إلى صاحب عين شمس، ثم يرد من عين شمس إلى الحصن الذى عرف بقصر الشمع حيث الآن مدينة مصر، ثم يرد من الحصر إلى مدينة منف، حيث كانت منف تحت الملك.

و سبب تعظيم النصارى لدهن البلسان، ما ذكره فى كتاب السنكسار، و هو يشتمل على أخبار النصارى: أنّ المسيح لما خرجت به أمّه، و معهما يوسف النجار من بيت المقدس فرارا من هيرودس ملك اليهود، نزلت به أول موضع من أرض مصر، مدينة بسطة فى رابع عشرى بشنس، فلم يقبلهم أهلها، فنزلوا بظاهرها، و أقاموا أياما، ثم ساروا إلى مدينة سمنود، و عدّوا النيل إلى الغربية، و مشوا إلى مدينة الأشمونين، و كان بأعلاها إذ ذاك، شكل فرس من نحاس قائم على أربعة أعمدة، فإذا قدم إليها غريب صهل، فجاءوا و نظروا فى أمر القادم، فعندما وصلت مريم بالمسيح عليه السلام، إلى المدينة سقط الفرس المذكور، و تكسر فدخلت به أمّه، و ظهرت له عليه السلام فى الأشمونين آية، و هو أنّ: خمسة جمال محملة زاحمتهم فى مرورهم، فصرخ فيها المسيح فى الأشمونين، فصارت حجارة، ثم إنهم ساروا من الأشمونين، و أقاموا بقرية تسمى: فيلس مدّة أيام، ثم مضوا إلى مدينة تسمى:

قس و قام، و هى التى يقال لها اليوم: القوصية، فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التى بها، و قال: إنّ امرأة أتت، و معها ولدها يريدون أن يخربوا بيوت معابدكم، فخرج إليهم مائة رجل بسلاحهم، و طردوهم عن المدينة، فمضوا إلى ناحية ميرة فى غربيّ القوصية، و نزلوا فى الموضع الذى يعرف اليوم بدير المحرق، و أقاموا به ستة أشهر و أياما، فرأى يوسف النجار فى منامه قائلا يخبره بموت هيرودس، و يأمره أن يرجع بالمسيح إلى القدس، فعادوا من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف اليوم فى مدينة مصر بقصر الشمع، و أقاموا بمغارة تعرف اليوم بكنيسة بوسرجة، ثم خرجوا منها إلى عين شمس، فاستراحوا هناك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۲۷

بجوار ماء، فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح، و قد اتسخت، و صبت غسالتها بتلك الأراضى، فأنبت اللّه هنالك البلسان، و

كان إذ ذاك بالأردن، فانقطع من هناك، و بقى بهذه الأرض، و غمرت هذه البئر التى هى الآن موجودة هناك على ذلك الماء الذى غسلت منه مريم، و بلغنى أنها إلى الآن إذا اعتبرت يوجد ماؤها عينا جارية فى أسفلها، فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر و للبلسان، فإنه إنما سقى منها، و اللّه أعلم.

المنصورة

هذه البلدة على رأس بحر أشموم تجاه ناحية طلخا بناها: السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فى سنة ست عشرة و ستمائة عند ما ملك الفرنج، مدينة دمياط، فنزل فى موضع هذه البلدة، و خيم به، و بنى قصرا لسكناه، و أمر من معه من الأمراء و العساكر بالبناء، فبنى هناك عدّة دور و نصبت الأسواق و أدار عليها سورا مما يلى البحر، و ستره بالآلات الحربية و الستائر، و تسمى هذه المنزلة المنصورة، و لم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط، كما تقدّم ذكره عند ذكر مدينة دمياط من كتابنا هذا، فصارت مدينة كبيرة بها الحمامات و الفنادق و الأسواق، و لما استنقذ الملك الكامل دمياط من الفرنج، و رحل الفرنج إلى بلادهم جلس بقصره فى المنصورة و بين يديه إخوته الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، و الملك الأشرف موسى صاحب بلاد الشرق و غيرهما من أهله، و خواصه، فأمر الملك الأشرف جاريته، فغنت على عودها:

و لما طغى فرعون عكا و قومه و جاء إلى مصر ليفسد فى الأرض

أتى نحوهم موسى و فى يده العصا فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف، و قال لها: باللّه كرّرى، فشق ذلك على الملك الكامل، و أسكتها، و قال لجاريته: غنى أنت فأخذت العود، و غنت:

أيا أهل دين الكفرة قوموا لتنظروا لما قد جرى فى وقتنا و تجدّدا

أعباد عيسى إن عيسى و حزبه و موسى جميعا ينصران محمدا

و هذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة أوّلها: (أبى الوجد إلا أن أبيت مسهدا) فأعجب ذلك الملك الكامل، و أمر لكل من الجاريتين، بخمسمائة دينار، فنهض القاضى الصدر الأجل الرئيس هبة اللّه بن محاسن قاضى غزة و كان من جملة الجلساء على قدميه و أنشد يقول:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۲۸ هنيئا فإنّ السعد جاء مخلدا و قد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا مبينا و إنعاما و عزا مؤبدا

تهلل وجه الأرض بعد قطوبه و أصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

و لما طغى البحر الخضمّ بأهله الطغاة و أضحى بالمراكب مزبدا

أقام لهذا الدين من سلّ عزمه صقيلا كما سلّ الحسام المهندا

فلم ينج إلا كل شلو مجدّل ثوى منهم أو من تراه مقيدا

و نادى لسان الكون فى الأرض رافعا عقيرته فى الخافقين و منشدا

أعباد عيسى إنّ عيسى و حزبه و موسى جميعا ينصران محمدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة، من أحسن ليلة مرّت لملك من الملوك، و كان عند إنشاده يشير إذا قال عيسى إلى عيسى المعظم، و إذا قال موسى إلى موسى الأشرف، و إذا قال محمدا إلى السلطان الملك الكامل، و قد قيل: إنّ الذى أنشد هذه الأبيات إنما هو راجح المحلى الشاعر.

العباسة

هذه القرية فيما بين بلبيس و الصالحية، من أرض السدير لم يزل منتزها لملوك مصر، و بها ولد العباس بن أحمد بن طولون، فسماه لذلك أبوه العباس، و ولد بها أيضا الملك الأمجد تقىّ الدين عباس بن العادل أبى بكر بن أيوب، و كان الملك الكامل محمد بن العادل يقيم بها كثيرا، و يقول: هذه تعلو مصر إذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء، و السمك من الماء، و الوحش من الفضاء، و يصل الخبز من قلعة الجبل إلىّ بها فى قلعتى، و هو سخن، و بنى بها آدرا و مناظر و بساتين، و بنى أمراؤه بها أيضا عدّة مساكن فى البساتين، و لم تزل العباسة على ذلك حتى أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، المنزلة الصالحية، فتلاشى حينئذ أمر العباسة، و خربت المناظر فى سلطنة الملك المعز أيبك.

فلما كانت سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، مرّ على السدير، و هو فم الوادى، فأعجب به و بنى فى موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية، و أنشأ بها جامعا، و ذلك فى سنة ست و ستين و ستمائة.

و سميت: بالعباسة بنت أحمد بن طولون، فإنها خرجت إلى هذا الموضع مودّعة لبنت أخيها، قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما حملت إلى المعتضد، و ضربت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۲۹

هناك فساطيطها، ثم بنت قرية، فسميت باسمها.

ذكر مدينة قفط بصعيد مصر

هذه المدينة عرفت: بقفطريم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، و كانت فى الدهر الأوّل، مدينة الإقليم، و إنما بدا خرابها بعد الأربعمائة من تاريخ الهجرة النبوية، و آخر ما كان فيها بعد السبعمائة من سنى الهجرة، أربعون مسبكا للسكر، و ست معاصر للقصب، و يقال: كان فيها قباب بأعالى دورها، و كانت إشارة من ملك من أهلها عشرة آلاف دينار أن يجعل فى داره قبة، و بالقرب منها معدن الزمرّذ، و لم يبطل إلا من قريب، فإنّ قفطريم ولى الملك بعد أبيه قبطيم.

قال ابن وصيف شاه: كان أكبر ولد أبيه، و كان جبارا عظيم الخلق، و هو الذى وضع أساسات الأهرام الدهشورية و غيرها، و هو الذى بنى مدينة دندرة، و مدينة الأصنام، و هلكت عاد بالريح فى آخر أيامه، و أثار من المعادن ما لم يثره غيره، و كان يتخذ من الذهب مثل حجر الرحى، و من الزبرجد مثل الأسطوانة، و من الإسبادشم فى صحراء الغرب كالقلة، و عمل من العجائب شيئا كثيرا.

و بنى منارا عاليا على جبل قفط، يرى منه البحر الشرقىّ، و وجد هناك معدن زئبق، فعمل منه تمثالا كالعمود لا ينحلّ، و لا يذوب.

و عمل البركة التى سماها صيادة الطير إذا مرّ عليها طائر سقط فيها، و لم يقدر على الحركة، حتى يؤخذ، و هذه البركة يقال: إنها هناك إلى الآن، و أما المنار فسقط، و عمل عجائب كثيرة، و فى أيامه أثار عبادة الأصنام التى كان الطوفان غرّقها و زين الشيطان أمرها و عبادتها، و يقال: إنه بنى المدائن الداخلة، و عمل فيها عجائب، و بنى غربىّ النيل، و خلف الواحات الداخلة مدنا عمل فيها عجائب كثيرة، و وكل بها الروحانيين الذين يمنعون منها، فما يستطيع أحد أن يدنو إليها و لا يدخلها، إلا أن يعمل قرابين لأولئك الروحانيين، و أقام قفطريم ملكا أربعمائة و ثمانين سنة، و أكثر العجائب عملت فى وقته، و وقت ابنه، البودسير، و لذلك كان الصعيد أكثر عجائب من أسفل، لأنّ حيز قفطريم فيه.

و لما حضر قفطريم الوفاة عمل ناوسا فى الجبل الغربىّ قرب مدينة الكهان فى سرب تحت الأرض معقود على آزاج إلى الأرض، و نقر تحت الجبل، دارا واسعة، و جعل دورها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۳۰

خزائن منقورة، و فى سقفها مسارب للرياح، و بلط السرب، و جميع الدار بالمرمر، و جعل فى وسط الدار مجلسا على ثمانية أركان مصفحا بالزجاج الملوّن المسبوك، و جعل فى سقفه جواهر تسرج، و جعل فى كل ركن من أركان المجلس، تمثالا من الذهب بيده

كالبوق الذى يبوق به، و تحت القبة دكة مصفحة بذهب، و لها حواف من زبرجد، و فوق الدكة فرش من حرير، و جعل عليها جسد بعد أن لطخ بالأدوية المجففة، و وضع فى جانبه آلات كافور، و سدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، و وجهه مكشوف و على رأسه تاج مكلل، و عن جوانب الدكة أربعة تماثيل مجوّفات من زجاج مسبوك فى صور النساء بأيديهنّ مراوح من ذهب، و على صدره من فوق الثياب، سيف فاخر قائمته من زبرجد، و جعل فى تلك الخزائن من الذخائر و سبائك الذهب، و التيجان و الجوهر، و برابى الحكم، و أصناف العقاقير و الطلسمات و مصاحف العلوم، ما لا يحصى كثرة، و جعل على باب المجلس: ديكا من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين، مزبورا عليه آيات مانعة، و جعل على كل مدخل أزج، صورتين من نحاس بأيديهما سيفان، و قدّامهما بلاطة، تحتها لوالب من وطئها، ضرباه بأسيافهما، فقتلاه، و فى سقف كل أزج، كرة و عليها الطوخ مدبر يسرج، فيقد طول الزمان، و سدّ باب الأزج بالأساطين المرصصة، و رصوا على سقفه البلاط العظام، و ردموا فوقها الرمال، و زبروا على باب الأزج، هذا المدخل إلى جسد الملك المعظم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذى الأيد و الفخر و الغلبة و القهر، و أفل نجمه، و بقى ذكره و علمه، فلا يصل أحد إليه و لا يقدر بحيلة عليه، و ذلك بعد سبعمائة و سبعين و دورات مضت من السنين.

و قال المسعودىّ: و معدن الزمرّد فى عمل الصعيد الأعلى، من مدينة قفط، و منها يخرج إلى هذا المعدن، و الموضع الذى هو فيه يعرف: بالخربة، و هى مفازة و جبال، و البجة تحمى هذا المكان المعروف بالخربة، و إليها يؤدّى الخفارات من يرد إلى حفر الزمرّد، و وجدت جماعة من صعيد مصر من ذوى الدراية ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن، و عرف هذا النوع من الجوهر يخبرون أنه يكثر، و يقلّ فى فصول السنة، فيكثر فى قوّة موادّ الهواء، و هبوب نوع من الرياح الأربع، و تقوى الخضرة فيه، و الشعاع النورىّ فى أوائل الشهر، و الزيادة فى نور القمر، و بين الموضع المعروف بالخربة الذى فيه معدن الزمرّد، و بين ما اتصل من العمارة، و قرب منه من الديار مسيرة سبعة أيام، و هى قفط و قوص و غيرهما من صعيد مصر، و قوص راكبة النيل، و بين النيل و قفط نحو من ميلين.

و لمدينتى قفط و قوص أخبار عجيبة فى بدء عمارتهما، و ما كان فى أيام القبط من أخبارهما إلا أنّ مدينة قفط فى هذا الوقت، متداعية للخراب، و قوص أعمر و الناس فيها أكثر، و كان بقفط بربا موكل بها روحانىّ فى صورة جارية سوداء تحمل صبيا أسود صغيرا، حكى أنها رئيت بها مرارا، و معدن الزمرّذ فى البرّ المتصل بأسوان، و كان له ديوان فيه شهود

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج١، ص: ٤٣١

و كتاب، و ينفق على العمال به، و تنال لهم المؤن لحفره، و استخراج الزمرّذ منه، و هو فى جبال مرملة يحفر فيه، و ربما سقط على الجماعة به فماتوا. و كان يجمع ما يخرج منه، و يحمل إلى الفسطاط، و منه يحمل إلى البلاد، و قد كان الناس يسيرون من قوص إلى معدن الزمرّذ، فى ثمانية أيام بالسير المعتدل.

و كانت البجاه، تنزل حوله و قريبا منه لأجل القيام بحفره، و حفظه و هذا المعدن فى الجبل الآخذ على شرقىّ النيل فى بحرىّ قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى: اقرشندة، و ليس هناك من الجبال أعلى منها، و هو فى منقطع من البرّ لا عمارة عنده، و لا حوله و لا قريبا منه، و الماء عنه مسيرة نصف يوم أو أزيد، و هو ما يتحصل من المطر، و يعرف بغدير أعين يكثر بكثرة المطر، و يقلّ بقلته، و هذا المعدن فى صدر مفازة طويلة فى حجر أبيض يستخرج منه الزمرّذ، و هذا الحجر الأبيض، ثلاثة أنواع أحدها يقال له: طلق كافورىّ، و الثانى يقال له: طلق فضىّ، و الثالث يقال له: حجر جروىّ، و يضرب فى هذه الحجارة، حتى يخرج الزمرّذ، و هو كالغريق فيه، و أنواعه الريانىّ، و هو أقلّ من القليل لا يخرج إلا فى النادر، و إذا استخرج ألقى فى الزيت الحار، ثم يحط فى قطن، و يصرّ ذلك القطن فى خرق خام أو نحوها، و كان الاحتراز على هذا المعدن كثير جدّا، و يفتش الفعلة عند الخروج منه كل يوم، حتى تفتش عوراتهم، و مع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم فى ذلك، و لم يزل هذا المعدن يستخرج منه الزمرّذ إلى أن أبطل العمل منه الوزير الصاحب علم الدين عبد اللّه بن زنبور فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى سنة بضع و ستين و سبعمائة.

و فى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، كانت فتنة كبيرة بمدينة قفط، سببها أنّ داعيا من بنى عبد القوى، ادّعى أنه داود بن العاضد،

فاجتمع الناس عليه، فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب على جيش، فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف، و صلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم، و طيالستهم.

ذكر مدينة دندرة

هى إحدى مدن الصعيد الأعلى القديمة بناها قفطريم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، و كا فيها بربا عظيمة، فيها: مائة و ثمانون كوّة تدخل الشمس فى كل يوم من كوّة، حتى تأتى على آخرها، ثم تكرّ راجعة إلى حيث بدأت، و كانت روحانيتها الموكلة بها تظهر فى هيئة إنسان له رأس أسد بقرنين، و كان بها أيضا شجرة تعرف بشجرة العباس متوسطة، و أوراقها خضر مستديرة، إذا قال الإنسان عندها: يا شجرة العباس، جاءك الفاس، تجتمع أوراقها، و تحزن لوقتها، ثم تعود كما كانت، و بين دندرة، و بين قوص بريد واحد، و كانت بربا دندرة أعظم من بربا إخميم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٣٢

ذكر الواحات الداخلة

الواحات منقطعة وراء الوجه القبلىّ فى مغاربه، و لا تعدّ فى الولايات، و لا فى الأعمال، و لا يحكم عليها من قبل السلطان وال و إنما يحكم عليها من قبل مقطعها.

و بلاد الواحات بين مصر، و الإسكندرية، و الصعيد، و النوبة، و الحبشة بعضها داخل ببعض، و هو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره، و لا يفتقر إلى سواه، و أرضها شبية و زاجية، و عيون حامضة الطعم تستعمل كاستعمال الخل، و عيون مختلفة الطعوم من الحامض، و القابض، و المالح، و لكل نوع منها خاصية و منفعة، و هى على قسمين، واحات داخلة، و واحات خارجة جملتها أربع واحات.

و يقال: إنّ الواحات ولدوا حويلا بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، و إنّ أخر سبا بن كوش، أبو الحبش، و أبو شنبا بن كوش، أبو زغاوة، و أبو شفحيا بن كوش:

أبو الحبش الرمرم.

قال ابن وصيف شاه و يقال: إنّ قفطريم بنى المدائن الداخلة، و عمل فيها عجائب منها الماء القائم كالعمود، لا ينحلّ، و لا يذوب و البركة التى تسمى فلسطين، أى صيادة الطير، إذا مرّ عليها الطير سقط فيها، و لم يمكنه الخروج منها، حتى يؤخذ، و عمل أيضا عمودا من نحاس عليه صورة طائر إذا قرب الأسد أو الحيات أو غيرها من الأشياء المضرّة من تلك المدينة صفر تصفيرا عاليا، فترجع تلك الدواب هاربة، و عمل على أربعة أبواب هذه المدينة، أربعة أصنام من نحاس لا يقرب منها غريب إلا ألقى عليه النوم، و السبات، فينام عندها، و لا يبرح حتى يأتيه أهل المدينة، و ينفخون فى وجهه ليقوم، و إن لم يفعلوا ذلك لا يزال نائما عند الأصنام، حتى يهلك.

و عمل منارا لطيفا من زجاج ملوّن على قاعدة من نحاس، و عمل على رأس المنار صورة صنم من أخلاط كثيرة، و فى يده كالقوس كأنه يرمى عنها، فإن عاينه غريب وقف فى موضعه، و لم يبرح حتى ينحيه أهل المدينة، و كان ذلك الصنم، يتوجه إلى مهب الرياح الأربع من نفسه، و قيل: إن هذا الصنم على حاله إلى الآن، و إنّ الناس تحاموا تلك المدينة على كثرة ما فيها من الكنوز و العجائب الظاهرة خوفا من ذلك الصنم أن تقع عين إنسان عليه، فلا يزال قائما حتى يتلف، و كان بعض الملوك، عمل على قلعه فما أمكنه، و هلك لذلك خلق كثير.

و يقال: إنه عمل فى بعض المدائن الداخلة مرآة، يرى فيها جميع ما يسأل الإنسان عنه، و بنى غربىّ النيل، و خلف الواحات الداخلة مدنا عمل فيها عجائب كثيرة، و وكل الروحانيين بها الذين يمنعون منها، فما يستطيع أحد أن يدنو إليها و لا يدخلها، أو يعمل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٣٣

قرابين أولئك الروحانيين، فيصل إليها حينئذ، و يأخذ من كنوزها ما أب من غير مشقة، و لا ضرر، و بنى الملك صا بن الساد، و قيل: صا بن مرقونس بداخل الواحات مدينة، و غرس حولها نخلا كثيرا، و كان يسكن منف، و ملك الأحياز كلها، و عمل عجائب و طلسمات، و ردّ الكهنة إلى مراتبهم، و نفى الملهيين، و أهل الشرّ ممن كان يصحب الساد بن مرقونس، و جعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم، و عمل على غربىّ النيل منابر يوقد عليها إذا حزبهم أمر، أو قصدهم قاصد.

و كان لما ملك البلد بأسره، جمع الحكماء إليه، و نظر فى نجومه، و كان بها حاذقا، فرأى أن بلده لا بدّ أن تغرق بالطوفان من نيلها، و رأى أنها تخرب على يد رجل يأتى من ناحية الشام، فجمع كل فاعل بمصر، و بنى فى ألواح الأقصى مدينة، جعل طول حصنها فى الارتفاع خمسين ذراعا، و أودعها جميع الحكم، و الأموال، و هى المدينة التى وقع عليها، موسى بن نصير فى زمن بنى أمية، لما قدم من المغرب، فلما دخل مصر أخذ على ألواح الأقصى، و كان عنده علم منها، فأقام سبعة أيام يسير فى رمال بين الغرب و الجنوب، فظهرت له مدينة عليها حصن و أبواب من حديد، فلم يمكنه فتح الأبواب، و كان إذا صعد إليها الرجال، و علوا الحصن، و أشرفوا على المدينة ألقوا أنفسهم فيها، فلما أعياه أمرها مضى و هلك من أصحابه عدّة.

قال: و فى تلك الصحارى كانت منتزهات القوم، و مدنهم العجيبة، و كنوزهم إلا أنّ الرمال غلبت عليها، و لم يبق يملك ملك إلا و قد عمل للرمل طلسما لدفعه، ففسدت طلسماتها لقدم الزمان، قال: و لا ينبغى لأحد أن ينكر كثرة بنيانهم، و لا مدائنهم، و لا ما نصبوه من الأعلام العظام، فقد كان للقوم بطش لم يكن لغيرهم، و إنّ آثارهم لبينة مثل الأهرام و الأعلام و الإسكندرية، و ما فى صحارى الشرق و الجبال المنحوتة التى جعلوا كنوزهم فيها، و الأودية المنحوتة، و مثل ما بالصعيد من البرابى و ما نقشوه عليها من حكمتهم، فلو تعاطى جميع ملوك الأرض أن يبنوا مثل الهرمين، ما تهيأ لهم، و كذلك أن ينقشوا بربا لطال بهم الأمد و لم يمكنهم.

و حكى عن قوم من البنائين فى ضياع الغرب، أنّ عاملا عندهم عنف بهم، ففرّوا فى صحراء الغرب، و معهم زاد إلى أن تنصلح أحوالهم، و يرجعوا، فلما كانوا على مسيرة يوم و بعض آخر قدموا إلى سفح جبل، فوجدوا عيرا أهليا قد خرج من بعض الشعاب، فتبعه بعضهم، فانتهى إلى مساكن و أشجار، و نخل و مياه تطرد و قوم هناك يرعون، و لهم مساكن، و كلمهم و أعجب بهم، فجاء إلى أصحابه، و قدم بهم على أولئك القوم، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم، و أقاموا عندهم حتى صلحت أحوالهم و خرجوا ليأتوا بأهاليهم و مواشيهم، و يقيموا عندهم، فساروا مدّة، و هم لا يعرفون الطريق، و لا يتأتى لهم العود فأسفوا على ما فاتهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۳۴

و ضلّ آخرون عن الطريق فى الغرب فوقعوا على مدينة عامرة كثيرة الناس، و المواشى و النخل و الشجر، فأضافوهم و أطعموهم و سقوهم و باتوا فى طاحونة، فسكروا من الشراب، و ناموا فلم ينتبهوا إلا من حرّ الشمس، فإذا هم فى مدينة خراب ليس فيها أحد، فخافوا، و خرجوا، و ظلوا يومهم سائرين إلى المساء، فظهرت لهم مدينة أكبر من الأولى، و أعمر و أكثر أهلا و شجرا و مواشى، فأنسوا بهم، و أخبروهم بخبر المدينة الأولى، فجعلوا يعجبون منهم، و يضحكون و انطلقوا بهم إلى وليمة لبعض أهل المدينة، فأكلوا و شربوا و عنوا بهم، حتى سكروا، فلما كان من الغد انتبهوا فإذا هم فى مدينة عظيمة ليس فيها أحد و حولها نخل قد تساقط ثمره، و تكدّس، فخرجوا و هم يجدون ريح الشراب، و مبادى الخمار، فساروا يوما إلى المساء و إذا راع يرعى غنما، فسألوه عن الطريق؟ فدلهم، فساروا بعض يوم من الغد، فوصلوا مدينة الأشمونين بالصعيد.

قال: و هذه مدائن القوم الداخلة القديمة قد غلب عليها الجانّ، و منها ما سترته عن العيون، فلا ينظر إليها أحد، و قال: إنّ البودسير بن قفطريم بن قبطيم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام فى أيامه بنيت بصحراء الغرب منابر و منتزهات، و حوّل إليها جماعة من أهل بيته، فعمروا تلك النواحى، و بنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عامرة كلها، و أقامت على ذلك مدّة كثيرة، فخالطهم البربر، و نكحوا منهم، ثم تحاسدوا، فكانت بينهم حروب خربت فيها تلك الجهات، و بادت إلا بقية منازل تسمى: الواحات.

ذكر مدينة سنتريّة

و مدينة سنتريّة: من جملة الواحات بناها: مناقيوش بانى مدينة إخميم، كان أحد ملوك القبط القدماء، قال ابن وصيف شاه: و كان فى حزم أبيه، و حنكته تعظم فى أعين أهل مصر، و هو أوّل من عمل الميدان و أمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه.

و أوّل من عمل المارستان لعلاج المرضى، و الزمنى، و أودعه العقاقير، و رتب فيه الأطباء، و أجرى عليهم ما يسعهم، و أقام الأمناء على ذلك، و صنع لنفسه عيدا، فكان الناس يجتمعون إليه فيه، و سماه عيد الملك فى يوم من السنة، فيأكلون، و يشربون سبعة أيام، و هو مشرف عليهم من مجلس على عمد، قد طوّقت بالذهب، و ألبست فاخر الثياب المنسوجة بالذهب، و عليه قبة مصفحة من داخل بالرخام و الزجاج و الذهب، و فى أيامه بنيت: سنترية فى صحراء الواحات، عملها من حجر أبيض مربعة، و فى كل حائط باب فى وسطه شارع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٣٥

إلى حائط محاذ له، و جعل فى كل شارع يمنة و يسرة أبوابا تنتهى طرقاتها إلى داخل المدينة.

و فى وسط المدينة، ملعب يدور به من كل ناحية سبع درج، و عليه قبة من خشب مدهون على عمد عظيمة من رخام، و فى وسطه: منار من رخام عليه، صنم من صوّان أسود يدور مع الشمس بدورانها، و بسائر نواحى القبة، صورة معلقة تصفر، و تصيح بلغات مختلفة، فكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب، و حوله بنوه و أقاربه، و أبناء الملوك، و على الدرجة الثانية، رؤساء الكهنة و الوزراء، و الثالثة رؤساء الجيش، و على الرابعة الفلاسفة و المنجمون و الأطباء و أرباب العلوم، و على الخامسة أصحاب العمارات، و على السادسة أصحاب المهن، و على السابعة العامّة.

فيقال: لكل صنف منهم انظروا إلى من دونكم، و لا تنظروا إلى من فوقكم لا تلحقونهم، و هذا ضرب من التأديب، و قتلته امرأته بسكين، فمات، و كان ملكه ستين سنة.

و سنترية الآن بلد صغير يسكنه نحو ستمائة رجل من البرّ يعرفون سيوة، و لغتهم تعرف بالسيوية تقرب من لغة زنانة، و بها حدائق نخل و أشجار من زيتون و تين و غير ذلك و كرم كثير، و بها الآن نحو العشرين عينا تسيح بماء عذب، و مسافتها من الإسكندرية أحد عشر يوما، و من جيزة مصر أربعة عشر يوما و هى قرية يصيب أهلها الحمى كثيرا، و ثمرها غاية فى الجودة، و تعبث الجنّ بأهلها كثيرا، و تختطف من انفرد منهم، و تسمع الناس بها عزيف الجنّ!.

ذكر الواحات الخارجة

بناها أحد ملوك القبط الأول، و يقال له: البودسير بن قفطيم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، قال ابن وصيف شاه: و أراد البودسير أن يسير مغرّبا لينظر إلى ما هنالك، فوقع على أرض واسعة متخرّقة بالمياه و العيون، كثيرة العشب، فبنى فيها منابر و منتزهات، و أقام فيها جماعة من أهل بيته، فعمروا تلك النواحى، و بنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عمارة كلها، و أقامت كذلك مدّة كثيرة، و خالطهم البربر، فنكح بعضهم من بعض، ثم إنهم تحاسدوا، و بغى بعضهم على بعض، فكانت بينهم حروب، فخرب ذلك البلد، و باد أهله إلا بقية منازل تسمى الواحات.

و قال المسعودىّ: و أما بلاد الواحات فهى بين بلاد مصر و الإسكندرية و صعيد مصر و الغرب و أرض الأحابش من النوبة و غيرهم، و بها أرض شبية و زاجية، و عيون حامضة، و غير ذلك من الطعوم.

و صاحب الواحات فى وقتنا هذا، و هو سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثمائة، عبد الملك بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٣٦

مروان، و هو رجل من لواتة إلا أنه مروانىّ الذهب، و يركب فى آلاف من الناس خيلا و نجبا، و بينه و بين الأحابش نحو من ستة أيام،

و كذلك بينه و بين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة، و فى أرضه خواص و عجائب، و هو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره، و لا يفتقر إليه، و يحمل من أرضه التمر و الزبيب و العناب.

و حدّثنى وكيل أبى الشيخ المعز حسام الدين عمرو بن محمد بن زنكى الشهرزورى:

أنه سمع ببلاد الواحات، أنّ فيها شجرة تاريخ يقطف منها فى سنة واحدة أربعة عشر ألف حبة نارنج صفراء، سوى ما يتناثر، و سوى ما هو أخضر، فلم أصدّق ذلك لغرابته، و قمت حتى شاهدت الشجرة المذكورة، فإذا هى كأعظم ما يكون من شجر الجميز بمصر و أكبر، و سألت مستوفى البلد عنها، فأحضر إلىّ جرائد حسباناته و تصفحها حتى أوقفنى على أن منها فى سنة كذا قطف من النارنجة اللانية، أربعة عشر ألف حبة نارنج مستوية صفراء، سوى ما بقى عليها من الأخضر، و سوى ما تناثر منها و هو صغير.

و بالواحات الشبّ الأبيض بواد تجاه مدينة أدفو كان فى زمن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر، و فى زمن ابنه الصالح نجم الدين أيوب على مقطعى الواحات حمل ألف قنطار شب أبيض فى كل سنة إلى القاهرة، و يطلق لهم فى نظير ذلك جوالى الواحات، ثم أهمل هذا فبطل.

و فى سنة تسع و ثلاثين و ثلثمائة، سار ملك النوبة فى جيش عظيم إلى الواحات، فأوقع بأهلها، و قتل منها، و أسر كثيرا.

ذكر مدينة قوص

اعلم: أنّ قوص أعظم مدائن الصعيد، و هى على النيل بنيت بعد قفط فى أيام ملك من ملوك القبط الأول يقال له: سدان بن عديم بن البودسير بن قفطريم.

قيل: سميت باسم قوص بن قفط بن أخميم بن سيفاف بن أشمن بن مصر، قال ابن وصيف شاه: سدان بن عديم، هو الذى بنى الأهرام الدهشورية من الحجارة التى قطعت فى زمان أبيه، و عمل مصاحف النيرنجات، و هيكل أرمنت، و عمل فى المدائن الداخلة من أنصنا هيكلا، و أقام فيه فى أتريب، و هيكلا فى شرقىّ الإسكندرية، و بنى فى الجانب الشرقىّ مدائن، و فى أيامه بنيت قوص العالية، و أسكن فيها قوما من أهل الحكمة، و أهل الصناعات، و كان الحبش و السودان، قد عاثوا فى بلده، فأخرج لهم، ابنه منقاوش فى جيش عظيم، فقتل منهم، و سبى، و استعبد الذين سباهم، و صار ذلك سبّة لهم، و اقتطع معدن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٣٧

الذهب من أرضهم، و أقام ذلك السبى يعملون فيه، و يحملون الذهب إليه، و هو أوّل من أحب الصيد، و اتخذ الجوارح، و ولد الكلاب السلوقية من الذئاب و الكلاب الأهلية، و عمل من العجائب و الطلسمات لكل فنّ ما لا يحصى كثرة.

و قال الأدفوىّ فى تاريخ الصعيد: و قوص بجانب قفط، حكى بعض المؤرخين: أنها شرعت فى العمارة، و شرعت قفط فى الخراب من سنة أربعمائة.

قيل: إنه حضر مرّة قاضى قوص، فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة إلى لقائه.

و فى شهر رمضان سنة اثنتين و ستين و ستمائة، أحضر إلى الملك الظاهر بيبرس فلوس، وجدت مدفونة بقوص، فأخذ منها فلس، فإذا على أحد وجهيه، صورة ملك واقف، و فى يده اليمنى ميزان، و فى اليسرى سيف، و على الوجه الآخر رأس فيه أذن كبيرة، و عين مفتوحة، و بدائر الفلس، كتابة، فقرأها راهب يونانىّ، فكان تاريخه، إلى وقت قراءته، ألفين و ثلثمائة سنة، و فيه أنا غليات الملك ميزان العدل و الكرم فى يمينى لمن أطاع، و السيف فى يسارى لمن عصى، و فى الوجه الآخر، أنا غليات الملك، أذنى مفتوحة لسماع المظلوم، و عينى مفتوحة أنظر بها مصالح ملكى.

و قوص، كثيرة العقارب و السام أبرص، و بها صنف من العقارب القتالات، حتى إنه كان يقال بها أكلة العقرب لأنه كان لا يرجى لمن لسعته حياة، و اجتمع بها مرّة فى يوم صائف على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفا واحدا، و كان الواحد من أهلها إذا مشى

فى الصيف ليلا خارج داره، يأخذ بإحدى يديه مسرجة تضىء له، و بالأخرى مشك من حديد يشك به العقارب، ثم إنها تلاشت بعد سنة ثمانمائة.

فلما كانت الحوادث و المحن، مات بها سبعة عشر ألف إنسان فى سنة ست و ثمانمائة، و كانت من العمارة بحيث إنه تعطل منها فى شراقى البلاد سنة ست و سبعين و سبعمائة، مائة و خمسون مغلقا، و المغلق عندهم بستان من عشرين فدّانا فصاعدا، و له ساقية بأربعة وجوه، و ذلک سوى ما تعطل مما هو دون ذلک، و هو كثير جدّا.

ذكر مدينة أسنا

قال الأدفوىّ: و ذكر أنّ أسنا فى سنة حصل منها، أربعون ألف إردب تمر، و اثنا عشر ألف إردب زبيب، و أسنا تشمل على ما يقارب ثلاثة عشر ألف منزل، و قيل: إنه كان بها فى وقت سبعون شاعرا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳۸

ذكر مدينة أدفو

و مدينة أدفو يقال بالدال المهملة، و يقال أيضا بالتاء المثناة من فوق. قال الأدفوىّ:

أخبرنى الخطيب العدل أبو بكر خطيب أدفو: أن جمارة طرحت، ثلاثة شماريخ فى كل شموخ تمرة واحدة، و أنه قلع الجمارة بأصلها، و وزنها فجاءت خمسة و عشرين درهما، كلها بجريدها و خشبها، و ذلک بأدفو.

و لما كان بعد سنة سبعمائة، حفر صناع الطوب، فظهرت صورة شخص من حجر شكل امرأة متربعة على كرسىّ، و عليها مثال شبكة، و فى ظهرها لوح مكتوب بالقلم اليونانىّ، رأيتها على هذه الحالة فى مدينة أدفو.

إهناس

هى كورة من كور الصعيد يقال: إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام، ولد بها، و إن نخلة مريم عليها السلام التى ذكرت فى قوله تعالى: وَ هُزِّی إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا [مريم/ ۲۵] لم تزل بها إلى آخر أيام بنى أمية، و الذى عليه الجماهرة أنّ عيسى عليه السلام إنما ولد بقرية بيت لحم من مدينة بيت المقدس و بإهناس شجر البنج.

ذكر مدينة البهنسا

هذه المدينة فى جهة الغرب من النيل بها تعمل الستور البهنسية، و ينسج المطرّز و المقاطع السلطانية، و المضارب الكبار، و الثياب المحبرة، و كان يعمل بها من الستور، ما يبلغ طول الستر الواحد ثلاثين ذراعا، و قيمة الزوج مائتا مثقال ذهب، و إذا صنع بها شىء من الستور و الأكسية، و الثياب من الصوف أو القطن، فلا بدّ أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا على ذلک مضوا جيلا بعد جيل.

و قبط مصر، مجمعون على أنّ المسيح و أمّه مريم كانا بالبهنسا، ثم انتقلا عنها إلى القدس.

و قال بعض المفسرين فى قوله تعالى عن المسيح و أمّه: وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ [المؤمنون/ ۵۰]، الربوة، البهنسا، و هذه المدينة بناها ملک من القبط يقال له:

مناوش بن منقاوش.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۱، ص: ۴۳۹

قال ابن وصيف شاه: و استخلف مناوش الملک فطلب الحكمة مثل أبيه، و استخرج كتبها، و أكرم أهلها، و بذل فيهم الجوائز، و طلب

الأغراب فى عمل العجائب، و كان كل من ملوكهم يجهد جهده فى أن يعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله، و ثبت فى كتبهم، و زبر على الحجارة فى تواريخهم.

و هو أوّل من عبد البقر من أهل مصر، و كان السبب فى ذلك أنه اعتلّ، علة يئس منه فيها، فرأى فى منامه صورة روحانىّ عظيم، يقول له: إنه لا يخرجك من علتك إلا عبادتك البقر، لأنّ الطالع كان وقت حلولها بك صورة ثور بقرنين، ففعل ذلك، و أمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة، و عمل له مجلسا فى قصره، و سقفه بقبة مذهبة، فكان ينجره، و يطيب موضعه، و كل به سائسا يقوم به، و يكنس تحته، و يعبد سرا من أهل مملكته، فبرأ من علته.

و هو أوّل من عمل العجل فى علته، فكان يركب عليها البيوت من فوقها قباب الخشب، و عمل ذلك من أحب من نسائه، و خدمه إلى المواضع، و المنتزهات، و كان البقر يجرّه، فإذا مرّ بمكان نزهة أقام فيه و إذا مرّ بمكان خراب أمر بعمارته، فيقال: إنه نظر إلى ثور من البقر الذى يجرّ عجلته أبلق حسن الشية، فأمر بترفيهه، و سوقه بين يديه إعجابا به، و جعل عليه جلا من ديباج، فلما كان فى يوم و قد خلا فى موضع صار إليه، و قد انفرد عن عبيده و خدمه، و الثور قائم إذ خاطبه الثور، و قال له: لو رفهنى الملك عن السير معه، و جعلنى فى هيكل و عبدنى، و أمر أهل مملكته بعبادتى، كفيته جميع ما يريد، و عاونته على أمره، و قوّيته فى مملكته، و أزلت عنه جميع علله، فارتاع لذلك، و أمر بالثور، فغسل و طيب، و أدخل فى هيكل، و أمر بعبادته، فأقام ذلك الثور يعبد مدّة، و صار فيه آية و هو أنه لا يبول و لا يروث و لا يأكل إلا أطراف ورق القصب الأخضر فى كل شهر مرّة، فافتتن الناس به، و صار ذلك أصلا لعبادة البقر، و بنى مواضع كنز فيها كنوزا، و أقام عليها أعلاما، و بنى فى صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس و أقام فيها منارا، و دفن حولها كنوزا.

و يقال: إن هذه المدينة قائمة، و إنّ قوما، جازوا بها من نواحى الغرب، و قد ضلوا الطريق، فسمعوا بها، عزيف الجنّ، و رأوا ضوءا يتراءى بها، و فى بعض كتبهم أنّ ذلك الثور بعد مدّة من عبادتهم له، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف، و يؤخذ من رأسه شعرات، و من ذنبه و من نحاتة قرونه و أظلافه، و يجعل فى التمثال المذكور، و عرّفهم أنه يلحق بعالمه، و أمرهم أن يجعلوا جسده فى جرن من حجر أحمر، و يدفن فى الهيكل، و ينصب تمثاله عليه، و زحل فى شرفه، و الشمس تنظر إليه من تثليث القمر زائد النور، و ينقش على التمثال علامات الكواكب السبعة، ففعلوا ذلك، و كلّلوه بجميع الأصناف من الجواهر، و جعلوا عينيه جزعتين، و غرسوا فى الهيكل عليه شجرة بعد ما دفنوه فى الجرن الأحمر، و بنوا منارا طوله ثمانون ذراعا على رأسه قبة تتلوّن كل يوم لونا، حتى تمضى سبعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۴۰

أيام، ثم تعود إلى اللون الأوّل، و كسوا الهيكل ألوان الثياب، و شقوا نهرا من النيل إلى الهيكل، و جعل حوله طلسمات رؤوسها رؤوس القرود على أبدان اناس، كل واحد منها لدفع مضرّة، و جلب منفعة، و أقام عند الهيكل، أربعة أصنام على أربعة أبواب، و دفن تحت كل صنم صنفا من الكنوز، و كتب عليها قربانها، و بخورها و أسكنها الشجرة، فكانت تعرف بمدينة الشجرة، و منها كانت أصناف الشجر تخرج و هو أوّل من عمل النيروز بمصر، و فى زمانه بنيت البهنسا، و أقم بها أسطوانات و جعل فيما فوقها مجلسا من زجاج أصفر عليه قبة مذهبة إذا طلعت الشمس ألقت شعاعها على المدينة.

و يقال: إنه ملكهم ثمانمائة و ثلاثين سنة، و دفن فى أحد الأهرام الصغار القبلية، و قيل: فى غربىّ الأشمونين، و دفن معه من المال و الجواهر و العجائب شيء كثير، و أصناف الكواكب السبعة التى يرى الدفين و الحية، و ألف سرج ذهبا و فضة، و عشرة آلاف جام و غضار من ذهب و فضة و زجاج، و ألف عقاقير لفنون الأعمال، و زبروا عليه اسمه و مدّة ملكه، و وقت موته.

و فى سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة، ظهر بالأشمونين فى واد بين جبلين، فساقى مربعة مملوءة ماء عذبا صافيا، فمشى شخص على حافتها طول يوم و ليلة، فلم يبلغ آخرها.

و يقال: إنها من عمل سوريد بانى الأهرام لتكون عدّة لما كانوا قد توقعوه من حدوث طوفان نارىّ، فردم هذا الوادى بعد ذلك خوفا

من تلاف الناس.

يقول الشيخ الإمام محمد بن أحمد الغريانيّ: حدّثنى علىّ بن حسن بن خالد الشعرىّ، ثلاث مرّات لم يختلف قوله علىّ فيها، قال: حدّثنى رجل من فزارة، الساكنين بكورة البهنسا قال: خرجت أنا و رجل رفيق لى نرتاد البلاد، و نطلب الرزق فى الأرض، و ذلك بعد سنة عشر و ثمانمائة، فقطعنا الجبل الغربىّ من ناحية البهنسا، و سرنا متوكلين على اللّه تعالى، فأقمنا أياما، و نحن نمشى ما بين الغرب و الجنوب، فوقعنا فى واد كثير الشجر و النبات و الماء و الكلأ ليس فيه أنيس، و هو واد واسع فى الطول و العرض، نحو يوم فى الطول، و يوم فى العرض، كله أعين و بساتين نخل و زيتون كثير الإبل و المعز، و الذئب و الضبع به كثير، و الإبل به متوحشة، و كذلك المعز قد صارت به وحشية بعد أن كانت آنسة به، و ليس بالوادى لا رائح، و لا غاد من الناس قال: فأخبرنى أنهما أقاما بالوادى نحوا من شهرين أو ثلاثة، و إنهما رأيا فى وسط الوادى، مدينة حصينة منيعة عالية السور شامخة القصور فإذا تقرّبا من سورها سمعا ضجيجا عظيما، و أصواتا مهولة مخوفة، و رأيا دخانا يرتفع إلى جوّ السماء، حتى يغطى سور المدينة، و جميع ما فيها، و إنّ تلك الإبل الوحشية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۴۱

عدت على رواحلهما الإنسية، فآذتها، و قتلتها فتحيل عند ذلك الرجلان الفزاريان بحيل، و فتلا حبالا و أشراكا شباكا من ليف النخل، و قيدا تلك الإبل الوحشية، و فتلا خوصا، و ضفرا قفاصا من الخوص لزادهما، و ملآها تمرا، و زللا من تلك الإبل الوحشية مكان رواحلهما عوضا عنها، و ركباها متوجهين نحو الشرق، و حملا معهما من الجريد أعنى جريد النخل ما يعرفان به الطريق التى بينهما و بينها، و يجعلان ذلك أمارات لمرورهما إليها، فكانا كلما مرّا على شرف جعلا عليه، جريدتين علما، حتى وصلا إلى الجبل الغربىّ من مصر، فنزلا إلى البهنسا، فعرّفا قومهما، و تحملا بأهاليهما، فلما علوا سطح الجبل الغربىّ، و جدا كلّ ما فرقاه من جريد النخل على رؤوس الآكام مجتمعا فى مكان واحد فى أعلى الجبل، فرجعا عند ذلك لأهاليهما، و من معهم إلى أرض البهنسا، و هذا ما حدّثنى به، و اللّه أعلم.

ذكر مدينة الأشمونين

كانت من أعظم مدن الصعيد، يقال: إنها من بناء أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

و قال ابن وصيف شاه: كان أشمون أعدل ولد أبيه، و أرغبهم فى صنعة تبقى، و يبقى ذكرها، و هو الذى بنى المجالس المصفحة بالزجاج الملوّن وسط النيل، و تقول القبط: إنه بنى سربا تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا تحت النيل، و قيل: إنه حفره، و عمله لبناته لأنهنّ كنّ يمضين إلى هيكل الشمس، و كان هذا السرب مبلط الأرض و الحيطان و السقف بالزجاج الثخين الملوّن.

و قيل: إنّ أشمون كان أطول إخوته ملكا.

و قال أهل الأثر: إنه ملك ثمانمائة سنة، و إنّ قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة من ملكه، و أقاموا تسعين سنة و استولوا على البلد، فانتقلوا إلى الدثنية من طريق الحجاز إلى وادى القرى، فعمروها، و اتخذوا بها المنازل، و المصانع و سلط اللّه عليهم الذر، فأهلكهم، و عاد ملك مصر إلى أشموم.

و يقال: إنه عمل على باب الأشمونين أوزة من نحاس، فكان الغريب إذا جاء ليدخل المدينة، صاحت الأوزة و صفقت بجناحيها، فيعلم به فإن أحبوا منعوه، و إن أحبوا تركوه، و كثرت الحيات فى وقته، فكانوا يصيدونها، و يعملون من لحومها، أدوية و ترياقات، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادى الحيات فى جبال لوبية و مراقية، فسجنوها هناك.

و قال فى كتاب هروشيش: إنّ أشمون بن قبط أوّل ملوك المصريين، و إنّه كان فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۴۲

زمان شاروح بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، و إن سنىّ الدنيا صارت إلى زمان شاروح، ألفين و

تسعمائة و خمس سنين يكون ذلك بعد الطوفان بستمائة و ثلاث و ستين سنة، و بها كانت فرهة الخيل، و البغال و الحمير، و كان يعمل بها فرش القرمز الذى يشبه الأرمنى.

و كان ينزل بأرض الأشمونين عدّة بطون من بنى جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و كانوا بادية أصحاب شوكة، و كان معهم بنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان خلفاء لهم، و معهم بطن آخر يقال لهم: إنّ أباهم كان مولى لعبد الملك بن مروان، و يزعمون أنهم من بنى أمية صلبية، و كان معهم أيضا حلفاء لهم بنو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ينزلون، أرض دلجة عند أشمون.

ذكر مدينة إخميم

ضبطها البكرى : بكسر الهمزة، و إسكان الخاء، ثم ميم و ياء و ميم على بناء إفعيل، و هى فى الجانب الشرقىّ من النيل، و الذى بناها مناقيوش أحد ملوك القبط الأول.

قال ابن وصيف شاه: كان جلدا محتكما، فاستأنف العمارة و بنى القرى، و نصب الأعلام، و جمع الحكم، و مصاحف الملوك و الحكماء، و عمل العجائب، و بنى لنفسه مدينة انفرد بها، و عمل عليها حصنا، و نصب عليه أربعة أعلام فى كل ركن من أركانه علم، و بين تلك الأعلام ثمانون صنما من نحاس، و أخلاط فى أيديهما السلاح، و زبر على صدرها آياتها.

و كان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر، و أبصرهم بأخذ التماسيح و السباع، و كان يعلم الغلمان السحر، فإذا حذقوا علّم غيرهم، فأمر الملك أن يبنى له مدينة، و يحوّل إليها و هى إخميم، فملكهم مناقيوش نيفا و أربعين سنة و مات، فدفن فى الهرم المحاذى لأطفيح، و معه شيء كثير من المال و الجوهر و الآنية و التماثيل، و زبر عليه اسمه، و الوقت الذى هلك فيه، قال: و ذكر أهل إخميم: أنّ رجلا أتى من الشرق و كان يلزم البربا، و يأتى إليه كل يوم ببخور، و خلوق فيبخر، و يطيب صورة فى عضادة الباب، فيجد تحتها دينارا، فيأخذه، و ينصرف ففعل ذلك مدّة حتى وشى به غلام له إلى عامل البلد، فقبض عليه، فبذل مالا و خرج عن البلد.

و كانت بربا إخميم من أعجب البرابى، و أعظمها قد بنيت لخزن برّهم فإنهم قضوا على أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرائن، لكنهم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: تكون نار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٤٣

فتحرق ماء على جميع وجه الأرض، و قال آخرون: بل يكون ماء، فعملوا هذه البرابى قبل الطوفان، و كان فى هذه البربا صور الملوك الذين يملكون مصر، و كانت مبنية بحجر المرمر، و طول كل حجر منها، خمسة أذرع فى سمك ذراعين، و هى سبعة دهاليز سقوفها حجارة طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع مدهونة باللازورد، و غيره من الأصباغ التى يحسبها الناظر، كأنما فرغ الدّهان منها الآن لجدتها، و كان كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السيارة، و جدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات و المقادير، فيها رموز علوم القبط من الكيمياء، و السيمياء، و الطلسمات، و الطب و النجوم، و الهندسة و غير ذلك، أودعوها تلك الصور.

و ذكر ابن جبير فى رحلته: أنّ طول هذه البربا مائتا و عشرون ذراعا، وسعتها مائة و سبعون ذراعا، و أنها قائمة على أربعين، سارية سوى الحيطان دور كل سارية خمسون شبرا، و بين كل ساريتين ثلاثون شبرا، و رؤوسها فى نهاية العظم كلها منقشة من أسفلها إلى أعلاها، و من رأس كل سارية إلى الأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت، فيها ما ذرعه ستة و خمسون شبرا طولا فى عرض عشرة أشبار، و ارتفاع ثمانية أشبار، و سطحها من ألواح الحجارة كأنها فرش واحد فيه التصاوير البديعة، و الأصبغة الغريبة كهيئة الطيور و الآدميين، و غير ذلك فى داخلها و خارجها، و عرض حائط البربا ثمانية عشر شبرا من حجارة مرصوصة، كذا قاسها ابن جبير فى سنة ثمان و سبعين و خمسمائة.

و يقال: إنّ ذا النون عرف منها، علم الكيمياء، و ما زالت هذه البربا قائمة إلى سنة ثمانين و سبعمائة، فخرّبها رجل من أهل إخميم يعرف: بالخطيب كمال الدين بن بكر الخطيب علم الدين عليّ، و نال منها مالا، فلم تطل حياته، و مات، و من حينئذ تلاشى أمر إخميم إلى أن خربت، و قد ذكر جماعة أنّ بربا إخميم كانت فى هيئة غلام أمرد عريان، و إنّ قوما دخلوها مرّة فتبعهم، و أخذ يضربهم ضربا وجيعا، حتى خرجوا هاربين، و حكى مثل ذلك عمن دخل الأهرام أيضا.

و قد حكى أنّ رجلا ألصق على صورة من بربا إخميم شمعة، فكان إذا تركها فى موضع التجأت العقارب إليها، و إذا وضع الشمعة فى تابوت اجتمعت العقارب حوله.

و يقال: إنه كان فى بربا إخميم شيطان قائم على رجل واحدة، و له يد واحدة، و قد رفعها إلى الهواء، و فى جبهته و حواليه كتابة، و له إحليل ظاهر ملتصق بالحائط، و كان يذكر أنّ من احتال، حتى ينقب على ذلك الإحليل حتى يخرجه، من غير أن ينكسر، و يعلقه على وسطه، فإنه لا يزال منغطا إلى أن ينزعه، و يجامع ما أحب، و لا يفتر ما دام معلقا عليه، و إنّ بعض من ولى إخميم اقتلعه، فوجد منه شيئا عجيبا من ذلك، و كانت الأنطاع تجلب من إخميم، و بها تعمل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۴۴

و يقال: إنه كان بها اثنا عشر ألف عريف على السحرة، و كان بها شجر البنج، و يقال:

إنّ الذى بنى بربا إخميم اسمه دومريا، و إنه جعل هذه البربا مثلا للأمم الآتية بعده، و كتب فيها تواريخ الأمم و الأجيال و مفاخرهم التى يفتخرون بها، و صوّر فيها الأنبياء و الحكماء، و كتب فيها من يأتى من الملوك إلى آخر الدهر، و كان بناؤه إياها و النسر برأس الحمل، و النسر يقيم عندهم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة.

قلت: و النسر فى زماننا بآخر باب برج الجدى، فيكون على ذلك لهذه البربا منذ بنيت نحو الثلاثين ألف سنة.

و ذكر أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحيم القيسىّ فى كتاب تحفة الألباب: أن هذه البربا مربعة من حجارة منحوتة، و لها أربعة أبواب يفضى كل باب إلى بيت له أربعة أبواب كلها مظلمة، و يصعد منها إلى بيوت كالغرف على قدرها.

ذكر مدينة العقاب

قال المسعودىّ: مدينة العقاب غربىّ أهرام أبو صير بالجيزة على مسيرة خمسة أيام بلياليها للراكب المجدّ، و قد عوّر طريقها، و عمى المسلك إليها، و السمت الذى يؤدّى نحوها، و فيها عجائب البنيان و الجواهر، و الأموال.

و قال ابن وصيف شاه: و كان الوليد بن دومع العمليقىّ، قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان، و يقهر ملوكها، فلما صار بالشام، وجه غلاما له يقال له: عون، فسار إلى مصر، و فتحها، ثم سار، فتلقاه عون و دخل مصر، فاستباح أهلها.

ثم سنح له أن يقف على مصب النيل، فخرج فى جيش كثيف، و استخلف عونا على مصر، و أقام فى غيبته أربعين سنة، و إنّ عونا بعد سبع سنين من مسيرة تجبر، و ادّعى أنه الملك، و أنكر أن يكون غلام الوليد و إنما هو أخوه، و غلب بالسحر، و سبى الحرائر فمال الناس إليه، و لم يدع امرأة من بنات ملوك مصر، إلا نكحها، و لا مالا إلا أخذه و قتل صاحبه، و هو مع ذلك يكرم الكهنة، و يعظم الهياكل، فاتفق أنه رأى الوليد فى منامه، و هو يقول له: من أمرك أن تتسمى باسم الملك؟ و قد علمت أنه من فعل ذلك استحق القتل، و نكحت بنات الملوك، و أخذت الأموال بغير واجب، ثم أمر بقدر ملئت زيتا، و أحميت حتى غلت، و نزع ثيابه ليلقيه فيها، فأتاه عقاب، فاختطفه، و حلق به فى الجوّ، و جعله فى هوّة على رأس جبل، فسقط إلى واد فيه حمأة منتنة، فانتبه مرعوبا، و قص ذلك على كهنته، فقالوا: نحن نخلصك منه بأن تعمل عقابا و تعبده، فإنه الذى خلصك فى نومك، فقال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۴۵

أشهد لقد قال لى: إعرف لى هذا المقام، و لا تنسه، فعمل عقابا من ذهب، و جعل عينيه جوهرتين، و وشحه بالجوهر، و عمل له هيكلا

لطيفا، و أرخى عليه ستور الحرير، و أقبلوا على تبخيره و قربانه، حتى نطق لهم، فأقبل عون على عبادته، و دعا الناس إلى ذلك، فأجابوه، ثم أمر فجمع له كل صانع بمصر، و أخرج أصحابه إلى صحراء الغرب لطلب أرض سهلة حسنة الاستواء يدخل إليها من مواضع صعبة، و جبال و عرة بحيث تقرب من مغيض الماء التى هى اليوم: الفيوم، و كانت مغيضا لماء النيل، حتى أصلحها يوسف عليه السلام ليجرى الماء منها إلى المدينة، فخرجوا، و أقاموا شهرا يطوفون حتى وجدوا بغيته، فلم يبق بمصر فاعل، و لا مهندس، و لا أحد له بصر بالبناء، و قطع الصخور، و نحتها، إلّا وجّه إليها، و أنفذ ألف رجل من الجيش، و سبعمائة ساحر لمعاونتهم، و أنفذ معهم الآلات و الأزواد على العجل و طريق هذه العجل إلى الفيوم فى صحراء الغرب واضحة من خلف الأهرام.

فلما تكامل له ما أراد من نحت الحجارة، خطوا المدينة فرسخين فى مثلهما، و حفروا فى الوسط بئرا جعلوا فيها تمثال خنزير من نحاس بأخلاط، و نصبوه على قاعدة نحاس، و وجهه إلى الشرق، و ذلك بطالع بيت زحل و استقامته و سلامته، و كان فى شرفه، و ذبحوا خنزيرا، و لطخوا التمثال بدمه فى وجهه، و بخروه بشىء من شعره، و حشوا جوفه بدمه، و شعره و عظامه و لحمه و مرارته، و جعلوا فى أذنيه من مرارته، و حرّقوا بقية الخنزير، و جعلوا رماده فى قلة من نحاس بين يدى التمثال، و نقشوه بآيات زحل، ثم شقوا فى البئر من الجهات الأربع فى كل جهة، سربا إلى حيطان المدينة، و عملوا على أفواهها منافس تجذب الهواء، و سدّوا البئر من الجهات الأربع قبة على عمد مرتفعة على حيطان المدينة، و جعلوا فيها شوارع يتصل كل شارع بباب من أبواب المدينة، و فصلوها بالطرقات و المنازل، و جعلوا حول القبة تماثيل فرسان من نحاس بأيديهما حراب، و وجوهها تجاه الأبواب، و جعلوا أساس المدينة من حجر أسود، فوقه حجر أحمر، عليه حجر أصفر، من فوقه حجر أخضر، و فوق الجميع حجر أبيض يشف، و كلها مبنية بالرصاص المصبوب بين الحجارة، و فى قلوبها أعمدة من حديد على بناء الأهرام، و جعلوا طول حصنها ستين ذراعا فى عرض عشرين، و على رأس كل باب حصن بأعلاه، عقاب كبير من صفر و أخلاط، قد نشر جناحيه، و هو أجوف، و على كل ركن فارس بيده حربة، و وجهه إلى خارج المدينة، و ساق الماء إلى الباب الشرقىّ ينحدر فى صبه إلى الباب الغربىّ، و يخرج إلى صهاريج، و كذلك من الباب الجنوبىّ إلى الشمالىّ، و قرّب للعقاب، عقبانا ذكورا، و اجتلب الرياح إلى أفواه التماثيل، فصار يسمع لها أصوات هائلة، و وكل بها أرواحا تمنع الداخل إليها، إلا أن يكون من أهلها.

و نصب العقاب الذى يتعبد له تحت القبة فى وسط المدينة على قاعدة بأربعة أركان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۴۶

على كل ركن، وجه شيطان، و جعلها على عمود يديرها، فكان العقاب يدور إلى الجهات، فيقيم فى كل جهة ربع السنة، فلما تمّ ذلك نقل إلى المدينة الأموال و الجواهر التى بمصر من عهد الملوك، و التماثيل و الحكم، و تراب الفضة و العقاقير و السلاح، و حوّل إليها كبار السحرة و الكهنة، و أصحاب الصنائع، و التجار و قسم المساكن بينهم، فلا يختلط أهل صناعة بسواهم و عمل بها ربضا لأصحاب المهن و الزراعة، و عقد على تلك الأنهار قناطر يمشى عليها الداخل إلى المدينة، و جعل الماء يدور حول الربض، و نصب عليها أعلاما و حرسا، ثم غرس وراء ذلك مما يتصل بالبرية النخل و الكرم، و جميع أصناف الشجر على أقسام مقسومة، و من وراء ذلك كله مزارع الغلات من كل جهة، كل ذلك خوفا من الوليد.

قال: و بين هذه المدينة، و بين منف ثلاثة أيام، و كان يقيم فيها و يخرج إليها، ثم يعود إلى منف و كان لها أربعة أعياد فى السنة، و هى: الأوقات التى يتحوّل العقاب فيها، فلما تمّ لعون ذلك، اطمأنّ قلبه، إلى أن وافى إليه كتاب الوليد من النوبة يأمره بحمل الأزواد، و نصب الأسواق، فوجه إليه فى البرّ و البحر، بما أراد و حوّل أهله و من اصطفاه من بنات الملوك و الكبراء إلى المدينة.

فلما قرب الوليد، خرج إليها و تحصن فيها، و استخلف على منف، فقدم الوليد، و قد سمع ما فعله عون، فغضب، و همّ أن يبعث إليه جيشا، فعرّف بخبر المدينة و منعتها، و خبر السحرة، فكتب إليه أن يقدم عليه، و يحذره عاقبة التخلف، فأجابه ما على الملك منى مؤنة و لا ـ تعرّض، و لا ـ عيب فى بلده لأنى عبده، و أنا له رده فى هذا المكان من كل عدوّ يأتيه من الغرب، و لا أقدر على المسير إليه

لخوفى منه، فليقرّنى الملك بحالى كأحد عماله، و أوجه إليه ما يلزمنى من خراجه و هداياه، و بعث إليه بأموال جليلة، و جوهر نفيس، فكف عنه، و أقام الوليد بمصر حتى مات.

ذكر مدينة الفيوم

اشارة

اعلم: أن موضع الفيوم كان مغيض ماء النيل، فلما ولى السيد يوسف الصدّيق عليه السلام تدبير، أمور مصر عمّرها. قال ابن وصيف شاه: ثم ملك الريان بن الوليد، و هو فرعون وسف، و القبط تسميه: نهر أوش، فجلس على سرير الملك، و كان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا متمكنا، فوعد بالجميل، و أسقط عن الناس خراج ثلاث سنين، و فرّق المال فى الخاص و العامّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٤٧

و ملك على البلد رجلا من أهل بيته يقال له: أطفين، و هو الذى يسميه أهل الأثر العزيز فأمر أن ينصب له فى قصر الملك سرير من فضة يجلس عليه، و يغدو فيه، و يروح إلى باب الملك، و يخرج العمال و الكتاب بين يديه، فكفى نهراوش، ما خلف ستره، و قام بجميع أموره، و خلاه للذته، فانغمس نهر أوش فى لهوه، و لم ينظر فى عمل، و لا ـ ظهر للناس حينا، و البلد عامر، و هو لا يسأل عن شيء، و عمل له مجالس من زجاج ملوّن، و حولها ماء فيه أسماك مفرطة و بلور ملوّن، فكان إذا وقعت عليه الشمس، ظهر له شعاع عجيب، و عملت له عدّة منتزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم فى موضع منها، و عمل له فى كل موضع من الآنية و الفرش ما ليس لغيره، فاتصل بملوك النواحى تشاغله بلذاته، و تدبير أطفين.

فسار ملك من العماليق يقال له: أبو قابوس عاكر بن ينحوم إلى مصر، و نزل على حدودها، فجهز إليه العزيز جيشا عليه قائد يقال له: بريانس، فأقام يحاربه ثلاث سنين، فظفر به العمليقىّ و قتله، و هدم الأعلام و المصانع، و قوى طمعه فى البلد، فاجتمع الناس إلى قصر الملك، و استغاثوا، فخرج إليهم و عرض جيوشه، و خرج فى ستمائة ألف مقاتل سوى الأتباع، فالتقوا من وراء الحوف، و كان بينهما قتال شديد، فانهزم العمليقىّ، و تبعه نهراوش إلى حدّ الشام، و قتل خلقا من أصحابه، و أفسد زروعهم، و أشجارهم، و حرّق و صلب، و نصب أعلاما على الأماكن التى وصلها وزبر عليها، أنى لمن تجاوز هذا المكان بالمرصاد.

و قيل: إنه بلغ الموصل، و ضرب على أهل الشام خراجا، و بنى عند العريش مدينة لطيفة، و شحنها بالرجال، و رجع إلى مصر، فحشد من جميع الأعمال جنودا، و استعدّ لغزو ملك الغرب، و خرج فى سبعمائة ألف، فمرّ بأرض البربر، و أجلى كثيرا منها، و جهز قائدا فى السفن من ناحية رقودة إلى جزائر بنى يافث، فعاث فيها، و خرج من ناحية أرض البربر، فقتل و صالح بعضهم على مال حملوه إليه، و مضى إلى إفريقية و قرطاجنة، فصالحوه على مال، و مرّ حتى بلغ مصب البحر الأخضر إلى بحر الروم، و هو موضع أصنام النحاس، فأقام هناك صنما زبر عليه، اسمه، و تاريخ خروجه، و ضرب على أهل تلك النواحى الخراج، و عدّى إلى الأرض الكبيرة.

و سار إلى الأندلس، فحاربه ملكها أياما، ثم صالحه على مال و أن يمنع من يغزو مصر من ناحيته، و انصرف على غير البحر مشرّقا فى بلاد البربر، فلم يمرّ بأمّه إلا ـ و دخلت فى طاعته، و مرّ فى الجنوب، فقتل خلقا و بعث قائدا إلى مدينة على البحر الأسود، فخرج إليه ملكها، و ذكر له حال الريان و مصالحة الملوك له، فقال: ما بلغنا أحد قط، و سأله القائد عن البحر هل ركبه أحد قط؟ فقال: ما يقدر أحد على ركوبه، و ربما أظله غمام، فلا يرى أياما.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٤٨

و قدم الريان، فحملوا الهدايا إليه و فاكهة أكثرها الموز، و حجارة سوداء إذا جعلت فى الماء صارت بيضاء، ثم سار الملك على أمم السودان إلى مملكة الدمدام الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عراة، فهزمهم و ظفر بهم، و مرّ على البحر المظلم، فغشيهم منه غمام،

فترجع شمالا حتى انتهى إلى تمثال من حجر أحمر يومئ بيده ارجعوا، و على صدره مزبور ما ورائى أحد، فسار إلى مدينة النحاس، فلم يصل إليها و مضى إلى الوادى المظلم، فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة، و لا يرون أحدا لشدّة ظلمته، و سار إلى وادى الرمل، فرأى على معبره أصناما عليها أسماء الملوك، فأقام عليه صنما زبر عليه اسمه، فلما أثبت الرمل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود، فرأى سباعا يزأر بعضها على بعض، فحكم أنه لا مذهب له من ورائها، فرجع و عدّى وادى الرمل، و مرّ بأرض العقارب فهلك بعض أصحابه، و دفعوا عن أنفسهم أذاها بالرقى و جازها إلى مدينة الحكماء، و تعرف بمدينة الكند، ففرّوا منه إلى جبل.

فأقام عليه أياما حتى كاد يهلك جيشه عطشا، فنزل إليه من الجبل رجل من أفاضل الحكماء، و قد لبس شعره جسده، فقال للملك: أين تريد أيها المغرور الممدود له فى الأجل المرزوق فوق الكفاية أتعبت نفسك، و جيشك ألا اجترأت بما تملكه، و اتكلت على خالقك، و ربحت الراحة، و تركت العناء و الغرر بهذا الخلق؟ فعجب من قوله و سأله عن الماء، فدله عليه، و سأله عن موضعهم فقال: موضع لا ـ يصل إليه أحد و لا ـ بلغه قبلك أحد، فقال: ما عيشك؟ قال: من أصول النبات نقنع به، و يكفينا اليسير، قال: فمن أين تشربون؟

قال: من الأمطار و الثلوج، قال: فلم هربتم منا؟ قال: زهادة فى مخالطتكم و إلا فليس لنا ما نخافكم عليه، قال: فكيف بكم إذا حميت الشمس؟ قال: نأوى إلى غيران تحت هذا الجبل، قال: فهل لكم فى مال أخلفه لكم؟ قال: إنما يريد المال أهل الترف، و نحن لا نستعمل منه شيئا استغنينا عنه بما قد اكتفينا به، و عندنا منه ما لو رأيته لاحتقرت ما عندك، قال: فأرنيه، فانطلق بنفر من أصحابه إلى أرض فى سفح جبلهم فيها قضبان ذهب ناتئة، و أراهم واديا لهم فى حافتيه حجارة زبرجد، و فيروز فأمر نهراوش أصحابه أن يحملوا من كبار تلك الحجارة، ففعلوا.

و رأى الحكيم جماعة الملك يصلون إلى صنم يحملونه معهم، فسأل الملك: أن لا يقيم بأرضهم، و خوّفه من عبادة الأصنام، فودّعه و سار، فلم يمرّ بأمّه إلا أثر فيها حتى بلغ النوبة، فصالحهم على مال، و أقام على دنقلة صنما، و زبر عليه اسمه و مسيره، و سار يريد مدينة منف، فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقونه بالفرح و السرور و الرياحين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٤٩

و الطيب إلى أن بلغ منف، فخرج أهلها إليه مع العزيز بأصناف الرياحين، و الطيب، و كان العزيز قد بنى له مجلسا من زجاج ملوّن و فرشه بأحسن فرش، و غرس حوله الأشجار و الرياحين، و جعل فيه بحرة من زجاج سماوىّ، و فى أرضه شبه السمك من زجاج أبيض، فنزل الملك فيه، و أقام الناس يأكلون و يشربون أياما كثيرة، و تفقد جيشه، ففقد منهم سبعين ألفا، و وجد فيهم ممن أسره نيفا و خمسين ألفا، فكانت مدّة غيبته عن مصرفى مسيرة هذه، إحدى عشرة سنة.

فلما بلغ الملوك قدومه هابوه، و اشتدّ بأسه، و تجبر و بنى فى الجانب الشرقىّ قصورا من رخام، و نصب عليها أعلاما، و أمر بالعمارة، و إصلاح الجسور، و استنباط الأراضى حتى زاد الخراج على مائة ألف ألف دينار.

و دخل إلى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه إخوته، و باعوه، و كانت قوافل الشام تعرّس بناحية الموقف اليوم، فوقف الغلام، و نودى عليه، و هو: يوسف الصدّيق ابن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه عليهم و سلامه، فاشتراه إطفين ليهديه إلى الملك.

فلما أتى به قصره، رأته امرأته زليخا، و هى ابنة عمه، فقالت: اتركه لنا نربيه لينفعنا، و كان من أمرها ما قصه اللّه تعالى فى القرآن، فكانت تكتم حبه حتى غلبت، فخلت به و تزينت له، و عرّفته أنها تحبه، و أنه و إن و اتاها على ما تريده منه حبته بمال عظيم، فامتنع من ذلك، و رأت أن تغلبه، فما زالت تعاركه، و هو ممتنع منها إلى أن وافى زوجها وراءه، و هو هارب منها، و كان العزيز عنينا لا يأتى النساء، فجعل يوسف يعتذر إليه و قالت: إنى كنت نائمة، فأتانى يراودنى عن نفسى، و تبين من شاهد أهلها أن الأمر من قبل امرأته، فقال ليوسف: أعرض عن هذا، أى عن اعتذارك، و قال لها: استغفر لذنبك، و قد كان خبر أطفين، و الغلام بلغ الملك، و

كان نهراوش عاود العكوف على اللهو و الاحتجاب عن الناس، و اتصل خبر زليخا و يوسف بنساء الخاصة، فعيرنها بذلك، فدعت جماعة منهنّ، و صنعت لهنّ طعاما و شرابا، و عملت مجلسين مذهبين و فرشتهما بديباج أصفر مذهب، و أرخت عليهما ستور الديباج، و أمرت المواشط بتزين يوسف و إخراجه من المجلس الذى يحاذى المجلس الذى كانت مع النسوة فيه، و كان المجلس محاذيا للشمس، فأخذته المواشط، و نظمن شعره بأصناف الجواهر، و ألبسنه ثوب ديباج أصفر، قد نسج بدارات حمر مذهبة فيها أطيار صغار خضر مبطن ببطانة خضراء، و من تحته غلالة حمراء، و على رأسه تاج قد نظم بالدرّ و الجوهر، و أخرجن من تحت التاج أطراف شعره على جبهته، و رددن ذوائبه على صدره، و جعلن جبهته مكشوفة، و التاج محيط بها، و فى أذنيه قرطى جوهر، و من خلف طوق القباء شعر مسبل بين كتفيه منظوم مشبك بالذهب و الجوهر، و فى عنقه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٥٠

طوق منظوم بذهب مشدّد بجوهر أحمر و درّ فاخر، و فى وسطه منطقة ذهب فيها لوالب جوهر ملوّن، و لها معاليق منظومة، و ألبسنه خفين أبيضين منقوشين بأخضر على نقوش ذهب، و جعلن للقباء الذى عليه و شاحين و إفراوز يحيط بأسفله و كميه من جوهر أخضر، و عقرين صدغيه على خديه، و كحلن عينيه، و دفعن إليه مذبة شعرها أخضر.

فلما فرغ النساء من طعامهنّ، و شربن أقداحا قدّمت إليهنّ سكاكين قبضهنّ من جوهر ليقطعن بها الفاكهة، فيقال: إنهنّ أخذن أترجا، و هنّ يقطعنه إذ قالت لهنّ: قد بلغنى حديثكنّ فى أمرى مع عبدى، فقلن لها: الأمر كما بلغك لأنك أعلى قدرا من هذا، و مثلك يرتفع عن أولاد الملوك لحسنك و شرفك، فكيف ترضين بغلامك؟ فقالت: لم يبلغكنّ الصدق، و لا هو عندى بهذا، و أو مأت إلى المواشط أن يخرجن يوسف، فرفعن الستور عن المجلس الذى يحاذى مجلسها، و برز منه يوسف محاذيا بوجهه الشمس، فأشرق المجلس، و ما فيه من وجه يوسف، و أقبل بالمذبة، و هنّ يرمقنه.

فوقف على رأس زليخا يذب عنها، فاشتغل النساء برؤيته، و جعلن يقطعن أيديهنّ موضع الفاكهة التى كانت معهنّ، و لا يعين الكلام ذهولا- منهنّ بما رأين من حسن يوسف! فقالت لهنّ زليخا ما لكنّ قد اشتغلتن عن خطابى بالنظر إلى عبدى؟ فقلن: معاذ اللّه ما هذا عبدك؟ إن هذا إلّا ملك كريم، و لم يبق منهنّ امرأة إلا حاضت، و أنزلت شهوة من محبته ، فقالت زليخا عند ذلك: فهذا الذى لمتنى فيه، فقلن: ما ينبغى لأحد أن يلومك فى هذا، و من لامك فقد ظلمك فدونكه، قالت: قد فعلت، فأبى علىّ، فخاطبنه لى.

فكانت كل واحدة منهنّ تخاطبه و تدعوه سرّا إلى نفسها، و تبتذل له، و هو يمتنع عليها فإذا يئست منه أن يجيبها لنفسها خاطبته من جهة زليخا، و قالت: مولاتك تحبك و أنت تكرهها، ما ينبغى أن تخالفها، فقال: ما لى بذلك حاجة، فلما رأين ذلك أجمعن على أخذه غصبا، فقالت زليخا: لا يجوز هذا لكنه إن لم يفعل لأمنعنه اللذات و لأسجننه و أنتزع جميع ما أعطيته، فقال يوسف: رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه، فأقسمت بإلهها و كان صنما من زبرجد أخضر باسم عطارد إنه إن لم يفعل لتعجلن له ذلك.

ثم أمرت بنزع ثيابه، و ألبسته الصوف، و سألت العزيز حبسه ليزول ما قذفها به، فأمر به فحبس، و رأى الملك فى منامه كأن آتيا أتاه، فقال له: إن فلانا و فلانا قد عزما على قتلك يريد صاحبى طعامه و شرابه، فلما أصبح قرّرهما فاعترفا له، و قيل: اعترف أحدهما، و أنكر الآخر فأمر بحبسهما، و كان اسم صاحب الطعم راسان، و اسم صاحب الشراب مرطس،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٥١

و كان يوسف عليه السلام و هو فى السجن رؤوفا بمن فيه، و يعدهم الفرج، فأخبره صاحبا طعام الملك و شرابه برؤياهما التى قصها اللّه فى كتابه، فوقع كما قصه يوسف، و رأى الملك البقرات و السنابل، فعرّفه الساقى خبر يوسف، فمضى إليه، و قصها عليه.

فلما عاد إلى الملك قال: جيئونى به، فقال يوسف: ما أخرج أو يكشف أمر النسوة اللاتى من أجلهنّ حبست، فكشف عن ذلك، فاعترفت زليخا بالقصة، و وجه إليه، فأخرج و غسل من درن السجن، و ألبس ما يليق بالدخول على الملوك، فلما رآه امتلأ قلبه من حبه و إكباره، و سأله عن الرؤيا ففسرها كما قال اللّه تعالى. فقال الملك: و من يقوم لى بذلك؟

قال: أنا، فخلع عليه خلع الملوك، و ألبسه تاجا و أمر أن يطاف به و ركب الجيش معه، و تردد إلى قصر الملك، و جلس على سرير العزيز، و استخلفه الملك على ملكه مكانه.

و يقال: إنّ العزيز إطفين، كان قد مات، فزوّجه امرأته، و قال لها يوسف: هذا أصلح مما أردت، فقالت: اعذرنى إنّ زوجى كان عنينا، و لم ترك امرأة إلّا صبا قلبها إليك من حسنك، و جاءت سنّو خصب فى مصر، فجمع يوسف الغلال، و خزنها و أكثر منها، فلما جاءت سنّو الجدب بدأ النيل فى النقصان، و كان ينقص كل سنة أكثر من التى قبلها، فقحط البلد حتى بيع القمح بالمال و الجوهر و الدواب و الثياب و الآنية و العقار، و كاد أهل مصر يرحلون عنها لو لا تدبير يوسف، و قحط الشام أيضا، و كان من مجىء إخوة يوسف ما قصه اللّه تعالى، و وجه إلى أبيه، فحمل إلى مصر و جميع أهله، و خرج فى وجوه أهل مصر، فتلقاه و أدخله على الملك، و كان يعقوب مهابا، فأعظمه الملك، و سأله عن سنه و صناعته و عبادته فقال: سنى عشرون و مائة سنة، و أما صناعتى فلنا غنم ترعى ننتفع بها، و أعبد رب العالمين الذى خلقك و خلقنى، و هو إله آبائى و إلهك و إله كل شىء.

و كان فى مجلس الملك، كاهن جليل القدر، فقال للملك: إنى أخاف أن يكون خراب مصر على يد ولد هذا، فقال له الملك: فأنّى لنا خبره، فقال الكاهن ليعقوب: أرنى إلهك أيها الشيخ، قال: إلهى أعظم من أن يرى، قال: فإنا نرى آلهتنا، قال: إن آلهتكم من ذهب و فضة و حجارة و جوهر و نحاس و خشب، مما يعمله بنو آدم، و هم عبيد، إلهى لا إله إلّا هو العزيز الحكيم، قال الكاهن: إنّ كل شىء لا تراه العيون ليس بشىء، فغضب يعقوب و كذبه، و قال: إنّ اللّه شىء لا كالأشياء و هو خالق كل شىء لا إله إلا هو، قال: فصفه لنا، قال: إنما يوصف المخلوق لكنه خالق واحد قديم مدبر أزلىّ يرى و لا يرى، و قام يعقوب مغضبا، فأجلسه الملك و أمر الكاهن، فكف عنه، فقال الكاهن: إنا نجد فى كتبنا أنّ خراب مصر يجرى على أيدى هؤلاء؟ فقال الملك: هذا يكون فى أيامنا؟ قال: لا، و لا إلى مدّة كثيرة، و الصواب: أن يقتله الملك و لا يبقى من ذريته أحدا، فقال الملك: إن كان الأمر كما تقول، فلا يمكننا أن ندفعه، و لا نقدر على قتل هؤلاء، و أنزل يعقوب و من معه بوادى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۵۲

السدير إلى أن مات، فحمل إلى قرية إبراهيم عليه السلام و دفن عنده.

و يقال: إنّ نهراوش الملك آمن، و كتم إيمانه خوفا من فساد أمره، و أقام ملكا مائة و عشرين سنة.

و فى وقته عمل يوسف الفيوم، فإنّ أهل مصر كانوا وشوا به إلى الملك، و قالوا: قد كبر و نقص نفعه، فاختبره فقال له: إنى وهبت هذه الناحية لابنتى، و كانت مغايض للماء، فدبرها لها، فعملها يوسف، و احتال للمياه حتى أخرجها، و قلع أو حالها و ساق المنهى، و بنى اللاهون، و جعل الماء فيها مقسوما موزونا، و فرغ منها فى شهور أربعة، فعجبوا من حكمته.

و يقال: إنه أول من هندس بمصر، و مات نهراوش: فخلف ابنه در مجوش و سمته أهل الأثر: دارم بن الريان، و هو الفرعون الرابع عندهم، فحالف سنة أبيه، و كان يوسف خليفته، فقبل منه بعضا و خالفه فى البعض، فمات يوسف فى أيامه، و له مائة و عشرون سنة، فكفن و جعل فى تابوت من رخام، و دفن فى الجانب الغربىّ، فأخصب و نقص الشرقىّ، فحوّل إليه، فأخصب و نقص الغربىّ، فاتفقوا على أن يجعلوه فى الشرقىّ عاما و فى الغربىّ عاما، ثم حدث لهم من الرأى أن يجعلوا له حلقا وثاقا، و يشدّوا التابوت فى وسط النيل، فأخصب الجانبان كلاهما.

و قال ابن عبد الحكم: فملكهم الريان بن الوليد بن دومع، و هو صاحب يوسف النبىّ صلى اللّه عليه و سلم، فلما رأى الملك رؤياه التى رأى، و عبره يوسف أرسل إليه الملك، فأخرجه من السجن.

قال ابن عباس رضى اللّه عنهما: فأتاه الرسول، فقال: ألق عنك ثياب السجن، و البس ثيابا جددا، و قم إلى الملك، فدعا له أهل السجن، و هو يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما أتاه رأى غلاما حدثا، فقال: أ يعلم هذا رؤياى و لا تعلمها السحرة و الكهنة؟ و أقعده قدّامه، و قال له: لا تخف، قال: فلما استنطقه، و سأله عظم فى عينيه، و جعل إليه أمره فدفع إليه خاتمه، و ولاه ما خلف بابه و ألبسه طوقا من

ذهب و ثياب حرير، و أعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك، و ضرب بالطبل بمصر: إنّ يوسف خليفة الملك.

و عن عكرمة: أن فرعون قال ليوسف: قد سلطنتك على مصر غير أني أريد أن أجعل كرسيّ أطول من كرسيك بأربع أصابع، قال يوسف: نعم و أجلسه على السرير، و دخل الملك بيته مع نسائه، و فوّض أمر مصر كلها إليه، فبسبب عبارة رؤيا الملك ملك يوسف مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۵۳

و عن الليث بن سعد قال: حدّثني مشيخة لنا قالوا: اشتدّ الجوع على أهل مصر، فاشتروا الطعام بالذهب حتى لم يجدوا ذهبا، فاشتروا بالفضة، حتى لم يجدوا فضة، فاشتروا بأغنامهم، حتى لم يجدوا غنما، فلم يزل يبيعهم الطعام حتى لم يبق لهم فضة و لا ذهب، و لا شاة و لا بقرة في تلك السنين، فأتوه في الثالثة فقالوا: لم يبق لنا إلا أنفسنا، و أهلونا و أرضونا، فاشترى يوسف أرضهم كلها لفرعون، ثم أعطاهم يوسف طعاما يزرعونه على أن لفرعون الخمس.

و يقال في خبر بناء يوسف عليه السلام: مدينة الفيوم أنه لما وزر لفرعون ثلاثين سنة عزله، فقال: لم عزلتني؟ فقال: لم أعزلك لريبة، و لا- أنسى بركتك، و لكن آبائي عهدوا إليّ أن لا يتولى لنا وزير أكثر من ثلاثن سنة، و إنا نخشى أن يتأصل الوزير حتى يدبر على الملك، فقال له يوسف: قد علمت نصحي لك، حتى صيرت ديار مصر كلها ملكا لك، فأقطعني أرضا تكون لقوتي و قوت أهلي و عشيرتي، فقال له فرعون: اختر حيث شئت، فمشي يوسف في قفار الأرض حتى رأى أرض الفيوم، و فيها جبل حائل بين النيل و بينها، فوزن ماء النيل حتى رأى أن قاعها يركبه النيل، فحرق خرقا في ذلك الجبل، و ساق الماء فيه إلى الفيوم، فسقى الأرض، و عمل في جوانب الماء، ثلثمائة و ستين قرية على عدد أيام السنة، و شحنها بالغلال، و الأقوات التي ازدرعها، فكان إذا نقص النيل، و وقع الجوع بأرض مصر، باع كل يوم، ما جمعه في قرية من قرى الفيوم، حتى ملك مصر لنفسه، كما جمعها للملك، فعظم شأن يوسف، و كثر ماله، فردّه الملك بعد مدّة إلى وزارته، و توفي و هو وزير، فأوصى بخروج جثته إلى الأرض المقدّسة، فخرج بها هارون بن إفراييم بن يوسف في مائة ألف من بني إسرائيل، فهزمته الجبابرة فيما بين مصر و الشام، و هلك أكثر من معه، و عاد بمن بقي معه إلى مصر، فأقاموا بها، حتى بعث اللّه موسى بن عمران عليه السلام إلى فرعون رسولا- فخرج ببني إسرائيل من مصر، و معه جثة يوسف عليه السلام.

و في ذلك الزمان استنبطت الفيوم، و قيل: كان سبب ذلك، أنّ يوسف عليه السلام لما ملك مصر، و عظمت منزلته من فرعون، و جاوز سنه مائة سنة، قال وزراء الملك له: إنّ يوسف قلّ عمله، و تغير عقله، و نفدت حكمته، فعنفهم فرعون، و ردّ عليهم مقالتهم و أساء اللفظ لهم، فكفوا، ثم عاودوه بذلك القول بعد سنين، فقال لهم: هلموا ما شئتم من أيّ شيء أختبره به.

و كان بلد الفيوم يومئذ يدعى الجوبة، و إنما كانت لمصالة ماء الصعيد، و فضوله فاجتمع رأيهم على أن تكون هي المحنة التي يمتحنون بها يوسف، فقالوا لفرعون: سل يوسف أن يصرف ماء الجوبة عنها، و يخرجه منها، فتزداد بلدا إلى بلدك و خراجا إلى خراجك، فدعا يوسف فقال: تعلم مكان ابنتي فلانة مني و قد رأيت إذا بلغت أن أطلب لها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۵۴

بلدا، و إني لم أصب لها إلا الجوبة، و ذلك إنه بلد بعيد قريب لا يرى بوجه من الوجوه إلا من غابة أو صحراء، و كذلك ليست هي تؤتى من ناحية من النواحي من مصر إلا من مفازة و صحراء، فالفيوم وسط مصر كمثل مصر في وسط البلاد، لأنّ مصر لا تؤتى من ناحية من النواحي إلّا من صحراء أو مفازة قال: و قد اقتطعتها إياها، فلا تتركن وجها، و لا نظرا إلا بلغته، فقال يوسف: نعم أيها الملك، متى أردت ذلك فابعث إليّ، فإني إن شاء اللّه فاعل ذلك، قال: إنّ أحبه إليّ و أرفعه، و أعجله، فأوحى إلى يوسف، أن تحفر ثلاثة خلج، خليجا من أعلى الصعيد من موضع كذا إلى موضع كذا، و خليجا شرقيا من موضع كذا إلى موضع كذا، و خليجا غربيا من موضع كذا إلى موضع كذا.

فوضع يوسف العمال، فحفر خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون ، و أمر البنائين أن يحفروا اللاهون، و حفر خليج الفيوم، و هو الخليج الشرقىّ، و حفر خليجا بقرية يقال لها: بنهمت، من قرى الفيوم، و هو الخليج الغربىّ، فخرج ماؤها من الخليج الشرقىّ، فصب فى النيل و خرج من الخليج الغربىّ، فصب فى صحراء بنهمت إلى الغرب، فلم يبق فى الجوبة ماء، ثم أدخلها الفعلة، فقطع ما كان فيها من القصب و الطرفاء، و أخرجه منها، و كان ذلك ابتداء جرى النيل، و قد صارت أرض الجوبة نقية برية، و ارتفع ماء النيل، فدخل فى رأس المنهى، فجرى فيه حتى انتهى إلى اللاهون، فقطعه إلى الفيوم، فدخل خليجها فسقاها، فصارت لجة من النيل، و خرج إليها الملك و وزراؤه و كان هذا كله فى سبعين يوما.

فلما نظر إليها الملك قال لوزرائه: أولئك هذا عمل ألف يوم، فسميت: الفيوم، و أقامت تزرع كما تزرع غوائط مصر.

قال: و قد سمعت فى استخراج الفيوم غير هذا، أنّ يوسف عليه السلام ملك مصر، و هو ابن ثلاثين، فأقام يدبرها أربعين سنة، فقال أهل مصر: قد كبر يوسف و اختلف رأيه، فعزلوه و قالوا: اختر لنفسك من الموات أرضا تقطعها لنفسك، و تصلحها و تعمل رأيك فيها، فإن رأينا من رأيك و حسن تدبيرك ما نعلم أنك فى زيادة من عقلك رددناك إلى ملكك، فاعترض البريّة فى نواحى مصر، فاختار موضع الفيوم، فأعطيها فشق إليها خليج المنهى من النيل، حتى أدخله الفيوم كلها، و فرغ من حفر ذلك كله فى سنة.

قال يزيد بن أبى حبيب: و بلغنا أنه إنما عمل ذلك بالوحى و قوى على ذلك بكثرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ۱، ص: ۴۵۵

الفعلة و الأعوان، فنظروا، فإذا الذى أحياه يوسف من الفيوم لا يعلمون له بمصر كلها مثلا و لا نظيرا، فقالوا: ما كان يوسف قط أفضل عقلا و لا رأيا و لا تدبيرا منه اليوم، فردّوا إليه الملك، فأقام ستين سنة أخرى تمام مائة سنة، حتى مات، و هو ابن ثلاثين و مائة سنة.

قال: ثم بلغ يوسف قول وزراء الملك، و إنه إنما كان ذلك على المحنة منهم له، فقال للملك: عندى من الحكمة و التدبير غير ما رأيت، فقال له الملك: و ما ذاك؟ قال: أنزل الفيوم من كل كورة من كور مصر أهل بيت، و آمر أهل كل بيت أن يبنوا لأنفسهم قرية، و كانت قرى الفيوم على عدد كور مصر، فإذا فرغوا من بناء قراهم، صيرت لكل قرية من الماء بقدر ما أصير لها من الأرض لا يكون فى ذلك زيادة، و لا نقص، و أصير لكل قرية شربا فى زمان لا ينالهم الماء إلّا فيه، و أصير مطأطئا للمرتفع، و مرتفعا للمطأطىء بأوقات من الساعات فى الليل و النهار، و أصير لها قبضات، فلا يقصر بأحد دون حقه، و لا يزداد فوق قدره، فقال له فرعون: هذا من ملكوت السماء؟ قال: نعم، فبدأ يوسف، فأمر ببنيان القرى و حدّد لها حدودا، و كانت أوّل قرية عمرت بالفيوم قرية يقال لها سانة، و هى القرية التى كانت تنزلها بنت فرعون، ثم أمر بحفر الخليج، و بنيان القناطر، فلما فرغوا من ذلك استقبل وزن الأرض، و وزن الماء، و من يومئذ حدثت الهندسة، و لم يكن الناس يعرفونها قبل ذلك، و كان أوّل من قاس النيل بمصر، يوسف، و وضع مقياسا بمنف.

قال جامعه: و فى التوراة: أن فرعون ألزم بنى إسرائيل البناء، و ضرب اللبن، فبنوا له عدّة مدن محصنة منها فيثوم و عرمسيس. قال الشارح: هى الفيوم، و حوف رمسيس، و فى زمان الريان بن الوليد، دخل يعقوب عليه السلام، و ولده مصر، و هم ثلاثة و سبعون نفسا ما بين رجل و امرأة، فأنزلهم يوسف ما بين عين شمس إلى الفرما، و هى أرض ريفية بريّة، و كان يعقوب لما دنا من مصر أرسل، يهودا إلى يوسف، فخرج إليه يوسف، فلقيه فالتزمه و بكى.

فلما دخل يعقوب على فرعون كلمه، و كان يعقوب شيخا كبيرا حليما حسن الوجه و اللحية جهير الصوت، فقال له فرعون: أيها الشيخ كم أتى عليك؟ قال: عشرون و مائة، و كان بهمن ساحر فرعون قد وصف صفة يعقوب و يوسف و موسى صلوات اللّه عليهم فى كتبه، و أخبر أن خراب مصر، و هلاك أهلها يكون على أيديهم، و وضع البربايات و صفات من تخرب مصر على يديه. فلما رأى يعقوب، قام إلى مجلسه، فكان أول ما سأله عنه أن قال: من تعبد أيها الشيخ؟ قال له يعقوب: أعبد اللّه إله كل شىء، فقال: فكيف تعبد من لا ترى؟ قال يعقوب: إنه أعظم و أجلّ من أن يراه أحد، قال: فنحن نرى آلهتنا؟ قال يعقوب:

إن آلهتكم من عمل أيدى بنى آدم من يموت و يبلى، و إنّ إلهى لأعظم و أرفع، و هو أقرب إلينا من حبل الوريد، فنظر بهمن إلى

فرعون فقال: هذا الذى يكون هلاك بلادنا على يديه؟

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۵۶

قال فرعون: أفى أيامنا أو فى أيام غيرنا؟ قال: ليس فى أيامك و لا أيام بنيك، قال الملك:

فهل تجد هذا فيما قضى به إلهكم؟ قال: نعم، قال: فكيف تقدر أن تقيل من يريد إلهه هلاك قومه على يديه؟ فلا يعبأ بهذا الكلام.

و عن كعب: أنّ يعقوب عاش فى أرض مصر ست عشرة سنة، فلما أحضرته الوفاة قال ليوسف: لا تدفنى بمصر، فإذا مت فاحملونى فادفنونى فى مغارة جبل جيرون، و جيرون مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام، و بينه و بين بيت المقدس، ثمانية عشر ميلا.

قال: فلما مات لطخوه بمرّ و صبر و جعلوه فى تابوت من ساج، فكانوا يفعلون به ذلك أربعين يوما، حتى كلم يوسف فرعون، فأعلمه: أنّ أباه قد مات، و إنه سأله أن يقبره فى أرض كنعان، فأذن له و خرج معه أشراف أهل مصر، حتى دفنه، و انصرف.

و قيل: قبر يعقوب بمصر، فأقام بها نحوا من ثلاث سنين، ثم حمل إلى بيت المقدس، و أوصاهم بذلك عند موته.

قال: ثم مات الريان بن الوليد، فملكهم من بعده ابنه دارم بن الريان، و فى زمانه توفى يوسف عليه السلام، فلما حضرته الوفاة قال: إنكم ستخرجون من أرض مصر إلى أرض آبائكم، فاحملوا عظامى معكم، فمات فجعلوه فى تابوت، و دفنوه فى أحد جانبى النيل، فأخصب الجانب الذى كان فيه، و أجدب الجانب الآخر، فحوّلوه إلى الجانب الآخر، فأخصب الجانب الذى حوّلوه إليه، و أجدب الآخر.

فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه، فجعلوها فى صندوق من حديد، و جعلوا فيه سلسلة، و أقاموا عمودا على شاطىء النيل، و جعلوا فى أصله سكة من حديد، و جعلوا السلسلة فى السكة، و ألقوا الصندوق فى وسط النيل، فأخصب الجانبان جميعا.

و كان سبب حمل عظام يوسف من مصر إلى الشام أنّ سارة ابنة أسر بن يعقوب عمّرت حتى صارت عجوزا كبيرة ذاهبة البصر، فلما سرى موسى عليه السلام ببنى إسرائيل غشيتهم ضبابة، حالت بينهم و بين الطريق أن يبصروه، و قيل لموسى: لن تعبر إلّا و معك عظام يوسف، قال: و من يدرى أين موضعها؟ قالوا: عجوز كبيرة ذاهبة البصر تركناها فى الديار، فرجع موسى، فلما سمعت حسه قالت: ما ردّك؟ قال: أمرت أن أحمل عظام يوسف، قالت: ما كنتم لتعبروا إلا و أنا معكم، قال: دلينى على عظام يوسف، فدلته عليها، فأخذ عظام يوسف معه إلى التيه .

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: خليل الرحمن صلوات اللّه عليهم أحد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۵۷

الأسباط الاثنى عشر ولد بأرض كنعان من بلاد الشام، و رأى الأحد عشر كوكبا، و الشمس و القمر له ساجدين، و عمره سبع عشرة سنة، و كاد إخوته على ذلك، و باعوه من قوم مدنيين، فساروا به إلى مصر، و باعوه لقائد فرعون، فأقام فى منزله اثنى عشر شهرا، ثم راودته امرأة العزيز عن نفسه، فاعتصم، و كذبت عليه، إلى أن حبس، و مكث فى السجن عشر سنين، و قيل غير ذلك، فلم يزل فى السجن إلى أن رأى الساقى و الخباز ذينك المنامين، و فسّر لهما يوسف و خرجا فأنسى الساقى يوسف سنتين إلى أن رأى الملك البقر و السنابل، فذكره، و أتاه فقص عليه الرؤيا و عبرها، فأخرج من السجن، و له حينئذ ثلاثون سنة، فاستوزره الملك، و من ذلك الوقت إلى أن صار يعقوب إلى مصر تسع سنين منها، سبع سنين من سنى الشبع، و سنتان من سنى الجوع، و كان ليعقوب فى السنة التى صار فيها إلى مصر، مائة سنة و ثلاثون سنة، و كان أهل بيته حينئذ سبعين نفسا، و منذ سار إلى مصر إلى أن ولد موسى عليه السلام، مائة و ثلاثون سنة أخرى.

فلما مضى له بمصر، سبع عشرة سنة توفى و عمره مائة و سبع و أربعون سنة، فخاف الأسباط حينئذ مقابلة يوسف إياهم، فقالوا: إنّ أباك أوصى أن تغفر ذنب إخوتك، فإنك و هم عبيد اللّه، إله أبيك، فبكى يوسف، و قال لهم: لا تحتاجون إلى ذلك، و وعدهم بخير تممه لهم، و مات يوسف و له مائة سنة و عشر سنين، و اللّه أعلم.

ذكر ما قيل فى الفيوم و خلجانها و ضياعها

قال اليعقوبىّ: كان يقال، فى متقدّم الأيام مصر و الفيوم لجلالة الفيوم، و كثرة عمارتها، و بها القمح الموصوف، و بها يعمل الخيش.

و حكى المسعودىّ: أنّ معنى الفيوم، ألف يوم.

قال القضاعىّ: الفيوم و هى مدينة دبرها يوسف النبىّ عليه السلام بالوحى، و كانت ثلثمائة و ستين ضيعة، تمير كل ضيعة منها مصر يوما واحدا، فكانت تمير مصر السنة، و كانت تروى من اثنى عشر ذراعا، و لا يستبحر ما زاد على ذلك، فإنّ يوسف عليه السلام اتخذ لهم مجرى و رتبه ليدوم لهم دخول الماء فيه، و قوّمه بالحجارة المنضدة، و بنى به اللّاهون.

و قال ابن رضوان : الفيوم يخزن فيه ماء النيل، و يزرع عليه مرّات فى السنة، حتى إنك ترى هذا الماء إذا خلى يغير لون النيل، و طعمه و أكثر ما تحسن هذه الحالة فى البحيرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ۴۵٨

التى تكون فى أيام القيظ سفط و نهيا، و صاعدا إلى ما يلى الفيوم، و هذه حالة تزيد فى رداءة أهل المدينة يعنى مصر، و لا سيما إذا هبت ريح الجنوب، فإنّ الفيوم فى جنوب مدينة مصر على مسافة بعيدة من أرضها.

و قال القاضى السعيد أبو الحسن علىّ بن القاضى المؤتمن، بقية الدولة أبى عمرو عثمان بن يوسف القرشىّ المخزومىّ فى كتاب المنهاج فى علم الخراج: و هذه الأعمال من أحسن الأشياء تدبيرا و أوسعها أرضا و أجودها قطرا، و إنما غلب على بعضها الخراب لخلوّها من أهلها، و استيلاء الرمل على كثير من أرضها، و قد وقفت على دستور عمله أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر بن الحسن بن إسحاق لذكر خلجان الأعمال المدثورة، و ما عليها من الضياع، و قد أوردته ههنا، و إن كان منه ما قد دثر، و منه ما تغيرت أسماؤه، و منه ما جهلت مواضعه بالدثور، و لكن أوردته ليعلم منه حال العامر الآن، و يستقصى به من له رغبة فى عمارة ما يقدر عليه من الغامر، و فى إيراده مصلحة ليعلم شرب كل موضع و نسخته.

دستور: على ما أوضحه الكشف من حال الخلج الأمّهات بمدينة الفيوم، و ما لها من المواضع و شرب كل ضيعة منها، و رسمها فى السدّ و الفتح و التعديل و التحرير، و زمان ذلك عمل فى جمادى الآخرة سنة اثنتين و عشرين و أربعمائة، تبتدىء بعون اللّه و حسن توفيقه بذكر حال البحر الأعظم الذى منه هذه الخلج، فنذكر مادّته التى صلاحه بصلاحها.

خليج الفيوم الأعظم: يصل الماء إلى هذا الخليج من البحر الصغير المعروف بالنهى ذى الحجر اليوسفىّ، و فوقه هذا البحر عند الجبل المعروف: بكرسىّ الساحرة من أعمال الأشمونين، و منه شرب بعض الضياع الأشمونية، و القيسية، و الأهناسية و على جانبيه ضياع كثيرة شربها منه، و شرب كروم ما له كروم منها.

قال الحجر اليوسفىّ: و الحجر اليوسفىّ جدار مبنىّ بالطوب، و الجير المعروف عند المتقدّمين بالصاروج، و هو الجير و الزيت، و بناؤه من جهة الشمال إلى الجنوب، و يتصل من نهايته من الجنوب بجدار بناؤه مثل بنائه على استقامة من الغرب إلى الشرق، و يحصره ميلان منه فى نهايته، و طوله مائتا ذراع بذراع العمل، و يتصل بهذا الجدار على طول ثمانين ذراعا منه من جهة الغرب نهاية الجدار الأعظم من الجنوب.

و فائدة بناء الجدار الأعظم ردّ الماء إذا انتهى إلى حدود اثنتى عشرة ذراعا إلى مدينة الفيوم، و طول ما يتصل منه الجدار الذى من جهة الغرب إلى الشرق، ثم يتصل بالميل، ثم ينخفض من حدود هذا الميل إلى ميل مثله يقابله من جهة الشمال خمسون ذراعا، و بعد ما بين هذين الميلين، و هو المنخفض مائة ذراع و عشرة أذرع، و مقدار المنخفض منه، أربعة أذرع، و هذا المنخفض هو الذى يسدّ بجسر من حشيش يسمى لبشا، و عرض ما يجرى عليه الماء، و هو موضع اللبش و ما قابله إلى جهة الشرق، أربعون ذراعا، و عليه مسكك اللبش

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٥٩

الثانى، و يتصل بهذا الميل إلى جهة الشمال، ما طوله ثلثمائة و اثنان و سبعون ذراعا، ثم يتصل به على نهاية هذا الطول، جدار يمرّ على استقامته إلى الحجر مبنىّ بالحجر طوله على استقامته إلى جهة الشرق، مائة ذراع، ثم ينخفض أيضا من حيث يتصل بهذا الجدار ما طوله، عشرون ذراعا، و قدر المنخفض منه ذراعان.

و هذا المنخفض أيضا يسدّ بجسر حشيش يسمى: اللكبد، و طول بقية الجدار إلى نهايته من جهة الشمال، مائة و ستة و ثلاثون ذراعا، و قبالة هذا بطوله منه مبلط، و فيه قناطر مبنية بالحجر كانت قديما تردّ الماء إلى اليوم من الخليج القديم الذى عنده السدود اليوم، و كان عليها أبواب، و عدّتها عشر قناطر قديمة، فيكون جميع ذرع الجدار الأعظم من نهايته، سبعمائة و اثنين و سبعين ذراعا بذراع العمل دون الجدار المعترض من الغرب إلى الشرق، و يمرّ هذا الجدار الأعظم من كلتا جهتيه جميعا، حتى يتصل بالجبل، فتوجد آثاره فى القيظ مرورا على غير استقامة، و عرضه مختلف، و كلما انتهى إلى سطحه، قلّ عرضه، و عرض أعلاه مع الظاهر من أسفله جميعا ستة عشر ذراعا، و فيه منافس يخرج منه الماء، و هى برابخ زجاج ملوّثة بشبه المينا و أزرق و سليمانىّ.

و هو من العجائب الحسنة فى عظم البناء و إتقانه، لأنه من الأبنية اللاحقة بمنارة الإسكندرية، و بناء الأهرام، فمن معجزته أن النيل يمرّ عليه من عهد يوسف عليه السلام إلى هذه الغاية، و ما تغير عن مستقرّه، و يدخل الماء من هذا البحر فى هذا الزمان إلى مدينة الفيوم من خليجها الأعظم ما بين أرض الضيعتين المعروفتين، بدمونة و اللاهون، و منه شرب هاتين الضيعتين و غيرهما سيحا، و منه شرب كرومها بالدواليب على أعناق البقر، و إن قصر النيل عن الصعود إلى سوادها، سقيت منه على أعناق البقر و زرعت، و ينتهى فى الخليج الأعظم إلى خليج يعرف بخليج الأواسى، و ليس عليه رسم فى سدّ و لا فتح و لا تعديل، و ينتهى إلى الضيعة المعروفة ببياض، فيملأ بركها و غيرها من البرك، و للبرك مقاسم يصل إلى كل مقسم منها لغايته، و مقدار شرب ما عليه، و ينتهى إلى الضيعة المعروفة بالأوسية الكبرى ، فمنه شربها من مقسمين لها، و برسمها باب، و منه يشرب نخلها و شجرها، و على هذا الحدّ طاحونة تعمل بالماء.

ثم ينتهى إلى ثلاثة مقاسم آخرها الضيعة المعروفة بمرطينة منها مقسم لها، و مقسم لقبالات عدّة، و المقسم الثالث يسقى أحد أحياء النخل، و بهذا الحىّ أسواق و بساتين قد خربت، و جميز دائر به، و كان بها بيوت فى أقنية النخل، ثم ينتهى إلى حىّ ثان على ضفة الأوّل، ثم ينتهى إلى الضيعة المعروفة بالجوبة، فيملأ بركها و ينتهى إلى ثلاثة مقاسم فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٦٠

صف، و فوقها خليج معطل و يشرب من هذه المقاسم عدّة ضياع، ثم ينتهى الماء من هذا الخليج إلى البطس، و هو نهايته، و على الخليج الأعظم بعد هذا أباليز شربها منه من أفواه لها سيحا، فإذا نضب ماء النيل، نصب على أفواهها برسم صيد السمك شباك.

ثم ينتهى الخليج الأعظم على يمنة من يريد الفيوم إلى خليج يعرف: بخليج

سمسطوس . منه شرب سمسطوس و غيرها، و أباليز كثيرة تجاوز الصحراء من المشرق منه، و من قبليه، و هى ما بين هذا الخليج، و خليج الأواسى.

ثم ينتهى الخليج الأعظم أيضا إلى:

خليج ذهالة. و منه شرب عدّة ضياع و عليه يزرع الأرز و غيره.

ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى ثلاث خلج ثم ينتهى إلى

خليج بينطاوة. و بهذا الخليج ثلاثة أبواب قديمة يوسفية سعة كل باب منها، ذراعان بذراع العمل، و يمرّ فيه الماء، و ينتهى أيضا إلى بابين يوسفيين، و رسم هذا الخليج أن يسدّ هو و سائر المطاطية على استقبال عشر تخلو من هاتور إلى سلخه، و يفتح على استقبال كهيك إلى عشر تبقى منه، ثم يسدّ إلى عشر تخلو من طوبة، ثم يفتح ليلة الغيطاس إلى سلخ طوبة، ثم يسدّ على استقبال أمشير إلى عشرة تبقى منه، ثم يفتح لعشر تبقى منه إلى عشر تخلو من برمهات، ثم يفتح إلى عشر تخلو من برمودة، ثم يعدل فى موضعه، و قد

خرب ما على بحريه من الضياع، و يشرب منه عدّة ضياع، و لهذا الخليج مغيض معمول تحت الجبل بقبو يخرج منه الماء فى زمان تكاثره.

ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى:

خليج دله. و هو من المطاطية، و حكمه فى السدّ، و الفتح، و التعديل، و التحسين كما تقدّم، و هو على يسرة من يريد المدينة، و له بابان يوسفيان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان و ربع، و منه شرب عدّة ضياع أمّهات و غيرها، و فى وسطه مفيض لزمان الاستبحار، يفتح فيفيض الماء إلى البركة العظمى، و فى أقصى هذه البركة أيضا مفيض له أبواب يقال: إنها كانت من حديد فإذا زادت فتحت الأبواب، فيمضى الماء إلى الغرب، و قيل: إنه يمرّ إلى سنترية، و كان على هذين الخليجين بساتين و كروم كثيرة تشرب على أعناق البقر.

و ينتهى الخليج الأعظم إلى

خليج المجنونة. سمى بذلك لعظم ما يصير إليه من الماء، و حكمه فى السدّ، و غيره على ما ذكر، و منه شرب ضياع كثيرة، و به تدار طواحين و إليه تصير مصالات مياه الضياع القبلية، و إلى بركة فى أقصى مدينة الفيوم تجاور الجبل المعروف بأبى قطران، و يلقى ما ينصب من مصالات الضياع البحرية فيها، و هى البركة العظمى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٦١

ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى:

خليج تلاله. و له بابان يوسفيان متينان مبنيان بالحجر سعة كل منهما ذراعان و ثلثا ذراع، و ليس فيه رسم سدّ، و لا فتح و لا تعديل، و لا تحييز إلا فى تقصير النيل، فإنه يحيز بحشيش، و منه شرب طوائف المدينة، و عدّة أراض و ضياع، و فيه فوهة خليج البطش الذى إليه مفاضل المياه، و فيه أبواب تسدّ حتى يصعد الماء إلى أراض مرتفعة بقدر معلوم، و إذا حدث بالسدّ حدث يفسده، كانت النفقة عليه من الضياع التى تشرب منه بقدر استحقاقها.

ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى خلجان من جانبيه فى قبليه و بحريه ثم ينتهى إلى:

خليج سموه. و هو على يمنة من يريد مدينة الفيوم، و هو من المطأطئة، و له بابان يوسفيان سعة كل منهما ذراعان و نصف، و حكمه حكم ما تقدّم، و منه شرب طوائف كثيرة، و عدّة ضياع، و ينتهى إلى أربعة مقاسم بأبواب، و إلى خلجان تسقى ضياعا كثيرة فيها.

خليج تبدود: فيه عين حلوة فإذا سدّ هذا الخليج سقى منها أراضى ما جاورها، و ظهرت هذه العين لما عدم الماء، و حفر هذا الموضع ليعمل بئرا، فظهرت منه هذه العين، فاكتفى بها، ثم ينتهى الخليج الأعظم إلى خلجان بها شاذروانات، و مقاسم قديمة يوسفية، و بها أبواب يوسفية، بها رسوم فى السدّ، و الفتح يشرب منها ضياع كثيرة، و رسم الترع أن يسدّ جميعها على استقبال عشرة أيام تخلو من هاتور إلى سلخه، و تفتح على استقبال كيهك مدّة عشرين يوما، و تسدّ لعشر تبقى منه إلى الغطاس، و تفتح يوم الغطاس إلى سلخ طوبة، و تسدّ على استقبال أمشير عشرين يوما، ثم تفتح لعشر تبقى منه إلى عشرين من برمهات، و تفتح عشرة أيام تخلو من برمودة، ثم تعدّل فيهتم بعمارتها، و لهم فى التعديل قسم تعطى منه كل ناحية شربها بالعدل بقوانين معروفة عندهم، و قد اختصرت أسماء الضياع التى ذكرها لخراب أكثرها الآن، و اللّه أعلم.

ذكر فتح الفيوم و مبلغ خراجها و ما فيها من المرافق

قال ابن عبد الحكم: فلما تمّ الفتح للمسلمين بعث عمرو بن العاص جرائد الخيل إلى القرى التى حولها، فأقامت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون بمكانها، حتى أتاهم رجل، فذكرها لهم، فأرسل عمرو معه ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفىّ فلما سلكوا فى المجابة لم يروا شيئا، فهمّوا بالانصراف، فقالوا: لا تعجلوا سيروا فإن كان قد كذب، فما أقدركم على ما أردتم، فلم يسيروا إلا قليلا، حتى طلع لهم

سواد الفيوم، فهجموا عليها، فلم يكن عندهم قتال، و ألقوا بأيديهم.

قال: و يقال: بل خرج مالك بن ناعمة الصدفيّ، و هو صاحب الأشقر على فرسه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٦٢

ينفض المجابة، و لا علم له بما خلفها من الفيوم، فلما رأى سوادها رجع إلى عمرو، فأخبره بذلك.

قال: و يقال بل بعث عمرو بن العاص، قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى أتى القيس، فنزل بها، و به سميت القيس، فراث على عمرو خبره، فقال ربيعة بن حبيش:

كفيت، فركب فرسه، فأجاز عليه البحر، و كانت أنثى فأتاه بالخبر، و يقال: إنه أجاز من ناحية الشرقية حتى انتهى إلى الفيوم و كان يقال لفرسه: الأعمى، و اللّه أعلم.

و قال ابن الكندىّ فى كتاب فضائل مصر: و منها كورة الفيوم، و هى ثلثمائة و ستون قرية دبرت على عدد أيام السنة لا تنقص عن الريّ، فإن قصر النيل فى سنة من السنين مار بلد مصر، كل يوم قرية، و ليس فى الدنيا ما بنى بالوحى غير هذه الكورة، و لا بالدنيا بلد أنفس منه، و لا أخصب، و لا أكثر خيرا، و لا أغزر أنهارا، و لو قايسنا بأنهار الفيوم، أنهار البصرة و دمشق، لكان لنا بذلك الفضل، و لقد عدّ جماعة من أهل العقل و المعرفة مرافق الفيوم و خيرها، فإذا هى لا تحصى، فتركوا ذلك، و عدّوا ما فيها من المباح مما ليس عليه ملك لأحد من مسلم، و لا معاهد يستعين به القوىّ و الضعيف، فإذا هو فوق السبعين صنفا.

و قال ابن زولاق فى كتاب الدلائل على أمراء مصر للكندىّ: و عقدت لكافور الإخشيدىّ، الفيوم فى هذه السنة يعنى سنة ست و خمسين و ثلثمائة، ستمائة ألف دينار و نيفا و عشرين ألف دينار.

و قال القاضى الفاضل: فى كتاب متجدّدات الحوادث، و من خطه نقلت، أنّ الفيوم بلغت فى سنة خمس و ثمانين و خمسمائة، مبلغ مائة ألف و اثنين و خمسين ألف دينار، و سبعمائة و ثلاثة دنانير.

و قال البكرىّ: و الفيوم معروف هنالك يغلّ فى كل يوم ألفى مثقال ذهبا.

مدينة النحريرية

كانت أرضا مقطعة لعشرة من أجناد الحلقة من جملتهم، شمس الدين سنقرّ السعدىّ، فأخذ قطعة من أراضى زراعتها، و جعلها اصطبلا لدوابه و خيله، فشكاه شركاؤه إلى السلطان الملك المنصور قلاون، فسأله عن ذلك فقال: أريد أن أجعله جامعا تقام فيه الخطبة، فأذن له السلطان فى ذلك فابتدأ عمارته فى أخريات سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، حتى كمل فى سنة خمس و ثمانين، فعمل له السلطان منبرا، و أقيمت به الجمعة، و استمرّت إلى يومنا هذا.

و أنشأ السعدىّ حوانيت حول الجامع، فلم تزل بيده حتى مات، و ورثها ابناه:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج ١، ص: ٤٦٣

عز الدين خليل، و ركن الدين، عمر، فباعاها بعد مدّة للأمير: شيخو العمرىّ، فجعلها مما وقفه على الخانكاه و الجامع اللذين أنشأهما بخط صليبة جامع ابن طولون خارج القاهرة، فعمرت هذه الأرض بعمارة الجامع، و سكنها الناس، فصارت مدينة من مدائن أراضى مصر بحيث بلغت أنوال القزازين فيها ، و ترقى سنقر السعدىّ فى الخدم حتى صار من الأمراء، و ولى نقيب المماليك السلطانية، و أنشأ المدرسة السعدية خارج القاهرة قريبا من حدرة البقر، فيما بين قلعة الجبل، و بركة الفيل فى سنة خمس عشرة و سبعمائة، و بنى أيضا رباطا للنساء، و كان شديد الرغبة فى العمائر محبا للزراعة كثير المال ظاهر الغنى، ثم إنه أخرج إلى طرابلس، و بها مات سنة ثمان و عشرين و سبعمائة.

تم الجزء الأوّل، و يليه الجزء الثانى و أوله: «ذكر تاريخ الخليقة»

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشـّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبرازِ المَرافِقِ و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨۵ الهجريّة الشمسيّة (=١۴٢٧ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويّة الوطنيّة: ١٠٨۶٠١۵٢٠٢۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢۵-٢٣۵٧٠٢٣- (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣۵٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهرانَ ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التِّجاريّة و المَبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠۴۵(٠٣١١)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فَرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - في حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹